

# الأمن في القرآن الكريم

د: عبد الرحمن بن علي أحمد ناشب

المحاضر بكلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب



الجنادرية للنشر والتوزيع

٢٠١٠



المملكة الأردنية الهاشمية  
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية  
(٢٠٠٩/٨/٣٠٤٧)

225

الناشب، عبدالرحمن

الأمن في القرآن الكريم / عبدالرحمن علي الناشب - عمان: دار  
الجنادرية، ٢٠٠٩

( ) ص

ر. ا: ٢٠٠٩/٨/٣٠٤٧

الواصفات: /القرآن//الإعجاز//الفاظ القرآن//الأمن/

\* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

## جميع الحقوق محفوظة لدار الجنادرية للنشر والتوزيع



جميع الحقوق محفوظة ويمنع طبع أو تصوير الكتاب أو إعادة نشره بأي وسيلة  
إلا بإذن خطي من الناشر وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

## دار الجنادرية للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - شارع الجمعية العلمية الملكية - مقابل البوابة الشمالية

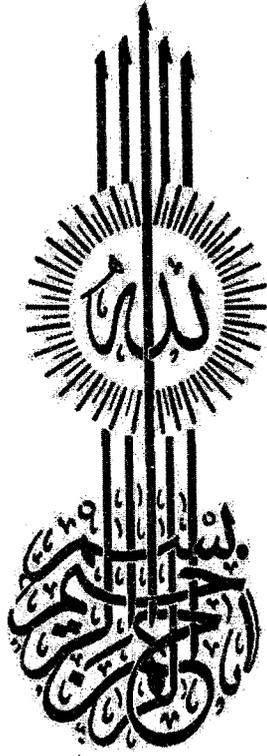
للجامعة الأردنية - هاتف ٥٣٩٩٩٧٩ ٦ ٥٣٩٩٩٧٩ ٦ ٥٣٩٩٩٧٩

فاكس ٥٣٩٩٩٨٠ ٦ ٥٣٩٩٩٨٠ ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن

Website: [www.aljanadria.com](http://www.aljanadria.com)

E-mail: [dar\\_janadria@yahoo.com](mailto:dar_janadria@yahoo.com)





﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

سورة البقرة: آية ٣٢



## المقدمة

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونتوب إليه، ونتوكل عليه، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فباسم الله نستفتح خزائن علمه، ونطرق أبواب حكمته، وبحمد الله نستقبل مواطن فضله، ونرجو المزيد من غيوث رحمته، وبالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم نتزود بخير زاد في صحبتنا لكتاب الله الذي نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين هدى ورحمة للعالمين.

فسبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، والصلاة والسلام على النبي الأمي، الذي بعثته في الأميين رسولاً يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أجلى غواشي الشرك من القلوب، وقشع ضلالات الجهل عن العقول، وهدى بالقرآن أمة ركبها الضلال، واستبد بها العمى، فصابها بصوب حكمته، وأدبها بأدب نبوته، وصاغها صياغة جديدة، فإذا هي أمة غير الامة، وأناس غير الناس، حتى استحققت أن تلبس هذا الوصف العظيم الذي وصفها الله به في كتابه الكريم إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>.

فالأمة الإسلامية هي أمة القرآن، إليه يُردُّ أهلها، وبه يعرف نسبها، ومنه نسجت وتنسج ما لبست وتلبس من حلال العز والكرامة والسيادة، ولن يمك عليها وجودها في هذا المقام الكريم إلا رعايتها للقرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ، وتمسكها بذلك واجتماعها عليه، ويم تفتن عزيمتها عن المضي معه، أو تسترخي يدها عن الشد عليها والتعلق بها، يوم يكون - ولا كان - ردتها إلى الجاهلية، وركسها في الضلال، ورعيها في الهمل مع الساتبة والهائمة، من حواشي الأمم ونفايات الشعوب.

وتاريخ المسلمين مع القرآن الكريم يشهد لذلك شهادة قائمة على هذا الحساب مقدره بهذا التقدير جارية معه طرداً وعكساً!!.

فإنه على قدر ما كان يقترب المسلمون من كتاب ربهم الكريم، ويقدر ما كانوا يراعون حقه ويؤدون أمانته، كان نصيبهم من الخير، وكان حظهم من السلامة في أنفسهم وأموالهم وأوطانهم!.

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.

والعكس صحيح، فإنه بقدر ما كان يبعد المسلمون عن كتاب ربهم، وبقدر ما يفرطون في حقه، ويستخفون بشأنه بقدر ما كان يُعدهم عن الخير، ودنوّهم من الخطر، وتعرضهم لأفات التفكك والانحلال.

وليس هذا شأن المسلمين وحدهم، بل هو شأن كل من يدعى إلى الخير فيلقاه معرضاً أو يصحبه على دخل وجفاء!

وفي واقع الحياة، وعلى مسرح أحداثها كثير من المثالات والعبير!

فبنو إسرائيل مثلاً أطعمهم الله خير طعام، تشبیه النفس، وتطيب معه الحياة... فأنزل عليهم المن والسلوى مائدة من السماء يجدونها حيث يشاءون حاضرة بين أيديهم، لا يتكلفون لها جهداً، ولا يبذلون من أجلها دانقاً أو درهماً ومع هذا فقد عافت نفوسهم هذا الطعام السماوي الطيب الكريم المحفوف بالرحمات والبركات وأبت عليهم نفوسهم اللئيمة الخبيثة إلا أن تضع فيها في التراب، وأن ترعى مع الأنعام وتأكل مما يأكل الحيوان. وقد كشف القرآن الكريم عن هذا الموقف اللئيم الذي وقفوه إزاء هذه النعمة الكريمة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۗ أَحْبَبُوا مَضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ﴾ (٢).

ونحن -المسلمين - ماذا كان منا اليوم في شأن هذا الكتاب الكريم الذي بين أيدينا؟ لقد أنزله الله علينا مائدة من السماء، حافلة بالطيبات من الرزق محملة بالكريم الغدق من النعم!

فذلكم هو: (القرآن الكريم) الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَّا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ (٣).

ففي مادية الله هذه الشفاء والرحمة، وإن المائدة التي أعدها الله للمسلمين، ووضعها بين أيديهم ليست على شاكلة تلك المائدة التي أنزلها على بني إسرائيل، طعاماً يغذي الأجسام ويشبع البطون.

(٢) سورة البقرة: آية ٦١.

(٣) سورة الإسراء: آية ٨٢.

إن المائدة الممدودة للمسلمين، مائدة يتغذي منها العقل والروح، فتخلق منها ملكات علوية، ووجدانات ربانية، بها يسمو الإنسان ويعلو، وبها ينتصر على هذا الضعف الإنساني، وينتصر على تلك النزعات الحيوانية المندسة في كيانه.

وفي هذه المائدة وتحت ظلها ينعم الناس بالأمن والطمأنينة، وتغشاهم الرحمة والسكينة فيسعد المجتمع وتستقيم الحياة، ويصدق فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وما أحوج الناس في هذا الزمن إلى الأمن -الأمن في كل شيء- خاصة بعد أن أصبحت الجريمة بشتى صورها وأشكالها عملاً مخططاً تقوم عليه جماعات، وتشرف عليه تنظيمات لها قوة الدول، ولم يعد المجرم مرفوضاً منبوذاً في مجتمع اليوم، لقد أصبح ظاهرة يشاد بها، تكتب مذكراته وتباع قصته في الإجرام بأموال كثيرة، وفي المقابل لم يعد المجتمع يجد من المقاومة ما يرد به موجات العنف التي تتنابه وتروّع الأمنيين فيه حيناً بعد حين. لقد فقد القانون نفوذه وسيطرته إلا من جوانب قليلة، ومع تكرار الجرائم في كل لحظة تبدلت الأحاسيس والمشاعر، ولم يعد يوجد بين الجماعات ما يسمى بالعقاب العرفي أو المقاومة السلبية التي تعزل المجرم عن المجتمع ولو إلى حين، ورأينا في قلب المجتمعات الكافرة فوضى اختلال القيم واهتزاز المبادئ وتفسخ الأخلاق.

في هذا الجو المعبأ بالفرع والخوف يعيش إنسان العصر الحديث، ويعيش مقهوراً مفزوعاً دون أن يجد له في المجتمع ملجأ وملاذاً، لأنه يعيش في مجتمع انتكست فيه فطرته وطمست معالم إنسانيته، مما جعل المصلحين والمفكرين الجادين وهم يرون المجتمع يسقط نحو الهاوية يصرخون ويطلبون النجدة والإنقاذ بتقديم البدائل التي تكفل للناس أدنى حد من الأمان والطمأنينة.

وفي ساحات البحث العلمي نرى علماء النفس وعلماء الاجتماع كلاً يدلي بدلوه محاولاً تشخيص المشكلة بقدر جهده البشري ووفق نفسه وهواه، ويحاول الدخول إلى مكامن النفس من غير أبوابها؛ أفكار بشرية تحمل بالضرورة طابع الأرض؛ لأن كل شيء فيها يخضع لقانون الزمان والمكان، وتحتمل الخطأ أكثر مما تحتمل الصواب، ويبقى الباب موصداً والكل حوله يدور ويدور.

لغز كبير ذلكم هو الإنسان متعدد الجوانب، الكل يحاول أن يطرق بابيه والكل يفشل؛ لأنه يطرق على الباب ولا يعرف أين المفتاح، مفتاح ذلك الإنسان اللغز لا يحدده إلا خالق هذا

(٤) سورة الأنعام: آية ٨٢.

الإنسان، ولا يمكن لعلل هذا الإنسان أن تعالج بأفكار من البشر فيها من الأخطاء أضعاف  
أضعاف ما فيها من الصواب.

ومن هنا وجب رد الأمر لصانعه، ووجب أن يكو التعامل مع هذا الدين من خلال  
المنهج الذي حدده الله خالق هذا الإنسان، وذلك مدخل لا تدعو إليه عاطفة دينية، وإنما يحتمله  
البحث العلمي، ويدعو إليه التجرد من الأهواء في بحث قضايا الإنسان.

مفتاح هذا الإنسان هو المنهج الذي حدده ورسمه رب هذا الإنسان، وكل جهود تبذل  
بعيداً عن هذا المنهج إنما هي هباء في هباء، وبين النقع المثار هنا وهناك تعقد الندوات  
والمؤتمرات بحثاً عن أمن الإنسان المفزع، لم نسمع لصوت المنهج الإسلامي صدئاً بين  
المؤتمرين والباحثين، وكأنما تفق الجميع على إبعاد الإسلام بطروحاته لتحقيق أمن الإنسان  
وسعادة الحياة.

(ذلك فضلاً عن اتهام ربما يوجه إليه بين الحين والحين بأنه هو صانع التطرف والهوس  
وموقد نار التعصب بالإرهاب والعنف، وتلك فرية يرفجف بها المرجفون ممن يملكون القلم  
ولا يملكون معه منطق البحث النزيه فضلاً عن أنهم لا يملكون الضمير والخلق).

ومع صحوة النفوس المؤمنة وإصرارها على أن تعيش آمنة مطمئنة في كنف دينها  
رأيت من واجبي أن أبسط هنا وفي مجال البحث العلمي رؤية أرجو أن تكون واضحة عن  
الأمن في القرآن الكريم.

### أسباب اختيار الموضوع:

أولها: سبق أن قمتُ بجمع آيات الأمن في القرآن الكريم وحينها لم تكن فكرة اختياره  
كموضوع أقدمه لبحثي قد اكتملت، ولكن بعد تجميع آياته رأيت أنه يشتمل على  
مواضيع مهمة محتاجة إلى بحث وتمحيص، فكان ذلك دافعاً قوياً لي بتخطيط هذا  
الموضوع، وتقديمه إلى قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمامة محمد  
بن سعود الإسلامية بالرياض.

ثانيها: احتياج العالم بأجمعه إلى هذا الموضوع - أعني منهج القرآن الكريم - في إسعادهم  
وإزالة كل دواعي الخوف والقلق الذي يلزم الناس المبتدئين عن هذا المنهج وخاصة  
في هذا الزمن، وذلك لما تميز به هذا المنهج من استيعاب لحركة الحياة والمجتمعات

في أبعادها الزمانية الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، ولأنه منهج يستوعب حاجات الناس كلها، وبالتالي فلن تشذ قضية الأمن بمفهومها العام (أمن الفرد والمجتمع، والأمن الاقتصادي والاجتماعي والسياسي) كحاجة من حاجات الفرد والمجتمع عن هذا المنهج.

بل لا نغالي إذا قلنا: إنها تبرز في هذا المنهج لا كحاجة فقط، وإنما كضرورة لا يستقيم للناس عيش ولا تهنأ لهم حياة بدونها.

**ثالثها:** إنها دعوة لا تتعلق بالمواقع المشرفة في حياة أسلافنا من هذه الأمة التي رضيت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ دستوراً ومنهجاً في حياتها فحسب، بل هي دعوة لمواجهة هزائم الواقع التي تسبب في وجودها غياب هذا المنهج عن حياتنا، وهي دعوة للتعامل مع هذا الواقع بعقل بصير وإدراك واع؛ لأنها تعني أن يتحصن الفرد والمجتمع ضد مواقع الفتن ومواطن الهزائم ومراتع الشهوات، وأن يتسلح الفرد والمجتمع بأسباب الأصالة والمقاومة ضد محاولات تفرغ المحتوى وغسل الأدمغة.

وهذه الأسباب تكمن في طاعة الله وتنفيذ أحكامه وتطبيق منهجه حماية للدين والنفوس والأعراض والعقول والأموال، وحماية للفرد والمجتمع من دوافع الجريمة وإجرام المجرمين.

كما أنها دعوة القصد منها تعديل حركة التواء الأعناق إلى الغرب أو الشرق ممن يعشقون الغربة الثقافية ويريدون أن يأتوا لبلادنا بضباب أوروبا أو جليد سيبيريا بدلاً من شمس الإسلام المشرقة.

وقبل الختام أودُّ الإشادة وتوجيه الشكر والتقدير إلى كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض على ما ساعدت ووافقت على قبول هذا البحث وما يلزمه من إشراف وغيره.

كما أشكر فضيلة المشرف على هذا البحث الأستاذ محمد بن عبد الرحمن الراوي حفظه الله ووقفه، الذي لم يأل جهداً في توجيهي وإرشادي والأخذ بيدي، والذي لم يبخل عليّ بشيء من جهده ووقته فجزاه الله خيراً، وعلى هذا في ميزان حسناته.

كما أشكر أساتذتي في كلية الشريعة وأصول الدين بالجانب على ما بذلوا معي من جهد وتوجيه وإرشاد، ولن أستطيع أن أوفيهم ما يستحقون فجزاهم الله خيراً، وأخص منهم الأستاذ الدكتور إبراهيم توفيق الدبيب، الذي بذل معي كل ما في وسعه ووقف إلى جانبي توجيهياً وإرشاداً، ولم يبخل عليّ بشيء من جهده ووقته، أسأل الله أن يجزل له المثوبة، وأن يجعل

ذلك في ميزان حسناته، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د: عبد الرحمن بن علي بن أحمد ناشب

المحاضر بكلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب

## تمهيد

إن الأمن مطلب نبيل تهدف إليه المجتمعات البشرية، وتتسابق لتحقيقه السلطات الدولية بكل إمكاناتها الفكرية والمادية؛ إذ أنه يحتل مكاناً بارزاً بين اهتمامات الناس في المجتمع لاتصاله المباشر بالحياة اليومية، وبما يوفره من طمأنينة في النفوس وسلامة في التصرف والتعامل.

والحاجة للأمن والبحث عنه قديمان قدم المجتمع الإنساني، فلكل عصر همومه وتطلعاته، ولكل جيل مشاكله واهتماماته، ما أن يحقق ببعضها أو يتغلب على البعض الآخر حتى يظهر غيرها، فالعلم مجموعة من المتغيرات تؤثر بصورة دائمة في حركته فتجعله دائم التغير والتطور، هكذا في الماضي وفي الحاضر أيضاً.

ولقد عاشت الأمم عبر العصور ساعية وراء البحث عن أمنها وطمأنيتها، وكان الاحتياج للأمن ملازماً لحياتها تسعى إلى تحقيقه وهو كالهارب منها، فتارة تشعر بأنها حققتة، وتارة كأنه طيف تعجز عن الإمساك به وإن خيل لها أحياناً أنه بين ذراعيها.

إن توفير الأمن عامل أساسي في حفظ الإنسان والمجتمع، ولا يمكن أن يبقى مجتمع متين البنية مزدهر النمو مستقر الأوضاع إذا لم تتحقق له سبل الطمأنينة والرفاهية والتغلب على العوز والمرض والجهل والاعتداء على النفس والمال والعرض.

ولكي يحقق مجتمع ما هذه الأهداف لا بد له من الإحاطة بحاجاته الأساسية وسبل تأمينها والتغلب على موانعها، ومعوقاتنا.

إذن فتحقيق الأمن يتطلب الوقوف على مقوماته وسبل الوصول إلى أهدافه.

وقد أعطى القرآن الكريم هذا الجانب اهتماماً كبيراً، لما له من أثر في توطين النفس البشرية على الرضى والاستسلام، والترقب، والاهتمام، وفق منطلق عقدي، جعل له التوجيه الإسلامي قاعدة متينة يرتكز عليها، وسنداً قوياً يدعمه، لتشد بذلك جوانب النفس حتى لا تتحرف أو تزيغ.

هذا إلى جانب ما شرعه الإسلام من أحكام حفظت التوازن في المجتمع وكلفت الرعاية التامة والأمن الوارف لكل أفراد المجتمع بما فرضت من أحكام تجعل كل من حاول إخافة المجتمع أو العبث بأمنه وطمأنينة يقف عند حده ويتعظ به غيره.

ولأهمية الأمن التي تفوق أهمية الغذاء جاء متقدماً على الرزق في دعاء أبينا إبراهيم عليه السلام حيثما قال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَّارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾<sup>(٥)</sup>. إذ أن توفر الأمن سبب في توفير الغذاء ولا طعم للغذاء إن وجد بلا أمن؛ إذ لا يمكن التلذذ بالغذاء مع الخوف والفرع وتوقع حلول المكروه في كل حين.

والأمن نعمة عظيمة لا يدرك قيمتها إلا فاقدها، وبإلقاء نظرة عابرة على واقع المجتمعات الكافرة نجد أنهم - مع ما وصلوا إليه من تقدم في مجالات الحياة المادية - يعيشون حالة من الخوف والرعب وفقد الطمأنينة والسكينة، ولهذا انتشرت فيهم الجريمة وكثرت حالات الانتحار نتيجة لانعدام الأمن النفسي، وهيهات أن يكون لهم ذلك إلا بالإسلام، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَتَهُمْ بِظُلْمٍ ءُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾<sup>(٦)</sup>.

فالإيمان بالله تعالى هو مبعث الأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة، وأعظم شاهد على هذه الحقيقة حالة العرب قبل بزوغ فجر الإسلام، فقد كانوا يعيشون حالة من الفوضى والاضطراب ديناً وسياسة واقتصاداً وأخلاقاً، كانوا يعبدون الأوثان، ويقربون لها القرابين وربما قتلوا أولادهم تقرباً إليها، وكانوا يندون البنات، وينتهكون الحرمات، ويرتكبون الفواحش والموبقات، ويتسلط قويهم على ضعيفهم، وتغير القبائل بعضها على بعض فتهب الأموال وتقتل الرجال، وتستباح النساء، كل هذا حدث لهم في ظل غياب الدين والعقيدة.

فلما أشرق فجر الإسلام ملأ حياتهم نوراً وراحة وأمناً وطمأنينة، وأدركوا أن هذا الدين هو المخرج الوحيد لهم مما هم فيه من الظلمات والضياح، قال تعالى: ﴿ ٱلرُّ كِتَابٌ ءَأَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ ءَعَزِيزٍ ءَحْمِيدٍ ﴾<sup>(٧)</sup>.

(٥) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٦) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٧) سورة إبراهيم: آية ١.

وقال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (٨).

إن هذا الدين هو المنهج الوحيد الذي يقوم على كلمة التوحيد، وتوطيد مكانة الإنسان في الكون وصيانة عقله وعرضه وماله وحرية وكرامته، ويجعل من المسلمين جسداً واحداً ووحدة متماسكة، وإن تناعت بينهم المسافات وتباعدت الديار، ومن هنا كان حرص الإسلام على محاربة الانحرافات، واقتلاع جذور الجريمة من المجتمع، وتعقبه لكل انحراف يحدث خلافاً في البنية النفسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية للأفراد والمجتمعات.

وقد وضع الإسلام من الوسائل ما يجعل الأفراد في المجتمع يهأون بالأمن والاستقرار دون خوف من أي عامل يهدد حياتهم بأي لون من ألوان التهديد، وسلك منهج الإسلام في ذلك مسائل شتى كالحدود والقصاص والتعازير، وقبل ذلك وبعده حقق العدل والمساواة ودفع الناس إلى الأخوة والإحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين خصوصاً الضعفاء والمرضى والمعوزين، وفرض الزكاة، وحث على الصدقة والبر بالنساء والحنو عليهم والرفقة بهم، ولهذه الوسائل مواضع أتحدث عنها بالتفصيل في مكانها من هذه الكتاب إن شاء الله.



# الباب الأول

المقصود بالأمن في القرآن الكريم



المقصود بالأمن في القرآن الكريم



## المقصود بالأمن في القرآن الكريم

## تمهيد

المقصود بالأمن في القرآن الكريم هو الأمن الذي تبحث عنه النفوس في كل شأن من شؤون الحياة، وكذا الأمن أثناء وبعد الممات، وقد جعل القرآن الكريم وهدى الرسول ﷺ محور هذا الأمن الإيمان الذي مقره القلب، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالنفس ومتطلباتها، كالأمن الصحي، والأمن النفسي، والأمن الغذائي، والأمن الاقتصادي والأخلاقي... وغير ذلك، أو ما يتعلق بالمجتمع وترابطه، كالأمن في الأوطان، والأمن على الأعراض، والأمن على الأموال والممتلكات وغيرها، أو ما يتعلق بالأمن على النفس من عقاب الله ونقمته، ويتحقق هذا الأمن بامتثال أمر الله ورسوله، واتخاذ طريق المتقين مسلكاً لكي تسعد النفس بكسب رضا الله واستجلاب رحمته والأمن من عذابه.

وكل هذه الأنواع من الأمن مطالب ملحة تسعى إليها البشرية في كل عصر، وفي كل مكان، وكل من حمل الزعامة في أي مجتمع وبيئة يدعو إليها؛ لأنها تلامس أوتار الخاصة والعامّة؛ ولأن النفس البشرية تبحث عن الأمن، ولا تدرك مدى الحاجة له والضرورة الملحة إليه إلا بفقدانه أو انخفاض مرتبة من مراتبه، ولئن كانت الزعامات البشرية تغفل عن الأمن الأخرى، والأمن من عقاب الله فإنما هذا عائد لنقص الإيمان لديها.

أما نظرة القرآن وتوجيهات رسول الله فإنها توصل الإيمان الذي يجعل النفس البشرية مطمئنة، تؤمن بما قدر الله وتستسلم لقضائه وتحسب ذلك عنده أجراً مدخراً.

## الفصل الأول

### تعريف الأمن في اللغة والاصطلاح:

جاء في معجم مقاييس اللغة: ( "أمن" الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق، والمعنيان كما قلنا متدانيان .

قال الخليلي<sup>(٩)</sup>: الأمانة من الأمن، والأمان: إعطاء الأمانة، والأمانة ضد الخيانة، يقال: أَمِنْتُ أَمَاناً وَأَمَنَةً وَأَمَاناً، وَأَمْنِي يُؤْمِنُنِي إِيمَاناً، والعرب تقول: رجل أَمَانٌ إِذَا كَانَ أَمِيناً<sup>(١٠)</sup>.

وقد جاء في مختار الصحاح في مادة "أ م ن": (الأمان والأمانة بمعنى، وقد أمن من باب فهم وسلم، و"أماناً" و"أمانة" بفتحتين فهو آمن، وأمنه غيره من الأمن والأمان، والإيمان: التصديق، والله تعالى "المؤمن" لأنه آمن عباده من أن يظلمهم.

والأمن ضد الخوف، والأمانة: الأمن كما مر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمِنَةً نُّعَاسًا﴾<sup>(١١)</sup>، والأمانة أيضاً: الذي يثق بكل أحد، وكذا الأمانة بوزن الهمزة، وأمنه على كذا وأمنه بمعنى<sup>(١٢)</sup>.

وجاء في كتاب المفردات تحت مادة "أمن": (أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمانة في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسماً لما يؤمن عليه الإنسان نحو قوله: ﴿وَتَخَوُّنُوا أَمْنَنِيكُمْ﴾<sup>(١٣)</sup>. أي: ما أتمنتم عليه، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١٤)</sup>. قيل: هي كلمة التوحيد، وقيل: العدالة، وقيل: حروف التهجي، وقيل العقل، وهو صحيح فإن العقل هو الذي لحصوله يتحصل معرفة التوحيد، وتجري العدالة، وتعلم حروف التهجي، بل لحصوله تعلم

(٩) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري، أبو عبد الرحمن، من أئمة اللغة والأدب، واضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، ولد ومات في البصرة وعاش فقيراص صابراً، له مؤلفات من أهمها: كتاب العين، مات سنة ١٧٠هـ. انظر: وفيات الأعيان ٢/٢٤٤، والأعلام ٢/١٣٤.

(١٠) معجم مقاييس اللغة ١/١٣٣، ١٣٤.

(١١) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

(١٢) مختار الصحاح، ص ٢٦، ٢٧.

(١٣) سورة الأنفال: آية ٢٧.

(١٤) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

كل ما في طوق البشر تعلمه، وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله، وبه فضلٌ على كير من خلقه» (١٥).

وجاء في لسان العرب تحت مادة "أمن: الأمان والأمانة بمعنى، وقد أمنت فأنا أمينٌ، وأمنت غيري من الأمان والأمان، والأمن ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة.

والإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق، ضده التكذيب، يقال: آمن به قومٌ وكذب به قوم، فأما أمنت المتعدي فهو ضد أخفته، وفي التنزيل العزيز ﴿وَأْمَنُكُمْ خَوْفٌ﴾ (١٦) (١٧).

قال صاحب جامع البيان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلَ بَيْتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ (١٨): (والأمن مصدر من قول القائل: أمن يأمن أماناً، وإنما سماه الله أمر لأنه كان في الجاهلية معاذاً لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه ولم يعرض له حتى يخرج منه، وكان كما قال الله جل ثناؤه ﴿أولم يروا أنا جعلنا آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ (١٩).

قال ابن زيد (٢٠). في قوله: ﴿وَأَمْناً﴾ قال: (من أم إليه فهو آمن، كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له) (٢١).

قال صاحب المحرر الوجيز في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلَ بَيْتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢٢) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٣). قال: (وأمناً معناه: أن

(١٥) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٥، ٢٦ تحقيق وضبط: محمد سعيد الكيلاني.

(١٦) سورة قريش. الآية ٤.

(١٧) لسان العرب ٢١/١٣.

(١٨) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

(١٩) سورة العنكبوت: الآية ٢٧.

(٢٠) هو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم المدني، روى عن أبيه وابن المنكدر وروي عن قتبية وهاشم وقد ضعفوه، من كتبه: التفسير، والناسخ والمنسوخ، مات سنة ١٨٢هـ، أخرج له الترمذي وابن ماجه. انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢٧١/١.

(٢١) جامع البيان في تفسير القرآن ٤٢٠/١، ٤٢١.

(٢٢) سورة البقرة الآيات: ١٢٥، ١٢٦.

الناس يغيرون ويقتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقي الرجل بها قاتل أبيه فلا يهيجه؛  
لان الله تعالى جعل لها

في النفوس حرمة وجعلها أمن للناس والطير والوحوش، وخصص الشرع من ذلك  
الخمس الفواسق على لسان النبي ﷺ (٢٣) (٢٤).

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا﴾ (معناه: من الجبابة والمسلطين والعدو المستأصل والمثلاث  
التي تحل بالبلاد، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفراً لا ماء فيه ولا نبات، فبارك الله فيما حولها  
كالطائف (٢٥) ونحوه، ونبتت فيها أنواع الثمرات) (٢٦).

وجاء في تفسير القرآن العظيم لهذه الآية ﴿وَأَذْجَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا﴾: (وأمناً من العدو،  
وأن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس حولهم وهم آمنون لا يسبون) (٢٧).

والتعريفات السابقة جميعها تدور في فلك واحد، ويُمكن تلخيصها في تعريف موجز يقول: الأمن  
لغة هو: ما تطمئن وتسكن به النفس بخلاف الخوف وهو ما تنزعج منه النفس وتضطرب.

## معنى الأمن في الاصطلاح:

### التعريفات اللغوية تدور حول ارتباط الأمن بالإيمان.

والأمن: هو كل ما دل على معنى الراحة والسكينة وتوفير السعادة للنفس وهو الذي تبحث عنه  
النفوس في كل شأن من شؤون الحياة، وقد جعل القرآن الكريم وكذلك هدي رسول الله ﷺ الإيمان الذي  
يقر في القلب ويصدق العمل هو محور هذا الأمن، سواء كان ذلك الأمن متعلقاً بالنفس ومتطلباتها  
كالأمن الصحي والنفسي والغذائي والاقتصادي...، أو كان متعلقاً بالأمن على النفس من عقاب الله  
ونقمتهن والذي يتحقق بامتثال أمر الله، وطاعة رسول الله ﷺ.

(٢٣) روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خمس من الدواب  
كلهن فاسق يقتلن في الحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفاة والكلب العقور". صحيح البخاري (كتاب جزاء  
الصيد، باب: ما يقتل المحرم من الدواب) رقم الحديث (١٨٢٩). فتح الباري ٤/٤: ٣٤.

(٢٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١/٣٥٢.

(٢٥) الطائف: بعد الألف همزة في صورة الياء ثم فاء، وهو في الإقليم الثاني، وعرضها إحدى وعشرون درجة،  
وبالطائف عقبة وهي مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصف يوم للهابط إلى مكة، وهو وادي وج وهو بلاد تقيف،  
بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً. انظر: معجم البلدان ١/١٠٤.

(٢٦) المرجع السابق ١/٣٥٥.

(٢٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/١٦٨.



إن تعريف الأمن في الاصطلاح: الأمان والاستقرار والهدوء، وصيانة الإنسان في نفسه ودينه وعرضه وماله وممتلكاته كلها من أي عدوان يهدد أمنه ويروغ حياته في أي شأن من الشؤون كلها، وتلك نعمة امتن الله بها على قريش<sup>(٢٨)</sup> حين أمنت في رحلتها من الجوع والخوف، قال تعالى: ﴿لِيَلْفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾<sup>(٢٩)</sup>.

## الفصل الثاني

### ذكر مادة (الأمن) في القرآن الكريم

أولاً:

#### ذكر مادة (الأمن) بنفها:

الآيات:

١- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَآخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾<sup>(٣٠)</sup>.

(٢٨) قريش: قبيلة عظيمة اختلف في تسميتها ونسبتها، فقالوا: قريش من القرش وهو الكسب والجمع، وقالوا: التقريش التفتيش، وقالوا: سميت بقريش بن مغلد بن غالب بن فهر وكان صاحب عيرهم، فيقولون: عير قريش، وقيل: الصحيح أنها سميت لاجتماعها من قولهم فلان يتقرش مال فلان أي: يجمعه شيئاً إلى شيء، وتنقسم إلى قسمين عظيمين: قرش البطاح، وقريش الطواهر، ويرجع الفضل في جمعهم وجعلهم قبيلة واحدة إلى قصي بن كلاب، من أشهر أيامهم أيام الفجار، ويوم حلف الفضول، وقد حاربت قريش النبي في عدة غزوات منها (بدر) و(أحد) وغيرهما. انظر: معجم قبائل العرب ٩٤٧/٢ وما بعدها.

(٢٩) سورة قريش: الآيات ١- ٤..

(٣٠) سورة البقرة: آية ١٢٥.

٢- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٣١).

٣- ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٣٢).

٤- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

٥- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً ۚ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ۚ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۚ وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهَا فَإِنَّهُ ءَاتَمَ قَلْبُهُ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٣٤).

٦- ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّمَهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّمَهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٥).

(٣١) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٣٢) سورة البقرة: آية ١٩٦.

(٣٣) سورة البقرة: آية ٢٣٩.

(٣٤) سورة البقرة: آية ٢٨٢.

(٣٥) سورة آل عمران: آية ٧٥.

٧- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَكَانَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

٨- ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۗ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۗ﴾ (٣٧).

٩- ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوهُ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزْلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيَدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۗ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ۗ﴾ (٣٨).

١٠- ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۗ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ۗ﴾ (٣٩).

١١- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٤١﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۗ﴾ (٤٠).

١٢- ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا مَنَعَهُ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ (٤١).

(٣٦) سورة آل عمران: الآيات ٩٦، ٩٧.

(٣٧) سورة النساء: آية ٨٣.

(٣٨) سورة النساء: آية ٩١.

(٣٩) سورة الأنعام: الآيات ٨١، ٨٢.

(٤٠) سورة الأعراف: الآيات: ٩٧، ٩٩.

(٤١) سورة التوبة: آية ٦.

١٣- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَىٰ يَوْسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ (٤٢).

١٤- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۗ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۗ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٤٣).

١٥- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يَوْسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (٤٤).

١٦- ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥).

١٧- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٤٦).

١٨- ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ (٤٧).

١٩- ﴿وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ (٤٨).

٢٠- ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٩).

٢١- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٥٠).

(٤٢) سورة يوسف: آية ١١.

(٤٣) سورة يوسف: آية ٦٤.

(٤٤) سورة يوسف: آية ٩٩.

(٤٥) سورة يوسف: آية ١٠٧.

(٤٦) سورة إبراهيم: آية ٣٥.

(٤٧) سورة الحجر: آية ٤٦.

(٤٨) سورة الحجر: آية ٨٢.

(٤٩) سورة النحل: آية ٤٥.

(٥٠) سورة النحل: آية ١١٢.

٢٢- ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَاكِيلًا ﴿٥١﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٥٢﴾.

٢٣- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ مِن الَّذِينَ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۗ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۗ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٣﴾.

٢٤- ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَلَهْنَا ءَامِينِينَ ﴿٥٤﴾.

٢٥- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فِرْعَ يَوْمِيذٍ ءَامِنُونَ ﴿٥٥﴾.

٢٦- ﴿وَأَنَّ أَلْقَىٰ عَصَاكَ ۗ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۗ يَمُوسَىٰ أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ ۗ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٥٦﴾.

٢٧- ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطَفُ مِّنْ أَرْضِنَا ۗ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾.

٢٨- ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِّنْ حَوْلِهِمْ ۗ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٨﴾.

(٥١) سورة الإسراء: الآيتان ٦٨، ٦٩.

(٥٢) سورة النور: آية ٥٥.

(٥٣) سورة الشعراء: آية ١٤٦.

(٥٤) سورة النمل: آية ٨٩.

(٥٥) سورة القصص: آية ٣١.

(٥٦) سورة القصص: آية ٥٧.

(٥٧) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

٢٩- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا  
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٥٨).

٣٠- ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرًا وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ  
سِيرُوا فِيهَا لِيُبَيِّنَ لِآيَاتِنَا وَأَيَّامِنَا ءَامِينِينَ ﴾ (٥٩).

٣١- ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
فَأُولَٰئِكَ هُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ (٦٠).

٣٢- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي  
ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ءَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٦١).

٣٣- ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِكَهَةٍ ءَامِينِينَ ﴾ (٦٢).

٣٣- ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ  
دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٦٣).

٣٤- ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿٦٤﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي  
السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۗ فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾ (٦٤).

٣٥- ﴿ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٦٥).

(٥٨) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

(٥٩) سورة سبأ: آية ١٨.

(٦٠) سورة سبأ: آية ٣٧.

(٦١) سورة فصلت: آية ٣٧.

(٦٢) سورة الدخان: آية ٥٥.

(٦٣) سورة الفتح: آية ٢٧.

(٦٤) سورة الملك: آية ١٦، ١٧.

(٦٥) سورة قريش: آية ٤.

إثبات (الأمن) بنفي نقيضه (٦٦):

الآيات:

- ١- ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧).
- ٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيَّةَ مِنْ ءَأْمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٨).
- ٣- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٩).
- ٤- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۖ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٠).
- ٥- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢١).
- ٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٢).

(٦٦) نقيض الأمن هو الخوف وقد سبق تعريفه مع الأمن في أول البحث.

(٦٧) سورة البقرة: آية ٢٨.

(٦٨) سورة البقرة: آية ٦٢.

(٦٩) سورة البقرة: آية ١١٢.

(٧٠) سورة البقرة: آية ٢٦٢.

(٧١) سورة البقرة: آية ٢٧٤.

(٧٢) سورة البقرة: آية ٢٧٧.

٧- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿٧٣﴾  
 فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَتَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ  
 أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٧٣).

٨- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۗ  
 أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ  
 لَآئِمٍ ۗ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٤).

٩- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَاتِ ۖ وَاللَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
 الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٧٥).

١٠- ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٧٦).

١١- ﴿ يَبْنَئِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ۖ فَمَنْ آتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا  
 خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٧٧).

١٢- ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ ۚ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ  
 وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٧٨﴾ أَهْتُولَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ادْخُلُوا  
 الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٧٨).

١٣- ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٧٩).

(٧٣) سورة آل عمران: آية ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٧٤) سورة المائدة: آية ٥٤ .

(٧٥) سورة المائدة: آية ٦٩ .

(٧٦) سورة الأنعام: آية ٤٨ .

(٧٧) سورة الأعراف: آية ٣٥ .

(٧٨) سورة الأعراف: الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .

(٧٩) سورة يونس: آية ٦٢ .

١٤- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (٨٠).

١٥- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (٨١).

١٦- ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۗ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۗ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۗ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۗ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٨٢).

١٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۗ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٨٤﴾ نِزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (٨٣).

١٨- ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٨٤).

١٩- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٨٥).

٢٠- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آهْدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۗ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ تَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (٨٦).

٢١- ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَتَهَا﴾ (٨٧).

(٨٠) سورة طه: آية ٧٧.

(٨١) سورة طه: آية ١١٢.

(٨٢) سورة الأحزاب: آية ١٩.

(٨٣) سورة فصلت: الآيات ٣٠ - ٣٢.

(٨٤) سورة الزخرف: آية ٦٨.

(٨٥) سورة الأحقاف: آية ١٣.

(٨٦) سورة الجن: آية ١٣.

(٨٧) سورة الشمس: آية ١٥.

ذكر (الأمن) بما يُماثله في المعنى :

### أ: ذكر (الأمن) بمعنى الأمانة

سبق التعريف بالأمانة: (والأمانة الأمن كما مر، قال تعالى: ﴿أمانة نعتاساً﴾ والأمانة أيضاً الذي يثق بكل أحد، وكذا الأمانة بوزن الهمزة) (٨٨).

الآيات:

١- ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفِّفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٨٩).

٢- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (٩٠).

(٨٨) مختار الصحاح، ص ٢٦.

(٨٩) سورة آل عمران: آية ١٥٤.

(٩٠) سورة الأنفال: آية ١١.

## ب: ذكر (الأمن) بمعنى الطمأنينة

### تعريف الطمأنينة:

جاء في الصحاح: (اطمأن الرجل اطمئناناً وطمأنينة: أي: سكن، وهو مطمئن إلى كذا وذاك مطمئن إليه)<sup>(٩١)</sup>.

وجاء في المحرر الوجيز: (" وطمأنينة القلوب" هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالاً به ورضي بالثواب عليه وجودة اليقين)<sup>(٩٢)</sup>.

والطمأنينة سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان، وبينهما وبين السكينة فرقان:

أحدهما: أن السكينة صولة تورث خمود الهيئة أحياناً، والطمأنينة: سكون أمن في استراحة أنس.

الثاني: أن السكينة تكون نعتاً وتكون حيناً بعد حين، والطمأنينة: سكون أمن في استراحة أنس، والطمأنينة موجب السكينة وأثر من آثارها وكأنها نهاية السكينة)<sup>(٩٣)</sup>.

### الآيات:

١- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ ۗ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّا يَظْمِنُ قَلْبِي ۗ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾<sup>(٩٤)</sup>.

٢- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾<sup>(٩٥)</sup>.

(٩١) الصحاح، ٤٩/٢.

(٩٢) انظر: المحرر الوجيز ٣٩/١٠.

(٩٣) انظر: مدارج السالكين ٥٣٦/٢.

(٩٤) سورة البقرة

(٩٥) سورة آل عمران: آية ١٢٦.

٣- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (٩٦).

٤- ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَعَنْتَنَا عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٩٧).

٥- ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٨).

٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٩٩).

٧- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١٠٠).

٨- ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ۗ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ۖ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠١).

٩- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٠٢).

١٠ ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ ۖ لَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا﴾ (١٠٣).

(٩٦) سورة النساء: آية ١٠٣.

(٩٧) سورة المائدة: آية ١١٢.

(٩٨) سورة الأنفال: آية ١٠.

(٩٩) سورة يونس: آية ٧.

(١٠٠) سورة الرعد: آية ٢٨.

(١٠١) سورة النحل: آية ١٠٦.

(١٠٢) سورة النحل: آية ١١٢.

(١٠٣) سورة الإسراء: آية ٩٥.

١١- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١٠٤).

١٢- ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٠٥﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ (١٠٥).

## ج: ذكر (الامن) بمعنى السكينة

### تعريف السكينة:

جاء في مختار الصحاح تحت مادة "س ك ن": (سكن الشيء من باب دخل والسكينة الوداع والوقار) (١٠٦).

وجاء في فتح البيان: ("السكينة" فعيلة مأخوذة من السكون والوقار أي: الطمأنينة) (١٠٧).

قال صاحب المدارج: (السكينة: ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه وسكونه وزوال قلقه واضطرابه كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته) (١٠٨). والله سبحانه أعلم.

### الآيات:

١- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِمْ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٠٩).

(١٠٤) سورة الحج: آية ١١.

(١٠٥) سورة الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨.

(١٠٦) مختار الصحاح، ص ٣٠٧.

(١٠٧) فتح البيان في مقاصد القرآن، ٧٢/٢.

(١٠٨) مدارج السالكين ٥٣٨/٢

٢- ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١١١).

٣- ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٢).

٤- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١٣).

٥- ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١١٣).

٦- ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (١١٤).

تأملات في ظلال الآيات السابقة:

الحياة كنوز ونفائس، ...، وأعظمها الإيمان بالله، وطريقها ومنارها القرآن الكريم، فالإيمان إشعاعه أمان، والأمان يبعث الأمل، والأمل يثمر السكينة، والسكينة نبع للسعادة، والسعادة حصادها أمن وطمأنينة وهدوء نفسي، فلا سعادة للإنسان بلا سكينة نفس، ولا سكينة نفس بغير إيمان القلب.

(١٠٩) سورة البقرة: آية ٢٤٨.

(١١٠) سورة التوبة: آية ٢٦.

(١١١) سورة التوبة: آية ٤٠.

(١١٢) سورة الفتح: آية ٤.

(١١٣) سورة الفتح: آية ١٨.

(١١٤) سورة الفتح: آية ٢٦.

ومما لا شك فيه أن كل إنسان يبحث عن السعادة ويسعى إليها، فالسعادة هي جنة الأحلام التي ينشدها البشر جميعاً، من الفيلسوف في تفكيره وتجريده إلى العامي في سذاجته وبساطته، ومن الملك في قصره المشيد إلى الفقير في كوخه الصغير، ولا تحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه أو يرضى بتعاستها.

فأين السعادة؟ وكيف الوصول إليها، والاهتداء إلى مواضعها؟

لقد طلبها الأكثرون في غير مواضعها، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ في الصحراء، صفر اليدين، مجهود البدن، كسير النفس، خائب الرجاء.

أجل جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية فما وجدوها - وحدها - تحقق السعادة أبداً، وربما زادتهم مع كل جديد منها هماً جديداً، فالسعادة ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة، ولا العلم المادي.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه... صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانسراح صدر، وراحة ضمير، السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه.

السعادة كنز لا يملك بشر أن يعطيها، ولا يملك أن ينزعها، السعادة التي شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال: إننا نعيش في سعادة لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجلدونا عليه بالسيوف<sup>(١١٥)</sup>.

هذه السعادة التي أثمرت الأمن والأمل والرضا والحب وأودعتها في كيان الإنسان سكينه تجلب الهناء والاستقرار والأمن الروحي والقلبي الكامل.

هذه السكينة هي التي غمرت قلب رسول الله ﷺ يوم الهجرة فلم يغيره. هم ولا حزن، ولم يستبد به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا قلق.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١١٦)</sup>.

(١١٥) الوابل الصيب لابن القيم ص ٩٧.

(١١٦) سورة التوبة: آية ٤٠.

لقد غلبت على صاحبه مشاعر الخوف والإشفاق، لا على نفسه وحياته، بل على رسول الله ﷺ وعلى مصير الرسالة، حتى قال والأعداء محدقون بالغار<sup>(١١٧)</sup>: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا، فيقول الرسول ﷺ مثبتاً: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟"<sup>(١١٨)</sup>.

هذه السكينة روح من الله ونور، يسكن إليه الخائف، ويطمئن عنده القلق، وينسلى به الحزين، ويتروح به المتعبن ويقوى به الضعيف، ويهتدي به الحيران.

هذه السكينة رحمة ونعمة من الله يمنحها للمؤمنين من عباده، منها تهف عليهم نسماتها، وتشرق عليهم أنوارها، ويفوح شذاها، جزاء ما قدموا من خير ويربهم نموذجاً صغيراً لما ينتظرهم من نعيم.

فإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية والقلب الإنساني، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها وضياؤها...، والقرآن الكريم النبع الفياض الذي لا ينضب هو نور هذا الإيمان والسلوك الأمثل الذي يجب على الإنسان يسلكه ويقتدي به، وهو الطريق السوي إلى تحقيق السعادة والهناء، والأمن والطمأنينة للنفس الإنسانية، إذ أن فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها، إنه يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن... ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى، وهذه الملكات تتفعل حينما تسمع القرآن وحينما يقرأ؛ ولذلك حرص الكفار على ألا يسمع أحد القرآن حتى الذي لم يؤمن به؛ لأن كل من يسمع القرآن يجد له تأثيراً وحلاوة... قد لا يستطيع أن يفسرها، ولكنها تجذبه إلى الإيمان، هذه الخاصية لم تكن في البشر فحسب بل الجن أيضاً ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدَىٰ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿١١٩﴾﴾.

لقد كان أئمة الكفر يخافون من سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه، ولو كان القرآن لا يعطي شيئاً من هذان ولا يخاطب الملكات الخفية في النفس لما اهتم الكفار بأن يسمه أحد أو لا يسمعه، ولكن شعورهم بالقوة والقدرة للقرآن على النفس البشرية جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط بل ويعتدون على من يتلوه، ولا يمكن أن يكون هذا مسلكهم وتلك طريقتهم إلا خوفاً مما يفعله القرآن في النفس البشرية... كيف يستطيع أن يؤثر فيها وأن يجذب النفس

(١١٧) هو النار الواقع في جبل ثور، وهو الذي اختبأ فيه النبي ﷺ وصاحبه عند الهجرة، وجبل ثور من أعظم جبال مكة، ويقع بين مكة وعرفة. انظر: معجم البلدان ١٠٠٠/٢، وشفاء الغرام ٢٨٢/١.

(١١٨) أخرجه البخاري - (كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم) رقم الحديث (٣٦٥٢). فتح

الباري ٨/٧، ٩، والإمام أحمد في مسنده ٤/١.

(١١٩) سورة الجن: الآيات ١، ٢.

الكافرة أو غير المؤمنة إلى الإيمان، وتلك من معجزات القرآن الكريم ﴿الْم ٥١﴾ ذَلِكَ  
الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ  
يُوقِنُونَ ﴿٥٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٥﴾.

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن الكريم وتدبرنا آياته، وتأملنا  
موضوعاته واهتماماته نستطيع أن نصفه بأنه كتاب الإنسان، فالقرآن كله إما حديث إلى  
الإنسان، أو حديث عن الإنسان.

وإذا نظرنا إلى الشخص الذي جسد الله فيه الإسلام وجعله مثلاً حياً لتعاليمه، وكان خلقه  
القرآن، نستطيع أن نصفه بأنه الرسول الإنسان، وسيرته هي سيرة النبي الإنسان.

إن كل دارس للإسلام في كتاب الله وسنة رسوله يتبين بجلاء: أنه وجه عناية بالغة إلى  
الجانب الإنساني وأعطاه مساحة رحبة من رقة تعاليمه، وتوجيهاته، وتشريعاته.

لقد نزل القرآن الكريم أساساً لهداية الناس، ولدعوتهم إلى عقيدة التوحيد، ولتعليمهم قيماً  
جديدة، وأساليب جديدة من التفكير والحياة، لإرشادهم إلى السلوك السوي السليم الذي فيه  
صلاح الإنسان وخير المجتمع، ولتوجيههم إلى الطرق الصحيحة لتربية النفس وتنشئتها تنشئة  
سليمة تؤدي بهم إلى بلوغ الكمال الإنسان الذي تتحقق به سعادة الإنسان وأمنه وطمأنينته في  
الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة ﴿إِن هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ  
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٥٦).

جاء في معالم التنزيل: ﴿إِن هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: إلى الطريق  
التي هي أصوب، وقيل: الكلمة التي هي أعدل، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، (٥٧).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى  
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٨).

(١٢٠) سورة البقرة: الآيات ١- ٥.

(١٢١) سورة الإسراء: آية ٩.

(١٢٢) معالم التنزيل للبخاري: ٥/٨٠.

(١٢٣) سورة يونس: آية ٥٧.

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (١٢٤).

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۗ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٢٥).

﴿ هٰذَا بَصِيْرٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ ﴾ (١٢٦).

هذا هو القرآن الكريم الذي له الأثر العظيم في نفوس العرب، فقد غيّر شخصياتهم تغييراً تاماً، وغيّر أخلاقهم وسلوكهم، وأسلوب حياتهم، وكوّن منهم أفراداً ذوي مبادئ وقيم إنسانية نبيلة، وكوّن منهم مجتمعاً متحداً منظماً متعاون فاستطاعوا أن يهزموا أكبر دولتين في العالم في ذلك الوقت، وانتشروا في معظم بلاد العالم، وقاموا بنشر دعوة الإسلام فيها، فتغير المجتمع تغييراً لم يعرف له نظير في جميع الدعوات العقائدية التي ظهرت عبر العصور التاريخية المختلفة.

وبالرغم من الجهود الكثيرة التي تبذلها المجتمعات الحديثة في ميادين التربية والتعليم لتوجيه النشء وتعليمهم وإرشادهم لكي يكونوا مواطنين صالحين، إلا أن هذه الجهود لم تثمر الثمرة المرجوة في تكوين المواطنين الصالحين، فالجرائم والانحرافات المنتشرة في جميع المجتمعات لدليل واضح على فشل أساليب التربية الحديثة وعجزها عن تكوين المواطنين الصالحين؛ لذلك بدأت بعض هذه المجتمعات تنادي بأهمية الدين في الصحة النفسية في علاج الأمراض النفسية وترى أن في الإيمان بالله قوة خارقة تمد المؤمن بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاق الحياة، وتجنبه القلق، وتكسبه الطمأنينة والسكينة التي تزيل عنه الهموم وتكسبه السعادة التي فيها راحة الإنسان وأمنه واستقراره.

إن للإيمان تأثيراً عظيماً في نفس الإنسان، فهو يزيد من ثقته بنفسه، ويزيد قدرته على الصبر وتحمل مشاق الحياة، ويبث الأمن والطمأنينة في النفس، ويبعث على راحة البال، ويغمر الإنسان بالشعور والسعادة، وأنه السبب الرئيسي لشفاء النفس من أمراضها، وتحقيق الشعور بالأمن، والوقاية من الشعور بالقلق، وما قد ينشأ عنه من أمراض نفسيه، فالإيمان إذا ما بث في نفس الإنسان منذ الصغر فإنه يكسبه مناعة ووقاية من الإصابة بالأمراض النفسية، وقد بين القرآن ما يحدثه الإيمان من أمن وطمأنينة في نفس المؤمن بقوله - حكاية عن

(١٢٤) سورة الإسراء: آية ٨٢.

(١٢٥) سورة فصلت: آية ٤٤.

(١٢٦) سورة الجاثية: آية ٢٠.

إبراهيم عليه السلام :- ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (١٢٧).

جاء في تفسير الكشاف: (( وَكَيْفَ أَخَافُ )) لتخويفكم شيئاً مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه (و) أنتم ( وَلَا تَخَافُونَ ) ما يتعلق به كل مخوف وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه ( سُلْطَانًا ) أي: حجة؛ لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة كأنه قال: ومالكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف؟، ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ احترازاً من تركية نفسه، فعدل عنه إلى قول: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ يعني فريقي المشركين والموحدين، ثم استأنف الجواب عن السؤال بقول: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم (١٢٨).... (١٢٩).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١٣٠).

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَجِدْ لَهُ أَجْرًا كَثِيرًا ﴾ (١٣١).

فالمؤمن تتحقق له سكينه النفس وأمنها وطمأنينتها؛ لأن إيمانه الصادق بالله يمهده بالأمل والرجاء في عون الله ورعايته وحمايته له، فالمؤمن دائم التوجه إلى الله تعالى في عبادته، وفي كل ما يقوم به من أعمال ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى؛ ولذلك فهو يشعر أن الله تعالى معه دائماً، وهو في عونه دائماً، وأن شعور المؤمن بأن الله تعالى في عونه كفيلاً بأن يبث في نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة.

(١٢٧) سورة الأنعام: الأيتان ٨١، ٨٢.

(١٢٨) الزمخشري يفسر الاعتزال في تفسيره لهذه الآية، ولكن العبرة بما قال رسول الله ﷺ لأصحابه حينما شق عليهم نزول قوله تعالى: ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: ليس بالذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ إنما هو الشرك. وليس المراد المعصية المطلقة كما زعم الزمخشري وغيره من المعتزلة.

والحديث أخرجه البخاري - (كتاب تفسير القرآن، باب: ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) رقم الحديث (٤٦٢٩). فتح

الباري ٢٩٤/٨

(١٢٩) الكشاف ٣٢/٢، ٣٣.

(١٣٠) سورة الرعد: آية ٢٨.

(١٣١) سورة التغابن: آية ١١.

إن المؤمن بالله إيماناً صادقاً لا يخاف من شيء في هذه الحياة الدنيا، فهو يعلم أنه لا يمكن أن يصيبه شر أو أذى إلا بمشيئة الله تعالى، ولا يمكن لأبي إنسان أو لأية قوة أخرى في هذه الحياة أن تلحق به ضرراً أو تمنع عنه خيراً إلا بمشيئة الله تعالى؛ ولذلك فالمؤمن الصادق إنسان لا يمكن أن يمتلكه الخوف أو القلق.

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٣٢).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣٣﴾ خُنَّ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (١٣٣).

ولاية من الله لهم في الدنيا، وولاية منه سبحانه وتعالى لهم في الدار الآخرة، ووعدهم وبشرى بالجنة، ووعدهم بأن لهم ما تشتهي أنفسهم، وأي وعد أفضل مما وعد الله به عباده.

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (١٣٤).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٣٥).

من آمن بالله رباً، ومنهجه شرعه وطريقاً، امتثل لأوامره وانتهى عن نواهيه وسار على شرعه تبعاً لما جاء به محمد ﷺ فهو آمن مطمئن، مسرور لا يبتابه حزن.

والمؤمن الصادق الإيمان يعلم أيضاً أن رزقه بيد الله، وأنه سبحانه وتعالى قد قسم الأرزاق بين الناس وقدرها؛ لذلك فهو لا يخاف الفقر، وإذا قدر الله تعالى له أن يكون قليل الرزق فهو رضي بما قدره الله، فنوع بالقليل الذي بين يديه كثير الحمد لله تعالى على نعمه الأخرى الكثيرة، نعمة الحياة، ونعمة الإيمان، ونعمة الصحة وراحة البال.

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (١٣٦).

(١٣٢) سورة البقرة: آية ١١٢.

(١٣٣) سورة فصلت: آية ٣٠، ٣١.

(١٣٤) سورة النساء: آية ١٢٢.

(١٣٥) سورة الأحقاف: آية ١٣.

(١٣٦) سورة الذاريات: آية ٢٢.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (١٣٧).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١٣٨).

﴿وَكَايِنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٩).

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (١٤٠).

﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (١٤١). (١٤٢).

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۗ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۗ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ فَمَالِ هَتُولَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (١٤٣).

جاء في الجواهر الحسان: (وقوله سبحانه: ﴿ في بُرُوجٍ ﴾ الأكثر والأصح الذي عليه الجمهور أنه أراد بالبروج الحصون التي في الأرض المبنية، لأنها غاية البشر في التحصن والمتعة، فمثل الله لهم بها وبرج معناه ظهر، ومنه تبرج المرأة، ﴿ مُشِيدَةٍ ﴾ وقال

(١٣٧) سورة الذاريات: آية ٥٨.

(١٣٨) سورة هود: آية ٦.

(١٣٩) سورة العنكبوت: آية ٦٠.

(١٤٠) سورة الرعد: آية ٢٦.

(١٤١) سورة آل عمران: آية ١٨٥.

(١٤٢) سورة النساء: آية ٧٨.

(١٤٣) انظر: معاني القرآن وأعرابه للزجاج، ص ٧٩.

والزجاج هو: إبراهيم بن السري بن سهل بن إسحاق الزجاج، كان من أهل الفضل والدين وحسن الاعتقاد جميل المذهب، كان يخرط الزجاج حتى اشتهر به أخذ العلم عن المبرد، وله من التصانيف معاني القرآن، والاشتقاق، وخلق الإنسان، وغير ذلك، مات ببغداد في جمادى الآخرة سنة ٢٣١هـ، وسئل عن سنة عند الوفاة فعدد سبعين. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ٩/١ وما بعدها.

الزجاج<sup>(١٤٤)</sup>: وغيره: معناه مرفوعة مطليّة، ومنه أشاد الرجل ذكر الرجل إذا رفعه، وقالت طائفة: ﴿مُشَيِّدَةٌ﴾ معناه: محسنة بالشيد، وهو الجص<sup>(١٤٥)</sup>.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾<sup>(١٤٦)</sup>.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾<sup>(١٤٧)</sup>.

﴿قُلْ إِنْ أَمُوتَ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٤٨)</sup>.

إن المؤمن الصادق الإيمان يعلم أنه ليس في الحياة الدنيا إلا كعابر سبيل، سرعان ما ينتقل إلى الحياة الآخرة الباقية؛ ولذلك فهو يعمل في حياته على هذا الأساس معداً نفسه للحياة الآخرة بالإيمان بالله تعالى، وعبادته، والعمل الصالح حيث ينعم برضوانه ويسعد بقاء النبيين والصدّيقين وغيرهم، ويحظى بما وعد الله تعالى المؤمنين من نعيم الجنة، فهو بذلك يعيش مرتاح البال آمناً مطمئناً؛ لأنه مستعد للموت في أي وقت، فهو لا يخاف من مصائب الدهر، وغوائل الأيام، ولا يخاف أن تصيبه الأمراض، أو تقع له الحوادث، أو تحل به الكوارث، فهو يؤمن بقضاء الله ويعلم حق العلم أن ما يحل بالناس من سراء أو ضراء، إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليرى من سيحمده على ما يناله من سراء، ومن سيصبر على ما يناله من ضراء.

ولذلك فالمؤمن لا يجزع إن أصابه شر بل يتحمل ويصبر ويحمد الله تعالى ويدعوه أن يرفع عنه الشر والبلاء، ولا شك أن المؤمن مأجور على كل حال، يقول النبي: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان له خير، وإن أصابته ضراء صبر فكان له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن"<sup>(١٤٩)</sup>.

(١٤٤) تفسير الثعالبي الموسوم بالجواهر الحسان في تفسير القرآن ٣٩٢/١.

(١٤٥) سورة الأعراف: آية ٣٤.

(١٤٦)

(١٤٧) سورة فاطر: آية ١١.

(١٤٨) سورة الجمعة: آية ٨.

(١٤٩) أخرجه مسلم - (كتاب الزهد، باب: المؤمن أمره كله خير) رقم الحديث (٢٩٩٩) / ٤ / ٢٢٩٥، والإمام أحمد

في مسنده ٣٢٢/٤ و ١٥/٦.

والله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥٠).

والمؤمن الصادق لا يجترأ أحزانه، ولا يعيش مهموماً بذكريات الماضي، ولا يتحسر على ما فاتته؛ ولذلك فهو لا يشعر بالهم الذي يتقل كاهل كثير من الناس الذين يعيشون أحزان الماضي وآلامه، كما أنه إذا نال خيراً لا يبطر ولا يستكبر ولا يطغي، بل يحمد الله تعالى على ما أنعم عليه من خير.

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٥١﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٥٢﴾.

جاء في تفسير الظلال: (إن هذا الوجود من النقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه، محسوب حسابه في كيانه لا مكان له فيه للمصادفة، ولا شيء فيه جزاف، وقبل خلق الأرض، وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته المقتنور...

وقيمة هذه الحقيقة التي لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى، قيمتها في النفس البشرية أن تكسب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها. فلان تجزع الجزع الذي تطير به شعاعاً وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ ﴾ فاتساع أفق النظر، والتعامل مع الوجود الكبير، وتصدر الأزل والأبد، ورؤية الأحداث في مواضعها المقدره في علم الله، الثابتة في تصميم هذا الكون...

كل ذلك يجعل النفس أفسح وأكبر ثباتاً ورزانة في مواجهة الأحداث العابرة، حيث تتكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني.

إن الإنسان يجزع ويستطار وتسخره الأحداث فيفصل بذاته عن هذا الوجود، ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يصادم وجوده الصغير، فأما حين يستقر في تصورهِ وشعوره أنه هو الأحداث التي تمر به وتمر بغيره والأرض كلها... ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود...، وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق، لازم بعضها لبعض.

(١٥٠) سورة الأنبياء: آية ٣٥.

(١٥١) سورة الحديد: الآيتان ٢٢، ٢٣.

وإن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون حين يستقر ذلك في تصورهِ وشعوره، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء، فلا يأسى على فائت أسى يضععه ويزلزلهُ، ولا يفرح بحاصل فرحاً يستخفه ويذهله، ولكن يمضي مع قدر الله في طواعية وفي رضي، العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون<sup>(١٥٢)</sup>.

وقد نهى سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في أقوالهم وأفعالهم، وأمرهم أن يؤمنوا بالقدر خيره وشره، وأنه من الله تعالى، وأن ما أَرَادَهُ اللهُ كائناً ولا يمنعه مانع مهما كانت قوته.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۗ وَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾<sup>(١٥٣)</sup>.

جاء في المحرر الوجيز: (نهى الله تعالى المؤمنين عن الكون مثل الكفار والمنافقين في هذا المعتقد الفاسد الذي هو أن من سافر في تجارة ونحوها، ومن قاتل فقتل لو قعد في بيئة لعاش ولم يميت في ذلك الذي عرض فيه نفسه للسفر أو للقتال، وهذا هو معتقد المعتزلة<sup>(١٥٤)</sup> في القول بالأجلين، وهو نحو منه، وقوله تعالى: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ هي أخوة نسب، لأن قتلى أحد كانوا من الأنصار، أكثرهم من الخزرج<sup>(١٥٥)</sup> ولم يكن فيهم من المهاجرين إلا أربعة...). إلى أن قال: (والضرب في الأرض: الإبعاد في السير، ومنه ضرب الدهر ضربانه، إذا بعدت المدة، وضرب الأرض: هو الذهاب فيها لحاجة الإنسان خاصة.

(١٥٢) تفسير في ظلال القرآن ٦/٢٤٩٣.

(١٥٣) سورة آل عمران: آية ١٥٦.

(١٥٤) المعتزلة: هم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، سمو معتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن البصري في أوائل المئة الثانية، وهم أهل الأصول الخمسة وهي أصول الدين عندهم لبسوا فيها الحق بالباطل. انظر: مقالات الإسلاميين، ص ٢٣٥، والفرق بين الفرق ص ١١٤، والفتاوى ١٣/٣١.

(١٥٥) الخزرج بن حارثة بطن من الأزدي من القحطانية وهم: بنو الخزرج بن حارثة بن ثعلبة البهلول بن عمرو مزقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة النطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة العنفاء بن الأزدي، كانوا يقطنون المدينة مع الأوس، وقد نشبت بينهما حروب طويلة، انظر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة ١/٣٤٢.

وقال السدي<sup>(١٥٦)</sup> وغيره في هذه الآية: الضرب في الأرض: السير في التجارة. وقيل: بل هو: السير في جميع طاعات الله ورسوله، والضرب في الأرض يعم القولين<sup>(١٥٧)</sup> (١٥٨).

والمؤمن الصادق الإيمان لا يشعر بالقلق الناشئ عن الإحساس بالذنب وهو ما يعاني منه كثير ممن لا إيمان لهم ويرجع ذلك لعدة أسباب منها:

أولاً: إن المؤمن الذي نشأ منذ طفولته على التربية الإسلامية الصحيحة لا يتعرض بسهولة للإغراءات التي تدفعه إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي التي تؤرق ضميره وتشعره بالدونية والحقارة، وتجعله فريسة للشعور بالذنب وتأنيب الضمير.

ثانياً: إن المؤمن إذا أخطأ فإنه لا يلبث أن يتذكر خطأه ويعترف به ويستغفر الله تعالى على ما ارتكب من خطأ، ويتوب إليه، وهو يعلم أن الله سبحانه تعالى يقبل التوبة ويغفر الذنب ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(١٥٩)</sup>. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾<sup>(١٦٠)</sup>. ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(١٦١)</sup>.

يتبين مما سبق أن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف من الأشياء التي يخاف منها معظم الناس عادة وهي: الموت، والفقر، والمرض، كما أنه لا يخاف الناس ولا مصائب الدهر، وهو ذو قدرة كبيرة على تحمل المصائب؛ لأنه يرى فيها ابتلاء من الله تعالى يجب أن يصبر عليه، وسيثيبه الله عليه، قال ﷺ "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان له خير، وإن أصابته ضراء صبر فكان له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن"<sup>(١٦٢)</sup>.

وهو لا يفتن من رحمة به، بل يعترف بذنوبه ويستغفر الله منها فلا غرابة بعد ذلك كله أن يكون المؤمن الصادق في إيمانه آمن النفس، مطمئن القلب يغمره الشعور بالرضا وراحة

(١٥٦) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الهاشمي السدي الكبير الأعمور، صاحب التفسير، أصله حجازي، مولى زينب بنت قيس بن مخزومة من بني المطلب بن عبد مناف، يكنى أبا محمد، روى عن ابن عباس وأنس وطائفة، ورمي بالشيعة، من الطبقة الرابعة، مات سنة ١٢٧هـ. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي (١/١١٠).

(١٥٧) تفسير السدي، ص ١٩١.

(١٥٨) المحرر الوجيز لابن عطية ٢/٢٧٥، ٢٧٦.

(١٥٩) سورة النساء: آية ١١٠.

(١٦٠) سورة طه: آية ٨٢.

(١٦١) سورة الزمر: آية ٥٢.

(١٦٢) سبق تخريجه.

البال. ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١١٣).

بخلاف من فقد حلاوة الإيمان ولذته، فإن حياته تخلو من المعاني السامية والقيم الإنسانية النبيلة، ومن فقد الإيمان فقد الأمن والطمأنينة، وفقد الشعور برسالته الكبيرة في الحياة وهي عبادة الله تعالى والتقرب إليه ومجاهدة النفس في سبيل بلوغ الكمال الإنساني الذي تتحقق له به السعادة في الدنيا والآخرة، وقد شبه القرآن حالة الصراع والقلق والحيرة والضياع التي تصيب الإنسان الذي يفقد إيمانه بالله بالحالة التي يشعر بها الإنسان الذي يخر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به في الريح في مكان سحيق: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (١١٤).

ويؤكد القرآن الكريم بالقسم حالة الخسران والضياع التي يعاني منها الكافرون فيقول: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١١٥).

إن المؤمن بعقيدة الإسلام نفذ الإسلام نفذ إلى سر الوجود فأحب الله واهب الحياة ولا شك أن أفضل الحب عند الإنسان وأكثره سموً ورفاهية هو: حبه لله سبحانه وتعالى، وشوقه الشديد إلى التقرب منه، لا في صلواته وتسبيحاته ودعوته فقط، ولكن في كل ما يقوم به من أعمال، وكل سلوك يصدر منه؛ إذ يكون توجهه في كل أعماله وتصرفاته إلى الله سبحانه وتعالى راجياً منه تعالى القبول والرضوان ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٦).

ومن أجل تحقيق الأمن والسكينة للنفس الإنسانية، دعا الله إلى الألفة والمحبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحرّم الله تعالى ممارسة الضغط والإكراه لعباده، والإفزاز لهم والظلم، وذلك لحماية حقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية حريصة على حماية الإنسان من الخوف والفرز وكل ما يحد من حريته وإنسانيته حرصها على حقوقه الشرعية في الأمن

(١١٣) سورة النحل: آية ٩٧.

(١١٤) سورة الحج: آية ٢١.

(١١٥) سورة العصر: الآيات ١ - ٣.

(١١٦) سورة آل عمران: آية ٣١.

والسكينة والطمأنينة لذلك تركز الآيات القرآنية على ربط الإيمان بالأمن والأمل والطمأنينة. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١٦٧).

فالمؤمن يسير مطمئن النفس ساكن القلب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٦٨)، والسكينة: هدوء ورضا تسكن بها النفس، مع طمأنينة القلب، والقلب المطمئن يزداد ثباتاً وثقة في طريقه...

كما أن السكينة والأمن والطمأنينة مرادفات للإيمان، وثمرات الإيمان من ثمار التقوى ونتاج العلم بالله، وذلك وارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتُؤْمِنٌ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۗ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٦٩). ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٧٠﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (١٧٠).

فالأمن ضد الخوف والفرع والاكنتاب والرعب والابتئاس ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا ۗ قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٧١).

أمن في الدنيا وسكينة ورحمة واطمئنان، ووعد بالأمن في الآخرة، وهو وعد الله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٧٢)، ﴿مَهَيَّا وَهَمَّ مِّن فِرْعَ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (١٧٣). فالمؤمن قوي

(١٦٧) سورة الرعد: آية ٢٨.

(١٦٨) سورة الفتح: آية ١٨.

(١٦٩) سورة البقرة: آية ٢٦٠.

(١٧٠) سورة الفجر: الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(١٧١) سورة آل عمران: آية ١٥٤.

(١٧٢) سورة النساء: آية ١٢٢.

(١٧٣) سورة النمل: آية ٨٩.

بالإيمان ملتصق به مُيسر رزقه، ومن خالف الصواب وحاد عن الطريق فلا آمن ولا أمان ولا رزق، بل هو فرغ خائف جائع.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١٧٤).

هذا هو حال من كفر بنعم الله، ومن خالف أوامر الله، وأعرض عن الإيمان، أمّا من آمن وعمل صالحاً فإن الله مستخلفه في الأرض، وسيمكنه فيها، وهذا سيؤدي إلى الأمان والطمأنينة، قال تعالى: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٧٥).

جاء في زاد المسير: (قوله تعالى: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴾) روي عن أبي بن كعب (١٧٦) قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآواهم الأنصاري، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا في لأمتهم، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟! فنزلة الآية (١٧٧) (١٧٨).

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجّه كله إلى الله تعالى لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، ولا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به الرسول الكريم ﷺ من عنده.

(١٧٤) سورة النحل: آية ١١٢.

(١٧٥) سورة النور: آية ٥٥.

(١٧٦) هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، سيد القراء، أبو منذر الأنصاري، النجاري المدني المقرئ البصري، ويكنى أيضاً أبا الطفيل، شهد العقبة ويدرأ وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ وحفظ عنه علماً مباركاً، مات سنة ٣٢هـ. وقيل: سنة ٣٠هـ. في خلافة عثمان رضي الله عنه، انظر: سير أعلام النبلاء ٢٨٩/١ وما بعدها.

(١٧٧) رواه الحاكم في المستدرک (كتاب التفسير) ٤٠١/٢ قال: وهو صحيح.

(١٧٨) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥٧/٦.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالذمة البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان.

والأمن مطلب كل إنسان، والخوف فطرة فيه، ولكن الله يثبت من يشاء من عباده، فهذا نبي الله موسى عليه السلام يؤتيه الله المعجزات والدلائل الدالة على صدقة لكي يثبت لقومه صدقة فيما أتى به من عند ربه ... فإذا به خائفٌ وجلٌّ أمام هذه الدلائل ويأتيه النداء من الله تعالى لكي يأمن ويبعد عن نفسه الخوف ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٧٩﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنَ شَطِئِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿١٨١﴾ أَسَلْتُكَ يَدَاكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿١٧٩﴾.

ويرتبط الأمن بالأمل، وليس هنا الأمل في تحقيق الرغبات المكبوتة ولا حماية البناء النفسي من عدم إشباع غرائزه ونزعاته المنحرفة.

وإنما الأمل هنا أمل هادف... ودليله الإيمان، وهذا الأمل هو ثمرة يانعة من ثمار الخير والعمل الصالح كثواب من عند الله، وليس الخير في تحقيق المال والأموال ولا في إشباع رغبات النفس في التظاهر بحسن الزي واللباس، إنما الخير في تحقيق الأمن والسكينة في الدنيا والآخرة. ﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿١٨٠﴾.

وإذا تأملنا الآيات السابقة لوجدنا أن هناك طريقاً واحداً يتعين علينا أن نسلكن لنسعد في الدنيا والآخرة ولنعيش حياة آمنة مطمئنة... إنه الطريق الفذ لتحقيق كل ما نريد من أهداف وما نصبو إليه من آمال ذلك الطريق هو طريق الإيمان.

(١٧٩) سورة القصص: آية ٢٩ - ٢٢.

(١٨٠) سورة الكهف: آية ٤٦.

فإن كنا نريد الدنيا ... فطريقها الإيمان.

وإن كنا نريد الآخرة... فطريقها الإيمان.

وإن كنا نريدهما معاً... فطريقهما هو الإيمان.

فالإيمان سبيلنا إلى الدنيا وتحقيق آمالنا فيها وغاياتنا منها وسعادتنا فيها وسبيلنا إلى الآخرة ونعيمها.

وبعد: فهذه نبذة موجزة تعرضت فيها لسرد بعض الآيات الواردة في كتاب الله تعالى، التي ذكرت الأمن بلفظة أو ذكر ما يرادفه أو نفتت ضده، وقد ذكرت تفسير بعضها بإيجاز.

2

## الباب الثاني

بيان القرآن الكريم للأمن في الحياة



## بيان القرآن الكريم للأمن في الحياة



## بيان القرآن الكريم للأمن في الحياة

### تمهيد

اهتم الإسلام بالأمن اهتماماً كبيراً، وحث المسلمين عليه ورغّبهم فيه، كيف لا وهو مصدر استقرارهم واطمئنّانهم، فنعمة الإسلام والصحة في الأبدان والأمن والاستقرار في الأوطان من ضروريات الحياة كضرورة الطعام والشراب، والعافية للأبدان، وقد جاء الأمن في القرآن الكريم، والسنة الشريفة مقروناً بالطعام الذي لا حياة للإنسان ولا بقاء بدونه، وقد امتن الله به على العباد وأمرهم أن يشكروا هذه النعم بإخلاص العبادة له فقال تعالى:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَاَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۖ ﴾ (١٨١).

كما امتن على عباده بحسن الجزاء وعظيم المثوبة ونعمة الأمن إن هم أحسنوا العمل وأخلصوا لله تعالى، فقال تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (١٨٢) نعم هؤلاء هم الذين وحدوا الله وآمنوا به حق الإيمان ولم يخلطوا توحيدهم بشرك هم الآمنون من الفرع المهتدون في الدنيا والآخرة، ففي رحاب الأمن وظله يأمن الناس على دينهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم ومحارمهم ويسيرون ليلاً ونهاراً لا يخشون إلا الله، وفي رحاب الأمن وظله تعم الطمأنينة النفوس ويسودها الهدوء وتعمها السعادة، قال عليه ﷺ: "من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها" (١٨٣).

(١٨١) سورة قريش: الآيتان ٢- ٤.

(١٨٢) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(١٨٣) رواه الترمذي في (كتاب الزهد، باب: التوكل على الله) رقم الحديث (٢٣٤٦) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية. انظر: الجامع الصحيح للترمذي ٥/٥٧٤، ورواه ابن ماجه في (كتاب الزهد، باب: القناعة) رقم الحديث (٢٣٤٠). انظر: صحيح سنن ابن ماجه تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ٢/٢٩٩ قال الألباني عنه: حسن.

## الفصل الأول

### مصادر الامن في الحياة

من أجل الحفاظ على الأمن واستتبابه لا بد من توفر مقومات عديدة تتظافر على إرساء قاعدته وتمكينها، والبحث عن كل الوسائل التي من شأنها حفظ الأمن وتطبيق هذه الوسائل كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ليعم الرخاء والطمأنينة وتدوم علينا نعمة الأمن والاستقرار بحول الله وقوته ومشينته وتوفيقه.

أولاً

### الإيمان وإصلاح العقيدة

إن الدعوة إلى الإيمان وإصلاح العقيدة هو أول الضرورات الخمس<sup>(١٨٤)</sup>، وأهمها التي يجب المحافظة عليها وعلى أمنها، والدفاع عنها؛ لأن العقيدة أعز ما يملك الإنسان، حيث يصبح بدونها ضائعاً يتخبط في دياجير كفره وضلاله ﴿أَوْ كُذِّبَتْ فِي نَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾<sup>(١٨٥)</sup>.

فالإسلام جاء ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان والدعوة إلى هذا الإيمان يجب أن تكون أولاً بالأساليب اللينة، وإقامة الحجة البينة، فإن نفع هذا واستجاب الكافر، ودخل هذا النور المشرق كان بها ونعمت: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

(١٨٤) الضرورات الخمس اصطلاح فقهي يقصد به: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

(١٨٥) سورة النور: آية ٤٠.

أَحْسَنَةً وَجَدَلْتُهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٨٦﴾.

وإن أبي إلا الإصرار على كفره وعناده وأخذ يقاوم داعي الحق، ويشهر سلاحه في وجهه، ويتحين الفرص للإيقاع به، فالسيف دواء من لا دواء له، ومن أجل ذلك شرع الجهاد.

وكما أن الأمن ثمرة الإيمان والعمل الصالح، فهو أيضاً سمة المؤمن الصادق في إيمانه، فإذا صدق إيمان الفرد، وإذا صدق أيضاً إيمان الجماعة عاشوا حياتهم آمنين لا يخافون، ولا يفزعون، ولا يخيفون أحداً، ولا يروعون الناس، بل إن الناس يلجأون للمؤمنين الصادقين ويأمنونهم على دمائهم وأموالهم، ولقد وضع رسول الله سمة من سمات المؤمن الصادق وهي: أن يأمنه الناس فقال صلوات الله وسلامه عليه: "والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم" (١٨٧).

وتركيزاً على "الأمن" كعلامة مميزة للمجتمع المؤمن، وسمة ملازمة للمؤمنين نرى أن رسول الله صلوات وسلامه عليه ينظر إلى من يرجى منه الخير ولا يخاف أحد منه، ويؤمن الشر من جانبه بأن مثل هذا الإنسان هو خير الناس، فيقول عليه الصلاة والسلام: "خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره" (١٨٨).

وبهذا يعيش الإنسان في أمن وطمأنينة، يعبد الله وهو آمن، ولا يخشى على عقيدته، ولا على نفسه، وعلى ماله، ولا على عرضه، يفوز في الدنيا بالأمن والطمأنينة، ويفوز في الآخرة بالأمن أيضاً وبجنات الله تعالى ورضوانه ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٨٩).

هنا يقرر القرآن قاعدة من قواعد التصور الإسلامي هي ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد، إنما هو الإسلام والإحسان، لا الاسم والعنوان: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٩٠). كما

(١٨٦) سورة النحل: آية ١٢٥.

(١٨٧) رواه الترمذي في (كتاب الإيمان، باب: ما جاء أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) رقم الحديث (٢٦٢٧/٥)، ١٧/٥، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢٠٦/٢، ٢١٥.

(١٨٨) رواه الترمذي في (كتاب الفتن، باب ٧٦) رقم الحديث (٢٦٢٣) ٥٢٨/٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح، والإمام أحمد في مسنده ٣٦٨/٢، ٣٧٨، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٨٩) سورة البقرة: آية ٣٨.

(١٩٠) سورة البقرة: آية ١١٢.

قرر بعد ذلك قاعدة أخرى في العقاب فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(١٩١)</sup>.

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في المثوبة والعقاب. طرفيها المتقابلين: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(١٩٢)</sup>، فأخلص ذاته كلها لله، ووجه مشاعره كلها إليه، وأخلص لله في مقابل خلوص الآخر للكفر، هنا تبرز سمة المتابعة لما جاء به النبي ﷺ من عند ربه، وهنا تبرز حقيقة الأمن والطمأنينة وعدم الخوف.

والمتابعة هي الامتثال لكل ما جاء من عند الله تعالى، وما جاء به الرسول ﷺ أوامر ونواهي، ولا بد من امتثال القلوب أيضاً لذلك رضاءً ومتابعة في السر والعلن، في العمل والاعتقاد، الوحدة بين الشعور والسلوك بين الإيمان القلبي والإحسان العملي بذلك تصبح العقيدة منهجاً للحياة كلها، وبذلك تتوفر الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها، وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يستحق الأمن الموفور الذي لا يساوره خوف، والسرور الفاضل الذي لا يبتابه معه حزن.

بخلاف الكافر الذي لا يأمن الناس شره، ولا يتوحي عن ظلم، ولا ينتزه عن معصية أو رذيلة؛ لأنه لا وازع عنده، ولا إيمان يردعه، يظلم بقدر قوته، ويعدل بقدر ضعفه، شريعة الغاب شريعته، ومنهج الدواب منهجه، كفر وضلال وتكذيب في دنياه، وخوف وفزع ونار جهنم في آخره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(١٩٣)</sup>. هذه القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعاً: الأمن والنعيم لمن أطاع، والخوف والجحيم لمن عصا، فلا محسوبة عند الله ولا محاباة.

كان اليهود والنصارى يطلقون تلك الدعوى العريضة، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر أنه ليس على شيء بينما كان المشركون يتهمون الفريقين بالمقولة ذاتها. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرِيُّ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ

(١٩١) سورة البقرة: آية ٣٩.

(١٩٢) سورة البقرة: آية ٣٨.

(١٩٣) سورة البقرة: آية ٣٩.

الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ قَالَ اللَّهُ لَكُمْ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩٤﴾.

وبيّن سبحانه وتعالى أن من آمن به وباليوم الآخر وعمل صالحاً وأتى بما يقربه من ربه فهو من الناجيين الأمنين في الدنيا والآخرة؛ إذ أن العبرة بالإيمان والإخلاص لله تعالى والتصديق بما جاء به محمد ﷺ ظاهراً وباطناً، وليست العبرة بالحسب أو الجنس أو التبعية، يتضح ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰرِئِينَ وَالصَّٰدِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٩٥).

جاء في تفسير الظلال لهذه الآية: (فالذين آمنوا يعني بهم المسلمين، والذين هادوا اليهود، إما بمعنى: عادوا إلى الله، وإما بمعنى أنهم أولاد يهودا، والنصارى هم: أتباع عيسى بن مريم عليه السلام، والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم، فقال عنهم المشركون: إنهم صباؤا، أي: مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا الصابئة، وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير) (١٩٦).

والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً، فإن لهم الأجر عند ربهم وأنهم آمنون من الفزع فلا ينتابهم خوف، ولا ينغص عليهم حزن، فالعبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبيّة جنس أو قوم.

قال صاحب المحرر الوجيز في تفسير هذه الآية: (اختلف المتأولون في المراد بالذين آمنوا في هذه الآية، فقال سفيان الثوري (١٩٧): المنافقون من أمة محمد ﷺ، كأن قال: إن الذين آمنوا في ظاهر أمرهم، وقرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بين حكم من آمن بالله

(١٩٤) سورة البقرة: آية ١١٢.

(١٩٥) سورة البقرة: آية ٦٢.

(١٩٦) في ظلال القرآن ٧٥/١.

(١٩٧) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي عبد الله منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أذ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، هو شيخ الإسلام وإمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد مصنف كتاب (الجامع) ولد سنة ٩٧هـ اتفاقاً، وطلب العلم، وهو حدث باعتهاء والده، ومات سنة ١٢٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٧/٢٢٩، ٢٣٠.

واليوم الآخر من جميعهم، فمعنى قوله: ﴿ مَنَّ ءَامَنَ ﴾ في المؤمنين المذكورين من حقق وأخلص، وفي سائر الفرق المذكورة- من دخل في الإيمان.

وقالت فرقة: الذين آمنوا هم المؤمنون حقاً، أي: ظاهراً وباطناً بمحمد ﷺ. وقوله: ﴿ مَنَّ

ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ يكون فيهم بمعنى من ثبت ودام، وفي سائر الفرق بمعنى من دخل فيه.

وقال السدّي<sup>(١٩٨)</sup>: هم أهل الحنيفية، فمن لم يلحق بمحمد ﷺ. كزيد بن عمرو بن نفيل<sup>(١٩٩)</sup>، وقس بن ساعدة<sup>(٢٠٠)</sup>، ورقة بن نوفل<sup>(٢٠١)</sup>، والذين هادوا كذلك ممن لم يلحق بمحمد ﷺ إلا من كفر بعيسى عليه السلام، والنصارى كذلك ممن لم يلحق بمحمد ﷺ والصابئين كذلك (... إلى أن قال: (والذين هادوا هم اليهود، وسُموا بذلك لقولهم: ﴿ وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَيْدِهِ أَلَدُنِيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَايَ أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءٍ وَرَحِمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكِنِيهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(٢٠٢)</sup>. أي: تبنا إليك، فاسمهم على هذا من هاد يهود...، وقيل: نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب<sup>(٢٠٣)</sup>، فلما عرب

(١٩٨) هذا القول نسبة ابن عطية إلى السدي، وعند الرجوع إلى تفسير السدي الذي حققه الدكتور محمد عطا يوسف فلم أجد هذا القول بنصه، وإنما قال السدي قولاً غير هذا ومشابهاً له في المعنى. انظر: تفسير السدي ص ١١٨.

(١٩٩) هو: زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزي القرشي العدوي، نصير المرأة في الجاهلية، وأحد الحكماء، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها، وهو القائل:

أربأ واحداً أم ألف رب ❖ ❖ ❖ أدين إذ تقسمت الأمور ؟

تركزت اللات والعزي جميعاً ❖ ❖ ❖ كذلك يفعل الرجل البصير

رحل اللات إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها فلم تستمله اليهودية ولا النصرانية فعاد إلى مكة على دين إبراهيم، وجاهر بعداء الأوثان فثألب عليه جمع من قريش فأخرجوه من مكة فكان لا يدخلها إلا سراً، توفي قبل مبعث النبي ﷺ بقليل ١٧ ق هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٤٢١/٣، وعيون الأثر ٨٢/١، والأعلام للزركلي ١٠٠/٣.

(٢٠٠) هو: قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إيباد، أحد حكماء العرب، ومن أكبر خطبائهم في الجاهلية، كان أسقف نجران، ويقال إنه أول عربي خطب متوكئاً على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه: أما بعد، كان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه، وهو معدود في المعمرين طالبت حياته، وأدركه النبي ﷺ قبل النبوة ورآه في عكاظ، مات سنة ٢٣ هـ. انظر: عيون الأثر ٨٦/١، والأعلام للزركلي ٣٩/٦.

(٢٠١) هو: ورقة بن نوفل بن أسد بن العزي، من قريش، حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتتمصر، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة، وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين وقد انطلقت بالرسول ﷺ أول ما نزل عليه الوحي ورجع يرتجف انطلقت به إلى ورقة وكان شيخاً كبيراً قد عمى فسمع منه، فقال: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى إن يحضرني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، مات سنة ١٢ ق هـ. انظر: عيون الأثر ١٠٥/١، والأعلام للزركلي ١٣١/١٩.

(٢٠٢) سورة الأعراف: آية ١٥٦.

(٢٠٣) هو: يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، قال السدي: وهو الذي قال لإخوة، يوسف: لا تقلبوه.

انظر: تفسير السدي، ص ٣٠٨.

الاسم لحقه التغيير كما تغير العرب في بعض ما عربت من لغة غيرها. «والنصرى» لفظة مشتقة من النصر إِمَّا لأن قريتهم تسمى قرية ناصر<sup>(٢٠٤)</sup>، ويقال: نصرياً، ويقال: نصرنا؛ وإمَّا لأنهم تناصروا وإمَّا لقول عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ كُنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَآشْهَدُ بِنَاءِ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢٠٥)</sup>.

والصائبى في اللغة: من خرج من دين إلى دين؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبا، وقيل: إنما سمتهم بذلك لما أنكروا الآلهة، تشبيهاً بالصائبين في الموصل الذين لم يكن لهم برٌّ إلا قولهم: "لا إله إلا الله"<sup>(٢٠٦)</sup>.

فالعبرة - كما سبق - بحقيقة العقيدة، وباب الإيمان مفتوح على مصراعيه أمام اليهود وغيرهم، وكل من ارتكب الكبائر والقبائح إذا آمن وتاب فله ما للمؤمنين من الأجر والمثوبة والأمن، وعدم الخوف والخزن مع التفاوت وعدم التساوي، وكأن الله عز وجل أراد أن يقرر بهذه الآية أن حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، وهو أن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، استحق ما ذكره من العناية والأجر، ومن فاتته ذلك خير كثير، وهذا الإيمان لا يتحقق إلا بالدخول في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مؤمناً مسلماً ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً، وكل من آمن بدين من الأديان السماوية في وقت شرعه، وقبل نسخة وآمن بما أنزل فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

هذه هي العقيدة الدينية وما لها من أثر في أمن الفرد والمجتمع من حيث هي نظرة أصيلة في النفوس البشرية، لا يغني عنها قانون ولا فلسفة ولا تعقيف.

ومهما قيل عن أثر الإيمان بمبدأ ما، أو بعقيدة ما في حياة الإنسان ولو كانت من وضع البشر ومن بنات أفكارهم، إلا أن عقيدة الإسلام تختص عما دونها من العقائد بما لها من آثار جليلة الواقع، كبيرة النفع في الحياة بجوانبها المتعددة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ذلك؛ لأن العنصر البشرى يبقى قبل كل العناصر وبعدها هو الأساس في الحضارات ورفي الأمم وسيادة القيم، وذلك بنمط السلوك الذي يسلكه وفق ما يعتقده من عقيدة يدين بها التزاماً ويدين لها في تقدمه أو تأخره، في علمه أو جهله في الفوضى أو النظام.

(٢٠٤) قرية ناصر: قرية بالشام تنسب إليها النصرى، ويقال: اسمها ناصرة، بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً، فيها كان مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ومنها اشتق اسم النصرى. انظر: معجم البلدان ٢٩١/٥.

(٢٠٥) سورة آل عمران: آية ٥٢.

(٢٠٦) انظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ٢٤٢/١ - ٢٤٥.

ولا توجد عقيدة ربطت بين الدنيا والآخرة ومزحت بين عالم الغيب وعالم الشهادة ونظمت علاقات الأفراد والمجتمعات والأمم مثلما فعلت عقيدة الإسلام.

وإذا كانت المادة قد طغت في هذا العصر وسيطرت وبدّلت من سلوك الإنسان وفكره تجاه الغيبات بالجوحد والنكران مما جعل حقائق الدين الغيبية تتكشف في حياة بعض الأمم ولا يلقي لها بالاً، إلا أن ذلك كله لا يلغي من الحساب إرادة النفس المؤمنة وما تطبعه في الحياة كثرمة من ثمرات الإيمان والعمل الصالح ثم ما يحققه هذا الإيمان من أمن في نفس المؤمن وطمأنينة في جنبات المجتمع كنتيجة للإحساس برقابة الله في كل شيء، هذا الإحساس الذي اغترب في حياة المجتمعات الحديثة فكاد يجرمها من كل أثر طيب يحدثه الإيمان بالله وضرورة العمل له والتصديق برسالاته ومن كل سبب يبارك به الدين حياة المؤمنين وزكياها.

وقد يتبادر إلى الأذهان أن الدين كله شيء واحد، وأنه مجرد تصور غيبي يفلسف الوجود، وأن آثاره في واقع الحياة واحدة رغم تباين أشكال الشعائر وأنواع التعاليم.

والحق أن رسالات الله كلها متفقة في أصول الدين، وكذلك في الأخلاق، وأن المرسلين جميعاً أخوة، عقيدتهم واحدة انبعثت من مشكاة واحدة يصدق بعضها بعضاً، لكن عوامل الوضع والتحريف والتبديل اخترقت أصول العقيدة الصحيحة فتلاشت معانيها واختلط وحي السماء بتعاليم البشر بفعل الوضاعين، ولم يبق من أصل الدين إلا بقية انقطعت صلتها بالسماء، وأضحت نوعاً من التقاليد الموروثة تتغير وتتبدل بعوامل الابتداع وفق ما يراه كهانها، وهذا قبل الإسلام. ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا بِيَهُ ثُمَّ نَمَنَّا قَلِيلاً ۗ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢٠٧).

فلا شك أن الدين الصحيح إنما هو الإسلام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِعَايَةِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعٌ الْحِسَابِ ﴾ (٢٠٨). وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٠٩).

(٢٠٧) سورة البقرة: آية ٧٩.

(٢٠٨) سورة آل عمران: آية ١٩.

(٢٠٩) سورة آل عمران: آية ٨٥.

وقال صاحب روح المعاني: ( نزلت في جماعة ارتدوا وكانوا اثني عشر رجلاً وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفاراً. والإسلام قيل التوحيد والانقياد، وقيل: شريعة بنينا عليه الصلاة والسلام بين تعالى أن من تحرى بعد مبعثه ﷺ غير شريعته فهو غير مقبول منه، وقبول الشيء هو الرضا به وإثابة فاعله عليه) (٢١٠).

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۗ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢١١). وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ قَوْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢١٢).  
وقوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۗ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ۗ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢١٣).

ومن هنا يتضح أن الحديث عن الدين لا بد أن يقيد بوصف الإسلام ولا يساق على سبيل الإطلاق؛ لأن الإطلاق يحدث خلطاً بين ما هو صحيح من الدين وبين ما هو من وضع البشر بفعل التغيير والتبديل نتيجة المنافع والأهواء كما جاء في النص الكريم: ﴿ قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِن عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۗ قَوْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢١٤).

يقول صاحب الظلال: (... و فريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية - التي ذكرت في الآية السابقة - فيزور على كتاب الله ويحرف الكلام عن مواضعه بالتأويلات المغرضة، ويكتب منه ما يشاء ويبيدي منه ما يشاء ويكتب كلاماً من عند نفسه يذيعه في الناس باسم أنه من كتاب الله.

(٢١٠) روح المعاني للألوسي ٢/٢١٥.

(٢١١) سورة الأنعام: آية ١٢٥.

(٢١٢) سورة المائدة: آية ٣.

(٢١٣) سورة المائدة: آية ٣.

(٢١٤) سورة البقرة: آية ٧٩.

كل هذا ليربح ويكسب ويحتفظ بالرياسة والقيادة... فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء أن يستجيبوا للحق وأن يستقيموا على الهدى وأن يتخرجوا من تحريف ما يقف أمامهم، وفي طريقهم من نصوص كتابهم نفسه<sup>(٢١٥)</sup>.

وكيف يتحقق الأمن من هؤلاء بعد أن انصرفوا عن العقيدة الصحيحة حين طال بهم الأمد وانقطع ما بينهم وبين حقيقة دينهم فلم يبق لهم منه إلا اسمه وشكله، دون موضوعه وحقيقته، ويظنون أن هذا يكفيهم للنجاة من العذاب بحكم ما يعلنونه بألسنتهم من أنهم على دين الله.

(فلا جرم أن أصدق الحديث عن الإيمان هو ما كان منسوباً إلى الإسلام؛ لأن الدين الخالص ذو الأصول المحفوظة؛ ولأن سائر الأديان قد تبدلت عقائدها وشرائعها بما شابها من بدع شتى ما أنزل الله بها من سلطان، فالحديث في شأن الدين ينبغي ألا يساق على سبيل الإطلاق)<sup>(٢١٦)</sup>.

ولا شك أن من خلط عقيدته بأنواع البدع، وحرّف وبدل في كتبه، فقد اختل عنده ميزان الأمانة، وضعف وازعه الإيمان، هذا هو حال أهل الكتاب، وقد شاعت إرادة الله أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب بعدما خاسوا بعهدهم مع الله ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل وتخلوا عن الأمانة التي ناطها الله بهم وتركوا أحكام كتابهم وشريعة دينهم ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٢١٧)</sup>.

أي أمن وأي أمانة ترجي ممن نكث عهد الله، وممن فسدت عقيدته وخالطته الشوائب؛ ولذلك وصفهم الله تعالى بالغيث وعدم الإنصاف، ورغم ما بهم من دس وكيد وتدبير مآكر وإرادة الشر بالجماعة المسلمة، وبهذا الدين القويم، فإن كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم حتى في معرض الجدل والمواجهة، فهو يقرر أن منهم ناساً أمناء لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية ﴿ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾، وهذه بالذات صفة يهود، فهم الذين يقولون هذا القول ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة فالأمانة بين اليهودي واليهودي، أما غير اليهود فإنهم يسمونهم بالأمينين وكانوا يعنون بهم العرب وهم في الحقيقة يعنون بها كل من سوى اليهود،

(٢١٥) في ظلال القرآن ٨٥/١ بتصرف.

(٢١٦) الإيمان للدكتور حسن الترابي، ص ٦.

(٢١٧) سورة آل عمران: آية ٧٥.

فلا حرج على اليهودي في أكل أموال هؤلاء وغشهم وخذاعهم والتدريس عليهم، واستغلالهم بلا تخرج من وسيلة خسيصة ولا فعل ذميم.

ولا شك أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى، وكلاهما يركز على العقيدة فمن صفت نيته وصلحت عقيدته لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق، فليس الأمر مسألة مصلحة، إنما هو مسألة عقيدة وتعامل مع الله أبداً، دونما نظر إلى من يتعامل معهم يلحظ فيه التعامل جناب الله ويتجنب سخطه ويطلب رضاه، فالباعث الأخلاقي ليس هو المصلحة وليس عرف الجماعة ولا مقتضيات ظروفها القائمة، فإن الجماعة قد تضل وتحرف وتروج فيها المقاييس الباطلة.

إذن فلا بد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء، ولا بد أن يكون هذا المقياس أعلى من اصطلاح الناس، ومن مقتضيات حياتهم المتغيرة ... ومن ثم ينبغي أن تستمد القيم والمقاييس من الله تعالى فهو المشروع وهو أعلم بأحوال العباد ومصالحهم، وما ينسجم مع نظرهم، ويكون موافقاً لأوامره سبحانه وتعالى. ﴿ وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾<sup>(٢١٨)</sup>. جاء في أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ﴿ وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ كعبد الله بن سلام<sup>(٢١٩)</sup> استودعه قرشي ألفاً ومائة أوقية ذهباً فأداها إليه، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ كفناص بن عازوراء<sup>(٢٢٠)</sup> استودعه قرشي آخر ديناراً فجدده، وقيل: المأمونون على الكثير: النصراني؛ إذا الغالب فيهم الأمانة، والخائون في القليل: اليهود؛ إذ الغالب فيهم الخيانة<sup>(٢٢١)</sup>.

ولا جرم أن أصدق الحديث هو ما كان منسوباً إلى الإسلام؛ لأنه الدين الصحيح الخالص ذو الأصول المحفوظة؛ ولأن سائر الأديان قد تبدلت عقائدها وشرائعها بما شابها من بدع شتى ما أنزل الله بها من سلطان، فالحديث في شأن الدين ينبغي ألا يساق على سبيل الإطلاق.

(٢١٨) سورة آل عمران: آية ٧٥.

(٢١٩) هو: عبد الله بن سلام بن الحارث، الإمام الحبر المشهود به بالجنة، أبو الحارث الإسرائيلي حليف الأنصار من خواص أصحاب رسول الله ﷺ، أسلم حين قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، وهو من أحبار اليهود، حدث عنه أبو هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن معقل وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء ٤١٣/٢، ٤١٤.

(٢٢٠) هو: فنحاص بن عازوراء من أحبار اليهود الذين كانوا يسألون رسول الله ﷺ ويتعمتونه ليلبسوا الحق بالباطل، من بني قينقاع، وكان من علمائهم وأحبارهم، وصاحب بيت مدراسهم، وهو الذي نسب الفقر إلى الله والفني إلى اليهود فانزل الله تعالى فيه: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَعَّرُ وَغَضُّ أَعْيُنًا سَكَتُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونِ عَذَابِ الْخَرِيبِ ﴾ (سورة آل عمران: آية ١٨١). انظر: سيرة ابن هشام ١٣٥/٢، ١٣٧، ١٨٧.

(٢٢١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ص ٧٨.

ولما كانت عقيدة الإسلام تحدث في النفس البشرية الأمن والطمأنينة بما تبثه فيها من تصور للدنيا والآخرة أو الحياة والموت، ويتسع هذا التصور ليدخل فيه أنواع النشاط الإنساني وتحديد العلاقات من خلال الحق والواجب بين كل الأطراف بما يضمن سلامة الفرد والمجتمع وما يتحقق من وفاق بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع مما يكون له أبلغ الأثر في تحقيق الأمن، ومن ثم في سعادة وطمأنينة وتقدم المجتمعات التي تسودها تلك العقيدة الصحيحة الشاملة.

ولما كان الحديث عن أثر العقيدة في تحقيق الأمن يتطلب الإشارة إلى شعب الإيمان وما لها من تأثير فعال في تزكية النفس وتطهير المجتمع، فإن مشهد العقيدة وقد استعلنت في النفس واستولت على القلب، بعدما وضحت وضوحها الكامل وانجلى عنها الغبش نشهدها وقد ملأت الكيان الإنسان فلم يعد وارهها شيء. وقد سكبت فيه طمأنينة الواثق بربه الذي أيقن به في قلبه وعقله وعرفه في الوجود من حوله وهو مشهد يتجلى بكل روعته وبهائه في قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِإِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٤﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢٥﴾

فلقد انتهى إبراهيم عليه السلام إلى معرفة ربه في ضميره وعقله، بالتفكير في الوجود من حوله، وذلك بعد أن مرت عليه التجربة ثلاث مرات أولها التفكير في الكواكب، فلم يكن عليه السلام قد رأى الكواكب لأول مرة، ولكن الكوكب في هذه المرة ينطق له بما لم ينطق من قبل، ويوحى إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله ويزحم عليه عالمه، لكن هذا الكوكب أقل، فغاب عن هذه الخلائق، فمن ذا يرعاها إذن، ومن ذا يدبر أمرها إذا كان الرب يغيب؟ لا، إنه ليس رباً فالرب لا يغيب.

إنه منطق الفطرة القريب... لا يستثير القضايا المنطقية والفروض الجدلية إنما ينطلق مباشرة في يسر وجزم؛ لأن الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق، وتكرر التجربة: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ (٢٢٣) وكان إبراهيم عليه السلام لم ير القمر قط وقد أقل القمر، فأحس عليه السلام أنه خال مضيع إن لم يدركه ربه بهديته وإن لم يمد إليه يده ويكشف له عن طريق.

وتتكرر التجربة للمرة الثالثة ﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِغَةً ﴾ (٢٢٤) ولكنها تغيب، هنا يقع التماس، وتنتطلق الشرارة، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق ويغمر نور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل الواعي... هنا يجد إبراهيم عليه السلام إلهه، يجده في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره، هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري الممكنون والتصور العقل الواضح، ومن ثم عرف إبراهيم عليه السلام ربه فاطمأن قلبه واستراح باله وقد أحس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق... والآن يجيء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من اليقين، وفيما انشرح له صدره من توحيد ويخفوه آلهتهم التي تتكرر لها أن تنزل به سوءاً، وهو يواجههم في يقينه الجازم وفي إيمانه الراسخ وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذي هداه، يواجههم وهو مطمئن البال راسخ العقيدة، لا يخشى إلا الله، لا يخاف من صنم، ولا يخاف من بشر، ولا يخاف من شيء إنه آمن بنور ربه وحفظه له، فهو يكل إلى مشيئة ربه حمايته ورعايته، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاء الله، الذي وسع علمه كل شيء.

هذا هو منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود، إن كان أحد يشعر بالخوف فليس هو إبراهيم عليه السلام، وإن كان قومه يخوفونه بآلهتهم، فهم أولى بالخوف، وهو أولى بالآمن ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾؟ الذي يؤمن بالله ويكفر بالشركاء؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة.

وهنا يأتي الجواب من الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢٢٥) (٢٢٦).

هذا هو دور العقيدة الخالصة الصادقة التي لا تشوبها شوائب ولا تهزها عاصفة مهما كانت شدتها، عقيدة آمن أصحابها إيماناً راسخاً بكل ما جاء من عند الله، وأن ما كتبه الله كائن لا محالة، وما لم يشأه لم يكن ولو اجتمع له أهل الأرض والسماء. هذا الصنف يعيش عيشة الأمن المطمئن الذي لا ينتابه خوف ولا ينغص عليه شيء في حياته.

(٢٢٤) سورة الأنعام: آية ٧٨.

(٢٢٥) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٢٢٦) انظر: في ظلال القرآن ١١٤٠/٢ - ١١٤٢ بتصرف.

جاء في تفسير القرآن العظيم: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَلَا تَخَافُورَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ قال ابن عباس<sup>(٢٢٧)</sup> وغير واحد من السلف: أي حجة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاتُؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ ﴾<sup>(٢٢٨)</sup>، وقوله: ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾<sup>(٢٢٩)</sup>، وقوله: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أي: فأَي الطائفتين أصوب الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟.

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الأمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة.

روى البخاري بسند عن علقمة بن عبد الله<sup>(٢٣٠)</sup> قال: لما نزلت: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ قال أصحابه: وأئنا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٢٣١)</sup>.

هذا هو الأمن الناتج عن الإيمان الصادق، وهذه هي الطمأنينة التي تملكت شعور أئبنا إبراهيم عليه السلام، وذلك حين رأى الآيات والمعجزات تلو المعجزات، فبعد أن رأى عدة براهين وأدلة، ومرت عليه التجارب، يقص علينا القرآن قصة جديدة، وتجربة أخرى مرّ بها إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ

(٢٢٧) هو: عبد الله بن عباس حبر الأمة وفقهه العصر وإمام المفسرين أبو العباس عبد الله بن عم رسول الله العباس بن عبد المطلب شيبه بن هاشم الهاشمي المكي الأمير، ولد في شعب بني هاشم قبيل الهجرة بثلاث سنين، صحب النبي وحدث عنه، توفى النبي وعمره ثلاث عشرة سنة، وقد دعا له النبي بالحكمة، توفى في سنة ٦٨هـ وقيل: ٦٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢/٢٣١ وما بعدها، وانظر: طبقات المفسرين للسيوطي ٢٣٩/١.

(٢٢٨) سورة الشورى: آية ٢١.

(٢٢٩) سورة النجم: آية ٢٣.

(٢٣٠) هو علقمة بن عبد الله بن سنان البصري، روى عن أبيه ومعقل بن يسار، وابن عمر، وعنه قتادة وحميد وعوف الأعرابي وغيرهم، ذكره ابن حبان في الثقات، توفى في خلافة عمر بن عبد العزيز، قال البخاري في التاريخ الصغير، مات سنة مائة. انظر: تهذيب التهذيب ٧/٢٧٥.

(٢٣١) سورة لقمان: آية ١٣. وقد سبق تخريج الحديث، ص ٥٢.

(٢٣٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/١٥٢.

قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۗ قَالَ فَاخْذُ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّمَّهِنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا ۖ وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٣﴾. جاء في التحرير والتنوير (... أو هو كإبراهيم إذ قال: رب أرني .. إلخ، فإن إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس.

وقوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ معناه: ليثبت ويتحقق علمي، وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة، وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشبهة عن العقل، وذلك أن حقيقة يطمئن: يسكن، ومصدره: الاطمئنان، واسم المصدر: الطمأنينة، فهو حقيقة في سكون الأجسام، وإطلاقه على استقرار العلم في النفس وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردد وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى مساوياً للحقيقة، يقال: اطمأن باله واطمأن قلبه.

والقلب مراد به العلم؛ إذ القلب لا يضطرب عند الشك، ولا يتحرك عند إقامة الدليل، وإنما ذلك للفكر، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس، وانشرح النفس به، وقد دلَّه الله على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين. وجيء به (من) في قوله ﴿مِّنَ الطَّيْرِ﴾ للتبويض للدلالة على أن الأربعة مختلفة الأنواع.

والظاهر أن حكمة التعدد، الاختلاف زيادة في تحقق أن الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عُدَّت الأنواع، ولعل جعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع: المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا يظن لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتي الإحياء... (٢٣٤).

إذن: فالعقيدة الدينية تعتمد الحقائق الثابتة، وتعطي الإنسان التصور الشامل الكلي الذي يربطه بقوى الكون من حوله ظاهرة وباطنة، فيتولد لديه إحساس بالعبودية لرب هذا الكون ويشعر بنوع من المواخاة بينه وبين هذه القوى الكونية الكبرى، فيزداد ثقة وطمأنينة وأمناً، حيث يشعر أنه وهذه القوى يسيران في مسار واحد، وينهجان لرب واحد، فلا يخاف غيره ولا يخشى سواه.

كما أنها تحقق أمن الإنسان فرداً ومجتمعاً ودولة وأمة حين توضح للإنسان غايته وتوضح له اتجاهه وتقرر طاقاته وقدراته وتوجهها وجهة تفيد ولا تضر وتعمر ولا تخرب

(٢٣٣) سورة البقرة: آية ٢٦٠.

(٢٣٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٢٨/٣، ٢٩.

وتبني ولا تهدم؛ لأنه بأصل العقيدة محاسب على كل فعل ومسؤول عن كل تصرف، فلا يجوز أن يصدر منه ما يضر بالإنسان فرداً كان أو مجتمعاً أو دولة.

(وقوة الثقة في الله وهي العقيدة تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقة وتجمع طاقاته وقواه كلها وتدفعها في اتجاه واحد، كذلك قوتها قوة تجمع القوى والطاقات حول محور واحد، وتوجيهها في اتجاه واحد تمضي إليه مستنيرة الهدف في ثقة ويقين، والشخصية الإنسانية السوية وحدة متماسكة، فهي في حاجة إلى عقيدة موحدة تصدر عنها في كل اتجاه، وتستلهمها في الشعور والسلوك وتستهديتها في مواجهة الكون والحياة، وترجع إليها في كل صغيرة وكبيرة لتكون نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياتها ونشاطها فلا تتمزق ولا تتبعثر ولا يدركها القلق والحيرة والاضطراب، وكلما قويت هذه النقطة واشتدت صلاتها بالخيوط المنبثقة هنا وهناك في حياة الفرد ونشاطه كانت شخصية أقوى؛ لأنها أكثر تجمعاً وكانت خطوات أهدى؛ لأنها أوحده طريقاً) (٢٣٥).

وهل عانت البشرية المعاصرة بحضارتها المادية إلا عندما غابت العقيدة الصحيحة عن حياتها فعاشت مرارة القلق والخوف والاضطراب ولم يغن عنها إنجاز علمي ولم يسعفها من ويلات الجرائم والأمراض النفسية تقدم الآلة حين تأخر الناس.

ومن هنا فإن الحالة والأمر كذلك توجب على المسلمين أن يقدموا بدائلهم، ولا بد أن تكون من خلال عقيدتهم الدينية وما تحققه هذه العقيدة من أمن في حياة الأفراد والجماعات، خاصة وقد فشلت المناهج هناك وتجاوزها الناس بحثاً عن دليل.

وإذا كانت طبيعة العقيدة الدينية لدينا نحن المسلمين تفرض عليها أن نقدم الخير للإنسان كل إنسان في كل مكان وفي كل جبل، فإننا مطالبون قبل أن نقدم الخير للناس من خلال منهج الإسلام وما يحققه من أمن أن نصوصغ من معاني العقيدة ومنهج الإسلام ما نعالج به مشاكلنا، وما نصيب به حياتنا في مجالاتها المختلفة، فيبتدى منهج الإسلام في تحقيق الأمن اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وعلمياً؛ لأن الإيمان معنى شامل يتخلل كل وجود المؤمن؛ وينبغي أن يتمثل في كل لحظة ولمحة من حياته، فعقيدة الإيمان تقوم على التوحيد، وهي موقف كلي ليس لوجوه التعبير عنها من حصر؛ لأن مسرحها الحياة الإنسانية جميعاً فحيثما وقعت وقائع الحياة من فكر أو ذكر أو فعل أتيح مجال للعبادة وحيثما كانت عبادة فهي تحقيق للعقيدة وتربية لها في الوقت ذاته.

فالدين لا يشرع للإنسان في فراغ، وإنما يتحقق من خلال العيش في الأرض والتفاعل مع أشتاتها وبشرها، ومن ثم تتم معرفة الرب وتقديم الغيب، وتكون عبادته تعالى والسعي نحو لقائه، وإذا عاش الإنسان هذه العيشة، ونهج المجتمع هذا النهج المتمثل في معرفة الله والإيمان به والإيمان بالغيب، ومحبة لقاء الله سبحانه وتعالى فقد رسخت عقيدته، وكان العيش آمناً والحياة مطمئنة فلا ظلم ولا عدوان، ولا انتهاك حرمان وأعراض، وبالتالي فلا فزع ولا خوف، بل إن الأمن هو السائد، والعيشة الهنيئة هي الموجودة حتى يصل إلى غايته، ويبلغ مرامه، وهو لقاء الله تعالى، والحصول على مرضاته. ولا شك أن كل إنسان سيفارق هذه الحياة وسيقدم على ما قدم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ۗ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۗ فَسَوْفَ نَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۗ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۗ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۗ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۗ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۗ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۗ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ نَحُورَ ۗ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۗ﴾ (٢٣٦).

جاء في زاد المسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إنك عامل لربك عملاً.

الثاني: ساع إلى ربك سعياً.

قال الزجاج: والكدح في اللغة: السعي، والدأب في العمل في باب الدنيا والآخرة (٢٣٧).

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ قولان:

أحدهما: عامل لربك.

الثاني: إلى لقاء ربك. وفي قوله تعالى: ﴿فَمُلْقِيهِ﴾ قولان:

أحدهما: فملاق عمك.

والثاني: فملاق ربك كما ذكره الزجاج (٢٣٨) (٢٣٩).

(٢٣٦) سورة الانشقاق: آية ٦- ١٥.

(٢٣٧) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٠٤/٥.

(٢٣٨) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٠٤/٥.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٦٦﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٦٧﴾ ثُمَّ جُزئُهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٦٨﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٦٩﴾. »

فإذا كمل الإيمان في نفس المرء وخلصت عبوديته لله سرت روح الدين في حياته جميعاً، وانتظم كل عمل يعمله نتيجة الظروف التي تلقىها بين يديه أقدار الله، فتجلى العقيدة في المجال السياسي إفراداً لله بالحاكمية ورفضاً لحكم الهوى والطاغوت، ومخافة لليوم في تصريف السلطة والولاية، ومجاهدة لقوة الباطل في سبيل الله. وتظهر العقيدة في المجال الاقتصادي إقراراً في شأن المال بملكية الله له وخلافة البشر فيه وتوجيهها للسعي في الرزق نحو مقاصد العبادة وعكوفاً عن التعبد للمتاع، والقيام في علاقات المعاش بمقتضى تقوى الله وطاعته.

كما تظهر العقيدة في المجال العلمي توحيداً لمعقول العلم ومنقوله في سبيل الازدياد من معرفة الله وتسخييراً له من أجل الاتساع في عبادته، وليس ما ذكرت فحسب بل إن العقيدة تمثل كل وجه من وجوه الحياة، وتتكشف العبادة كلما تشبعت تلك الوجوه، فإذا صح الإيمان ووقر في النفس فاض في واقع الحياة حتى تغدو كلها مشهداً له يحققه ويصدقه آمناً وطمأنينة ومحبة وسلاماً.

وإذا أصابته العلة انحسر عن بعض نواحيها حتى إذا غاب عنها ظهر الفساد في مظاهرها وانتشرت الانحرافات والجرائم رغم الاضطراب وساد الفوضى ورُوع الفرد والمجتمع ولم يعد هناك أمن أو أمان في شيء من نواحيها. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا ﴿٦٧﴾ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٦٩﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧١﴾. ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا

(٢٣٩) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٦٣/٩، ٦٤.

(٢٤٠) سورة النجم: آية ٢٩ - ٤٢.

(٢٤١) سورة الأعراف: الآيات ٩٦ - ٩٩.

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٧٤٧﴾ «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ  
ءَامِنُونَ ﴿٧٤٣﴾».

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
فَأُولَٰئِكَ هُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الَّغْرَفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ ﴿٧٤٤﴾ . ﴿ وَالْوَالِدُوا الَّاسْتَفْمَا  
عَلَى الطَّرِيقَةِ لِاسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ ﴿٧٤٥﴾ .

فالإيمان بالله قوة دافعة دافقة، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها، وتوجه بها إلى وجهة واحدة، وتطلقها تستمد من قوة الله، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارته وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها... وهذه من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، لا يعرفون الإيمان بالله ولا يعرفون الحياة، وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله - سبحانه وتعالى - وكفى بالله شهيداً، ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس.

ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً، دانت لهم الدنيا، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض، وتحقق لهم وعد الله وبارك الله لهم في رزقهم قليلاً كان أو كثيراً، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح.

وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق، وينتظرها الانحلال، فهي قوة بلا أمن وهو متاع بلا رضى، وهي وفرة بلا صلاح، وهو حاضر زاو يترقبه مستقبل نكد. وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال ﴿٢٤٦﴾ .  
﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيْنَمَا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٤﴾ أُوَٰمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا  
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٧٥﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿٧٤٧﴾ .

(٢٤٢) سورة النحل: آية ١١٢ .

(٢٤٣) سورة النمل: آية ٨٩ .

(٢٤٤) سورة سبأ: آية ٣٧ .

(٢٤٥) سورة الجن: آية ١٦ .

(٢٤٦) انظر: في ظلال القرآن ١٣٣٨/٢، ١٣٣٩ بتصرف.

(٢٤٧) سورة الأعراف: الآيات ٩٧ - ٩٩ .

هنا تأتي الموعظة التي تطرق القلوب، وتشد الأحاسيس، وتفرغ مشاعر الإنسان وتضعه في موقف الخوف والرهبة وتصهره بكل ألوان التعذيب والتضييق والتشكيل، وتذكره بيوم آتٍ قريب إذا ما وقع في الشر وأصر عليه، وتصور نفسه آمناً في الوقت الذي هو فيه أبعد ما يكون عن الأمن؛ لبعده عن منهج الله؛ ولبعده عن العقيدة الصحيحة والنهج القويم الذي كان النبي ﷺ، ذلك النهج الذي جعله آمناً مطمئناً في وقت كان الخوف والفرع هو الأولى والأقرب، في لحظات تتجلى فيها حقائق الإيمان الصادق والعقيدة الراسخة ويحل الأمن مكان الخوف والطمأنينة مكان القلق والسكينة مكان الاضطراب، ينجلي ذلك في كلماته ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهما في الغار والمشركون ينبشون الأرض بحثاً عنها فيقول الصديق رضي الله عنه: لو نظر أحدهم من عند قدميه لرأنا، فيرد المصطفى ﷺ: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما" (٢٤٨).

﴿ إِلَّا تَعَصُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۗ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٤٩).

جاء في التحرير والتوير عند تفسير قوله: (فأنزل الله سكينته عليه) إلخ: (التفرغ مؤذن بأن السكينة أنزلت عقب الحلول في الغار، وأنها من النصر؛ إذ هي نصر نفساني، وإنما كان التأييد بجنود لم يروها نصراً جثمانياً، وليس يلزم أن يكون نزول السكينة عقب قوله: (لا تحزن إن الله معنا) بل إن قوله ذلك هو من آثار سكينة الله التي أنزلت عليه، وتلك السكينة هي مظهر من مظاهر نصر الله إياه، فيكون تقدير الكلام: فقد نصره الله فأنزل السكينة عليه وأيده بجنود حين أخرجه الذين كفروا، وحين كان في الغار، وحين قال لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا، فتلك الظروف الثلاثة متعلقة بفعل "نصرة" على الترتيب المتقدم، وهي كالاعتراض بين المفرغ عنه والتفريع، وجاء نظم الكلام على هذا السبك البديع للمبادأة بالدلالة على أن النصر حصل في أزمان وأحوال ما كان النصر ليحصل في أمثاله لغيره لولا عناية الله به وأن نصره كان معجزة خارقاً للعادة) (٢٥٠).

إن: فالعقيدة من أم مصادر الأمن وصاحب العقيدة السليمة من أكثر الناس أمناً؛ وذلك لقناعته التامة بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإيمانه بأن ما قدم

(٢٤٨) سبق تخريجه، ص ٤٦.

(٢٤٩) سورة التوبة: آية ٤٠.

(٢٥٠) تفسير التحرير والتوير ٢٠٣/١، ٢٠٤.

لنفسه من عمل فسيلاقبه عند من لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فتستقر في نفسه مراقبة الله في كل أعماله وأقواله، فلا يؤدي أحداً، ولا يروع إنساناً لقناعته بأن ذلك محسوب له أو عليه.

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٢٥١﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٥٢﴾. »

تتحدث هذه الآية عن حال الناس يوم القيامة وهم قسمان: قسم آمن مطمئن، وقسم خائف وجل، في ذلك اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفرع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم، والأمن من هذا الفرع وحدة جزاء، وما بعده فضل من الله ومنة، فلقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفرع الآخرة، بل أمنهم يوم يفرع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، أما الفريق الآخر وهو الذي آمن في الدنيا فإنهم يكونون في النار على وجوههم، ويزيد عليهم يومئذ التبكيت والتوبيخ؛ إذ لا يجتمع أمان كما أنه لا يجتمع خوفان.

فالعبارة في الآخرة بالأعمال، لا بالأموال، وبالتقوى والخوف من الله لا بكثرة الأولاد والعشيرة فيومئذ لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأعمال صالحة، ومعتقد موافق لما جاء عن الله سبحانه وتعالى، وقدم لنفسه عملاً صالحاً: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ هُم جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٥٢﴾. »

كما أن العقيدة تظهر أيضاً في المجال الاجتماعي تماسكاً في الأسر وحنواً بين أفرادها وتراحماً بين الغني والفقير، وتعاطفاً بين المؤمنين في شتى المجالات، كما تظهر العقيدة الدينية جمعاً لوحدهم وتوحيداً لصفوفهم وغايتهم، وتوجيهاً للطاقات فيما يحقق الأمن للفرد والمجتمع، وكل ذلك من خلال الضوابط الدينية التي تقررها تلك العقيدة في حفظ الدماء والأموال والأعراض بما يحقق للفرد والمجتمع أمنه وكرامته، فلا يروع بعدوان، ولا يبيت مؤرق اليوم والغد تحت وطأة الخوف على نفسه أو ماله أو عرضه؛ لأن العقيدة التي تسوس المجتمع ويلتقي عليها أبنائه تحقق هذا الأمن لكل فرد في المجتمع وتحيط الجميع بسياج من الطمأنينة والأمن في ظل حياة مطمئنة وسعيدة.

(٢٥١) سورة النمل: آية ٨٩، ٩٠.

(٢٥٢) سورة سبأ: آية ٢٧.

ولعله من المفيد أن نتذكر كيف جمع الإسلام العرب وكانوا شعوباً ممزقة الكيان كل طائفة تدين بولاء قبلي معين وولاية سياسية مستقلة، وبين هذه الطوائف والولايات تقع الحروب المضنية التي تأكل الأخضر واليابس، وتتهك القوي وتروع الجميع من الجميع فلا أمن ولا أمان، وعندما جاء الإسلام بعقيدته الدينية الفعالة أحالهم بعد الشقاق إخواناً وجعلهم بعد التشردم والتبعثر أمة واحدة تواجه عدوها وتدفع عن نفسها عدوان الآخرين حتى تحقق لهم بالإسلام عزهم فتصدروا للقيادة السياسية التي امتدت لتشمل أطراف الأرض ولم يكن ذلك كله بعدوان أو بغي، وإنما كان أصلاً بعناصر الخير والصلاح والإحسان الذي تنشئه هذه العقيدة في نفوس أصحابها وهي تربط بين الواقع النفسي للمجتمع وبين الواقع الخارجي له؛ ذلك أن الربط بني هذا الواقع وذلك مهم جداً في فهم السنن الكونية التي يتعامل معها المسلم من خلال عقيدته الدينية، فالله جل جلاله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٣)، ﴿لَهُ مَعْقِبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (٢٥٤).

والله تعالى قد بين في أكثر من موضع أن الإيمان به والتزام العقيدة الصحيحة سبب في الأمن والاطمئنان والسكينة واستمرار الرزق، وأن الكفر والبغي سبب في الخوف وزوال ذلك الأمن: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٥٥).

وهذه الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذه القرية تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن، فقوله عن هذه القرية: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً﴾ قال نظيره عن أهل مكة كقوله ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ (٢٥٦)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وُتِيحَاطُفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (٢٥٧)، وقوله ﴿وَأَمْنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ (٢٥٨)،

(٢٥٣) سورة الأنفال: آية ٥٣.

(٢٥٤) سورة الرعد: آية ١١.

(٢٥٥) سورة النحل: آية ١١٢.

(٢٥٦) سورة القصص: آية ٥٧.

(٢٥٧) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

وقوله: ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾<sup>(٢٥٩)</sup>، وقوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِّنًا ﴾<sup>(٢٦٠)</sup>، ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال نظيره عن أهل مكة أيضاً كقوله: ﴿ تَجِبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾<sup>(٢٦١)</sup>... إلخ، وقوله: ﴿ فَكَفَّرَتْ بِأَنعَمِ اللَّهِ ﴾ ذكر نظيره عن أهل مكة في آيات كثيرة، كقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبْوَارِ ﴾<sup>(٢٦٢)</sup>.

وقوله: ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وقع نظيره قطعاً لأهل مكة؛ لما لجؤا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال: "اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف"<sup>(٢٦٣)</sup>. فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء حتى أكلوا الجيف والعلحز- وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه- وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن، وذلك الخوف من جيوش رسول الله ﷺ وغزواته وبعوثه وسراياه، وهذا الجوع والخوف أشار لها القرآن علي بعض التفسيرات، فقد فسر ابن مسعود<sup>(٢٦٤)</sup>. آية الدخان بما يدل على ذلك.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ مُطْمَئِنَّة ﴾ أي: لا يزعجها خوف؛ لأن الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف<sup>(٢٦٥)</sup>.

ورغم أن الآية مكية وعن مكة إلا أنها مثل لكل قرية وتحذير لكل أمة يندرج تحت عمومها القرى التي دمرها الله، وذلك لما بطرت معيشتها.

إذن: فالارتباط بين العقيدة الصحيحة والأمن وثيق جداً، فإذا ما نهج الفرد والمجتمع نهجاً سليماً من خلال هذه العقيدة الصحيحة أمكن لهذا الفرد والمجتمع أن يُعَيَّرَ غيره، وأن يطبِّع جوانب الحياة المتعددة بالقيم الجديدة التي أرسنها هذه العقيدة وأن ينتقل بهذا التغيير إلى

(٢٥٨) سورة قريش: آية ٤.

(٢٥٩) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٢٦٠) سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٢٦١) سورة القصص: آية ٥٧.

(٢٦٢) سورة إبراهيم: آية ٢٨.

(٢٦٣) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير) رقم الحديث (٤٨٢١). فتح الباري ٥٧١/٨، ومسلم في صحيحه (كتاب صفات المنافقين، باب: الدخان) ٢١٥٧/٤.

(٢٦٤) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمع، أبو عبد الرحمن الهذلي حليف بني زهرة، كان إسلامه في نواحي الإسلام قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمان، وهو أول من جهر بالقرآن في مكة، هاجر الهجرتين جميعاً إلى الحبشة وإلى المدينة، وصلى القبلتين، وروى عن الرسول ﷺ، تولى رضي الله عنه بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ودفن بالبقيع وعمره بضع وستون سنة. انظر: أسد الغابة ٢/٣٨٤، ٣٩٠، وسير أعلام النبلاء ٤٦١/١.

(٢٦٥) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٢/٢٧٢، وما بعدها يتصرف.

غيره فيحرر الإنسان كل الإنسان، ويحرر عقول المجتمعات من الوثنيات التي فرضت عليها ويحطم في سبيل ذلك كل القيود والأغلال التي ترسخ تحت وطأتها شعوباً ومجتمعات، وهذا ما فعلته العقيدة الدينية بأصحابها، حيث انتقلت بهم من حياة إلى حياة ثم انتقلت معهم إلى أمم شتى من الأرض بادرت باعتراف الدين الجديد لما رأت أمة تمتلئه وتحياه وتعيش له، وقد كانت بالأمس القريب لينة ومبعثرة ومشردمة وأمّية متخلفة، فإذا بها اليوم قائدة ورائدة، وإذا بخوفها يتبدل أمناً وتشرذمها يتبدل وحدة متماسكة، وتخلفها وذلكها ينقلبان تقدماً وعزاً، وهذه النهضة الرائعة السريعة إنما تعود أصلاً وبداية ونهاية لأثر الإيمان وإصلاح العقيدة وما له من فعالية في أمن الفرد والمجتمع.

ولنا أن نرد هذه النهضة الهائلة السريعة إلى دوافع الإيمان الفياضة التي هاجت ذلك الجيل الإسلامي الأول وعبأت طاقاته في حملة ضخمة تفاعلو فيها مع ظروفهم الجديدة فسادوا ذلك المجد الشامخ.

ولنا أيضاً أن ننظر كيف خبا وفد الإيمان من بعد، وخلف خلف ذبلت في نفوسهم معاني الدين الحية، وغلب عليهم اتخاذ الدين نظاماً لظاهر الحياة فتعرت تلك الدفعة وتلاشت قواها.

ولنا أيضاً أن نتأمل موكب التاريخ الإسلامي اللاحق لنرى أنه ما تتبعث الحياة في عقيدة المسلمين في بقعة أو فترة ما إلا لتولد تياراً فعلاً يحدث أثراً ملموساً في بعض حياتهم أو كلها حيثما اتجهت طاقته، ثم لا يسقط إلا إذا أدركه فتور العقيدة أو هدنة ظروف قاهرة تستدعي قدراً أعظم من الإيمان.

وللباحث أن يرقب تاريخ الأديان ليقف على مشاهد شتى لشدة فعل العقيدة في سياق ظروف مختلفة وعلى شواهد بيّنة لأثر أمراض العقيدة في انحطاط المجتمع وشيوع الجرائم وانتشار الخوف، حين يصبح الدين مراسم ومظاهر والنفوس خواء من الإيمان أو حين يتوفر الحماس الديني بغير هدى من علم.

فإذا تسنى لنا بالتحليل والتدبير أن نكتشف في الإيمان عناصر أمن الفرد والمجتمع أمكننا أن نفسر النهضة الدينية ونقدر إمكانات الانبعاث في المستقبل على أساس من الإيمان، غير أنني لا أريد إحصاء آثار الإيمان في أمن المجتمع استنباطاً من النصوص التي تبشر المؤمنين بحسن المآل هنا؛ لأن ذلك سيأتي في موضعه-إن شاء الله-وإنما أريد أن أنظر في طبيعة الاعتقاد الديني وشعابه ومقتضياته كي تقدر النتائج التي تترتب عليه-بالنظر الظاهر حسب أسباب الدنيا المعهودة-أمناً وطمأنينة وازدهاراً.

إن البشر لا يعالجون قضايا الحياة إلا بإدراك عليل وعلم قليل، فليس لبشر-مهما أنهم النظر وولاه- أن يحيط بأبعاد التأثير النافع للإيمان ولا يغني المؤمن إلا أن يطلب ذلك في نصوص الوحي المنقول ليتم له العلم ويكتمل التصور.

وربما يفهم من خلال الحديث عن أثر الإيمان في أمن الفرد والمجتمع أنني قصرت الحديث على آثار الإيمان العاجلة التي تحدث في دنيا الناس فتقيم لهم أمورهم وتصلح معاشهم ومحياتهم، ولا ريب أن الدار الآخرة هي الحيوان في حساب الدين وأن عيشها خير من عيش الدنيا وأبقى، وأن غاية الإيمان وما يواكبه من عبادة وعمل إنما هي ابتغاء وجه الله وأن ثمرته العظمى وأثره الأجل هو مفتاح الفوز يوم القيامة بالنعيم العظيم، فما من بشارة دينية بنعيم الآخرة إلا جاءت مقرونة بشرط الإيمان، والعمل الصالح شاهد له، وما من نذارة بالشقاء إلا جاءت رهينة بالكفر والتولي، تلك معايير لا حاجة لان يستشهد لها بنصوص هنا؛ لأن لها من البحث نصيبها؛ ولأنها من بدائه الدين ومقتضياته الأساسية، والإيمان بها عماد الدين لا قوام له من دونها، ولكن الدين يقضي أيضاً بأن الحياة العاجلة مطية الآجلة، وأن الطريق الراشد الذي ينتهي إلى آخرة طيبة يعبر الدنيا فيطيبها، فعلاج الدار الأولى فضله تنتج بين يدي صلاح الآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٦٦).

فلإيمان آثار جليلة في أمن الناس وطمانينتهم، بل وحياتهم كلها؛ لأنه يبعث على عمران الأرض بالصلاح وصونها من الفساد بوجه لا يضاويه شيء مما يحاول الناس بغير الدين.

ولا نتوهم أن أمن الإنسان في الدنيا هو الغاية، بل لا نتوهم أن الدنيا كلها هي مبلغ علم المؤمن أو أكبر همه، فليس من الدين أن يبتغي المرء بليمانه عرض الدنيا القريب دون الآخرة، بل تلك بغية خائبة وسعي مردود لا محالة؛ لأن إيماناً كهذا عقيدة عقيمة لا تثمر في عاجلة ولا آجلة كما لا يستقيم في طبع المسلم الفصل بين نظام الدين العملي وبين عقيدته.

فالأحكام الفرعية العملية إنما هي وجه من وجوه التعبير عن الإيمان في واقع الحياة وهي في ذات الوقت أسباب تركية لمعانية في النفوس، كما أن الإيمان ينصب الغاية التي ينبغي أن يتجه إليها كل عمل ويتمثل القاعدة التي تندفع عنها طاقاته، فالدين واحد في معاينة تتكامل فيه العقيدة والشريعة.

فالعقيدة تدفع المؤمن لأصالح الأعمال وتضبطه عن سيئاتها، وتخط له معالم الخير والشر في الحياة، والشريعة بمبادئها العامة وأحكامها الفرعية هي دليل العمل ونظامه، تبين اتجاهاته وأشكاله وترسم علاقاته وحدوده.

فبالإيمان يستمد المرء قوته ويهتدي إلى وجهته في الحياة، وبالشريعة يتعلم أي نحو مفصل ينحو بعمله في واقع أحواله المعينة كما يتعرف دقائق نظم السلوك وضوابطه.

وما دام الإيمان واتباع الشريعة وجهين للدين متلازمين متكاملين، فإن الآثار الخيرة الناتجة عنهما في الحياة الدنيا يمكن أن ترد بحق لأي منهما.

(فالإيمان سبب في منافع الدنيا ومتاعها؛ لأن معراج الروح، وانسراح الناس أمام مسؤولياتها الضخمة في الحياة، فمن عمر قلبه بالإيمان بالله صفت نفسه واطمأنت وصمت عواطفها الإنسانية وسارع إلى الخير وسابق إليه وكان مشعل النور والهداية حيثما حل، مستقيماً في الحق بعيداً عن الهوى والأنانية والشح، فلا وجل ولا خيانة ولا غش ولا احتكار ولا أمعية ولا هدر للعقل ولا تقليد أعمى ولا امتهان للفكر ليسير وراء كل ناعق أو ترفل لكل سيد، وإنما هو قلب خاشع ولسان ذاكِر وعقل واع يستوهب هداية الله وينطلق في ملكوت الله ليكشف قوانينه فيه ويسخر لعباده ليحمر الأرض، كما ينطلق في المجتمع الإنساني ليقومه أمناً مطمئناً صافياً نقياً مما قد يهدم الحياة ويروع الأحياء أو يحذرهم) (٢٦٧). ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٦٨﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿٢٦٩﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢٧٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿٢٧١﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿٢٧٢﴾.

هذا التلازم الوثيق بين الإيمان والتعاليم العملية يبلغ ذروته في دين الإسلام الذي احتفظ بنسجه الرباني الموضوع، وتكامله الموزون ولم تخالجه اختلافات الوضع واختلافاته.

فالشريعة بهذا الوضع من صميم ما يشمله البحث لما لها من أثر عام في حياة الأفراد والجماعات يحمي دماءهم وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم وحریتهم بما تضعه الشريعة من

(٢٦٧) مدخل إلى التصور الإسلامي للإنسان والحياة للأستاذ. عابد توفيق الهاشمي، ص ١١٨.

(٢٦٨) سورة طه: الآيات ١٢٢ - ١٢٧.

ضوابط تحدد العلاقات وتنظم شؤون المجتمع وتؤمنه سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ونفسياً وأدبياً.

فالعقيدة والشريعة أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ولا يتم إيمان المرء ولا يكمل إلا به، كما لا يصلح أمر المجتمع ولا يأمن إلا بهما معاً. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>(٣٦٩)</sup>. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>(٣٧٠)</sup>.

وإذا كان العلماء قد أكدوا على وجوب توفر المبادئ السلوكية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لقيام مجتمع ما، فإن أمن هذا المجتمع واستقراره لا يتأتى أصلاً ما لم يكن الفرد فيه آمناً على نفسه، ولا يمكن لهذه المبادئ أن تؤدي أكلها وثمارها وأن تؤدي دورها إلا إذا نبعث من عقيدة صحيحة انبعثت من ملة سليمة تستهدف صلاح الفرد وصلاح المجتمع، ومن هنا يأتي دور العقيدة الدينية الصحيحة كمقوم أساسي من مقومات أمن المجتمع، بل إن كل مقومات الأمن في المجتمع سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو عسكرية لا يمكن أن تتأتي بشكل يوفر أمن المجتمع إلا من خلال العقيدة الدينية، ذلك أن العقيدة الدينية هي الرباط الجامع بين أفراد المجتمع الواحد، كما هي الرباط الجامع بين شعوب متباعدة الأوطان وهي العنصر الأساسي في تماسك الفرد والمجتمع، وتوافق مطالب الفرد ومطالب الجماعة دون أن تجور على طرف لحساب طرف آخر.

إنها العقيدة التي تحصن الإنسان بالنقوى ومخافة الله وتتمي لديه الشعور بالمسؤولية الذاتية تجاه نفسه وتجاه الآخرين، كما أنها تجعل الإنسان مستحضراً لمراقبة الله في كل عمل ومسؤولاً أمام ربه عن كل فعل من أفعاله كافة فيتولد لديه الضمير الإنساني الحي الذي يحاسب على القول والفعل ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويوجه نحو الخير طاقاته وطاقات المجتمع، ويلجم نفسه وغيره عن الشر، وكل ذلك بدافع من إرضاء الخالق سبحانه مما ينعكس على حالته النفسية بالرضا والاطمئنان.

كما أنها العقيدة التي تحرر الإنسان من خوف الخلق حيث لا يستطيع بشر أن يضرك أو ينفك إلا بإذن الله تعالى. ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٣٧١)</sup>. ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ

(٣٦٩) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٣٧٠) سورة النساء: آية ٦٥.

(٣٧١) سورة الأنعام: آية ١٧.

إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۗ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ  
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧٢﴾.

وقال جلَّ اسمه: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۗ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا  
مُرْسَلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧٣﴾.

هذه المعاني تحرر الإنسان قلباً وعقلاً وفكراً وضميراً، فينطلق في دنياه غير خائف من شيء، يدعم الحق ويحمي أهله ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويبذل النصيحة، ويسدي الجميل، وينشد الكمال ويدفع إليه، كما أنها العقيدة الوحيدة التي تحرر الإنسان من خوف الرزق، فلا يخضع لبشر في باطل خوفاً على حياة أو خشية على رزق مما يجعل الإنسان حراً طليقاً، اللهم إلا من قيود الدين والأخلاق التي فرضتها العقيدة الصحيحة لتحمي بها حركة الفرد وحركة المجتمع، ويحدث التوافق والانسجام بين حاجات الفرد ومطالب المجتمع مما يكون له الأثر البالغ في أمن الفرد والمجتمع اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً وسياسياً وداخلياً وخارجياً.

ولا يقتصر دور العقيدة الدينية في تلك المجالات فقط، وإنما هي عقيدة يتفرع عنها نظام عام ينظم علاقة الأفراد بمجتمعاتهم، وينظم علاقة المجتمع بغيره من المجتمعات سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعلمياً وأدبياً وأخلاقياً، وهذا النظام الذي يتولد عن العقيدة هو ما يعرف بالتشريع الذي يستوجبه الإيمان بالله وطاعة رسول الله ﷺ.

ومن هنا يتوجب على الأمة الإسلامية أن تفهم القرآن نصوصاً وتستنبطه أحكاماً وتطبقه تشريعه وتحتكم إليه في جميع شؤونها ثم تحمله إلى الدنيا كلها ليلبغ العالم كله الخير العميم الذي جاء به القرآن وفرضته عقيدة الإسلام.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢٧٤). وقال تعالى ﴿ الرَّ كِتَابٌ أُنزِلَتْهُ إِلَيْكَ

(٢٧٢) سورة يونس: آية ١٠٧.

(٢٧٣) سورة فاطر: آية ٢.

(٢٧٤) سورة النساء: آية ٦٥.

لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٢٧٥﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢٧٥﴾.

ففي صدق العبودية لله تعالى وصدق الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يطاوله عز، وفي صدق الافتقار إليه غني لا يشهده فقر، وفي صدق الإيمان به أمن لا يصل إليه ظلم الحكام ولا استبداد المستبدين وقطاع الطرق. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٧٦).

فنحن إذا أمام عقيدة تبني مجتمعها على الحب والعدل واحترام الحق وحماية القيم وتؤمن الإنسان في نفسه وماله وعرضه، وترفض حلول الصراع الطبقي، لأنه يقوم على الحقد، والنظام الذي يبنيه الحقد يهدمه الانتقام، أما النظام الذي يبنيه الحب يحميه الإنسان وفي أحداث التاريخ قديماً وحديثاً خير برهان وأصدق شاهد ودليل.

## ثانياً

### أداء الواجبات

#### تمهيد:

لقد أوجب الله تعالى على العباد واجبات محتومة وعبادات مفروضة لها أثرها الواضح ومردودها الفعال في حفظ الأمن والحيلولة دون وقوع الجريمة، والناظر إلى التشريع المحكم يجده قد دعا المسلمين إلى الوحدة من طريق عملي وتطبيقي كما دعاهم في نداءاته ووصاياهم من خلال الهدى القرآني والسنة المشرقة، فلقد طبق الرسول صلوات الله وسلامه عليه معالم التضامن الإسلاميين ووجد بين المسلمين في أول أساس من أسس المجتمع الإسلامي قبل وبعد الهجرة، حيث آخي بين المهاجرين والأنصار وأبرم وثيقة هذا التضامن في صور من الوحدة والأخوة والتعاون بشكل لا تعرف الدنيا مثيلاً له، وأرسى الرسول ﷺ دستور الحياة الذي تلقى عنده الأمة الإسلامية وتجتمع عليه، ويصبح كل المؤمنين كالجسد الواحد يقول النبي ﷺ: "مثل

(٢٧٥) سورة إبراهيم: آية ١، ٢.

(٢٧٦) سورة الأنعام: آية ٨٢.

المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر"<sup>(٢٧٧)</sup>. رواه مسلم.

وبهذا يسود المجتمع الأمن والطمأنينة فلا أحد يعتدي على أحد؛ لأن الجميع كالجسد الواحد.

وتمضي تشريعات الإسلام في غرس أصول الواحدة وتقوية روح التضامن بين المسلمين في الصلاة وفي الصوم وفي الزكاة وفي الحج...، فصلاة الجماعة لها من المثوية والأجر ما يزيد على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة أو خمس وعشرين درجة، وفي صلاة الجماعة اجتماع أسبوعي كبير، وفي صلاة العيدين اجتماع أكبر في كل عام، ثم في فريضة الحج اجتماع أكبر لأعظم عدد ممكن من مختلف الأقطار الإسلامية من شتى الألوان، وفي فريضة الصيام غرس لمعاني الوحدة في وقت واحد يمسك المسلمون عن الطعام والشراب، وفي وقت واحد يفطرون، وفي الزكاة تكافل اجتماعي وتراحم وتواد بين الغني والفقير وتقريب بين الناس وتوحيد بين المشاعر على الحب والألفة والتعاون.

وإلى جانب دعوة الإسلام إلى الوحدة فإنه يوجه المسلمين إلى التضافر وإلى التعاون والنصرة ويحذرهم من أسباب التخاذل والتهاون، قال ﷺ: "ما من أمرئ يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من أمرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته" رواه أبو داود<sup>(٢٧٨)</sup>.

وحماية لأبعاد هذه الوحدة ناهض الإسلام أولئك المرجفين المثبطين الذين يخرجون عن الطاعة ويفارقون الجماعة فيقول صلوات الله وسلامه عليه: "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية"<sup>(٢٧٩)</sup>. رواه البخاري.

وهنا سآبين أثر أداء الواجبات وما له من دور في ترسية قواعد الأمن وتوثيق الصلة بين أفراد المجتمع وحمائته من كل ما قد يتسبب في زعزعة أمنه وتشتيت كيانه.

(٢٧٧) أخرجه البخاري (كتاب الأدب) رقم الحديث (٦٠١١). فتح الباري ٤/١٠، ٤٣٨، ومسلم (كتاب البر، باب: تراحم المؤمنین وتعاطفهم وتعاضدهم) رقم (٢٥٨٦) ٤/١٩٩٩، ...

(٢٧٨) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب: من رد عن مسلم غيبة) رقم الحديث (٤٨٨٤) ٤/٢٧١.

(٢٧٩) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الفتن، باب: سترون بعدي أموراً تتكرونها) رقم الحديث (٦٦٤٦)

٢٥٨٦/٦، وأبو داود في سننه (كتاب السنة، باب: في قتل الخوارج) رقم الحديث (٢٧٥٨) ٤/٢٤١، والحديث عن

أبي ذر رضي الله عنه.

## أ: إقام الصلاة

قبل الدخول في هذا المطلب ينبغي التعريف بالصلاة ومعنى إقام الصلاة.

قال صاحب مختار الصحاح في كتابه المذكور تحت مادة (ص ل ا): (الصلاة) الدعاء، والصلاة من الله تعالى: الرحمة، والصلاة واحد (الصلوات) المفروضة وهو اسم يوضع موضع المصدر، يقال: صلى صلاة، ولا يقال: تصلىة، وصلى على النبي ﷺ، وصلى العصا بالنار ليتها وقومها، والمصلى: نالي السابق، يقال: صلى الفرس إذا جاء مُصلياً وهو الذي يتلو السابق؛ لأن رأسه عند صلاة أي: مغرز ذنبه) (٢٨٠).

وقال أيضاً تحت مادة (ق و م): (وأقام بالمكان إقامة، وأقامه من موضعه، وأقام الشيء، أي: أدامه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ (٢٨١).

وجاء في الكشاف عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢٨٢).

(ومعنى إقامة الصلاة: تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها، من أقام العود، إذا قومه، أو الدوام عليها والمحافظة عليها كما قال عز وعلا: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٢٨٣)، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ سُخَّافُونَ ﴾ (٢٨٤). من قامت السوق إذا نفقت؛ لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتجه إليه الرغبات، ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت وضيعت كانت كالشيء الفاسد الذي لا يرغب فيه أحد، أو التجلد والتشمير لأدائها، وأن لا يكون في مؤديها فتور عنها ولا توان، من قولهم: قام الأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفي ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه: إذا تقاعس وتنبط، أو أداؤها فعبر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنه بالقنوت، والقنوت القيام، وبالركوع والسجود، وقالوا: سبح إذا صلى لوجود التسبيح فيها: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (٢٨٥)،

(٢٨٠) مختار الصحاح ص ٣٦٨.

(٢٨١) المرجع السابق ص ٥٥٧.

(٢٨٢) سورة البقرة: آية ٣.

(٢٨٣) سورة المعارج: آية ٢٣.

(٢٨٤) سورة المؤمنون: آية ٩.

(٢٨٥) سورة الصافات: آية ١٤٣.

والصلاة فعلة من صلى كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى حرك الصلويين، لأن المصلي يفعل ذلك في ركوعه وسجوده<sup>(٢٨٦)</sup>.

وجاء في المحرر الوجيز عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾: ﴿ وَيُقِيمُونَ ﴾ معناه: يظهرونها ويثبتونها كما يقال: أقيمت السوق، وهذا تشبيه القيام من حالة خفاء: قعوداً أو غيره...، أصل يقيمون: يقومون، نقلت حركة الواو إلى القاف فانقلبت ياءً لكون الكسرة قبلها، والصلاة مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا...، وقال قوم: مأخوذة من الصلا وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب فيكتفه، ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل؛ لأنه يأتي مع صلوي السابق، فاشتقت الصلاة منه، إمّا لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلي من الخيل، وأما لأن الراكع والساجد تنتهي صلواه<sup>(٢٨٧)</sup>.

وقال صاحب زاد المسير في تفسيرها: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشريعة: أفعال وأقوال على صفات مخصوصة، وفي تسميتها بالصلاة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها سميت بذلك لرفع الصلّا، وهو مغرز الذنب من الفرس.

والثاني: أنها من صليت العود إذا لينته، فالمصلي يلين ويخضع.

والثالث: أنها مبنية على السؤال والدعاء والصلاة في اللغة: الدعاء، وهي في هذا المكان اسم جنس.

وفي معنى إقامتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به.

والثاني: أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

والثالث: إدامتها، والعرب تقول في الشيء: الراتب، قائم، وفلان يقيم أرزاق الجند<sup>(٢٨٨)</sup>.

وبعد هذا التعريف بـ"إقام الصلاة" أدخل في بيان أن الصلاة وإقامتها على الوجه الذي ورد عن النبي ﷺ والإيمان بها إيماناً خالصاً لا يخالطه شك ولا ارتياب له مردوده الفعال في ترسية دعائم الأمن وصيانة المجتمع من كل ما من شأنه أن يدخل إليه الفزع والخوف، فلقد تكفل الله عز وجل لمن التزم منهج الله أن يمنحه الحياة السعيدة الصافية من الأكدار، وأن

(٢٨٦) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١/١٢٩ - ١٣١.

(٢٨٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/١٠١، ١٠٢ بتصرف.

(٢٨٨) زاد المسير في علم التفسير ١/٢٥ بتصرف.

يؤمنه من الخوف والجزع في الدنيا، وأن يعيش عيشة هنيئة مفعمة بالسكينة والطمأنينة والراحة النفسية، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا أَهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٨٩).

إن هذه الآية تشير إلى مقومات الحصول على السعادة في الدنيا والآخرة، إنه الالتزام بهذا الدين وتطبيقه في واقع الحياة ومجاهدة النفس وتطويرها للاستقامة على منهج الله عز وجل، لقد ظن قوم أن السعادة في الغنى ورخاء العيش ووفرة النعيم ورفاهية الحياة، لكن البلاد التي ارتفع فيها مستوى المعيشة وتيسرت لأبنائها مطالب الحياة المادية من مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ومركباً مع كماليات، لا تزال تشكر من تعاسة الحياة وتحس بالضيق والانقباض وتبحث عن طريق آخر للسعادة، وأكبر شاهد على ذلك واقع الحياة في أوروبا رغم التقدم العلمي الذي تعيشه.

إن من مظاهر التعاسة التي تعيشها أوروبا: تفشي الانتحار، وتفكك الأسر، وتمرد الأبناء على الآباء، وانتشار المخدرات والمسكرات واللجوء إليها للتخلص من هموم الدنيا، وهي لم تصل إلى هذا إلا لما طرحت الدين جانباً، واهتمت بتحقيق مطالب الجسد على حساب الروح، فأظلم قلبها وضلت الطريق فضيقت الهدف؛ وذلك نتيجة طبيعية لكل من حاد عن جادة الصواب وتكرر لهذا الدين، وما يعيشه كثير من المسلمين اليوم من قلق وهم واكتئاب وكدر وأمراض نفسية وعصبية وأرق في النوم ما هو إلا نتيجة طبيعية للبعد عن الدين والتعلق بغير الله من هوى وشهوة عاجلة.

(وإن أعظم منحة يمنحها الله لعبادة منحة التلذذ بالعبادة وأعني بها ما يجده الإنسان المسلم من راحة النفس وسعادة القلب وانسراح الصدر وسعة البال أثناء العبادة وعقب الانتهاء منها، وهذه تتفاوت من شخص إلى شخص حسب قوة الإيمان وضعفه، وهذه اللذة تحصل بحصول أسبابها وتزول بزوال أسبابها، ويجدر بالمسلم أن يسعى جاهداً إلى تحصيلها لينعم في هذه الحياة بالسعادة والاطمئنان والشعور بالأمن والراحة، لقد كان النبي ﷺ يقول لبلال - رضي الله عنه -: "قم يا بلال (٢٩٠) أرحننا بالصلاة" (٢٩١). لما يجده فيها من اللذة والسعادة القلبية

(٢٨٩) سورة البقرة: آية ٣٨.

(٢٩٠) هو: بلال بن رباح، يكنى أبا عبد الكريم، وقيل: أبا عبد الله، وقيل: أبا عمر، وأمه حمامة من مولدي مكة لبني جمح، وهو مولى أبي بكر الصديق اشتراه بخمس أواق، وقيل: بسبع، وقيل: بتسع، وأعتقه لله عز وجل وكان مؤذناً لرسول الله ﷺ وخزاناً، شهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان من السابقين للإسلام وممن يعذب في الله، مات في الشام سنة ٢٠هـ وهو ابن بضع وستين سنة. انظر: أسد الغابة ٢/٤٤٣، وسير أعلام النبلاء ١/٣٤٧.

(٢٩١) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب: صلاة التمتة) ٤/٢٩٦، ٢٩٧، وأحمد في المسند ٥/٣٦٤، ٣٧١.

والسرور بمناجاة ربه، وهو معاذ بن جبل<sup>(٢٩٢)</sup> -رضي الله عنه- يبكي عند موته ويقول: "إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر"<sup>(٢٩٣)</sup> (٢٩٤).

والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين وفضلها وشرفها فرضها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ فوق سبع سماوات وبدون واسطة وذلك حينما عرج به ﷺ إلى السماء السنة العاشرة للبعثة، وذلك لما لها من شأن في حياة الناس وتأثير على تصرفاتهم إذا أدوها وفهموها على حقيقتها.

فالصلاة هي صلة بين العبد وربّه يتجه إلى -جل وعلا- خمس مرات في اليوم واللييلة، متهيئاً متطهراً، حاضر القلب، مرهف الحواس، في خشوع وخضوع، لا يناجي بمكنون نفسه إلا الله ولا يطلب المدد والعود من غيره جل وعلا.

وحينما يؤدي المسلمون هذه الشعيرة على هيئة واحدة، ووجهة واحدة...، فلا ريب أن هذا العمل الجماعي هو مبعث الطمأنينة، فقد صاروا بهذه الوحدة كالجسد الواحد، ولا يمكن أن يعتدي بعض أعضاء الجسد على البعض الآخر، ولا يحاف عضو من الجسد من العضو الآخر، فأمن أعظم من هذا الأمن، وأي طمأنينة أقوى من هذه الطمأنينة، فالكل يناجي ربه ولا يخشى غيره فهو آمن مطمئن في دنياه، وكذلك آمن في الآخرة -إن شاء الله-؛ لأن الله قد وعده بالأمن في الدارين، وأخير سبحانه أن من أطاعه سيكون من الناجين الفائزين برضاء الله، وأنه له الجنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٢٩٥)</sup>.

قال صاحب جامع البيان في تفسيره لهذه الآية: (القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٢٩٦)</sup>)، وهذا خبر من الله عز وجل بأن الذين آمنوا يعني الذين صدقوا بالله وبرسوله وبما جاء به من عند ربه من تحريم الربا وأكله وغير ذلك من سائر شرائع دينه، وعملوا الصالحات التي أمرهم الله عز وجل بها، والتي ندبهم إليها، وأقاموا

(٢٩٢) هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدى بن سعد بن علي بن علي بن أسد الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبد الرحمن، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، توفى في طاعون عمواس سنة ١٨هـ، وقد اختلف في عمره حينئذ. انظر: أسد الغابة ١٩٤/٥، والسير ٤٤٢/١، وتهذيب التهذيب ١٨٦/١.

(٢٩٣) هذا الكلام ينسب إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه وهو من قوله. انظر: أسد الغابة ١٩٦/٥.

(٢٩٤) كتيب لذة العبادة حقيقتها وأسباب تحصيلها تأليف: سعد الصالح، ص ٥.

(٢٩٥) سورة البقرة: آية ٢٧٧.

(٢٩٦) سورة البقرة: آية ٢٧٧.

الصلاة المفروضة بحدودها وأدوها بسننها، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم بعد الذي سلف منهم من أكل الربا قبل مجيء الموعظة فيه من عند ربهم، لهم أجرهم يعني ثواب ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصدقتهم عند ربهم يوم حاجتهم إليه في معادهم ولا خوف عليهم يومئذ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم وكفرهم قبل مجيئهم موعظة ربهم من أكل ما كانوا أكلوا من الربا بما كان من إنباتهم وتوبتهم إلى الله عز وجل من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم وتصديقهم بوعد الله ووعيده، ولا هم يحزنون على تركهم ما كانوا تركوا في الدنيا من أكل الربا والعمل به إذا عاينوا جزيل ثواب الله تبارك وتعالى، وهم على تركهم ما تركوا من ذلك في الدنيا ابتغاء رضوانه في الآخرة فوصلوا إلى ما وعدوا على تركه (٢٩٧).

نعم لقد آمنوا بالله حق الإيمان واثتمروا بأوامر وانتهوا عن نواهيه فأنابهم الله وجزاهم بما عملوا بالأجر العظيم في الدار الآخرة، وأمنهم فلا يخافون ولا يفرعون لأن الله قد وعدهم بذلك، وهذه نتيجة أعمالهم الصالحة وعلى رأسها الصلاة لأنها عمود الدين، ولا شك أن من كان على خلاف ذلك أي كذب بالله أو أشرك به ولم يمثل أو امره وينته عن نواهيه، فإن له الفرع والخوف في الدنيا والآخرة، فخوفه في الدنيا لأنه يشعر دائماً بعدم الرضى عن أعماله وينتابه القلق وتأنيب الضمير لابتعاده عن شرع الله؛ ولأن الله قد خلق الناس جميعاً على الفطرة السليمة التي جاء الإيمان موافقاً لها وهو خالف تلك الفطرة، قال تعالى: ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن ۚ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩٨). وقال ﷺ: " كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (٢٩٩).

هذا هو حاله في الدنيا، أما في الآخر فإنه ينتابه الخوف والفرع؛ لأنه قد فرط فيما أو جب الله عليه في الدنيا، ونتيجة لذلك النار التي أعدها الله لمن خالف أمره وعصاه، قال

(٢٩٧) كتاب جامع البيان في تفسير القرآن ٧٠/٣.

(٢٩٨) سورة الروم: آية ٣٠.

(٢٩٩) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه) رقم الحديث

(١٣٥٨، ١٣٥٩). فتح الباري ٢/٢١٩، ومسلم في صحيحه (كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على

الفطرة) رقم الحديث (٢٦٥٨).

تعالى: ﴿وَعَنْتَ أَلْوَجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۗ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٣٠٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (٣٠٠).

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أي: خسر من أشرك بالله، والظلم هو الشرك. وقوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أي: لا يخاف أن يزداد في سيئاته ولا ينقص من حسناته.

وقيل: لا ينقص من ثواب حسناته، ولا يحمل عليه ذنب مسيء. وقيل: لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها، وأصل الهضم: النقص والكسر، ومنه هضم الطعام (٣٠١).

وقد نعت الله المؤمنين بأنهم إذا مكثوا في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَابِعُ وَيَبَعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٠١﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ﴾ (٣٠١).

وقال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۗ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۗ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣٠٢).

(فقد ربط الله تعالى في النص الأول حصول النصر على الأعداء الذي يتوفر به الأمن للمسلمين؛ لأن من انتصر على عدوه فقد أمن شره، ربط ذلك بإقام الصلوات الخمس التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وإيتاء الزكاة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وخص هذين الركنين لما لهما من الأهمية؛ لأن الأول إحسان فيما بين العبد وبين ربه وبإخلاص العبادة له، وهذا هو الأساس الذي بني عليه الدين كله.

(٣٠٠) سورة طه: الآيتان ١١١، ١١٢.

(٣٠١) انظر: معالم التنزيل المجلد الخامس، ص ٢٩٦.

(٣٠٢) سورة الحج: آية ٤٠، ٤١.

(٣٠٣) سورة النور: آية ٥٥.

والثاني: إحسان فيما بين العبد وبين إخوانه ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذين يتحقق فيهما نصره دين الله<sup>(٣٠٤)</sup>.

كما بين سبحانه وتعالى في النص الثاني أن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان، فقد وعد سبحانه وتعالى بأنه سيستخلفهم في الأرض وأنه سيمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديريها، وبذلك يهيمن هذا الدين الذي ارتضاه الله لهم على الأرض، ويأمر بعمارة الأرض والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ومن طاقة مع التوجه بكل نشاط فيها الله تعالى.

وبهذا يأمن الناس، وتأمين الأرض جميعاً، وإذا تحقق هذا الأمن سعد المجتمع، وتحقق الرخاء والنماء فيه، وفتحت مجالات العمل لفئات عديدة من البشر هم في حاجة إليه ليقفوا بعمل شريف، وجهد حلال، وهذا يحقق أمناً اقتصادياً؛ لأنهم يقولون: رأس المال جبان، لا يتحرك إلا في الأمن والطمأنينة.

بخلاف المجتمع الذي يكثر فيه الكساد، وتنتشر فيه البطالة ويصبح أهله في حال لا يجدون معها القوت الضروري، فإنه ينتشر فيه الخوف وتكثر فيه السرقات ويتعدد اللصوص وقطاع الطرق، وهذا ما يجعل الخوف والفرع هما السائدان في ذلك المجتمع.

لذلك حينما وعد الله المؤمنين بالاستخلاف والتمكين في الأرض أخير سبحانه أن نتيجة ذلك هو الأمن لذلك المجتمع فقال: ﴿وَلْيَبْدِلْهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا<sup>(٣٠٥)</sup> يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا<sup>(٣٠٥)</sup>﴾.

فقد كان المسلمون خائفين لا يأمنون، ولا يضعون أسلحتهم أبداً حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة.

وكان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلام فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبدأ الدهر نحن

(٣٠٤) مجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد الحادي والعشري، ص ١٠١، تحت عنوان تحقيق الإسلام لأمن المجتمع للدكتور صالح بن فوزان الفوزان.

(٣٠٥) سورة النور: آية ٥٥.

خائفون هكذا؟، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست في حديده" (٣٠٦).

وأُنزل الله هذه الآية، فأظهر الله بيه على جزيرة العرب، فأمنوا ووضعوا السلام، ثم إن الله قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه (٣٠٧).

ولا شك أن هذا الأمن ناتج عن الإيمان بالله تعالى أولاً ثم بإقامة ما أوجبه الله على العباد كما بينت الآية: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٣٠٨)، وعلى رأس هذه الواجبات إقام الصلاة، فإذا أمعنا النظر في مسارعة المسلمين في كل قطر من أقطار الأرض وفي أي موضع كانوا إلى المبادرة لأداء هذه الشعيرة عندما يحين وقتها، يلبون النداء جميعاً، ويتطهرون جميعاً، ويتجهون إلى قبلة واحدة هي الكعبة المشرفة، وحضور حواسمهم لرب واحد، مخلصين له الدين، اتضح لنا أن هذا من أعظم أعمال التضامن بين المسلمين الذي يربط بين قلوبهم، ويوحد بين اتجاهاتهم، وما ذلك إلا لانهم بلغوا فعلموا، وسمعوا البيئات كما جاءت من عند الله فصدقوا، وكانوا إخوة متحابين في الله قد ألفت بينهم عقيدة الوجدانية لله، وربط بين قلوبهم تعاليم الإسلام وشرائعه... فأهل الكتاب لم يختلفوا وتفرق كلمتهم إلا بخلافهم على ما جاء من تشريع.

يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٣٠٩) ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (٣١٠) ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ (٣١١) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٣١٢) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾ (٣١٣).

جاء في كتاب تطبيق الشريعة طريق الأمن والعزة: (وهذه العبادة علاوة على كونها تربط العبد بخالقه في مناجاته واتجاهه فإنها ذات فائدة للنفس والمجتمع، فالنفس تنتهر من الأدران والذنوب بدءاً بالوضوء ثم تكبيرة الإحرام، وانتهاء بالتسليمتين، فتجتنب المعاصي

(٣٠٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٦/٣ مع اختلاف في بعض الألفاظ وقد جاء نصه في الدلائل: "لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس عليه حديده".  
 (٣٠٧) انظر: في ظلال القرآن ٢٥٢٩/٤ بتصرف.  
 (٣٠٨) سورة الحج: آية ٤١.  
 (٣٠٩) سورة البينة: آية ١-٥

وتبعد عن الآثام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿آتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٣١٠).

فالدعاء للصلاة في أوقات محدودة، نداء للتضامن في العمل لأداء الواجب الذي شرعه الله لجميع المسلمين في كل مكان على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ومن ينظر في عمق مدلول الصلاة، وحكمة التشريع يرى أن لها مكانة راسخة في الوشيجة التي تولف بين المسلمين، وتوحد كلمتهم، فهم يتعارفون في كل لقاء، ويتقاربون في كل وقت، ويتفقد بعضهم بعضاً في الحضر والسفر، في انقياد واستسلام، وأداء وانتظام، مؤتمرين بقيادة واحدة ومستجيبين لنداء واحد، وتشعرهم الصلاة بأنه لا تمييز بين طبقة وطبقة، ولا فرق بين سيد ومسود، الكل سواسية في التشريع والتلقي، والكل متمثلون في التطبيق (٣١١).

وحينما أخبر الله تعالى عن الصلاة وأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر فهذا أعظم دليل على أن الصلاة إذا أدبت على الوجه المشروع واكتملت أركانها وواجباتها، فإن صاحبها تزكو نفسه، ويظهر قلبه، وتصفو سريره فلا يؤدي أحداً ولا يسيئ لأحد؛ لأن الإساءة للناس من أنواع المنكر، وعمل المنكر منتفٍ عن أقام الصلاة على وجهها المشروع، وهذا من أعظم سبل الأمن للفرد والمجتمع، فراحة النفس لا تكون إلا بالإيمان، ورخاء المجتمع لا يكون إلا بالإيمان، والأمان ثمرة من ثمار الإيمان وحصيلة من حصائل العقيدة الصافية، ونفس لا إيمان فيها تبقى مضطربة وقلقة وتائهة وخائفة؛ لأن كل نفس تأخذ مصدراً تشريعياً في سلوكها، أو منهجاً عقدياً في تصرفاتها، غير المصدر الذي أوجده الله للمؤمنين، وارتضاه سبحانه لعباده وبعث به رسله، فإنه لا يلي رغبة، ولا يريح نفساً، ولا يحقق هدفاً.

والمصدر الذي ارتضاه الله هو كتابه القويم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم، هذا المصدر الذي لا فضل معه لأحد على أحد إلا بالتقوى، فالكل سواسية في التشريع والتلقي والتطبيق والعمل لا فرق بينهم من منظور الإسلام إلا بالتقوى، فالمسلمون كلهم متحدون متكاتفون متآلفون، وشعورهم بهذا الاتحاد في الأوامر يربط بين قلوبهم، ويزيل عنها التشاحن والبغضاء، وهذا من أقوى دعائم الألفة والمحبة، وأمكن مسببات الترابط والتماسك، وأدعي دواعي الأمن والسكينة فيما بينهم، وتوجيه هذا كله ضد عدوهم الشيطان الرجيم، وضد أعداء العقيدة والدين، المتربصين بالمسلمين الدوائر، المتحينين كل فرصة ضد المسلمين ورسالتهم السماوية، كما أن شعورهم بالانقياد خلف إمام واحد في الجمعة والجماعة يتابعونه في عبادتهم وتوحد صفهم، ليكونوا يداً على من سواهم، يسعى بدمتهم أذناهم، ويطبقون ما تحرص عليه هذه القيادة فيما هو من صالح الإسلام والمسلمين.

(٣١٠) سورة العنكبوت: آية ٤٥.

(٣١١) انظر: كتاب تطبيق الشريعة طريق الأمن والعزة للدكتور محمد بن سعد الشويعر، ص ١٢، ١٣.

إن تأدية هذه الشعيرة في وقتها، ومع جماعة المسلمين على مستوى الحي والقرية في الأوقات الخمسة يجعل الناس يترابطون ويتألفون ويتعرف بعضهم على ما يؤرق البعض الآخر فيحس كل منهم بما يؤلم أخاه ويتجاوب معه. ويتضح هذا التضامن والترابط بصورة أكبر في صلاة الجمعة، حيث يتجمع المسلمون، ويبادرون بالسعي إليها، ويهتم الإمام خطيب المسجد مشكلاتهم، وتوجيههم وإرشادهم لما فيه مصلحة دينهم ودنياهم، وينذرهم بسوء عاقبة كل عمل سيئ يؤثر على وحدة الصف الإسلامي.

ثم في صلاة الاستسقاء وصلاة الكسوف، يبرز الاهتمام الجماعي الذي يربط المسلمين بالله الذي لا يزيل الضرر إلا هو، ولا يكشف سوء النازل سواه، فهو سبحانه الذي يجيب المضطر وتلجأ إليه النفس في وحدة واستجابة، وتضرع وخضوع، وقلوب مخلصه وأفئدة حاضرة، اقتداء برسول الله ﷺ الذي كان إذا حزبه أمر فزع للصلاة ولجأ إلى ربه واستراح بها حيث كان يقول لبلال: "أرحنا يا بلال بالصلاة"<sup>(٣١٢)</sup>، ذلك أن أقوى علاقة تربط المسلم بأخيه، وتجعل المسلمين يداً على من سواهم، هي تمكين الرابطة بالله سبحانه وتعالى عقيدة وسلوكاً.. فبذلك تتألف القلوب، وتتجاوب الهواجس ويتفق المؤمنون في سرهم وعلنهم فيما بينهم؛ لأنهم أدركوا أن مسبب الأسباب ومزيل الكربات هو الله الذي لا تخفى عليه خافية فيكون أمورهم إليه سبحانه.

وبذا يصدقون مع إخوانهم كما صدقوا، ويخلصون في تعاملهم فيما بينهم كما أخلصوا في اتجاههم إلى خالقهم، وينظمون علاقاتهم ببعضهم على هدى من التنظيمات الموجودة في الصلاة، وتتحد كلمتهم ضد عدوهم لأنهم اتحدوا في اتجاههم إلى رب واحد، وقبله واحدة، وخلف إمام واحد، في صفوف مترابطة ومنظمة، وهذا يشعرهم بأهمية القيادة المسلمة وعدم الخروج عنها أو شق عصا الطاعة عليها.

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾<sup>(٣١٣)</sup>.

وصلاة العيدين والتي هي فرض كفاية في بعض المذاهب إذا أقام بها بعضه المسلمين سقط عن الباقيين فهي تجمع المسلمين وهم يظهرون الشكر الجماعي لله جل وعلا أن هداهم للإسلام، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وهم يشكرونه على نعم كثيرة: ففي عيد الفطر يشكرونه على تجميع المسلمين في مكان واحد، وعلى ما شرع لهم من التهليل والتكبير

(٣١٢) سبق تخريجه، ص: ١٢١.

(٣١٣) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

والتقرب إليه سبحانه وتعالى بالهدايا والضحايا... هذه هي الصلاة بشتى أنواعها ترابط وألفة، نظام وتجمع، عبادة لله، وطهارة للنفس، وصفاء للروح، وتماسك بين كل المجتمعات حتى يصبح الناس كالجسد الواحد.

## ب: إيتاء الزكاة

التعريف بالزكاة ومعنى إيتاء الزكاة:

جاء في مختار الصحاح تحت مادة "ز ك ا": (زكاة المال معروف وزكى ماله تركية أدى عنه زكاته وزكى نفسه أيضاً مدحها.

وقوله تعالى: ﴿ وَتُرَكِّبْهُمْ بِهَا ﴾<sup>(٣١٤)</sup>. قالوا: تظهرهم بها.

وزكاه أيضاً أخذ زكاته، وتزكى تصدق.

وزكا الزرع يزكو زكاه بالفتح والمد أي نما، وغلام زكي أي: زاك وقد زكا من باب سما وزكاءً أيضاً<sup>(٣١٥)</sup>.

وقال صاحب الصحاح تحت مادة "زكا": (رجل زكاة أي: موسر كثير الدراهم، عاجل النقد، يقال: هو ملئ زكاة)<sup>(٣١٦)</sup>.

جاء في تفسير جامع البيان لقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾<sup>(٣١٧)</sup>: (ذكر أن أحبار اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناس بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونه فأمرهم الله بإقامة الصلاة مع المسلمين المصدقين بمحمد ﷺ وبما جاء به، وإيتاء زكاة أموالهم معهم وأن يخضعوا لله ورسوله كما خضعوا... إلى أن قال:- وقد بينا معنى إقامة الصلاة المفروضة، وأصل الزكاة نماء المال وتثميته وزيادته، ومن ذلك قيل: زكا الزرع إذا كثر ما أخرج الله منه، وزكت النفقة إذا كثرة، وقيل: زكا الفرد إذا صار زوجاً بزيادة الزائد عليه حتى صار به شفعاً... وإنما قيل للزكاة زكاة وهي مال يخرج من مال: لتثمير الله بإخراجها مما أخرجت منه ما بقي عند رب المال من ماله، وقد يحتمل أن تكون

(٣١٤) سورة التوبة: آية ١٠٣.

(٣١٥) مختار الصحاح، ص ٣٧٣.

(٣١٦) الصحاح، ص ٥٣٩.

(٣١٧) سورة البقرة: آية ٤٣.

سميت زكاة لأنها تطهير لما بقي من مال الرجل وتخليص له من أن تكون فيه مظلمة لأهل السهمان كما قال جل ثناؤه مخبراً عن نبيه موسى صلوات الله علي: ﴿ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ (٣١٨)، يعني بريئة من الذنوب ظاهرة، وكما يقال للرجل: هو عدل زكي بذلك المعنى، وهذا الوجه أعجب إلى في تأويل زكاة المال من الوجه الأول وإن كان الأول مقبولاً في تأويلها، وإيتاؤها: إعطاء أهلها) (٣١٩).

وجاء في كتاب المعنى تعريفاً للزكاة: (الزكاة من الزكاة والنماء والزيادة، سميت بذلك لأنها تثمر المال وتنميته، يقال: زكا الزرع، إذا كثر ريعه، وزكت النفقة، إذا بورك فيها).

وهي في الشريعة حق يجب في المال، فعند إطلاق لفظها في موارد الشريعة ينصرف إلى ذلك، والزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة....) (٣٢٠).

ومما لا شك فيه أن للزكاة دوراً فعالاً في حفظ الأمن من وجوه عديدة، ولعل من أهمها الأمان من الفقر، والأمان من الجرائم، والأمان من التأخر عن ركب الحضارة، كما أنها عنصر هام في إرساء قاعدة السلام والأمن من الحروب.

فهي حفظ لأمن الناس من الفقر، لما لها من دور فعال وكبير في معالجة الفقر ومحاربه، وتأمين الناس من شبحه البغيض، وتأمينهم على أموالهم، فإذا أمنوا على أموالهم نمت وزادت وغادهم الفقر، وأمنوا من مآسيه، فالمخرج للزكاة، وكذلك الصدقة يأمن على ماله من غوائل الزمان، إذ أن الغني الذي خاف ربه، ونفذ أوامره، وأخرج زكاة ماله قد طهر ماله من الحرام، واستجاب لداع السماء، فمننت ثروته وزكت وزادت بالبركة التي خالطته، بعد أن تطهر من حقوق الآخرين، فزاد ماله بفتح الله سبحانه لعبده أبواباً من الرزق الحلال خلفاً لما أنفق، وقد جاء في الحديث الصحيح ما يؤكد ذلك ويقرره، قال ﷺ: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً" (٣٢١).

فالمصدق آمن على ماله من التلف، آمن من أثر هذا الدعاء الذي يصيح به ملك كريم من السماء في صبح كل يوم جديد؛ إذ إن المتصدق أخذ بالأسباب الوقائية واثق بوعده ربه

(٣١٨) سورة الكهف: آية ٧٤، وهي جزء من الآية، قال تعالى: ﴿ فَأَنْطَلِقًا حَتَّىٰ إِذَا قِيَا عُلَمًا فَفْتَلَهُ، قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴾

(٣١٩) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٢٠٢/١.

(٣٢٠) المغني: لابن قدامة ٥/٤.

(٣٢١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، باب: قول الله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾)

أسورة الليل: الأبيتان (٥، ٦). فتح الباري ٣٠٤/٣

بالخلف الذي سيحصل عليه لا محالة، هذا هو دور الزكاة في مقاومة الفقر وحفظها لأموال الأغنياء المنفقين. أما الجانب الآخر وهم الفقراء فإن علاج الزكاة لفقرهم ظاهر وجلي، ويظهر ذلك في انتفاع الفقير المباشر بالمال المدفوع إليه، وتصريفه في مصلحة، وكثير من أغنياء اليوم كانوا فقراء في أمس، وبحصولهم على رأس مال في أيديهم قاموا باستغلاله في بيع وشراء فأثمر وكبر مع الأيام فنقلهم ذلك من حال إلى حال، وقد يكون الأصل في ذلك صدقة دفعت إليهم.

ولا شك أن الفقير إذا علم أن له في مال الغني حقاً وأنه سيدفع إليه حافظ عليه ورعاه فلن يسمح لأي لص أو محتال من الوصول إليه بقدر استطاعته، وهكذا يعيش الغني والفقير بحرسان المال ويصونانه؛ لأن للجميع حقاً فيه، وبهذا ينعم المجتمع بأمن رغيد وعيش آمن سعيد. وبفرضية الزكاة أحكم الإسلام الخطة في علاج الفقر، وكذلك في حثه على الصدقة وترغيبه فيها حتى صارت من أهم العوامل في علاج هذا الداء، والأخذ بأيدي المبتلين به ومساعدتهم في دفع شظف العيش ومرارة الحرمان.

كما أن للزكاة دوراً كبيراً في الحيلولة عن الجرائم؛ إذ إن الفقر داء وبيل-كما ذكرت- يدفع صاحبه إلى ارتكاب الجريمة، لاسيما جريمة السرقة؛ إذ إنها أكثر الجرائم انتشاراً، فقد يدفع الفقر بصاحبه إلى القتل والتعدي على الآخرين، كما يفعل المعتدون في الحراية ونحوها، فهذه الجرائم سببها الأول والدافع لها مشكلة الوقوع في برائن الجوع والعوز، فحدث هذه الأمور بصاحبها إلى التمرد والسطو على حقوق الآخرين وسلب أموالهم، وإزهاق أرواحهم، جاء في كتاب منهاج الإسلام إلى مكافحة الإجرام: (وقد نسب أغلب المفكرين من الفلاسفة ورجال القانون جنوح وانحراف الإنسان في المجتمع إلى الأسباب الاقتصادية، واعتبر الحاجة، والعوز، والفقر من أهم العوامل التي تدفع المعدم إلى اختيار سلوك ملتو) (٣٢٢).

فالزكاة إذن علاج ناجع لداء الفقر والتخفيف من حدته، وهي وسيلة من وسائل مكافحة الإجرام، والقضاء على مشكلة الفقرة بصورة تدريجية، وتصحيح هوة التفاوت الطبقي بين الغني والفقير، والوقوف ضد طغيان نفس الذي ينشأ عن شعوره باستغناؤه كما صرح بذلك القرآن الكريم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنِفٌ ﴿١﴾ ۝ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٢﴾﴾ (٣٢٣).

فالزكاة تزكي نفس المزكي من هذه الصفة الرذيلة، هذا إلى جانب أن الفقير-كما ذكرت- عندما يشعر بأن له نصيباً من مال الغني، فإنه يتمنى له الزيادة بدلاً من أن يتمنى زوال ذلك الغني، وهذا أمر مشاهد وواقع ويسمى على السنة الفقراء تجاه أخيهام الغني الذي

(٣٢٢) كتاب منهاج الإسلام في مكافحة الإجرام للدكتور إبراهيم الزلي، ص ١٧.

(٣٢٣) سورة الملوك: الآيتان ٦، ٧.

نفحهم بشيء من ماله، وذلك يظهر من خلال ثنائهم عليه ودعائهم له، ولم لا وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وإذا نفثي الحب بين الغني والفقير أمن الطرفان، أمن الأول على ماله من أن تحيق به دعوات المحتاجين، وأمن من أيديهم من أن تمتد إليه لتحرمه من ذلك المال، وأمن الفقير من الحقد على الغني، وأمن من ارتكاب جريمة قد تحرمه من عضو من أعضائه، أو حتى من حياته.

والزكاة أمان من التأخر عن ركب الحضارة؛ إذ إن الفقر يلعب دوراً كبيراً في تأخر الأمم وتخلفها عن ركب الحضارة والزكاة تحارب هذا العامل المخرب، فهي بهذا تسعى إلى توفير المال في أيدي جميع أفراد المجتمع، حتى ينهض المجتمع بانتعاش اقتصادياته، كما يقوم الحاكم المسلم بجمع الزكاة وتصريفها في مصالح المسلمين إذا لم يوجد فقراء يأخذونها، كأن تكون البلاد لا يوجد فيها من يستحق الزكاة، فإذا وجدوا فهم أولى، وإلا فإن الأموال المجدبة من الزكاة تصرف في مصالح الأمة كبناء المساجد والمدارس، والمستشفيات، وشق الطرقات، وبناء الملاجئ للأيتام ونحوهم، وبهذه المشاريع تنهض البلاد، وبالتالي ينعم العباد بهذه النعم المتدفقة عليهم.

والزكاة عامل مهم في الانتصار على الأعداء؛ إذ إن من أفضل مصارف الزكاة صرفها في تجهيز الغزاة، وإمدادهم بالموثونة والعتاد، وهذا عامل أساسي في الانتصار على العدو، وإذا انتصر المسلمون على عدوهم أمنوا من كيدهم وهجومهم عليهم وعبثهم بطمأنينتهم.

هذا هو حال الزكاة في الإسلام الذي اهتم بها، وجعلها الركن الثالث من أركانها، فانتشر الأمن، ونمت أواصر المحبة بين الغني والفقير، وبين جميع فئات المجتمع الإسلامي، ولو نظرنا إلى المجتمع الغربي عامة والأمريكي بصفة خاصة لرأيناه قد أزعجته الجريمة، واقلقت مواطنيه وسائل الاستخفاف بالحياة، من فئة معينة من البشر، جنح الناس هناك، وتأثرت كثير من مصالحهم، فرأى بعض رجال الأمن عندهم أن الحل الوحيد من تخليص المجتمع الأمريكي مما يؤرقه، وتخفيف ما يسببه المجرمون للمجتمع من أمور كثيرة يمكن في تعاليم الإسلام الذي يجعل على النفس رقابة قوية، أقوى من رقابة البوليس وأنظمته.

وقد جاءوا بأمثلة على ذلك منها: أن مجرمين متأصلين في الإجرام ومن أصحاب السوابق، قد أسلموا في داخل السجن، فصلحوا، ولم يعودوا للسجن بعدما خرجوا منه، أما من خرج منهم وهو على ملته السابقة، فإنه لا يلبث حتى يعود للسجن مرة واحدة.

ومن هذه الدعوة بدأت كثير من الولايات تدعو المشرفين الاجتماعيين والدعاة من المسلمين لتأدية محاضرات وزيارات منتظمة للسجون التي أصبحت أوسع ميدان للدعوة الإسلامية، وقد قال بعض المسؤولين في الأمن عندهم: إن الخلاص من الجريمة لا يكون إلا في الإسلام والعمل وفق منهجه.

وهذا أكبر برهان على أن الإيمان يقترن بالأمان والاطمئنان وراحة النفس.

ولما كان المال من اعز ما يملك الإنسان وهو الذي يسير الحياة في المجتمعات، فإن سبل الخوف عليه ساقط عباده اليهود ومن يشايعهم إلى ابتكار أساليب للمحافظة عليه وكنزه، وكان مما فرضوه على المجتمعات التي يعيشون فيها: الربا، وهو زيادة المال بدون جهد، فلا يحصل النفع من المال بالتداول ولا يزداد الفقير إلا فقراً وحقداً على الغني الذي تتضاعف أرباحه بجهد هذا الفقير.

ومن هنا جاء تشديد الإسلام في الربا، واعتباره محاربة لله، ومن ذا الذي يستطيع محاربة الله، ومحاربة رسوله ﷺ.

وقد قرن الإيمان وطمأنينة القلب على النفس وعلى المال بترك هذا الربا وطرقه المتعددة التي أخبر ﷺ بأنها سبعون باباً أدناها مثل أن ينكح الرجل أمه علانية، وهي كلها أمور مخيفة تبعث القلق والقشعريرة في الإنسان وحواسه، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه" (٣٢٤).

ولا شك أن المتعامل بالربا يجابه ربه، ويعاند رسوله في حرب معلنة، قال الله تعالى :  
 ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِمَّ زُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٣٢٥).

جاء في النكت والعيون في معنى قوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وجهان:

أحدهما: إن لم تنتهوا عن الربا أمرت النبي بحربكم.

والثاني: إن لم تنتهوا عنه فأنتم حرب لله ورسوله، يعني أعداءه (٣٢٦).

وحتى يرتاح المدين وتطمئن نفسه إلى وجود قلوب رحيمة ترق له، وتهتم به، ولا تقسو عليه، وتراعي حالته التي حلت به من عسر أو فقر أو كارثة، فقد أمر الله صاحب المال بمراعاة الموقف، وطمأنة إخوانه المسلمين، وعدم التضيق عليهم في المطالبة فقال تعالى

(٣٢٤) رواه ابن ماجه في سننه (كتاب التجارات، باب: التغليظ في الربا) رقم الحديث (١٨٤٤) ٢٧/٢ قال الألباني عنه: صحيح.

(٣٢٥) سورة البقرة: الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩.

(٣٢٦) النكت والعيون ٣٥٢/١.

موجها لهذا الأمر: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٢٧).

وبعكس ذلك فقد اعتبر ﷺ مطل الغني ظلماً؛ لأنه قادر على الوفاء، ويمنع الناس حقوقهم الواجبة (٣٢٨).

ومما يبين اهتمام الإسلام برعاية الحقوق بين الناس أنه وضع هذا الجانب وفصله، وجعله على أفضل صورة يتحقق معها ما يسعد المجتمع، ويحقق الرخاء والنماء فيه، ويفتح مجالات العمل لفئات عديدة من البشر، هم في حاجة إليه ليقفوا على أقدامهم، ويحفظوا حقوقهم، وحتى لا يترك أمر البيع والشراء بدون قيود أو التدابير بدون محافظة، نظم القرآن الكريم ذلك كما جاء في آية الدين في آخر سورة البقرة، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٢٩).

وهذا النظام الشامل والدقيق لأمر الدين الذين بينه الله تعالى في هذه الآية يجعل صاحب المال متوثقاً على حاله، مطمئناً على حقه بأنه سوف يأتي إليه عند حلول أجله فيحصل بذلك

(٣٢٧) سورة البقرة: آية ٢٨٠.

(٣٢٨) روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "مطل الغني ظلم، فإذا أتبع أحدكم على ملئ فليتب" (كتاب الحوالة، باب الحوالة، وهل يرجع في الحوالة) رقم الحديث (٢٢٨٧). فتح الباري

٤٦٤/٤.

(٣٢٩) سورة البقرة: آية ٢٨٢.

النفع للآخذ والمعطي واطمئنان كل منهما على الذي له والذي عليه، وهذا يحقق أمناً اقتصادياً، لأن المال هو موطن الأثرة لدى البشر، وانتظام الحياة في المجتمعات، وموطن الشح للنفوس، فقد روعي فيه أمور تطمئن وتريح، وتنظم الحياة، وقد أوصى الإسلام بالمعروف والتفضل من القادر على أخيه، وأن يكون التعامل حسناً وألاً يلحق الإضرار بمن عليه الحق.

ثم تزيد تعاليم القرآن الأمر تمكيناً بالترغيب في البذل والصدقة والإحسان في أوجه الخير التي تريح أبناء المجتمع الإسلامي، وتزيل عنهم أسباب البغضاء والقلق والحقد والكراهية ليسعد المجتمع بعيشة آمنة مطمئنة، فقال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَنَّهُمْ﴾<sup>(٣٣٠)</sup>، وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾<sup>(٣٣١)</sup>، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على البذل والعطاء.

كما أن الله سبحانه وتعالى قد بين في آيات كثيرة حال المنفقين وما يحصل لهم من الأمن والطمأنينة بسبب إنفاقهم ويرسم المنهج التربوي الذي يحول الصدقة والزكاة عملاً تهنئياً لنفس معطيها، وعملاً نافقاً مريحاً لأخذها وتحول المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون والتكافل، والتواد والتراحم، وترفع البشرية إلى مستوى كريم: المعطي فيه والآخذ على السواء، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٣٣٢)</sup>.

إنه الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، الإنفاق الذي لا يؤدي كرامة ولا يחדش شعوراً، الإنفاق الذي ينبعث عن أريحية ونماء، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه.

قال صاحب التحرير والتنوير: وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ﴾ جاء في عطفه بتم مع أن الظاهر أن يعطف بالواو قال في الكشاف: (ومعنى "ثم" إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق)<sup>(٣٣٣)</sup>، يعني: أن "ثم" للترتيب الرتبي لا للمهلة الزمنية ترفيعاً لرتبة المن والأذى على رتبة الصدقة؛ لأن العطاء قد يصدر من كرم النفس وحب المحمدة فللنفوس حظ فيه مع حظ المعطي، بخلاف ترك المن والأذى فلاحظ فيه لنفس المعطي، فإن الأكثر يميلون إلى التبجح والتطاول على المعطي، فالمهلة في "ثم" هنا مجازية؛

(٣٣٠) سورة النور: آية ٣٣.

(٣٣١) سورة الحديد: آية ٧.

(٣٣٢) سورة البقرة: آية ٢٦٢.

(٣٣٣) الكشاف: ٣٩٤/١.

إذ شبه حصول الشيء المهم- في عزة حصوله- بحصول الشيء المتأخر زمنه، وكأن الذي دعا الزمخشري إلى هذا أنه رأي معنى المهلة هنا غير مراد؛ لأن المراد حصول الإنفاق وترك المن معاً، والمن أصله الإنعام والفضل، يقال: من عليه منا، ثم أطلق على عد الإنعام على المنعم عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مِمَّا كَفَرْتُمْ﴾ (٣٣٤)، وهو إذا ذكر بعد الصدقة والعطاء تعين للمعنى الثاني.

وإنما يكون المن في الإنفاق في سبيل الله بالتطاول على المسلمين والرياء بالإنفاق، وبالتطاول على المجاهدين الذين يجهزهم أو يحملهم، وليس من المن التمدح بمواقف المجاهد في الجهاد أو بمواقف قومه.

والأذى: هو أن يؤدي المنفق من أنفاق عليه بإساءة في القول أو في الفعل.

فالمقصد الشرعي أن يكون إنفاق المنفق في سبيل الله مراداً به نصر الدين، ولاحظ للنفس فيه، فذلك هو أعلى درجات الإنفاق وهو الموعود عليه بهذا الأجر الجزيل، ودون ذلك مراتب كثيرة تتفاوت أحوالها (٣٣٥).

جاء في تفسير الظلال الآية: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٣٦):  
(والمن عنصر كريمة لثيم، دستور خسيس واط، فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب، أو رغبة في إذلال الأخذ، أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء...

وكلها مشاعر لا تجيش في قلب طيب، ولا تخطر كذلك في قلب مؤمن.. فالمن-من ثم- يحيل الصدقة أذى للواهب والأخذ سواء، أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء، ورغبة في رؤية أخيه ذليلاً له، كسيراً لديه، وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله...، وأذى للأخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهازم، ومن رد فعل بالحقد والانتقام...، وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة، وملئ البطن، وتلافي الحاجة... كلاً!! إنما أراد تهذيباً وتركياً وتطهيراً لنفس المعطي، واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الإنسانية، وتذكيراً بنعمة ينفق منها "في سبيل" في غير منع ولا من، كما أراده ترضية

(٣٣٤) سورة المدثر: آية ٦.

(٣٣٥) انظر: تفسير التحرير والتوير ٤٢/١، ٤٣ بتصرف.

(٣٣٦) سورة البقرة: آية ٢٦٢.

وتندية نفس الأخذ، وتوثيقاً لصلته بأخيه في الله وفي الإنسانية، وسداً لخلعة الجماعة كلها لتقوم على أساس في التكافل والتعاون يذكرها بوحدة قوامها ووحدة حياتها ووحدة تكاليفها.

والمن يذهب بهذا كله، ويحيل الإنفاق سماً ناراً، فهو أذى وإن لم يصاحبه أذى آخر باليد أو باللسان، هو أذى في ذاته يحقق الإنفاق، ويمزق المجتمع، ويثير السخائم والأحقاد.

وبعض الباحثين النفسيين في هذه الأيام يقررون أن رد الفعل الطبيعي في النفس البشرية للإحسان هو العداة في يوم من الأيام وهم يعللون هذا بأن الأخذ يحس بالنقص والضعف أمام المعطي، وبظل هذا الشعور يحز في نفسه، فيحاول الاستعلاء عليه بالتهجم لصاحب الفضل عليه من إضرار العداوة له؛ لأنه يشعر دائماً بضعفه ونقصه تجاهه؛ ولأن المعطي يريد منه دائماً أن يشعر بأنه صاحب الفضل عليه! وهو الشعور الذي يزيد من ألم صاحبه حتى يتحول إلى عداة.

وقد يكون هذا كله صحيحاً في المجتمعات الجاهلية- وهي المجتمعات التي لا تسودها روح الإسلام ولا يحكمها الإسلام- أما هذا الدين فقد عالج المشكلة على نحو آخر.

عالجها بأن يقرر في النفس أن المال ما الله، وأن الرزق الذي في أيدي الواجدين هو رزق الله... وهي الحقيقة التي لا يجادل فيها إلا جاهل بأسباب الرزق البعيدة والقريبة، وكلها منحة من الله لا يقدر الإنسان منها على شيء، وحنة القمح الواحدة قد اشتركت في إيجادها قوى طاقات كونية من الشمس إلى الأرض إلى الماء إلى الهواء.

وكلها ليست في مقدور الإنسان... وقس على حبة القمح نقطة الماء وخيط الكساء وسائر الأشياء... فإذا أعطى الواجد من ماله شيئاً فإنما هو من مال الله أعطى، وإذا أسلف حسنة فإنما هي قرض لله يضاعفه له أضعافاً كثيرة.

وليس المحروم الأخذ إلا أداة وسبباً لينال المعطي الواهب أضعاف ما أعطى من مال الله! ثم شرع هذه الآداب التي نحن الآن بصدها، توكيداً لهذا المعنى في النفوس، حتى لا يستعلي معط ولا يتخاذل آخذ، فكلهما آكل من رزق الله.

وللمعطين أجرهم من الله إذا هم أعطوا من مال الله في سبيل الله، متأدبين بالأدب الذي رسمه لهم، متقيدين بالعهد الذي عاهدهم عليه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.. من فقر ولا من حقد ولا من غبن... ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾... على ما أنفقوا في الدنيا، ولا على مصيرهم في الآخرة (٣٣٧).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٣٨).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٣٩).

فهاتان الآيتان تحدثتا عن الزكاة وأخبر الله تعالى في الآية الأولى أن هؤلاء المنفقين ينفقون ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية.

وفي الآية الثانية أخبر سبحانه عن هذا الصنف من الناس أنهم آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، والصلاة، والزكاة من الصالحات فهو من باب عطف الخاص على العام للاهتمام بشأن هذا الخاص.

ويلاحظ في هاتين الآيتين وغيرها من الآيات التي ذكرت الزكاة وتحدثت عنها وعن أحكامها الترابط التام بين القيم الاقتصادية والأخلاقية، ويعطينا الرسول صلوات الله وسلامه عليه نموذجاً لهذا الترابط في قضية المتسول الذي أتى يسأل يوماً لُقمة عيش كان من حقه أن يأخذها من مال الزكاة بنص القرآن الكريم، والنبوي ﷺ أدري الناس بتطبيق هذا النص، كما كان ﷺ أجود من الرياح المرسلة في تقديم هذه اللقمة لمسكين جاء يطلبها، ولكن الرسول ﷺ - وأعماله تشريع- أشار على من حوله من الصحابة رضوان الله عليهم أن يجهزوا الرجل ليحتطب، وأشار على الرجل أن يحتطب ليأكل من عمل يده.

فإذا حللنا هذه القصة من حيث أبعادها الإنتاجية والخلفية معاً لرأينا كيف حل رسول الله ﷺ أزمة اجتماعية تعرض عليه في صورة متسول من الفقراء فيفضل عليه الصلاة والسلام أن يحل المشكلة في نطاق "الواجب" وليس في نطاق "الحق" فالرجل له حق ولكن الرسول ﷺ أرشده إلى حل أزمته عن طريق أداء الواجب قبل المطالبة بالحق.

فالبعد الاقتصادي هنا أن الرسول ﷺ فضل الحل في نطاق الإنتاج وليس في نطاق الاستهلاك، وفي هذا الحل أمن من الفقر، كما نراه في موقف آخر يعطي لصاحبي يطلب ممن

(٣٣٨) سورة البقرة: آية ٢٧٤.

(٣٣٩) سورة البقرة: آية ٢٧٧.

كان حاضراً ثم يتكرر الطلب فيتكرر العطاء ثم يتكرر الطلب فيتكرر العطاء ويأتي التوجيه النبوي في صورة بارزة منه ﷺ فيقول للطالب: "اليد العليا خير من اليد السفلى" (٣٤٠).

هكذا عالج ﷺ كلتا الحالتين العلاج الناجع حسب ما تقتضيه كل منهما، فوظيفة المال تتمثل في سد حاجات الناس فرداً، إنه قيام بضرورات العيش وسد لحاجات الناس، وهو بهذا لا يصلح أن يكون دولة بين الأغنياء، ولا حكرأ في أيدي قلة ثرية منهم، إن حصر المال في أيدي دون أيدي أو بضعة بيوت دون أخرى هدر لوظيفته، وإلغاء لدورة الصحيح في فقه الإسلام، من أجل هذا كان كلمات الإمام علي تعبر عن مبدأ جليل من مبادئ الإسلام الحنيف في حكمه وحكومته حين قال: (إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فيمنع الأغنياء، وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه) (٣٤١).

وخلاصة القول عن الزكاة وأهميتها ودورها في حفظ الأمن واستتابة بين أفراد المجتمع: أن لها دوراً فعالاً في حفظ الأمن من وجوه عديدة لعل من أهمها الأمور الآتية.

الأمر الأول: الزكاة أمان من الفقر.

الأمر الثاني: الزكاة أمان من الجرائم.

الأمر الثالث: الزكاة أمان من التأخر عن ركب الحضارة.

الأمر الرابع: الزكاة عنصر هام في إرساء قاعدة السلام والأمن من الحروب.

لقد أحكم الإسلام الخطة في علاج الفقر بفرضه للزكاة، وجعلها أحد أركان هذا الدين، كذلك في حثه على الصدقة وترغيبه فيها عامل معم في علاج هذا الداء، والأخذ بأيدي المبتلين به ومساعدتهم في دفع شظف العيش ومرارة الحرمان، وقد جاءت السنة النبوية بالكثير من الأحاديث التي تبين عظم أجر المتصدقين وكيف يحصلون على العوض ويفوزون بحسن الجزاء، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة (٣٤٢) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان ففتح ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فانبج الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد

(٣٤٠) رواه النسائي في سننه عن حكيم بن حزام (كتاب الزكاة، اليد العليا) ٦٠/٥، وأبو داود في سننه (كتاب

الزكاة، باب في الاستغفار) رقم الحديث (١٦٤٨) ١٢٢/٢.

(٣٤١) المحلي لابن حزم المجلد الثالث ١٥٨/٦.

(٣٤٢) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي الملقب بأبي هريرة، صحابي كان من أكثر الصحابة حفظاً للحديث نشأ

يتيماً ضعيفاً في الجاهلية، وقدم المدينة والرسول ﷺ بخيبر فأسلم سنة ٩ للهجرة ولزم صحبة النبي ﷺ فأفرغ عنه

(٥٧٧٤) حديثاً، توفي سنة ٥٩ للهجرة. انظر: حلية الأولياء ٣٧٦/١، وأسد الغابة ٤٦١/٢، والأعلام ٨٠/٤.

الله، ما اسمك؟ قال: فلان بالاسم الذي سمعه في السحابة، فقال: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت فإني أنظر إلى ما خرج منها فأصدق بثلته، وأكل أنا وعيالي ثلته وارد فيها ثلته<sup>(٣٤٣)</sup>.

لقد حفظت الصدقة حديقة هذا الرجل، وجلبت لها مياه المزن نمرة مهراقة فممت وأينعت، وأمن صاحبها من الفقر، وأمن أخاه الفقير من الجوع وما يتبعه من أمراض وعلل.

ولقد أشاع المغرضون والحاقدون على هذا الدين شائعات خاطئة ليشككوا أناس في دينهم ويصرفوهم عنه، ومن ذلك ادعاؤهم بأن الصدقات فرضها وتطوعها تساعد على توارك الفقراء، واعتمادهم على هذه الصدقات، مما يدفعهم إلى الكسل وترك العمل، ولا شك أن هذا القول مردود ومنقوض من أساسه، وذلك للأمور الآتية:

أولاً: إن الأحكام دائماً للعموم، وليس للحالات الشاذة المستثناة الحكم، والشيء العام والملاحظ أن الإنسان السوي يأنف أن يمد يده للأخرين فهو يشعر بالعضاضة والضعف والحالة هذه، وما دام أنه يشعر بذلك فسيدفعه هذا الشعور إلى التخلص من حالة الفقر التي جعلته موضع الصدقات ونظرات الرحمة، والسبيل المضمون للخلاص من الفقر، هو العمل والكدح من أجل الكسب الحلال.

ثانياً: أن دين الإسلام رغب في التعفف عن سؤال الناس وأثنى على هؤلاء الذين لا يسألون الناس إلحافاً، ورغب في العمل ورتب عليه ثواباً جزيلاً ووعد العاملين بخير الجزاء، فقال ﷺ: "لئن يأخذ أحدكم فأسه فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"<sup>(٣٤٤)</sup>.

وعندما أثنى أصحابه رضي الله عنهم على رجل من حيث قوته الجسمية وكدحه في العمل، قال ﷺ: "إن كان قد خرج يعف نفسه عن السؤال أو يكدح على أبويه، فهو في سبيل الله"<sup>(٣٤٥)</sup>.

وما ذكر هنا مجرد أمثلة، وإلا فالسنة النبوية مشحونة بالإشادة بالعمل والحث عليه وهي مليئة بالنهي عن السؤال وتكف الناس إلا للحاجة الماسة، وعند تعذر الحصول على الكسب الحلال، وانغلاق الطريق الموصل إليه بسبب عاهة أصابته بالعجز أو كبر أو هن قواه عن

(٣٤٣) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزهد، باب: الصدقة في المساكين) ٢٢٨٨/٤، وأحمد في المسند ٢/٢٩٦.  
(٣٤٤) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب: كراهية السئلة للناس) ٧٢٠/٢، والترمذي في سننه (كتاب الزكاة، باب: ما جاء في النهي عن المسئلة) ١٩٢/٢.  
(٣٤٥) رواه الطبراني في الكبير ١٩/١٢٩ رقم [٢٨٢] والصغير ٢/٦٠ من حديث كعب بن عجرة. قال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح) ٢٥٠/٤، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: (رجاله رجال الصحيحين) ١٢٢/٤.

العمل، عندها أبيضحت المسألة، وهنا تظهر قيمة الزكوات والصدقات ودورها في القضاء على الفقر وانتشال الناس من برائته.

ثالثاً: أن حب المال غريزة مغروزة في النفوس نلاحظها في الإنسان منذ الصغر وقد جاء القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٣٤٦)، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَقَابِلِ﴾ (٣٤٧).

وما دام أن حب المال يسري في دم الإنسان، وأنه حريص على كسب أكبر قدر منه، فإنه لن يفتع بما يصل إليه من صدقات وزكوات ولن تقف هذه في طريقه، وتزده في العمل، والاستزادة من المال عن طريق الكسب المشروع، بل ربما يكون تذوقه لحلاوة هذا المال الذي حصل عليه عن طريق الصدقات، قد يكون حافزاً له ودافعاً يدفعه إلى البحث عن مصادر الكسب الذي يؤمن له مطالبه واحتياجاته، وهذه حقيقة واقعة وملموسة.

ومجمل القول: أن الزكاة علاج ناجع لداء الفقر، والتخفيف من حدته ويعود سر اعتبار الزكاة وسيلة من وسائل مكافحة العجز إلى أسباب من أهمها ما ذكرها صاحب كتاب منهاج الإسلام في مكافحة الإجمام، ومنها:

(أ) القضاء على مشكلة الفقر والحاجة بصورة تدريجية.

(ب) تضيق نطاق التفاوت الطبقي بين الأغنياء والفقراء.

(ج) الوقوف ضد طغيان نفس الغني الذي ينشأ عن شعوره باستغنائها كما صرح بذلك

القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿١﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْعَى ﴿٢﴾﴾ (٣٤٨).

فالزكاة تركي نفس المزكي من هذه الصفة الرذيلة (٣٤٩).

وقبل أن أختتم الحديث عن الزكاة ودورها في تحقيق أمن المجتمع أذكر آراء بعض المستشرقين وإعجابهم بفرض الزكاة في الإسلام، يقول أحدهم: (إن لدى الإسلام من الكفاية ما

(٣٤٦) سورة العاديات: آية ٨.

(٣٤٧) سورة آل عمران: آية ١٤.

(٣٤٨) سورة الملق: الآيتان ٦، ٨.

(٣٤٩) منهاج الإسلام في مكافحة الإجمام، ص ١٩ بتصرف واختصار.

يجعله يتشدد في تحقق فكرة المساومة، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال، وهو يناهض الديون الربوية، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية)<sup>(٣٥٠)</sup>.

ويقول مستشرق آخر: (الزكاة نظام اجتماعي عام، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمد به الفقراء، وتعينهم، وذلك عن طريق نظامية قديمة لا استبدادية تحكمية ولا عرضية طارئة، وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة، فضرية)<sup>(٣٥١)</sup> الزكاة التي كانت تحير طبقات الملاك، والتجار، والأغنياء على دفعها لتصرفها الدولة على المعوزين، والعاجزين من أفرادها، هدمت السياج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ووحدت الأمة في دائرة اجتماعية عادلة، وبذلك برهن هذا النظام الإسلامي على أنه لا يقوم على أساس الإثرة البغيضة)<sup>(٣٥٢)</sup>.

هذا قولان من أقوال أعداء الإسلام، ولكنه الحق يأبى إلا التآلق والظهور: ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَتَمَنَّوْهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٣٥٣) (٣٥٤)</sup>.

## ج: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

### تمهيد:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم المهمات وأفضل القربات؛ إذ فيه التناصح والتوجيه إلى الخير، والتواصي بالحق والصبر عليه، والتحذير مما يخالفه ويغضب الله عز وجل، ويباعد من رحمته، وهو موضوع عظيم، جدير بال العناية؛ لأن في تحقيقه مصلحة الأمة ونجاتها، وفي إهماله الخطر العظيم والفساد الكبير واختفاء الفضائل وظهور الرذائل.

(٣٥٠) يدعي هذا المستشرق لويس مايسيتون مستشرق فرنسي، ولد سنة ١٨٨٣م، وتوفي سنة ١٩٦٢م، رحل إلى بلاد إسلامية كثيرة طلباً للعلم، له مؤلفات عديدة، واعتنى بالدراسات الإسلامية العربية. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٦٢٤.

(٣٥١) على حسب مفهومه عبر عن الزكاة بأنها ضريبة، أما نحن فنسميها كما سماه الله سبحانه وتعالى، ورسول الله ﷺ (زكاة).

(٣٥٢) صاحب هذا القول يدعي ماركس، وهو غير ماركس صاحب المبدأ الشيوعي الهدام. نظرات في الشريعة الإسلامية لزيد بن فياض.

(٣٥٣) سورة التوبة: آية ٣٢.

(٣٥٤) انظر: نظرات في الشريعة الإسلامية لزيد بن فياض، ص ٦٠، ٦١ باختصار.

وقد أوضح الله جل وعلا في كتابه العظيم منزلته من الإسلام وبين سبحانه أن منزلته عظيمة حتى أنه سبحانه وتعالى في بعض الآيات قدمه على الإيمان الذي هو أصل الدين وأساس الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣٥٥).

والسر في هذا التقديم عظم شأن هذا الواجب وما يترتب عليه من المصالح العظيمة العامة، ولاسيما في هذا العصر، فإن حاجة المسلمين وضرورتهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شديدة لظهور المعاصي وانتشار الشرك والبدع في غالب المعمورة.

جاء في التحرير والتنوير عند تفسير هذه الآية: (وإنما قدم ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ على قوله: ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ ﴾ لانهماكهم في هذا المقام المسوق للتبويه بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحاصلة من قوله تعالى: ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣٥٦).

والاهتمام الذي هو سبب التقديم يختلف باختلاف مقامات الكلام ولا ينظر فيه إلى ما في نفس الأمر؛ لأن إيمانهم ثابت محقق من قبل (٣٥٧).

وقد كان المسلمون في عهده ﷺ وعهد أصحابه وفي عهد السلف الصالح يعظمون هذا الواجب ويقومون به خير قيام، والضرورة إليه بعد ذلك أشد وأعظم لكثرة الجهل وقلة العلم وغفلة الكثير من الناس عن هذا الواجب العظيم.

وفي عصرنا هذا صار الأمر أشد والخطر أعظم لانتشار الشرور والفساد وكثرة دعاة الباطل وقلة دعاة الخير في غالب البلاد كما تقدم، ومن أجل هذا أمر الله سبحانه وتعالى به ورغب فيه، وقدمه في آية آل عمران على الإيمان، وهي قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية، يعني: أمة محمد ﷺ فهي خير الأمم وأفضلها عند الله تعالى كما في

(٣٥٥) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(٣٥٦) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

(٣٥٧) التحرير والتنوير لابن عاشور ٤/ ٥٥٠.

الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل" (٣٥٨).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موجود في الأمم السابقة، بعث الله به الرسل وانزل به الكتب.

وأصل المعروف توحيد الله والإخلاص له، وأصل المنكر الشرك بالله وعبادة غيره، وجميع الرسل بعثوا يدعون الناس إلى توحيد الله، الذي هو أعظم المعروف وينهون الناس عن الشرك بالله، الذي هو أعظم المنكر.

ولما فرط كثير من بني إسرائيل في ذلك، وأضاعوه، قال الله جل وعلا في حقهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٣٥٩)، ثم ففسر هذا العصيان فقال سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦٠).

فجعل هذا أكبر عصيانهم واعتدائهم وجعله تفسيراً لقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وما ذلك إلا لعظم الخطر في ترك الواجب، وأثنى الله جل وعلا على أمة في ذلك منهم فقال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿٣٦١﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٦٢﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْقِينَ﴾ (٣٦١).

هذه طائفة من أهل الكتاب لم يصبها ما أصاب الذين ضيعوه، فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في ذلك.

وفي آية أخرى من كتاب الله عز وجل في سورة التوبة قدم سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

(٣٥٨) رواه الإمام أحمد في المسند ٣/٢، ٥، وابن ماجه في (كتاب الزهد، باب: صفة أمة محمد ﷺ رقم الحديث

٤٢٦/٢ (٣٤٦١) وقال الالباني عنه: (صحيح)، والحديث رواه بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

(٣٥٩) سورة المائدة: آية ٧٨.

(٣٦٠) سورة المائدة: آية ٧٩.

(٣٦١) سورة آل عمران: الآيات ١١٣ - ١١٥.

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٦٢﴾.

فقدّم هنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقامة الصلاة مع أن الصلاة عمود الإسلام، وهي أعظم الأركان بعد الشهادتين، وما ذلك إلا لعظم الحاجة إليه وشدة الضرورة إلى القيام به؛ ولأن بتحقيقه تصلح الأمة ويكثر فيها الخير وتظهر فيها الفضائل وتخفّ منها الرذائل ويتعاون أفرادها على الخير ويتناصحون ويجاهدون في سبيل الله ويأتون كل خير ويذرون كل شر، فيحصل لهم من الأمن والطمأنينة والسعادة ما يسود معه مجتمعهم وتعلو فيه كلمتهم وتحل به مشاكلهم.

وبإضافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكون الكوارث العظيمة والشور الكثيرة، وتفترق الأمة، وتقسو القلوب أو تموت، وتظهر الرذائل وتنتشر، وتخفّ الفضائل، ويهضم الحق، ويظهر صوت الباطل، وهذا أمر واقع في كثير من الاماكن وكثير من الدول والبلدان.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر والمقيمين للصلاة والمؤتئين للزكاة والمطيعين لله ولرسوله هم أهل الرحمة فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ فدل ذلك أن الرحمة إنما تنال بطاعة الله واتباع شريعته ومن أخص ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حصر الله سبحانه وتعالى الفلاح في آية من كتابه في الدعوة إلى الخير والأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، فقال جل وعلا: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣٦٣﴾، فأبان سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وهي الدعوة إلى

الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هم المفلحون، أي: أنهم هم المفلحون على الكمال والتمام، وإن كان غيرهم من المؤمنين مفلحاً إذا تخلى عن بعض هذه الصفات لعذر شرعي لكن المفلحون على الكمال والتمام هم هؤلاء الذين دعوا إلى الخير وأمروا بالمعروف وبادروا إليه، ونهوا عن المنكر وابتعدوا عنه، أما الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لأغراض أخرى كرياء وسمعة أو خطر عاجل أو أسباب أخرى، أو يتخلفون عن فعل المعروف ويرتكبون المناكر، فهؤلاء من أخبت الناس ومن أسوئهم عاقبة، وفي الصحيحين

(٣٦٢) سورة التوبة: آية ٧١.

(٣٦٣) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

عن أسامة بن زيد<sup>(٣٦٤)</sup>. رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار، فتندلق أفتاب بطنه -أي: أمعاؤه- فيدور في النار كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: مالك يا فلان؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! قال: فيقول لهم: بلى ولكني كنت أمركم بالمعروف ولا آتيته، وأنهاكم عن المنكر وآتيته"<sup>(٣٦٥)</sup>.

وبعد هذه العجالة أذكر تعريف "المعروف" و"المنكر":

ورد في مختار الصحاح تحت مادة "ع ر ف": (عرفه يعرفه بالكسر معرفة وعرفانا بالكسر، والعرف: الريح طيبة كانت أو منتنة، والمعروف: ضد المنكر، والعرف: ضد النكر، يقال: أولاه عرفاً أي: معروفاً، والعرف أيضاً: الاسم من الاعتراف، والعرف أيضاً: عرف الفرس، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْمَسْتَ عُرْفًا﴾<sup>(٣٦٦)</sup>، وقيل: هو مستعار من عرف الفرس، أي: يتتابعون كعرف الفرس، وقيل: أرسلت بالعرف، أي: بالمعروف)<sup>(٣٦٧)</sup>.

كما وردت تحت مادة "ن ك ر": (النكرة: ضد المعرفة وقد نكره بالكسر نُكراً ونكوراً بضم النون فيهما، وأنكره واستنكره كله بمعنى، ونكره فتنكر أي: غيره فتغير إلى مجهول، والمنكر واحد المناكير، والمنكير والإنكار: تغيير المنكر، ومنكر ونكير: أسما ملكين، والنكر: المنكر، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾<sup>(٣٦٨)</sup>، وقد يحرك مثل: عسر، وعُسْر، والإنكار: الجحود)<sup>(٣٦٩)</sup>.

قال ابن تيمية<sup>(٣٧٠)</sup>: (فاسم "المنكر" يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه، وهو المبغض، واسم "المعروف" يعم كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به، فحيث أفردا بالذكر، فإنهما يعمان كل محبوب في الدين ومكروه.

(٣٦٤) هو: أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزي بن زيد بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ورد بن عوف بن كنانة بن بكر الكلبي، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ يكنى أسامة أبا محمد، وقيل: أبو زيد، وكان يسمى: حب رسول الله ﷺ، أمره الرسول ﷺ على الجيش الذي سيره إلى مؤتة في علة التي توفي منها، وكان أسامة أسود أفتس، توفي سنة ٥٤ بالجرف، وقيل غير ذلك. انظر: أسد الغابة ٧٩١/١، وتهذيب التهذيب ٢٠٨/١، والأعلام ٢٨١/١.

(٣٦٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (كتاب الفتن، باب: الفتنة التي تموج كموج البحر) رقم الحديث (٧٠٩٨) ٤٨/١٣، وصحيح مسلم (كتاب الزهد، باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله) رقم الحديث (٢٩٨٨) ٢٢٩١/٤.

(٣٦٦) سورة المرسلات: آية ١.

(٣٦٧) مختار الصحاح، ص ٤٢٧، ٤٢٦.

(٣٦٨) سورة الكهف: آية ٧٤.

(٣٦٩) مختار الصحاح، ص ٦٧٩.

(٣٧٠) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضري بن محمد بن تيمية الحراني الدمشقي، تقي الدين أبو العباس، ولد بحران سنة ٦٦١هـ، وقدم به والده إلى دمشق فسمع من ابن عبد الدائم

وإذا قرن المنكر بالفحشاء، فإن الفحشاء مبناها على المحبة والشهوة.

والمنكر: هو الذي تنكره القلوب، فقد يظن أن ما في الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول في المنكر، وإن كانت مما تنكرها القلوب فإنها تشتهيها النفوس.

والمنكر: قد يقال: إنه يعم معنى الفحشاء.

وقد يقال: قصد بالمنكر ما ينكر مطلقاً، والفحشاء لكونها تشتهي وتحب... (٣٧١).

جاء في التحرير والتنوير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٣٧٢) قال: (وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعروف: هو الذي تألفه النفوس وتسنحسنة فهو مما تسر به النفوس ولا تشمئز منه ولا تنكره، ويقال لضده منكر) (٣٧٣).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٧٤): (والمعروف هو: ما يعرف وهو مجاز في المقبول المرضي به؛ لأن الشيء إذا كان معروفاً كان مألوفاً مقبولاً مرضياً به، وأريد به هنا ما يقبل عند أهل العقول، وفي الشرائع، وهو الحق والصالح؛ لأن ذلك مقبول عند انتفاء العوارض.

والمنكر مجاز في المكروه، والكره لازم للإنكار؛ لأن النكر في أصل اللسان هو الجهل، ومنه تسمية غير المألوف نكرة، وأريد به هنا الباطل والفساد؛ لأنهما من المكروه في الجبلة عند انتفاء العوارض.

والتعريف في (الخير، والمعروف، والمنكر) تعريف للاستغراق، فيفيد العموم في المعاملات بحسب ما ينتهي إليه العلم والمقدرة فيشبه الاستغراق العرفي) (٣٧٥).

وابن أبي اليسر والمجد بن عساكر وغيرهم، برع في العلوم ولم يكن له مثيل في زمنه وتأهل للفتوى والتدريس، وله دون العشرين سنة، وله مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون، توفي بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. انظر: فوات الوفيات، ١٧٤، والبداية والنهاية ١٤/١٣٥.

(٣٧١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، صححه وخرج أحاديده وعلق عليه: فواز أحمد زمرلي، ص ٢٧-

٢٨

(٣٧٢) سورة البقرة: آية ١٧٨.

(٣٧٣) التحرير والتنوير، ١٤٢/٢.

(٣٧٤) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

(٣٧٥) التحرير والتنوير ٤٠/٤.

ومما مضى استنتج في تعريف المعروف والمنكر:

أن المعروف: ما عرفه الناس بأنه محبوب للشارع مفروضاً كان، أو مسنوناً، أو مستحباً.

والمنكر: ما ينكره الشارع محرماً كان أو مكروهاً، والله أعلم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصدر من مصادر الأمن في الحياة:

يعتبر واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد الواجبات الإسلامية السامية التي تسهم في إرشاد المجتمع إلى الطريق الصواب ومحاربة البدع وإصلاح المجتمع، ويكون في المجتمعات الإسلامية على طريقين: إما تطوع من أي مسلم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإما أن يخصص ولي الأمر مواطنين خاصين في الدولة لتطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأطلق على هذا العمل في التاريخ الإسلامي اسم الحسبة، حيث يقوم الموظفون بالأعمال الموكولة إليهم من قبل ولي الأمر مثل الرقابة على المجتمع من ناحية الأخلاق وتطبيق فروض الدين والمعاملات الاقتصادية والتجارية بين الناس وتصميم الأسواق والطرق... إلخ.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس حديثاً، بل نشأ منذ أن بعث الله الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، وكان معروفاً عند الأمم السابقة، فهذا لقمان<sup>(٣٧٦)</sup>. يوصي ابنه: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٣٧٧)</sup>.

جاء في المحرر الوجيز عند تفسيره لهذه الآية: (ثم وصى ابنه بعظم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يمثل هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع، وقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضاً على تغيير المنكر وإن نال ضرراً فهو إشعار بأن المغير يؤدي أحياناً، وهذا القدر هو على جهة التندب والقوة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا...)<sup>(٣٧٨)</sup>.

(٣٧٦) هو: لقمان الحكيم، وهو عبد حبشي غليظ الشفتين مصفح القدمين قاضياً على بني إسرائيل. جامع البيان ٤٢/٢١، وقال ابن كثير: (اختلف السلف في لقمان هل كان نبياً أم عبداً صالحاً من غير نبوة على قولين، الأكثرون على الثاني). تفسير القرآن العظيم: ٤٤٢/٢.

(٣٧٧) سورة لقمان: آية ١٧.

(٣٧٨) المحرر الوجيز: ١٨/١٢.

وهذا مؤمن آل فرعون، نما إلى علمه قول فرعون: ذروني أقتل موسى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (٣٧٩)، فأحسن أن ذلك منكر فأنكره على فرعون وقومه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٣٨٠).

وحينما فرط كثير من بني إسرائيل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأضاعوه قال الله جل وعلا في حقهم: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٣٨١).

ثم فسر ذلك العصيان بالآية التي تليها فقال تعالى: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٨٢)، فجعل سبحانه عدم تناهيهم عن المنكر من أكبر عصيانهم واعتدائهم.

جاء في فتح البيان: (... ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ أسند الفعل إليهم لكون فاعلة من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعاً، والمعنى أنهم كانوا لا ينهون العصاة عن معاودة معصية قد فعلها أو تهيأ لفعلها، ويحتمل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار وبيان العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر؛ لأن من أخل بواجب النهي عن المنكر فقد عصي الله سبحانه وتعدي حدوده.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجل الفرائض الشرعية؛ ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعله في المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه، كما وقع لأهل السبب فإن الله سبحانه مسخ من لم يشاركهم، ولكن ترك الإنكار عليهم كما مسخ المعتدين فصاروا جميعاً قردة وخنزير، إن في ذلك لعلبة لمن كان له قلب أو لقي السمع وهو شهيد.

(٣٧٩) سورة غافر: آية ٢٦.

(٣٨٠) سورة غافر: آية ٢٨.

(٣٨١) سورة المائدة: آية ٧٨.

(٣٨٢) سورة المائدة: آية ٧٩.

ثم إن الله سبحانه قال مقبحاً لعدم التناهي عن المنكر: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(٣٨٤)</sup> من تركهم الإنكار ما يجب عليهم إنكاره، واللام لام القسم.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض"، ثم قال: ﴿لِعِبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾، ثم قال: "كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً"، زاد في رواية: "أو ليضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم يعنكم كما لعنهم"<sup>(٣٨٣)</sup> (٣٨٤).

وقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بصفات من أهمها أنه عليه الصلاة والسلام كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا شك أن هذه الوظيفة إذا طبقت في أي مجتمع جعلته يعيش مطمئناً آمناً هادئاً؛ لأن الإنسان إذا علم أنه إن عمل أي شيء مخالف أنكر الناس عليه فعله وعاقبوه وردعوه عن منكره فيحرص كل فرد من أفراد المجتمع على عمل الخير والبعد عن المنكر، وقد وصف الله بيه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُخْلِ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَاَلَّذِينَ أَمْنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٣٨٥)</sup>.

كما كان أصحابه عليه:

وإن أدى ذلك إلى أذيتهم والإضرار بهم وأول من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر من الصحابة في أول عهد الدعوة الإسلامية هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، روي البخاري عنه عروة<sup>(٣٨٦)</sup> بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو<sup>(٣٨٧)</sup> بن العاص رضي الله عنه:

(٣٨٣) سنن أبي داود (كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي) رقم الحديث (٤٣٣٦) ١٢٢/٤، وسنن الترمذي (كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة) رقم الحديث (٣٠٤٧) ٢٥٢/٥. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقد روي في نفس الكتاب والباب برقم (٣٠٤٨) الحديث مع اختلاف في بعض ألفاظه من أبي عبيدة عن النبي ﷺ (٣٨٤) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق بن حسن القنوجي البخاري ٣١/٤، ٢٢.

(٣٨٥) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

(٣٨٦) هو: عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسدي أو عبد الله المدني، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، روى عن أبيه وأخيه وأمه أسماء بنت أبي بكر وخالته عائشة رضي الله عنها، أصابته

أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة<sup>(٣٨٨)</sup> بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٣٨٩)(٣٩٠).

كما وصف الله الأمة الإسلامية بما وصف به نبيها، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣٩١).

وعلى النقيض من هذا وصف الله المنافقين وغير المؤمنين، قال تعالى في السورة نفسها: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣٩٢).

جاء في تفسير الظلال: (إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، إذا كانوا جيلة واحدة وطبيعة واحدة، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض).

الأكلة فقطعت رجله وعاش بعد قطع رجله ثماني سنين كانت ولادته سنة ٢٢هـ، وقيل: ٢٦هـ، وتوفي في قرية له قرب المدينة، يقال لها فرع بينها وبين المدينة أربعة أميال سنة ٩٢هـ وقيل: ٩٤هـ. انظر: وفیات الأعيان ٢٥٥/٣ بالطائفة ١٨٠/٧، الأعلام ١٧/٥.

(٢٨٧) هو: عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن عاصم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، يكنى أبا محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن كان أصغر من أبيه باثنتي عشرة سنة، أسلم قبل أبيه وكان عالماً فاضلاً قال: حفظت عن النبي ﷺ ألف حديث، توفي بمصر سنة ٦٥هـ، وقيل: سنة ٦٧هـ بمكة، وقيل: سنة ٥٥هـ بالطائفة وكان عمره ٧٢ سنة، وقيل: ٩٢هـ. انظر: أسد الغابة ٣/٢٤٩، تهذيب التهذيب ٣٢٧٥/٥ والأعلام ٢٥٠/٤.

(٢٨٨) هو: عقبة بن إبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس من مقدمي قريش في الجاهلية كنيته أبو الوليد وكنية أبيه أبو معيط، كان شديد الأذى للمسلمين عند ظهور الدعوة وقد وضع سلا البعير على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فما رفع حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك، فدعا عليه الرسول ﷺ مع مجموعة من قريش ولم يكن دعا عليه قبل ذلك، وقد قتل يوم بدر وألقي في التليب هو ومن دعا عليهم الرسول، وقيل: أسر وصلبن وكان أول مصلوب في الإسلام. انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢٧٨/٢، والأعلام ٣٦/٥.

(٢٨٩) سورة غافر: آية ٢٨.

(٣٩٠) الأثر رواه البيهقي في الدلائل ٢٧٤/٢.

(٣٩١) سورة التوبة: آية ٧١.

(٣٩٢) سورة التوبة: آية ٦٧.

إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض، فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى تعاون وإلى تكاليف، وطبيعة النفاق تأتي هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم.

إن المنافقين أفراد ضعاف مهزلة، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة، على ما يبدو بينهم من تشابه في الطبيعة والخلق والسلوك، والتعبير القرآني الدقيق لا يغفل هذا المعنى في وصف هؤلاء، وهؤلاء: «الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ». «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».

إن طبيعة المؤمنين هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر. «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ»... وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفاً واحداً. لا تدخل بينها عوامل الفرقة، وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة فثمة ولا بد عنصر غريب في طبيعتها، وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة. ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها، السمة التي يقررها العليم الخبير: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض. «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» الصلة التي تربطهم بالله. «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن.

فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله أمراً... وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم.

والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولاً ورحمة الله تشمل الفرد الذين ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح، رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالله، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث، ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله.

إن هذه الصفات الأربع في المؤمنين: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، وتسيان الله، وقبض الأيدي ... ، وإن رحمة الله لمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار ... إن تلك الصفات لهي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية) (٣٩٣).

هكذا يظهر من تفسير الآية أنها بينت أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتبع ذلك عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عامل رئيسي في التمكن في الأرض وحصول الأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة، وهذا حق ظاهر للعيان يسجله التاريخ، فبالمقارنة بين الأمة الإسلامية التي من أهم صفاتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الأمم التي حولها نجد أن الله سبحانه وتعالى قد فضل الأمة الإسلامية على غيرها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠) ﴿٣٩٤﴾.

فالمؤمنون قد عرفوا الله ولم يتخذوا من دونه أو له أنداداً، واعتصموا بحبل الله، ولم ينفروا شيعاً وأحزاباً وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً واحتساباً، أما غيرهم فقد غلب عليهم الفساد فلا يعرف فيهم المعروف ولا ينكر فيهم المنكر، اختلفت أهواؤهم وضلالاتهم فمن أمة تعبد بشراً لأمة تعبد وثناً، ومن أمة تعبد حيواناً لأمة تعبد شجراً، ومن أمة تتخذ لها من دون الله شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، وقد سخر الله منهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءَ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣٩٥).

والمسلمون مطالبون بدعوة سائر الأمم إلى الخير الذي هم فيه، والإسلام الذي هداهم الله إليه، وكما عليهم أن يأمروا غيرهم فإن عليهم أن يأمر بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ

(٣٩٣) في ظلال القرآن ١٦٧٥/٣، ١٦٧٦.

(٣٩٤) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(٣٩٥) سورة الشورى: آية ٢١.

خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ نُورٌ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ  
الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٩٦﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي  
الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٣٩٧).

جاء في تفسير الآية (يأمر تعالى الأمة الإسلامية بأن يكون منها جماعة متخصصة  
بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأولئك الكمل هم المفلقون في الدنيا  
والآخرة، وتخصص هذه الفئة بما ذكر لا يمنع كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
واجباً على كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي  
هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع  
فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (٣٩٨)/(٣٩٩).

وفي هذا الحديث الشريف بين رسول ﷺ مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
الثلاثة:

(المرتبة الأولى: الإنكار باليد مع القدرة، وذلك بإقامة أواني الخمر، وكسر آلات اللهو  
ومنع من أراد الشر بالناس وظلمهم من تنفيذ مراده إن استطاع ذلك كالسلطان ونحوه من أهل  
القدرة، وكإلزام الناس بالصلاة، وبحكم الله الواجب اتباعه ممن يقدر على ذلك إلى غير هذا  
مما أوجب الله، وهكذا المؤمن مع أهله وولده، يلزمهم بأمر الله، ويمنعهم مما حرم الله باليد إذا  
لم ينفع فيهم مع أهله وهكذا من له ولاية من أمير أو محتسب أو شيخ قبيلة أو غيرهم ممن له  
ولاية من جهة ولي الأمر، أو من جماعته حيث ولوه عليهم، عند فقد الولاية العامة يقوم بهذا  
الواجب حسب طاقته، فإن عجز انتقل إلى :

المرتبة الثانية: وهي اللسان يأمرهم باللسان وينهاهم كأن يقول: يا قوم اتقوا الله، يا  
إخواني اتقوا الله، صلوا وأدوا الزكاة، اتركوا هذا المنكر، افعلوا كذا، دعوا ما حرم الله، بروا  
والديكم، صلوا أرحامكم، إلى غير هذا يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر باللسان،  
ويعظهم ويذكرهم، ويتحرى الأشياء التي يفعلونها حتى ينبههم عليها، ويعاملهم بالأسلوب

(٢٩٦) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(٢٩٧) سورة التوبة: آية ١٢٢.

(٢٩٨) صحيح مسلم (كتاب الإيمان، باب: كونه النهي عن المنكر من الإيمان) ٦٩/١، وسنن أبي داود (كتاب

الملاحم) رقم الحديث (٤٣٤٠) ٤/١٢٣.

(٢٩٩) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للزحيلي ٣/٣٣.

الحسن، مع الرفق، يقول عليه الصلاة والسلام: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله" (٤٠٠) ويقول ﷺ: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه" (٤٠١)...

المرتبة الثالثة: إذا عجز المؤمن عن الإنكار باليد واللسان انتهى إلى القلب يكره المنكر بقلبه، ويبغضه، ولا يكون جليساً لأهله... (٤٠٢).

وخلاصة القول: إن الأمة التي اختار الله لها الإسلام ديناً، لا بد أن تتصف بأعمال تستوجب هذه الحالة من الرضا، وبهذه الأعمال تستحق أن تكون خير الأمم، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما الأساس المتين لوقاية المجتمعات من الجريمة وحماية الأمة من تسلط فئة يئبب الشر في نفوسهم، بحيث لا تردعهم إلا سلطة قوية تنزل بهم عقوبة رادعة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تتحرك بها النفوس ما لم ترتكز على قاعدة صلبة من الإيمان الذي يملأ النفس بحرارة اليقين ويمدها بالشحنات الدافعة إلى العمل.

ولقد جعل الله في شرائع هذا الدين، وفي كل أمر أو نهى حكمة بالغة تتصل حبها الحياة في كل زمان وفي كل مكان، فالحدود التي شرعها الله ونظمتها تعاليم الإسلام ليست إلا وقاية للمجتمع من تسلط فئة على فئة وحماية له من أصحاب النزعات الشريرة، وبهذا يعيش المجتمع آمناً مطمئناً، سعيداً في دنياه، يرجو رحمة الله في أخراه؛ لأنه في تطبيقه لحكم الله قد منع كل من تسول له نفسه العمل أو التفكير فيما يضر أمن المجتمع وحال بينه وبين ما يشتهي، وبالله التوفيق.

(٤٠٠) صحيح مسلم (كتاب الأدب: البر والصلة والرفق، باب: فضل الرفق) ٢٠٠٤/٤، وهو عن عبد الله بن مغفل عن رسول الله ﷺ، سنن أبي داود (كتاب الأدب، باب: في الرفق) رقم (٤٨٠٧) ٢٥٤/٤.

(٤٠١) صحيح مسلم (كتاب الأدب: البر والصلة والرفق، باب: فضل الرفق) ٢٠٠٤/٤، وسنن أبي داود (كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الهجرة وسكني البدو) رقم الحديث (٢٤٧٨) ٣/٢، والحديث مروى عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ.

(٤٠٢) انظر: مجل البحوث الإسلامية العدد الثامن والعشرون (رجب-شعبان- رمضان- شوال ١٤١٠هـ، وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ص ١٢، ١٣، ١٦ بتصريف.

## د: الجهاد في سبيل الله

### تمهيد:

العقوبات التي جاءت بها الشريعة الإسلامية لمن عصى الله ورسوله نوعان:

أحدهما: عقوبة المقدر عليه، سواء أكان واحداً أم أكثر.

الثاني: عقاب الطائفة الممتنعة والمتحصنة كالتى لا يقدر عليها إلا بقتال.

أما النوع الأول: فهو لاء يطبق عليه الإمام أو الحاكم الحدود التي شرعها الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُنَطَّقَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جُزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤٠٣).

والنوع الثاني: هو جهاد الكفار أعداء الله ورسوله، فكل من بلغته دعوة الرسول ﷺ إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب ووضع العراقيل ضده، فإنه يجب قتاله: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتَهَا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤٠٤).

والله تعالى لما بعث نبيه، وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر إلى المدينة، فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى: ﴿ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٤١) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (٤٠٥).

(٤٠٣) سورة المائدة: آية ٣٣.

(٤٠٤) سورة الأنفال: آية ٣٩.

(٤٠٥) سورة الحج: الآيات ٢٩ - ٤١.

ثم إنه بعد ذلك أوجب عليهم القتال بقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٠٦).

وأكد الإيجاب، وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدنية، وذم التاركين له ووصفهم بالفتاق ومرض القلوب، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٤٠٧).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٤٠٨).

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُتَّكِمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ (٤٠٩) طاعة وقول معروف<sup>٤</sup> فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم (٤١٠) فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴿ (٤٠٩).

وكذلك تعظيمه أهله كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَيْعَةٍ تَحِبُّونَهَا تَوَلَّوْا آلِيكُمْ وَرَسُولِي وَاللَّهُ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤١١) يغير لكم ذنوبكم ويلدخلكم جنتي تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنت عدن ذلك الفوز العظيم ﴿ (٤١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴿ (٤١٠).

وقال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤١٣) الذين آمنوا وهاجروا وجهدوا في سبيل الله

(٤٠٦) سورة البقرة: آية ٢١٦.

(٤٠٧) سورة التوبة: آية ٢٤.

(٤٠٨) سورة الحجرات: آية ١٥.

(٤٠٩) سورة محمد: آية ٢٠ - ٢٢.

(٤١٠) سورة الصف: آية ١٠ - ١٣.

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُرُّ الْقَارُونَ ﴿٢٠﴾ بِبَشْرِهِمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴿٤١١﴾.

والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر؛ ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة، ومن الصلاة- التطوع- والصوم التطوع، كما دل عليه الكتاب والسنة حتى قال النبي ﷺ: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد" (٤١٢)، وقال: "إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض". (٤١٣).

وقال: "ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب" (٤١٤).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

### تعريف الجهاد:

قال صاحب الصحاح تحت مادة "جهد": (الجهْدُ والجُهْدُ: الطاقة، وقرئ: "والذين لا يجدون إلا جهدهم" و"جهدهم"، والجهد بالضم: الطاقة، والجهد بالفتح: من قولك: أجهد جهداً في هذا الأمر، أي: أبلغ غايتك، ولا يقال: أجهد جهداً).

والجهد: المشقة، يقال: جهد دابته وأجهدها، إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وجهد الرجل في كذا، أي: جد فيه وبالغ، وجهدت اللبَن فهو مجهود، أي: أخرجت زبده كله، وجهدت الطعام: اشتهيته، والجاهد: الشهوان (٤١٥).

وجاء في مختار الصحاح تحت مادة "جهد" نحو هذا، وزاد: (وجهد الرجل على ما لم يسم فاعله فهو مجهود، من المشقة، وجاهد في سبيل الله مجاهدة وجاهداً، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود) (٤١٦).

(٤١١) سورة التوبة: الآيات ١٩- ٢٢.

(٤١٢) مسند الإمام أحمد ٢٣١/٥، ٢٣٤، وسنن الترمذي (كتاب الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة) رقم الحديث (٢٦١٦) ١١/٥، وقال: (هذا حديث حسن صحيح) وقد رواه معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ. (٤١٣) صحيح البخاري (كتاب الجهاد، باب: درجات المجاهد في سبيل الله) رقم الحديث (٢٧٩٠) فتح الباري ١١/٦، والحديث عن أبي هريرة.

(٤١٤) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٢١/٦، ٢٢ من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه مرفوعاً به، وسنن الترمذي بنحوه (كتاب الإيمان، باب: أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) رقم الحديث (٢٦٢٧) ١٧/٥، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

(٤١٥) انظر: الصحاح ٢١٦/١ بتصريف.

قال الشيخ السيد سابق: (والجهاد مأخوذ من الجهد وهو الطاقة والمشقة، يقال: جاهد يجاهد جهاداً ومجاهدة، إذا استفرغ وسعه، وبذلك طاقته، وتحمل المشاق في مقاتلة العدو ومدافعته، وهو ما يعبر عنه بالحرب في العرف الحديث، والحرب هي القتال المسلح بين دولتين فأكثر، وهي أمر طبيعي في البشر، لا تكاد تخلو منها أمة ولا جيل، وقد اقرته الشرائع الإلهية السابقة) (٤١٧).

### مراحل الجهاد في الإسلام:

بدأ الوحي ينزل على رسول الله ﷺ منذ أن جاءه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿أَنزِلْ بِأَسْرَتِكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) (٤١٨)، ونهياً للنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، للدعوة والرسالة، فأمره الله عز وجل بالتبليغ والإنذار: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (١) ﴿فَرَأَنذَرْتُكَ فَاذْنَبْ﴾ (٢) ﴿وَرَبُّكَ فَكَبِّرُ﴾ (٣) ﴿وَيَا بَكَ فَطِعْزُ﴾ (٤) ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ﴾ (٥) (٤١٩).

وبدأ ﷺ بدعوة آل بيته، ثم عشيرته وقومه بالحسنى والموعظة، ولكن كبر على المشركين ذلك، وكان لا بد من أن يلقي مناوأة من قومه الذين رأوا أن الدعوة الجديدة خطر على كيانه المادي والأدبي، فناصروا النبي الكريم ﷺ العداء وتفننوا في صنوف الإيذاء والبلاء يصبونها على من آمن بالنبي ﷺ، واتبع دعوته، حتى وصل الأمر بهم إلى أن يتآمروا على النبي ﷺ ليتخلصوا منه ويستريحوا، كل هذا والقرآن الكريم يتنزل على النبي ﷺ ويأمره بالصبر والعفو والكف والصفح الجميل: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (١٨) (٤٢٠). ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَمَا سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) (٤٢١). ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَينَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) (٤٢٢).

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) (٤٢٣).

ولم يأذن الله في العهد المكي أن يقابل السيئة بالسيئة، أو يواجه الأذى بالأذى، أو يحارب الذين حاربوا الدعوة، أو يقاتل الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) (٤٢٤).

(٤١٦) مختار الصحاح، ص ١١٦.

(٤١٧) فقه السنة ٦١٨/٢.

(٤١٨) سورة العلق: الآيات ١- ٥.

(٤١٩) سورة المدثر: الآيات ١- ٥.

(٤٢٠) سورة الطور: آية ٤٨.

(٤٢١) سورة الزخرف: آية ٨٩.

(٤٢٢) سورة الحجر: آية ٨٥.

(٤٢٣) سورة الجاثية: آية ١٤.

ولما اشتد الأذى على المسلمين وتتابع ضدهم الاضطهاد حتى وصل قمته بتدبير مؤامرة لاغتيال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أذن الله تعالى لنبيه بالهجرة إلى المدينة المنورة<sup>(٤٢٥)</sup>، وأمر أصحابه بالهجرة إليها بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة، وبدأ تأسيس المجتمع الإسلامي الجديد الوليد في المدينة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾<sup>(٤٢٦)</sup>.

﴿إِلَّا نَضْرِبْهُ فَلَاحِقَ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٤٢٧)</sup>.

وفي المدينة -العاصمة الجديدة للإسلام- تقرر الإذن بالقتال حين أطبق عليهم الأعداء وزاد عليهم العناد والعدوان، فقال تعالى: ﴿أُوذِيَ الَّذِينَ يَلْبَسُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمًا وَاِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٤٢٨)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِعَ وَصَلَوَاتٌ وَسَجْدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَاءَ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ<sup>(٤٢٩)</sup> الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾<sup>(٤٣٠)</sup>.

فهو إذن بالقتال لرفع العدوان وردة عن المؤمنين ولم يكن فيه وجوب ولا أمر.

يقول الشيخ السيد سابق: (وفي هذه الآيات تعليل للإذن بالقتال بأمر ثلاثة:

١- إنهم ظلموا بالاعتداء عليهم وإخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يدنوا دين الحق، ويقولوا: ربنا الله.

٢- إنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع، لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، بسبب ظلم الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

(٤٢٤) سورة المؤمنون: آية ٩٦.

(٤٢٥) سيأتي الحديث عنها مفصلاً في الباب الرابع.

(٤٢٦) سورة الأنفال: آية ٣٠.

(٤٢٧) سورة التوبة: آية ٤٠.

(٤٢٨) سورة الحج: الآيات ٣٩-٤١.

٣- إن غاية النصر والتمكين في الأرض، والحكم: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٢٩).

وبعد هذا الإذن فرض القتال على المسلمين بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٤٣٠).

ثم فرض بعض ذلك قتال المشركين كافة حين يقاتلونهم كافة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفِيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤٣١)، وهكذا مرَّ القتال والجهاد بمراحل، فكان محرماً ثم مأموراً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين.

### فضل الجهاد وأصالته:

الجهاد من الإسلام نروة سنامه، وهو واحد من طرق العزة والكرامة، وكان ولا يزال السبيل الذي تسلكه الأمم للحفاظ على كيانها ضد من يعتدي عليها، ففيه إعلاء لكلمة الله، وتمكين لهديته في الأرض، وتركيز للدين الحق، ولا يسمى جهاداً إلا إذا كان كذلك، ما تركه قوم إلا ذلوا وسلط الله عليهم أعداءهم، وما تمسك به قوم إلا نصرُوا وعزوا.

ولنا في تاريخ أمتنا أصدق شاهد وأقوى دليل على ذلك، فهي لما كانت متمسكة بالجهاد في سبيل الله - بالنفس والمال - يحج فيها الفرد عاماً ويغزو عاماً - كما نجد في تراجم الكثير من علماء الإسلام وقادته - كانت أمة قوية عزيزة مرهونة الجانب، تجبي إليها الثمرات من كل مكان، ولما تقاعست عنه وبدأت تتلمس الأعذار لتركه، وتدعو إلى السلم الرخيص الذليل، عند ذلك وجدناها تمشي القهقري، وتتأوشها الأمم من كل جانب فتضعف مكانتها، وتزول هيبتها، وتخور عزيمتها، وتنسى رسالتها، ويتحقق فيها قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها" قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: "لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل" (٤٣٢).

(٤٢٩) فقه السنة للشيخ السيد سابق ٢/٦٢٠، ٦٢١.

(٤٣٠) سورة البقرة: آية ١٩٠.

(٤٣١) سورة التوبة: آية ٣٦.

(٤٣٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٧٨، سنن أبي داود (كتاب الملاحم، باب: تداعي الأمم على الإسلام) رقم الحديث

(٤٢٩٧) ٤/١١١، والحديث مروى عن ثوبان رضي الله عنه.

وليس هذا فحسب، بل راح بعضهم يحرف الكلم عن مواضعه، فيفسر الآيات على غير وجهها ويبتزها عن السياق، ويغض الطرف عن ملابسات وأسباب النزول لمواجهة الواقع، ويحرف الوقائع التاريخية ويحملها مالا تحتتمل كل هذا ليجعل لنفسه مبرراً للعود عن الجهاد وإمكاناً في التضليل والتحريف.

سأورد فيما يلي طرفاً من الآيات والأحاديث على سبيل التمثيل لا الاستقراء والحصص، وفي جزالة ألفاظها ونصاعة بيانها ووضوح معانيها وقوة الروحانية فيها ما يغني عن كل شرح أو تعليق:

### من الآيات القرآنية في الجهاد: في فريضة الجهاد:

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢١٦) ﴿ (٤٣٣). ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مَنَعَكَ لَمَنْ لِيَبْتَغِيَنَّ فَإِنْ أَصَبْتَكَ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمَّا أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿ (٤٣٤).

وفي الخطة التنفيذية للمعركة: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥) ﴿ (٤٣٥).

شرف الغاية والمقصد

الجهاد بالنفس والمال

الصلاة لا تمنع الجهاد ولا هو عذر في تركها

الجهاد تجارة رابحة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ يَحْزَرُونَ نَبِيًّا مِّنْ عَدَاِبِ اللَّهِ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤَدُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١) يَقُولُ لَكُمْ دُونَكُمْ وَيَدْعُوكُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْ بَيْتِكُمْ الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنَ طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأَخْرَجُوا يُحِبُّونَهَا نَصْرًا مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴿ (٤٣٦).

(٤٣٣) سورة البقرة: آية ٢١٦.

(٤٣٤) سورة النساء: الآيات: ٧١ - ٧٣.

(٤٣٥) سورة النساء: آية ٧٥.

الجهاد ضرورة اجتماعية: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ بِلَدِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَابِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ (٤٣٧).

تحذير وتوبيخ للمتخلفين: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (٤٣٨).

التقاسم عن الجهاد: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ (٤٣٩).

جاء في أنوار التنزيل وأسرار التأويل عند تفسيره لهذه الآية ﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾ ولا تمسكوا كل الإمساك ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاككم، ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري (٤٤٠). رضي الله عنه أنه قال: لما أعر الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهلينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت. أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد؛ ولذلك سمي البخل هلاكاً وهو في الأصل انتهاء الشيء في الفساد... إلخ (٤٤١).

الإعداد والاستعداد:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (٤٤٢).

(٤٣٦) سورة الصف: الآيات ١٠ - ١٣

(٤٣٧) سورة الحج: آية ٤٠.

(٤٣٨) سورة التوبة: آية ٢٤.

(٤٣٩) سورة البقرة: آية ١٩٥.

(٤٤٠) هو: خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف، ويقال: ابن عمرو بن عبد عوف بن غنم، ويقال: ابن عبد عوف بن جشم بن غنم بن مالك بن النجار، أبو أيوب الأنصاري الخزرجي، شهد بدرًا والمعارك كلها مع رسول الله ﷺ، ونزل عنده رسول الله ﷺ حين قدم المدينة شهراً حتى بني المسجد، وروى عن النبي ﷺ وأبي بن كعب، وعنه البراء وجابر بن سمرة وغيرهم، وحضر مع علي حرب الخوارج وورد المدائن، وعاش بعد ذلك زمناً طويلاً حتى مات ببلاط الروم غازياً في خلافة معاوية سنة ٥٠هـ، وقيل غير ذلك. انظر: أسد الغابة ٢٥/٦، تهذيب التهذيب ٩٠/٢، والأعلام ٢٣٦/٢.

(٤٤١) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص ٤١.

(٤٤٢) سورة الأنفال: آية ٦٠.

الثبات في القتال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤٤٣).

القوة لا السلم الرخيص:

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٤٤٤).

الجهاد فيه شهداء وأجرهم عظيم:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزِقُونَ ﴾ (٤٤٣) ﴿ فَوَجِدْ يَمَاءَ آتَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَسَيَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤٤٥).

إلخ... إلخ آيات كثيرة جداً، بل سورة كاملة يتحدث معظمها عن الجهاد، كسورة الأنفال، ومعظمها حث على القتال، وحض على الثبات وبيان لكثير من أحكام الجهاد، وسورة التوبة كذلك، بل هناك سورة سميت باسم سورة "القتال" وسورة "الفتح" كل هذا قرآن يتلى وأحكام تتردد على مسامع وعقول وقلوب البشر إلى أن يشاء الله.

قبسات من هدي النبوة في الجهاد:

من يعايش النبي ﷺ في سنته وسيرته، يجد طائفة من الأحاديث تكشف المراد من حقيقة الجهاد الذي غرسه الرسول ﷺ في نفوس أصحابه من غير لبس أو غموض، وسأذكر هنا طرفاً من أحاديث سيد المجاهدين النبي الكريم ﷺ تؤكد تلك المعاني السابقة وتوضحها، وترسي أصول الجهاد وقواعده وآدابه، وهي بيّنة كل البيانات في دلالاتها:

\* "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" (٤٤٦).

\* "لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب" (٤٤٧).

(٤٤٣) سورة الأنفال: آية ٤٥.

(٤٤٤) سورة محمد: آية ٣٥.

(٤٤٥) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩، ١٧٠.

(٤٤٦) سنن أبي داود (كتاب الجهاد، باب: كراهية ترك الغزوة) رقم الحديث (٢٥٠٤) ١٠/٢، وهو مروى عن أنس رضي الله عنه، وسنن النسائي (كتاب الجهاد) ٧/٦، ومسنند الغمام أحمد ١٢٤/٣، ١٢٥، والمستدرک للحاکم ٨١/٢، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهب، وابن حبان في الموارد رقم (١٦١٨).

- \* "والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله" (٤٤٨).
- \* "والذي نفسي بيده لو ددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل" (٤٤٩).
- \* "والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلا يوم جاء يوم القيامة وجرحه يشخب، اللون لون الدم والريح ريح المسك" (٤٥٠).
- \* "اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" (٤٥١).
- \* "من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في سبيل الله فقد غزا" (٤٥٢).
- \* "مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم من يجاهد في سبيله كمثل الصائم القائم" (٤٥٣).
- \* "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله" (٤٥٤).
- \* "من أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له بسبعمئة ضعف" (٤٥٥).

- (٤٤٧) صحيح البخاري (كتاب الجهاد، باب: الغدوة والروحة) رقم الحديث (٢٧٩٢) فتح الباري ١٣/٦، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: فضل الغدوة والروحة) ١٤٩٩/٢ رقم الحديث (١٨٨٠)، وسنن الترمذي ٢٨٧/٥، والحديث مروى عن أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٤٤٨) صحيح البخاري (كتاب الجهاد، باب: تمنى الشهادة) رقم الحديث (٢٧٩٧) فتح الباري ١٦/٦، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله) ١٤٩٦/٢، ومسند الإمام أحمد ٢٣١/٢، والحديث مروى عن أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٤٤٩) صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب: تمنى الشهادة) رقم الحديث (٢٧٩٧) فتح الباري ١١/٤، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله) ١٤٩٥/٣، ١٤٩٦.
- (٤٥٠) صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب: من يخرج في سبيل الله) رقم الحديث (٢٨٠٢) ٢٠٦، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله) ١٤٩٥/٣، ومسند الإمام أحمد ٢٤٢/٢، والحديث مروى عن أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٤٥١) صحيح البخاري (كتاب الجهاد، باب: الجنة تحت بارقة السيوف) رقم الحديث (٢٨١٨)، فتح الباري ٣٣/٦، وصحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير، باب: كراهية تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء) ١٣٦٢/٢، ١٣٦٣ رقم الحديث (١٧٤٢)، وسنن أبي داود (كتاب الجهاد، باب: كراهية تمنى لقاء العدو) ٤٢/٢ رقم (٢٦٣١).
- (٤٥٢) صحيح البخاري (كتاب الجهاد، باب: فضل من جهز غازياً) رقم الحديث (٢٨٤٢) فتح الباري ٤٩/٦، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة) ١٥٠٧٢، وسنن الترمذي (أبواب الجهاد) ٩٢/٢ وهو مروى عن زيد بن خالد.
- (٤٥٣) صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب: أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله) رقم الحديث (٢٧٨٧) فتح الباري ٦/٦، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: فضل الشهادة في سبيل الله) ١٤٩٨/٣ رقم الحديث (١٨٧٨) والحديث مروى عن أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٤٥٤) سنن الترمذي (كتاب فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله) رقم الحديث (١٦٣٩) ١٧٥/٤، والحديث مروى عن ابن عباس، قال أبو عيسى: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق.

\* للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجازى من عذاب القبر، ويأمن الفرع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقربائه<sup>(٤٥٦)</sup>.

\* من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق<sup>(٤٥٧)</sup>. إن هذه النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية ذات دلالات كبيرة على قيمة الجهاد وأصلته وغرس حبه في نفوس المسلمين.

يقول الشيخ سعيد حوى: (ولكن هذا الجهاد الخالص لا يتحقق لإنسان حتى يتحرر من حب الحياة ويتحقق بالعلم، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إنكم على بينة من ربكم ما لم تظهر فيكم سكرتان: سكرة الجهل وسكرة حب العيش وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في سبيل الله، فإذا ظهر فيكم حب الدنيا فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في سبيل الله، الفائلون يومئذ بالكتاب والسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار"<sup>(٤٥٨)</sup>.

وبدون هذا تفقد الأمة الإسلامية خيريتها: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾<sup>(٤٥٩)</sup>(٤٦٠).

وبعد هذه النصوص أعود فأبين ماذا قال فقهاء الإسلام في:

### حكم الجهاد:

جاء في المغني: (والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقيين، ومعنى فرض الكفاية الذي إن لم يقم به من يكفي أثم الناس كلهم وإن قام به من يكفي سقط عن سائر

(٤٥٥) سنن الترمذي (كتاب فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله) رقم الحديث (١٦٢٥)

١٦٧/٤، وقال: هذا حديث حسن، ومروى عن خريم بن فاتك.

(٤٥٦) سنن الترمذي (كتاب فضائل الجهاد، باب: ثواب الشهيد) رقم الحديث (١٦٦٢) ١٨٧/٤. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤٥٧) صحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو) رقم الحديث (١٩١٠) ١٥١٧/٣، سنن أبي داود (كتاب الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو) رقم الحديث (٢٥٠٢) ١٠/٣ والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٥٨) الحديث ذكره البيهقي في مجمع الزوائد ٢٧٤/٧ (كتاب الفتن، باب: النهي عن المنكر عند فساد الناس)، وقال: رواه البزار، وفيه الحسن بن بشر، وثقه أبو حاتم وغيره وفيه ضعف.

(٤٥٩) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(٤٦٠) جند الله ثقافة وأخلاقاً للشيخ سعيد حوى، ص ٣٥٨.

الناس فالخطاب في ابتدائه يتناول الجميع كفرض الأعيان ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له، وفرض الأعيان لا يسقط عن أحد بفعل غيره (٤٦١).

ويقول ابن تيمية: (... مثل ذلك الجهاد، فإنه واجب على المسلمين عموماً، على الكفاية منهم، وقد يجب أحياناً في أعيانهم، لكن وجوبه على المرتزقة الذين يعطون مال الفيء لأجل الجهاد وأكد، بل هو واجب عليهم عيناً، واجب بالشرع، وواجب بالعقد الذي دخلوا فيه، لما عقدوا مع ولاة الأمر عقد الطاعة في الجهاد، وواجب بالعرض) (٤٦٢).

ويقول الشيخ سيد سابق: (والجهاد ليس فرضاً على كل فرد من المسلمين، وإنما هو فرض على الكفاية إذا قام به البعض، واندفع العدو، وحصل به الغناء، سقط عن الباقيين.

وفي البخاري: (ويذكر عن ابن عباس «فانفروا ثبات»: سرايا متفرقين) (٤٦٣).

وروي مسلم عن أبي سعيد الخدري (٤٦٤) رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً إلى بني لحيان (٤٦٥) - من هذيل - فقال: "لِيَبْعَثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدَهُمَا . وَالْأَجْرُ بَيْنَهُمَا" (٤٦٦).

ولأنه لو وجب على الكل لفسدت مصالح الناس الدنيوية، فوجب أن لا يقوم به إلا البعض) (٤٦٧).

(٤٦١) المغني (مختصر الخرقى مع شرحه) لابن قدامة ٣/٤٥٨، ٣٤٦.

(٤٦٢)

(٤٦٣)

(٤٦٤)

(٤٦٥) لحيان بن هذيل : بطن من هذيل من العدنانية ، وهو بنو لحيان بن هذيل بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، من بلادهم رحمة، العزوم، وقد قامت لهم دولة قبل الإسلام في شمال الحجاز بعث لهم النبي ﷺ عشرة عيناً وأمر عليهم عاصم بن ثابت فأحاط بنو لحيان بهم وقالوا لكم العهد والميثاق فقال عاصم : أنا لا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل وبقي اثنتان أعطوهما العهد والميثاق ثم سار إليهم رسول الله ﷺ حتى صار نزل منازل بني لحيان فودهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال فخرج في ماتتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ... انظر : معجم قبائل العرب ٣/١٠١٠ و ص ١٢١٣.

(٤٦٦) صحيح مسلم (كتاب الإمار، باب : فضل إعانة الغازي في سبيل الله ...) ٣/١٥٠٧ رقم

(١٨٩٦)، ومسنند الإمام أحمد ٣/٣٥، ٤٩، ٩١.

(٤٦٧) فقه السنة للشيخ السيد سابق ٢/٦٢١ ، ٦٢٢.

متى يكون الجهاد فرض عين ؟ :

ويتعين الجهاد ، فيصبح فرض عين في الأحوال الآتية :

(١) إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان ، حرم على من حضر الانصراف، وتعين عليه المقام ، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٥) ﴿ (٤٦٨).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَلِّمِهِمْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَيْكَ فِتْنَةً فَعَدَّ بَاءً يَعْضِبُ مِنَ اللَّهِ وَمَا أُوذِيَ جَهَنَّمَ وَسِيسُ الْمَصِيدِ ﴿١٦﴾ ﴿ (٤٦٩).

(٢) إذا فاجأ العدو بعض بلاد المسلمين ونزل بها ، فإنه - حينئذ يتعين الجهاد عليهم، ويجب على أهل تلك البلاد أن يخرجوا لقتاله، فإن لم يقدرُوا على دفع الأعداء وجب على من قاربهم من المسلمين الجهاد معهم، فإن لم يقدرُوا وجب الجهاد على سائر المسلمين حتى يدفعوا الأعداء، ولا يحل لأحد أن يتخلى عن القيام بواجبه نحو مقاتلته إذا كان لا يمكن دفعه إلى بنكتلهم عامة ، ومناجزتهم إياه ، وذلك لأن تقدم العدو في ديار المسلمين يهدد المسلمين جميعهم في شتى مرافق الحياة من تجارة وزراعة وصناعة، ولا يغني عن ذلك شيء مع تقدم العدو، وإذا استمر تقدم العدو كان هذا الشراء خاضعاً لسلطانه فلا معنى لعمران ديار لا تطمئن عليها من الأعداء، ولا تشعر فيها بالأمن والاطمئنان.

(٣) إذا استنفر الحاكم أحداً من المكلفين أو عين قوماً للجهاد، فإنه لا يسعهم التخلي عن الاستجابة إليه ، وفرض عليهم أنطيعوه في ذلك إلا من له عذر قاطع، لقوله تعالى :

(٤٦٨) سورة الأنفال : آية ٤٥ .

(٤٦٩) سورة الأنفال : آية ١٥ ، ١٦ .

﴿ يَأْتِيهَا الذِّبْنَءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ

بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ (٤٧٠).

وقوله ﷺ: " لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا " (٤٧١).

ويجب الجهاد على المسلم، الذكر، العاقل، البالغ، الصحيح، الذي يجد من المال ما يكفيه ويكفي أهله حتى يفرغ من الجهاد (٤٧٢).

### الجهاد مصدر من مصادر الأمن في الحياة :

أعطى الجهاد في الشريعة الإسلامية مكانة عالية المنزلة، رفيعة الدرجة عند الله سبحانه وتعالى ؛ إذ بالجهاد تقوى النفوس ، وتشتد العزائم، ونتيجة الجهاد ترسخ مكانة الأمة الإسلامية، وتقوى ركائز الإيمان، وينتشر دين الله في الأرض، والجهاد وسيلة لإخافة الأعداء، وتقوية الجانب الإسلامي، وبذلك تأمن النفوس بمجاهدة الكفار لإظهار دين الله وإسعاد البشرية بتبليغه ؛ إذ أن قمع أعداء الله وأعداء رسالته لا يكون إلا بقولة السلاح ودفاع المجاهدين المتحمس لإظهار دين الله، فيضعف العدو وتتكرر شوكته ويعيش المسلمون في أمن وطمأنينة في أوطانهم وبلادهم مما يكون له أبلغ الأثر في نماء المجتمع الإسلامي ورفية، سواء كان ذلك في الجانب العمراني أو الصناعي أو الزراعي أو التجاري، وهذا يعطي رعباً للأعداء قريبيهم وبعيدهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، ضمن الأمور الخمسة التي أعطى إياها ، ولم تكن لأحد من الأنبياء قبله فقال : " ... ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي المغنم ولم تحل لأحد قبلي " (٤٧٣).

(٤٧٠) سورة التوبة : آية ٣٨.

(٤٧١) صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب : فضل الجهاد) رقم الحديث (٢٧٨٣). فتح

الباري ٣/٦، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة ، باب : المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير) ٣ / ١٤٨٧ وص ١٤٨٩ رقم (١٣٥٣).

(٤٧٢) هذه التفصيلات عن حكم الجهاد مستفادة من المراجع الآتية : الغني ٣٤٥/٨ - ٣٤٧،

المحلى لابن حزم ٧/٢٩١، ٢٩٢، وفقه السنة للسيد سابق، ٢/٦٢١، ٦٢٣، ومنهج الإسلام في الحرب والسلام لعثمان ضميرية ص ١٢٣، ١٢٥.

(٤٧٣) سنن الدارمي (باب : أن الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا) ٢ / ٢٢٤، ومسند الإمام أحمد

١٤٥/٥، ١٤٧، ١٤٨.

فقد خافت الروم (٤٧٤) في الشام (٤٧٥) ، والفــــرس في بلاد فارس (٤٧٦) ، والأحباش (٤٧٧) في اليمن (٤٧٨) ، وكل منهم يبعد شهر في

(٤٧٤) الروم : كان مقر ملوكهم رومية الكبرى قبل غلبتهم على اليونان ، وإليها ينتسبون وكان النروم يدينون بدين الصابئة ، ولهم أصنام على أسماء الكواكب السبعة التي يعبدونها ، وكان أول من أشتهر من ملوكهم : (غايينوس) ثم ملك بعده (بوليوس) ثم (أغسطس) ولقبه قيصر ومعناه (شق عنه) ، لأن أمه ماتت قبل أن تلده فشقوا بطنها وأخرجوه ، فلقب قيصر وصار لقباً لملوك الروم. أنظر : المختصر في أخبار البشر ٦٠/١ .

(٤٧٥) الشام : سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات ، وقيل : سميت بذلك لأن قوماً من كنعان بن حام ، خرجوا عند التفريق فتشاعروا إليها ، وقيل : سميت بسام بن نوح عليه السلام لأنه أول من نزلها فجعلت السين شيئاً ، أما حدودها ، فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية ، وأما عرضها فمن جبل طيء نحو القبلة إلى بحر الروم وما بشامة ذلك من البلاد ، وبها من أمهات المدن مننج وحلب وحماء وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة ، وفي الساحل انطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك. أنظر : معجم البلدان ٣:٣٥٤ .

(٤٧٦) الفرس : هم ولد فارس بن أرم بن سام ، وقيل : ولد يافث ، والفرس يقولون : إنهم من ولد جيومرت ومعناه عندهم الذي ابتداء منه النسل مثل آدم ويذكرون أن الملك فيهم من جيومرت (آدم) إلى غلبة الإسلام ، وأرضهم يقال لها : فارس ، ومنها كرمان ، والأهواز ، وجميع ما دون جيحون من تلك الجهات يقال له : إيران وهي أرض الفرس. أنظر : المختصر في أخبار البشر ٨٢/١ .

(٤٧٧) الأحابيش : بطن اختلف فيه ، فقيل : هم بنو المصطلق ، الحياء بن سعد بن عمرو ، وبنو الهون بن خزيمة اجتمعوا بذنب حبشي فتحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سجاليل ، وأوضح نهار وما أرسى حبشي مكانه ، وإنما سموا بذلك لاجتماعهم ، والتحابش هو التجمع في كلام العرب ، وقد استمرت هجرتهم إلى الحبشة فيما بين عامي ٣٣٢ ، ٢٥٠م بل إن بعض الباحثين يذهب إلى أن أصل الأحباش من غرب اليمن معتمدين في ذلك على أن هناك جبلاً في اليمن يدعى (حُبَيْش) وقبيلة تدعى (حبشت) ، ومن هنا جاء اسم الحبشة. أنظر : معجم قبائل العرب ٥/١ ، ودراسات تاريخية من القرآن الكريم د/ محمد بيومي مهران ، ص ٣٧١ .

المسير عن المدينة، من زحف جيوش الإسلام إليهم.

وبهذا ارتفعت منزلة الجهاد، وعظم أجر المجاهدين، حتى لا يزهد في هذا العمل من يريد الخير من البشر، فجعل للمجاهد أفضل المنازل وأعلى الدرجات، إمّا الظفر والعز والتمكين في الدنيا وإعلاء كلمة الله، وإمّا الفوز بالشهادة والنعيم المقيم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٣١) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾ (٤٧٩).

جاء في فتح القدير عند تفسيره لهاتين الآيتين: (... قال ﷺ: "لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا" وفي لفظ: "قالوا: من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ﴾ (٤٨٠) الآية وما بعدها) (٤٨١).

وجاء في إرشاد العقل السليم في تفسيرها: (... أي: ويستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف وقوع محذور ولا حزن فوات مطلوب، أو لا خوف عليهم في الدنيا من القتل، فإنه عين الحياة

(٤٧٨) اليمن: بالتحريك قبل سميت بذلك لتأمينهم إليها، قال ابن عباس رضي الله عنه: تفرقت العرب فمن تيامن منهم سميت اليمن، وقيل: إن الناس كثروا بمكة فلم تحملهم فالتأمت بنو يمن إلى اليمن وهي أيمن الأرض فسميت بذلك، وحدودها ما بين عمان إلى نجران، ثم يلتو على بحر العرب إلى الشحر، ويدخل فيها حضرموت، وما يلي ذلك من النجود والتهائم. أنظر: معجم البلدان ٥١٠/٥.

(٤٧٩) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩ - ١٧٠.

(٤٨٠) صحيح مسلم (كتاب الإمارة) ١٥٠٢/٣، ١٥٠٣، وسنن أبي داود (كتاب الجهاد، باب: فضل الشهادة) رقم الحديث (٢٥٢٠) ١٥/٣، مسند الإمام أحمد ٦/٣٨٦.

(٤٨١) فتح القدير للشوكاني ٤٠١/١.

التي يجب أن يرغب فيها فضلاً عن أن تخاف وتحذر أي لا يعترفهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعترفهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن، لا بيان انتفاء دوامها كما يومه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً، فإن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام (٤٨٢).

أي آمن بعد هذا الأمن النفسي في الدنيا، وذلك بالسير على الطريق المستقيم في الحياة الدنيا والأمن والطمأنينة في الآخرة، كما وعد الله عباده، بل وبشرهم به في كتابه الكريم وعلى لسان نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وفي هذه المعادلة المرتبطة بالجهاد يتضح من النتائج الحتمية التي هي وعد من الله جل وعلا، ووعد سبحانه حق لا مرأ فيه بيان حكمة عمليات الجهاد القتالية والتشجيع عليه بإكرام الله لمن استشهد أثناء القتال، وما أعد له سبحانه من مكانة رفيعة، حتى لا يزهده فيه أحد، ولما يتركه من نتائج في رفع الظلم واستقرار النفوس وأمن المجتمعات.

أما من يخوض الحرب ولم يتحقق له فضل الاستشهاد، فإن الله يعده بالنصر على الأعداء، والعلو في الدنيا عندما ينتصر لدينه، ويتفانى في الذود عنه، ونفي الشبهات التي يسلطها أعداء الله وأعداء الإسلام.

ولما كانت المعركة - كل معركة يخوضها المؤمنون - من صنع الله وتدبيره بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بمشيئته وقدره، له وفي سبيله فإننا نلاحظ الدعوة من الله تعالى لعباده إلى الثبات فيها، والمضي معها، والاستعداد لها والاطمئنان إلى تولى الله فيها، فهو الذي يمدهم بما يكون سبباً لنصرهم - مع قدرته جل وعلا أن يقول للشيء كن فيكون - يمدهم تارة بالجنود من الملائكة وتارة بإنزال السكينة عليهم، وأخرى بالنعاس، ومن المعروف في التقديرات والحسابات البشرية أن النعاس يكون سبباً للهزيمة، ولكنه بقدرة الله ومشيئته يتحول إلى عامل مهم من عوامل النصر، فلقد استجاب الله لرسوله وعباده المؤمنين، وهم يستغيثون في غزوة بدر الكبرى، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين، ﴿إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ

(٤٨٢) تفسير أبي السعود ١/١١٢، ١١٣.

فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَيَعْتَظِمْنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغِيثُكُمُ الثُّعَاصَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيُرِيطُ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُخَيِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعُوبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴿٤٨٣﴾.

جاء في التحرير والتنوير : ( وقد أشارت الآية إلى دعاء النبي ﷺ يوم بدر (٤٨٤)، عن عمر بن الخطاب قال : نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مَدَّ يديه وجعل يهتف بربه : " اللهم أنجز لي ما وعدتني ، الله إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام تُعبد في الأرض " (٤٨٥) فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ، فقال : يا نبي الله كفاك مناشدة ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأُنزل الله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ ﴿٩﴾ (٤٨٦) ، - أي : فأُنزل الله في حكاية تلك الحالة - وعلى هذه الرواية يكون ضمير "تستغيثون" مراداً به النبي ﷺ وعبر عنه بضمير الجماعة لأنه كان يدعو لأجلهم؛ ولأنه كان معلناً بدعائه بيدروا وكثرة المشركين استغاثوا الله تعالى فتكون الاستغاثة في جميع الجيش، والضمير شاملاً لهم ، والاستغاثة : طلب الغوث، وهو الإعانة على رفع الشدة والمشقة، ولما كانوا

(٤٨٣) سورة الانفال : الآيات ٩ - ١٢ .

(٤٨٤) بدر : ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار وهو ساحل البحر ليلية، ويقال : إنه ينسب إلى بدر من يخلد بن النضر بن كنانة به سميت الموقعة المباركة بين المسلمين ومشركي قريش فأظهر الله بها الإسلام وفرق بين الحق والباطل .  
أنظر : معجم البلدان ١ / ٤٢٥ .

(٤٨٥) سنن الترمذي (أبواب تفسير القرآن) ٣٣٣/٤ رقم الحديث (٥٠٧٥) وقال الترمذي : (وهذا حديث حسن صحيح غريب).

(٤٨٦) سورة الانفال : آية ٩ .

يومئذ في شدة ودعوا بطلب النصر على العدو القوي كان دعاؤهم استغاثة (٤٨٧).

وجاء في التفسير المنير لهذه الآية وذكر نعم الله تعالى على المؤمنين: (... فالنعمة الأولى التي يذكر الله بها المسلمين يوم بدر : إمدادهم بالملائكة ، ثم ذكّرهم بنعمتين أخريين هما : إلقاء النعاس وإنزال المطر، فقال: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسُ﴾ أي : اذكروا ما أنعم الله عليكم من إلقاء النعاس عليكم حتى غشيكم كالغطاء ، أمانا أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من رؤية كثرة عدوهم وقلة عددهم، وأرواحهم من عناء السير، فمن غاب عليه النعاس لا يشعر بالخوف ، ويرتاح ويجدد نشاطه وقوته، روى البيهقي (٤٨٨) في الدلائل عن علي رضي الله عنه قال : "ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد (٤٨٩)، ولقد رأيتنا وما فينا إلى نائم إلى رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة، حتى أصبح (٤٩٠)، وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم للجمع العظيم في الخوف الشديد دفعة واحدة عجيباً وفي حكم

(٤٨٧) أنظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ٩ / ٢٧٤.

(٤٨٨) هو : الحافظ العلامة الثبت الفقيه، أبو بكر أحمد بن الحسين بن عبدالله بن موسى البيهقي الخسروجردي الفقيه الشافعي ، واحد زمانه وفرد أقرانه في الفنون من كبار أصحاب الحاكم بن أبي عبدالله بن البتّع في الحديث، قيل : إن تصانيفه تبلغ ألف جزء، من مصنفاته: السنن الكبرى والسنن الصغرى ودلائل النبوة وغيرها، ولد سنة ٣٨٤هـ ، وتوفي سنة ٤٥٨هـ ، ونبته إلى بيهق وهي قرى مجتمعة بنواحي نيسابور. أنظر : وفيات الأعيان ١ / ٧٥، وسير أعلام النبلاء ١٨ / ١٦٣، والأعلام ١ / ١١٣، ومعجم المؤلفين ١ / ١٢٩.

(٤٨٩) هو : المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن دهير بن لؤي بن ثعلبة بن مالك بن الشريد البهراوي المعروف بالمقداد بن الأسود، ويقال أيضاً : المقداد الكندي، وهو قديم الإسلام من السابقين، وهاجر إلى أرض الحبشة ثم عاد إلى مكة ، شهد بدرأ وله فيها مقام مشهور فلم يكن صاحب فرس في بدر غيره، شهد فتح مصر، وروى عنه بعض الصحابة والتابعين، توفي بالمدينة في خلافة عثمان وكان عمره سبعين سنة. أنظر : أسد الغابة ٥ / ٢٥١، وسير أعلام النبلاء ١٨ / ١٦٣، وتهذيب التهذيب ١٠ / ٢٨٥.

(٤٩٠) أنظر : دلائل النبوة ٣ / ٤٩.

المعجز الخارق للعادة مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم.

قال الماوردي<sup>(٤٩١)</sup> : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما : أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

وكذلك فعل الله تعالى بهم فألقى النعاس عليهم يوم أحد، كما قال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ (٤٩٣).

وأَنْزَلَ اللهُ عليكم أيضاً مطراً من السماء ليظهركم به من الحديث والجنابة ويذهب عنكم وسوسة الشيطان إليكم وتخويفكم من العطى، وقيل : يذهب عنكم الجنابة التي أصابت بعضكم؛ لأنها من تخييله ، وليربط على قلوبكم ، أي : بالصبر والإقدام على مجادلة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ويثبت به الأقدام، وهو شجاعة الظاهرة، أي : أن إنزال المطر حقق أربع فوائد: التطهير الحسي بالنظافة، والشعري بالغسل من الجنابة والوضوء، وإذهاب وسوسة الشيطان، والربط على القلوب، أي : توطين النفس على الصبر وتثبيت الأقدام به على الرمال<sup>(٤٩٤)</sup>.

هذه عدة أسباب هياها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين لكي يتحقق لهم النصر وتغشاهم السكينة فطمئن قلوبهم وتهدأ نفوسهم، ومع هذا ينبغي على المؤمنين ألا يتكلموا بل لا بد من

<sup>(٤٩١)</sup> هو : الإمام العلامة أفضى القضاة ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي صاحب التصانيف، حدث عن الحسن بن علي الجبلي، ومحمد بن عدي المنقري، ومحمد بن معلى، وغيرهم، وحدث عنه أبو بكر الخطيب ووثقه، وقال: مات سنة خمسين وأربع مائة وقد بلغ ستاً وثمانين سنة، وولي القضاء ببلدان شتى ثم سكن بغداد. أنظر : سير أعلام النبلاء ٦٤/١٨، ووفيات الأعيان ٢٨٢/٣.

<sup>(٤٩٢)</sup> النكت والعيون تفسير الماوردي ٢٩٩/٢.

<sup>(٤٩٣)</sup> سورة آل عمران : آية ١٥٤.

<sup>(٤٩٤)</sup> التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي ٢٦٦/٩،

الأخذ بالأسباب ، والرباط المتواصل، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد حتى لا يدهمهم العدو في أي لحظة، وحتى لا يؤخذوا على غرة من أجل ذلك أمرهم بالحيطه والحذر والانتباه حتى في أحلك الظروف، فما هو الإسلام يأمر المجاهدين بالاستعداد حتى في أوقات الصلاة وفي الأوقات التي يخلص فيها العبد لربه ويناجيه، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ

الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آسْلِحَتِهِمْ فِيمَا هُمْ فِيهَا وَقُلْ لِمَنْ فِيهَا صَلَاةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَحْتَمِلُونَ ﴾ (١١٠) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ

الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آسْلِحَتَهُمْ وَأَسْلِحَتُهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَفَلُوا عَنْ

أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ

مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا آسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١٠﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ

فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُوْدًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَىٰ

الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١١٣﴾ ﴿١١٥﴾، أي : إذا كانت فيهم فأممتهم في الصلاة فلتقم طائفة

منهم تصلي معك الركعة الأولى، على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها من ورائكم لحمايتكم

فإذا أتمت الطائفة الأولى الركعة رجعت فأخذت مكان الحراسة ، وجاءت الطائفة التي كانت

في الحراسة ولم تصل، فلتصل معك ركعة كذلك، وهنا يسلم الإمام إذا يكون قد أتم صلاته

ركعتين.

عندئذ تجيء الطائفة الأولى فنقضي الركعة الثانية التي فاتتها مع الإمام، وتسلم بينما

تحرسها الطائفة الثانية، ثم تجيء فنقضي الركعة الأولى التي فاتتها وتسلم بينما تحرسها

الطائفة الأولى.

وبذلك تكون الطائفتان قد صلتا بإمامة الرسول ﷺ ، وكذلك مع خلفائه وأمرائه،

وأمرء المسلمين فهم في كل معركة.

ولعل هذا الاحتياط وهذه اليقظة، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب

المهين الذي أعده الله للكافرين فيكون المؤمنون هم ستار قدرته وأداة مشيئته، وهي الطمأنينة

مع ذلك الحذر والثقة في النصر على قوم أعد الله لهم العذاب المهين.

(١١٥) سورة النساء : الآيتان ١٠٢، ١٠٣.

أما حين الاطمئنان ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ أقيموها كاملة تامة بلا قصر، فهي فريضة ذات وقت محدد لها، ومتى زالت أسباب الرخصة في صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة<sup>(٤٩٦)</sup>.

هكذا الصلاة تقام إذا كان الموقف يسمح بإقامة صف من المصلين يصلي ركعة خلف الإمام بينما يقف وراءه صف يحرسه ... إلخ كما بينت سابقاً.

أما إذا زاد الخوف وكانت الموقعة والمسابقة فعلاً فتكون الصلاة كما بينها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَوُجُوهًا لِلَّهِ فَلْيَنْتَبِهُوا ۚ وَإِنَّ خُفْيَةً مِّنْ جَآلٍ أَوْ رُكْبَاتًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤٩٧)</sup>.

تبين هذه الآيات مدى الأهمية البالغة التي ينظر الله بها إلى الصلاة، ويوحى بها لقلوب المسلمين، إنها عدة في الخوف والشدة، فلا تترك في ساعة الخوف البالغ وهي العدة، ومن ثم يؤديها المحارب في الميدان، والسيف في يده، والسيف على رأسه، يؤديها فهي سلاح للمؤمن كالسيف الذي في يده وهي جنة له كالدرع الذي تقيه، يؤديها فيتصل بربه في وقت هو أحوج ما يكون للاتصال به وأقرب ما يكون إليه، والمحافظة من حوله.

إن هذا الدين عجيب، إنه منهج العبادة، العبادة في شتى صورها والصلاة عنوانها وعن طريق العبادة يصل بالإنسان إلى أرفع الدرجات، وعن طريق العبادة يثبت الله في الشدة ويهذبه في الرخاء، وعن طريق العبادة يدخله في السلم كافة ويفيض عليه السلام والاطمئنان ... ومن ثم هذه العناية بالصلاة والسيوف في الأيدي وفي الرقاب.

مما سبق من الحث على الجهاد وبيان فضله فضل أهله، واهتمام الإسلام بدعوة العالم الإنساني إلى الدخول في هدايته، لينعم بهذا الدين ويستظل بظله، وما أوجبه على المسلمين من المحافظة على كياناتهم الداخلي، جهاد في سبيل الله ليتبوأوا المكانة العظيمة التي وضعهم الله فيها، ولينعموا بالأمن والاستقرار ويعيشوا في سكينه وطمأنينة، واتقين في ربهم

<sup>(٤٩٦)</sup> أنظر : ظلال القرآن ٢/٧٤٨، ٧٤٩.

<sup>(٤٩٧)</sup> سورة البقرة : الآيتان ٢٣٨، ٢٣٩.

أولاً وقبل كل شيء ثم في قوتهم وتمسكهم بهذا الجهاد المقدس؛ إذ أنه لا يوجد دين من الأديان دفع بأمله إلى خوض غمرات الحروب وقذف بهم إلى ساحات القتال في سبيل الله والحق ثم في سبيل المستضعفين من أجل أن يضمن لهم الحياة الكريمة الآمنة غير الإسلام، فصار الجهاد بذلك سبباً كبيراً في تحقيق الأمن، وتزويد غاية الجهاد إيضاحاً ببيان الأسباب التي يجاهد من أجلها وهي كلها مما يدخل تحت شعار وكلمة في سبيل الله، وهي كالآتي :

١- بذل الإنسان لنفسه وكل ما يملك رخيصةً من أجل إعلاء كلمة الله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين من دونه هي السفلى.

٢- الدفاع لرد أي اعتداء واقع على المسلمين، أو يقع عليهم ، وذلك أن الإسلام وإن كان يدعو إلى السلم، فإنه في نفسه لا يقف موقفاً سلبياً أمام التحديات التي تواجه المسلمين، أو أمام الاعتداءات التي تقع على أي من الضرورات الخمس للإنسان وهي : الدين والنفس والعرض والعقل والمال، ولا يدعو الإسلام إلى السلم الرخيص فيقف مكتوف اليدين أمام هجمات الآخرين واعتداءاتهم.

٣- حماية الوطن الإسلامي، وإنقاذ المستضعفين من المسلمين في أي دولة كانت وذلك أن الإسلام يعتبر بلاد المسلمين كلها داراً واحدة وبلداً واحداً يجب حمايته والجهاد دونه، ويجب الجهاد لاستردادته إن كان مسلوباً، كما يعتبر المسلمين جميعاً أمة واحدة يجب الدفاع عنهم لاستنفاد المستضعفين وحمايتهم في أي بلد أو دولة من أي ظلم يحرق بهم فيجب عندئذٍ على المسلمين أن يهبوا لنجدتهم والدفاع عنهم ولا يجوز أن يتركوهم ليقاسوا أنواعاً من الضيم أو الذل أو الهوان والضياع ينزله بهم أعداء الإسلام، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ (٤٩٨).

٤- تأمين حرية نشر الدعوة الإسلامية؛ لأن الإسلام دعوة إنسانية عالمية وهو كلمة الله الأخيرة للبشرية كلها، فيجب إبلاغ هذه الكلمة للناس جميعاً، ليختاروا عن قناعة وإرادة

هذه الدعوة فينضموا تحت لوائها أو يخضعوا لها محتفظين بعقيدتهم؛ لأن الإسلام فيه السماحة واليسر وعدم الإكراه.

ونشر الدعوة يحتاج إلى صبر وجهد؛ لأن طريق الحق ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وقبوله تواجهه عراقيل كثيرة؛ لأن قوى الشر والبغي من عاداتها التكاتف ضد الحق، ويشهد بذلك التاريخ من لدن نوح عليه السلام إلى وقتنا الحاضر وسيظل الحال كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الحرب سجال بين الحق والباطل، وسيضع أهل الباطل كل العقبات والعراقيل المادية والمعنوية ضد حملة الرسالة والتحايل على أصحاب الدعوة، ومنعهم من أداء واجبهم كما حدث في عهد الرسول ﷺ، وعندئذٍ يجب الجهاد لتأمين حرية نشر الدعوة والتخفية بينها وبين من يريد اعتناقها ليكون الدين كله لله، قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١١٣) (٤٩٩).

٥- درء الفتنة ومنع البغي في الداخل والخارج: فقد شرع الجهاد أيضاً لمنع الفتن التي قد تحدث داخل المجتمع الإسلامي أو خارجه، فتهدد أمنه وكيانه ونظامه، ومن هنا وجدنا الإسلام يجاهد ويحارب لدفع هذه الفتن التي قد تحدث كالردة والبغي، فأوجب جهادهم حتى يعودوا عما هم عليه، وسأبين ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وبعد: فالحديث عن الجهاد طويل واسع وقد كتبت فيه الكتب وألفت فيه المؤلفات، وقد تعرضت له بلمحة موجزة وأخذت منه ما يخدم موضوعي وما هو ضمن الكتاب، وبالله التوفيق.

## ترك المحرمات والمعاصي

تعريف المحرمات والمعاصي :

جاء في مختار الصحاح تحت مادة "ح ر م" : (... والحرمة : ما لا يحل انتهاكه وكذا المحرمة بضم الراء وفتحها، وقد تَحَرَّمَ بصحبته، وحُرْمَةُ الرجل، حُرْمِيهِ وأهله، ورجل حَرَامٌ أَي : مُحْرَمٌ ، والجمع : حُرُمٌ ، مثل قَدَالٌ وَقُدُلٌ<sup>(٥٠٠)</sup>.

إذن المحرمات هي : ما لا يحل لأحد انتهاكها.

وقال أيضاً تحت مادة "ع ص أ" : (... والعصيان ضد الطاعة، وقد عصاه من باب رمى ، ومعصية أيضاً وعصيانياً فهو عاص، وعَصِيٌّ وعَاصَاهُ، مثل عصاه، واستعصى عليه)<sup>(٥٠١)</sup>.

قال صاحب التعريفات : (العصيان : هو ترك الانقياد)<sup>(٥٠٢)</sup>.

ترك المحرمات والمعاصي من مصادر الأمن للمجتمع الإسلامي :

الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للأمم في الأرض، فيه صلاح أحوالهم، وانتظام معيشتهم ، وحل مشاكلهم، وهو دين الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، قال تعالى : ﴿ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٥٠٣)</sup>.

(٥٠٠) مختار الصحاح ص ١٣٢ بتصرف.

(٥٠١) المرجع السابق ص ٤٣٨.

(٥٠٢) التعريفات للجرجاني ص ١٩٥.

(٥٠٣) سورة الروم : آية ٣٠.

وهو الذي دان به الأنبياء لربهم، وتواصوا به فيما بينهم وأوصوا به ذرياتهم، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِدَّ قَالَ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴿ (٥٠٤) .

وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره من البشر؛ إذ هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله.

ولقد أكد القرآن الكريم مكانة الإسلام في الارتباط بالله جل وعلا وأن من تركه عاش في ضلال مبين، وكان في الآخرة من الخاسرين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَاسْتَغْنَاءٌ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩) ﴿ (٥٠٥) .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَحْنُ اللَّهُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلنَّفْسِ بِقَوْلِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْتِكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ ﴾ (٢٢) ﴿ (٥٠٦) .

إن الإسلام هو الدين الذي أكمل الله به النقص الذي أدخلته البشرية على الأديان السابقة، وهو أجل النعم التي أتمها الله على عباده، وإن الأمة التي اختار الله لها الإسلام ديناً لأبد أن تتصف بصفات تستوجب بها هذه المكانة، وبهذه الصفات تستحق أن تكون خير الأمم، ومن هذه الصفات: اجتناب ما نهى الله عنه وزجر، وترك المحرمات والمعاصي التي تؤدي بالامة - إن هي اقتصرتها لا سمح الله - إلى أدنى درجات الذل والمهانة، وتفكك المجتمع وموت الغيرة الإسلامية فيه.

(٥٠٤) سورة البقرة : آية ١٣٠ - ١٣٣ .

(٥٠٥) سورة آل عمران : آية ١٩ .

(٥٠٦) سورة الزمر : آية ٢٢ .

أما إذا اجتبتتها وحاربتها؛ وأخذت على يد من يقتربها فلتبشر بنصر الله وتأييده، ولتتعم بأمنه وسكينته، لأنها امتثلت بأوامر الله واجتبتت نواهيته، وذلك من أهم مقومات الأمن وأسباب النصر، واجتماع الكلمة في الدنيا والفوز والفلاح في الآخرة: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ ﴿٥١﴾﴾ (٥٠٧).

وقد بين سبحانه وتعالى أن ترك الظلم طريق إلى الأمن في الدنيا والآخرة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (٥٠٨).

جاء في تفسير القرآن العظيم لهذه الآية: (أي هؤلاء الذين (٥٠٩) أخلصوا العبادة له وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة) (٥١٠).

كما أن الآيات الكريمة دللت على عظيم الأمانة التي كلف الله بها عباده بعد أن أبتت السموات والأرض والجبال حملها، فإذا صان العباد هذه الأمانة وحافظوا عليها كانت مصدر سعادتهم وطريق أمنهم.

فقد جعلها الله مصدر تمييز بين الناس، فمن فرط فيها وخالفها وتجاهل ما فيها من أوامر ونواهي، فقد عرض نفسه لعذاب الله تعالى، ومن حفظها وحافظ عليها كانت مصدر أمن وسعادة له في الدنيا والآخرة، كما وعد الله سبحانه وتعالى بذلك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۗ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

(٥٠٧) سورة الحج: الآيتان ٤٠، ٤١.

(٥٠٨) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٥٠٩) جاء في الكتاب (الذي) والظاهر أنه خطأ مطبعي.

(٥١٠) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٥٢/٢.

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ (٥١١).

جاء في تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لهذه الآيات: (لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله ﷺ ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الآليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها، صدر عنهم بعد القبول والالتزام، وعبر عنها بالأمانة تشبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها، وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليها لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولها لها وعند عدم استعدادهن لقبولها بالإيابة والإشفاق منها لتحويل أمرها وتربية فحامتها، وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتمدة فيها ... ) (٥١٢).

إلى أن قال: ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ السَّافِهِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي : حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراد الذين لما يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن السلام للعاقبة ، فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراد ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها أبرز في معرض الغرض أي كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراد لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية، وإلى الفريق الثاني أشير بقبوله لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية، وإلى الفريق الثاني أشير بقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي : كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراد ، أي : يقبل توبتهم لعدم خلعهم رغبة الطاعة عن رقابهم بالمرءة وتلافيفهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الإنسان يحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإجابة... (٥١٣).

(٥١١) سورة الأحزاب : الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

(٥١٢) أنظر : تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ١١٨/٧ المجلد الرابع .

(٥١٣) المرجع السابق ١١٨/٧ ، ١١٩ .

من هذه الآيات يتضح سعادة واطمئنان وأمن هذا الصنف من الناس وهم المؤمنون  
 والمؤمنات الذين تسعد نفوسهم بمرضاة الله، وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ  
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ  
 وَحَسَنُ مَقَابٍ ﴿ (٥١٤).

جاء في زاد المسير : (والمعنى : تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين لأن الكافر  
 غير مطمئن القلب) (٥١٥).

وجاء في أيسر التفاسير : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أولئك الذين أنابوا  
 إليه تعالى إيماناً وتوحيداً فهداهم إليه صراطاً مستقيماً هؤلاء تطمئن قلوبهم أي : تسكن  
 وتستأنس بذكر الله وذكر وعده، وذكر صالحى عباده محمد وأصحابه، وقوله تعالى : ﴿ أَلَا  
 بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي : قلوب المؤمنين أما قلوب الكافرين فإنها تطمئن لذكر الدنيا  
 وملذها وقلوب المشركين تطمئن لذكر أصنامهم وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَقَابٍ ﴾ (٢١) إخبار من الله تعالى بما أعد لأهل الإيمان والعمل  
 الصالح وهو طوبى حال من الحسن الطيب يعجز البيان عن وصفها أو شجرة في الجنة  
 وحسن منقلب وهو الجنة دار السلام والنعيم المقيم) (٥١٦).

أي طمأنينة تعادل هذه الطمأنينة - طمأنينة من يطمئن قلبه بذكر الله - لقد نالوا  
 الأمن في الجنة بسبب إيمانهم في الدنيا وإخلاصهم العبادة لله وابتعادهم عن الشرك، وهداية  
 الله لهم إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبتهم فيه إلى الجنة. هذا هو حال المؤمنين  
 وأمنهم، أما الكافرون الذين مالت نفوسهم إلى الدنيا واطمأنوا بها وسكنوا إليها وركنوا فلم  
 يروا غيرها حياة يعمل لها، ورجبوا عن لقاء الله فلم يرجوا ثواباً ولم يخشوا عقاباً، فهؤلاء  
 بين الله تعالى أن لهم النار بسبب صنعهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا

(٥١٤) سورة الرعد : الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٥١٥) زاد المسير ٣٢٧/٤.

(٥١٦) أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ٤٥٤/٢.

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴿٥١٧﴾.

كما أنه سبحانه وتعالى حذر الذين يمكرون السيئات أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، قال تعالى : ﴿ أَقِمْنَ الْاٰلِزْنَ مَكْرُوٰا السَّيِّاٰتِ اَنْ يَّخَسِفَ اللّٰهُ بِهِنَّ الْاَرْضَ اَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُوْنَ ﴿٥٥﴾ اَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيْهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِيْنَ ﴿٥٦﴾ اَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلٰى تَخَوُّفٍ فَاِنَّ رَيْبَكُمْ لِرَوْفٍ رَّجِيْمٌ ﴿٥٧﴾ ﴿٥١٨﴾.

جاء في أضواء البيان : (أنكر الله جل وعلاج على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذاب الله ولا يخافون أخذه الأليم، وبطشه الشديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرض، ويهلكهم بأنواع العذاب ، والخسف: بلع الأرض المخسوف به وعودها به إلى أسفل، كما فعل الله بقارون<sup>(٥١٩)</sup> <sup>(٥٢٠)</sup>).

<sup>(٥١٧)</sup> سورة يونس : الآيتان ٧ ، ٨ .

<sup>(٥١٨)</sup> سورة النحل : الآيات ٤٥ - ٤٧ .

<sup>(٥١٩)</sup> هو : قارون ابن عم موسى عليه السلام، وقد رزقه الله مالاً عظيماً يضرب به المثل، قيل : إن مفاتحه كانت تحمل على أربعين بغلاً وبنى داراً عظيمة وصفحها بالذهب وجعل أبوابها ذهباً ، فتكبر قارون واتفق مع بني إسرائيل على قذف موسى وأحضر امرأة بغياً وجعل لها جعلاً وأمرها بقذف موسى بنفسها، فلما جاءت قال لها موسى : أقسمت عليك بالذي أنزل التوراة إلا صدقت ، أنا فعلت بك كذا، قالت : لا ، كذبوا، ولكن جعلوا لسي جعلاً على أن أقذفك، فأوحى الله إلى موسى مر الأرض بما شئت تطعك فقال: يا أرض خذيهم فجعل قارون يقول: يا موسى ارحمني وموسى يقول : يا أرض خذيهم فابتلعتهم الأرض ثم خسف بهم وبادر قارون. أنظر : المختصر في أخبار البشر ١/١٩ ، وتاريخ الطبري ١/٢٦٣ .

<sup>(٥٢٠)</sup> أضواء البيان للشنقيطي ٣/٢٥٢ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِي  
 آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٢١﴾ .

يقول صاحب الظلال : (ويبدأ التهديد ملفوفاً، ولكنه مخيف : ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فهم  
 مكشوفون لعلم الله، وهم مأخوذون بما يلحدون، مهما غلطوا والتوا، وحسبوا أنهم مُفلتون  
 من يد الله كما قد يفلتون بالمغالطة من حساب الناس، ثم يصرح بالتهديد : ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي  
 النَّارِ خَيْرًا أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وهو تعريض بهم، وبما ينتظرهم من الإلقاء في النار  
 والخوف والفرع، بالمقابلة إلى مجيء المؤمنين آمنين.

وتنتهي الآية بتهديد آخر ملفوف : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وبما  
 خوف من يترك لي عمل فيلحد في آيات الله، والله بما يعمل بصير ﴿٥٢٢﴾ .

وأخيراً : يتضح من هذا العرض الموجز أن ما حققه الإسلام لمن التزم بطاعة الله  
 وترك ما حرم الله من أمن عجزت عنه كل نظم البشر وأسلحتهم الفتاكة وأجهزتهم الدقيقة أن  
 تحقق أقل القليل من هذا الأمن الذي حققه الإسلام ذلك الأمن الذي يعتمد على غرس الإيمان  
 في القلوب وزرع الخشية الإلهية في النفوس حتى تترك الإجرام رغبة عنه وكرهية له،  
 وليس اعتماداً على العقوبة وشدة البطش بأصحاب الجرائم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :  
 ﴿ أَفَأَحْكَمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٢٣﴾ .

(٥٢١) سورة فصلت : آية ٤٠ .

(٥٢٢) في ظلال القرآن ٥/٣١٢٦ .

(٥٢٣) سورة المائدة : آية ٥٠ .

## طاعة ولاة الأمر

التعريف :

الولي : ضد العدو يقال منه : تولاه.

وكذلك ولي الوالي البلد، وولي الرجل البيع.

والولاية بالكسر : السلطان ، والولاية والولاية : النصره، وكل من ولي أمر آخر فهو وليه<sup>(٥٢٤)</sup>.

إذن ولاة الأمر : هم كل من تولى شؤون المسلمين وأمورهم، وقد بينهم الله تعالى بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾<sup>(٥٢٥)</sup>.

فهنا حدد النص الكريم من هم أولو الأمر وعينهم بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>(٥٢٦)</sup>.

فالمراد بالآية هنا أولاً ولاة الأمر، أمرهم الله أن يقوموا برعاية الرعية وحملهم على موجب الدين والشريعة، ولو أن هذه الآية نزلت بسبب مفتاح الكعبة، حيث أمر الله جل شأنه

<sup>(٥٢٤)</sup> هذه المعاني مستفادة من الصحاح ٧١٥/٢ تحت مادة (أولى)، ومن معجم مقاييس اللغة العربية ١٤١/٦ بتصرف.

<sup>(٥٢٥)</sup> سورة النساء : آية ٥٩.

<sup>(٥٢٦)</sup> سورة النساء : آية ٥٨.

برده إلى عثمان بن أبي طلحة<sup>(٥٢٧)</sup> حين قبض المفتاح منه يوم فتح مكة وأراد رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى العباس<sup>(٥٢٨)</sup> لتكون له الحجابة والسقاية<sup>(٥٢٩)</sup>، فكما هو معروف عند الجمهور أن النازل إذا كان عاماً والسبب خاصاً لا يجب قصر العام على السبب الخاص؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وطاعة ولاة الأمر بالمعروف من أهم أسباب الأمن واجتماع الكلمة ووحدة الصف؛ لأن ذلك يجعل المسلمين وحدة واحدة كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ويحرص بعضه على بعض فلا يتخلل هذه الوحدة ما يصدعها، ويفرق كلمتها ويبعث الشكوك بين أهلها وقد أوصانا الله سبحانه وتعال بالاعتصام بحبله المتين، الذي تجمعه كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ"، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

<sup>(٥٢٧)</sup> هو : عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة : عبدالله بن عبدالعزيز بن عثمان بن عبدالدار بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي العبدري الحنظلي، هاجر في هجرة المدينة و أقام مع النبي ﷺ بالمدينة وشهد معه فتح مكة ودفع إليه مفتاح الكعبة يوم الفتح، أقام بالمدينة وبعد وفاة النبي ﷺ انتقل إلى مكة ، فأقام بها حتى مات سنة اثنتين وأربعين ٤٢ هـ ، وقيل : إنه استشهد يوم أجنادين. أنظر : أسد الغابة ٥٧٨/٣، وتهذيب التهذيب ١٢٤/٧ ، والأعلام ٣٦٧/٤.

<sup>(٥٢٨)</sup> هو : عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، عم رسول الله ﷺ وصنوا أبيه، يكنى أبا الفضل بأبنة، وكان أسنً من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل : بثلاث ، كان في الجاهلية رئيساً لقريش وإليه كانت عمارة المسجد الحرام، شهد مع الرسول ﷺ بيعة العقبة، وكان حينئذ مشركاً، خرج مع المشركين يوم بدر مكرهاً، واصر وفدى نفسه، ختمت به الهجرة ، وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة، وأضر في آخر عمره، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ وعمره ٨٨ سنة. أنظر : أسد الغابة ١٦٤/٣ وما بعدها ، وتهذيب التهذيب ١٢٢/٥ ، والأعلام ٣٥/٤.

<sup>(٥٢٩)</sup> ورد في بعض الروايات أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قام إلى النبي ﷺ ومفتاح الكعبة في يده - أي يد علي - فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. وفي روايات أخرى وهي الأكثر أن ابن عباس ؓ هو الذي قال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي : اجمعه لي مع السقاية . أنظر : تفسير القرآن العظيم ٥١٥/١ ، ٥١٦ ، وتفسير المراغي ٧٠/٥ .

أَعْدَاءُ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣٠﴾ (٥٢٠).

أمر الله سبحانه وتعالى بعباده بالتمسك بالإسلام عقيدة وشريعة ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأرشدهم إلى ذكر نعمته تعالى عليهم بالألفة والمحبة التي كانت ثمرة هدايتهم للإيمان والإسلام، بعد أن كانوا متناحرين مختلفين فألف بين قلوبهم فأصبحوا بها إخواناً متحابين متعاونين، وهذا التآلف والتعاون والمحبة ينتج عنه الأمن والطمأنينة؛ لأنه إذا علم كل واحد منهم أنه لن يساء إليه من الآخر، ولن يسمح أي منهم أن تتال الإساءة الآخر صار كل منهم حارساً أميناً على صاحبه، وبهذا يتحقق الأمن لهم في حياتهم، كما أخبر سبحانه أنهم بإيمانهم واجتماعهم على عقيدة التوحيد آمنون في الدار الآخرة؛ لأنهم قبل الإيمان كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها بأن شرع لهم دين الإسلام، وهداهم إليه، وأنه لا زال يبين لهم الآيات الدالة على طريق الهداية الداعية إليها ليثبتهم على الهداية ويكملهم فيها، ويمنع عنهم الفرقة والمنازعة؛ لأنها تذهب ريحهم كما بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٥٢١).

جاء في تفسير التحرير والتنوير لهذه الآية: ( ... ثم أمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم ، وهي علائق بعضهم مع بعض، وهي الطاعة وترك التنازع، فأما طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين مثل الغنائم، وكذلك ما يأمرهم به الرسول ﷺ من آراء الحرب كقوله للرماة يوم أحد: " لا تبرحوا من مكانكم ولو تخطفنا الطير" (٥٢٢)، وتشمل طاعة الرسول ﷺ طاعة أمرائه في حياته لقوله: "من يطع الأمير

(٥٢٠) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٥٢١) سورة الأنفال: آية ٤٦.

(٥٢٢) سنن أبي داود (كتاب الجهاد، باب: في الكفاءة) رقم الحديث (٢٦٦٢) ٥١/٣ بلفظ: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم..."، وهو مروى عن البراء رضي الله عنه.

فقط أطاعني" (٥٣٣)، وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول ﷺ لمساواتهم لأمرائمه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه.

وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضاً، حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعا في شيء رجعوا إلى أمرائهم وعلمائهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ (٥٣٤)، وقوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَردُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (٥٣٥)، والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي.

ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ، وهو أمر مرتبط في الفطرة، بسط القرآن القول فيه ببيان سيء آثاره، فجاء بالنقرع بالفناء في قوله: ﴿فَتَقَشَّلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فحذرهم أمرين معلوماً سوء مغبتهما، وهما: الفشل، وذهاب الريح (٥٣٦).

إذن اجتماع الكلمة واتحاد الرأي والسير وراء ولاة الأمر بالمعروف اجتماع للمسلمين والاجتماع قوة يأمن معها الناس، والفرقة خذلان تضعف كيان المجتمع وتمزق وحدته وتشنت آراءه، فيكون مطعماً للعدو، ومصدر خوف وإزعاج للناس.

وهنا تبرز سمات المجتمع المؤمن المتكاتف المتعاون والمنفق في الرأي؛ لأن الإيمان حين تلامس بشاشته القلب، يشبع فيه الاطمئنان، ومن مجموع الفرد المؤمن يوجد

---

(٥٣٣) صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب: يقاتل من وراء الإمام ويتقي به) رقم الحديث (٢٩٥٧) فتح الباري ١١٦/٦، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) رقم الحديث (١٨٣٥) ١٤٦٦/٣، وسنن ابن ماجة (كتاب الجهاد، باب: طاعة الإمام) ٢٣٠٨/٢ مع اختلاف في اللفظ، ونصه في ابن ماجة: "من أطاع الإمام فقد أطاعني"، والحديث رواه أبو هريرة ؓ.

(٥٣٤) سورة النساء: آية ٨٣.

(٥٣٥) سورة النساء: آية ٥٩.

(٥٣٦) تفسير الشيخ ابن عاشور ٣٠/١٠، ٣١

المجتمع المؤمن، وهو مجتمع مثالي، أفراده متميزون في إتقانهم لأعمالهم، وحسن تصرفهم، وهم مهتمون بشؤون بعضهم، يراقبون الله في كل عمل وليس لهم أرباب غير الله، من أجل ذلك فقلوبهم مطمئنة، ونفوسهم راضية، والإيمان منة من الله وفضل يرزقه من يشاء ممن عباده، وحقيقة هذا الإيمان كما تقتضي من المؤمن الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ تقتضي - أيضاً - الطاعة لولاة الأمور الذين سلمهم الله أمر قيادة الأمة، والنصح لهم ما أطاعوا الله فيها ولم يأمروا بمعصية تخالف شرع الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٥٣٧)

وبطاعة ولاة الأمر بالمعروف يكون المجتمع أكثر تماسكاً فلا تؤثر فيه الشائعات الكاذبة المغرضة ولا الإذاعات المثبطة، وقد نهانا الله تعالى عن إثارة مثل هذه الشائعات التي تفتت المجتمع وتشتت كيانه وتشر الرعب بين أفراده ويستفيد منها الأعداء؛ فإن وجد شيء من ذلك وجب إعادة الأمر إلى الرسول وأولي الأمر، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَشِيطُونَ بِمَنَّهُمْ لَوْ لَا فُضِّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٥٣٨).

جاء في أيسر التفسير : (وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ ﴾ وهي الآية الرابعة (٨٣) (٥٣٩) فإن الله تعالى يخبر عن أولئك المرضى بمرض النفاق ناعياً عليهم إرجافهم وهزائمهم المعنوية فيقول : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ ﴾ أي : إذا وصل من سرايا الجهاد خبر بنصر أو هزيمة سارعوا بإفشائه وإذاعته، وذلك عائد إلى مرض قلوبهم؛ لأن الخبر - وأطلق عليه لفظ الأمر؛ لأن حالة الحرب غير حالة السلم - إذا كان بالنصر المعبر عنه بالأمن فهم يعلنونه حسداً أو طمعاً، وإذا كان بالهزيمة المعبر عنها بالخوف يعلنونه فزعاً وخوفاً لأنهم جبناء كما تقدم وصفهم، قال تعالى في تعليمهم وتعليم

(٥٣٧) سورة النساء : آية ٥٩.

(٥٣٨) سورة النساء : آية ٨٣.

(٥٣٩) هكذا جاء في تفسير الشيخ أبي بكر الجزائري، والمراد: الآية الرابعة بالنسبة لهذا النص الذي يتحدث عنه.

غيرهم ما ينبغي أن يكون عليه المجاهدون في حالة الحرب ﴿وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ الْقَائِدِ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهم أمراء السرايا المجاهدة، ﴿لَعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَتِبُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي لاستخرجوا سر الخبر وعرفوا ما يترتب عليه، فإن كان نافعاً أذاعوه ، وإن كان ضاراً أخفوه، ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ في قبول تلك الإشاعات المغرضة والإذاعات المثبثة ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ منكم من ذوي الآخر الصائبة والحصافة العقلية؛ إذ مثلهم لا تثيرهم الدعاوى، ولا تغيرهم الأراجيف، ككبار الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين<sup>(٥٤٠)</sup>.

وبالنظر إلى حال المسلمين في آجلهم وعاجلهم، نجد أن الخير والألفة والمحبة والأمن والأمان، كل ذلك لا يكون أبداً إلا بالاعتصام بحبل الله، وأن الله جل شأنه يخاطب رسوله ﷺ مبيناً للأمة الإسلامية أن الإصلاح الحقيقي لا يتأتى إلا بالارتباط بحبل الله تعالى ، يقول جل شأنه : ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٥٤١)</sup>.

ولابد من الإشارة هنا إلى علاقة الحاكم بالمحكوم والمحكوم بالحاكم، وما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقة، وقد بينت أن الحاكم في الدولة الإسلامية مكلف بمنصبه، وعليه أعباء ومسؤوليات أمام الله سبحانه وتعالى أولاً، ثم أمام المسلمين الذين يحكمهم خاصة والمسلمين عامة ثانياً، وكذلك عامة الناس ثالثاً، ففضل الله وكرمه اقتضى أن يكون الحكم بالعدل بسين الناس عدلاً شاملاً فالنص جاء مطلقاً بين الناس جميعاً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾<sup>(٥٤٢)</sup>.

فالعدل من الحاكم المسلم ليس للمسلمين فقط، ولا لفئة دون فئة، وإنما هو حق لكل إنسان تحت رعاية الأمة الإسلامية مسلماً كان أو غير مسلم، وبهذا العدل يعم الأمن جميع

<sup>(٥٤٠)</sup> أيسر التفاسير للشيخ ابي بكر الجزائري ١/٤٣٢، ٤٣٣.

<sup>(٥٤١)</sup> سورة الأنفال : آية ٦٣.

<sup>(٥٤٢)</sup> سورة النساء : آية ٥٨.

الناس حتى المشركين الذين استجاروا بولي الأمر أو بالمؤمنين، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٤٣).

جاء في تفسير الآية : (والخلاصة - وإن استأمنك أيها الرسول ﷺ أحدٌ من المشركين لكي يسمع كلام الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه، أو ليلقاك وإن لم يذكر سبباً - فأجره وأمنه على نفسه وأمواله لكي يسمع أو لكي يراك، فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع، فإن اهتدى وآمن عن علم واقتناع فذاك، وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذي يأمن به على نفسه، ويكون حراً في عقيدته حيث لا يكون للمسلمين سلطان عليه، وتعود حال الحرب إلى ما كانت عليه من غير عذر) (٥٤٤).

أي عدل كهذا الذي يعطي الفرصة للمشرك المحارب بأن يأمن حتى يسمع كلام الله، فإن آمن من غير إكراه وإلا بلغ إلى حين يأمن، هذا هو العدل الذي يحصل معه الأمن والطمأنينة للمجتمع الإسلامي، ولكل من يعايش هذا المجتمع كما بين الله سبحانه أساس الحكم في الإسلام هو المساواة بين الناس جميعاً المساواة بين المحكومين، فالتمايز الطبقي لأي سبب من الأسباب لا مكان له في منهاج الله وحكمه، ولقد صدع الرسول ﷺ بهذا الأمر ليثبت للعالم أجمع أن العدل المطلق لا يتأتى أبداً إلا بهدي الله وهدي رسوله ﷺ وعندما سرقت امرأة من قريش فأهمهم شأنها فكلموا رسول الله ﷺ في العفو عنها غضب الرسول ﷺ غضباً شديداً، وانتهز هذه الفرصة ليذكر الأمة الإسلامية جمعاء بأن الناس جميعاً سواسية أمام حكم الله سبحانه وتعالى ، فقال في هذا الصدد : " إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . . ." (٥٤٥).

(٥٤٣) سورة التوبة : آية ٦.

(٥٤٤) تفسير الأستاذ المراغي ٥٩/٤، ٦٠.

(٥٤٥) صحيح البخاري (كتاب الأنبياء، باب : أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم) رقم

الحديث (٣٢٨٨) وهو مروى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ٣/١٢٨٢،

ومن الواجبات التي أوجبها الله على الحاكم أن يشاور أهل الحل والعقد من الرعية في كل أمر هام يتعلق بمصير الأمة ومستقبلها ويسمع آراء الناس ولننظر إلى هدى الله سبحانه وتعالى كيف أنه أوجب هذا الأمر على الرسول ﷺ مع أنه لا ينطق عن الهوى ومبلغ عن الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا رَحِمَ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ لَوْلَاكَ فَطَأَ غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَّضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (٥٤٦).

فالمشاورة أمر جوهري لا يحيد عنه حاكم مسلم، إلا إذا اتبع هواه وسار وراء نزعاته ونزعات الشيطان، ولا يحق لحاكم مسلم أن يستبد برأيه، والاستبداد بالرأي مضاره جسيمة، وكثيراً ما هوى الحاكم المستبد هو ودولته إلى الضياع والدمار والهلاك.

كما أن من واجبات الحاكم أيضاً أن يكفل لكل مسلم تحت حكمه حاجته الإنسانية الضرورية على حسب ظروف كل عصر.

أما واجبات المحكومين في الدولة الإسلامية الذين عليهم من الحقوق للحاكم بمثل ما لهم من حقوق عنده، فقد حددتها هذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (٥٤٧).

فهذه الآية تكاد تفي بواجبات المسلمين نحو حاكمهم، كما أنها بينت ووضحت كيف يكون التصرف السليم إذا حدث نزاع في أمر من الأمور بين الحاكم والمحكومين، فالمرجع للطرفين هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبهذا فإن الحاكمية المطلقة لا تكون إلا لله، ومن واجبات الحاكم على المحكومين: السمع والطاعة للحاكم المسلم، وهو أمر افترضه الله على

وصحيح مسلم (كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في

الحدود) رقم الحديث (١٦٨٨) ٣/٣١٥.

(٥٤٦) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٥٤٧) سورة النساء: آية ٥٩.

المحكومين؛ إذ جعل طاعة الحاكم المسلم الصالح من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، وهذه الطاعة ليست مطلقة ، ولكنها في حدود ما شرع الله سبحانه وتعالى والذي لم يرد نص بحرمة.

ولقد بين الرسول ﷺ ، وهو المبين الأول لكتاب الله حدود الطاعة للحاكم. روى ابن عمر<sup>(٥٤٨)</sup> عن النبي ﷺ أنه قال : " السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"<sup>(٥٤٩)</sup>.

وقال عليه الصلاة والسلام : " ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا ... "<sup>(٥٥٠)</sup>.

ولنقف عند قوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فهذا السياق الكريم يرشدنا إلى أن أي تنازع يقع بين المحكوم والحاكم، يجب أن يرد إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمناً، فهناك مبادئ كلية عامة في منهج الله وشريعته، وهذه المبادئ أساسية واضحة كل الوضوح تغطي كل جوانب الحياة الأساسية ينبغي علينا أن نرجع إليها، فليس هناك قطعاً أمر قد أغفله الشارع الحكيم، فهدي الله وهدى رسوله ﷺ واجتهاد المجتهدين لم يترك أي شاردة ولا واردة تجاه الحاجات الإنسانية ما كان منها وما هو كائن، وما هو كائن ، وما قد يجد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

<sup>(٥٤٨)</sup> الزاهد في الإمرة والمراتب الراغب في القرية والمناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أمه وأم أخته حفصة: زينب بنت مضعون بن حبيب الجمحية، أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وهاجر قبل أبيه، لم يشهد بدرأً لصغره، واختلفوا في شهوده أحد، كان كثير الاتباع لآثار النبي ﷺ ، شديد الاحتياط والتوقي لدينه في الفتوى، توفي سنة ٧٣هـ بعد مقتل ابن الزبير بثلاثة أشهر. أنظر : حلية الأولياء ٢٩٢/١ ، وأسد الغابة ٣٤٠/٣ ، وتهذيب التهذيب ٣٢٨/٥.

<sup>(٥٤٩)</sup> صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب: السمع والطاعة للإمام) رقم الحديث (٢٩٥٥) فتح الباري ١١٥/٦ ، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) رقم الحديث (١٨٣٩) ١٤٦٩/٣.

<sup>(٥٥٠)</sup> صحيح مسلم (كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) رقم الحديث (١٨٣٨) ١٤٦٨/٣ رواه يحيى بن حصين عن جدته.

ومن الواجبات على المسلمين أيضاً النصيحة نصيحة المحكوم للحاكم، والنصيحة في حقيقتها ما هي إلا توجيه وإرشاد للسلطة حتى تكون دائماً إلى الأفضل، ولقد كان الرسول ﷺ مثلاً فريداً لكل حاكم في تنفيذ التشريع والإرشادات، وكثيراً ما يأخذ بنصيحة أصحابه، حتى يفقدي به كل حاكم مسلم يبغى الخير لنفسه ولرعيته، وما شرعت الشورى في الإسلام إلا من أجل هذا، يقول الرسول ﷺ في هذا الصدد: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تتأصخوا من ولاة الله أمركم" (٥٥١).

روى تميم الداري (٥٥٢) عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة"، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (٥٥٣).

والنصيحة في روح الإسلام تقتضي أن يقصد بها المحكوم للحاكم حسبة الله سبحانه وتعالى، والمصلحة العامة للأمة الإسلامية، وألاً يقصد بها الذكر أو الشهرة أو التشهير، فإذا قصد بها غير وجه الله سبحانه وتعالى أو قصد بها تفريق كلمة الأمة الإسلامية فهو ضال مضل، وفي الخسران المبين.

وإذا التزم كل من الحاكم والمحكوم بهذه الواجبات سعد المجتمع وعاش في أمن

(٥٥١) مسند الإمام أحمد ٣٦٧/٢ روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ.  
(٥٥٢) هو: تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن خزيمة، وقيل: سواد بن خزيمة بن ذراع بن عدي بن الدار بن هانئ بن حبيب بن أنمار بن لحم بن عدي بن عمرو بن سبأ، يكنى أبا رقية بابنته رقية، ولم يولد له غيرها، كان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام بعد مقتل عثمان، وكان نصرانياً فأسلم سنة تسع من الهجرة وهو أول من أسرج السراج بالمسجد، توفي سنة ٤٠ هـ. أنظر: أسد الغابة ٢٥٦/١، وتهذيب التهذيب ٥١١/١، والأعلام ٧١/٢.

(٥٥٣) صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: "الدين النصيحة" لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" ٣٠/١، وصحيح مسلم بشرح النووي المسمى (المنهاج) (كتاب الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة) رقم الحديث (١٩٤) ٢٢٥/٢.

وسكينة ونمت فيه جميع وجوه الخير ووصل إلى أعلى درجات الأمن النفسي والغذائي والصناعي والاقتصادي والطبي وغيرها.

## خامساً

### شُكْرُ الْمُنْعَمِ

تعريف الشكر :

الشكر : الثناء على المحسن بما أؤاكه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له، وباللهم أفصح.

والشكران : خلاف الكفران.

ويقال : إن حقيقة الشكر : الرضا باليسير، يقولون: فرس شكور إذا كفاه لسمنه العلف القليل.

والشكر : بالضم عرفان الإحسان ونشره، ولا يكون إلا عن يد.

ومن الله المجازاة والثناء الجميل.

والشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً، يقال : شكرت الدابة تشكراً شُكراً على وزن سمنت تسمن سمناً.

وفي الحديث : " حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم"<sup>(٥٥٤)</sup> أي : لتسمن من كثرة ما تأكله منه.

(٥٥٤) هذا الحديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مع اختلاف في ألفاظه من حديث عن سد يأجوج ومأجوج إلى أن قال : "فوالذي نفس محمد بيده إن دواب

وكذلك حقيقته في العبودية : وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً وعلى قلبه : شهوداً ومحبة وعلى جوارحه : انقياداً وطاعة<sup>(٥٥٥)</sup>.  
أمّا تعريف النعم :

جاء في القاموس المحيط تحت فصل النون باب الميم : (النعيم والنعْمى بالضم الخفض والدعة والمال كالنعمة بالكسر، وجمعها : نعم وأنعم، والتنعّم: الترفّة)<sup>(٥٥٦)</sup>.

وقال صاحب المنازل : (معرفة النعمة : ركن من أركان الشكر، لا أنها جملة الشكر، كما تقدم : أنه الاعتراف بها، والثناء عليه بها، والخضوع له ومحبته، والعمل بما يرضيه فيها لكن لما كان معرفتها ركن الشكر الأعظم، الذي يستحيل وجود الشكر بدونه، جعل أحدهما اسماً للآخر)<sup>(٥٥٧)</sup>.

الفرق بين الحمد والشكر :

تكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر، وأيهما أعلى وأفضل؟ ، وفي الحديث : "الحمد رأس الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره"<sup>(٥٥٨)</sup>.

والنسبة بينهما : (أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب، ومعنى هذا : أن الشكر يكون :

---

الأرض تسمن وتبظر وتَشْكُرُ من لحومهم". سنن الترمذي (كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف) رقم الحديث (١٣٥٣) وقال : حديث حسن غريب ٣١٤/٥.  
<sup>(٥٥٥)</sup> هذه التعريفات مستقاة من : الصحاح ص ٦٧٩، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٢/٢٥٤ ، ومعجم مقاييس اللغة ٣/٢٠٧، ٢٠٨، والقاموس المحيط ٢/٦٤، ٦٥.

<sup>(٥٥٦)</sup> القاموس المحيط ٤/١٨٣.

<sup>(٥٥٧)</sup> مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٢/٢٥٧.

<sup>(٥٥٨)</sup> الحديث ورد في مصنف عبدالرزاق ١٠/٤٢٤ (كتاب الجامع، باب : الدعاء) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم الحديث (٢٩٨٩) ٢/١١٣.

بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناء واعتزافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً، ومتعلق : النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو المحمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان<sup>(٥٥٩)</sup>.

### شكر المنعم من مصادر الأمن في الحياة :

إن نعم الله علينا كثيرة جداً ... ومن أهمها وأعظمها نعمة الإسلام، ثم بقية النعم من الصحة والعافية والأمن والأمان والمال والأهل والولد والفراغ... وغيرها، وإذا تأملنا في أحوال المسلمين وجدنا - مع الأسف الشديد - صوراً خطيرة في مقابلة تلك النعم تخالف شرع الله جل وعلا.

فمنهم من ينسب النعمة لغير الله، ومنهم من يقابلها بالذنوب والمعاصي، ومنهم من يحصل له بسببها الغرور والكبر والتعالي على المحروم منها، ومنهم من لا يؤدي حق الله فيها، ومن هنا تكمن أهمية هذا الموضوع الخطير الذي هو نصف الإيمان... ألا وهو شكر المنعم؛ إذ أن الإيمان صبر وشكر، والعبد ينقلب بينهما كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"<sup>(٥٦٠)</sup>.

وقد وردت آيات كثيرة وأحاديث كثيرة، كلنها تأمر بشكر المنعم وتنهى عن إنكار هذه النعم، أو نسيانها والغفلة عنها، فالشكر هو من الوصايا التي وصى الله بها الإنسان، فقال تعالى :

<sup>(٥٥٩)</sup> مدارج السالكين ٢/٢٥٦، ٢٥٧.

<sup>(٥٦٠)</sup> صحيح مسلم (كتاب الزهد، باب : المؤمن أمره كله خير) رقم الحديث (٢٩٩٩)

٢٢٩٥/٤، ومسنند الإمام أحمد ٤/٣٣٢ و ١٥/٦ ، والحديث رواه صهيب بن مالك.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ  
الْمَصِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٦١).

قال صاحب النكت والعيون : ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ أي : اشكر لي النعمة ،  
ولوالديك التربية، وشكر الله بالحمد والطاعة، وشكر الوالدين بالبر والصلة (٥٦٢).

وأخبر سبحانه وتعالى أن رضاه فيشكره ، فقال تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي  
عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ  
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ (٥٦٣) .

فبعد أن بين الله بالأدلة القاطعة وجوب الإيمان به ووجوب عبادته، وأنه الرب الحق  
والإله الحق أعلم عباده أن كفرهم به لا يضره أبداً ؛ لأنه الغني عنهم وعن سائر خلقه، إلا أنه  
لرحمته بعباده لا يرضى لهم الكفر لما يسببه لهم من شقاء وخسران، كما أنهم إن آمنوا  
وشكروا يرضاه لهم، فيديم عليهم النعم ويحفظها في الدنيا ويثيبهم أحسن ثواب ويجزيهم أحسن  
جزاء، فهم آمنون في الدنيا ببقاء هذه النعم، وفي الآخرة بالثواب على شكرهم للمنعم المتفضل  
عليهم بها، ومن لم يشكر الله لم يعبده وحده، ولإثبات العبودية الخالصة لله أمرنا بالشكر في  
قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ  
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (٥٦٤) .

جاء في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عند تفسيره لهذه الآية : (هذا  
أمر للمؤمنين خاصة، بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون - على الحقيقة - بالأوامر  
والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه،

(٥٦١) سورة لقمان : آية ١٤ .

(٥٦٢) تفسير الماوردي ٣٣٥/٤ .

(٥٦٣) سورة الزمر : آية ٧ .

(٥٦٤) سورة البقرة : آية ١٧٢ .

باستعمالها بطاعته ، والتقوى بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ ﴾ (٥١)، فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل : "حلالاً" لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق، خالصة من التبعة؛ ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له ، وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي : فاشكروه ، فدل على أن من لم يشكر الله ، لم يعبده وحده، كما أن من شكره، فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة ، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة(٥١٦).

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على نبيه إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان من الشاكرين، فقال : ﴿ إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٣١ ﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٣٢ ﴾ (٥١٧).

وامتدح نوحاً عليه السلام بقوله : ﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِذْهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ ﴾ (٥١٨).

وقال عن سليمان عليه السلام بقوله : ﴿ فَنَبَّأَهُ صَاحِبًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩ ﴾ (٥١٩).

(٥١٥) سورة المؤمنون : آية ٥١ .

(٥١٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ١٣٢/١، ١٣٣ .

(٥١٧) سورة النحل : الآيتان ١٢٠، ١٢١ .

(٥١٨) سورة الإسراء : آية ٣ .

(٥١٩) سورة النمل : آية ١٩ .

وقال عن آل داود عليه السلام : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٥٧٠).

وامتن على الشاكرين بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٥٧١).

ومما سبق يتبين لكل ذي لب سليم أن الشكر ذو عاقبة حميدة وأن استمرار النعم مرتبط بشكر موجدتها، يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين : (... إننا نؤمن أن ما يصيبنا من خير ورخاء فهو نعمة من الله علينا يجب أن نشكر مسديها وموليها بالرجوع إلى طاعته باجتتاب ما نهى عنه وفعل ما أمر به، إننا إذا قمنا بطاعة الله فنحن شاكرون لنعمه، وحينئذ نستحق ما وعدنا الله به وتفضل به علينا من فريد هذه النعمة، يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (٥٧٢)، ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٥٧٣)/(٥٧٤).

وفي هذه الآية الأخيرة بين الله تعالى أن من مقومات الأمن شكر النعمة لما ينتج عن هذا الشكر من استمرار النعمة وحفظها، كما أن من أسباب زوال الأمن كفر النعمة فيه تزول وتتحول؛ إذ أن ما أصاب الناس من ضرر وضيق مالي أو أمني فردي أو جماعي فإنه بسبب المعاصي والإهمال لأوامر الله تعالى، ونسيانهم شريعة الله، والتماسهم الحكم بين الناس من غير شريعة الله، كل هذه الأمور ناتجة عن الكفر بنعم الله تعالى، وما أصاب الناس من الخيرات والنعم والأمن فإنه من الله تعالى، وهو الذي تفضل به عليهم أولاً وآخرأ.

جاء في التفسير المنير في بيان معنى هذه الآية، وبيان فقه الحياة والأحكام المتعلقة

(٥٧٠) سورة سبأ : آية ١٣ .

(٥٧١) سورة الأنعام : آية ٥٣ .

(٥٧٢) سورة النحل : آية ٥٣ .

(٥٧٣) سورة إبراهيم : آية ٧ .

(٥٧٤) منشور (أثر المعاصي على الفرد والمجتمع) للشيخ محمد الصالح العثيمين ص ٤ ، ٥ .

بها : ( ٥ .. - إن شكر النعمة سبب لزيادتها، وكفرانها سبب لزوالها، فالآية نص واضح في أن الشكر سبب المزيد، وأن جحود النعمة سبب النقص والزوال ، فمن اشتغل بشكر نعم الله، زاده الله من نعمه،

ومن كفر بنعمة الله فهو جاهل، والجهل بالله سبب لأعظم أنواع العقاب والعذاب، فالمراد بقوله: ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ الكفران ، لا الكفر.

والشكر هو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم، مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة.

والخلاصة : الاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة، والانشغال بشكر النعمة يستوجب زيادتها.

٦- إن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران، أما المعبود المشكور فإنه متعال عن أن ينفع بالشكر أو يستضر بالكفران<sup>(٥٧٥)</sup>.

كما أخبر سبحانه أنه لا يغيّر النعمة على العباد إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من طاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه، فقال : ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعِيرًا نِعْمَةً أَعْمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعِيرُوا مَا يَأْتُسِبُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(٥٧٦)</sup>.

وقال تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾<sup>(٥٧٧)</sup>.

جاء في تفسير الظلال : (... وهي حال أشبه بحالة مكة، جعل الله فيها البيت ،

<sup>(٥٧٥)</sup> التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ٢١٣/١٣.

<sup>(٥٧٦)</sup> سورة الأنفال : آية ٥٣.

<sup>(٥٧٧)</sup> سورة النحل : آية ١١٢.

وجعلها بلداً حراماً من دخله فهو آمن مطمئن، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلاً، ولا يجرؤ أحد على إيذائه، وهو في جوار بيت الله الكريم، وكان الناس يتخطفون من حول البيت، وأهل مكة في حراسته وحمايته آمنون مطمئنون، كذلك كان رزقهم يأتيهم هيناً هنيئاً من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الأمنة مع أنهم في وادٍ قفر جذب غير ذي زرع، فكانت تجبي إليهم ثمرات كل شيء فيتنذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل.

ثم إذا رسول منهم يعرفونه صادقاً أميناً، ولا يعرفون عنه ما يشين، يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين، دينه دين إبراهيم باني البيت الذي ينعمون في جواره بالأمن والطمأنينة والعيش الرغيد، فإذا هم يكذبونه ويفترون عليه الافتراءات وينزلون به وبمن اتبعوه الأذى وهم ظالمون.

والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم، وعاقبة المثل أمامهم، مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً فكفرت بأعم الله، وكذبت رسوله: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُرُجِ وَالْخَوْفِ يَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٥٧٨)، وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون (٥٧٩).

وكما أنه محرّم الكفر بالنعمة فإنه لا يجوز التقصير في شكر المنعم على تفضله.

جاء في أدب الدنيا والدين : (وإن قصرنا في أداء ما كلفنا من شكره قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمة ، فنفرت النعمتان، ومن نفرت منه فقد سلب حظ الدنيا والآخرة، فلم يكن له في الحياة حظ، ولا في الموت راحة، وهذا هو الشقي بالاستحقاق، وليس يختار الشقوة على السعادة ذولب صحيح ولا عقل سليم) (٥٨٠).

هذا هو عقاب من كفر بالنعمة وجدها ولم يشكر ربه عليها ، فإن النعمة تتحول إلى نقمة والأمن والرغد يتحول إلى خوف وجوع وشقاء، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ

(٥٧٨) سورة النحل : آية ١١٢ .

(٥٧٩) في ظلال القرآن ٤/٢١٩٩ .

(٥٨٠) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١٤٨ .

ءَايَةٌ جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَقْلٍ وَشَقِيعٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعُد بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلِّ مَذْقَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ (٥٨١).

فبعد أن بين تعالى حل الشاكرين لنعم الله المنيبين إليه، وهم داود وسليمان عليهما السلام بين الله تعالى حال الكافرين بأنعمه، بحكاية قصة أهل سبأ تحذيراً لقريش ووعيداً لكل من يكفر بنعم الله تعالى فيكون حاله كحال سبأ الذين أمروا بشكر ربهم على ما رزقهم من هذه النعم، وتوحيده وعبادته، وطاعته في أوامره واجتناب معاصيه؛ لأن الله المنعم عليهم بهذه النعم رب غفور لذنوبهم إن استمروا على التوحيد والطاعة.

فأعرضوا عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم فأرسل عليهم سيل العرم فانقلبت النعم عليهم إلى نقم ورجد العيش إلى شظفة.

وهكذا نجد أن استقرار الأمن مربوط بشكر النعمة، وأن زوالها مقرون بكفرها، كما نجد أن توفر الأمن لا بد أن يسبق توفر الغذاء مما يدل على أن الضرورة إليه أشد من الضرورة إلى الغذاء؛ لأنه لا يمكن التلذذ بالغذاء لو توفر مع عدم الأمن والاستقرار؛ ولهذا كان في دعاء الخليل عليه السلام تقديم طلب الأمن على طلب الرزق كما ذكر الله عنه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ، مَن أَعْتَرَت مَن ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ، قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنِيسَ الْعَصِيدِ ﴿١٣٦﴾ (٥٨٢).

وامتن الله على قريش بتوفير هاتين النعمتين وأمرهم أن يفردوه بالعبادة شكراً له على ذلك، فقال: ﴿لِيَأْتِيَنَّ قُرَيْشٍ ۖ يَلْفِيهِمْ رِجَالُ السَّمَاءِ وَالصَّيْفُ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

(٥٨١) سورة سبأ : الآيات ١٥ - ١٩.

(٥٨٢) سورة البقرة : آية ١٢٦.

أَلَيْسَ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ (٥٨٣).

ومن تدبر هذه الآية عرف أن عاقبة الشكر محمودة ، وأن المستفيد هو الشاكر لأن نتائج شكره وعاقبتها عائدة إليه، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٥٨٤).

جاء في تفسير القرآن العظيم لهذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أي : الفهم والعمل والتعبير ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أي : أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه الله ومنحه ووجهه من الفضل الذي خصصه به عن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ثم قال : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِ يَمْهَدُونَ ﴾ (٥٨٥)، وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عن سواه فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه (٥٨٦).

وقد ورد عن المصطفى ﷺ أحاديث كثيرة تأمر بشكر المنعم على نعمه، قال ﷺ لمعاذ (٥٨٧) : " إني لأحبك يا معاذ " ، فقلتُ : وأنا أحبك يا رسول الله ، فقال ﷺ : " فلا تدع أن

(٥٨٣) سورة قريش: الآيتان ١ - ٤ .

(٥٨٤) سورة لقمان: آية ١٢ .

(٥٨٥) سورة الروم : آية ٤٤ .

(٥٨٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٤٤ .

(٥٨٧) هو : معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب بن عمرو بن أدي بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزويد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبد الرحمن، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ أسلم وعمره ثماني عشرة سنة، أرسله النبي ﷺ إلى اليمن فلم يزل بها حتى توفي النبي ﷺ ، توفي في طاعون عمواس سنة ١٨هـ، وقيل : سبع عشرة . أنظر : أسد الغابة ٥/١٩٤، وتهذيب التهذيب ١٠/١٨٦ .

تقول في كل صلاة : ربُّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (٥٨٨).

وفي الصحيحين عن عائشة (٥٨٩) رضي الله عنها عندما تفتتت قدماء ﷺ من القيام، فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!، فقال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» (٥٩٠).

وعن ثوبان (٥٩١) رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً...» (٥٩٢).

(٥٨٨) سنن النسائي (كتاب السهو، باب : الدعاء بعد الذكر) ٥٣/٣.

(٥٨٩) هي : أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن والدها، تزوجها الرسول ﷺ بمكة شرفها الله تعالى قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: انه تزوجها بعد سودة، زوجه إياها أبوها فأصدقها مثلما أصدق سودة، وكان لها يوم تزوجها ست سنين ، وما تزوج بكرأ سواها، وقبض ﷺ وهي بنت ثمانى عشرة سنة، ماتت في خلافة معاوية سنة ٥٨ هـ ولها سبع وستون سنة، ودفنت بالبقيع. أنظر : أسد الغابة ١٨٨/٧ ، وفيات الأعيان ١٦/٣ ، وسير أعلام النبلاء ١٣٥/٢.

(٥٩٠) صحيح البخاري (كتاب التفسير ، باب : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) رقم الحديث (٤٨٣٦) فتح الباري ٥٨٤/٨ ، صحيح مسلم (كتاب صفات المنافقين) رقم الحديث (٢٨١٩) ٢١٧١/٤ ، ٢١٧٢.

(٥٩١) هو : ثوبان مولى رسول الله ﷺ وهو ثوبان بن بجدد، وقيل : ابن جحدر ، يكنى أبا عبدالله، وهو من حمير باليمن، وقيل : من السراة - موضع بين مكة واليمن - أصابه سباء فاشتراه الرسول ﷺ وأعتقه، ولما توفي النبي ﷺ خرج إلى الشام فنزل إلى الرملة، وابتنى بها داراً وكذا بمصر وحمس، توفي سنة ٥٤ هـ ، وشهد فتح مصر. أنظر : أسد الغابة ٢٩٦/٢ ، والإصابة ٢١٠/١ ، وتهذيب التهذيب ٣١/٢.

(٥٩٢) الحديث رواه ابن ماجه وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٠٥) . سنن أبين ماجه (كتاب النكاح، باب : أفضل النساء) ٣١٢/١ رقم الحديث (١٥٠٥) ، ومسند الإمام أحمد ٢٧٨/٥.

وفي صحيح مسلم عن أنس<sup>(٥٩٣)</sup> بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها"<sup>(٥٩٤)</sup>.

وهنا قد يقول قائل : ها نحن نرى العصاة الفسقة يتمادون في الذنوب والمعاصي والدنيا تنهال عليهم من كل جانب والخيرات تصب عليهم صباً؟.

والجواب عن هذا التساؤل قد ورد عن سيد الشاكرين وإمام الصابرين محمد بن عبدالله ﷺ إذ يقول : "إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج"<sup>(٥٩٥)</sup>.

جاء في أدب الدنيا والدين : (وليس وإن نال أهل المعاصي لذة من عيش أو أدرکوا أمنية من الدنيا كانت عليهم نعمة، بل قد يكون ذلك استدراجاً ونقمة)<sup>(٥٩٦)</sup>.

نعم إنه استدراج وابتلاء من الله لعباده ؛ لأنه يبتلي بالشر والخير ليميز الله الخبيث من الطيب، ويمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين؛ ولأن الكفرة يأخذون في الدنيا جزاء أعمالهم الخيرة بحيث يأتون يوم القيامة ولا حسنة لهم عند ربهم كما ذكر القرآن الكريم هذا

---

<sup>(٥٩٣)</sup> هو : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار خادم رسول الله ﷺ ، كان يتسمى به ويفتخر بذلك، يكنى أبا حمزة، قدم النبي ﷺ وهو ابن عشر سنين، وتوفي الرسول ﷺ وهو ابن عشرين سنة، توفي سنة ٩١هـ، وقيل : ٩٢هـ ، وقيل غير ذلك، توفي بالبصرة، وهو آخر من مات من الصحابة ، وكان موته بقصره بالطَّف ، ودفن هناك على فرسخين من البصرة. أنظر : أسد الغابة ١/ ١٥١ ، ١٥٢ ، والإصابة ١/ ١٣٢ ، وتهذيب التهذيب ١/ ٣٧٦.

<sup>(٥٩٤)</sup> صحيح مسلم (كتاب الذكر، باب : استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب) رقم الحديث (٢٧٣٤) ٤/ ٢٠٩٥.

<sup>(٥٩٥)</sup> مسند الإمام أحمد ٤/ ١٤٥ ، والحديث رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ .

<sup>(٥٩٦)</sup> أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١٤٩.

المعنى في أكثر من آية.

## أسباب زوال النعم وتغيرها :

أعلم أن الشكر مبني على خمس قواعد :

١- خضوع الشاكر للمشكور .

٢- حبه له .

٣- الاعتراف بنعمته .

٤- ثناؤه عليه بها .

٥- أن لا يستعملها فيما يكره (٥٩٧).

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبنائها عليها، فمتى عدم منها واحدة اختلفت من قواعد الشكر قاعدة، واختلال قواعد الشكر تكون بتقصير من الشاكر فيها لجهله بهذه النعم التي أنعم الله عليه، وعدم التدبير فيها وفي النعم العامة لجميع الخلق، لكونها دائماً عنده فلا يشعر بقيمتها ... كالشمس والهواء والماء ... وما يدري أنه لو فقد هذه النعم كيف سيكون حاله.

وقد يكون التقصير بسبب جهل العبد بمن هو أقل منه مالاً وصحة وعافية وأمناء، فلو تدبر أحوال هؤلاء لعرف قدر نعمة الله عليه ولحمد المنعم الذي عافاه مما ابتلى به الآخرين؛ ولهذا ثبت عن النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : (أنظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله) (٥٩٨) - والمراد في أمور الدنيا، وليس في أمور الدين والعلم - .

وكذلك الجهل بأن هذه النعم من عند الله العزيز القادر العليم الحكيم الذي يعطي من

(٥٩٧) مدارج السالكين ٢/٢٥٤.

(٥٩٨) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الزهد ، باب : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)

رقم الحديث (٧٣٥٦) ١٨/٢٩٨.

يشاء ويمنع من يشاء فلا يغير العبد بعمله، ولا ماله، ولا بجاهه، وليعلم أن الله قادر على إزالة تلك النعم متى شاء؛ ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجاءة نعمتك، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك»<sup>(٥٩٩)</sup>.

ويتضح مما سبق أن أسباب زوال النعم تتلخص فيما يأتي :

أولاً : المعاصي والذنوب ومقابلة النعم بما يغضب الله جل وعلا:

إن الله تعالى قد أنعم علينا بنعم لا تعد ولا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ

كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ (١٠٠).

وقد أمرنا أن نقابل هذه النعم بالشكر لمسيديها والمتفضل علينا بها وهو الله سبحانه وتعالى ، وأخبر أن ما يرتكبه الإنسان من المعاصي والذنوب سبب في زوال تلك النعم وانقلابها وتغيرها إلى نقم، والأدلة على ذلك كثيرة قد ذكرت بعضها آنفاً، وأسوق هنا شواهد على ذلك :

قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٥﴾ (١٠١).

وقال تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ

إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ (١٠٢).

وقال تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَشَفْتِ أَبْصَارِ النَّاسِ لِضَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨١﴾ (١٠٣).

<sup>(٥٩٩)</sup> صحيح مسلم (كتاب الذكر) رقم الحديث (٢٧٣٩) ٤/٢٠٩٧ رواه عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ .

<sup>(١٠٠)</sup> سورة إبراهيم : آية ٣٤ .

<sup>(١٠١)</sup> سورة آل عمران: آية ١٦٥ .

<sup>(١٠٢)</sup> سورة القصص : آية ٨٤ .

<sup>(١٠٣)</sup> سورة الروم : آية ٤١ .

( أي : ظهر الفساد في العالم بالحروب والغارات، والجيوش والطائرات ، والسفن الحربية والغواصات، بما كسبت أيدي الناس من الظلم وكثرة المطامع ، وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الخلاق، وطرح الأديان<sup>(٦٠٤)</sup> وراء ظهورهم ، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوس من عقالها، وعانت في الأرض فساداً، إذ لا رقيب من وازع نفسي، ولا حسيب من دين يدفع عاديتهأ، ويمنع أذاها ، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام، لعلمهم يرجعون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويتذكرون أن هناك يوماً يحاسب الناس فيه على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فيخيم العدل على المجتمع البشري، ويشفق القوي على الضعيف، ويكون الناس سواسية في المرافق العامة، وحاجّ المجتمع بقدر الطاقة البشرية)<sup>(٦٠٥)</sup>.

وقد بين ﷺ لنا كثيراً من النعم، وأمرنا بالتنبيه إليها وأداء شكرها، وعدم التقصير والتفريط فيها، فقال ﷺ : "تعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"<sup>(٦٠٦)</sup>.  
وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم"<sup>(٦٠٧)</sup>.

<sup>(٦٠٤)</sup> إن الدين عند الله واحد وهو الإسلام، ولعله جمع هنا باعتبار تنوع الشرائع السماوية وتعدد الرسل.

<sup>(٦٠٥)</sup> تفسير المراغي ٥٥/٢١.

<sup>(٦٠٦)</sup> صحيح البخاري (كتاب الرقاق، باب : ما جاء في الرقاق) رقم الحديث (٦٤١٢) فتح الباري ٢٢٩/١١، وسنن ابن ماجه (كتاب الزهد، باب : الحكمة) رقم الحديث (٣٣٦٢) ٤/٤٠/٢، وقال الألباني : (حديث صحيح).

<sup>(٦٠٧)</sup> سنن الترمذي (كتاب صفة القيامة ، أبواب : صفة القيامة) رقم الحديث (٢٤١٦) ٦١٢/٤ . قال أبو عيسى : (هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس وهو يضعف الحديث من قبل حفظه).

وأوصى ﷺ بشكر هذه النعم واستغلالها في الطاعة والخير، حيث قال: "اغتنم خمساً قبل خمس، حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك" (٦٠٨).

فعلى العبد أن يتقي الله وألا يصرف شيئاً من وقته أو ماله في غير طاعة الله ولا يستخدم هذه الجوارح من سمع وبصر، ويد ورجل، إلا في مرضاته؛ لأنها ستسأل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦) ﴿٦٠٩﴾.

ثانياً: تزول النعم إذا نسبناها لغير الله المنعم المفضل بها وحده، أو جعل من العبد غرور وتعال على الخلق بما يملك من مال أو جاه ونحوه:

فلا يجوز أن تنسب النعمة لغير الله، وهذا من الكفر والجحود؛ لأن من فعل ذلك فقد نسب النعمة إلى غير مسديها، والفضل لغير أهله، وذلك سبب في زوال النعمة وتحولها إلى نقمة كما حصل لقارون حينما نسب النعمة لنفسه وعلمه، فأنزل الله به العقوبة وأتاه العذاب من حيث لا يحتسب نتيجة كفره بهذه النعم وغروره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مِثْرَاقٍ عَلَيْهِمْ وَعَائِنُهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُورًا بِالْمُضِيكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٣٦) ﴿٦١٠﴾ وَأَبْتَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِعَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا مَا آتَانَا رَبُّنَا وَإِنَّهُ لَدُو

(٦٠٨) رواه ابن المبارك في كتاب الزهد ص ٢، وأبو نعيم في الحلية ٤/١٤٨ عن عمر بن ميمون مرسلًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم الحديث (١٠٧٧) ٢٤٤/١.

(٦٠٩) سورة الإسراء: آية ٣٦.

حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَذِّبُ اللَّهُ بِلَيْسَطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَذِّبُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴿٦١٠﴾.

فلا يجوز أن تنسب النعمة لغير الله تعالى، قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٦١١﴾.

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَبِتَحَفُفِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ ءَأَيُّ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٦١٢﴾.

جاء في تفسير القرآن العظيم لهذه الآية : (أي : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ ﴿٧٧﴾ ، فكفروا بنبي الله وعبيده ورسوله ، فكان اللائق بهم إخلاص العباداة لله وأن لا يشركوا به وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين أظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم وقتل من قتل منهم يوم بدر ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأرغم أنافهم وأذل رقابهم) ﴿٦١٤﴾.

﴿٦١٠﴾ سورة القصص: الآيات ٧٦ - ٨٣.

﴿٦١١﴾ سورة النحل: آية ٨٣.

﴿٦١٢﴾ سورة العنكبوت: آية ٦٧.

﴿٦١٣﴾ سورة إبراهيم: آية ٢٨.

﴿٦١٤﴾ تفسير القرآن العظيم ٣/٤٢١، ٤٢٢.

وقد صح عن النبي ﷺ من حديث جابر (١١٥) : " من أعطي عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليئين به ، فمن أتى به فقد شكره ومن كتبه فقد كفره " (١١٦) .

ومن كفر النعمة قول العامة : (لولا فلان لم يحصل كذا) أو : (لولا قوتنا وغنتنا) أو : (كان السائق ماهراً حاذقاً) ، ونسوا ربهم الذي أنعم عليهم وأعطاهم القوة ونصرهم أو أنقذهم ... ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْرًا إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْتَوُونَ ﴾ (٥٢) تُمْرًا إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِقَ مِّنْكُمْ بِهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿ (٥٤) ﴾ (١١٧) .

ثالثاً : تزول النعم إذا لم نؤد حق الله فيها :

فإن كان ثمة علم عندنا علمناه للناس وأرشدناهم لما فيه خيرهم وصلاحهم في العاجل والآجل؛ إذ الواجب على المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حتى يكون إيمانه كاملاً .

وكذلك إن وجد المال وجب الإنفاق منه وإخراج حق الله فيه وإيتاؤه لمستحقه ، وقد امتدح الله المزكين للمال والمتصدقين به ، فقال تعالى : ﴿ وَالذِّكْرِ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿ (٢٥) ﴾ (١١٨) ، وقال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴾ (١١) ﴿ (١١٩) ؛ ولهذا ثبت في الصحيح دعاء الملكين في كل يوم : " اللهم أعط منفقاً خلفاً ... اللهم أعط ممسكاً تلفاً " (١٢٠) .

(١١٥) هو : جابر بن عبدالله بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة ، الإمام الكبير والمجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ ، أبو عبدالله وأبو عبدالرحمن الخزرجي السلمى المدني، الفقيه من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتاً، مات سنة ٧٨هـ، وقيل : ٧٧هـ ، وعاش أربعاً وتسعين سنة . أنظر : سير أعلام النبلاء ٣/ ١٨٩ وما بعدها .

(١١٦) سنن أبي داود (كتاب الأدب، باب في شكر المعروف) رقم الحديث (٤٨١٣) (٤/ ٢٥٥) .

(١١٧) سورة النحل : الآيتان ٥٣ - ٥٤ .

(١١٨) سورة المعارج : الآيتان ٢٤ - ٢٥ .

(١١٩) سورة الذاريات : آية ١٩ .

(١٢٠) الحديث سبق تخريجه ص ١٣٥ .

وإن كان هناك صحة وعافية بذلناها في الدعوة والجهاد، وهكذا نؤدي شكر كل جراحة قدر الاستطاعة، وقد صحَّ عنه عليه الصلاة والسلام: "في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة، النخامة في المسجد تدفنها، والشيء تحببه عن الطريق ، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزئ عنك" (٦٢١).

وقبل الختام أتكلم عن تحريم الترف والإسراف في الإسلام لكونهما يتنافيان مع شكر النعمة وإنفاقاً للمال في غير وجوهه المشروعة.

### تحريم الترف ومحاربة الإسراف :

إن مشكلة الجوع من المشاكل التي أولاها الإسلام عناية خاصة وتحدث عنها القرآن الكريم في مواضع شتى، ولقد عالج الإسلام هذه المشكلة علاجاً ناجعاً باقتلاع جذورها ومحاربة أسبابها، ووضع لها الحلول المناسبة التي تحمي الإنسان من ذل الحاجة والسؤال.

إن القرآن الكريم يقدم في التجربة الاجتماعية مجموعة من الحلول تتكافل فيما بينها لتقتلع جذور الفقر من المجتمع وتؤمن للإنسان - كل إنسان في المجتمع الإسلامي - حاجاته من الطعام دون أن يتعدى على كرامته أو إنسانيته، فبعد أن يحض الإنسان على العمل كحل في مقدمة الحلول لمشكلة الفقر، يحارب الترف الذي يضيع المال ، ويولد الأحقاد ويدمر المجتمعات.

ويبين لنا القرآن الكريم أن ممارسة هذا النوع من التصرف في المال مدمرة لأصحابها من ناحية ، ومدمرة للجماعة التي تسكت عليها وتغض الطرف عنها من ناحية ثانية.

فالترف مدمر للذين يمارسونه؛ لأنه يعمي أبصارهم ويطمس أرواحهم ويقتل كل

(٦٢١) مسند الإمام أحمد = ٣٥٤/٥ و ٣٥٩ ، وابن حبان في كتاب الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان رقم الحديث (١٦٤٢) ٥٢٠/٤ ، صححه الألباني في كتاب الجامع رقم الحديث (٤٢٣٩) ٧٨٠/٢ .

إحساس أخلاقي في نفوسهم، ويبيدهم عن الرؤية الحقيقية لوظيفة الإنسان في الدنيا، ودور المال في الحياة وما يترتب على ممارسة هذه الوظيفة إيجاباً وسلباً تقدماً وتخلفاً في الدنيا ثم ثواباً أو عقاباً في الدار الآخرة.

والأثر السيء للترف لا يتوقف عند حدود الخلل الاجتماعي وفقدان التوازن وتولد الأحقاد في المجتمعات فقط، وإنما يتعدى هذه الحدود ليحدث أكبر الخلل في نظرة الإنسان من الداخل، وذلك بإنكار النبوة وإنكار الجانب الغيبي والتكذيب بقاء الله والدار الآخرة، وسيادة المقاييس الفاسدة على الأحداث والأشياء والكون.

ومن هنا تحدث القرآن الكريم في غير موضع عن تلك الآثار محذراً من مغبة الوقوع فيها، مبيناً أخطار الترف وما يجلبه للمترفين أنفسهم، ثم ما يجلبه للمجتمعات التي يمارس فيها هذا اللون من التصرف المجنون، فيقول تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ ابْغُذُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴾ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ (٣٤) ابْغُذُوا أَنْفُسَكُمْ إِذَا مَاتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعَظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ (٣٥) هَبْطَاتَ هَبْطَاتٍ لَمَّا تُوقِدُونَ ﴾ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧) ﴿ (١٢٢).

وينقل القرآن في موقف آخر ليعرض للناس المصير الذي سيؤول إليه حال المترفين مع أتباعهم الذين استضعفهم وأذلّوهم في الحياة الدنيا، وينقل لنا الحوار طبيعة العلاقة المتلازمة بين الترف والفساد ونكران النعمة والغرور الذي تطفح به نفوس المترفين ووقوفهم عند مظاهر الفساد وتمسكهم بالباطل المنكر من التقاليد: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ (٣٨) قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدْيَ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَىٰ آبَائِكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٩) فَأَنْفَقْنَا مِنْهُمْ غَاظًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤٠) ﴿ (١٢٣).

(١٢٢) سورة المؤمنون : الآيات ٣٢ - ٣٧.

(١٢٣) سورة الزخرف : الآيات ٢٣ - ٢٥.

إنها صورة تشيع بالتعنت والغطرسة والغرور فكانت النتيجة الانتقام السريع وتطهير الأرض من هؤلاء المترفين المكذابين المغرورين.

غير أن القرآن الكريم لا يكتفي في وصف هؤلاء بتلك الصورة فقط أو بصورة واحدة، إنما يعرض صوراً كثيرة لهؤلاء المترفين، وهم يتخبطون في العذاب وينالون جزاء من جنس ما قدموا في الحياة الدنيا حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ السَّمَالِ مَا أَصْحَابُ

السَّمَالِ ٤١﴾ في سُمُورٍ وَحَمِيمٍ ٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ ٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُوكَ أَيَّدَا مَتَنَا وَكُنَّا شُرَكَاءَ وَعِظَانًا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ ٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ٥١﴾ لَأَكُونُ مِن سَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ٥٢﴾ فَتَالِقُونَ مِنهَا الْبَطُونَ ٥٣﴾ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِّنَ الْحَمِيمِ ٥٤﴾ فَتَشْرَبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ ٥٥﴾ هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ النَّارِ ٥٦﴾ (١٢٤).

لقد كان هؤلاء يتمتعون في حياتهم ويتنعمون في دنياهم بألوان الطعام والشراب والناس يقتلهم الجوع والعطش ، ويضيقهم الحرمان، فما هم اليوم يعانون أشد المعاناة لأنهم فقدوا الإحساس بالآخرين في الدنيا فهم اليوم في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم.

والحديث عن هذا المصير المشؤوم للمترفين لا يعفي أطراف المجتمع الأخرى من المسؤولية في حماية المجتمع وإعادة التوازن ورفع الظلم ورفض الاستبداد ، فالقرآن الكريم قد أكد في غير موضع على مسؤولية الفرد والمجتمع، أكد ذلك في موضع على المسؤولية الكاملة للفرد عن كل فعل يمارسه هو أو تمارسه الجماعة التي ينتمي إليها ويرتبط بها، وهو ينقل لنا صورة حية تؤكد مسؤولية الفرد والمجتمع وتندد بهما معاً حين يرون القبائح والمظالم والمنكر يمارس ولا يتحركون لوقفه ومقاومة انتشاره وامتداده : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا آتَوْكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِن تُبْذَرُوا فِيهَا فَاصْبِرُوا ١٣١﴾

فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴿١٢٥﴾.

إن هذا المبدأ الذي يخبر الله تعالى فيه أنه لا يهلك القرى بظلم أهلها صالحون مقيمون لشرعه مؤدون لواجباته مجتنبون نواهييه، وهو في نفس الوقت ينهي عن الترف والإسراف في المال والجنوح في طلب المناعم به، وذلك لأن جوع الفقير نتج أصلاً عن تخمة الغني، والجوع والتخمة مظهران لخلل في وظيفة المال وعدالة توزيعه، فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح في تأمين المعاش وسد الحاجات بغير سرف أو ترف فحينئذ لا توجد التخمة التي تختلق الجوع، إذ أن أموال الأغنياء ليست حكرًا عليهم وليست حقًا خالصًا لهم ما دام في مجتمعاتهم فقراء، بل هي والحالة كذلك حق لهم وللفقراء معاً، وهذا الحكم الفقهي ما تشير إليه نصوص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ﴿١٢٦﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿١٢٧﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾.

ومن هنا وجب علينا أن نتحدث عن حلول المشكلة من خلال البرنامج الإسلامي الذي وضعه الإسلام لتحقيق أمن الإنسان فرداً ومجتمعاً ودولة وأمة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في ضوء ما فرضه من فرائض، وما وضعه من ضمانات، وبالله التوفيق.

(١٢٥) سورة هود: الآيتان ١١٦ - ١١٧.

(١٢٦) سورة النور: جزء من الآية ٣٣.

(١٢٧) سورة الحديد: آية ٧.

(١٢٨) سورة النحل: آية ٧١.

## الفصل الثاني

### وسائل حفظ الأمن في الحياة

تمهيد:

لقد منَّ الله على عباده بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، ومن أعظمها نعمة الإسلام، (فاعتبر ألهمك الله الشكر، ووفقك للتقوى، إنعامه عليك فيما كلفك، وإحسانه إليك فيما تعبدك، فقد وكنتك إلى فطنتك، وأحلمتك على بصيرتك، بعد أن كنت لك رائدًا صدوقًا، وناصرًا شفيقًا، هل تحسن نهوضًا بشكره، إذا فعلت ما أمرك، وتقبلت ما كلفك؟ كلا، إنه لا يوليكم نعمة توجب الشكر إلا وصلها قبل شكر ما سلف بنعم توجب الشكر في المؤتلف) (٦٢٩).

فقد تكفل الله لمن التزم بهذا الدين القويم الذي ارتضاه الله لعباده، وسار على منهج الله أن يمنحه الله الحياة السعيدة الصافية من الأكدار، وأن يؤمنه من الخوف والجزع في الدنيا، وأن يعيش عيشة هنيئة مطمئنة مفعمة بالسكينة والراحة النفسية، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٣٠﴾.

فهذه الآية تشير إلى مقومات الحصول على السعادة في الدنيا والآخرة، إنه الالتزام بهذا الدين وتطبيقه في الواقع، والالتزم بهذا الدين عقيدة في القلب وسلوكًا في واقع الحياة، ومجاهدة النفس وتطويعها للاستقامة على منهج الله عز وجل.

ومن هذه النعم: الصحة في الأبدان، والأمن والاستقرار في الأوطان، وهذه النعم جميعها من ضرورات الحياة، كضرورة الطعام والشراب والعافية، وقد جاء الأمن مقرونًا في القرآن الكريم والسنة المشرفة بالطعام الذي لا حياة للإنسان ولا بقاء له بدونه، وقد امتن الله

(٦٢٩) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١٤٧.

(٦٣٠) سورة البقرة: الآية ٣٨، ٣٩.

به على عباده وأمرهم أن يشكروا هذه النعم بإخلاص العبادة لله والسير على منهج الله، وبذلك تتحقق جميع وسائل الأمن في حياة الفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٦٣١﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (٦٣١).

وقال تعالى في الوعد بحسن الجزاء، وعظم المثوبة للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَرَّهُوا يُؤْتُوا بِإِيمَانِهِمْ بِظُلْمٍ أَوْ لَيْتِكَ لِمُؤْمِنٍ وَأَمْنٍ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٦٣٢). فالذين أخلصوا العبادة لله سبحانه ووحده لا شريك له، وآمنوا به ولم يخلطوا توحيدهم بشرك، هم الآمنون المهتدون في الدنيا والآخرة.

لقد ظن قوم أن السعادة في الغنى ورخاء العيش، ووفرة النعيم، ورفاهية الحياة، لكن البلاد التي ارتفع فيها مستوى المعيشة وتيسرت لأبنائها مطالب الحياة المادة من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن ومركب مع كماليات ... لا تزال تشكو من تعاسة الحياة وتحس بالضيق والانقباض وتبحث عن طريق آخر للسعادة، وأكبر شاهد على ذلك واقع الحياة في أوروبا رغم التقدم العلمي الذي تعيشه، فإن مظاهر التعاسة التي تعيشها من تفشي الانتحار وتفكك الأسر وتمرد الأبناء على الآباء وانتشار المخدرات والمسكرات واللجوء إليها للتخلص من عموم الدنيا كثيرة، إن أوروبا لم تصل إلى هذا الحال إلا عندما طرحت الدين جانباً، واهتمت بتحقيق مطالب الجسد على حساب الروح، فأظلم قلبها، وضلت الطريق فضيقت الهدف، وذلك نتيجة طبيعية لكل من حادّ الله وحاد عن جادة الصواب، وتنكر لهذا الدين.

وما يعيشه كثير من المسلمين اليوم من قلق وهم واكتئاب وكدر وأمراض نفسية وعصبية وأرق في النوم ما هو إلا نتيجة طبيعية للبعد عن الدين، والتعلق بغير الله من هوى وشهوة عاجلة.

ففي رحاب هذا الدين، وفي رحاب ما شرعه للأمة كل ما فيه سعادتها في العاجل، والأجل، ومن جملة ذلك ما شرعه من وسائل لحفظ الأمن لكل من سار على نهجه.

(٦٣١) سورة قريش: الآيات ٣، ٤.

(٦٣٢) سورة الأنعام: آية ٨٢.

وفي رحاب هذا الأمن وظله يأمن الناس على دينهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم ومحارمهم ويسيرون ليلاً لا يخشون إلا الله.

وفي رحاب هذا الأمن وظله نعم الطمأنينة النفوس ويسودها الهدوء وتعمها السعادة، عن عبيد بن محصن<sup>(٦٣٣)</sup>، عن أبيه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوتٌ يومه فكأنما حيزت له الدنيا»<sup>(٦٣٤)</sup>.

ولذلك وجب علينا البحث عن وسائل حفظ الأمن وتطبيقاً كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ليعم الرخاء والطمأنينة وتدوم علينا نعمة الاستقرار بحول الله وقوته ومشيتته وتوفيقيه، ومن وسائل حفظ الأمن:

## أولاً

### الوعظ والتذكير بالعقوبة

تعريف الوعظ :

جاء في مختار الصحاح تحت مادة «وعظ»: (الوعظ: النصح والتذكير بالعواقب، وقد وعظه من باب وعد، وعظةً أيضاً بالكسر فاتعظ أي: قبل الموعظة، يُقال: السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره)<sup>(٦٣٥)</sup>.

وجاء في القاموس المحيط تحت مادة «وعظ»: فصل النون إلى الياء، باب: الظاء:

(٦٣٣) هو: عبيد الله بن محصن الأنصاري الخطمي، وقيل: الخثمي، رأى النبي ﷺ وروى عن: أبيه، روى عن: النبي ﷺ أنه قال: «من أصبح آمناً في سربه...». الحديث. انظر: تمذيب التهذيب ٥/٣٩٠، وأسد الغابة ٥٣٠/٣.

(٦٣٤) سنن الترمذي (كتاب الزهد، باب: في التوكل على الله) رقم الحديث (٢٣٤٦) ٥٧٤/٤، قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية) وسنن ابن ماجه (كتاب الزهد، باب: القناعة) رقم الحديث (٣٣٤٠) قال: حديث حسن ٣٩٩/٢.

(٦٣٥) مختار الصحاح للرازي ص ٧٢٩.

(وعظه يعظه وعضاً وعضةً وموعظة: ذكره ما يلين قلبه من الثواب والعقاب فاتعظ) (٦٣٦).

### تعريف العقوبة:

جاء في الصحاح تحت مادة «عقب»: (العقاب: العقوبة، وقد عاقبته بذنبه، وقوله تعالى: ﴿فَمَاقَبْتُمْ﴾ (٦٣٧)، أي: فغنمتم، وعاقبه أي: جاء بعقبه فهو معاقب وعقوب أيضاً، والتعقيب مثله) (٦٣٨).

ومن وسائل حفظ الأمن:

### الوعظ والتذكير بالعقوبة:

إن الشريعة الإسلامية بالإضافة على كمالها ودقة تنظيمها لحياة المجتمع فإنها تتصف أيضاً بأنها شاملة تتكامل قواعدها معاً في كلية التنظيم، وهذه سمة أصيلة في طبيعة الشريعة الإسلامية، سمة تتفرد بها بين كل ما نجد في الدنيا من قواعد أخرى وضعية منظمة لحياة المجتمعات غير الإسلامية، تحدد عادة جانباً معيناً واحداً ف يحياة الناس: اقتصادياً أو سياسياً، أو روحياً أو فكرياً، وترى أنه الأساس الذي تنفرع عليه القواعد الأخرى، أما شريعتنا الإسلامية فإن نظرتها شاملة كلية متكاملة محكمة فلا يمكن أن نرى تنظيمًا لجانب في حياتنا الإسلامية لا يركن في أصوله إلى التنظيم الدقيق في الجوانب الأخرى من الحياة في مجتمع المسلمين بل الحق أنه يوجد تماسك وتساند وتشابك دائم في قواعد التنظيم التشريعي تشابك الخيوط المنظمة في نسيج واحد قوي عريض يرتبط الخيط بالخيط، يشده ولا ينفصل عنه، بل يعطي النسيج كله دائماً قوة أشد وتماسكاً أدق، فالتشريعات الخاصة بالأحوال الشخصية عند المسلمين -مثلاً- لا يمكن النظر إليها من الجانب الخاص بها في الزواج والطلاق والنفقة وغيرها، بل هي أيضاً قواعد تستهدف قوة الحياة الاجتماعية وتأكيد الرحمة بين أفراد المجتمع.

(٦٣٦) القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤١٥/٢.

(٦٣٧) سورة الممتحنة: آية ١١.

(٦٣٨) الصحاح ١٣٤/٢.

هذه هي في الحق غاية كل تشريع إسلامي. تراه أيضًا في مسائل الجنايات والحدود، التي تستهدف أيضًا قوة الحياة الاجتماعية، وتأكيد الأمن والسلام في المجتمع، وهي بدورها أيضًا التي تجعل حياتنا في الأسرة والجماعة على السواء مستقرة رخية، وكذلك الحال في تشريعاتنا الاقتصادية وغيرها، كلها متكاملة غايتها دومًا قيام هذا التماسك القوي في بناء الحياة الاجتماعية في مجتمع مسلم.

ولذلك كان أهم سمات تشريعنا الإسلامي أنه كلي النظرة متكامل القواعد، وأنه الأكمل والأدق والأعظم الصالح لكل زمان ومكان، فهي شريعة الله الخالق العظيم.

ولكي تؤدي الشريعة الإسلامية وظيفتها الكاملة، وتحقق للمجتمع الأمن والاستقرار والمنعة على النحو الذي سأليناه لابد أن تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد لكل النظم في مجتمعها، وعلى الأخص فيما يتصل بالجريمة والعقاب، فإذا كانت الشريعة وحدها هي الضابط لحياة المسلمين حققت وظائفها على النحو الذي نراه وتجلت السياسة الجنائية لهذه الشريعة، وهي تعمل وحدها في التطبيق بأوضح الصور، وكيف لا نجعل الشريعة وسيلتنا في الحكم والله تعالى يقول: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٦٣٩﴾.

وفي هذه الآيات بيان واضح أن أفضل الحكم حكم الله، والله العالم بكل شيء يحذرنا أن يفتتنا الهوى فنضل عن سبيله.

جاء في تفسير القرآن العظيم لقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾: (ينكر تعالى على من خرج

عن حكم الله المحكم المستمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند منش ربيعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار<sup>(٦٤٠)</sup> من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان<sup>(٦٤١)</sup> الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع على حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير<sup>(٦٤٢)</sup>.

ولقد أقام الله على سبيل الخير دعاة ونذراء: كتباً تنزل من السماء، ورسلاً يبلغون شرع الله، وهداة يوضحون للناس ما خفي عليهم، وحكاماً يقيمون شرع الله، وينفذون حدوده، وسلطة تشريعية تلاحق المجرمين، وعلماء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ليحركوا القلوب العاغلة وينذروا أصحاب الضلال، ويأخذوا على يد السفیه، ويعيدوه إلى الحق.

ذلك لأن الله رحيم بعباده، لطيف بهم، يمتن عليهم بالرحمة، ويطلب منهم أن يتراحموا

---

(٦٤٠) التتار: مجموعة طوائف كانت ببادية الصين تحيزت إلى جنكيز خان وصاروا ينتسبون إليه، وذلك حينما طرده الملك أزيك خان، وكان هذا الملك قد قربه وأدناه فحسده عظماء الملك وشوا به إليه حتى أخرجه وقد علم أن الملك سيقتله فتحيز وصار كثير من أصحاب أزيك خان ينفرون عليه فيكرمهم حتى كثرت حدوده وقويت شوكته وعظم أمره بعد أن خضعت له قبائل الترك في بلاد طماج كلها، وكان قد حارب أزيك خان فظفر به، والتتر ينتسبون إليه، وهو والد ملوكهم ... إلخ. انظر: البداية والنهاية ١٣/١١٧، ١١٨.

(٦٤١) هو: جنكيزخان، طاغية التتار وملكهم الأول الذي خرب البلاد وقتل العباد، ولم يكن للنار قبله ذكر إنما كانوا ببادية الصين فملكوه عليهم وأطاعوه طاعة أصحاب نبي لنبيهم، وكان مبدأ ملكه سنة ٥٥٩هـ، واستولى على بخارى وسمرقند ومدن خراسان، ولما رجع من حرب السلطان جلال الدين خوارزم شاه على نهر السند وصل إلى مدينة تنكث من بلاد الخطا فرض بها ومات في رابع شهر رمضان سنة ٦٢٤هـ فكانت أيام ملكه خمساً وعشرين سنة، وكان اسمه قبل أن يلي الملك ترمصين، وقيل: مرجي. انظر: فوات الوفيات للكتبي ١/٣٠١، ٣٠٢، والبداية والنهاية ١٣/١١٧.

(٦٤٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٦٧.

فيما بينهم، فالرحمة إذا تمكنت من القلوب كانت حصناً قوياً يردع النفس عن الجريمة؛ لأن المجرم حين يقدم على إجرامه يكون قد نزعته منه الرحمة واستبدت به قساوة القلب.

من أجل ذلك اختلفت أساليب العلاج لأن طباع البشر من حيث تقبلهم للتشريعات تتباين كما تتباين قابلية التربة للإنبات والماء، فأرض خصبة منبثة تهتز وتربو بقليل من الماء فهي خضراء مزهرة تجود بأطيب النبات وأجزل الثمار، وأخرى تتقبل ولكن ببعض الجهد وبعض العناية، وثالثة تحتاج على مزيد من الجهد والعناية، وهكذا حتى نصل إلى السبخة التي لا ينفع فيها جهد لتثمر، فهي لا تمسك ماء لينتفع به، وإن أمسكته لفترة فهي تفسده بحيث لا يستفاد منه، كذلك البشر في تقبلهم تعاليم شرع الله، وما أنزل سبحانه على عباده فمنهم المسارع والمستجيب، ومنهم من يحتاج إلى تكثير وتقريب، ومنهم من يؤمر فلا يتأخر، ومنهم من يحتاج لتأنيب وزجر، ومنهم من لا يستجيب إلا بشيء محسوس يؤلم النفس والجسم، ومنهم من يرتدع بما يقع على غيره من عقاب كما أن فيهم العضو الفاسد، الذي لا ينفع فيه علاج ولا يصلحه شيء، ومن صلاح المجتمع اجتنائه وإزالته؛ لأن في هذا حياة للمجتمع واستمرار أمن وراحة أفراده.

والنفس التي تريد الأمن والطمأنينة وراحة البال عليها أن تلتزم ذلك بالاعتماد على الله وحسن التوكل عليه، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كنت رديف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (٦٤٣).

ولقد حرص النبي ﷺ على تعليم أصحابه كل ما فيه صلاحهم وسعادتهم وأمنهم في الدنيا والآخرة فهو يبشرهم وينذرهم، يبشرهم بكل خير، وينذرهم إذا هم قصرُوا في أوامر الله، إذا هم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا هم خافوا العوز والحاجة: «فوالله

(٦٤٣) سنن الترمذي (كتاب صفة القيامة) رقم الحديث (٢٥١٦) ٤/٦٦٧، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. ومسند الإمام أحمد ١/٢٩٣، ٣٠٣.

ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم» (٦٤٤).

فهو عليه الصلاة والسلام يحذرهم من الركون إلى الدنيا، ومن الحرص على ملذاتها وشهواتها؛ لأن ذلك سيكون مدعاة للعقوبة، ولقد قص القرآن الكريم ما حدث لكثير من الأمم السابقة التي عانته وكذبت ولم تؤمن برسول الله، لتكون قصصهم عظة وعبرة للقلوب المؤمنة، فتدرك أن الراحة والاطمئنان في أمور الحياة كلها، إنما هي في طاعة الله واتباع رسوله ﷺ، وأن الأمن من تلك الكوارث التي حلت بهم لا يكون غلا بقوة الإيمان، وسلامة العقيدة، ومرآة الله دائماً، فالمؤمن يدرك من نصوص كتاب الله وهدى رسوله الكريم ﷺ أن الكوارث تساق للعبرة والعظة والتنبيه للغافلين، ومعاقبة العاصين المعاندين، وأن الخير الذي يصيب الإنسان إنما هو فضل من الله، أما الشر فمما كسبت أيدي الناس: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (٦٤٥).

والمؤمن هو الذي يتعظ ويدرك العبرة، أما غيره فتمر عليه الأحداث كما تمر على الجمادات، فلا توقف فيه حسناً، ولا تتأملها منه بصيرة: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤٦).

والمؤمن حين يتحمل ما ينزل به في نفسه أو ماله أو ولده ويصبر وطمأنينة، يؤجر على ذلك، أما غير المؤمن فإنه يسخط ويجزع، وكل ذلك لا يدفع عنه شيئاً، وإنما يزداد به ألماً نفسياً، ويسخط ربه، وتبقى نازلته عليه.

---

(٦٤٤) صحيح البخاري (كتاب الجزية، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة) رقم الحديث (٢٩٨٨) ١١٥٢/٣، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الزهد والرقاق، باب: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رقم الحديث (٧٣٥١) ٢٩٧/١٨.

(٦٤٥) سورة النساء: آية ٧٩.

(٦٤٦) سورة يونس: آية ١٠١.

فمن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» (٦٤٧).

والمؤمن دائماً بين مخافتين: أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فهو يخشى من عقاب الله ويخاف مكره سبحانه ونقمته.

والمتدبر لكتاب الله سبحانه وتعالى يجده مفعماً بالآيات التي تبين أن من اتعظ واعتبر وسار على منهج الله تعالى وسلك طريق الأنبياء وصدقهم في كل ما أتوا به من ربهم، فإنه يعيش في أمن وطمأنينة، وأن ذلك سبب لدوام تلك السعادة وبقائها، ومن خالف وعصى فإنه في غاية القلق، ولن تستمر تلك العيشة بالنسبة له، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بِيْنَتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٢﴾ أَوَلَمْ يَأْتِ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٣﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٤٨﴾.

وجاء في التفسير القرآني للقرآن عند تعرضه لهذه الآية: (هو تعقيب على ما حلّ بالظالمين من بلاء ونكال...، ثم هو وعيد للمشركين من أهل مكة وما حولها من القرى.

فهؤلاء الذين أخذوا بظلمهم، لو أنهم آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وانقوا محارم الله، وأقاموا شريعته، لكانوا في عافية من أمرهم، وفي سعة من رزقهم، وافتح الله عليهم بركات من السماء التي رمتهم بالصواعق وبركات من الأرض التي زلزلت بهم ورجفت، وفجرت أفواها لابتلاعهم...، أفلا يكون في هؤلاء القوم عبرة لمعتبر، وذكرى لمن يتذكر؟ وماذا تنتظر أم القرى ومن حولها وقد استغلظ فيها الشرك، وعاث فيها المشركون؟

(٦٤٧) صحيح مسلم (كتاب صفات المنافقين) رقم الحديث (٢٨٠٩) ٢١٦٣/٤، ومسند الإمام أحمد ٤٥٠/٢،

وسنن الترمذي (كتاب الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء) رقم الحديث (٢٣٩٩) ٦٠٢/٤ وقال:

هذا حديث حسن صحيح.

(٦٤٨) سورة الأعراف: الآيات ٩٦-٩٩.

والسؤال هنا: هل من مقتضى الإيمان والتقوى أن تفتح على المؤمن التقي بركات من السماء والأرض؟ أو بمعنى آخر: هل المؤمنون الأتقياء هم أكثر الناس رزقاً وأوفر مالاً؟ وكيف والمشاهد أن الذين يجتمع إلى أيديهم الغنى والجاه والسلطان، هم في الغالب الذين لا يؤمنون بالله، أو الذين يؤمنون به ولكن لا يتقونه ولا يوفرونه حرمانه؟

فما تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟

والجواب: أن المؤمن بالله، المتقي لحرمانه، هو أكثر الناس غنى في قلبه، وقناعة في نفسه، ورضاً بقدره...، فالقليل في يد المؤمن التقي هو كثير مبارك فيه، يسد حاجته، ويجلي عن نفسه هموم الدنيا، ويقمه على رضى دائم، واطمئنان متصل، وسلام مقيم مع نفسه، ومع الناس، ومع الوجود كله.

وهذا هو السر في وصف الرزق المنزل من السماء، والنابت من الأرض بالبركة... فهو رزق ممسوس بنفحات البركة التي تجعل القليل كثيراً، ينمو على الإنفاق، كما تنمو النبتة المباركة في الأرض الطيبة.

فالمجتمع المؤمن التقي، مجتمع مثالي في حياته، وما يرفّ عليها من أرواح السلام، والأمن، والاستقرار، حيث لا ظلم، ولا بغي، ولا عدوان، وحيث الناس إخوان على طريق الله، وعلى التناصح والتواصي بالحق والخير.

فأي بركة أعظم من تلك البركة، وأي حياة أطيب وأكرم من هذه الحياة، التي يجتمع فيها الإنسان إلى الإنسان بقلب سليم، ونفس مطمئنة لا يحمل لأحد شراً، ولا يتربص له أحد بسوء؟

فحيث كان الإيمان والتقوى كان الإخاء والأمن، والسلام، والعافية.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ

بَأْسَانُ ضَحَّى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾. إنه نذير للمشركين من أهل مكة ومن حولهم ... إنهم قد أشركوا بالله، وبغوا في الأرض، ولم يكن لهم نظر ينظرون به على ما حل بالبغيظة الظالمين، وهاهو ذا رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله ويمدُّ يده إليهم بالهدى ... وهاهم أولاء يكذبونهن ويسخرون منه، ويأتمرون به، فماذا ينتظرون غير سنة الأولين؟

وفي هذا يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يَنْظُرُهُمْ إِلَّا الصَّيْحَةُ وَجِدَةً مَا لَهُمْ مَفَازٌ﴾ (٦٥٠).

وعلام يعول هؤلاء القوم في تماديهم في الضلال، واطمئنانهم إلى ما هم فيه؟ وعمي بعد عمي، وفتنة بعد فتنة.

وكيف يأمنون مكر الله، ومعالجتهم بالعذاب من حيث لم يحتسبوا؟ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وأي: خسارة أكثر من أن يرى الإنسان نذر الشرك والهلاك مقبلة إليه، ثم يخدع نفسه، ويخيل إليها أن هذه النذر لن تتجه إليه، ولا تنال منه ...، ثم يظل هكذا يرتوي من هذا السراب الخادع حتى تقع به الواقعة، وينزل بساحته البلاء، فلا يجد له مهرباً ...، ولو أنه انتبه لهذا الخطر المشير إليه، وأخذ حذره منه، واتخذ له طريقاً غير هذا المؤدي به إلى مواقع الهلاك والتلف - لو أنه فعل ذلك فلربما سلم ونجا، فإن لم يسلم ولم ينج كان قد أعذر لنفسه وأدى المطلوب منه نحو ذاته.

وفي توقيت العذاب الواقع بهؤلاء الظالمين من أهل القرى ... بالبيات، وهو الليل، وبالضحى وهو ضحوة النهار وشبابه - وفي التوقيت بهذين الوقتين إشارة إلى أن بلاء الله ينزل في أي وقت ... في غفلة من الناس وهم نيام، قد استولى عليهم النعاس، ولفهم الليل بردائه الأسود الكثف، أو في ضحوة النهار - عند الضحى - وقد اكتملت أسباب الحياة، واليقظة للناس، وللحياة من حولهم وعندئذ يشهدون الهلاك عياناً، وهم في أحسن أحوالهم من الاتصال بالحياة، والأخذ بكل قواهم، مما يطلبون ويشتهون منها.

(٦٤٩) سورة الأعراف: الآيات ٩٧-٩٩.

(٦٥٠) سورة ص: الآية ١٥.

وكلا الضربتين من ضربات النقمة والبلاء، تجيء في وقت يجعل أثرها مضاعفًا ووقعها مزعجًا، بالغ الغاية في الإزعاج.

إن النائم الذي استغرق في النعاس لتزعجه الهمسة تطوف به، حتى ليخيل إليه منها أنها صوت رعد قاصف، أو هدير إعصار ثائر ... فكيف إذا كان ذلك بلاءً نازلًا من السماء يرمي بحجارة من سجيل، أو عذابًا فائرًا من الأرض يرمي باللهب، ويقذف بالحمم.

إن الإنسان الذي لبس ثوب النهار، واستروح أنسام الصباح، واستحضر كل وجوده ليتصل بالحياة، وليقيم وجهه على ما يشتهي منها، ويمسك ليكرب أشد الكرب أن يعرض له في تلك الحال ما يقطع عليه حبل اتصاله بالحياة، أو يلفته عن طريقه الذي أخذه معها - فكيف إذا كان ذلك بلاء مدمرًا يهلك الحرث والنسل، ويطوي السهل والوعر، ويأتي على كل ما جمع الجامعون، وملك المالكون.

واستمع مرة أخرى على قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧﴾  
أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ  
الْكَافِرُونَ ﴿١٥١﴾.

وانظر إلى أهل القرى، وهم نائمون ... ثم انظر إليهم وقد جاءتهم الضربة القاضية، فإذا هم بين يديها قيام ينظرون، وكأنهم أصحاب القبور، يوم ينفخ في الصور فيقولون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟

وانظر إلى أهل القرى، وهم في ضحوة النهار يلعبون ... ثم انظر إليهم وقد جاءهم أمر ربك على حين غفلة، فقطع عليهم ما هم فيه من لهو ولعب وقلب بين أيديهم مائدة الحياة وما عليها من أدوات اللعب واللهو!.

وصدق الله العظيم: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ﴾ (٦٥٢) (٦٥٣).

ومن الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع وحثت الناس على الاعتاض والتدبر في أحوالهم وأحوال السابقين، وحذرتهم من استمرار لهوهم وغفلتهم وبعدهم عن الله تعالى، وأن من هذا حاله فإن العقوبة قد تنزل به في أي وقت ولينتظرها في أي حين، من هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٥٤).

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَاهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَخُوفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٥٥).

قال صاحب فتح البيان في تفسيره لهذه الآيات عند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾:

(ذكر المفسرون فيها وجوهاً:

فقليل: المراد في أسفارهم ومتاجرهم، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما

يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض وبعدهم عن الأوطان، والتقلب في الحركة إقبالاً وإدباراً.

وقيل: المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجوه الحيل، فيحول الله بينهم وبين

مقاصدهم وحيلهم.

وقيل: تقلبهم في الليل على فرشهم.

(٦٥٢) سورة هود: آية ١٠٢.

(٦٥٣) التفسر القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب، المجلد الثاني ٤٣٨/٩-٤٤٢ بتصرف.

(٦٥٤) سورة يوسف: آية ١٠٧.

(٦٥٥) سورة النحل: آية ٤٥-٤٧.

وقيل: في حال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار، والتقلب بالمعنى

الأول مأخوذ من قوله: ﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (٦٥٦).

وبالمعنى الثاني من قوله: ﴿وَكَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ (٦٥٧) (٦٥٨).

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿أَفَأَمْتَرُنَّ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا

يَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمْتَرُنَّ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَمَغْرِبَ كُفْرَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ

ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (٦٥٩).

وقوله تعالى: ﴿هَآؤُنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿٦١﴾ أَمْ أَمْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ

يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ (٦١٠).

تتحدث هذه الآيات عن المشركين الذين لم يؤمنوا بالله، وقد جاء رسول كريم يدعوهم

إلى الله، ويحمل بين يديه كتابًا منيرًا، تتطرق كل آية من آياته بمعجزة قاهرة متحدية، فكيف

يبينون على أمن من الله تعالى أن يصيبهم بلاء من عنده أو أن تصيبهم الصواعق من السماء

أو تأخذهم الأرض بالزلزال والخسف لأنهم على عداوة ظاهرة لله، وفي حرب سافرة معه

ومع رسوله ومع أوليائه من المؤمنين به....؟

كما أن القرآن الكريم أخبرنا عن الأمم السابقة وما حصل لهم نتيجة كفرهم وجحودهم،

فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَبْتُمْ أَعْيُنَكُمْ

(٦٥٦) سورة آل عمران: آية ١٩٦.

(٦٥٧) سورة التوبة: آية ٤٨.

(٦٥٨) فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب صديق حسن القنوجي البخاري ٢٤٩/٧.

(٦٥٩) سورة الإسراء: آية ٦٨، ٦٩.

(٦٦٠) سورة الملك: آية ١٦-١٨.

﴿١٦١﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٦٢﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمِهَا هَاضِمٌ ﴿١٦٣﴾ وَتَنَحُّونَ مِنْكَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٦٤﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٦٥﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٦٧﴾.

إلى أن قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٦٧).

كما أن القرآن الكريم يستعمل أسلوباً آخر يعتمد على طريقة الحوار والاستنتاج ثم يأتي في التهديد بعد ذلك لتكون العظة أبلغ والعبرة أشد، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَنَ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١٦٣).

جاء في التفسير المنير: (( أَفَنَ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ )) . أي: هل يستوي من يلقى في النار قسراً وقهراً لإلحاده بالآيات وتكذيبه للرسول ﷺ، ومن يكون آمناً يوم القيامة من العذاب؟ وهذا استفهام بمعنى التقرير، والمراد أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن المؤمنين بها يأتون يوم القيامة (١٦٤)، فاحكموا أيها العقلاء أي الحاليين أفضل؟

﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . اعملوا أي شيء تريدون فعله من خير أو شر، فإن الله عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ومجازيكم بحسب ما تعملون، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذا وعيد وتهديد، وصرف فيه الأمر إلى التهديد (١٦٥).

إلى غير ذلك من الآيات تأمر بالاعتزاز والتدبر، وتهدد العاصين بالعقوبات إن هم استمروا على عصيانهم، فما أقسام العقوبات وما الحكَم منها؟

(١٦١) سورة الشعراء: الآيات ١٤١-١٥٣.

(١٦٢) سورة الشعراء: الآية ١٥٨.

(١٦٣) سورة فصلت: آية ٤٠.

(١٦٤) هكذا جاء في تفسير الزحيلي، والظاهر أن في الكلام سقطاً، والصحيح: (وأن المؤمنين بما يأتون يوم القيامة آمنين). والله أعلم.

(١٦٥) التفسير المنير للأستاذ وهبة الزحيلي ٢٤/٢٤٤.

## أنواع العقوبات والحكمة منها:

حددت الشريعة الإسلامية عقوبات للجناة تتلاءم مع نوع جنائهم وجرمهم، وقد أدرك أعداء الإسلام أثر التعاليم الإسلامية في استتباب الأمن في داخل الفرد وفي المجتمع، وأدركوا أن ذلك خطر على زيف باطلهم وكذب ادعاءاتهم حتى قال بعضهم لو طبق المسلمون تعاليم دينهم وساروا على ذلك عملاً لأغلقت دور الشرطة والسجون، وأصبح المجتمع مثاليًا في أمنه؛ لأن ما فرضته الشريعة الإسلامية على المجرم من عقوبة ستمنعه من ارتكابها؛ ولأن تكافل المجتمع وتأزره سيقضي على الجريمة، ويجعله يعيش عيشة آمنة مطمئنة، والعقوبات التي حددها الشرع الإسلامي نوعان:

١- (عقوبات دنيوية: وهي عقوبات تتلاءم مع الجريمة، فهي تؤلم الجسم وتشعر المجرم بالهانة حيث توجب عليه القتل، أو القطع لعضو من أعضائه أو السجن أو التعزير: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٦٦٦)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا كِتَابًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٦٦٧)</sup>.

٢- عقوبات أخروية: وهي تكون في الآخرة لكنها تذكر في القرآن والسنة للتخويف وتحريك القلوب القاسية واستجاشة ما في أعماقها من فطرة الإيمان بالله الذي له ما في السموات والأرض: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَتْهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾<sup>(٦٦٨)</sup>.

والتهديد هنا رعيب؛ لأنه متعلق بجريمة قتل المسلم لا على سبيل الخطأ بل التعمد،

(٦٦٦) سورة المائدة: آية ٣٣.

(٦٦٧) سورة المائدة: آية ٣٨.

(٦٦٨) سورة النساء: آية ٩٣.

وتلك هي الكبيرة التي لا ترتكب مع الإيمان، والتي لا تكفرها دية ولا عتق وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله بعد أن تنزل السلطة الشرعية بالمجرم القاتل جزاء القصاص في الدنيا<sup>(٦٦٩)</sup>.

وينبغي أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى رؤوف بعباده وهو أرفأ بهم من الأم بولدها، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن أسمائه الحسنی: الرحمن الرحيم، ولاشك أن العدل من صفاته جل وعلا، وإنما شرعت العقوبات لكي تصلح أحوال الناس ومعاشهم، وليحفظ لهم أمنهم ويبقى على كرامتهم وتستقيم به حياتهم في هدوء واطمئنان، ومن هنا يعرف المؤمنون أن العقوبات في الشريعة الإسلامية لها حكم لصالح الفرد والجماعة، تبرز هذه الحكم في العقوبات المفروضة في الإسلام، قوة هذا الدين، مهما كان هذا التعدي؛ إذ أنه لكل ما يسيء للمجتمع أو يضر بالفرد ما يلائمه من الزواجر -كما بينت سابقاً- لكي يشعر المجتمع الإسلامي بقوة السلطة التي جعلها الله لولي الأمر، في ملاحقة المجرمين واستئصاله شأفة المفسدين بما يشفي الصدور، ويؤمن الخائف ويردع من لا وازع له، وبذا يسعد المجتمع بالأمن، ويحيا الأفراد بالقصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(٦٧٠)</sup>.

وبدون ذلك يتحول المجتمع إلى الفوضى يخضع لشريعة الغاب التي تكون دائماً الغلبة فيها للقوة فتنتهك الأعراض وتكثر العصابات، من أجل ذلك شرع الله هذه العقوبات، فهو الذي خلق الخلق، وأعلم بهم وبما تقتضيه مصلحتهم، وتستقيم به حياتهم وأمورهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(٦٧١)</sup>.

وإذا كانت أكثر العقوبات جاءت من جاوز الناس بعضهم على بعض، أو من ظلم الإنسان نفسه، بالاستهانة بالحرمان، فإن في الكفارات عن كثير من الذنوب والمعاصي كالظهار، ومواقعة الزوجة في نهار رمضان، والنذر، والقتل الخطأ، وغير ذلك مما أبانه

(٦٦٩) تطبيق الشريعة طريق الأمن والعزة، للدكتور محمد بن سعد الشويرع ص ٦٧، ٦٩.

(٦٧٠) سورة البقرة: آية ١٧٩.

(٦٧١) سورة الملك: آية ١٤.

كتاب الله تبارك وتعالى، أو شرحته سنة المصطفى ﷺ، دليلاً آخر على صيانة حرمت التشريع وإذاقة النفس ألم التراخي، وتسليم القيادة للشهوات والرغبات.

أيضاً في حرص المسلم على السؤال عن هذه الكفارات، رغبة في إبراء الذمة والحرص على التوبة مما اقترفت النفس، وتنمية القوة الإيمانية بامتثال أوامر الله، وتوعية الآخرين بحسن الاستجابة والقناعة(٦٧٢).

### الحكم من تشريع العقوبات:

**الحكمة الأولى:** وقاية المجتمع بإخافة المجرم، وإذاقته جزاء ما ارتكب من جرم في حق الأفراد والجماعة، وردع كل من تسول له نفسه بإخافة الناس والاعتداء عليهم أو مضايقتهم.

**الحكمة الثانية:** إن العقوبة خزي للمجرم في الدنيا، قد يحمل أثرها في جسمه إن كانت قطعاً لأحد أعضائه، ثم إن المجتمع المسلم مدعو لمشاهدة بعض ما ينزل بالمجرمين من عقاب، وذلك خزي لهم في الدنيا وذلة، وهو شهادة بسوء سلوك استوجبوا لأنفسهم بإزجاجهم للناس وإخافتهم للمجتمع واعتدائهم على حرمت الدين.

**الحكمة الثالثة:** إن في خوف المجرم من ملاحقة السلطة له أو تطبيق الجزاء عليه يقاظاً لقلبه وتحريكاً لشعوره بمراقبة الله، فقد يكون الخوف من الناس والخشية من تأنيب الضمير هما الدافع لمجانبة الإثم، والابتعاد عن المعصية، وقد يلمس من هذا الابتعاد حلاوة وأثراً يتحول مع المحبة الإيمانية، والتطبيق لشرع الله إلى خوف من الله ورغبة في ثوابه.

**الحكمة الرابعة:** إن الحدود الشرعية تتيح الفرصة للتوبة وتجعل للتائب منزلة في المجتمع ما دام قد شعر بفداحة الجرم الذي ارتكبه وشعر بالخزي والمهانة؛ لأنه فرط في جنب الله وخالف أوامره، وخوفه من الله ومن القائمين على شرعه جعله يترك سبيل الإجماع، ويعلن براءته منها قبل أن تطوله وتتمكن منه يد السلطة القائمة بتنفيذ الأحكام، فمثل هؤلاء

يمكن أن يصلح ويصلح غيره ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقَدُّوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦٧٣).

بل إن هؤلاء التائبين قد تسموا بهم توبتهم وصدقهم في هذه التوبة على الدرجة التي يكونون بها أهلاً لمحبة الله لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (٦٧٤).

وليعلم كل البشر أن المجرم من جرأته جبان إذا أدرك ما ينتظره من جزاء عادل، ولكنه شر مخيف، إذا عرف أنه لن يمس بأذى أو أنه سيمكث في السجن والإصلاحية فترة وجيزة يثبت فيها حسن سيرته، وتأدبه مع نظرائه في السجن ليخرج بعد ذلك بأسلوب جديد وعمل منظم يخشى منها على الفرد وعلى المجتمع.

## ثانياً

### إقامة الحدود

تمهيد :

إن الوظيفة العظمى التي خلف الله الخلق لأجلها، هي: عبادته وحده دون سواه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٦٧٥).

والقيام بهذه الوظيفة السامية يتطلب قدرًا كافيًا من الاستقرار والطمأنينة على النفوس والأعراض والأموال التي يتوفر الجو الهادئ، الذي تقرُّ به الخواطر، وتتصرف النفوس إلى عبادة ربها وأداء رسالتها.

(٦٧٣) سورة المائدة: آية ٣٤.

(٦٧٤) سورة المائدة: آية ٢٢٢.

(٦٧٥) سورة الذاريات: الآيات ٥٦-٥٨.

ومن المعلوم أن من اعتنق الإسلام راضيًا مختارًا وجب عليه الرضا بأحكامه والخضوع لكل ما يمليه عليه، حتى يصلح حال الجميع، ويسير الكل على قواعد واحدة وأسس ثابتة مستقرة.

وإن من القواعد الشرعية العامة الاهتمام بشأن مصالح الخليقة المعتبرة في هذه الحياة الدنيا، ولا تتحقق تلك المصالح إلا إذا حفظت الضرورات الخمس، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال، والذي يتأمل الكثير من نصوص الكتاب والسنة يجد فيها العناية الكاملة بحفظ هذه الضرورات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ تَكَلَّمُوا بِمَا حَرَّمَ رَبِّيَ كَمَا حَبَّ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٥١) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالصَّالِحِينَ بِأَقْسَطِ أَسْوَاقِهِمْ إِذَا أَضْمَرْتُمُ الْبَيْعَ بِمَلَكُوتِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ فَذَلِكَ دَرَجَاتٌ يُؤْتِيهَا اللَّهُ لِلَّذِينَ كَانُوا يُصِلُونَ إِلَيْهَا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٢) ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَنَعْنَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٦٦).

وقد شرع الإسلام لكل واحد من هذه الضرورات الخمس أحكامًا تكفل بإيجاده وتكوينه وأحكامًا تكفل بحفظه وصيانته.

جاء في كتاب كلمة الحق في القرآن الكريم: (فالدين هو مجموعة العقائد والعبادات والأحكام والقوانين التي شرعها الله سبحانه لتنظيم علاقة الناس بربهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وقد شرع الإسلام لإيجاده وإقامته إيجاب الإيمان وأحكام القواعد الخمس التي بُني عليها الإسلام، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت ... وأوجب الدعوة إليه، وتأمين الدعوة إليه من الاعتداء عليها وعلى القائميين بها ... وشرع لحفظه وكفالة بقاءه وحمايته من العدوان عليه أحكام

الجهاد لمحاربة من يقف عقبة في سبيل الدعوة إليه، ومن يفتن متدينًا ليرجعه عن دينه، وعقوبة من يرتد عن دينه ....

والنفس: شرع الإسلام لإيجادها الزواج للتوالد والتناسل، وبقاء النوع على أكمل وجوه البقاء، وشرع لحفظها وكفالة حياتها إيجاب تناول ما يقيها من ضروري الطعام والشراب واللباس والسكن، وإيجاب القصاص والدية والكفارة على من يعتدي عليها، وتحريم الإلقاء بها على التهلكة، وإيجاب دفع الضر عنها.

وشرع لحفظ العقل تحريم الخمر وكل مسكر، وعقاب من يشربها أو يتناول أي مخدر.

وشرع لحفظ العرض حد الزاني والزانية، وحد القاذف.

والمال شرع الإسلام لتحصيله وكسبه إيجاب السعي للرزق وإباحة المعاملات والمبادلات والتجارة والمضاربة، وشرع لحفظه حمايته تحريم السرقة، وحد السارق والسارقة، وتحريم الغش والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل (...)(٦٧٧).

ولهذا فقد جاء في حفظ الدين نهيه سبحانه وتعالى عن الشرك به في ربوبيته أو في ألوهيته أو في أسمائه وصفاته.

وجاء في حفظ النفس قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْنِي﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا

أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

ووجه الاستدلال بهذه من ناحيتين:

الناحية الأولى: النهي عن قتل النفس التي حرم الله بغير الحق.

والناحية الثانية: مشروعية قتل النفس التي حرم الله بالحق، فإن قتل النفس بالحق حفظاً للنفس في باب القصاص، وحفظاً للدين في باب الردة، وحفظاً للعرض والنسل في باب الرحم.

وجاء حفظ النسل والعرض في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾. ومن أعظم الفواحش الزنا الذي وصفه الله تعالى بأنه فاحشة.

وجاء حفظ المال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

وأما حفظ العقل فإنه يؤخذ من مجموع التكليف بحفظ الضرورات الأخرى؛ لأن الذي يفسد عقله لا يمكن أن يقوم بحفظ تلك الضرورات كما أمر الله تعالى (١٧٨).

وقد جعل النبي ﷺ الاعتداء على هذه الأمور أعظم الذنوب، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الذنوب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قتل: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حيلة جارك» (١٧٩).

ومما يدل على عنايته ﷺ بهذه الضرورات إهداره دم من اعتدى عليها، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (٦٨٠).

وكذا نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن اعتدى على هذه الضرورات وقت اعتدائه عليها، وهو نفى لكمال الإيمان الواجب، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(٦٧٨) انظر: الإسلام وضرورات الحياة للدكتور عبد الله بن أحمد قادري ص ١٦-١٧ بتصرف.

(٦٧٩) صحيح البخاري (كتاب الديات، باب: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِماً مُتَعَمِّداً﴾. رقم الحديث (٦٤٦٨) ٢٥١٧/٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، كون الشرك أفح الذنوب) رقم الحديث (٢٥٣) ٢٦٦/٢.

(٦٨٠) صحيح البخاري (كتاب الديات، باب: قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾. رقم الحديث (٦٤٨٤) ٢٥٢١/٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم) رقم الحديث (٤٣٥١) ١٦٦/١١.

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبةً يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن» (٦٨١).

وحرصًا على حفظ هذه الضرورات التي لا تستقيم حياة الناس بغيرها، شرع الله الحدود، كمعالم يقف عندها المسلمون حتى يتحقق لهم أمن حياتهم وأخراهم.

وقد أوجب الله تعالى الوقوف عند تلك الحدود وحذر من تعديها، قال تعالى: ﴿وَتَاكُفُّوا رُءُوسَكُمْ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ لِيَلْبِغُوا فِيكُمْ وَيَكْتُمُوا بِالْإِيمَانِ﴾ (٦٨٢). وقال في موضع آخر: ﴿تَاكُفُّوا رُءُوسَكُمْ لِلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ لِيَلْبِغُوا فِيكُمْ وَيَكْتُمُوا بِالْإِيمَانِ﴾ (٦٨٣).

وقد ثبت في السنة الكريمة الثناء على القائم على حدود الله بحفظها، والذم للواقع فيها وسوء عاقبة المتعدي، ومن لم يأخذ على يده من العقلاء، ومن ذلك قوله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا» (٦٨٤).

(وإن الأمة التي تقام فيها حدود الله على مراده ومراد رسوله ﷺ فهي أمة ذات عيشة آمنة مطمئنة على دينها وأعراضها ونفوسها وعقولها وأموالها؛ ذلك لأنها عظمت خالقها

(٦٨١) صحيح البخاري (كتاب الحدود، باب: ما يحذر من الحدود: الزنا وشرب الخمر) رقم الحديث (٦٣٩٠)  
٢٤٨٧/٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: بيان نقص الإيمان بالمعاصي) رقم الحديث (٢٠٠) ٢٣٠/٢.

(٦٨٢) سورة الطلاق: آية ١.

(٦٨٣) سورة البقرة: آية ١٨٧.

(٦٨٤) صحيح البخاري (كتاب الشهادات، باب: القرعة في المشكلات) رقم (٢٥٤٠) ٩٥٤/٢، وسنن الترمذي (كتاب الفتن، باب: ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب) رقم الحديث (٢١٧٣) ٤٧٠/٤.

وبارئها، واحترمت رسولها، بامتنال أمرهما واجتناب نهيهما طوعاً واختياراً ورضاً وتسليماً واغتراباً به واعتزازاً، والعكس بالعكس، فإن أي أمة من الأمم أعرضت عن شرع الله الذي أنتت به أنبيأؤه ورسله، واتخذت حكم الجاهلية بدلاً من الشريعة الإلهية فإنها ستعيش في أحوال متغيرة خطيرة، لا يتحقق لها خير أو صلاح في دنياها أو آخرها، وما ذلك إلا لأنهم استحبوا العمى على العهدي بنبذ أحكام ربهم ورغبتهم عن منهج أنبيأئهم الذين جاءوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وفي سبيله يجاهدون<sup>(٦٨٥)</sup>.

وتتفيذ حدود الله على الوجه الشرعي هي مسؤولية الحاكم المسلم فهو أمين عليها ومسؤول أمام الله تعالى عنها، فمتى بلغه حدٌ من حدود الله وجب عليه تنفيذها بقدر الإمكان دون توانٍ أو تساهل.

ولهذا حرّم الشارع الشفاعة في الحدود بعد بلوغها الإمام أو الحاكم الشرعي، كما في قوله ﷺ: «من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله، فهو مضاد لله في أمره»<sup>(٦٨٦)</sup>.

ولعل قصة المرأة الخزومية التي سرقت<sup>(٦٨٧)</sup>، وحكم رسول الله ﷺ فيها<sup>(٦٨٨)</sup>، خير دليل على هذا.

ومتى التزمت المجتمعات حكم الله وحكم رسوله، ووقفت عند حدود الله امتثالاً وتطبيقاً ورضاً وتسليماً، صلحت حياتهم، واطمأنت نفوسهم، وتحققت لهم فوائد عظيمة في دنياهم وأخراهم.

(٦٨٥) الأفنان الندية شرح السبل السوية لفقهاء السنن المروية، نظم الشيخ حافظ الحكمي، وشرح الشيخ زيد بن محمد هادي المدخلي.

(٦٨٦) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٧٠/٢ في مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأبو داود في السنن (كتاب الأفضية، باب: فيما يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها) رقم الحديث (٣٥٩٧) ٣٠٥/٣.

(٦٨٧) المرأة الخزومية: هي أول سارقة قطعت يدها في الإسلام، واسمها: مرة بنت سفيان بن عبد الأسد منب بني مخزوم. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٠/٦.

(٦٨٨) سبق تفريغ الحديث الدال على هذه القصة ص ٢٥٥.

أما الفوائد الدنيوية: فمنها أنها تعود على الأمة أفرادًا وجماعات بالأمن والطمأنينة، وتحفظ الدماء وتحققها، وتمنع الحياة أن تُهدر، وتصون الأعراض أن تُنتهك، والأموال أن تُضيع أو تُؤكل بالباطل، والعقول أن تختل أو تعتل، والدين أن يتخذ سخرية وهزواً.

وهنا يسود الأمن وتطمئن النفوس وتتصرف إلى العمل المثمر والإنتاج الذي ينشر الرخاء في ربوع الأمة<sup>(٦٨٩)</sup>.

وهذه الفوائد الدنيوية تُدرك بالعيان والمشاهدة، فإننا نرى البلاد التي ينتشر فيها الأمن، يكثر رخاؤها، وتأتيها النعمة من فوقها ومن تحت أرجلها، ويعمم الغيث الغدق من السماء، وينابيع الرزق من باطن الأرض.

على حين أن البلاد التي يشيع فيها الذعر والفرع والاضطراب يقلُّ خيرها وتذهب بركتها وتضيق أرزاقها، وتكثر فيها الأزمات والفتن.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَلَّوْا سَتَقُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾<sup>(٦٩٠)</sup>. وإذا يقول أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٦٩١)</sup>.

أما الفوائد الأخروية: فإن إقامة الحدود تعو على الناس برضوان الله ومثوبته لأنها طاعة وعبادة، وخير ما يتوسل به لرضوان الله ومثوبته هو طاعته وعبادته<sup>(٦٩٢)</sup>.

إن إقامة الحدود خير ومثوبة للحاكم والمحكوم، وللراعي والرعية، فالراعي بإقامة حدود الله يندرج في عموم أول الأصناف السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله،

(٦٨٩) أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ١٦١ بتصرف، مجموعة بحوث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقده جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٣٩٦هـ.

(٦٩٠) سورة الجن: آية ١٦.

(٦٩١) سورة الأعراف: آية ٩٦.

(٦٩٢) أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ١٦٣ بتصرف.

ويحظى أن يكون على منبر من نور يوم القيامة، والرعية بقبولها لحكم الله تعالى تندرج تحت جماعة المؤمنين الذي قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٦٩٣).

وبعد هذه المقدمة عن وجوب إقامة الحدود، وأثر ذلك في حياة الأمة المسلمة في الدنيا والآخرة آتي إلى استطلاع حقيقة هذه الحدود، وذلك من خلال تعريفها وبيان أنواعها.

### تعريف الحدود:

الحدود: جمع حدّ والحدّ في اللغة: المنع، ويطلق على الحاجز بين الشئين، وسميت الحدود بهذا الاسم؛ لأنها تمنع من ارتكاب الأسباب الموجبة لها؛ أو لأن الشارع قد حدّد مقاديرها بشكل لا تجوز الزيادة عليه ولا النقص منه (٦٩٤).

وأما في الاصطلاح: فقد عرّفَت الحدود بتعريفات كثيرة، أظهرها:

أنها: (عقوبات مقدرة، شرعت لصيانة الأنساب، والأعراض، والعقول، والأموال، وتأمين السبل) (٦٩٥).

فـ (عقوبة مقدرة) قيد يخرج به التعزير؛ لأنه غير مقدّر، بل هو متروك للحاكم، ويتم تحديده وفق المصلحة العامة والخاصة.

وبقية التعريف تخرج القصاص، سواء أكان في النفس أم فيما دونها؛ لأنه شرع صيانة لدماء المسلمين.

ولكن هذا التعريف غير جامع لما سأتكلم عليه هنا، حيث لا يدخل فيه حدّ الردة، ولا

(٦٩٣) سورة النور: آية ٥١.

(٦٩٤) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي (١/٢٩٦)، ومختار الصحاح للرازي ص ١٤٢، والنظم المستعذب في شرح غريب المذهب لابن بطال بذيل المذهب في الفقه الشافعي للشيرازي ٢/٢٦٦.

(٦٩٥) النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود للدكتور عبد الله الركيان ١/١٦.

القصاص؛ ولهذا فأرى أن التعريف المختار للحدود:

أنها: عقوبات مقدرة شرعت لحماية النفوس المعصومة، ولصيانة الأنساب والأعراض، وحفظ العقول والأموال، وتأمين السبل.

ولفظ: (المعصومة) قيد يخرج غير المعصومة؛ إذ لا حرمة لها، كالمرتد، والزاني، والنفس بالنفس.

والعقوبة المقدرة لصيانة الأنساب والأعراض: هي حد الزنا والقذف.

والعقوبة المشروعة لحفظ العقول: هي حد شرب الخمر ونحوه من المسكرات.

والعقوبة المقدرة لتأمين السبل: هي حد قطع الطرق والمحاربيين.

### أ: إقامة الحد على المرتد حفظاً لأمن الدين

إن من أجل نعم الله سبحانه وتعالى على أمة محمد ﷺ أن حباهم بدينه القويم، الذي لا يحاة لهم بدونه في الدنيا، ولا نجاه لهم بغيره في الآخرة: ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩٦﴾﴾.

ولقد أكمل الله بدين الإسلام كل الأديان، وخنم بالقرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ كل الكتب، ورضي للناس كلهم هذا الدين، ولم يقبل من أحد منهم ديناً غيره: ﴿حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتَهُ وَالذَّمَّ وَاللَّعْنَةَ وَالْمُنْزِيرَ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخِفَةَ وَالْمَوْفُوذَةَ وَالْمُرْدِيَةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّنْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْقِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٧﴾﴾. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (١٩٨)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ

(٦٩٦) سورة البقرة: الآيات ٣٨، ٣٩.

(٦٩٧) سورة المائدة: آية ٣.

الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٦٩٩﴾.

ولذلك كان حفظ هذا الدين الضرورة الأولى التي لا حياة بدونها للبشر إلا حياة ضئيلة

وشقاء.

ولقد تعددت وسائل حفظ هذا الدين في كتاب الله تعالى، ومن تلك الوسائل (٧٠٠):

١- إن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ كتابه من التغيير والتبديل، ومن تحريف

المبطلين وكيد الكائدين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ ﴾ (٧٠١).

ولأن سنة النبي ﷺ هي المصدر الثاني من مصادر التشريع في هذا الدين، فقد هيا الله

لها علماء الملة من أهل الحديث الذي اعتنوا بتدوينه وحفظ أسانيدده، كما وفق أئمة الأصول

والفقه لتأصيل الأصول واستنباط الأحكام.

٢- إن الله سبحانه وتعالى قد توعد من كتم شيئاً من بيان هذا الدين للناس بأعظم

الوعيد ليبقى الدين معلوماً عند الناس، محفوظاً بالعلم والعمل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ

الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۗ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿٧٠٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٧٠٣﴾.

٣- إن الله سبحانه وتعالى قد أمر كل فرد من أفراد البشر أن يقوم بعبادة ربه التي

فرضها عليه، وتوعد من تواني عنها، أو تعمد تركها بأشد الوعيد، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

(٦٩٨) سورة آل عمران: آية ١٩٩.

(٦٩٩) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(٧٠٠) انظر هذه الوسائل مفصلة مطولة في: الإسلام وضرورات الحياة ص ٥-٩ وقد أخذتها بتصرف.

(٧٠١) سورة الحجر: آية ٩.

(٧٠٢) سورة البقرة: الآيات ١٥٩، ١٦٠.

اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٠٣﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰخِرِينَ﴾ ﴿٧٠٤﴾.

٤- ومن وسائل حفظ هذا الدين تبيين حلاله وحرامه وواجبه ومندوبه ومكروهه، أصوله وفروعه، وقد بين رسول الله ﷺ كل ذلك قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى: ﴿تَأْتِيَا الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿٧٠٥﴾. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٧٠٦﴾.

وتشهد بالله شهادة الحق أنه ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

٥- ومن وسائل حفظ هذا الدين أن فرض الله على الحكام في كل زمان ومكان أن يحكموا بما أنزل الله في كل شيء من حياة البشر، وحكم على من لم يحكم به بالكفر، والظلم والفسق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٧٠٧﴾. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٧٠٨﴾. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٧٠٩﴾.

٦- ومن وسائل حفظ هذا الدين أن فرض الله على القادرين الجهاد في سبيله إعلاءً لكلمة الله، وقمعاً لأعداء الله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

٧٠٣) سورة البقرة: آية ٢١.

٧٠٤) سورة غافر: آية ٦٠.

٧٠٥) سورة المائدة: آية ٦٧.

٧٠٦) سورة النحل: آية ٤٤.

٧٠٧) سورة المائدة: آية ٤٤.

٧٠٨) سورة المائدة: آية ٤٥.

٧٠٩) سورة المائدة: آية ٤٧.

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ  
صَبُورُونَ ﴿٧١٠﴾.

ولاشكَّ في أن في مقدمة من يجب جهادهم وقتالهم وإخضاعهم لحكم الله عز وجل،  
أولئك الذين بدلوا نعمة الله كفراً فارتدوا عن دينهم كلية، أو جحدوا بعض أحكامه وخرجوا  
عن تعاليمه، وسيوضح -إن شاء الله- حال هؤلاء وحكمهم، من خلال هذا المطلب.

### ضابط الردَّة والمرتد:

الردة في اللغة: مأخوذة من الفعل «ردَّ» أي: رجع، والارتداد: يعني الرجوع<sup>(٧١١)</sup>،  
وعلى هذا: المرتد في اللغة: هو الراجع.

وأما في اصطلاح العلماء فإن المرتد: هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر<sup>(٧١٢)</sup> وهذا  
المعنى شامل للرجوع عن دين الإسلام بالكلية، وهو العود إلى الكفر بعد الإيمان، والعياذ بالله.  
كما هو -أيضاً- شامل لاقتراف بعض الأمور المخالفة لحقيقة الدين، ومن ذلك<sup>(٧١٣)</sup>:

١- سبُّ الله تبارك وتعالى، المنعم على خلقه بالنعم الكثيرة، التي من جملتها نعمة  
الدين الذي هداهم إليه بفضلِهِ ورحمته، وأمرهم فيه بتقديرهِ تعالى وتعظيمه، فإذا انحرف مسلم  
فوقع في فاحشة سبِّ الله فقد كفر كفراً صريحاً بهذا الصنيع اللئيم.

٢- سبُّ رسول الله ﷺ، صاحب الرسالة الخالدة والشفاعة العظمى، وصاحب الفضل  
الكبير على كل مسلم لما قام به به من بيان الدين وتبليغ الرسالة.

(٧١٠) سورة التوبة: آية ٢٩.

(٧١١) انظر: القاموس المحيط ٣٠٤/١.

(٧١٢) انظر: المغني لابن قدامة ٢٦٤/١٢، وقواعد الفقه للبركتي ص ٤٧٩.

(٧١٣) انظر هذه الأمور مفصلة في: الأفتان الندية ٦/١١٥-١١٨، وقد أخذتها منه بتصريف شديد.

٣- سبُّ دين الإسلام، فذلك لا يصدر إلا من عدوِّ له، ظاهر العداوة مبتغ غيرِه.

٤- سبُّ كتاب الله، الذي أنزله الله رحمة للناس، ونوراً وهدى، وموعظة وذكرى، ومن وقع في فاحشة سبِّه فقد اشترى الضلال بالهدى، وأيُّ رحمة له بعد ذلك ترجى؟!

٥- الشرك بالله، الذي لا حظ لصاحبه في رحمة الله ومغفرته، ولا نصيب له في نعيم دار كرامته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٧١٤).

٦- تكذيب دين الإسلام ورفضه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٧١٥).

٧- الوقوع في ناقض من نواقض الإسلام، الآتي ذكرها:

أ- الشرك في عبادة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧١٦). ومن ذلك استحلال الحكم بغير ما أنزل الله، والذبح لأصحاب القبور ونحو ذلك.

ب- أن يجعل العبد بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة وقضاء الحاجة.

ج- عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم بعد تبين ذلك.

د- اعتقاد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه.

هـ- بغض شيء مما جاء به الرسول ﷺ ولو مع العمل به.

(٧١٤) سورة النساء: آية ٤٨.

(٧١٥) سورة الزمر: آية ٣٢.

(٧١٦) سورة المائدة: آية ٧٢.

و- الاستهزاء بشيء من دين الله ورسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَا اللَّهُ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْلُدُوا فَاذْكُرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٧١٧﴾.

ز- السحر، ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به فقد كفر. قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (٧١٨).

ح- مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين بأي وسيلة من الوسائل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧١٩).

ط- اعتقاد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ.

ي- الإعراض عن دين الله وعدم تعلمه والعمل به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فُؤَادَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (٧٢٠).

٨- الامتناع عن أداء فرض من فرائض الله المنصوص على فرضيتها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ كالصلاة، أو الزكاة، أو غيرهما من الفرائض الثابتة بالأدلة القطعية، فمن وقع في فاحشة أحد هذه الأمور، راضياً مختاراً فهو مرتدٌّ عن دين الله، ويجب أن ينفذ فيه حكم الله وحكم رسوله ﷺ في المرتدين.

### حكم المرتد وحثُّ الردة:

(٧١٧) سورة التوبة الآيات ٦٥، ٦٦.

(٧١٨) سورة البقرة: آية ١٠٢.

(٧١٩) سورة المائدة: آية ٥١.

(٧٢٠) سورة السجدة: آية ٢٢.

إن من المعلوم من قواعد هذا الدين الإسلامي أن الدخول فيه لا يتم عن طريق الإكراه والإجبار، وإنما يتم عن طريق الرضا والاختيار، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٢١).

ومقتضى هذا الدخول الاختياري في الإسلام أن يصبح المسلم مسؤولاً عن كل تقصير يقع في دينه، وأن يقبل بنفس الرضا والطوعية كل حكم من أحكامه، ومن تلك الأحكام توقيع عقوبة على المرتد، منصوص عليها في كتاب الله تعالى، وفي سنة نبيه ﷺ.

فلقد أثبت القرآن الكريم أن المرتد عن دينه كافر، وقد توعدّه الله تعالى بإحباط عمله، وبالخلود في النار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧٢٢).

كما أثبتت السنة النبوية المطهرة أن دم المرتد عن دينه حلال، وأن قتله واجب، ومن ذلك قوله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (٧٢٣).

وقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» (٧٢٤).

وقد ثبت أن الخليفة الراشد أبا بكر الصديق رضي الله عنه قاتل المرتدين، وقتل منهم من قتل، وقد وافقه على ذلك كل الصحابة رضوان الله عليهم وعاونوه في قتالهم فكان ذلك إجماعاً.

(٧٢١) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٧٢٢) سورة البقرة: آية ٢١٧.

(٧٢٣) سبق تخريج الحديث في بداية هذا المطلب ص ٢٨٥.

(٧٢٤) صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (كتاب استتابة المرتدين، باب: حكم المرتد والمردة) رقم الحديث (٦٥٢٤) ٢٥٣٧/٦، وسنن الترمذي (كتاب الحدود، باب: ما جاء في المرتد) رقم الحديث (١٤٥٨) ٥٩/٤.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (لما توفي النبي ﷺ وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله؟»). فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً<sup>(٧٢٥)</sup> كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق<sup>(٧٢٦)</sup>.

ولا خلاف بين أهل العلم في أن المرتد عن دينه إن كان رجلاً ولم يتب، فإنه يُقتل<sup>(٧٢٧)</sup>، وذلك بعد أن يستتاب ثلاثاً.

وجمهور الفقهاء<sup>(٧٢٨)</sup> -رحمهم الله تعالى- على أن حكم المرأة في هذا كحكم الرجل أي: أنها تستتاب ثلاثاً، فإن تابت وإلا قُتلت.

**ومن أدلتهم:**

١- قوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»<sup>(٧٢٩)</sup>. فالحديث عام يشتمل على عقوبة موحدة لكل من بَدَّلَ دينه، سواء أكان رجلاً أم امرأة.

٢- قوله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس

(٧٢٥) العنّاق: الأنتى من أولاد المعز قبل تمام الحول. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري ٣/٣١١.

(٧٢٦) صحيح البخاري (كتاب الاعتصام، باب: الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ) رقم الحديث (٦٨٥٥) ٦/٢٦٥٧، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله) رقم الحديث (١٢٤) ١/١٥٠.

(٧٢٧) انظر: المغني لابن قدامة ١٢/٢٦٤، ٢٦٥.

(٧٢٨) انظر: المهذب للشيرازي ٢/٢٢٣، والمغني لابن قدامة ١٢/٢٦٥.

(٧٢٩) سبق تخريج الحديث ص.

بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (٧٣٠). فقد جعل ترك الدين ومفارقة الجماعة سبباً يبيح دم فاعله ذكراً كان أم أنثى.

٣- ما جاء: أن امرأة ارتدت عن الإسلام فبلغ أمرها إلى النبي ﷺ فأمرها أن تستتاب، فإن تابت وإلا قُتلت (٧٣١).

٤- ولأنها شخص مكلف بدّل دين الحق بالباطل، فيقتل كالرجل (٧٣٢).

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعن الحسن (٧٣٣)، وقتادة (٧٣٤) رضي الله عنهم: أن المرأة المرتدة تُسْتَرْقُ ولا تُقْتَل.

ودليلهم: ما جاء عن أمير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه من أنه استرق نساء بني حنيفة (٧٣٥) وذرائعهم، وقد كان هذا بمحضر من الصحابة رضوان الله عليهم فلم ينكره أحدٌ

(٧٣٠) سبق تخريج الحديث ص.

(٧٣١) أخرجه الدارقطني في كتاب الحدود والديات وغيره ١١٨/٣، كما أخرجه البيهقي في (كتاب المرتد، باب: قتل من ارتد) السنن الكبرى ٢٠٣/٨.

(٧٣٢) المغني لابن قدامة ٢٦٥/١٢.

(٧٣٣) هو: الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، ويُقال: مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السلمي، ولد بالمدينة لستين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، كان سيد أهل زمانه علماً وأدباً، وكان يُقال له: شيخ البصرة، رأى عثمان، وطلحة والكبار من الصحابة رضي الله عنهم، وروى عن: عمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة وغيرهم، وروى عنه: أيوب، وشيبان النحوي، ويونس بن عبيد وغيرهم، مات في رجب سنة ١١٠هـ وقال ابنه عبد الله: إن أباه عاش ثماناً وثمانين سنة، انظر: سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤، وتهذيب التهذيب ٢٦٣/٢.

(٧٣٤) هو: قتادة بن دعامة بن عزة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن سدوس، أبو الخطاب السدوسي البصري، ولد أكمه، روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن سرجس وأبي الطفيل وغيرهم، ولد سنة ٦١هـ، ومات سنة ١١٧هـ عن سبع وخمسين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥، وتهذيب التهذيب ٣٥١/٨.

(٧٣٥) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٩١/٥.

وبنو حنيفة: ينتمون لحنيفة بن لجم قبيلة من بكر بن وائل العدنانية، تنفرع إلى بطون كثيرة، وكانت تقطن اليمامة ثم تفرقت في كثير من البلدان، وكان بنو حنيفة ورئيسهم مسيلمة الكذاب من أشد العرب شوكة في حروب الردة فهزمهم خالد بن الوليد شر هزيمة، انظر: معجم قبائل العرب ٣١٢/١.

منهم فكان إجماعاً<sup>(٧٣٦)</sup>.

ولعل الصواب ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من القول بقتل المرأة المرتدة - إن لم تتب - هو الأظهر دليلاً، والأقوى حجة، وما استدلوا به يدل على عموم الحكم في قتل كل من بدل دينه دون تفريق بين ذكر وأنثى.

وأما نهي النبي ﷺ عن قتل النساء فالمقصود به المرأة الكافرة الأصلية، أي: التي لم يسبق لها إسلام ثم ارتدت، والله أعلم.

### ب: إقامة حد القصاص حفظاً لأمن النفوس

إن حرمة الإنسان المسلم عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، وعصمة دمه ثابتة بالكتاب والسنة، وإجماع علماء الأمة.

ولا يحل لأحد كائناً من كان أن يسفك دم مسلم أو يجني على بشرته أو عضو من أعضائه إلا إذا ارتكب من الجرائم ما يبيح ذلك منه أو يوجب عليه شرعاً.

وحق الحياة بالنسبة للإنسان أغلى ما يكون، فالحياة هبة إلهية مُنحت للإنسان كي يقوم برسالته على ظهر الأرض، وليؤدي رسالته في الحياة إيماناً وعملاً.

ولهذا حرم الإسلام قتل الغير بغير حق، وتوعد عليه بأشد العقوبات: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾<sup>(٧٣٧)</sup>.

(٧٣٦) المغني لابن قدامة ٢٦٥/١٢.

(٧٣٧) سورة النساء: آية ٩٣.

ولم ينسَ ﷺ في حجة الوداع أن يبينَ عظمَ دم المسلم وحرمة الاعتداء عليه فقال في خطبتهك «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا...» (٧٣٨).

وما ذلك إلا لأن القتل كبيرة من أعظم الكبائر، لما يحصل بها من إزهاق النفوس.

(إنها جريمة إذا ظهرت في مجتمع أو تفتت في بيئة نشرت الرعب والفرع وقضت على الأمن والاستقرار، وأشاعت الإحزن والبغضاء، وقضت على الرابط الإنسانية، ورملت النساء ويئمت الأطفال ... وحين تحدث القرآن عن أول جريمة قتل على ظهر الأرض في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٣٩).... حين تحدث القرآن بهذا النبأ كشف عن طبيعة العدوان الكامنة في النفوس الشريرة، والعدوان الصارخ منها، وكشف عن الجريمة المنكرة التي تثير الضمير الإنساني، والشعور الجارف الحار والحاجة الملحة إلى قصاص عادل يصون حق النفوس.

فمن أجل هذه النماذج الشريرة والعدوان الصارخ على الأبرياء كان قتل النفس الواحدة حين لا يكون قصاص ولا دفاع عنها يمثل قتل جميع الناس؛ لأنها واحدة من نفوس البشر جميعاً، تشترك هي وغيرها في حق الحياة، وقد بين الله تعالى أن القصاص حياة، وهذا هو وجه الحكمة فيه، قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٧٤٠). وذلك ومن وجهين:

**الأول:** أن فيه الحياة بطريقة الزجر، فإن الإنسان الذي يقصد قتل إنسان آخر إذا فكر في عاقبة أمره وما يلحقه من جريمته، وأنه إذا قتله قتل به انزجر عن قتله فكان حياة لهما؛

(٧٣٨) صحيح البخاري (كتاب الحج، باب: الخطبة في أيام منى) رقم الحديث (١٦٥٢) ٦١٩/٢، وصحيح مسلم

بشرح النووي (كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ) رقم الحديث (٢٩٤١) ٤١٢/٨.

(٧٣٩) سورة المائدة: آية ٢٧.

(٧٤٠) سورة البقرة: آية ١٧٩.

لذا فإن الإنسان الذي تحدثه نفسه بهذه الجريمة حين يعلم أن حياته ثمّن لجريمته، أو أنه إذا قطع أو أتلّف عضواً ألحق به مثل ذلك، فلاشك أنه يفكر مرات قبل الإقدام على مثل هذه الجريمة مما يجعله يكفّ عما يريده، فتكون فيه حياة لمن يريد الاعتداء عليه وحياة له.

الثاني: أن في القصاص دفعا لسبب الهلاك، فإن القاتل -بغير حق- يصير حربيا لا هوادة فيها على أولياء القتيل لإحساسه بأنهم يلاحقونه لما ارتكبه، فهو يخشى على نفسه منهم، فيقصد حربهم ويتمنى إفناءهم ليزيل شبح الخوف الذي يلاحقه ويتابعه، والشرع قد مكّنهم من قتله قصاصا لدفع شره عن أنفسهم.

وفي القصاص إطفاء لثورات القلوب المشتعلة بالسخط والكراهية، وقضاء على حزازات النفوس التي يقودها الغضب والحمية إلى ظاهرة النار ذات العواقب الوخيمة، ظاهرة النار التي تحرك أهل القتيل لثمّس كل ذريعة لإرواء أحقادهم، وتحين الفرصة لإهدار الدماء التي لا تقتصر على القاتل وحده أحيانا، بل تسيل الدماء على مذابح الأضغان العائلية.

لهذا كله شرع القصاص فكان فيه حياة بكل ما تتسع له معنى الحياة... (٧٤١).

والقصاص وإن كان إزهاقا لروح هي معصومة في الاصل، إلا أن اعتداء تلك النفس على غيرها ومخالفتها لأمر الشارع أهدر عصمتها وأوجب مجازاتها.

مع أن الجاني على النفس قد استحق العقاب والجزاء بمثل صنيعه إلا أن الشرع لم يترك ذلك الحق دون ضوابط تحكمه وقواعد تحدده، وإنما جعل له قيودا وضوابط لا يتم الحكم به إلا عند توافرها.

وهذه القيود والضوابط هي ما يعرف في الفقه الإسلامي بـ: (شروط وجوب

القصاص)، وهي أربعة (٧٤٢):

الشرط الأول: أن يكون القاتل مكلفاً (بالغاً عاقلًا)، فأماً الصبي والمجنون فلا قصاص عليهما لقوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ» (٧٤٣).

وحكم قتلها حكم الخطأ، لكونهما لا يصح منهما قصد صحيح.

الشرط الثاني: كون المقتول معصوماً؛ وذلك لأن القصاص إنما شرع حفظاً للدماء المعصومة، وزجرًا عن إتلاف النية المطلوب بقاؤها، وذلك معدوم في غير المعصوم، وعليه فلا قصاص ولا دية ولا كفارة بقتل حربي ولا مرتد ولا صائل؛ لأن دماءهم مهجرة.

الشرط الثالث: أن يكون المقتول مكافئًا للقاتل في: الإسلام، والحرية أو الرق؛ لأن المقتول إن لم يكن يكافئ الجاني كان قتله به أخذًا لأكثر من الحق.

ودليل هذا قوله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم» (٧٤٤).

وقوله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر ولا حرّ بعبد» (٧٤٥).

ويقتل الكافر بالمسلم، والعبد بالحر؛ لأنه إذا قتل بمثله فبمن فوقه أولى (٧٤٦).

(٧٤٢) انظر هذه الشروط مفصلة في: بدائع الصنائع للكاساني ٢٣٤/٧، وحاشية العدي ٢٦٣/٢، وما بعدها، والمهذب ١٧٣/٢ وما بعدها، وكشاف القناع ٥٢٠/٥ وما بعدها، والعدة شرح العمدة ص ٤٩٢.

(٧٤٣) سنن الترمذي (كتاب الحدود، باب: فيمن لا يجب عليه الحد) رقم الحديث (١٤٢٣) ٣٢/٤ وقال: (حديث علي حديث حسن غريب من هذا الوجه)، وسنن ابن ماجه (كتاب الطلاق، باب: طلاق المعتوه والصغير والنائم) رقم الحديث (١٦٦٠) ٣٤٧/١ قال الألباني عنه: (صحيح) الإرواء ص ٢٩٧.

(٧٤٤) صحيح البخاري (كتاب الجزية، باب: إثم من عاهد ثم غدر) رقم الحديث (٣٠٠٨) ١١٦٠/٣، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل المدينة) رقم الحديث (٣٣١٤) ١٤٦/٩، وسنن أبي داود (كتاب الديات، باب: إيقاد المسلم بالكافر) رقم الحديث (٤٥٣٠) ١٨٠/٤.

(٧٤٥) صحيح البخاري (كتاب الديات، باب: لا يقتل المسلم بالكافر) رقم الحديث (٦٥١٧) ٢٥٣٤/٦، وسنن أبي داود (كتاب الديات، باب: إيقاد المسلم بالكافر) رقم الحديث (٤٥٣٠) ١٨٠/٤.

**الشرط الرابع:** أن لا يكون القاتل أباً للمقتول، فلا يُقتل والدٌ -أباً كان أو أمّاً- وإن علا بولده وإن سفل؛ لحديث: «لا يقتل والدٌ بولده»<sup>(٧٤٧)</sup>. ولأن الوالد كان سبباً في إيجاد الولد، فلا يكون الولد سبباً في إعدام والده.

وحتى بعد توافر هذه الشروط التي يتوقف عليها وجوب القصاص، فإنه قد تتوافر هذه الشروط ولا يتم تنفيذ القصاص واستيفاؤه؛ وذلك لأن الشرع قد اعتبر -أيضاً- شروطاً أخرى لجواز استيفاء القصاص، وهي<sup>(٧٤٨)</sup>:

١- أن يكون المستحق للقصاص مكلفاً؛ لأن غير المكلف ليس أهلاً للاستيفاء؛ فإذا كان مستحق القصاص صغيراً أو مجنوناً لم يُجزَ لآخر أن يستوفيه عنهما، ويُحبس القاتل حتى يبلغ الصغير ويعقل المجنون.

٢- اتفاق أولياء الدم المستحقين للقصاص على المطالبة به؛ وذلك لأن القصاص حق مشترك لا يُمكن تبعضه فلم يُجزَ لأحد التصرف فيه بغير إذن شريكه، ومتى صدر العفو عن القصاص من أحدهم سقط حق الباقيين في طلب الاستيفاء ويرجع حقهم إلى نصيبهم من الدية.

٣- الأمن عند الاستيفاء من التعدي على غير الجاني؛ لأن القصاص هو المماثلة بين الجنايتين دون تعدٍّ أو تجاوز، عملاً بقوله تعالى: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيتِهِ سُلْطٰنًا فَلَا

(٧٤٦) كشاف القناع ٥/٥٢٤.

(٧٤٧) سنن الترمذي (كتاب الديات، باب: ما جاء في الرجل يقتل ابنه ...). رقم الحديث (١٤٠٠، ١٤٠١) وهو ١٨/٤، ١٩ وقال: (هذا حديث لا نعرفه بهذا الإسناد مرفوعاً إلا من حديث إسماعيل بن مسلم المكي، وهو قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه)، كما أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الديات، باب لا يقتل الوالد بولده) رقم الحديث (٢١٧٧) ١٠١/٢ وقال عنه الألباني: صحيح. إرواء الغليل رقم (٢٢١٤).

(٧٤٨) انظر: كشاف القناع (٥/٥٣٣) مع ملاحظة: أن في تفصيلات شروط وجوب القصاص وشروط استيفائه خلافات بين الفقهاء، ليس المقام مقام بيانها، ومن أراد تفصيلاتها فليرجع على أبواب الجنائيات في كتب الفقه.

يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٧٤٩﴾.

وعلى هذا لو كانت الجانية امرأة حاملاً فإن القصاص يؤخر عنها حتى تضع حملها وحتى تكفل ولدها، حتى لا يحصل التعدي على ولدها وإلحاق الضرر به دون جناية حصلت منه.

ومن خلال النظر في هذه الشروط يظهر جلياً حرص الإسلام على الدماء وإثبات حرمتها، والنهي عن إراقتها إلا بحقها.

ومتى أدرك المسلمون هذه الأمور والتزموا بهذه القيود تحقق لهم الأمن والطمأنينة فتسلم نفوسهم، ويطيب عيشتهم، وتذهب أحقادهم ويصبحون عندها جسداً واحداً، كما وصفهم رسول الله ﷺ.

جاء في كتاب (أثر تطبيق الحدود في المجتمع): (يتبين لنا من دراسة عقوبة الجناية على النفس حرص الشريعة على روح الإنسان الذي ارتكب هذه الجناية عمداً... وحرصها على ألا يستشري الاعتداء، وتسفك الدماء.

أما حرصها على روح الجاني فإنها تتمثل في إنها لم تجعل القصاص حداً يُستوفى دون أخذ رأي ولي الدم، بل جعلته حقاً امتزج فيه حق الله وحق العبد، وحق الله يتمثل في صيانة الأنفس والأرواح عن إزهاقها بغير حق، وذلك لا يكون غلا بتقرير عقوبة رادعة وزاجرة عن ارتكاب مثل هذه الجرائم، وأعدل عقوبة وأنسبها أن يُفعل بالجاني مثل ما فعل بالمجني عليه، حتى تهدأ ثارة ولي الدم، ولا يستشري القتل بين الناس إذا شعروا بعدم عدالة العقوبة.

وأما حق العبد فيتضح من المماثلة المطلوبة عند استيفاء العقوبة ... ومن فتح باب العفو عن القصاص وأخذ الدية ... أو العفو عن الدية أيضاً.

وإنما كان للعبد حق في هذه العقوبة؛ لأن الجناية في الحقيقة والواقع مسّت الإنسان

المجني عليه أولاً قبل أن تمسّ غيره، فإن كانت الجناية على ما دون النفس فحقه واضح، وإن كانت الجناية على النفس فقد مسّت الجناية من يلتصق به -وهم الورثة- فأفقدتهم أحد دعائمها وقوة من قواها، تتناصر به وتتعاطف معه، ويأخذ بيدها وتأخذ بيده ... وفي اعتراف الشريعة بهذا الحق لم تهمل حق الله تعالى؛ بل ظلّ هذا الحق مراقباً لما يفعله العبد بحقه ... فإذا ظهر أن استعمال هذا الحق يؤدي إلى إضرار بالمجتمع -كما لو كان الجاني خطراً على الأمن- ففي هذه الحالة يقتله الإمام حداً لا قصاصاً؛ لأنه محارباً مفسداً في الأرض (...)(٧٥٠).

وأقول: إن أثر إقامة القصاص في حفظ الأمن، أثرٌ واضح جليٌ لكل بصيرة وبمقارنة بسيطة بين حال البلاد المطبّقة لهذا الحكم، وبين غيرها ممن لا يأخون بشرع الله في القصاص تظهر الحقيقة، وتتجلى الصورة المشرقة التي يتجلى في الأمن والرخاء الذي تعيشه البلاد المنفذة لشرع الله في القصاص، وفي غيره، كما هو حال بلادنا المباركة التي جعلت شرع الله نصب أعينها، ونفذت أكام الله كما أراد الله ورسوله، فعاشت والله الحمد عيشة السعداء، ونعمت بالأمن والرخاء.

### ج: إقامة حدّ الزنا والقذف حفظاً لأمن الأعراض

الإسلام دين العزة والكرامة، دين الطهر والعفة، دين صان الأعراض وأمر بحفظها، كما صان الأنفس والأموال ودعا إلى حمايتها والدفاع عنها.

وحماية للأعراض وصيانة لها كفل الإسلام لها حقوقاً شرعية وفق ما أحله الله من علاقات نقية طاهرة تتميز بالثبوت والاستقرار، وتُحكّم بحقوق وواجبات تشرق في ظلها المودّة والرحمة وتنبثق من خلالها المشاعر الإنسانية الوفية ونفى الإسلام عن المجتمع الإسلامي كل رذيلة من الرذائل حتى يكون طاهراً نقيّاً.

والزنا -كما هو معلوم- جريمة من الجرائم التي إذا حلت في مجتمع من المجتمعات

(٧٥٠) أثر تطبيق الحدود في المجتمع للدكتور حسن علي الشاذلي، القسم الأول ص ٩٤-٩٥ بتصرف، والكتاب عبارة عن مجموعة بحوث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٣٩٦هـ.

أتت عليه بالخراب والدمار.

ففيه إفساد للأخلاق، وانتهاك للأعراض، واختلاط للأنساب، وانتشارٌ للأمراض، والأوبئة الفتاكة، ولعلَّ حال المجتمعات الكافرة خير شاهد على هذا، ونظرًا لعظم جريمة الزنا فقد حذر منها القرآن الكريم مبينًا ضررها، محذرًا منها، ومثبًا عقوبتها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٧٥١).

وفي تفسير هذه الآية جاء في التفسير الكبير: (الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد:

**أولها:** اختلاط الأنساب واشتباهاها، فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره؟ فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد.

**وثانيها:** أنه إذا لم يوجد سببٌ شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكما سمعنا وقوع القتال الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا.

**وثالثها:** أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنّت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازواج.

**ورابعها:** أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة ولك رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاعت وأرادت، فلا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب.

**وخامسها:** أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة، بل أن تصير شريكة الرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته ... وأن تكون ربّة البيت وحافظة للباب، وأن تكون قائمة بأمور الأولاد، ... وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل،

وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا.

وسادساً: أن الوطء يوجب الذلَّ الشديد، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألقاب الوقاع، ولولا أن الوطء يوجب الذل لما كان الأمر كذلك.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاث: كونه فاحشة، وكونه مقتاً -في آية أخرى- وكونه ساء سبيلاً<sup>(٧٥٢)</sup>.

أما كونه فاحشة: فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم، وإلى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج، وهذا يوجب خراب العالم.

وأما المقت: فهو أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة، وذلك يوجب عدم حصول السكن وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه.

وأما كونه ساء سبيلاً: فهو ما ذكرنا أنه لا يبق فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث...<sup>(٧٥٣)</sup>.

وقال تعالى -في بيان صفات عباده المؤمنين الصادقين-: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءآخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ<sup>٦</sup> وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا<sup>٧</sup> يُضْعَفُ لَهُ الْمَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَيَّأًا<sup>٨</sup> إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ<sup>٩</sup> وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا<sup>١٠</sup>﴾<sup>(٧٥٤)</sup>.

فقد ذكر الله تعالى الزنا عقب كبيرتين عظيمتين هما: الإشراك بالله، وقتل النفس المعصومة بغير حق، فدل ذلك على أن الزنا يشاركهما في ذلك، وحسب العاقل بهذا زجراً ونهيّاً عن الوقوع فيه.

(٧٥٢) الوصف بـ: (فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً) فلم يرد إلا في نكاح زوجات الآباء بعد موتهم سورة النساء: آية

٣٢، أما الزنا فالذي ورد فيه أنه (فاحشة وساء سبيلاً) سورة الإسراء: آية ٣٢.

(٧٥٣) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ١٩٨/٢٠-١٩٩ بشيء من التصرف.

(٧٥٤) سورة الفرقان: الآيات ٦٨-٧٠.

ومما يؤكد عظم جريمة الزنا وقبحها، واستحقاق فاعلها للناكحل أن الله سبحانه وتعالى قد أمر بإقامة الحد على فاعلها - غير المحصن- (٧٥٥) دون رحمة أو رأفة ولم يأت هذا في أي حد من الحدود سوى الزنا، قال تعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَجْهٍ لَهَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَنهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٥٦).

وفي السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة في تحريم الزنا، ومن ذلك:

ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» (٧٥٧).

#### حد الزنا:

المتتبع لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، ولكلام أهل العلم، يجد أن هناك فرقاً في العقوبة بين الزاني المحصن، والزاني غير المحصن، وبيان ذلك كالآتي:

#### حدُّ الزاني المحصن:

من سمات هذا الدين القويم أن الجزاء فيه يكون على قدر العمل، وأن العقوبة فيه على قدر عظم الجريمة، وإذا كان الامتثال لشرع الله يرفع صاحبه إلى عليين فإن مخالفته والخروج عنه يندى صاحبه إلى أسفل سافلين.

ولهذا نجد أن عقوبة بعض الحدود تصل إلى درجة هدر دم مرتكبها، وإزهاق روحه، والزاني المحصن واحدٌ ممن تكون عقوبتهم هدر كرامتهم وإيابة دمائهم.

(٧٥٥) وهذا حد الزاني والزانية إن كان غير محصنين، فأما المحصنان فلاشك أن عذابهما أشد وأنكى، وسيأتي بيان ذلك قريباً.

(٧٥٦) سورة النور: آية ٢.

(٧٥٧) سبق ترجمته الحديث في مقدمة إقامة الحدود من المبحث الثاني ص ٢٨٥ من هذا المبحث.

## من هو المحصن؟

الإحسان في اللغة مأخوذ من حصن أي: منع، ومنه سمي الحصن حصناً لأنه يحمي من بداخله، والمرأة الحصان: العفيفة أو المتزوجة، ورجلٌ مُحْصَنٌ أي: متزوج وعفيف (٧٥٨).

ويطلق الإحصان على: التزويج، ويطلق على: العفيف والعفيفة، ويطلق على: الحر والحرّة؛ لأن الحرية تمنع مما يتعاطاه العبيد، كما يطلق الإحصان على الإسلام؛ لأنه حافظ ومانع (٧٥٩).

ولكن المراد به في الغالب: الزواج، وليس مجرد العقد، بل العقد مع الدخول الشرعي والمحصن في اصطلاح الفقهاء من توفرت فيه شروط ستة، وهي:

١- الإسلام، فغير المسلم لا يكون محصناً، ومن الفقهاء من لم يرَ الإسلام شرطاً في الإحصان.

٢- العقل.

٣- البلوغ.

وهما شرطاً الأهلية للعقوبة، كما أنهما لازمان في كل جريمة، ويجب توفرهما في المحصن وغير المحصن وقت ارتكاب الجريمة.

٤- الحرية.

٥- النكاح الشرعي الصحيح مع الدخول الحقيقي.

(٧٥٨) انظر: القاموس المحيط ٤/٢١٦.

(٧٥٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/١٢٠، ١٢١.

٦- أن يوجد الكمال فيهما جميعًا حال الوطء<sup>(٧٦٠)</sup>.

ولما كان المفروض في المحصن أن يبتعد عن الوقوع في الفاحشة لوجود ما يعصمه منها، فإن مخالفته لذلك تستدعي أن تشدد عليه

العقوبة بخلاف غير المحصن، ومن هنا كانت عقوبة الزنا بعد الإحصان هي القتل رجماً بالحجارة<sup>(٧٦١)</sup>، باتفاق أهل العلم<sup>(٧٦٢)</sup>.

ودليل هذا ما يلي:

١- حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»<sup>(٧٦٣)</sup>.

٢- ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (إن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأتها وعقلتها ووعيتها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى، فالرجم حق على من زنا إذا أحسن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، وقد قرأتها: «الشيخ والشيخة إذا

(٧٦٠) انظر هذه الشروط في كل من: النظرية العامة لإثبات الحدود ١/٣٣، ٣٤ وأثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٢٥-٢٦.

(٧٦١) ولا يرحم الزاني المحصن ولا الزانية المحصنة إلا إذا ثبت زناهما شرعًا، وذلك إمَّا: باعتراف أربع مرات، أو شهادة أربعة رجال عدول، أو حصول الحمل بالنسبة للمرأة، وهي ليست بذات زوج.

(٧٦٢) انظر: بدائع الصنائع ٧/٣٩ وشرح منح الجليل ٩/٢٦، والمهذب ٢/٢٦٧، والمغني لابن قدامة ١٢/٣٠٩.

(٧٦٣) سبق تخريج الحديث في مقدمة إقامة الحدود من المبحث الثاني ص ٢٨٥ من هذا البحث.

زانيا فارجموها ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم». متفق عليه<sup>(٧٦٤)</sup>.

٣- ما رواه عبادة بن الصامت<sup>(٧٦٥)</sup> رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»<sup>(٧٦٦)</sup>.

فالقتل بالرجم إذن ثابت لا خلاف فيه، وفي الجمع بينه وبين الجلد خلاف وليس المقام مقام بيانه<sup>(٧٦٧)</sup>.

### حدُّ الزاني غير المحصن:

المقصود بالزاني غير المحصن هو من احتل فيه أحد الشروط السابقة التي اشترطت في الإحصان.

والحدُّ الواجب تنفيذه على الزاني غير المحصن -رجلاً كان أو امرأة- هو أن يُجلد مائة جلدة باتفاق أهل العلم.

دليل هذا ما يلي:

---

(٧٦٤) صحيح البخاري (كتاب المحارِبِ من أهل الكفر والردة، باب: رجم الحليلي في الزنا) رقم الحديث (٦٤٤٢) ٢٥٠٣/٦-٢٥٠٤، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: رجم الثيب في الزنا) رقم الحديث (٤٣٩٤) ١١/١١-١٩٢.

(٧٦٥) هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس الأنصاري الخزرجي، ولد سنة ٣٨ قبل الهجرة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وروى عن النبي ﷺ كثيراً من الأحاديث، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، ومات بالرملة سنة ٣٤هـ -رحمه الله. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر ٢/٢٦٨ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/١٦٠.

(٧٦٦) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: حد الزنا) رقم الحديث (٤٣٩٠) ١١/١٨٩، وسنن الترمذي (كتاب الحدود، باب: ما جاء في الرجم على الثيب) رقم الحديث (١٤٣٤) ٤/٤١.

(٧٦٧) انظر: في بيان هذه المسألة: بدائع الصنائع ٧/٣٩، وشرح النووي على صحيح مسلم ١١/١٨٩، والمغني لابن قدامة ١٢/٣١٣ وما بعدها.

١- قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيَّهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٦٨).

٢- قوله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» (٧٦٩).

وكما يلاحظ، فإن الحدَّ الواجب على الزاني غير المحصن -مع شدته وإيلامه للنفوس العزيزة- إذا قرون بالحد الواجب على المحصن، كان خفيفاً.

وعلة هذا التخفيف على البكر هي نفسها علة التشديد على الزاني المحصن (٧٧٠)، ذلك أن الشريعة الإسلامية تقوم على الفضيلة، وتحرص على الأخلاق والأعراض والأنساب من التلوث والاختلاط، وتوجب على الإنسان أن يجاهد شهوته ولا يقضيها غلا في حلال وهو الزواج.

كما توجب عليه إذا استطاع الباءة أن يتزوج حتى يحمي نفسه من الفتنة، فإذا لم يتزوج وغلبته الشهوة على عقله وعزيمته فعقابه أن يجلد مائة جلدة، ويغرب سنة، وشفيعه في هذه العقوبة الخفيفة تأخيره في الزواج الذي أدى به إلى الجريمة، أما تزوج وأحسن ثم أتى الجريمة فعقوبته الجلد والجرم؛ لأن الإحصان يسدُّ الباب على الجريمة، ويبعث في النفس الزكيَّة قناعة بالحلال.

ولهذا قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحسن للفرج...» (٧٧١).

ولا خلاف بين أهل العلم في أن الزاني غير المحصن يجلد مائة جلدة، ذكراً كان أم

(٧٦٨) سورة النور: آية ٢.

(٧٦٩) سبق تخريج الحديث آنفاً ص.

(٧٧٠) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي لـ عبد القادر عودة ٣٨٣/٢.

(٧٧١) صحيح البخاري (كتاب النكاح، باب: قول النبي ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج») رقم الحديث

(٤٧٧٨) (١٩٥٠/٥)، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت

نفسه إليه ووجد مؤنة...) رقم الحديث (٣٣٨٤) ١٧٥/١٠.

أنثى.

وأما التعريب: فالصحيح من أقوال أهل العلم<sup>(٧٧٢)</sup> أنه يُنفى من موطنه الذي يعيش فيه إلى مكان آخر غريب عليه، لا يقل بُعْده عن مسافة القصر، وذلك لمدة عام كامل، هذا بالنسبة للذكر.

وأما بالنسبة للمرأة فحكمها كذلك إلا أن يحول حائل دون تعريبها، كعدم وجود المحرم المنطوع، وكالخشية عليها من الفتنة عندما تتغرب بمفردها<sup>(٧٧٣)</sup>.

وليس الزنا وحده هو الجريمة الوحيدة التي تنتهك بها الأعراس وتُدنّس، وإنما هناك جريمة أخرى لا تقل خطورة وفداحة عن جريمة الزنا، ألا وهي جريمة القذف، التي عدّها رسول الله ﷺ واحدة من السبع الموبقات.

والقذف هو: رمي المسلم بفعل الفاحشة واتهامه بها.

وهو من الجرائم التي ترتكب اعتداءً على الأعراس، فمن قذف رجلاً محصناً أو امرأة محصنة طولب بإثبات ذلك بالبينة عن طريق شهود أربعة، وإلا أُقيم عليه حدُّ القذف، وهو جلده ثمانين جلدة، وسقوط شهادته، فهما عقوبتان اثنتان لا عقوبة واحدة.

فالأولى وهي الجلد عقوبة بدنية مادية توقع على جسده، والثانية: وهي إسقاط شهادته عقوبة معنوية أدبية توقع على كرامته<sup>(٧٧٤)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَالْجِدَّ لَهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٧٧٥)</sup>.

(٧٧٢) انظر: المهذب ٢/٢٧٢، والمغني لابن قدامة ١٢/٣٢٢.

(٧٧٣) الأفتان الندية ٦/٢٥-٢٦.

(٧٧٤) الامن في الإسلام ص ٧٧ للدكتور أحمد عمر هاشم.

(٧٧٥) سورة النور: الآيتان ٤، ٥.

وللقاذف من الوعيد الشديد ما يستحق مما قرره الإسلام في الكتاب والسنة، فالذين يقدفون المحصنات الغافلات يتركبون أكبر الكبائر وتحلُّ عليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم (٧٧٦).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٧٦﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧٧﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٧٧٧﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧٨﴾.

وهكذا حذر رسول الله ﷺ من قذف المحصنات المؤمنات الغافلات، واعتبر الإقدام عليه إقدامًا على واحدة من السبع الموبقات المهلكات.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف،

(٧٧٦) الأمن في الإسلام ص ٧٧.

(٧٧٧) سورة النور: الآيات ٢٣-٢٥.

(٧٧٨) سورة النور: آية ١٩.

وقد أجمع أهل العلم على وجوب الحدِّ على قذف المحصنِ إذا كان ذلك القاذف مكلفاً ولم يأت بأربعة شهداء يشهدون على حقيقة اتهامه.

وحد القذف ثمانون جلدة بنص القرآن والسنة، وإجماع علماء الأمة، وغير خافٍ على كل عاقل تلك الأضرار والأخطار التي تهدد المجتمعات التي انتشر فيها انتهاك الأعراض بالزنا حقيقة، أو بالوقوع فيها بالقذف والاتهامات الكاذبة، فكم من أسرٍ سعيدة ذهبت ضحية تهمة كاذبة، وكم من أطفال صغار ضاعوا نتيجة مؤامرة حيكّت من ضعاف النفوس.

ولهذا فإن الاهتمام الكامل والعناية الأكيدة بتطبيق حكم الشرع في كل من ينتهك أعراض المسلمين -قولاً أو فعلاً- يوفرُ للمجتمع المسلم رعاية فائقة وحصانة تامة من كل تشرُّدٍ وضياح، وتفكُّكٍ وخلل.

وهذه حقيقة واضحة، وواقع ملموس نشهده في مجتمع الإسلام الذي طبق حدود الله، فنعم أبناؤه بكل خير، وعاشوا في أمن وطمأنينة، وهناء وسعادة، لم يكن لهم ليحققوها بكل أموال الدنيا، لو أنهم فرطوا في حدود الله ولم يغاروا على محارم الله.

جاء في كتاب «أثر تطبيق الحدود في المجتمع»: (أراد الله سبحانه وتعالى للمجتمع الإسلامي أن يكون نقيّاً من الأدران بعيداً عن قلة السوء، وعن فُحش أقول، حتى تنتشر المحبة بين الناس، وتتآلف القلوب ويسعد المجتمع ... ولذلك اقتضت حكمة التشريع أن يضع عقوبة لمتجاوزي الحد، المنتهكي حرمة الغير الملصقين به بعض المثالب، إلا أن القدر في الغير منه ما يكون محدود الأثر، ومنه ما يكون بالغ الأثر، أو بعبارة أخرى: منه ما يمس الفرد بالمهانة، ومنه ما يمس الجماعة ويخدش تكوينها ويخلل تماسكها، وهو القذف بالزنا.

(٧٧٩) صحيح البخاري (كتاب الحارين ...، باب: رمي المحصنات) رقم الحديث (٦٤٦٥) ٦/٢٥١٥، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها) رقم الحديث (٢٥٨) ٢/٢٧٣.

ولاشك أن الثاني أجلُّ خطراً وأبعد أثراً؛ ولذلك وضع المشرع الحكيم عقوبة رادعة لمن يقذف إنساناً بالزنا، ولم يستطع إثبات ما قاله ... حتى تظلّ الأعراض نقيّة، والأسر متماسكة، بعيدة عن تهجم المتهورين، وتقول الفسقة الفاجرين، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين.

إن هذا النوع من العقوبة هو الحارس على أعراض الناس من أن تُمسّ زوراً، والحارس على أسنة الناس من أن تنطق فحشاً، والحارس على المستوى الأخلاقي في المجتمع الإسلامي، حتى ينهج الناس في حياتهم وصلاتهم وعلاقاتهم، في رضاهم وسخطهم، في هدوتهم وفورتهم، منهجاً معتدلاً، يرضى عنه الله، ويرضى عنه رسوله، ويصبح خليقاً بأن يكون مسلماً.

ومن هذا يتبين لنا الحكمة في شرعية هذه العقوبة والهدف من ورائها، والمصلحة التي تعود على المجتمع أفراداً وجماعات من تطبيق حدود الله.

إن الجبين يندى حينما ينتشر في بعض البلاد الإسلامية السبُّ والشتم استهانة بالآخرين، أو على طريق التفكّه ...، إن مسلك هؤلاء دخيل على مجتمعنا، دخيلٌ على عاداتنا وتقاليدنا ... إن المجتمعات الصالحة لا تصل إلى صلاحها بالتمني ولكنها تصل بالتربية الدائبة، والتوجيه الدائم، والمراقبة الدقيقة، لكل ما يجري في داخل المجتمع، جنباً إلى جنب مع تنفيذ أحكام الله تعالى في كل المجالات<sup>(٧٨٠)</sup>.

نعم: إن التربية الصالحة المستمدة من شرع الله، والاهتمام الجاد بتنفيذ حدود الله، والمراقبة الدائمة لله، بكل هذه السبل -يعون الله- كفيلة بحماية المجتمع المسلم وصيانتة، وتحقيق أسباب الأمن والسلامة لكل فئاته.

## د: إقامة حد الشرب حفظاً للعقول

العقل نعمة من الله أعظم نعم الله تعالى على عباده، وقد ميزهم به عن الحيوانات بما

أودع فيه من قدرة الحكم على الأمور واستخلاص النتائج، والتفكر في مخلوقات الله تعالى الكونية للاستدلال بها على عظمته سبحانه وتعالى.

ولقد أكثر الله تعالى من ذكر العقل أو ما يدل عليه، كالقلوب، والأفئدة، أو ما هو من صفاته كالتفكير، للدلالة على ضرورته، وأنه هو الأداة التي يستفيد بها الإنسان من فضل الله سبحانه وتعالى الذي منحه أهل الأرض<sup>(٧٨١)</sup>.

ولهذا كان التكليف مشروطاً بأمرين<sup>(٧٨٢)</sup>: أحدهما: العلم بالتكليف، وثانيهما: القدرة على الفعل، والعلم بالتكليف لا يدركه إلا عاقل، وأما فاقد العقل كالمجنون ونحوه فلا يتحقق له ذلك لضياح الأداة الموصلة إليه؛ ولهذا كان المجنون أحد الثلاثة الذين رُفِعَ القلم عنهم، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ»<sup>(٧٨٣)</sup>.

وإذا كان العقل نعمة من الله سبحانه وتعالى، فإن الواجب على كل مسلم أن يحفظ هذه النعمة، وأن يصونها من كل ما يضرها، وأن يحميها من كل ما يفسدها.

### مفسدات العقل نوعان:

أحدها: مفسدات معنوية، وذلك عن طريق غزو العقل وتشبيعه بأفكار وحقائق تخالف المنهج الإسلامي الحق، وهو ما يسمى في هذا العصر بـ (الغزو الفكري).

وثانيهما: مفسدات محسوسة، وهي كل ما يُذهِبُ العقل أو ينقصه، من أنواع المسكرات، والمخدرات، وعلى رأس كل ذلك: أم الخبائث، وهي الخمر. وهذا النوع الثاني هو المقصود من هذا المطلب.

(٧٨١) انظر: الإسلام وضرورات الحياة للدكتور عبد الله بن أحمد قادري ص ١٠٧، ١١٤ بتصرف شديد.

(٧٨٢) انظر: المرجع السابق ص ١١١ بتصرف.

(٧٨٣) الحديث سبق تخريجه في ص ٣٠٦ من هذه الرسالة.

ولقد كان الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية، ومن التقاليد والعادات المتغلغلة في المجتمع الجاهلي، وكانت كل هذه المفاصد حزمة واحدة ذات ارتباط عميق في مزاولتها، وفي كونها من سمات ذات المجتمع وتقاليد.

فلقد كانوا يشربون الخمر في إسراف وبتفاخرون بها، ويتسابقون إلى مجالسها وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح، وهكذا كانت التقاليد والعادات الاجتماعية متشابكة، وتجري وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية الغائرة في النفوس المستندة إلى أصول فاسدة.

ولهذا بدأ الإسلام بمعالجة العقيدة لاجتثاث التصور الجاهلي من جذوره، وإقامة التصور الإسلامي الصحيح بين الناس، وحين عرفوا الإله الحق واستقرت هذه المعرفة في قرارة نفوسهم أصبحوا طوع كل أمر أو نهي يصدر لهم من قبل هذا الإله الواحد، وظلّ رسول الله ﷺ مدة جوده في مكة المكرمة يحارب الشرك ويعرّف الناس بربهم، حتى امتلأت نفوسهم بنور الإيمان.

ثم بدأت مرحلة التكاليف من عبادات ومعاملات وغيرها، ولم يكن تحريم الخمر أمراً مفاجئاً، بل كان أمر تحريمها على مراحل متعددة.

#### مراحل تحريم الخمر (٧٨٤):

**المرحلة الأولى:** وكانت هذه المرحلة عند نزول قول الله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخَذَوْنَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨٥).

وفي تفسيره هذه الآية يقول ابن عباس: (إن السكر الخمر، والرزق الحسن ما أحله الله

(٧٨٤) انظر هذه المراحل مفصلة في: الخمر في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة للدكتور فكري أحمد عكاز ص ٥٠-٦٤ وقد أخذتها منه بتصريف شديد.

(٧٨٥) سورة النحل: آية ٦٧.

بعدها منهذه الثمرات)(٧٨٦).

ومن هذا يتبين أن الخمر أمرٌ غير حسن في ذاته؛ لأنه قوبل بما هو حسن، والمقابل للحسن غير حسن.

**المرحلة الثانية:** وكانت هذه المرحلة حين نزلت هذه الآية في سورة البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (٧٨٧).

وفي هذه الآية إيحاء بأن تركهما هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع (٧٨٨)، كما أن أحكام الشرع والعقل تقتضي أن كل شيء تكون مضرته أكبر من نفعه فهو محرم.

**المرحلة الثالثة:** وهي تحريم الخمر في أكثر الوقت ليسهل تحريمها بعد ذلك في كل الأوقات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (٧٨٩).

وبهذه الآية كان على المؤمنين الامتناع عن شرب الخمر عند قرب أوقات الصلاة حتى لا يصلي وهو سكران لا يعلم ما يقول، وهذا يقتضي منه الامتناع عن الخمر كلَّ النهار، وجزءاً من الليل، وذلك نظراً لتقارب أوقات الصلوات، وفي هذا كسرٌ لعادة الإيمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي.

**المرحلة الرابعة:** وقد جاءت هذه المرحلة بعد تهيئة النفوس، لتحصل الطاعة الفورية والإذعان التام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ

(٧٨٦) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٥٣/٣. وانظر: كذلك التفسير الكبير للفخر الرازي ٦٨/٢٠.

(٧٨٧) سورة البقرة: آية ٢١٩.

(٧٨٨) للعلماء في تحديد المقصود بالنفع أقوال، منها: أنه ربح التجارة وهو الأظهر، ومنها: أنه السرور واللذة التي يعقبها الضياع والندامة. انظر: تدابير الأمن ص ٣٧، ٣٨.

(٧٨٩) سورة النساء: آية ٤٣.

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٧٩٠﴾.

ولم يحتج الأمر بعد نزول هذه الآيات إلى أكثر من منادٍ في نوادي المدينة بتحريم الخمر، حتى شُقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه، وانتهى الأمر كأن لم يكن سكرًا ولا خمرًا.

وبهذا التوجيه الحكيم اقتلع الإسلام أخطر بذور الشر من حياة الناس، وبيّن الأضرار الجسيمة والأخطار العظيمة التي يريد الشيطان ذبوعها وانتشارها بين أفراد المجتمعات لتحصدهم حصداً، وهي: ذبوع العداوة، وذبوع البغضاء - وهما آفتان مدمرتان لكيان المجتمع وقوته - وصدّ الناس عن ذكر الله مطلقاً وإعراضهم عن الصلاة.

ولا خير في مجتمع يحقد فيه كل عضو على أخيه ويتخذة عدواً له (٧٩١).

ونظراً لخطورة الخمر، وعظيم أضرارها، وسوء نتائجها، فإنه لا غرابة أن تتطافر نصوص الكتاب والسنة على النهي عنها، وتوعد صاحبها بالعقوبة الأليمة الرادعة في الدنيا والآخرة.

فمن نصوص الكتاب قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ثَأْيِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي

الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٧٩٢﴾.

(٧٩٠) سورة المائدة: الآيتان ٩٠، ٩١.

(٧٩١) تدابير الأمن في الإسلام للدكتور عبد العظيم المطعني ص ٣٧-٣٨ بتصرف.

(٧٩٢) سورة المائدة: الآيتان ٩٠، ٩١.

ومن نصوص النسبة قوله ﷺ: «كل شراب أسكر فهو حرام» (٧٩٣).

وقوله ﷺ: «لعن الله الخمر وشاربها وساقبها وبتاعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه» (٧٩٤).

وهكذا انعقد إجماع الأمة على تحريم الخمر، وعلى أن من استحلها فقد كذب الله ورسوله؛ لأنه علم من جهة النقل تحريمها، فيكفر بذلك ويستتاب فإن تاب وإلا قتل (٧٩٥).

### أضرار الخمر وأخطارها:

لا يجد العاقل المنصف أدنى صعوبة في التعرف على أضرار الخمر وأخطارها فهي واضحة لكل ذي بصيرة، والناظر في حال شاربيها في المجتمعات الكافرة - بل وفي بعض المجتمعات المسلمة - يجد تلك الأضرار بارزة في كل نواحي الحياة ديناً وخلقاً وأمناً، وصحة.

ولذا فإن الله عز وجل لمَّا ذكر عباده المخلصين الذين استثناهم من تذوق العذاب الأليم، وصور لهم النعيم الذي سيتقبلون في أعطافه في الدار الآخرة، كان من ضمن ما يتنعمون به أن يطاف عليهم بخمر لذة للشاربين؛ لأنها منقاة من الغول المجلب للصداع المنغص المكدر لصفاء النفوس والمذهب لراحة البال، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿١١﴾ فَوَاكُهُمْ وَهُمْ يُمَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَذَوَّقُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ لَدُنْهِ لِيَشْرَبُوا مِنْهَا ﴿١٥﴾﴾ (٧٩٦).

(٧٩٣) صحيح البخاري (كتاب الأشربة، باب: الخمر من العسر وهو البتع) رقم الحديث (٥٢٦٣) ٥/٢١٢١،  
صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الأشربة، باب: بيان أن كل مسكرٍ خمر ...) رقم الحديث (٥١٧٩) ١٣/١٧٠.

(٧٩٤) سنن أبي داود واللفظ له (كتاب الأشربة، باب: العنب يعصر للخمر) رقم الحديث (٢٦٧٤) ٣/٣٢٦،  
وسنن ابن ماجه (كتاب الأشربة، باب: لعنت الخمر على عشرة أوجه) رقم الحديث (٢٧٢٥) ٢/٢٤٣،  
وقال الألباني: (صحيح) إرواء الغليل رقم (١٥٢٩).

(٧٩٥) انظر: المغني لابن قدامة ١٢/٤٩٣-٤٩٤.

(٧٩٦) سورة الصافات: الآيات ٤١-٤٧.

وفيما يلي بيان بعض الأضرار الناجمة عن إدمان الخمر والعكوف عليها<sup>(٧٩٧)</sup>:

١- ضعف الدين عند متعاطي الخمر، حيث تضيع جل فرائضه وهو عاكف عليها غير شاعر بواجبه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾<sup>(٧٩٨)</sup>.

٢٠ إذهاب الصحة وإتلاف الجسم، وتعرضه للأمراض القاتلة والأوبئة الفتاكة، فقد ثبت علمياً أن الخمر تضعف الجسم وتوهنه، وتفتك بالأعصاب، وتتسبب في تليّف الكبد وفي ضعف القلب والجهاز الهضمي، كما تقل القدرة على الإنجاب.

٣- ومن الناحية العقلية ثبت علمياً أنها تؤدي إلى الجنون في كثير الأحوال، علاوة على إضعافها لقوة التركيز، وعمق التفكير.

٤- ومن الناحية المالية ثبت أن شرب الخمر يورث الأنايية المجحفة التي تدفع شاربها إلى الاستزادة منها، فينتف لذلك كل ما يملك، بل وأعرّ ما يملك، ولو على حساب زوجته وأولاده، فتضيع أسرته ويهلكها الفقر والتشرّد.

٥- ومن الناحية الاجتماعية ثبت أن الواقع تحت سلطانها يسهل قياده إلى الشرور وإخضاعه لما يُراد به، ولو أدى ذلك إلى الإضرار بنفسه وأهله ووطنه.

٦- وفيما يتعلق بموضوعنا فإن أثر الخمر في ضياع الأمن أمرٌ يعلمه كل من شاهد السكارى وتصرفاتهم، ولو كانوا عند سكرهم من أرجح الناس عقلاً واتزاناً.

ولعل في قراءة قصة قتل حمزة بن عبد المطلب<sup>(٧٩٩)</sup> - رضي الله عنه - ناقتي على بن

(٧٩٧) انظر أضرار الخمر مفصلة في كل من: الخمر في الفقه الإسلامي للدكتور فكري أحمد عكاز ص ١٤٤ إلى ص ١٧٤، وأثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٦٨، ٦٩، والإسلام وضرورات الحياة ص ١٢٠-١٢٨.

(٧٩٨) سورة المائدة: آية ٩١.

(٧٩٩) هو: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، أبو يعلى، وقيل: أبو عمار، كني بابنيه يعلى وعمار، وأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف، بن زهرة، وهي ابنة عم أمّة بنت وهب أم النبي ﷺ، وهو عم

أبي طالب - رضي الله عنه - لعلَّ في قراءة هذه القصة عبرة ودلالة على مدى إخلال الخمر بأمن الناس على أنفسهم وأولهم.

وهذه القصة يرويها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فيقول: (كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارقاً من الخمس يومئذ، فلما أردتُ أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ وأعدتُ رجلاً صواغاً من بني قينقاع<sup>(٨٠٠)</sup> يرتحل معي فنأتى بإذخر أردتُ أن أبيعهُ من الصواغين فأستعين به في وليمة عرسي، فبينما أنا أجمع لشارفِي متاعاً من الأقتاب<sup>(٨٠١)</sup> والغرائر<sup>(٨٠٢)</sup> والحبال وشارفاي مناختان إلى جنب حُجْرَةِ رجل من الأنصار، وجمعتُ حين جمعتُ فغذا شارفاي قد اجتبت أسنمتها وبقرت خواصرهما وأخذ من أكبادهما، فلما أملك عيني حين رأيت ذلك المنظر منهما، قلتُ من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت في شرب من الأنصار، غنَّتهُ قينةٌ وأصحابه فقالت في غنائها: ألا يا حمزُ للشرف النواء<sup>(٨٠٣)</sup>، فقام حمزة بالسيف فاجتبت أسنمتها وبقر خواصرهما، فأخذ من أكبادهما، فقال علي: فانطلقت حتى أدخل

---

الرسول ﷺ وأخوه من الرضاة، وهو أسن من الرسول ﷺ بستين، وقيل: أربع، وهو سيد الشهداء، أسلم في السنة الثانية من المبعث، هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا، وأبلى فيها بلاءً حسنًا عظيمًا مشهورًا، وشهد أحدًا فاستشهد فيها، وكان قتل من المشركين قبل أن يستشهد واحدًا وثلاثين نفسًا. انظر: أسد الغابة ٥١/٢، وسير أعلام النبلاء ١٧١/١، والأعلام ٣١٠/٢.

(٨٠٠) بني قينقاع، هم: من قبائل اليهود الذين كانوا حول المدينة، وكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد، وقد حذرهم رسول الله ﷺ من أن يتزل بهم مثل ما نزل بقريش، فقالوا له: لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم ما أصبت، إنا والله لئن حاربتنا تعلمنَّ أنا نحن الناس، ففزاهم ﷺ في شوال السنة الثانية من الهجرة وحاصرهم خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ. انظر: تاريخ الطبري ٤٨/٢، ٤٩.

(٨٠١) الأقتاب، هي: التي توضع على ظهور الإبل للحمولة عليها، انظر: غريب الحديث لابن الجوزي ٢٨١/٢.

(٨٠٢) الغرائر والغرر: محرمة القرية ملأها. انظر: القاموس المحيط فصل الفين، باب: الرء ١٠٤/٢.

(٨٠٣) النواء: أي: السمان المسنَّة.

على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة<sup>(٨٠٤)</sup>، قال: فعرف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقت، فقال رسول الله ﷺ: «مالك». قلت: يا رسول الله، والله ما رأيت كالיום قط، عدا حمزة على ناقتي فاجتنب أسنمتها وبقر خواصرهما، وهاهو ذا في بيت معه شرب، قال: فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه ثم انطلق يمشي واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء الباب الذي فيه حمزة فاستأذن، فأذنوا له فإذا هم شرب، فطفق رسول الله ﷺ يوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة محمرة عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ ثم صعد النظر إلى ركبتيه، ثم صعد النظر فنظر إلى سرتة، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه فقال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي، فعرف رسول الله ﷺ أنه ثملٌ فنكص رسول الله ﷺ على عقبه القهقري، وخرج وخرجنا معه<sup>(٨٠٥)</sup>.

انظر ماذا فعلت الخمرة بحمزة، أسد الله، وعم رسول الله ﷺ ورضي الله عنه، كيف اعتدى على مال ابن أخيه الذي كان في أمس الحاجة إليه، وكيف خاطب رسول الله ﷺ ومن معه بقوله: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ وكان من المحتمل أن يعتدي وهو في تلك الحال على رسول الله ﷺ وأصحابه كما اعتدى على الشارفين، لو أن رسول الله ﷺ استمر في عتابه، ولكنه عندما رآه على ذلك الحال تركه ونكص على عقبه.

ولقد سماها عثمان بن عفان رضي الله عنه أم الخبائث، وذكر قصة تدلُّ على خطرها وسوقها من كان من المتقربين إلى الله بطاعته إلى معاصي الله من كبائر الذنوب، قال رضي الله عنه: (اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ ممن خلا بقلكم يتعبد فعلقته امرأة

(٨٠٤) هو: زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر، وكان يدعى زيد بن محمد، وهو أشهر موالي رسول الله ﷺ وهو حبه أصابه سبأ في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعتمته خديجة بنت خويلد وهو ابن ثمان سنين فوهبته للرسول ﷺ فأعتقه وتبناه ولم ذكر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن باسمه غلا زيد، وقد استشهد في مؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة. انظر: أسد الغابة ٢/٢٨١، وسير أعلام النبلاء ١/٢٢٠، والأعلام ٩٦/٣.

(٨٠٥) صحيح البخاري (كتاب الجهاد، أبواب الخمس، باب: فرض) رقم الحديث (٢٩٢٥) ٣/١١٢٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الأشربة، باب: تحريم الخمر) رقم الحديث (٥١٠١) ١٣/١٤٥.

أغوته، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنها تدعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيفة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله، ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تشرب من هذه الخمرة كأسًا، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأسًا فسقته كأسًا، قال زيدوني، فلم يرم<sup>(٨٠٦)</sup> حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإيمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه<sup>(٨٠٧)</sup>.

وإن ما يشاهده المرء من السكارى وتصرفاتهم أمرٌ لا خفاء به، وبخاصة في البلدان التي لا ينتهي بعض سكانها من شرب كاس إلا ليتناول أخرى، فإن بعض الأحياء في بعض مدن الغرب الكبرى لا يجرؤ الإنسان على دخولها وحده في النهار، أما في الليل فهي مأوى لهلاك من دخل شوارعها واختلط بسكانها من غير أهلها.

### عقوبة شارب الخمر:

نظرًا لعظم الجريمة التي يرتكبها شارب الخمر، من جنابة على نفسه وعقله، ومن جنابة في الغالب على غيره من أفراد المجتمع، ودرءًا للمفاسد التي تنجم عن ذلك، نجد أن عقوبة الشرب قد وردت مغلظة شديدة ليحصل بها الزجر والرّدع.

وقد اشترط الفقهاء عدة شروط لتوقيع العقوبة على شارب الخمر، وكل تلك الشروط

(٨٠٦) يرم: أي: لم يبرح.

(٨٠٧) الأثر أورده النسائي في (باب: ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر) من (كتاب الأشربة). انظر: سنن

النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي المجلد الرابع ٣١٥/٨.

تثبت عدالة الإسلام، ورحمة الشرع، ومن ذلك<sup>(٨٠٨)</sup>:

- ١- اشتراط التكليف (وهو البلوغ والعقل) فلا عقوبة على صبي أو مجنون أو معتوه.
  - ٢- شرب الخمر اختياراً مع الذكر، فلا عقوبة على مكره أو ناس.
  - ٣- العلم بالتحريم -عند جمهور الفقهاء- فلا عقوبة على جاهل بالحكم كمن أسلم في بلد الكفر.
  - ٤- ثبوت ذلك عليه شرعاً بإقرار أو بيّنة أو علامة واضحة كرائحة ونحوها. ومتى توافرت هذه الشروط كان الشارب معها مستحقاً لإيقاع العقوبة عليه.
- والإجماع منعقد على وجوب عقاب مرتكب جريمة الشرب إلا أن الخلاف حاصل في نوع ذلك العقاب، أهو حدٌّ أم تعزير؟
- كما أن القائلين بأنه حدٌّ حصل الخلاف بينهم في مقداره، أهو أربعون جلدة، أم ثمانون جلدة؟ وعلى هذا يمكن القول إن في تحديد عقوبة شرب الخمر أقوالاً ثلاثة<sup>(٨٠٩)</sup>:

**القول الأول:** أن عقوبة أو حد شارب الخمر أربعون سوطاً، وهذا مذهب الإمام الشافعي<sup>(٨١٠)</sup>، وهو رواية في المذهب الحنبلي<sup>(٨١١)</sup>.

**ومن أدلتهم:**

(٨٠٨) انظر: تلك الشروط مفصلة في: النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود للدكتور عبد الله الركيان ٤٣/١، والخمر في الفقه الإسلامي ص ٨١ وما بعدها.

(٨٠٩) ومنهم من جعلها أربعة أقوال: رابعها قتل الشارب في المرة الرابعة. انظر: الخمر في الفقه الإسلامي (ص ٨١).

(٨١٠) انظر: المهذب في فقه الإمام الشافعي، للشيرازي ٢٨٧/٢.

(٨١١) انظر: المعني لابن قدامة ٤٩٩/١٢.

١- ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ جلد في الخمر بالجريد والنعال، وجلد أبو بكر رضي الله أربعين. متفق عليه<sup>(٨١٢)</sup>.

٢- ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (جلد رسول الله ﷺ أربعين، وعمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إلي)<sup>(٨١٣)</sup>.

**القول الثاني:** إن حد الشرب ثمانون إن كان الشارب حرًا، وأربعون إن كان رقيقًا، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة<sup>(٨١٤)</sup>، ومالك<sup>(٨١٥)</sup>، وهو قول للشافعي<sup>(٨١٦)</sup>، ورواية في المذهب الحنبلي<sup>(٨١٧)</sup>.

### ومن أدلتهم:

١- ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدين نحو أربعين، قال: وفعله أبو بكر، فلما كان عمر استشار الناس، فقال عبد الرحمن بن عوف: أخف الحدود ثمانون، فأمر به عمر<sup>(٨١٨)</sup>....

(٨١٢) صحيح البخاري (كتاب الحدود، باب: الضرب بالجريد والنعال) رقم الحديث (٦٣٩٤) ٢٤٨٨/٦،

وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: حد الخمر) رقم الحديث (٤٤٢٩) ٢١٤/١١.

(٨١٣) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: حد الخمر) رقم الحديث (٤٤٣٢) ٢١٦/١١، وسنن

أبي داود (كتاب الحدود، باب: الحد في الخمر) رقم الحديث (٤٤٨١) ١٦٤/٤.

(٨١٤) انظر: الهداية شرح بداية المبتدئ للمرغيناني ١١١/٢.

(٨١٥) انظر: التفریح لابن الجلاب البصري، تحقیق الدكتور حسین سالم الدهمان ٢٢٦/٢.

(٨١٦) انظر: المهذب للشيرازي ٢٨٨/٢.

(٨١٧) انظر: المغني لابن قدامة ٤٩٨/١٢.

(٨١٨) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود) رقم الحديث (٤٤٢٧) ٢١٣/١١، وسنن الترمذي (كتاب

الحدود، باب: ما جاء في حد السكران) رقم الحديث (١٤٤٣) ٤٨٠/٤.

٢- ما جاء في الموطأ: أن عمر استشار في الخمر يشربها الرجل، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (نرى أن نجلده ثمانين، فإنه إذا شرب سكرًا، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افتري، وعلى المفتري ثمانون)<sup>(٨١٩)</sup>.

**القول الثالث:** إن عقوبة شارب الخمر تعزيرية، وليس فيها حد معين، وذهب إلى هذا بعض أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين<sup>(٨٢٠)</sup>.

### ومن أدلتهم:

ما جاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: (ما كنت أقيم على أحد حدًا فيموت فيه فأجد منه في نفسي إلا صاحب الخمر، فإنه إن مات وديته؛ لأن رسول الله ﷺ لم يسنه)<sup>(٨٢١)</sup>. أي: لم يسن فيه عددًا معينًا.

كما استدلوا بروايات ذكرت عن الرسول ﷺ ولم يبين فيها تحديد عقوبة من تناول الخمر.

### المناقشة والترجيح<sup>(٨٢٢)</sup>:

من خلال هذه الأقوال الثلاثة وأدلتها، يظهر لي - والله أعلم - رجحان القول الأول وذلك لأن الأحاديث الواردة في عقوبة الشارب تدلُّ على أن النبي ﷺ كان يجلد الشارب

(٨١٩) موطأ الإمام مالك ((المنتقى)) (كتاب الأشربة، باب: الحد في الخمر) ٣/١٤٣، وسنن الدارقطني (كتاب الحدود والديات وغيره) ٣/١٥٧، السنن الكبرى للبيهقي (كتاب الأشربة والحد فيها، باب: ما جاء في عدد حد الخمر) ٨/٣٢٠.

(٨٢٠) انظر: الخمر في الفقه الإسلامي (ص ١٣٢).

(٨٢١) صحيح البخاري (كتاب الحدود، باب: الضرب بالجريد والنعال) رقم الحديث (٦٣٩٦) ٦/٢٤٨٨، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: حد الخمر) رقم الحديث (٤٤٣٣) ١١/٢١٨.

(٨٢٢) هذه لمناقشة والترجيح مستفادة من النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود ١/٤٦، ٤٧، والخمر في الفقه الإسلامي ص ١٣٧ وما بعدها.

أربعين أو ما يقاربها، وإيجاب الثمانين قياسًا على حد القذف لا يصح؛ إذ لا مدخل للقياس في إثبات الحدود.

وأما ما روي عن الصحابة من جلد الشارب ثمانين فهو محمول على أن الزيادة عن الأربعين كانت تعزيرًا لا حدًا.

وأما القول بأن عقوبة شارب الخمر تعزيرًا لا حدًا، فغير صحيح؛ لأن الأساس الذي اعتمدوا عليه في تأييد رأيهم هو عدم ذكر بعض الروايات لمقدار عقوبة الشارب، والجواب عن هذا: بأنه إن كانت بعض الروايات لم يذكر فيها مقدار العقوبة، فإنه قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك روايات أخرى قد ثبت فيها مقدار هذه العقوبة، ولو كانت هذه العقوبة تعزيرًا محضًا لجاز ضرب الشارب أقل من الأربعين، وهذا لم يقل به أحد.

وإذا ترجَّح أن حد الشارب أربعون جلدًا، فإنه لا مانع أن يزيد الحاكم عليها ويكون الزائد من باب التعزير، سواء أكانت الزيادة جلدًا، أو توبيخًا، أو عزلاً عن العمل، أو غير ذلك.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه ضرب في الخمر بالجريد والنعال أربعين، وضرب أبو بكر رضي الله عنه أربعين، وضرب عمر في خلافته ثمانين، وكان علي رضي الله عنه يضرب مرة أربعين ومرة ثمانين، فمن العلماء من يقول: يجب ضرب الثمانين، ومنهم من يقول: الواجب أربعون، والزيادة يفعلها الإمام عند الحاجة، إذا أذعن الناس الخمر، أو كان الشارب ممن لا يرتدع بدونها، ونحو ذلك.

فأما من قلة الشاربين وقرب أمر الشارع فتكفي الأربعون، وهذا أوجه القولين وهو قول الشافعي وأحمد -رحمهما الله- في إحدى الروايتين عن أحمد.

وقد كان عمر رضي الله عنه لما كثرت الشرب زاد فيه النفي، وحلق الرأس مبالغة في الزجر عنه، فلو عزَّر الشارب مع الأربعين بقطع خبزه أو عزله عن ولايته كان حسنًا<sup>(٨٢٣)</sup>.

أقول: وإدراكًا من حكومتنا الرشيدة -وفقا الله- لأضرار الخمر ومخاطرها وما يترتب

على تناولها أو ترويجها من إزهاق الأرواح، وذهاب العقول وضياح الأمن، فقد وجه خادم الحرمين الشريفين بعرض هذا الموضوع على مجلس هيئة كبار العلماء لدراسته بصفة عاجلة، وقد أصدر مجلس هيئة كبار العلماء في ذلك القرار التالي:

(فإن مجلس هيئة كبار العلماء في دورته التاسعة والعشرين المنعقدة بمدينة الرياض بتاريخ ١٤٠٧/٦/٩هـ وحتى ١٤٠٧/٦/٢٠هـ قد اطلع على برقية خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - حفظه الله - ذات الرقم س/٨٠٣٣ وتاريخ ١٤٠٧/٦/١١هـ، والتي جاء فيها: (نظرًا لما للمخدرات من آثار سيئة، وحيث لاحظنا كثرة انتشارها في الآونة الأخيرة؛ ولأن المصلحة العامة تقتضي إيجاد عقوبة رادعة لمن يقوم بنشرها وإشاعتها، سواء عن طريق التهريب أو الترويج ... نرغب إليكم عرض الموضوع على مجلس هيئة كبار العلماء بصفة عاجلة موافقتنا بما يتقرر).

وقد درس المجلس الموضوع وناقشه من جميع جوانبه في أكثر من جلسة. وبعد المناقشة والتداول في الرأي واستعراض نتائج انتشار هذا الوباء الخبيث القتل تهربيًا وإتجارًا وترويجًا واستعمالًا، المتمثلة في الآثار السيئة على نفوس متعاطيها وحملها إياهم على ارتكاب جرائم الفتك وحوادث السيارات والجري وراء أوهام تؤدي إلى ذلك، وما تسببه من إيجاد طبقة من المجرمين شأنهم العدوان وطبيعتهم الشراسة وانتهاك الحرمات وتجاوز الأنظمة وإشاعة الفوضى، لما تؤدي بمتعاطيها من حالة من المرح والتهيج واعتقاد أنه قادر على كل شيء، فضلًا عن اتجاهه إلى اختراع أفكار وهمية تحمله على ارتكاب الجريمة، كما ان لها آثارًا ضارة بالصحة العامة، وقد تؤدي إلى الخلل في العقل والجنون نسأل الله العافية والسلامة؛ لهذا كله فإن المجلس يقرر بالإجماع ما يلي:

أولاً: بالنسبة لمهربي المخدرات فإن عقوبته القتل لما يسببه تهريب المخدرات وإدخالها البلاد من فساد عظيم لا يقتصر على المهرب نفسه، وأضرار جسيمة وأخطار بليغة على الأمة بمجموعها، ويلحق بالمهرب الشخص الذي يستورد أو يتلقى المخدرات من الخارج فيموت بها المروجين.

ثانيًا: أما بالنسبة لمروج المخدرات فإن عقوبته بشأنه في قراره رقم (٨٥) وتاريخ

١١/١١/١٤٠١هـ. كافي في الموضوع، ونصه كما يلي: (الثاني: مَنْ يروجها سواء كان ذلك بطريق التصنيع أو الاستيراد بيعاً وشراءً أو إهداءً ونحو ذلك من ضروب إشاعتها ونشرها، فإن كان ذلك للمرة الأولى فيعزر تعزيراً بليغاً بالحبس أو الجلد أو الغرامة أو بها جميعاً حسبما يقتضيه النظر القضائي، وإن تكرر منه ذلك فيعزر بما يقطع شره عن المجتمع ولو كان ذلك بالقتل؛ لأنه بفعله هذا يعتبر من المفسدين في الأرض، وممن تأصل الإجرام في نفوسهم، وقد قرر المحققون من أهل العلم أن القتل ضرب من التعزير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: (ومن لم يندفع فساده في الأرض إلا بالقتل قتل مثل قتل المفارق لجماعة المسلمين الداعي للبدع في الدين).

إلى أن قال: (وأمر النبي ﷺ بقتل رجل تعدد الكذب عليه، وسئل عن من لم ينته عن شرب الخمر، فقال: «من لم ينته عنها فاقتلوه». وفي موضع آخر قال: -رحمه الله- في تحليل القتل تعزيراً ما نصه: (وهذا لأن المفسد كالصائل، وإذا لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتل). اهـ.

ثالثاً: يرى المجلس أنه لا بد قبل إيقاع أي من تلك العقوبات المشار إليها في فقرتي (أولاً، وثانياً) من هذا القرار، من استكمال الإجراءات الثبوتية اللازمة من جهة المحاكم الشرعية وهيئات التمييز ومجالس القضاء الأعلى براءة للذمة واحتياطاً للأنفس.

رابعاً: لا بد من إعلان هذه العقوبات عن طريق وسائل الإعلام قبل تنفيذها إعداراً وإنذاراً. هذا وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم. هيئة كبار العلماء (٨٢٤).

### هـ: إقامة حد السرقة حفظاً لأمن الأموال

إن المال في الأصل هو مال الله سبحانه وتعالى، والإنسان مستخلف فيه على سبيل الامتحان والابتلاء له، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ (٨٢٥). ويقول أيضاً: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ﴾ (٨٢٦). ويقول أيضاً: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ

(٨٢٤) مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢١ ص ٣٥٥-٣٥٧.

(٨٢٥) سورة النور: آية ٣٣.

(٨٢٦) سورة الحديد: آية ٧.

وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٨٢٧﴾.

وقد حدد الإسلام الأوجه المشروعة التي يجب أن يُكتسب منها المال، وكما حدد - أيضاً- المصارف المشروعة التي ينبغي إنفاقه فيها، دون تبذير وإسراف، ودون إمساك وتفتير، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٨٢٨). وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٨٢٩).

وكما حرم الإسلام دم المسلم وعرضه، حرّم ماله، ونهى عن الاعتداء عليه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ (٨٣٠). فقد بيّنت الآية أن أموال الغير لا يحلُّ أكلها إلا في حالة واحدة وهي حالة التجارة القائمة على التراضي.

ويقرر هذا المعنى قوله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» (٨٣١).

وقوله أيضاً: «لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» (٨٣٢).

ومن هنا فالأساس الذي بنى عليه تداول الأموال هو التراضي وطيب النفس، وهما أعلى قمّة الإرادة، فإذا طابت نفس الإنسان بإعطاء الغير شيئاً من ماله بعوض أو بدونه حلَّ له أخذه والانتفاع به، وإن لم تطب نفسه لم يحصل له شيء من ذلك.

(٨٢٧) سورة الأنفال: آية ٢٨.

(٨٢٨) سورة الإسراء: آية ٢٩.

(٨٢٩) سورة الفرقان: آية ٦٧.

(٨٣٠) سورة النساء: آية ٢٩.

(٨٣١) سنن الترمذي (كتاب البر، باب: ما جاء في شفقة المسلم على المسلم) رقم الحديث (١٩٢٧) ٣٢٥/٤ قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن غريب)، وسنن ابن ماجه (كتاب الفتن، باب: حرمة دم المؤمن وماله) رقم (٣١٧٧) ٣٤٩/٢ قال عنه الألباني: صحيح.

(٨٣٢) روى من طرق كثيرة، ومنها عن طريق الحارث الأشعري عند أبي يعلى ١٤٠/٣ رقم الحديث (١٥٧١) وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو متكلم فيه.

وهذه القاعدة، وهذا الأساس الذي وضعه المشرع الحكيم تضبط به الأمور، ويأمن المال وينمو ويزداد، ويعود خيره على الجميع؛ لأن حياتهم لا تقوم إلا به.

ولذلك أوجب المشرع الحكيم احترام هذا الأساس وأوجب الالتزام به، وشدد العقوبة على من يخلُّ به، أو يسلك طريقاً غير الطرق التي شرعها الله لكسب المال، ولأخذ مال الغير دون وجه حق عدة طرق، وكل طريق

تختلف عن الأخرى في أثارها على المجتمع؛ ولذلك نجد العقوبة تختلف باختلاف تلك الطرق.

فأخذ مال الغير قد يكون خفية وتلصصاً، وقد يكون بالمكابرة والمغالبة والإرهاب، وقد يكون غضباً، وقد يكون اختلاساً وخيانة<sup>(٨٣٣)</sup>.

والذي يهمنا هنا هو الطريق الأول، وهو أخذ المال عن طريق التخفي والتلصص، وهو المعروف بالسرقة.

### تعريف السرقة:

السرقة في اللغة: مأخوذة من الاستراق وهو التخفي، ومنه قولهم: استرق فلان السمع، أي: استمع ما يُقال بحيث لا يراه المتكلمون<sup>(٨٣٤)</sup>.

وفي الشرع: وردت للسرقة تعريفات كثيرة، أختارُ منها: أخذ المكلف المختار نصاباً من مال محترم لمعصوم من حرز مثله، لا شبهة له فيه، على وجه الاختفاء<sup>(٨٣٥)</sup>.

### حكم السرقة:

السرقة محرمة شرعاً، ودليل تحريمها: الكتاب، والسنة، والإجماع.

(٨٣٣) أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٤١-٤٢ بتصرف.

(٨٣٤) انظر: مختار الصحاح ص ٣١٨.

(٨٣٥) النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود ٤٨/١.

فأما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٨٣٦).

وأما السنة: فمنها قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «لعن الله السارق يسرق الحبل فتقطع يده، ويسرق البيضة فتقطع يده» (٨٣٧).

ومنها: ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع اليد في رفع دينار فصاعداً» (٨٣٨).

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على وجوب قطع السارق في الجملة (٨٣٩).

### شروط السرقة الموجبة للحد:

اشتراط العلماء لإقامة حد القطع على السارق جملة من الشروط، توسع فيها بعضهم، واختصرها آخرون، كما أن بعضها محلّ وفاق، وبعضها حصل فيه الاختلاف، ومن تلك الشروط (٨٤٠):

١- أن يكون السارق مكلفاً، فإن كان صبيّاً أو مجنوناً فلا تقطع لعدم التكليف.

٢- أن يكون السارق مختاراً، فلا قطع على مكره أو مضطر، لعدم قوله تعالى:

(٨٣٦) سورة المائدة: آية ٣٨.

(٨٣٧) صحيح البخاري (كتاب الحدود، باب: لعن السارق إذا لم يسم) رقم الحديث (٦٤٠١) ٢٤٨٩/٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: حد السرقة ونصاها) رقم الحديث (٤٣٨٤) ١٨٦/١١.

(٨٣٨) صحيح البخاري (كتاب الحدود، باب: قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ رقم الحديث (٦٤٠٧) ٢٤٩٢/٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: حد السرقة ونصاها) رقم الحديث (٤٣٧٤) ١٨١/١١.

(٨٣٩) المعني لابن قدامة ٤١٥/١٢.

(٨٤٠) انظر هذه الشروط مفصلة في كل من: المعني لابن قدامة ٤١٦/١٢ وما بعدها، والنظرية العامة لإثبات

موجبات الحدود ٤٩/١-٥٤، وأثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٤٦-٥٣.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ غَيْرَ بَيْعٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٨٤١)</sup>. كما لا قطع في زمن مجاعة.

٣- علم السارق بتحريم السرقة، فإن كان جاهلاً فلا قطع عليه بشرط أن يكون مثله يجهل الأحكام كحديث العهد بالإسلام.

٤- أن يكون المسروق مالاً محترماً له قيمة في نظر الشرع.

٥- أن يكون المسروق نصاباً، فإن كان أقل من النصاب فلا قطع، ومقدار النصاب محل خلاف بين العلماء<sup>(٨٤٢)</sup>، ولعل الأظهر أن المقدار يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، حسب المستوى المعيشي للسكان وتوفر العملة أو عدم توفرها ونحو ذلك.

٦- أن يكون المسروق ملكاً لغير السارق وقت السرقة، فإن كان مملوكاً للسارق فلا قطع، كما لو سرق ما رهنه عند غيره.

٧- ألا تكون للسارق شبهة في المال المسروق، فإن كانت له شبهة فلا قطع ولم يتفق الفقهاء على ما يمكن اعتباره شبهة، وما لا يمكن.

٨- أن يكون الأخذ من حرز، وهو مكان الحفظ المعتاد لكل مال بحسبه.

#### حد السرقة:

أجمع المسلمون على أن عقوبة السرقة قطع يد السارق اليمنى، وهذا المرة الأولى، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٨٤٣)</sup>.

ووجه تخصيص اليد اليمنى بالقطع فعل رسول الله ﷺ، وقراءة ابن مسعود: (فاقطعوا

(٨٤١) سورة البقرة: آية ١٧٣.

(٨٤٢) انظر: المغني لابن قدامة ٤١٨/١٢.

(٨٤٣) سورة المائدة: ٣٨..

أيمانها<sup>(٨٤٤)</sup>؛ ولأن حاجة الإنسان ليمينه أشد من حاجته إلى يساره، ويكون قطع اليد من الكوع، على الرأي المختار.

ويقطع بأسهل ما يمكن القطع به؛ لأن الغرض زجره لا تعذيبه، وتتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع نزيف دمه حتى لا يؤدي ذلك إلى هلاكه.

فإذا تكررت السرقة من ذلك الشخص مرة ثانية قُطعتُ رجله اليسرى من مفصل القدم، فإن سرق ثالثة حُبس حتى يتوب أو يموت على الرأي المختار<sup>(٨٤٥)</sup>، حين يرى الإمام مالك<sup>(٨٤٦)</sup>، والإمام الشافعي<sup>(٨٤٧)</sup> قطع اليد اليسرى في المرة الثالثة، والرجل اليمنى في المرة الرابعة.

وقد استدلوا بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السارق: «إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله، ثم إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله»<sup>(٨٤٨)</sup>.

واستدلوا كذلك بما رواه جابر رضي الله عنه قال: (جيء إلى النبي ﷺ بسارق فقال: «اقطعوه». قال: فقالوا: يا رسول الله، إنما سرق. فقال: «اقطعوه». قال: فقطع ثم جيء به الثانية، فقال: «اقتلوه». قالوا: يا رسول الله، إنما سرق. قال: «اقطعوه». قال: فقطع، ثم جيء به الثالثة فقال: «اقتلوه». قالوا: يا رسول الله، إنما سرق، قال: «اقطعوه». قال: ثم أتى به الرابعة، فقال: «اقتلوه». قالوا: يا رسول الله، إنما سرق، قال: «اقطعوه». ثم أتى به

(٨٤٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/١٦٧.

(٨٤٥) وهو رأي الحنفية، والرواية الراجحة في المذهب الحنبلي، وبه قال علي بن أبي طالب، والحسن، والشعبي، والنخعي، والزهري، وغيرهم. انظر: الهداية شرح بداية المبتدئ للمرغيناني ٢/١٢٦، والمغني لابن قدامة ٤٤٦/١٢.

(٨٤٦) انظر: التفريع لابن الجلاب ٢/٢٢٨، تحقيق الدكتور حسين بن سالم الدهماني..

(٨٤٧) المهذب للشيرازي ٢/٢٨٤.

(٨٤٨) أخرجه الدارقطني في (كتاب الحدود والديات) وغيره. سنن الدارقطني (٣/١٨١).

الخامسة، قال: «اقتلوه». قال: فانطلقنا به فقتلناه، ثم احتررناه فألقيناه في بئر<sup>(٨٤٩)</sup>.

وأما الرأي المختار - وهو قطع يده اليمنى في الأولى، ورجله اليسرى في الثانية، وحسبه في الثالثة حتى التوبة أو الموت - فالأدلة عليه كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾<sup>(٨٥٠)</sup>. فالمراد بالأيدي الأيمان

لقراءة ابن مسعود: «فاقطعوا أيمانهما».

٢- ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتى برجل مقطوع اليد والرجل قد سرق، فقال لأصحابه: ما ترون في هذا؟ قالوا: اقطعه يا أمير المؤمنين، قال: قتلته إذن، وما عليه القتل، بأي شيء يأكل الطعام؟، بأي شيء يتوضأ للصلاة؟، بأي شيء يغتسل من جنابته؟، بأي شيء يقوم على حاجته؟ ...، وروي عنه أنه قال: (إني لأستحي من الله أن لا أَدع له يداً يبيطش بها، ولا رجلاً يمشي بها)<sup>(٨٥١)</sup>.

٣- أن في قطع اليدين تقوية منفعة الجنس فلم يشرع في حدّ كالقتل؛ ولأنه لو جاز قطع اليدين لقطعت اليسرى في المرة الثانية؛ لأنها آلة البطش كاليمينى، وإنما لم تقطع للمفسدة في قطعها؛ لأن ذلك بمنزلة الإهلاك، فإنه لا يمكنه أن يتوضأ ولا يغتسل ولا يستنجي ولا يحترز من نجاسة ولا يزيلها

عنه، ولا يأكل ولا يبيطش، وهذه المفسدة حاصلة بقطعها في المرة الثالثة فوجب أن يمنع

(٨٤٩) رواه أبو داود في كتاب الحدود، باب: السارق يسرق مزارعاً رقم الحديث (٤٤١٠) ١٤٢/٤، كما

أخرجه النسائي في (كتاب السرقة، باب: قطع اليدين والرجلين من السارق) ٩٠/٨.

(٨٥٠) سورة المائدة: آية ٣٨.

(٨٥١) أخرجه البيهقي في (كتاب السرقة، باب: السارق يعود فيسرق ثانياً) السنن الكبرى (٢٧٥/٨)، وأخرجه

الدارقطني في (كتاب الحدود والديات وغيره) سنن الدارقطني ١٨٠/٣.

وأما ما استدل به الإمامان مالك والشافعي ومن وافقهما: فحديث جابر رضي الله عنه كان في حق شخص استحق القتل، بدليل أن النبي ﷺ أمر به في أول مرة، وفي كل مرة (٨٥٣).

ثم إن النسائي قد روى هذا الحديث، وقالك حديث منكر (٨٥٤).

وأما حديث أبي هريرة، فعلى فرض ثبوته فهو معارض بقول علي رضي الله تعالى عنه (٨٥٥).

### حكمة مشروعية حد السرقة:

لما كان للتشريع الإسلامي حكماً ظاهرة واضحة، وبعضها خفي، فإننا نستطيع القول بأن الله عز وجل قد شرع عقوبة القطع في السرقة صيانةً للأموال المحترمة، وحفظاً لها من عبث المفسدين، وتحقيقاً للأمن والطمأنينة بين الناس.

ولاشك أبداً أنها عقوبة رادعة وكفيلة بتحقيق الغرض الذي شرعت من أجله، وعلى الرغم من شدتها فهي تتناسب تناسباً كلياً مع الجريمة التي وضعت عقاباً عليها، وذلك لأن المال شيء عزيز نفهوا إليه النفوس وتتفانى في جمعه، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٨٥٦). ويبدل الإنسان قصارى جهده في جمع المال؛ ولذا فإن حالته النفسية ستكون في غاية التعب والألم إذا وجد أن ثمرة جهوده وشقاؤه قد ذهبت هباءً، واستولى عليها شخص

(٨٥٢) المغني لابن قدامة ٤٤٨/١٢.

(٨٥٣) المرجع السابق.

(٨٥٤) سنن النسائي (كتاب قطع السارق، باب: قطع اليدين والرجلين من السارق) ٩١/٨.

(٨٥٥) المغني لابن قدامة ٤٤٨/١٢.

(٨٥٦) سورة الفجر: آية ٢٠.

بغير حق، فلو لم تشرع هذه العقوبة لربما فكر المجني عليه في الانتقام من المجتمع<sup>(٨٥٧)</sup>.

(ثم إن معاقبة السارق بالقطع ليس لأخذه المال فحسب، وإلا لوجب قطع الغاصب والمنتهب والمختلس، وإنما وجب قطعه لترويعه الأمنين، ونشر الرعب بينهم، فحادثه سرقة واحدة تؤدي إلى إفزاع سكان جميع الحي؛ إذ يترقب كل منهم أنه الهدف القادم للذين ارتكبوا تلك الحادثة، فيعيش الناس في اضطراب وقلق وتحمل ذلك ليس أمرًا سهلاً، فوجب أن تكون العقوبة رادعة تقطع كل أسباب الجريمة، ثم إن السارق قد لا يقف عند حد أخذ المال، بل ربما يتعدى ذلك إلى قتل من يحاول منعه من تحقيق ما اراد، فاللصوص غالبًا لا يقدمون على السرقة إلا وهم مسلحون.

وقد أثبتت الوقائع أن كثيرًا من اللصوص لا يترددون في قتل صاحب المال إذا حاول منعهم من الاستيلاء عليه.

وقد ارتفعت أصوات تناادي بتخفيف عقوبة السرقة، زاعمة أن قطعه يد السارق يجعله عالة على المجتمع، لعدم قدرته على التكسب، ويرون استبدال الحبس بعقوبة القطع، وفات على هؤلاء ومن تأثر بهم أن الله الذي شرع تلك العقوبة أعلم بما يصلح عباده، ولم تكن البواعث التي دفعتهم إلى ما نادوا به حرصهم على تقويم المجرمين، وإنما غرضهم الحقيقي: النيل من الإسلام بالتشكيك في عدالة أحكامه، وادعائهم أن قطع يد السارق يجعله عالة على غيره، ادعاء زائف، لا ظل له من الحقيقة؛ لأن قطع يد السارق لا يؤدي إلى عجزه عن الاكتساب، فمجالات الكسب واسعة، وإن تعذر عليه القيام ببعض الأعمال، فبمقدوره القيام بغيرها.

وعقوبة السجن التي يراها أولئك بديلاً عن القطع لا يمكن أن تكون مانعة من ارتكاب الجريمة، أو من العود إليها، بل كثيرًا ما كانت السجون مدارس يتلقى فيها المجرمون دروسًا من بعضهم، فيخرج المجرم وهو أكثر خبرة بطرق الإجرام المختلفة، علاوة على أن سجنه ينقل كاهل الدولة بكثير من الأموال للإنفاق عليه وعلى أسرته<sup>(٨٥٨)</sup>.

(٨٥٧) أحكام السرقة في التشريع الإسلامي بحث مقارن للدكتور محمد فهمي السرحاني ص ٢١٠ بتصرف.

(٨٥٨) النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود ١/٥٥-٥٦.

وأما المعترضون على حد السرقة لقسوته وشدته، فيقال لهم: أنتم أرحم بالناس من خالقهم؟ إنكم إن كنتم صادقين في إرادة الخير لأمتكم ومجتمعكم فعليكم أن تخلصوا أنفسكم من تلك الأفكار الدخيلة والمبادئ التي يهدف أصحابها إلى القضاء على مجتمعنا الإسلامي، وعلى ديننا الحنيف.

إن قسوة القطع قسوة فيها رحمة، وشدّة فيها خيرٌ كثير.

### و: تنفيذ عقوبة قطاع الطريق حفظاً لأمنها

إن أمن المجتمع الإسلامي كلٌّ لا يتجزأ؛ إذ لا بد لتحقيقه من تضافر الجهود، وسلامة المقاصد، وقبل هذا وذاك لأبد من الوقوف عند حدود الله، تلك الحدود التي يحقق تنفيذها الأمن الكامل في النفوس والأموال والأعراض.

ومن تلك الحدود حدُّ قطاع الطريق والمحاربين، ذلك الحد الذي يحقق تنفيذه أمن المجتمع في طرقاته ومسالكه.

وأهمية هذا الحد في أمن المجتمع تأتي من خلال معرفة الدور البارز والمهم الذي تلعبه الطرق في حياة الناس، فبواسطة الطرق تنقل البضائع والسلع التي بها قوام حياة الناس المعيشية وعن طريقها تتم الأسفار بحثاً عن الرزق أو طلب العلم للذين لا غنى لبشر عنهما، وإذا لم يتحقق الأمن في تلك الطرق توقفت حركة الناس، وجُمِدت أنشطتهم، وهذا يعني انتشار البطالة وشحة مصادر الرزق، والنتيجة الطبيعية لذلك هي التقاتل والتغاصب، وتسلط القوي على الضعيف، وهذا كفيل بزلزلة المجتمعات ودك عروشها.

ومن هنا قامت العناية بالطرق بتمهيد وعورتها، وتذليل عقباتها، وقبل هذا وذاك بتحقيق الأمن التام لسالكها، وذلك بتنفيذ حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ في قاطعها.

## المراد بقطاع الطرق:

للفقهاء رحمهم الله في تحديد المراد بقطاع الطرق أقوال كثيرة فنحن نعرف بعضهم قطاع الطرق بمن يعترضون الناس في طرقاتهم ويغتصبون حقوقهم بقوة السلاح.

في حين أن آخرين عمّموا التعريف على كل من يعلن الحرب على أمن المسلمين، سواء أكان في طرقتهم أم في مساكنهم أم في متاجرهم وأماكن أعمالهم أم في مكان آخر.

والحقيقة: أن تعميم التعريق والحكم - كما يرى أصحاب القول الأخير - هو الأولى والاسلم؛ لأن قطاع الطرق لا يقتصرون على عصابات النهب والسلب التي تعترض الطرقات، وإنما يتعدونهم إلى كل من يعلنون الحرب على أمن المسلمين وعلى جماعتهم بما يفعلونه من نهب، وسلب، وبطش، وقتل، وسفك للدماء، وأخذ للأموال وانتهاك للأعراض.

وهذا يعني انه لا فرق بين قاطع الطريق، وبين المحارب لله ولرسوله، فكلاهما يحارب الله ورسوله، بمحاربة الشرع، وبمحاربة المجتمع الإسلامي الذي جاء الإسلام لحمايته ووضع الحدود المانعة الزاجرة؛ ولهذا سمى الفقهاء الحراية (قطع الطرق الآمن) ومعنى ذلك أن هذا القطع إنما يكون داخل الدولة الإسلامية ومن رعاياها على وجه الخصوص، وليس من أعدائها؛ لأن قطع الطريق على جماعة المسلمين من غير المسلمين هي الحرب الحقيقية وليست الحراية (٨٥٩).

وعليه: فإن التعريف الشامل الذي يمكن إطلاقه على قطاع الطرق هو ما ذكره بعض الحنابلة، حيث قال: (هم المكلفون المنتزمون الذين يعرضون للناس بالسلاح، ولو عصاً أو

حجر، في الصحراء أو البنيان أو البحر<sup>(٨٦٠)</sup>، فيغصبونهم مالا محترمة مجاهرة<sup>(٨٦١)</sup>.

الأصل في حكم قطاع الطرق والمحاربين:

الأصل في ذلك: القرآن، والسنة:

أما القرآن، فقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٨٦٢)</sup>.

وأما السنة: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما وكثير من العلماء: أن آية الحرابة نزلت في قطاع الطريق من المسلمين، وبه قال الإمام مالك والشافعي وأصحاب الرأي، وهو قول الحنابلة أيضا<sup>(٨٦٣)</sup>.

وحكي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها نزلت في المرتدين؛ لأن سبب نزولها قصة العرنيين، حيث كانوا قد ارتدوا وقتلوا الرعاة واستاقوا إبل الصدقة.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن ناسا اجتروا<sup>(٨٦٤)</sup> في المدينة، فأمرهم النبي ﷺ أن يلحقوا براعيه -يعني الإبل- فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فلحقوا براعيه فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صلحت أبدانهم،

(٨٦٠) وهكذا من يعترضون الناس في الجور، كما يحصل كثيرا من هذا الزمن من احتطافات للطائرات وتحديد سلامة ركابها.

(٨٦١) انظر: شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/٣٧٥، وكشاف القناع عن متن الإقناع له أيضا ٦/١٥٠.

(٨٦٢) سورة المائدة: الآيتان ٣٣، ٣٤.

(٨٦٣) انظر: المهذب للشيرازي ٢/٢٨٥، والمعني لابن قدامة ١٢/٤٧٣.

(٨٦٤) اجتروا: أي حصل لهم المرض وهو دماء الجوف. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/٣١٨.

فقتلوا الراعي وساقوا الإبل، فبلغ النبي ﷺ فبعث في طلبهم فجاء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم  
وسمّر<sup>(٨٦٥)</sup> أعينهم<sup>(٨٦٦)</sup>.

### شروط وجوب حد الطريق والحراية:

يشترط لوجوب إقامة الحد على قاطع الطريق عددًا من الشروط، وهي<sup>(٨٦٧)</sup>:

**الشرط الأول:** أن يكون القاطع بالغًا عاقلًا، بخلاف الصبي والمجنون، فلا حد عليهما  
ولا قصاص، إلا أنهما يضمنان ما يتلفانه من نفس أو طرف أو مال.

**الشرط الثاني:** أن يكون مختارًا، فإن كان مكروهًا فلا حدّ عليه، بشرط أن يكون  
الغكراه مُلجئًا.

**الشرط الثالث:** أن يكون عالمًا بتحريم قطع الطريق، فإن كان جاهلًا أو ادعى الجهل  
وكان ممن يصدق فيه، فلا حد عليه.

**الشرط الرابع:** أن يكون المجني عليه مسلمًا أو ذميًا، فإن كان حربيًا فلا حدّ على  
القاطع؛ لأن مال الحربي ليس معصومًا.

(٨٦٥) سَمَر: أي: كحل أعينهم بالنار، وفي رواية: (فَسَمَلَ) انظر: النهاية في غريب الحديث ٣٩٩/٢.

(٨٦٦) صحيح البخاري - واللفظ له - (كتاب الطب، باب الدواء بأبوال الأبل) رقم الحديث (٥٣٦٢)

(٢١٥٣/٥)، وسنن أبي داود (كتاب الحدود، باب: ما جاء في الحاربة) رقم الحديث (٤٣٦٤) ١٣٠/٤.

(٨٦٧) انظر هذه الشروط في كل من: النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود ٥٦/١، ٥٧، وأثر تطبيق الحدود في

الاجتماع ص ٧٥، ٧٦..

**الشرط الخامس:** أن يكون القاطع للطريق حاملاً للسلاح، الذي تتصور الإخافة به، من سلاح معتاد، أو عصاً أو حجر، أو غير ذلك؛ لأن انقطاع الطريق يحصل بكل من ذلك.

**الشرط السادس:** أن يكون ذلك مجاهرة، وقهراً، فأما فعل ذلك على جه الخيفة فهو سرقة، وكذلك إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئاً فليسوا بمحاربين؛ لأنهم لا يرجعون إلى منعة وقوة، وإن خرجوا على عدد يسير فقهرهم فهم قطاع طريق<sup>(٨٦٨)</sup>.

**الشرط السابع:** أن يحصل ذلك الفعل -أي: شَهْرُ السلاح وإخافة السبيل- في الصحراء والبراري، أي: خارج المدن والأمصار.

وبهذا قال الحنفية<sup>(٨٦٩)</sup> والحنابلة<sup>(٨٧٠)</sup>، فأما إن كان ذلك داخل الأمصار فلا يعتبر حراية توجب إقامة الحد؛ لأن من كان داخل المصر يُمكنه أن يستغيث فيلحقه الغوث، وبحضوره تذهب شوكة المعتدين، فيكونون حينئذٍ في حكم المختلسين، والمختلس ليس بقاطع طريق<sup>(٨٧١)</sup>.

في حين ذهب المالكية<sup>(٨٧٢)</sup>، والشافعية<sup>(٨٧٣)</sup>، وبعض الحنابلة<sup>(٨٧٤)</sup> إلى أن كون ذلك خارج المصر ليس بشرط، فمن شهر السلاح وأخاف السبيل في مصر أو برية وجب على الإمام طلبه؛ لأنه إذا ترك قويت شوكته وكثر الفساد به في قتل النفوس وأخذ الأموال، ودليلهم عموم الآية الذي يتناول كل محارب، ثم إن ذلك إذا وجد في المصر كان أعظم خوفاً وأكثر

(٨٦٨) انظر: المغني لابن قدامة ٤٧٥/١٢.

(٨٦٩) انظر: الهداية للمرغيناني ١٣٤/٢.

(٨٧٠) انظر: المغني لابن قدامة ٤٧٤/١٢.

(٨٧١) انظر: المرجع السابق.

(٨٧٢) انظر: التفريع لابن الجلاب ٢٣٢/٢.

(٨٧٣) انظر: المهذب للشيرازي ٢٨٥/٢.

(٨٧٤) انظر: المغني لابن قدامة ٤٧٤/١٢.

ضرراً، فكان أولى بالحكم<sup>(٨٧٥)</sup>.

وذكر القاضي أبو يعلى<sup>(٨٧٦)</sup>: أن ذلك إن كان في مصر، مثل أن كسبوا داراً فكان أهل الدار بحيث لو صاحوا أدرتهم الغوث فليس هؤلاء بقطاع طريق؛ لأنهم في موضع يلحقهم الغوث عادة، وإن حصروا قرية أو بلدًا ففتحوه وغلبوا على أهله، أو محلاً بحيث لا يلحقهم الغوث عادة، فهم محاربون؛ لأنهم لا يلحقهم الغوث فأشبهه قطاع الطريق في الصحراء<sup>(٨٧٧)</sup>.

ولعل ما ذهب إليه المالكية والشافعية وبعض الحنابلة هو القول الراجح والأولى بالاعتبار، لعموم النصوص؛ ولأن فعل الحرابة داخل المصر أعظم ضرراً، وفيه إهدار لعصمة النفوس، واقتيات على الإمام، وإخلال بالأمن الذي يجب أن ينعم به كل مسلم في ظل الدولة التي تحكم بشرع الله، وتقيم حدود الله.

### عقوبة الحرابة وقطع الطريق:

من خلال نص الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٨٧٨)</sup>. نجد أن هذه الآية ذكرت أربعة أنواع من لعقوبات التي تطبق على قاطع الطريق، وكل عقوبة من هذه العقوبات تختلف عن الأخرى.

وسبب اختلاف العقوبة هو اختلاف الجناية نفسها؛ إذ كل عقوبة تتناسب مع الجناية

(٨٧٥) انظر: المرجع السابق.

(٨٧٦) هو: محمد بن الحسن بن محمد بن خلف الفراء، أبو يعلى، ولد سنة ٣٨٠هـ، وكان عالم زمانه في الأصول والفروع، وكانت له الفتوى في المذهب الحنبلي، توفي والده وعمره عشر سنين، له مؤلفات كثيرة منها: المعتمد ومختصره، والعدة في أصول الفقه، وتوفي سنة ٤٥٨هـ رحمه الله انظر: ذيل طبقات الحنابلة لزين الدين أبي الفرج ٢٩٣/٢-٣١٦، والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي ٧/٣.

(٨٧٧) انظر: المغني لابن قدامة ٤٧٤/١٢.

(٨٧٨) سورة المائدة: الآيتان ٣٣.

التي شرعت عقاباً عليها، فكلما عظمت الجناية عظمت عقوبتها ليكون الجزاء من جنس العمل<sup>(٨٧٩)</sup>.

ولما كانت جريمة قطع الطريق تعتبر انتهاكاً لأمن الناس وإخلالاً بنظام حياتهم؛ لأنها قد تكون اعتداءً على النفس، كما قد تكون اعتداءً على المال أو العرض، وربما كانت اعتداءً على الجميع في وقت واحد، وأياً ما كان فهي جريمة شنعاء على المجتمع تخلُّ بنظامه وتروغ أمنه، وتدلُّ على الاستهانة بنظام الحكم وسلطة الحاكم في الدولة، كما هي -أيضاً- اعتداءً على الأخلاق بتقطيع أوصار المحبة وإشاعة الفساد في الأرض؛ فلذلك كانت عقوبتها من أقسى العقوبات المعروفة في الشريعة، كما هو واضح من النظر في الآية الكريمة، فإنها ذكرت أربع عقوبات للمحاربين المرتكبين لجريمة قطع الطريق<sup>(٨٨٠)</sup>.

وتلك العقوبات الأربع هي:

الأولى: القتل والصلب.

الثانية: القتل من غير الصلب.

الثالثة: قطع الأيدي والأرجل من خلاف.

الرابعة: النفي من الأرض.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في كيفية تنفيذ هذه العقوبات:

١- فذهب الشافعية<sup>(٨٨١)</sup> والحنابلة<sup>(٨٨٢)</sup> ومن وافقهم إلى أن هذه العقوبة تكون حسب الجناية من قطاع الطرق، فمن قتل منهم وأخذ المال قُتل مقابل القتل، وصلب مقابل أخذ المال، حتى وإن عفا صاحب المال، ولا تعتبر في هذا الحال المكافأة بين الجانبين والمجني عليه.

(٨٧٩) النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود ١/٥٧.

(٨٨٠) انظر: أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٢٩٨.

(٨٨١) انظر: المهذب للشيرازي ٢/٢٨٥.

(٨٨٢) انظر: المغني لابن قدامة ١٢/٤٧٥-٤٨١.

ومن قَتَلَ منهم ولم يأخذ المال قُتِلَ ولم يُصَلب، والقَتْلُ هنا -أيضًا- مُحْتَمٌ لا يدخله العفو.

ومن أخذ المال ولم يقتل قُطعت يده اليمنى كما تُقَطع يد السارق تمامًا ثم تقطع رجله اليسرى لتتحقق المخالفة، وليكون أرفق به في إمكان مشيه.

وأما من لم يقتل ولم يأخذ مالاً، وإنما أخاف السبيل فقط، فهذا ينفي من الأرض حتى يظهر توبته.

والحكمة من الصلب في حال القتل وأخذ المال هي: التغليظ في العقوبة واشتہار أمر الجاني حتى يرتدع به غيره، والصحيح في تحديد مدة الصلب هو: تقدير الحاكم.

ودليل هذا القول: ما روي أن رسول الله ﷺ قضى بأن من قتل وأخذ المال قُتِلَ وصُلِبَ، ومن قتل ولم يأخذ المال قُتِلَ، ومن أخذ المال ولم يقتل قُطعت يده ورجله من خلاف (٨٨٣).

٢- وقال أصحاب الرأي (٨٨٤): إن قتلوا قُتِلوا، وإن أخذوا المال قُطعوا، وإن قُتِلوا وأخذوا المال فالإمام مخير بين القتل والصلب، وبين القتل والقطع، وبين جَمْع ذلك كله؛ لأنه قد وجد منه ما يوجب القتل والقطع فكان للإمام فعلهما كما لو قتل وقطع في غير قطع طريق.

٣- وذهب المالكية (٨٨٥) إلى أن المرجع في حد قاطع الطريق هو اجتهاد الحاكم، فإن رأى قتله قتله، وإن رأى قطعه من خلاف قطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن رأى ضربه وحبسه فعل ذلك به، ونفاه إلى بلده يحبسه فيه حتى تظهر توبته، وله قتله وإن لم يقتل أحدًا

(٨٨٣) انظر: ما أخرجه البيهقي في (كتاب السرقة، باب: قطاع الطريق) السنن الكبرى ٢٨٣/٨.

(٨٨٤) انظر: الهداية ١٣٢/٢.

(٨٨٥) انظر: التفريع لابن الجلاب ٢٣٢/٢.

في حرايته إذا أذاه اجتهاده إلى قتله.

٤- وذهبت طائفة من التابعين إلى أن الإمام مخيرٌ فيهم بين القتل والصلب، والقطع والنفى؛ لأن «أو» تقتضي التخيير، واستدلوا بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (ما كان في القرآن «أو» فصاحبه بالخيار)<sup>(٨٨٦)</sup>.

ولعل القول الأول هو أظهر هذه الأقوال وأعدلها، حيث إن العقوبة المذكورة فيه متناسبة مع الجريمة المرتكبة، وأما الأقوال الأخرى فالظاهر منها جواز قتل من لم يُقتل، وهذا إهدار لدم معصوم.

جاء في المغني: (ولنا على أنه لا يُقتل قول النبي ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حق»<sup>(٨٨٧)</sup>) فأما «أو» فقد قال ابن عباس مثل قولنا: فأما إن يكون توفيقاً أو لغة، وأيهما كان فهو حجة، يدلُّ عليه أنه بدأ بالأغلظ فالأغلظ، وعُرِفُ القرآن فيما أريد به التخيير البداية بالأخف ككفارة اليمين، وما أريد به الترتيب بُدِيَء فيه بالأغلظ فالأغلظ، ككفارة الظهار والقتل، ...، وأما قول أبي حنيفة فلا يصح؛ لأن القتل لو وجب لحق الله تعالى لم يختَر الإمام فيه، كقطع السارق، وكما لو انفرد بأخذ المال؛ ولأن الحدود لله تعالى إذا كان فيها قتلٌ سقط ما دونه كما لو سرق وزنا وهو مُحصن)<sup>(٨٨٨)</sup>.

وإذا كانت هذه هي عقوبة قاطع الطريق المحارب لله ولرسوله ﷺ، فإن هذه العقوبة لا تبقى خاصة بقاطع الطريق، بل تتعداه إلى جريمة شنعاء تشبه قطع الطريق في إزهاق الأرواح وزعزعة الأمن وضياع الطمأنينة والاستقرار.

(٨٨٦) انظر: المغني لابن قدامة ٤٧٦/١٢.

(٨٨٧) الحديث سبق تخريجه ص ٢٨٥ بلفظ آخر.

(٨٨٨) المغني لابن قدامة ٤٧٦/١٢-٤٧٧.

ومن هنا ألحق العلماء بقطع الطريق أنواعًا أخرى من الجرائم المشينة، ومنها<sup>(٨٨٩)</sup>:

أ- القتل غيلة: وذلك بأن يخدع الجاني المجني عليه بأي وسيلة كانت من وسائل الخداع.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن القتل غيلة يوجب الحد لا القصاص؛ لأن القاتل غيلة بمنزلة المحارب؛ لأنه خدع المجني عليه وغشّه ليرتكب جنايته على وجه لا يمكن معه الغوث.

ب- العوُدُ في القتل: بأن يتكرر منه القتل؛ إذ العود في الجريمة دليل على تاصل الإجرام في نفس الجاني، وبالتالي يصبح مفسدًا في الأرض، فتطبّق عليه آية الحرابة.

ج- هنك العرض بالقوة: حيث يرى المالكية أن من قطع الطريق لهتك عرض على وجه يتعذر معه لغوث، يكون محاربًا مفسدًا في الأرض.

جاء في أحكام القرآن للقرطبي: أنه إذا أراد إخافة الطريق بإظهار السلاح قصدًا للغلبة على الفروج، فهذا أفحش المحاربة وأقبح من أخذ المال<sup>(٨٩٠)</sup>.

نعم، إن من استدرج إنسانة ليهتك عرضها، أو دس لها ما يذهب عقلها ثم اعتدى عليها كان أولى بتطبيق حد الحرابة عليه؛ لأن هذا الجرم أفحش أنواع المحاربة، وإذا كان أفحشها استحق أعلى عقوبة وهي القتل؛ لأنه من جنس أعلى عقوبة للزنا.

هـ- قتل الإمام: حيث ذهب كثير من أهل العلم إلى أن قتل الإمام يعتبر حرابة، لما يترتب عليه من الفساد العام، وانتشار الفتنة<sup>(٨٩١)</sup>.

**أثر حد الحرابة في حفظ الأمن والاستقرار:**

(٨٨٩) انظر: أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٧٨-٨٢.

(٨٩٠) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥٦/٦.

(٨٩١) السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٩٣.

إن إقامة حد الحرابة على قاطع الطريق المحارب لله ورسوله يحقق بدون شك الأمن والاستقرار لكل مجتمع يقام فيه ذلك الحد.

ولهذا فإن آية الحرابة يمكن تطبيقها على كل الجرائم التي تشكل خطورة على المجتمع، تلك الجرائم التي تجاوزت الاعتبارات العادية التي تنطلق منها الجريمة.

فجريمة أخذ المال خفية وضع لها حد السرقة، فإذا ما تم أخذ المال تحت قوة السلاح شكل هذا الفعل خطورة على المجتمع الأمن المطمئن فلزم أن تشدد العقوبة.

وجريمة الزنا وضع لها حد الزنا، لكن إذا تم الزنا تحت الإكراه بقوة السلاح أو تخدير المجني عليها، كان هذا الفعل أشد خطورة على المجتمع من الفعل الذي يتم بإرادة الطرفين.

وجريمة القتل وضع لها القصاص وفتح فيه باب العفو، إلا أن القاتل إذا خرج بجريمته عن المعتاد، كأن قطع الطريق ببغي مالا وعرضاً، أو إرهاباً للأمنيين فقتل كل من يعترض طريقه، كان ذلك الفعل أشد خطورة على المجتمع بأكمله، فلا يحصل له أمن ولا ينعم باستقرار.

ولذا كانت آية الحرابة تحذيراً دائماً لمن تسول لهم أنفسهم التمادي في غيهم والاندفاع وراء شهواتهم، بإطلاق الأمن والاستقرار في المجتمع<sup>(٨٩٢)</sup>.

#### دفع شبه أوردتها الحاقدون على تطبيق الحدود:

بعد أن بينت أقسام الحدود، وأحكامها، وأهمية إقامتها في تحقيق الأمن والرخاء أودت هنا أن أعرض بإيجاز لبعض شبه أوردتها الحاقدون المفروضون على إقامة الحدود، ثم أبين الرد عليها ليظهر بوضوح أكثر أثر تطبيق الحدود الشرعية في سعادة الناس وأمنهم وسلامتهم في الدنيا والآخرة، وفيما يلي بيان تلك الشبه<sup>(٨٩٣)</sup>:

**الشبهة الأولى:** لقد ارتفعت -ولا تزال ترتفع- أصوات معترضة محتجة على تطبيق أحكام الشرع بتنفيذ الحدود، زاعمة أن في إقامة الحدود ضرباً عنيفاً من القسوة العاتية التي

(٨٩٢) أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٨٢-٨٤ بتصرف.

(٨٩٣) انظر هذه الشبه مفصلة والرد عليها مطولاً في: أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ١٦٧-١٨٣.

تتناهى مع الإنسانية الرحيمة!

والردُّ: نعم، إن في إقامة الحدود مظهرًا من مظاهر الشدة التي تسمونها قسوة، ولا بد لكل عقوبة أن يكون فيها مظهر قسوة حتى تحدث زجرًا وردعا.

ثم إن الحامل على تلك القسوة شيء أشد منها قسوة وهو هلاك النفوس وانتهاك الإعراض.

**الشبهة الثانية:** قالوا: إن رجم الزاني المحصن بالحجارة تحقير وزادراء للإنسانية؛ إذ يمكن تنفيذها بوسائل أخرى أشفق وأرحم، كالصعق الكهربائي، أو الشنق، أو غير ذلك من وسائل القتل السريع!

**والرد على هذه الشبهة يأتي من طريقين:**

**أحدهما:** أن رجم الزاني المحصن لا يراد منه الإزهاق الروحي فحسب، وإنما المقصود هو الزجر والردع عن مقارفة الجريمة الشنعاء، حيث ارتكب الزاني جرماً أهدر فيه كرامة الإنسان بانتهاك عرضه وشرفه، ففي قتله بتلك الصورة عبرة لكل شيطان هم بمثل فعله.

**وثانيهما:** هل تأكدتم فعلاً أن القتل بالصعق أو الشنق أخف ألماً وأسرع إزهاقاً من القتل بالرَّجم؟ ولنفرض صدق قولكم، أفلا ترضون بحكم الشرع ومقاصده الرامية إلى زيادة الإيلاء للجاني تنفيراً لغيره من فعله؟! إن الله تعالى أمر المسلمين بتنفيذ حدِّ الزنا دون رأفة أو رحمة بالزانيين: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (٨٩٤). فلا حكم لأحد مع حكم الله تعالى.

**الشبهة الثالثة:** أن إقامة الحد تقتضي إزهاق الأرواح، وتقطيع الأطراف، وفي هذا إهدار لكثير من القوى والطاقات البشرية!

والرد على هذه الشبهة: أن القتل وتقطيع الأطراف إنما يكون في حالات ضيقة، لنفوس شريرة، وأيدٍ ظالمة، ثم إن إقامة الحد بإزهاق روح واحدة، أو بقطع طرف واحد، يؤدي إلى حفظ مئات الأرواح، وسلامة آلاف الأطراف.

(وهاهي ذي المملكة العربية السعودية مثلاً حياً مشهوداً، يسير فيها الراكب من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وربما لا يرى فيها مشوفاً أو كسيحاً بسبب إقامة الحد، وليس ذلك لأنهم لا يقيمون الحد -لا- بل لأن إقامتهم للحدود قد حالت بين الناس وبين الجرائم التي تقام بسببها الحدود، فقللت الجرائم، وتبعها قلة من تقام عليهم الحدود، فصدقت فيهم كلمة القرآن لحكمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٨٩٥) (٨٩٦).

الشبهة الرابعة: قالوا فيها: إن في حد شارب الخمر سلباً للحرية الشخصية، فإن من الحرية الشخصية أن يشرب المرء ما يشاء ويأكل ما يشاء!

والرد على هذه الفرية: أن الحرية أسمى وأعلى مما ذكرتموه، فليست الحرية أن ينطلق المرء كما يشاء بلا قيد ولا حدّ، فهذه فوضى وحيوانية وإهدار لحرية الآخرين، وتهديد لأمن الأمنين.

وبعد إيراد هذه الشبه والمزاعم، وبيان الردّ عليها أقول: إن القصد الحقيقي لمثيري هذه الافتراءات هو: التأثير في نفوس وعقول أتباعهم ليكونوا معهم جبهات تعارضُ حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ، وهذا ناتج عن عدم الإيمان، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٨٩٧). وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

(٨٩٥) سورة البقرة: آية ١٧٩.

(٨٩٦) أثر تطبيق الحدود في أمن المجتمع ص ١٧٢.

(٨٩٧) سورة الأحزاب: آية ٣٦.

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٨٩٨﴾.

إن العقوبة إذا كانت في ظاهرها أذى لمن تنزل به فهي آثارها ونتائجها رحمة للمجتمع عامة، وقطع لأسباب الفساد، وحفظ للأمن والاستقرار.

إن إقامة الحدود ستقضي على المتلاعبين بالدين، وتردع المجرمين وعصابات الشر التي تعيش في الأرض فسادًا.

(إن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها، والدول والأمم الإسلامية إنما تبقى وتساعد بقدر ما تلتزم في حياتها بأحكام الشريعة التي أقامتها بين الأمم، وكلما ابتعدت عن هذه الأحكام ابتعدت عما يؤهلها للخيرية...، فلا بد من الرجوع إلى الشريعة وأحكامها، ويستوي في ذلك فقه الأئمة الأربعة وغيره مما تقوم أسسه على مقاصد الشريعة الغراء التي جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة) (٨٩٩).

وهاهي مملكتنا العربية السعودية حفظها الله وحفظ القائمين عليها، تعيش في أمن ورخاء، وطمأنينة واستقرار، فالحقوق فيها محفوظة، والدماء معصومة، والأعراض مصونة، والسبل آمنة، والأمن وارف الظلال يخيم على كل شبر من أرضها، وكل ذلك بفضل الله تعالى ثم بفضل تنفيذ حدود الله وإقامة شرع الله.

### إقامة الحدود من أهم مصادر الأمن في الحياة:

إن حاجة الناس إلى تطبيق شرع الله تعالى تفوق حاجتهم إلى ما يقيم أصلابهم من طعام وشراب، فكما يعني الحكام بتوفير الأمن والاستقرار والرفاهية لشعوبهم ودفع الجهل والفقر والمرض عنهم، فلزام عليهم كذلك أن يعنوا ما أنزل الله، ومضارها ستنتهي بهم إلى عواقب وخيمة تفقد لهم الحياة السعيدة التي هي وسيلة للسعادة في الآخرة؛ لأنهم سيحيون حياة بؤس وشقاء وفراغ روي قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

(٨٩٨) سورة النساء: آية ٦٥.

(٨٩٩) أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٢٥٣-٢٥٤.

أَلْفَيْمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَد كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَتَسْبِئُنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسِي ﴿٩٠٠﴾.

إن حاجة الإنسان إلى ما يهذب روحه ويسمو بها تفوق حاجته إلى ما يحفظ جسده من طعام وشراب وملبس ومسكن؛ لأن النفس الإنسانية إذا لم تكن عامرة بالإيمان بالله تعالى وحده، خاضعة لشريعته، مزقتها الأهواء والشهوات، وأورثتها الخلل والاضطراب، والحيرة والفرع وباتت على شفا جرف هار يوشك أن ينهار بها في مهاوي الهلكة والخسران.

إن تطبيق شريعة الله سيحول دون أخذ الناس بالتصورات الخاطئة فكرياً وسلوكياً، تلك التصورات التي يروج لها دعاة الفساد في كل زمان ومكان، ويتخذونها من وسائل محاربة الإسلام، وأداتهم في ذلك تسخير وتشجيع فئات تدخل في المفاهيم الإسلامية أغاليط وأكاذيب وتلفيفات ومبتدعات ما أنزل الله بها من سلطان ولم يعرفها الصدر الأول من المسلمين.

إن تطبيق الشريعة الإسلامية لا يعد نفعاً ولا تطوعاً ولا محض اختيار، إنما هو الإيمان، وإلا فلا إيمان، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٩٠١).

وما نشاهده في مجتمعاتنا المعاصرة اليوم من الولايات المتلاحقة والنكبات المروعة والمشاكل المحزنة والأوضاع المخزية التي لا حصر لها، لا مصدر لها سوى البعد عن الله والصد عن الحكم بما أنزل الله، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٠٢).

ولما كان توفر الأمن ضرورة من ضروريات المجتمع التي تفوق الغذاء -كما بينت- اهتم الإسلام بتوفير الأسباب الجالبة له وذلك ببناء الإنسان عقيدة وسلوكاً لأن الأمن لا يتوفر

(٩٠٠) سورة طه: الآيات ١٢٤-١٢٦.

(٩٠١) سورة الأحزاب: آية ٣٦.

(٩٠٢) سورة الأعراف: آية ٩٦.

بمجرد البطش والإرهاب، وقوة الحديد والنار، وإنما يتوفر بتهديب النفوس وتطهير الأخلاق وتصحيح المفاهيم حتى تترك النفوس الشر رغبة عنه، وكراهية له.

ولهذا نجد الأمم التي تفقد هذه المقومات من أفلس الناس من الناحية الأمنية، وإن كانت تملك الأسلحة الفتاكة، والأجهزة الدقيقة؛ لأن الإنسان لا يحكم بألة فقط، وإنما يحكم بالشرع العادل والسلطان القوي كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٩٠٣).

جاء في تفسير الكريم الرحمن عند شرحه لهذه الآية تعقيب قال فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. أي: لا يعجزه شيء ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار على أعدائه ولكنه يبغى أوليائه بأعدائه ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى بهذا الموضوع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه ويعطي كلمته، بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط الذي يستدل به على حكمة الجباري وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله (٩٠٤).

وفهم الأمن من مفهوم الإسلام؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالخضوع له وامتنال أوامره واجتناب نواهيه، ومن دخل في الإسلام دخل في نطاق الأمن، وفي الحديث، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم

(٩٠٣) سورة الحديد: آية ٢٥.

(٩٠٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ١٨٥/٥-١٨٦.

وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله» (٩٠٥).

فإذا تحقق الإسلام والإيمان توفرت أسباب الأمن؛ ولكن قد يكون هناك شواذ لم يتمكن الإسلام والإيمان من قلوبهم فتحصل منهم نزوات تخل بالأمن وهنا وضع الله سبحانه وتعالى زواجر وروادع لهؤلاء تكف عدوانهم وتصون الأمن من عبثهم فشرع سبحانه الحدود الكفيلة بردهم وتحذير غيرهم من أن يفعلوا مثل فعلهم، فشرع حد المرتد لحفظ الدين وشرع القصاص لحفظ النفوس، وشرع حد الزنا وحد القذف لحفظ النسب والغرض، وشرع حد المسكر لحفظ العقول، وشرع حد السرقة لحفظ الأموال وشرع حد المسكر لحفظ العقول، وشرع حد السرقة لحفظ الأموال وشرع حد قطاع الطريق لحفظ السبيل وتأمين المواصلات، وشرع قتال البيعة لحفظ السلطة الإسلامية ومنعاً لتفريق الكلمة واختلاف الأئمة (٩٠٦).

وهذه العقوبات المفروضة تطمئن المجتمع، وتزيل الحقد من النفوس، وتردع من تسول له نفسه الإقدام على أي أمر فيه جناية، وإخلال للمجتمع، والقرآن الكريم الذي هو المصدر الأول في شريعة الإسلام قد مكن هذه الأحكام بما يخيف المجرمين، وشدد رسول الله ﷺ في إقامة الحدود؛ لأن الحد يمثل الغيرة لله حيث غضب الرسول الكريم ﷺ عندما جاء إليه من يشفع في المرأة المخزومية فقال: «أتشفع في حد من حدود الله». ثم قام خطيباً فقال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (٩٠٧).

ومن هنا شدد علماء المسلمين رحمهم الله في تحريم الشفاعة في الحدود إذا وصلت القضية إلى السلطان، وفي تعظيم أمر المحابة للأشراف في حقوق الله تعالى وأن الشفاعة الجائزة فيما يمكن إصلاحه قبل الوصول إلى الحاكم الشرعي أو من يمثل ولي الأمر.

(٩٠٥) صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب: «إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» [التوبة: آية ٥]) رقم الحديث (٢٥) ١٧/١، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ...) رقم الحديث (١٢٨) ١٥٧/١.

(٩٠٦) انظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٩ ص ١٠٤، ١٠٥ بتصرف.

(٩٠٧) الحديث سبق ترجمته ص ٢٢٥.

## والحدود الزاجرة التي بينها الشرع هي:

١- إقامة الحد على المرتد: وذلك بقتله لحفظ الدين والعقيدة من عبث العابثين؛ لأن المرتد ترك الحق بعد معرفته واعتدى على العقيدة التي هي أقوى أسباب الأمن، قال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»<sup>(٩٠٨)</sup>. وقال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الشيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»<sup>(٩٠٩)</sup>.

فالمرتد يقتل لتبديله الدين وتركه له ومفارقة جماعة المسلمين حتى لا يكون الدين العوبة للعابثين فيغتر بهم غيرهم من ضعفاء الإيمان، ولسد الطريق على كل من يدخل في الإسلام خداعاً ثم يخرج منه للتغيير منه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾<sup>(٩١٠)</sup>.

قال الأستاذ المراعي في تفسير هذه الآية والربط بينهما وبين ما قبلها: (بعد أن ذكر الله حال الضالين الذين يجادلون في توحيد الله بلا بينة ولا دليل ... أعقب بذكر قوم مضطربي الإيمان مذنبين في دينهم لا ثبات لهم في عقيدتهم ولا استقرار لهم في آرائهم، إن أصابوا خيراً فرحوا به وركنوا إليه، وإن نالهم بلاء وشدة في أنفسهم أو أهلهم أو أموالهم ارتدوا كفاراً، فلحقهم الخسار والدمار في دينهم ودنياهم، وذلك هو الخسران الذي لا خسران بعده)<sup>(٩١١)</sup>.

٢- والقصاص من القاتل فيه حماية للنفوس البريئة وضمان للأمن بين الناس، وهو من أسباب الاطمئنان في المجتمع والقضاء على الجريمة؛ لأنه يقضي على الفئات الفاسدة في المجتمع حتى لا يتسع نطاق عملها في أجزاء أخرى منه؛ لأنه إذا عرف من يريد قتل إنسان

(٩٠٨) صحيح البخاري (كتاب الجهاد، باب: لا يعذب بعذاب الله) رقم الحديث (٢٨٥٤) ٣/٩٨٨٠١.

(٩٠٩) الحديث سبق تخريجه ص ٢٨٥.

(٩١٠) سورة الحج: آية ١١.

(٩١١) تفسير المراعي ١٧/٩٣.

أنه سيقتل به امتنع عن القتل فكان في هذا حفظ لحياته وحياء غيره، وإذا أقدم على القتل فاقتص منه كان في هذا ردع لآخرين فلا يقدمون على مثل جريمته، فيكون مصيرهم كمصيره؛ وذلك أخبر الله تعالى بأن القصاص فيه حياة الناس وأمنهم على أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٩١٢).

جاء في إرشاد العقل السليم عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾. بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تتال غايته حيث عل الشيء محلاً لضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلغه الوصف؛ وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب حياة نفسين؛ ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم (٩١٣).

فقتل نفس واحدة بالقصاص حصل به نجاة أنفس كثيرة، كالعضو الفاسد يقطع لحفظ بقية الجسم وبذلك يأمن الناس على حياتهم.

٣- وإقامة حد الزنا بجلد البكر مائة جلدة وبمحضر عام من المؤمنين وتغريبه عن وطنه عاماً كاملاً، ويرجم الزاني المحصن الذي توفرت فيه الشروط فيرجم بالحجارة حتى يموت؛ وذلك ليأمن الناس على أعراضهم من الاعتداء عليها؛ وليأمنوا على أنسابهم من الاختلاط.

وقد ذكرت الأدلة على هذا مفصلة في نقطة ج من هذا الجزء.

وبتطبيق هذا الحد يأمن الناس من هذا الخطر المدمر الذي يلوث المجتمع ويهدد الإنسانية وينشر الأمراض الخطيرة.

كما بين الإسلام الوسائل الواقية من هذه الجريمة ودفع مسبباتها فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْصَابِهِمْ وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَصْنَعُونَ﴾. ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ

(٩١٢) سورة البقرة: آية ١٧٩.

(٩١٣) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/١٩٦.

يَعْتُضَنَ مِنْ أَيْسَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ كُحْمُهُنَّ عَلَى  
جُيُوبِهِنَّ ﴿٩١٤﴾.

ولشناعة جريمة الزنا وحرمة المسلم، صان الله أعراض الأبرياء أن تدنس بنسبة هذه  
الجريمة إليها، وكف الألسنة البذيئة أن تتناول على عرض المسلم فتقذفه بارتكاب فاحشة  
الزنا زوراً وبهتاناً، فأمر بجلد القاذف الذي لا يستطيع إقامة البينة على ما يقول بأن يجلد  
ثمانين جلدة، ولا تقبل له شهادة أبداً، وأنه يعتبر فاسقاً ساقط العدالة ما لم يتب من هذه  
الجريمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً  
أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٩١٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١٥﴾.

وبهذا الحد الرادع وسحب الثقة من القاذف تصان الأعراض البريئة، وتسكت الأفواه  
البذيئة وتتوارى آثار هذه الجريمة، ويصبح الناس في مأمن منها ومن ذكرها حتى تتوارى من  
المجتمع نهائياً.

جاء في التفسير القرآني للقرآن عند حديث القذف: (وفي هذا كله دعوة للمؤمنين ألا  
يذيعوا الفاحشة في المؤمنين وألا يتعجلوا الفضيحة للمسلمين، وأن يستروا عليهم ما كان للستر  
موضع، وليس معنى هذا ألا ينكر الناس المنكر، وألا يسوقوا أهله إلى موقع العذاب، وإنما هو  
الحذر والحيطه، وعدم الطير فرحاً، إذا اطلع المسلم على سوء من مسلم، وأنه إذا أراد الكشف  
عن هذا السوء فليكن في حذر وفي مهل وفي رفق، بل وفي أسى على هذا الذي غرق في  
الإثم، ووقع بين أنياب الفتنة) (٩١٦).

٤- ولما كان العقل أعظم ما يمتاز به الإنسان عن غيره من الحيوانات؛ لأنه يميز بين  
الضار والنافع والحسن والقبيح، ويدفع صاحبه إلى الفضائل واجتناب الرذائل، ولذا سمي عقلاً  
لأنه يعقل صاحبه عن فعل القبائح، وسمي حجراً لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق، وسمي نهي

(٩١٤) سورة النور: الآيات ٣٠، ٣١.

(٩١٥) سورة النور: آية ٤، ٥.

(٩١٦) التفسير القرآني للقرآن للأستاذ: عبد الكريم الخطيب ١٨/١٢٢١.

ولبنا، وكلها أسماء تدل على شرف العقل وقيمته؛ لأن فيه أماناً للإنسان في خاصة نفسه من أن يناله أذى من غيره، وأماناً لغيره من أن يناله أذى منه، فمن تعاطى شيئاً من الأشرطة أو المأكولات أو المشروبات المسكرة التي تغطي هذا العقل وتعطله عن أداء مهمته والقيام بوظيفته، فإنه في هذه الحالة لا يؤمن أن يفعل ما يضر بنفسه أو بغيره؛ لأنه فقد صمام الأمان فأصبح خطراً يهدد المجتمع.

لذلك شرع الله ردهه بإقامة الحد عليه بالجلد المؤلم حتى يذوق وبال أمره، وليتعظ به غيره، وقد حذر الله عباده من شرب المسكرات وبين خطرها وضررها فقال: ﴿تَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَسْهَابُ وَالْأَزْكَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

ومنع هذه المسكرات من الوصول إلى المجتمع والأخذ على يد من يتعاطاها له أبلغ الأثر في سلامة المجتمع وأمنه وسعادته وصلاح أفراده.

٥- ولما كان المال قوام الحياة والحفاظ عليه من الضروريات فقد كفل له الإسلام ما يصونه فحفظ الأموال من التعدي والحقوق من التناول، وقد جعل لكل مال حرزه المعتاد حفظه فيه، فمن أخذ شيئاً من حرزه اعتبر سارقاً، والسارق جزاؤه قطع يده التي تناولت على ما ليس لها؛ لضياع الأمانة في القلب وضعف الإيمان في النفس: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٩١٨).

فقطع اليد ليس عدواناً، أو بقصد التشويه للسارق أو السارقة، ولكنه جزاء لهما باستخفافهما بالأمن، وترويعهما الناس الأمنين واعتدائهما على ما ليس لهما وعدم احترامهما لشرع الله الذي يصون الحقوق، ويؤمن الناس بالمحافظة على الأفس والأموال، من التعدي والتناول بغير حق ونكال من الله لعدم الوقوف عند حدوده التي شرع لعباده؛ لأن التعدي

(٩١٧) سورة المائدة: الآيتان ٩٠، ٩١.

(٩١٨) سورة المائدة: آية ٣٨.

استخفاف بذلك والله عزيز في ملكه حكيم في إرادته وتشريعهِ (٩١٩).

والسرقة أشد خطورة من اغتصاب المال مجاهرة؛ لأن المجاهرة تمكن مدافعتها وعمل الاحتياطات المانعة من شرها، أما السرقة فإنها مكر خفي، وغدر سيء يؤخذ بها الإنسان من مأمنه، وتدل على جراءة المجرم حيث لم تمنع منه الحروز والحصون فكان جزاؤه بتر يده وتعطيلها ردعاً له وعظة لغيره، وبهذا يتوفر الأمن للمجتمع، ويطمئن الناس على أموالهم في بيوتهم ومستودعاتهم، ويقضي على الجريمة.

٦- ولما كان ربط البلدان والأقاليم بعضها ببعض عن طريق المواصلات البرية والبحرية والجوية لنقل البضائع وتنقلات المسافرين للتجارة وغيرها من الأغراض التي تتم بها مصالحهم؛ لذلك احتاج الأمر إلى تأمين السبل بردع الذين يحاولون قطعها ويروعون المارة؛ ولأجل ذلك شرع سبحانه وتعالى حد قطاع الطريق، وهم الذين يعرضون للناس بالسلاح فيغتصبون أموالهم مجاهرة، وهذا الحد هو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَن تَلَّ اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿٩٢٠﴾.

وجاء في التفسير المنير عند تفسيره لهذه الآية: (هذه الآية آية المحاربة، وهي المضادة والمخالفة الشاملة لجريمة الكفر وقطع الطريق وإخافة السبيل والإفساد في الأرض، وبما أن هذه الجريمة تمس أمن المجتمع كله وتهز كيانه وتتشرب الرعب والقلق والخوف في أوساط الناس الأمنيين، شدد الله تعالى في عقوبة المحاربين، وهم الذين لهم قوة ومنعة وشوكة، ويتعرضون للمارة من

(٩١٩) انظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ١٧ ص ١٧٦ بتصرف.

(٩٢٠) سورة المائدة: الآيتان ٣٣، ٣٤.

المسلمين أو أهل الذمة، ويعتدون على الأرواح والأموال والأعراض) (٩٢١).

وبتطبيق هذه العقوبة على قطاع الطريق تأمن السبل وتتنظم المصالح ويتوفر الأمن في البر والبحر والحاضرة والبادية، وتتنظم المواصلات بين البلدان والأقاليم، ويسهل نقل البضائع والتبادل التجاري مما فيه صلاح العمران البشري وتوفر الإنتاج ولهذا وصف الله تعالى من يحاول تعطيل هذه المصالح بأنه محارب لله ورسوله، وساع في الأرض بالفساد.

وأخيراً: يتبين من هذا العرض الموجز ما حققه الإسلام من أمن المجتمع حين عجزت كل نظم البشر وأسلحتهم الفتاكة وأجهزتهم الدقيقة، أن تحقق أقل القليل من هذا الأمن الذي حققه الإسلام؛ إذ أنه لا شيء يؤمن المجتمع، ويحفظ أمنه، ويصون الأمة ويقضي على أسباب الخوف إلا تطبيق ما ارتضاه الله في شرعه، وأكدته رسوله الكريم ﷺ، بحماية الأفراد والمحافظة على الجماعات؛ لأن الله رؤوف بعباده رحيم بهم، وهو الذي خلقهم ويعلم ما فيه صلاحهم في العاجل والآجل، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُورُوا يُوقُونَ ﴾ (٩٢٢).

### ثالثاً:

## التعزير حسبما يراه الحاكم

عرفنا من خلال ما سبق -في بند ثانياً- أن الحدود هي تلك العقوبات المقدرة شرعاً جزاء مخالفة أمر الشارع.

كما تبينا أهمية إقامة حدود الله في استتباب الأمن وقمع المجرمين وقطع دابر المفسدين.

وسأحاول أن أبين جانباً آخر من جوانب الحماية الشرعية للمجتمع المسلم، وتحقيق أمنه وصيانة حقوق أهله، ذلك الجانب هو «التعزير».

(٩٢١) التفسير المنير للدكتور: وهبة الزحيلي ١٦٣/٦.

(٩٢٢) سورة المائدة: آية ٥٠.

والكلام عن التعزير بعد الكلام عن الحدود أمرٌ له أهميته؛ وذلك لأن بعض الناس قد يتصور أن تحديد الشرع لعقوبات بعض الجرائم -كالردة والزنا والقذف وضرب الخمر والسرققة وقطع الطريق- يدل على أن ما سواها لا عقوبة عليه لحقارته وهوانه، وعدم تأثيره على المجتمع المسلم.

والحقيقة التي لا مرأى فيها هي أن الأمر بخلاف ذلك تمامًا حيث إن بعض الجرائم التي لم تقدر عقوبتها قد تكون أشدَّ خطرًا وأعظم ضررًا، بحسب زمانها ومكانها وحال مرتكبيها، ولهذا تركت عقوبتها لاجتهاد الإمام، حتى يقدر لصاحبها من الجزاء ما يردعه ويحقق الزجر لغيره؛ ولهذا فإن بعض العقوبات التعزيرية قد تكون أكثر من بعض الحدود، كالقتل مثلاً.

### تعريف التعزير:

التعزير في اللغة: أصله العزر، وهو المنع والردع والتأديب<sup>(٩٢٣)</sup>.

وفي الاصطلاح: العقوبة المشروعة على جناية لا حدَّ فيها<sup>(٩٢٤)</sup>.

أو هو: التأديب على ذنب لا حد فيه<sup>(٩٢٥)</sup>.

وحكم التعزير ثابت بالنصوص الصحيحة من سنة رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله ﷺ:

(٩٢٣) انظر: مختار الصحاح للرازي ص ٤٢٩ مادة (عز).

(٩٢٤) المغني لابن قدامة ١٢/٥٢٣.

(٩٢٥) انظر: قواعد الفقه للسيد محمد عيم الإحسان المجددي ص ٢٣١.

«لا تجلدوا فوق عشرة أسواط إلا في حدّ من حدود الله»<sup>(٩٢٦)</sup>.

### الفرق بين التعزير وبين الحدود:

من المسلم به أن الحدود والتعزير كلها عقوبات شرعت لإصلاح الفرد وحماية المجتمع، ومع أن الهدف الذي شرعت لأجله تلك العقوبات هدف واحد إلا أنها تختلف، وبيان ذلك الاختلاف من وجوه<sup>(٩٢٧)</sup>.

**أولها:** أن عقوبة الحدود عقوبة مقدرة من قبل الشارع، لا مجال فيها للاجتهاد وليس لأي إنسان مهما كانت صفته أن يزيد عليها، أو أن ينقص منها.

وأما عقوبة التعزير فهي راجعة إلى اجتهاد الحاكم، فهو الذي يختار نوعها ويحدد مقدارها، حيث يلاحظ عند توقيعها على المجرمين ما يناسب كل فرد، بحسب ما إذا كان من أهل الجريمة، أو كان من غير أهلها.

كما يتدرج في العقوبة التعزيرية فيبدأ بالأخف فالأشد، وذلك لأن من المجرمين من يصلح حاله بمجرد الزجر والتأنيب، ومنهم من لا ينزجر ولا يرتدع إلا بحبسه أو ضربه، ومنهم من لا يمكن دفع شره إلا بقتله.

**ثانيها:** أن العقوبة التعزيرية يجوز توقيعها على الصبي، وعلى المجنون الذي لديه بعض الإدراك لأنها عقوبة تأديبية، أو العقوبة الحدية فإنها لا توقع على أي من هؤلاء لأن التكليف من أهم الشروط التي نص الفقهاء على وجوب توفرها في المحدود.

**ثالثها:** أن لولي الأمر أن يقبل الشفاعة في التعزير، كما له -أيضاً- أن يعفو عن

(٩٢٦) صحيح البخاري (كتاب الخاريين، باب: كم التعزير والأدب؟) رقم الحديث (٦٤٥٨) ٢٥٢١/٦،  
وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود، باب: قدر أسواط التعزير) رقم الحديث (٤٤٣٥) ٢١٩/١١.

(٩٢٧) انظر: هذه الفروق في كل من: النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود ١٧/١-١٩، والعقوبة في الفقه الإسلامي لأحمد فتحي ممش ص ١٢٩، ١٣٠.

مرتكب الجريمة التي يعزر من أجلها المتهم، بينما في الحدود لا يقبل فيها عفو ولا شفاعة بعد بلوغها الإمام.

**رابعها:** أن العقوبة التعزيرية تسقط بالتوبة إذا ظهرت أمارات تدل على أن الجاني قد تاب عما صدر منه من قول أو فعل، وهذا بخلاف الحد فإن التوبة لا أثر لها في غسقاط الحد الواجب على أصح الأقوال إلا إذا كان الحد حد حرابة وتحققت توبة الجاني قبل القدرة عليه.

**خامسها:** أن الحدود تدرأ بالشبهات، ولا يجوز الحكم بقبوتها عند قيام الشبهة، سواء كانت حقاً خالصاً لله كحد الزنا والسرقه<sup>(٩٢٨)</sup> والشرب، أو مشتركة بين الخالق والمخلوق كحد القذف، وهذا بخلاف التعزير فإنه يحكم بثبوت موجهه ولو مع قيام الشبهة.

**سادسها:** أن ما يحدث من التلف في الحد هدرٌ لا ضمان على منفذه بخلاف التعزير فإن التلف فيه يوجب الضمان، وخاصة عند الشافعية في مشهور مذهبه<sup>(٩٢٩)</sup> ويخالفه في ذلك أكثر الفقهاء<sup>(٩٣٠)</sup>.

**أسباب التعزير<sup>(٩٣١)</sup>:**

مما لا شك فيه أن الجرائم كلها لا تنشأ إلا عن معصية الله تعالى، والخروج عن طاعته.

ومن هذا يعرف أن أسباب التعزير هي ارتكاب المعصية بمخالفة أمر الله أو إتيان منهي عنه.

وعلى هذا فالجرائم كلها معاص تستوجب العقوبة، وهذه العقوبة إن جاء تحديدها بنص من الشارع فهي من الحدود، كما مضى في جرائم السرقه، وشرب الخمر، والزنا...، وإن لم

(٩٢٨) هذا ما ذكره المؤلف علماً أن السرقه حق للآدميين، والله أعلم.

(٩٢٩) المهذب للشيرازي ٢/٢٩٠.

(٩٣٠) المغني لابن قدامة ١٢/٥٢٧، والنظرية العامة لإثبات موجبات الحدود ١/١٧-١٩.

(٩٣١) انظر: السياسة الشرعية لابن تيمه ص ١١٩-١٢٠.

يأت نص من الشارع بتقدير العقوبة في الجريمة أصبحت من الجرائم التي تدخل في التعازير.

ومن خلال هذا يتبين أن جرائم التعزير وعقوباتها داخلة تحت عموم النصوص التي تأمر بطاعة الله تعالى وتنتهي عن مخالفته.

(ولعلها تلاحظ دقة التشريع الإسلامي وحكمته البالغة في أنه لم يحصر جرائم التعزير في عدد معين، كما لم يخصص لكل جريمة أو جرائم عقوبة خاصة فإن صنيعة ذلك مكنالقاضي أو الحاكم أن يضع لكل مخالفة ما يناسبها من العقوبة بحيث لا تفلت جريمة من الجرائم دون أن ينال فاعلها ما يستحقه من الجزاء، كما أنه أيضاً جعل للقاضي سلطة واسعة في الحكم على الجريمة بحسب ما تحدثه من الضرر وما ينتج عنها من الأثر، فيحكم بالعقوبة المناسبة لها، كما أنه فتح الباب لإدخال جرائم لم تكن معروفة في عصر من العصور أو بيئة من البيئات، ليوضع لها الجزاء المناسب، وقد صدق الواقع صحة هذا الوضع من البيئات، ليوضع لها الجزاء المناسب، وقد صدق الواقع صحة هذا الوضع في التشريع الإسلامي، حيث وجدت جرائم فيما جد من العصور، لم تكن معروفة من قبل، كخطف الطائرات أو استعمال الأصوات المزعجة من سائقي السيارات، أو المذياع، أو تصوير الصور الخليعة، أو الأماكن الممنوعة التصوير، إلى غير ذلك مما يمكن إدراجه في جرائم التعزير)<sup>(٩٣٢)</sup>.

### أنواع التعزير:

التعازير في الشرع الإسلامي على أنواع، وسأذكر منها أهم ما عرفته الشريعة من التعازير ووضع فعلاً موضع العمل، علماً بأن مبادئ الشريعة لا تمنع من الأخذ بأية عقوبة أخرى، أو الجمع بين عقوبتين حسب ما يحقق المصلحة المقصودة من العقاب.

### وأهم أنواع التعزير<sup>(٩٣٣)</sup>:

أولاً: عقوبة الجلد: وهي من العقوبات الأساسية في التشريع سواء في الحدود أم في غيرها، بل تكاد أن تكون هي العقوبة المفضلة في جرائم التعزير الخطيرة؛ لأنها أكثر

(٩٣٢) أثر تطبيق الحدود في المجتمع ص ٢٧٠.

(٩٣٣) انظر أنواع التعزير مفصلة في: التشريع الجنائي الإسلامي ١/٦٨٧-٧٠٥ وقد أخذنا بتصرف كبير.

العقوبات ردعًا للمجرمين الخطيرين الذين طُبعوا على الإجرام.

كما أن تنفيذها لا يتقل كاهل الدولة، ولا يعطل المحكوم عليه عن الإنتاج، كما أن تحميه من شر المحابس وما تجره السجون -أحيانًا- من الفساد.

ثانيًا: الحبس سواء أكان الحبس محدد المدة أم لا، وعقوبة الحبس في الشريعة الإسلامية ليست إلا عقوبة ثانوية لا يعاقب بها إلا على الجرائم اليسيرة.

ثالثًا: التغريب أو الإبعاد، كما سبق بيانه في حدّ الزاني غير المحصن، وقد يلجأ إلى التغريب إذا تعدّت أفعال المجرم إلى اجتذاب غيره إليها، أو استنصراره بها.

رابعًا: الصلب؛ وهو عقوبة بدنية يقصد منها التأديب والتشهير معًا، والصلب يقصد التعزير لا يصحبه القتل طبعًا ولا يسبقه وإنما يُصلب الإنسان حيًّا ولا يمنع عنه طعامه ولا شربه ولا يمنع من الصلاة إيماءً، ويشترط الفقهاء ألا تزيد مدة الصلب عن ثلاثة أيام.

خامسًا: عقوبة الجهر: وقد ورد بها القرآن الكريم تعزيرًا وتأديبًا للمرأة الناشزة في قوله تعالى: ﴿فَعُظِّمُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾<sup>(٩٣٤)</sup>.

وقد عاقب رسول الله ﷺ بالهجر، حيث أمر بهجر الثلاثة التي خلفوا عن غزوة تبوك<sup>(٩٣٥)</sup>.

سادسًا: عقوبة التوبيخ، وهي من العقوبات التعزيرية، فإذا رأى القاضي أن التوبيخ يكفي لإصلاح الجاني وتأديبه اكتفى به.

ولقد عزر رسول الله ﷺ بالتوبيخ، ومن ذلك ما رواه أبو ذر<sup>(٩٣٦)</sup> -رضي الله عنه- قال:

(٩٣٤) سورة النساء: آية ٣٤.

(٩٣٥) الحديث في صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب: وعلى الثلاثة الذين خلفوا .... إلخ) رقم الحديث (٤٤٠٠) ١٧١٨/٤.

(٩٣٦) أبو ذر: اختلف في اسمه اختلافًا كثيرًا، فقيل: جندب بن جنادة، وهو أكثر وأصح ما قيل فيه، وقيل: بربر بن عبد الله، وبربر بن جنادة، وبربر بن عشرة، وقيل غير ذلك، والمشهور جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة الغفاري،

ساببت رجلاً فعيرته بأمه، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية

سابقاً: التشهير: وهي الإعلان عن جريمة المحكوم عليه، وخاصة في الجرائم التي يعتمد فيها المجرم على ثقة الناس كشهادة الزور والغش.

وكان التشهير يحدث قديماً بالمناداة على المجرم بذنبه في الأسواق المحلات العامة، وأما في عصرنا هذا فوسائله كثيرة كالصحف والنشرات، وهناك أيضاً أنواع أخرى للتعزير كالعزل من الوظيفة، والحرمان من بعض الحقوق المقدره شرعاً، ومصادرة أدوات الجريمة وما تحرم حيازته، وكإزالة آثار الجريمة، كهدم البناء المقام في ملك الغير.

### أقل التعزير وأكثره:

الاتفاق بين أهل العلم -رحمهم الله تعالى- قائم على أن التعزير لا حدّ لأقله وقد حدد النبي ﷺ أكثره، ولم يقدر أقله، وذلك أنه لو كان مقدراً لكان حدّاً من الحدود.

جاء في السياسة الشرعية: (وليس لأقل التعزير حد بل هو بكل ما فيه إيلاء الإنسان من قول وفعل، وترك قول، وترك فعل، فقد يعزّر الرجل بوعظه وتوبيخه والاعلاظ له، وقد يعزر بهجره وترك السلام عليه حتى يتوب إذا كان ذلك هو المصلحة، كما هجر النبي ﷺ: «الثلاثة الذين خلفوا»). وقد يعزر بعزله عن ولايته كما كان النبي ﷺ وأصحابه يعزرون بذلك، وقد يعزر بترك استخدامه في جند المسلمين كالجندي المقاتل إذا فرّ من الزحف، فإن الفرار من الزحف من الكبائر، وقطع خبزه نوع تعزير له، وكذلك الأمير إذا فعل ما يستعظم

---

وكان من كبار الصحابة وفضلائهم قدم الإسلام أسلم بعد أربعة وكان خامساً، ثم انصرف إلى بلاده وأقام بها حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فهاجر إليه أبو ذر ولازمه وحاهد معه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، توفي بالربذة سنة ٣١هـ، أو ٣٢هـ، وصلى عليه ابن مسعود، ثم مات بعده في ذلك العام، انظر: أسد الغابة ٩٩/٦، وسير أعلام النبلاء ٤٦/٢.

(٩٣٧) الحديث في صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية) رقم الحديث (٣٠) ٢٠/١، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان والنور، باب: إطعام المملوك مما يأكل) رقم الحديث (٤٢٨٩)

فعلله من الإمارة تعزير له، وكذلك قد يعزّر بالحبس، وقد يعزّر بالضرب وقد يعزّر بتسويد وجهه وإركابه على دابته مقلوبًا...» (٩٣٨).

وأما الحد الأعلى للتعزير، فقد جرى فيه الخلاف، وبيان ذلك كالآتي:

١- ذهب أبو حنيفة، والشافعي، والإمام أحمد -في رواية- إلى أنه لا يجوز أن يبلغ بالتعزير أدنى الحدود وهو جلد شارب الخمر (٩٣٩).

فإذا كان المعزّر حرًا لم يبلغ له الأربعين، وإن كان عبدًا لم يبلغ به العشرين.

ودليل هذا: ما روي أن النبي ﷺ قال: «من بلغ بما ليس بحد حدًا فهو من المعتدين» (٩٤٠).

٢- وذهب أبو يوسف (٩٤١) وغيره إلى أن أدنى الحدود ثمانون، فلا يزداد في التعزير على تسعة وسبعين سوطًا.

٣- وذهب الإمام أحمد في المشهور عنه (٩٤٢) إلى أنه لا يزداد في التعزير على عشر جلدات، ودليله قوله ﷺ: «لا يجلد أحدٌ فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله تعالى» (٩٤٣).

(٩٣٨) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٢٠، ١٢١.

(٩٣٩) انظر: الهداية للمرغيناني ١١٧/٢، والمهذب للشيرازي ٢٨٩/٢، والمغني لابن قدامة ١٢/٥٢٤.

(٩٤٠) الحديث أخرجه البيهقي في (باب: ما جاء في التعزير، وأنه لا يبلغ به أربعين) من كتاب الأشربة والحد فيها. السنن الكبرى ٣٢٧/٨.

(٩٤١) هو: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، يكنى بأبي يوسف، ولد بالكوفة سنة ١١٣هـ، أخذ الفقه عن أبي حنيفة وغلب عليه مذهبه، وخالفه في كثير من المسائل، من مؤلفاته الخراج، وتوفي عام ١٨٢هـ رحمه الله، انظر: وفيات الأعيان لأبي العباس بن خلكان ٦/٣٧٨، والأعلام للزركلي ٨/١٩٣.

(٩٤٢) المغني، لابن قدامة ١٢/٥٢٥.

(٩٤٣) سبق تخريجه الحديث آنفًا ص ٣٨٠.

ولأن العقوبة على قدر الإجرام والمعصية، والمعاصي المنصوص على حدودها أعظم من غيرها، فلا يجوز أن يبلغ في أهون الأمرين عقوبة أعظمهما.

٤- وذهب الإمام مالك إلى جواز الزيادة عن الحد إذا رأى الإمام ذلك<sup>(٩٤٤)</sup>، ودليله أن علياً رضي الله عنه أتى بالنجاشي (الشاعر) قد شرب خمرًا في رمضان، فجلده ثمانين الحدّ، وعشرين سوطاً لفظره في رمضان<sup>(٩٤٥)</sup>.

٥- وذهبت طائفة من الشافعية والحنابلة<sup>(٩٤٦)</sup> إلى أنه لا يبلغ بالتعزير في معصية قدر الحد فيها، فلا يبلغ بالتعزير على النظر والمباشرة حد الزنا، ولا على السرقة من غير حرز حد القطع، ولا على الشتم بدون القذف حد القذف.

٦- ومن العلماء من ذهب إلى أن تقدير أكثر التعزير يكون بحسب المصلحة، وعلى قدر الجريمة، فهو راجع إلى اجتهاد وليّ الأمر.

ولكن هل يمكن أن يصل التعزير إلى القتل؟:

وذهب جمهور العلماء إلى عدم جواز الوصول بالتعزير إلى درجة القتل؛ لأن التعزير عقوبة تأديبية لا إتلافية<sup>(٩٤٧)</sup>.

لكن الكثيرين من الفقهاء أجازوا استثناءً من هذه القاعدة العامة أن يعاقب بالقتل تعزيراً، إذا اقتضت المصلحة العامة تقرير عقوبة القتل، أو كان فساد المجرم لا يزول إلا بقتله.

وذهب كثير من الحنفية وبعض المالكية إلى جواز القتل تعزيراً، ووافقهم في هذا شيخ

(٩٤٤) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح للوزير ابن هبيرة ٢/٢٤٦.

(٩٤٥) أخرجه الطحاوي في (باب: بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: «لا يجلد فوق عشر جلدات...» مشكل الآثار لأبي جعفر الطحاوي ٣/١٦٨.

(٩٤٦) المهذب ٢/٢٨٩، والمغني لابن قدامة ١٢/٥٢٤.

(٩٤٧) التشريع الجنائي الإسلامي ١/٦٨٧.

الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم<sup>(٩٤٨)</sup>.

ويسميه الحنفية «القتل سياسة»<sup>(٩٤٩)</sup>.

جاء في السياسية الشرعية : (وجوز طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما قتل الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة، وكذلك كثير من أصحاب مالك، وقالوا: إنما جوز مالك وغيره قتل القدرية لأجل الفساد في الأرض، لا لأجل الردة، ... وقد يستدل على أن المفسد إذا لم ينقطع شره إلا بقتله فإنه يقتل بما رواه مسلم في صحيحه عن عرفة الأشجعي<sup>(٩٥٠)</sup> رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فقتلوه»<sup>(٩٥١)</sup>.

وجماع ذلك أن العقوبة نوعان:

أحدهما: على ذنب ماضٍ، جزاءً بما كسب نكالاً من الله، كجلد الشارب والقاذف، وقطع المحارب والسارق.

والثاني: العقوبة لتأدية حق واجب، وترك محرم فيا لمستقبل، كما يستتاب المرتد حتى

(٩٤٨) انظر: السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٢٤، والطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ص ١٠٧-١٠٨.

وابن القيم هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، ولد عام ٦٩١هـ ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية وأخذ عنه، وهذب كتبه ونشر علمه، كان تقياً ورعاً، عالماً بالحديث والفقه والتفسير حبس مع شيخه في المرة الأخيرة بدمشق، ولم يفرج عنه إلا بعد موته شيخه، من مؤلفاته: زاد المعاد، وأعلام الموقعين، توفي عام ٧٥١هـ رحمه الله. انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٤/٤٤٧، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١٤/٢٣٤.

(٩٤٩) التشريع الجنائي الإسلامي ٦/٦٨٨.

(٩٥٠) هو: عرفة بن شريح، ويُقال: شريح بن شراحيل الأشجعي، له صحبة، روى عن النبي ﷺ، وأورد له العسكري في الصحابة حديثين، انظر: تهذيب التهذيب ٧/١٧٦.

(٩٥١) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإمارة، باب: حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع) رقم الحديث (٤٧٧٥) ١٢/٤٤٤، وسنن النسائي (كتاب تحريم الدم، باب: قتل من فارق الجماعة) ٧/٩٢، ٩٣.

يُسلم فإن تاب وإلا قتل(٩٥٢).

نعم، إن هناك أناسًا استمرأت أنفسهم الشر وأدمنته فلا تنفعهم نصيحة ولا يجدي فيهم توبيخ، ولا يردعهم ضرب، وأمثال هؤلاء إذا رتكوا أفسدوا، فكان في قتلهم خيرًا، وخاصة دعاة الفتنة القاصدين تفريق الجماعة، الناشرين للبدع المضلة والجرائم المخلة.

إن قتل هؤلاء قطع لدابر الشر والفساد، وقضاء على الفتنة في مهدها لتسلم الجماعة، وتحفظ الدماء؛ ولهذا أثره في تحقيق أمن المجتمع بكامله.

### التعزير بالمال:

وهناك طائفة من الناس لا يردعهم العقاب البدني، بقدر ما تردعهم العقوبة المالية، فتراهم يلهثون دائمًا في سبيل الوصول إلى أكبر قدر من المال، غير عابئين بالطريق الموصل إليه، حلالاً كان أم حراماً، وأمثال هؤلاء يشق عليهم أخذ الدرهم الواحد أكثر من مائة جلة وتقدير هذا الأمر راجع إلى الحاكم المسلم، فمتى رأى العقوبة المالية أجدر وأوقع في العقوبة والردع حكم بها.

علمًا بأن هناك من أهل العلم من يرى عدم جواز العقوبة المالية مدعيًا نسخ جوازها، وليس قولهم بصحيح(٩٥٣).

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما التعزير بالعقوبة المالية فمشروع أيضًا في مواضع مخصوصة في مذهب مالك وأحمد، وأحد قولي الشافعي، وقد جاءت السنة عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه بذلك في مواضع...، ومن قال: إن العقوبات المالية منسوخة وأطلق ذلك، فقد غلط على مذاهب الأئمة نقلًا واستدلالًا، فأكثر هذه المسائل سائغ في مذهب أحمد وغيره، وكثير منها سائغ عند مالك، وفعل الخلفاء الراشدين، وأكابر الصحابة لها بعد موته ﷺ، مبطل -أيضًا- لدعوى نسخها، والمدعون للنسخ ليس معهم كتاب ولا سنة ولا إجماع يصحح

(٩٥٢) السياسة الشرعية ص ١٢٢-١٢٤ بتصرف شديد.

(٩٥٣) انظر: الطرق الحكمية لابن القيم ص ٢٦٧.

## أثر التعزير في أمن المجتمع:

من خلال ما سبق من الكلام -عن التعزير- تبين أن التعزير عقوبة غير مقدره شرعاً، وإنما يرجع تحديدها وتقديرها إلى اجتهاد الحاكم المسلم، ولاشك أن إرجاع العقوبة التعزيرية إلى الحاكم دليل على حرص الإسلام على تحقيق المصلحة العامة ومراعاة أسباب الحفاظ عليها، ودفع كل ما يمكن أن يؤدي إلى ضياعها.

إذ أن بإمكان الحاكم حينئذ أن ينظر في الجريمة الحاصلة فيقدر لها الجزاء المناسب الذي يقطع سبل الشر والعدوان ويحقق للمجتمع الأمن والاطمئنان.

وجاءت مشروعية التعزير قطعاً لآمال المفسدين الذين يظنون أن العقوبة مقصورة على جرائم الحدود فقط، وأنهم إذا اجتنبوا موجبات الحدود سلموا من العقوبة في الجرائم الأخرى، ولكن هيئات هيئات فليس إلى تحقيق آمالهم وأطماعهم من سبيل، فحكم الله لهم بالمرصاد، والله عالم بما تكنه النفوس، وفي شرعه ما يحقق الخير والسلامة والطمأنينة في كل زمان ومكان.

## رابعاً

### ضمان الإتلاف

لابد لكل أمة مهما علا شأنها من قوانين تنظم حياتها، وتنسق علاقات أفرادها وجماعاتها ليعيش الجميع في سلام ووثام.

ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة أن أكرمها بشريعة الإسلام التي استوعبت أحكامها جميع فروع الحياة، ووضعت لكل حالة أمثل الأحكام، وأكثرها تحقيقاً لمصالح الأفراد والجماعات.

وقد تمسك المسلمون الأولون بهذا الدين وطبقوا أحكامه، فكانوا سادة العالم، ودكوا حصون جبابرته، وقمعوا ما يضطرب في أحشائه من فتن، وأحلوا فيه الطمأنينة، ونشروا في ربوعه السلام، فأمن الخائف واستقرَّ الشريد.

ومما لا شك فيه: أن حوادث الإلتلاف تحصل كثيراً في حياة الناس، وتترتب على ذلك كثرة النزاعات والخصومات، وربما أدى ذلك إلى إرابة الدماء وإزهاق الأنفس، وضياع الأموال، وهذا كله يمثل زعزعة لأمن المجتمع، وترويعاً للأمنين ودرءاً لهذه الأخطار والمفاسد أوجب الشارع «ضمان الإلتلاف» وبتطبيق هذا الحكم الشرعي يأمن الناس على أموالهم ودمائهم، إذ أن المجرمين متى علموا عقوبة جريمتهم، وأن الشرع يوجب عليهم ضمان ما أتلفوه، فإنهم سيرتدعون عن ذلك، وسيحاسبون أنفسهم قبل أن يقدموا على الجرم، وحينئذ تسلم حقوق الناس، وتصان دماؤهم وتحفظ أرواحهم.

وهذا في حقيقته تدبير من التدابير الواقية من حصول الجريمة والفوضى، ليس المقصود منه العقوبة والجزاء، وإنما المقصود منه الكف عن الوقوع في مثل ذلك خاصة إذا علم المسلم أن تطبيق هذا الجانب جزء لا يتجزأ من تعاليم وأحكام دينه الإسلامي.

### تعريف ضمان الإلتلاف:

ضمان الإلتلاف يتكون من كلمتين: إحداهما: ضمان، والأخرى: الإلتلاف، ولا يتضح المعنى إلا بتعريف كل واحدة من هاتين الكلمتين على انفراد.

### فأما الضمان:

فهو في اللغة: مأخوذ من الفعل «ضمن» الشيء ضماناً، أي: كفل به فهو ضامن وضمين، ويقال ضمنته الشيء تضميناً فتضمنه عن، إذا غرمته<sup>(٩٥٥)</sup>.

وهكذا فإن مادة ضمن في معاجم اللغة، ترد لمعانٍ، فتطلق ويراد بها الكفالة والالتزام، وتطلق ويراد بها الغرامة.

وقد جاء في الحديث ورود الضمان بمعنى الكفالة والحفظ، كما في قوله ﷺ: «من

يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»<sup>(٩٥٦)</sup>.

وجاء في الحديث -أيضاً- ورود الضمان بمعنى الغرامة، كما في الحديث: «الخراج بالضمان»<sup>(٩٥٧)</sup>.

وأما في الاصطلاح: فقد استعمل الفقهاء لفظ الضمان بمعنيين، حيث استعمله الجمهور بمعنى الكفالة وعقدوا لذلك باباً عنوانه الضمان.

ومن تلك التعريفات ما جاء في المعنى: (الضمان: ضمُّ ذمة الضامن إلى ذمة المضمون عنه في التزام الحق)<sup>(٩٥٨)</sup>.

كما يعرف الضمان في الاصطلاح -أيضاً- بأنه: (ردّ مثل الهالك إن كان مثلياً، أو قيمته إن كان قيميّاً)<sup>(٩٥٩)</sup>.

وأما الإلتلاف:

فهو في اللغة: مأخوذ من الفعل تلف.

وأما في الاصطلاح: فهو إهلاك الشيء أو إفساده مباشرة أو تسبباً<sup>(٩٦٠)</sup>.

مشروعية الضمان:

لقد أمرت الشريعة الإسلامية بحفظ الأموال، ونهت عن إضاعتها، وضمنت النفوس

---

(٩٥٦) صحيح البخاري (كتاب الرقاق، باب: حفظ اللسان) رقم الحديث (٦١٠٩) ٢٣٧٦/٥.

(٩٥٧) سنن الترمذي (كتاب البيوع، باب: ما جاء فيمن يشتري العبد فيستغله) رقم الحديث (١٢٨٥) ٥٧٣/٣،

وقال: (هذا حديث حسن صحيح) وسنن ابن ماجه (كتاب التجارات، باب: الخراج بالضمان) رقم الحديث

(١٨٢١) ٢٢٢/٢ وسنن أبي داود (كتاب الإجارة، باب: من اشترى عبداً فاستعمله ثم وجد به عيباً) رقم

الحديث (٣٥٠٨) ٢٨٤/٣.

(٩٥٨) المغني لابن قدامة ٧١/٧.

(٩٥٩) انظر: قواعد الفقه للسيد محمد عميم الإحسان المحددي ص ٣٥٩.

(٩٦٠) انظر: المرجع السابق ص ١٥٨.

وحرمت إزهاقها، وشرعت تدعيماً لذلك الضمان على متلفها، صوتاً وحماية لها، وجبراً للضرر الذي يلحق صاحبها من الاعتداء عليها، وقمعاً للعدوان، وزجرًا للمعتدين، وقد وردت في القرآن الكريم آيات تدل على الضمان، ويمثل ذلك جاءت السنة النبوية.

### ومن الآيات القرآنية:

قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِ يَمْثِلُ مَا أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ﴾ (٩٦١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ (٩٦٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جُمْلٌ بِعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٩٦٣).

### ومن الأحاديث النبوية:

ما ثبت أن النبي ﷺ أتى برجل ليصلي عليه، فقال: «هل عليه دين؟». قالوا: نعم، ديناران، قال: «هل ترك شيئاً؟» قالوا: لا، فقال: «صلوا على صاحبكم». قال رجل من الأنصار: صل عليه وعلي دينه، فصلى عليه (٩٦٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما رأيت صانعة طعاماً مثل صافية) (٩٦٥)، صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فبعثت به، فكسرت الإناء، فقلت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟

(٩٦١) سورة البقرة: آية ١٩٤.

(٩٦٢) سورة النحل: آية ١٢٦.

(٩٦٣) سورة يوسف: آية ٧٢.

(٩٦٤) صحيح البخاري (كتاب الكفالة، باب: من تكفل عن ميت ديناً ...). رقم الحديث (٢١٧٣) ٨٠٣/٢.

(٩٦٥) هي: صافية بنت حيمي بن أخطب بن سبعة بن ثعلبة بن كعب، وهم من بني إسرائيل من سبط الأودي بن يعقوب ثم من ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران عليهما السلام، سببت يوم خيبر وصارت في سهم دحية الكلبي، فقيل للنبي ﷺ إنما لا تسلم إلا لك، إنما سيدة قريظة والنظير، فقال النبي ﷺ لدحية: خذ غيرها، وأخذها رسول الله ﷺ واصطفاها وحجها وأعتقها وتزوجها وقسم لها وكانت عاقلة من عقلاء النساء، توفيت سنة ٦٣ هـ وقيل: سنة ٥٠ انظر: أسد الغابة ١٦٩/٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣١/٢.

قال: «إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام»<sup>(٩٦٦)</sup>.

### أسباب الضمان:

عندما تحدث الفقهاء عن الضمان وأسبابه لم ينفقوا في تحديد أسبابه المقتضية للتضمنين، وذلك لأنهم لم يعدوا بابًا خاصًا يتناولون فيه أسباب الضمان وأركانه وشروطه وما يجب فيه إلى غير ذلك مما يتعلق به من موضوعات وأحكام.

فهناك ما يذكر أن أسباب الضمان ثلاثة: عقد، ويد، وإتلاف<sup>(٩٦٧)</sup>.

وهناك من يرى أن أسباب الضمان أربعة: العقد، واليد، والإتلاف، والحيلولة<sup>(٩٦٨)</sup>.

وهناك من يرى أن موجبات الضمان: إما المباشرة لأخذ المال المغصوب أو لإتلافه، وإما المباشرة للسبب المتلف، وإما إثبات اليد<sup>(٩٦٩)</sup>.

**والحقيقة:** أن بعض هذه الأسباب متداخلة؛ لأن المقصود بالعدوان هو المباشرة، كما أن المباشرة والتسبب يجمعهما الإتلاف؛ لأن الإتلاف إما أن يكون مباشرة أو تسببًا، وكذلك التفويت، والتغيير، والعيب نوع من الإتلاف.

فأمَّا العقد فكان سببًا من أسباب الضمان؛ لأن العقد بطبيعته ينقضي أحكامًا خاصة، كما أنه قد يكون مقترنًا بشرط لأحد المتعاقدين أو لهما، والإخلال بشيء مما تقتضيه طبيعة العقد، أو يتطلبه الشرط المقترن به، مصدر من مصادر الضمان<sup>(٩٧٠)</sup>.

والأصل في الوفاء بالعقود ومضمونها: قول الله تعالى: ﴿رَبَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا

(٩٦٦) سنن النسائي (كتاب عشرة النساء، باب: الغيرة) ٧/٧٧.

(٩٦٧) انظر: القواعد في الفقه الإسلامي لابن رجب ص ٥٦.

(٩٦٨) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٣٦٢.

(٩٦٩) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ٦/٤٠٦.

(٩٧٠) انظر: ضمان المتلفات في الفقه الإسلامي للدكتور سليمان بن محمد بن أحمد ص ٦٧.

وأما وضع اليد فهو سبب من أسباب الضمان، سواء أكانت اليد مؤتمنة أم غير مؤتمنة، ويتمثل وضع اليد على المال في حيازته.

واليد غير المؤتمنة هي التي تحوز المال بغير إذن مالكه كالسرقة والغصب، واليد المؤتمنة كيد المستأجر، والمستعير، والوديع.

والأصل في الضمان بوضع اليد: قوله ﷺ: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه» (٩٧٢).

وأما الإلتلاف فهو -أيضاً- سبب من أسباب الضمان، سواء أكان ذلك الإلتلاف حاصلًا بالمباشرة، أم بالتسبب.

### والإلتلاف لا يخلو:

١- إما أن يرد على بني آدم.

٢- وأما أن يرد على غيرهم من البهائم والجمادات.

وضمان الإلتلاف -الذي هو موضوع البحث- يشمل الاثنيين، فهو يشمل الإلتلاف الواقع على الأدميين، وهو ما يبحثه الفقهاء في أبواب الجنایات، ويشمل الإلتلاف الواقع على غير الأدميين من البهائم والأموال المنقولة وغير المنقولة.

### فأما الإلتلاف الواقع على الأدميين:

فقد سبق أن أوضحتُ حرمة النفس المعصومة في الإسلام، عملاً بقوله ﷺ: «لا يحل

(٩٧١) سورة المائدة: آية ١.

(٩٧٢) سنن أبي داود (كتاب البيوع، باب: في تضمين العارية مؤداة) رقم الحديث (٣٥٦١) ٣/٢٩٦، وسنن الترمذي (أبواب البيوع، باب: ما جاء في أن العارية مؤداة) رقم الحديث (١٢٦٦) ٣/٥٥٧ قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن صحيح).

دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث...»<sup>(٩٧٣)</sup>. وبقوله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»<sup>(٩٧٤)</sup>.

ومن هنا رتب الشرع جزءاً رادعاً لكل معتدٍ على حرمة النفس المعصومة، سواء بإزهاقها، أو بإتلاف عضو منها.

وهذا الجزء يتمثل في القصاص سواء أكان في النفس، أم فيما دونها.

**والقصاص:** عقوبة تجب بارتكاب جريمة القتل العمد، وهو يعني: المماثلة، أي: مجازاة الجاني بمثل فعله، وهو القتل إن كانت الجناية قتلاً، أو قطع طرف أو عضو إن كانت الجناية كذلك.

ومصدر عقوبة القصاص هو القرآن والسنة.

فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِيُّ بِالْحَرْبِ وَالْمَعْبُودُ بِالْمَعْبُودِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَائْتِغَاءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَدَاؤُكُمْ أَيْمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٥﴾﴾.

والرسول ﷺ قال: «من قُتل له قَتيل فهو بخير النظرين، إما أن يعطي الدية، وإما أن يُقَادَ أَهْلَ الْقَتِيلِ»<sup>(٩٧٦)</sup>.

**وحكمة القصاص:** التشفي ودرك الغيظ، الذي لا يحصل إلا به، فقد يكون الجاني ذا مال، وله غرض في أذى المجني عليه، ويبقى بغبنه وغيظه، وحكمة التشريع تأبى ذلك، فشرع القصاص زجرًا عن العدوان، واستداركاً لما في النفوس وإذاعة الجاني ما أذاقه المجني

(٩٧٣) سبق تخريج الحديث ص ٢٨٥.

(٩٧٤) سبق تخريج الحديث ص ٣٤٣.

(٩٧٥) سورة البقرة: الآيتان ١٧٨-١٧٩.

(٩٧٦) صحيح البخاري (كتاب العلم، باب: كتابة العلم) رقم الحديث (١١٢) ٥٣/١، وصحيح مسلم بشرح

النووي (كتاب الحج، باب: تحريم مكة) رقم الحديث (٣٢٩٣) ١٣٤/٩.

عليه، وتجريعه ما جرعه هو شفاء غيظه وأوليائه، وكان من الممكن أن يوجب الدية استدرأكاً لظلمة المجني عليه بالمال، ولكن ما شرع أكمل وأصلح للعباد، وأشفى وأحفظ للنفوس، وفيه طهارة للمقتول، وحياة للنوع الإنساني وعدلٌ بين القاتل والمقتول<sup>(٩٧٧)</sup>.

ولا أدل على الحكمة من تشريع القصاص من قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾<sup>(٩٧٨)</sup>. أي: (ولكن في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، لمنعه عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد متى قدروا، أو نوع من الحياة وهو الحاصل للمقتول والقاتل بالارتداد من القتل للعلم بالقصاص، فإن الإنسان إذا همّ بالقتل تذكر الاقتصاص فارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فيسبب لحياة نفسين، ومن المعلوم أن عقوبة الجناة والمفسدين لا تتم إلا بمؤلم يردعهم، ويجعل الجاني نكالاً وعظة لمن يريد أن يفعل مثل فعله، فلولا القصاص لفسد العالم وأهلك الناس بعضهم بعضاً ابتداءً واستيفاءً، وقالت العرب -في جاهليتها-: القتل أنفى للقتل، وبسفك الدماء تحقن الدماء، والمقصود الزجر والنكال؛ والعقوبة على الجريمة، وأن يكون على كف عدوانه أقرب، وأن يعتبر به غيره، وأن يحدث له ما يذوقه من الألم توبة نصوحاً، وأن يذكره ذلك بعقوبة الآخرة، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح)<sup>(٩٧٩)</sup>.

وإذا تعذر الحكم بالقصاص لعدم اكتمال شروط وجوبه، أو تعذر تنفيذه لاختلال شروط استيفائه، لا تذهب تلك الجناية هدرًا، بل يأتي ضمانها عن طريق الدية، وهي مال حدده الشرع في دية النفس كاملة، أو في دية عضو من الأعضاء، ويكلف الجاني أو عاقلته بدفع ذلك المال ضماناً للنفس أو للعضو الذي تلف بسبب الجناية عليه.

(وليس في العالم كله قديمه وحديثه عقوبة تفضل عقوبة القصاص، فهي أعدل العقوبات؛ إذ لا يجازي المجرم إلا بمثل فعله، وهي أفضل العقوبات للأمن والنظام؛ لأن

(٩٧٧) انظر: حاشية الروض المربع لابن قاسم النجدي ١٩٥/٧.

(٩٧٨) سورة البقرة: آية ١٧٩.

(٩٧٩) حاشية الروض المربع ١٧٩/٧.

المجرم حينما يعلم انه سيجزي بمثل فعله لا يرتكب الجريمة غالبًا، والذي يدفع المجرم بصفة عامة للقتل والجرح هو تنازع البقاء وحبُّ التغلُّب والاستعلاء، فإذا علم المجرم أنه لم يبق بعد فريسته أبقى على نفسه بإيقانه على فريسته<sup>(٩٨٠)</sup>.

### وأما الإلتلاف الواقع على الأموال:

فإن الثابت من أصول الشرع أن للأموال حرمة لا تقل عن حرمة النفوس، فالمال عصب الحياة، وحفظه ضرورة من الضرورات الخمس.

ولهذا حرم الإسلام الاعتداء على الأموال وأوجب الضمان على متلفها.

وقد بحث الفقهاء ضمان الأموال في كثير من أبواب الفقه، سواء أكان ذلك الضمان بالمثل أو بالقيمة.

فقد تكلموا عن ضمان المال في كتاب الزكاة، وذلك فيما إذا أضر المسلم إخراج الزكاة حتى تلف النصاب، فإنه يضمنه شرعاً<sup>(٩٨١)</sup>.

وتكلموا عنه في باب الغصب، وقالوا: إن الواجب على الغاصب أن يرد المال بعينه إن كان باقياً عنده لم تدخله زيادة ولا نقصان، وإلا ضمن مثله إن كان مثلياً وقيمته إن كان قيمياً<sup>(٩٨٢)</sup>.

وتكلموا عنه -أيضاً- في باب السرقة، فأوجبوا أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة ملزمٌ بضمان قيمة الشيء المسروق، وأن للمالك استرداد المسروق بعد قطع السارق، ما دام المال

(٩٨٠) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي ١/٦٦٤.

(٩٨١) انظر: المهذب للشيرازي ١/١٤٧، وأسهل المدارك للكسناوي ١/٣٧١.

(٩٨٢) بداية المجتهد ٢/٤٠٦-٤٠٧.

المسروق لم يُستهلك (٩٨٣).

ومن الصعب جداً أن يستوف الكلام عن ضمان الإلتلاف في مثل هذه العجالة (٩٨٤)؛ إذ المقام ليس مقام التفصيل في ضمان الإلتلاف، وإنما الغاية هنا هي:

### بيان الناحية الأمنية في ضمان الإلتلاف:

وذلك: أن تضمين الجناة وتحميلهم نتيجة أفعالهم هو في الحقيقة سبب من أسباب أمن المجتمعات وسلامتها، وسبيل من السبل القويمة والطرق الحكيمية التي تصون النفوس وتحفظ الأموال.

إن ضمان الإلتلاف جزء من شرعنا الإسلامي، الذي يجب العناية به وتطبيق أحكامه، حتى يرتدع المعتدون، ويسلم المستضعفون.

وها نحن نرى نظماً كثيرة أقرت أحكاماً وصل إلينا مفكروها بهدف استتباب الأمن وتوفير الرخاء وطمأنينة الأفراد والجماعات على حقوقهم، ولكن ما فتئت مجتمعات تلك النظم تعاني من الظلم، وتعاني من شبح الخوف الرهيب الذي راح يطاردها في مجالات عديدة من حقوقها المشروعة.

وعاش الضعفاء كما هم مهضومين في حقوقهم، وعاش المظلومين كما هم لا يملكون قليلاً ولا كثيراً، فلم تستطع القوانين البشرية أن ترد لهم حقاً مسلوباً، ولا مالاً منهوباً، والسبب من الوضوح بمكان، بحيث لا يخفى على إنسان عاقل، فلم تتوفر لهذه النظم أو تلك القوانين من الضمانات ما يكفل لها السلامة والاستمرار ولأنها ليس لها من القداسة والوازع الديني

(٩٨٣) التشريع الجنائي الإسلامي ٦١٨/٢.

(٩٨٤) ومن أراد الاطلاع على التفصيل والبيان لهذا الموضوع فليرجع إلى: رسالة دكتوراه بعنوان (ضمان الملتفات في الفقه الإسلامي) للدكتور سليمان محمد أحمد.

مثل ما للأحكام الشرعية (٩٨٥).

وفي المقابل نرى المجتمع الإسلامي الذي يطبق شرع الله وينفذ أحكامه - ومن جملتها ضمان الإلتفاف - نراه وقد أمن أفرادَه، وسلمت أركانَه، وعلا بنيانَه، توجه أبناءُه إلى العمل وال عمران، وانتشروا في أرض الله باحثين عن الكسب الحلال آمنين على أنفسهم، مطمئنين إلى حفظ أموالهم، واثقين بأن الشرع سيضمن كل من تسول له نفسه الاعتداء على أنفسهم، أو اتلاف شيء من أموالهم.

## خامساً

### تيسير ضرورات الحياة للناس

إن حفظ الضرورات التي تصلح المجتمع، وتقضي على أسباب الجريمة فيه، وتحافظ على توازن وتكافل المجتمع حظيت من الشريعة الإسلامية باهتمام بالغ وتنظيم لا مثيل له، في التطبيق والإجراء، وإعطاء السلطة لولي الأمر بالجزاء والردع، وكل ما من شأنه القضاء على الجريمة وحصرها في نطاق محدود، وتهئية الأسباب التي تساعد على منع الجريمة قبل وقوعها، فتكون كالمضادات واللقاحات التي يستعملها الأطباء ضد بعض الأمراض، تحصيناً للجسم، وحماية له من تأثيرات تلك الأمراض، وذلك مما يؤكد صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان.

(ومما يؤكد صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق في كل زمان ومكان أن هذه الشريعة جعلت "المصلحة" أساساً لقيام حق العقاب، فكل ما شرعه الإسلام من نظم وأحكام أساسه "المصلحة" وإذا كانت المصلحة هي المطلوبة بالاعتداء عليها جريمة، وإن الاستقراء أثبت أن الأحكام الشرعية تشتمل على مصالح العباد، والمصالح التي لاحظها الإسلام ترجع إلى خمسة أمور هي: ما فيه حفظ الدين، وما فيه حفظ النفس، وما فيه حفظ العقل، وما فيه حفظ النسل،

وما فيه حفظ المال، وهذه المصالح الخمس في أصلها ضرورات إنسانية، وهذا متفق عليه بين جماهير المسلمين، وتشمل أيضاً المنافع المادية والمعنوية على السواء<sup>(٩٨٦)</sup>

وهذه الخمس المذكورة هي ما تعرف باسم الضرورات الخمس، فما تعريف الضرورات؟:

جاء في معجم مقاييس اللغة تحت كتاب "الضاد": (واضطر فلان إلى كذا من الضرورة)<sup>(٩٨٧)</sup>.

وجاء في مختار الصحاح تحت مادة "ضرر": (... ورجل ذو ضارورة وضروري أي: ذو حاجة، وقد اضطر إلى الشيء أي: الجئ إليه).

وفي القاموس المحيط: (... والضرورة: الحاجة)<sup>(٩٨٨)</sup>.

قال الإمام الجصاص<sup>(٩٨٩)</sup> عند الكلام عن المخصة: (والضرورة ها هنا: هو خوف الضرر على نفسه أو بعض أعضائه بتركه الأكل، وقد انطوى تحته معنيان:

أحدهما: أن يحصل في موضع لا يجد فيه غير الميتة.

والثاني: أن يكون غيرها موجوداً ولكنه أكره على أكلها بوعيد يخاف منه تلف نفسه أو تلف بعض أعضائه، وكلا المعنيين مراد بالآية عندنا لاحتماهما)<sup>(٩٩٠)</sup>.

<sup>(٩٨٦)</sup> انظر: السياسة الجنائية في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى محمد حسين ص ٢٠، ٢١.

<sup>(٩٨٧)</sup> معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣ / ٣٦٠.

<sup>(٩٨٨)</sup> القاموس المحيط للفيروز آبادي تحت فصل الضاد، باب: الراء ٢ / ٧٧.

<sup>(٩٨٩)</sup> هو: أحمد بن علي الرازي أبو بكر الجصاص، فاضل من أهل الرأي، ولد ببغداد سنة ٣٠٥ هـ سكن بغداد، وإليه انتهت رئاسة الحنفية طلب منه تولي القضاء فامتنع، له مصنفات منها: أحكام القرآن، وشرح مختصر الكرخي، وشرح مختصر الطحاوي، مات في بغداد سنة ٣٧٠ هـ. انظر ترجمته في مقدمة كتابه أحكام القرآن ١ / ٤، والأعلام ١ / ١٦٥، ومعجم المؤلفين ١ / ٢٠٢.

ويتضح مما مضى: أن الضرورة هي التي لا بد منها لكي تستقيم الحياة ولا تفسد وليس مجرد الحاجة، أي: أن تطراً على الإنسان حالة من الخطر والمشقة الشديدة تلجئه، لتناول الممنوع شرعاً أو ترك الواجب أو تأخيره عن وقته دفعاً للضرر عنه في غالب ظنه ضمن قيود الشرع.

وهذه الضرورات لها منافع حرص الإسلام على رعايتها وتميبتها، والاهتمام بها، وإن في الاعتداء عليها أضراراً وقاها الإسلام بتشريعاته التي حفظت الأمن، وحمت المجتمعات ففرضت العقوبات الرادعة كي تمنع الجريمة التي تنتهك هذه الضرورات، وتؤثر في نية المجتمع الإسلامي، وأمان الأمة.

### أصناف العقوبات:

**الصنف الأول:** شرع لصيانة الوجود كالقصاص في النفوس والأطراف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٣) وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالْيَسْنَ بِالْيَسْنَ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (٩٩٢)، وذلك ليزدجر الناس عن الإقدام على شيء من ذلك.

ومن ذلك قتال الخوارج والمحاربين والكفار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٩٣).

وفي قتال الكفار زيادة معنى وهو إعلاء كلمة الحق ومحو الشرك به.

(٩٩٠) أحكام القرآن للإمام أبي بكر الجصاص ١ / ١٢٩.

(٩٩١) سورة البقرة: آية ١٧٩.

(٩٩٢) سور المائدة: آية ٤٥.

(٩٩٣) سورة المائدة: آية ٣٣.

**الصنف الثاني:** من الأحكام شرع لحفظ الأنساب كحد الزنا، قال الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ

الزَّانِي فَاَجْلِدُوهَا كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدًا وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَايَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ (٩٩٤).

**الصنف الثالث:** من الأحكام شرع لصيانة الأعراض، لأن صيانتها من أكبر

الأغراض، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ (٩٩٥)، وألحق الشرع بذلك التعزير على السب والأذى بالقول.

ويمكن أن يضاف الصنف الثاني إلى الثالث ويكونا صنفاً واحداً.

**الصنف الرابع:** من الأحكام شرع لصيانة الأموال، كحد السرقة وحد الحرابة، قال الله

تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ (٩٩٦)، ويلحق بذلك تعزير الغصاب ونحوهم.

**الصنف الخامس:** من الأحكام شرع لحفظ العقل، كحد الخمر وقد نهى الله عنه في

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

(٩٩٤) سورة النور: آية ٢.

(٩٩٥) سورة النور: آية ٤.

(٩٩٦) سورة المائدة: آية ٣٨.

تَقْلُحُونَ ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩٧﴾.

ووردت السنة بحد الشارب.

الصفحة السادسة: من الأحكام شرع للردع والتعزير، نحو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْلُحُوا الصَّيْدَ الَّتِي حُرِّمَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَنْ قَلَّ مِنْكُمْ مَتَعِمِدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قُلَّ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٩٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴿٩٩٩﴾.

ثم شرع كفارة ذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِيَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴿١٠٠٠﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ سُوءَ ظَهْرِهِمْ فَأَعْظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أظَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴿١٠٠١﴾.

٩٩٧) سورة المائدة: الآيتان ٩٠ ، ٩١.

٩٩٨) سورة المائدة: آية ٩٥.

٩٩٩) سورة المجادلة: آية ٢.

١٠٠٠) سورة المجادلة: الآيتان ٣ ، ٤.

١٠٠١) سورة النساء: آية ٣٤.

وغير ذلك مما ورد به القرآن الكريم في باب الردع والتعزير، وما ورد كذلك في السنة المطهرة على لسان الرسول الكريم ﷺ (١٠٠٢).

وعندما تعرض الشيخ الشاطبي (١٠٠٣) في كتابه الموافقات للضرورة قال: (تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها: ضرورة.

والثاني: حاجية.

والثالث: أن تكون تحسينية.

فأما الضرورة فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح العباد على استقامة، بل على فساد وتهاجر وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين.

والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.

(١٠٠٢) انظر: مجلة البحوث الإسلامية ٢٣ / ١٨٥ - ١٨٧ الموضوع للشيخ إسماعيل الأنصاري، بتصرف.

(١٠٠٣) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي، أبو إسحاق، محدث، فقيه، أصولي، لغوي، مفسر، من مؤلفاته: عنوات التعريف بأسرار التكليف في الأصول، شرح في الخلاصة في النحو، الموافقات في أصول الشريعة، والإتقان في علم الاشتقاق، وغير ذلك، مات في شوال عام ٧٩٠هـ. انظر: معجم المؤلفين لعمر كحالة ١ / ٧٧، والأعلام ١ / ٧١.

فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود كالإيمان، والنطق بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والعبادات، والحج، وما أشبه ذلك.

والعبادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من جانب الوجود أيضاً كتناول المأكولات والمشروبات، والملبوسات، والمسكنات، وما أشبه ذلك. (١٠٠٤)

والمعاملات (١٠٠٥) راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود، وإلى حفظ النفس والعقل أيضاً بواسطة العادات، والجنایات - ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ترجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم.

والعبادات والعادات قد مُتَّت، والمعاملات ما كان راجعاً إلى مصلحة الإنسان مع غيره، كانتقال الأملاك ب عوض أو بغير عوض، بالعقد على الرقاب أو المنافع أو الأرباح.

والجنایات ما كان عائداً على ما تقدم بالإبطال، فشرع فيها ما يدرأ ذلك الإبطال ويتلافى تلك المصالح، كالقصاص، والديات - للنفس والحد - للفعل وتضمن قيم الأموال للنسل، والقطع والتضمن بالمال، وما أشبه ذلك.

ومجموع الضروريات خمس، وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا: إنها مراعاة في كل ملة.

وأما الحاجيات: فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراخ دخل على المكلفين - على الجملة - الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصلحة العامة.

وأما التحسينات: فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق (١٠٠٦).

(١٠٠٤) أي: أصل تناول الغذاء الذي يتوقف عليه بقاء الحياة والعقل.

(١٠٠٥) أي: بالمقدار الذي يتوقف عليه حفظ النفس والمال، فهي بهذا المقدار من الضروري.

(١٠٠٦) انظر: الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي ٢ / ٨ - ١١ بتصرف.

والإسلام هو دين اليسر والتسهيل، والتسامح والاعتدال، ودفع الحرج والمشقة في الأحكام الشرعية، سواء أكان الحكم منصوباً عليه صراحة في الشرع أم مستتباً بواسطة الفقهاء المجتهدين، بل إن هذا التيسير يعتبر من الأصول العامة المقطوع بها، والمبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية، فخاصية شرعة الإسلام السماح، وشأنها الرفق بالناس، حتى إنه لا مساع لأحد ولا منفذ له للإعراض عن الأحكام الإسلامية، مندرجاً بالعسر والضيق وذلك في جميع حالات الإنسان قوياً كان أم ضعيفاً، مسالماً أم محارباً، مسافراً أم مقيماً، في موطنه أم في غير موطنه، لأن الله سبحانه وتعالى وضع هذه الشريعة المباركة خفيفة سمحاء سهلة، راعى فيها طاقة الإنسان وإمكاناته ومشاغله في حياته.

وبذلك تميزت شريعة الإسلام عن بقية الشرائع السماوية التي شرع الله فيها من الأحكام الشاقة ما يتناسب مع أوضاع الأمم السابقة، مثل اشتراط قتل النفس للتوبة من العصيان والتخلص من الخطيئة، قال تعالى مخبراً عن هذا الأمر في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ (١٠٠٧).

قال الإمام السيوطي (١٠٠٨) عند تفسيره لهذه الآية: (... عن ابن عباس قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه أن يقتلوا أنفسهم واحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم

(١٠٠٧) سورة البقرة: آية ٥٤.

(١٠٠٨) هو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضير بن أيوب الخضري السيوطي، جلال الدين، إمام مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مؤلف، نشأ في القاهرة يتيماً، واعتزل الناس لما بلغ الأربعين من عمره، وخلا نفسه في روضة القياس على النيل فألف أكثر كتبه، عاش زاهداً، تعرض عليه الأموال فيردها، ويطلبه السلطان مراراً فلا يحضر إليه، وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة ٩١١هـ. انظر: معجم المؤلفين ٨٢ / ٢، والأعلام ٧١ / ٢.

بعضاً فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقى كانت له توبة (١٠٠٩).

وكذلك تطهير الثوب بقطع موضع النجاسة منه، وإيجاب ربع المال في الزكاة، وبطلان الصلاة في غير موضع العبادة المخصوص، ونحو ذلك مما أشار إليه القرآن الكريم إجمالاً، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (١٠١٠).

وقال سبحانه وتعالى في وصف الرسول: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (١٠١١).

ونطاق السماحة والتيسير في الإسلام لا يقتصر على شؤون العبادات، وإنما يتسع لكل أحكام الإسلام من معاملات مدنية، وتصرفات شخصية، وعقوبات جزئية، وتشريعات قضائية، ونحوها، والمتتبع لأحكام الشريعة أو القواعد القانونية الإسلامية يجد مظاهر رفع الحرج جلية واضحة، وأن جميع التكاليف في ابتدائها ودوامها روعي فيها التخفيف والتيسير على الناس.

الأدلة على خاصية السماحة والتيسير في الإسلام:

١- نصوص القرآن الكريم:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾ (١٠١٢)، وفي هذا المعنى كثير من الآيات مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (١٠١٣)، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١٠١٤).

(١٠٠٩) الدرر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي ١ / ٦٩.

(١٠١٠) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(١٠١١) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

(١٠١٢) سورة الحج: آية ٧٨.

(١٠١٣) سورة البقرة: آية ١٨٥.

فهذه الآيات صريحة في التزام مبدأ التخفيف والتيسير على الناس في أحكام الشرع، قال الشاطبي: (إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع) (١٠١٥).

وقد سرد هذه الآيات وغيرها، وقال: (وقد سمّي هذا الدين الحنيفية السمحة لما فيها من التسهيل والتيسير) (١٠١٦).

## ٢- نصوص من السنة النبوية:

يقول الرسول ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» (١٠١٧).

وما خَيْرُ - أي: الرسول ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً (١٠١٨).

«إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه» (١٠١٩)، وغير ذلك من

الأحاديث.

٣- ما ثبت من مشروعية الرخص وهو أمر مقطوع به، ومن المعروف بداهة في

الإسلام، كرخص القصر والجمع في الصلاة، والفطر في رمضان حالة السفر والمرض،

(١٠١٤) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(١٠١٥) انظر: الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ١ / ٣٤٠.

(١٠١٦) المرجع السابق ١ / ٣٤١.

(١٠١٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر بن عبد الله ومن حديث أبي أمامه ٦ /

١١٦، وكشف الخفا ص ٢٥١، والمقاصد ١٠٨.

(١٠١٨) صحيح البخاري (كتاب المناقب، باب: صفة النبي ﷺ) رقم الحديث (٣٣٦٧) ٣ /

١٣٠٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الفضائل، باب: مباحثه ﷺ للأئمة) رقم

الحديث (٥٩٩٩) ١٥ / ٨٢.

(١٠١٩) رواه ابن حبان في صحيحه (باب: ما جاء في الطاعات) رقم الحديث (٣٥٤) ١ /

٢٨٤، والطبراني برقم (١١٨٨٠) ١١ / ٣٢٣، وأبو نعيم في الحلية ٨ / ٢٧٦ عن ابن

عباس رضي الله عنهما، ورواه عن ابن عمر أحمد في المسند ٢ / ١٠٨، وابن حبان

(فصل في صلاة المسافر) رقم الحديث (٢٧٣١) ٤ / ١٨٢، والقضاعي في الشهاب رقم

الحديث (١٠٨٧) ٢ / ١٠١.

وتناول المحرمات حالة الاضطرار، فهذا نمط يدل قطعاً على مطلق رفع الحرج والمشقة عن الناس (١٠٢٠).

٤- الإجماع الذي انعقد بين علماء الأمة الإسلامية على عدم وقوع المشقة غير المألوفة في التكليف الشرعية، مما يدل على عدم قصد الشارع إعانات المكلفين أو تكليفهم ما لا تطبيقه نفوسهم.

يقول الشاطبي: (فاعلم أن الحرج مرفوع عن المكلفين لوجهين:

أحدهما: الخوف من الانقطاع من الطريق، وبغض العبادة، وكرهة التكليف، وينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

والثاني: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أخرى تأتي في الطريق، فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلاً عنها، وقاطعاً بالمكلف دونها، وربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما) (١٠٢١).

وبعد أن ذكرتُ بعض الآيات والأحاديث التي تحدثت عن قاعدة اليسر والسماحة في الإسلام، والتي يفهم منها وجود مظهر التيسير في الأحكام الشرعية كلما وجدت المشقة أي: الضرورة، فسأذكر هنا الآيات التي وردت بخصوص الضرورة بذاتها وهي خمس، منها آية خاصة نص فيها صراحة على ضرورة المخصصة - أي: الجوع الشديد - وهي آية المائدة، والآيات الأخرى يفهم منها إباحة المحرمات كلها عند وجود ضرورة الغذاء، وهذه الآيات هي:

(١٠٢٠) انظر: الموافقات للشاطبي ٢ / ١٢٢ بتصرف.

(١٠٢١) الموافقات للشاطبي ٢ / ١٣٦.

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ (١٠٢٢).

٢- قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَبِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ نَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ (١٠٢٣).

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحَىٰ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ (١٠٢٤).

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ (١٠٢٥).

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٣﴾ (١٠٢٦).

(١٠٢٢) سورة البقرة: آية ١٧٣.

(١٠٢٣) سورة المائدة: آية ٣.

(١٠٢٤) سورة الأنعام: آية ١٤٥.

(١٠٢٥) سورة النحل: آية ١١٥.

(١٠٢٦) سورة الأنعام: آية ١١٩.

وقد تضمنت هذه الآيات كلها استثناء حالة الضرورة حفاظاً على النفس من الهلاك، ولا يلتفت حينئذٍ إلى سبب التحريم وهو وجود الضرر، لأن حالة الجوع تجعل جهاز الهضم قوياً يتمثل الطعام دون أذى بخلاف الحالات المعتادة (١٠٢٧).

ومن هذه الآيات يتبين أن الإسلام حافظ على النفس البشرية ورعاها حق الرعاية حيث جاءت أحكامه في غاية اليسر والتسهيل على العباد حتى إنه أباح لهم المحرمات أثناء الضرورة.

أما ما يقوله الحاقدون على الإسلام من أن عقوباته قاسية وجائرة ولا رأفة فيها ولا رحمة، فإنها أقوال يرد عليها ما نشأ في مجتمعاتهم من خوف وقلق، وتفنن في الجريمة، وإزعاج للناس، فهم في هلع على أنفسهم، وقلق على أولادهم وخوف على أموالهم ومصالحهم.

ولقد أدرك منصفوهم أن أمن المجتمعات لا يتحقق إلا بالقسوة على المجرمين، فلقد رحمتهم القوانين والسجون، ولكنهم لم يرحموا المجتمعات، فهم كالعضو الفاسد في الجسد إذا لم يقطع استشرى المرض في سائر الجسم وقضى على صاحبه.

يقول بعضهم: لماذا لا نصف الطبيب الذي يقرر علاجاً قطع عضو سرى فيه السرطان أو غيره بأنه جائر في حكمه، قاس في تصرفه، بل نصفه بالرحمة والرأفة لمحبتته الإبقاء على حياة المريض جهد المستطاع، والحرص على إنقاذه حياته بملاحقة المرض واستئصاله قبل انتشاره في الجسم؟!.

فكذلك الحدود في الإسلام في إقامتها رأفة بالمجتمعات، وتأمين لها من خوف هذا المتسلط عليها بنزعاته الشريرة.

---

(١٠٢٧) انظر: نظرية الضرورة الشرعية مقارنة مع القانون الوضعي للدكتور وهبة الترحيلي

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام لم يكن وحده هو الذي حافظ على هذه الضرورات الخمس، بل إن من يستقرئ الشرائع السماوية التي سبقت الإسلام، يدرك أن هذه الشرائع قد جاءت للمحافظة على هذه الضرورات، بل فرض فيها عقوبات لحماية المجتمعات من شرور المعتدين عليها، كما فرض الإسلام فيها بعد.

ولكن هذه الأمم جانبت الحق وجنحت إلى التماذي في الغواية فصرف علماؤها جهودهم للتغيير والتبديل، فحرقت النصرانية واليهودية ما نزل عليهم من العقوبات التشريعية جرياً وراء الأهواء والرغبات الشخصية، وكذبوا على الله ما لم ينزل به سلطاناً رغبة في المكاسب الذاتية، وغيروا حكم الله، ففسد المجتمع لديهم، وتسلبت القوي المجرم على الضعيف المسالم، قال تعالى في سياق الحديث عن اليهود، وما نزل عليهم في التوراة: ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنَ بِالْأَذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ. وَمَنْ لَّمْ يَحْمِمْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ (١٠٢٨).

جاء في تفسير القرآن العظيم في تفسير هذه الآية: (وهذا أيضاً مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون ذلك عمداً وعناداً ويقيدون النضري (١٠٢٩) من القرظي (١٠٣٠)، ولا يقيدون القرظي من النضري بل يعدلون إلى

(١٠٢٨) سورة المائدة: آية ٤٥.

(١٠٢٩) النضري: نسبة إلى بني النضير، وهم إحدى قبائل اليهود التي كانت تسكن حول المدينة وقد خرج رسول الله ﷺ إليهم يستفتيهم في دية قتلى بني عامر، فحاولوا قتل الرسول ﷺ باللقاء صخرة كبيرة عليه من فوق أحد الحصون فكشف الله أمرهم، وحاصرهم رسول الله ﷺ وقطع نخلهم حتى نزلوا على حكم الله فأقام رسول الله ﷺ حكم الله فيهم وكان ذلك سنة ٤ للهجرة. انظر: سيرة ابن هشام ٣ / ١٤٣ وما بعدها.

(١٠٣٠) القرظي: نسبة إلى بني قريظة، وهم أيضاً إحدى قبائل اليهود التي كانت تقطن حول المدينة، خانوا رسول الله ﷺ وأصحابه فغزاهم الرسول ﷺ سنة ٥ للهجرة وهزمهم بعد أن حاصرهم ونفذ حكم الله فيهم. انظر: سيرة ابن هشام ٣ / ١٨٣ وما بعدها.

الدية كما خالفوا حكم التوارة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجِدْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٠٣١)، لأنهم جحدوا حكم الله قصداً وعناداً وعمداً، وقال ما هنا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً (١٠٣٢).

لقد خالف اليهود هذا الحكم، فهل نجدهم والنصارى يطبقون هذا الحكم اليوم؟!، إن الواقع ينفي ذلك، ولكن الحكم بقى مؤكداً في التشريع الإسلامي ليدفع القوم بأن ما فيه صلاحاً للمجتمعات قد أكد الإسلام حكمه ليطبق، وحفظه الله من أيدي العابثين برهاناً على صدق ما جاء من عند الله، وأنه كان مكتوباً عليهم من قبل، ولكنهم غيروه لحاجة في نفوسهم ومخالفة لخالقهم في شرعه الذي شرع.

ولقد نهى رسول الله ﷺ أمته عن مثل عمل الأمم السابقة كانوا لا يطبقون الحدود على الأقوياء لمكانتهم، وقيموها على الضعفاء الذين لا سند لهم في المجتمع من مال أو جاه أو عشيرة، وشريعة الإسلام توجب تطبيق حدود الله على الفاعل مهما كان، وتوضح أن الشفاعة في الحدود غير مقبولة، إذا وصلت الحدود إلى ولي الأمر، لأن قبول الشفاعة - في تلك الحالة - يعني إعانة للمجرم على التماذي في إجرامه لوجود من يرفع الحد عنه.

روي أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرفت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة بن زيد - جِبُّ رسول الله ﷺ - فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أنتشفع في حدود الله؟»، فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخترط فأنتى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا

(١٠٣١) سورة المائدة: آية ٤٥.

(١٠٣٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٦٣.

إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ثم أمر تلك المرأة التي سرقت فقطت يدها (١٠٣٣).

وفي بيان أهمية تحقيق مقاصد الضرورات الخمس والمحافظة عليها جاء في المستصفي: (إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح في تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وعقولهم، وأموالهم، فكل ما يتضمن هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة).

وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح، ومثاله: قضاء الشرع بقتل الكافر المضل، وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته، فإن هذا يفوت على الخلق دينهم، وقضاؤه بإيجاب القصاص، إذ به حفظ النفوس، وإيجاب حد الشرب، إذ به حفظ العقل الذي هو ملاك التكليف، وإيجاب حد الزنا، إذ به حفظ النسل والأنساب، وإيجاب زجر الغصاب والسراق، إذ به يحصل حفظ الأموال التي هي معاش لهم، وهم مضطرون إليها.

وتحريم تفويت الأمور الخمسة والزجر عنها يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق، ولذا لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل، والزنا، والسرقعة، وشرب المسكر (١٠٣٤).

وقد نقل هذه الجملة الشيخ محمد أبو زهرة ثم علق عليها بقوله: (ونرى من هذا الكلام الذي ساقه حجة الإسلام أن هذه المصالح الخمسة التي يعد طلبها ضرورة إنسانية متفق عليها بين الناس، والمحافظة عليها بفرض عقوبات للاعتداء عليها يعد من الأمور البديهية التي لا تختلف فيها العقول،

(١٠٣٣) سبق تخريجه ص ٢٢٥.

(١٠٣٤) راجع بحث (أثر تطبيق الحدود في المجتمع) ص ٢٠٧ والكاتب قد نقل من المستصفي

للإمام أبي حامد الغزالي ١ / ٢٨٦ - ٢٨٨.

ولا تختلف فيها الديانات، وهي كأصول الأخلاق التي لا تختلف فيها الديانات، كالصديق، والعفة، وهذه فضائل في ذاتها ترجع إلى هذه الأصول الخمسة<sup>(١٠٣٥)</sup>.

ولما كانت هذه الضرورات ذات مكانة في سلامة الأمة، لأنها كلما استقامت استقام المجتمع، وكلما حوِّظ عليها أمن أفراد المجتمع، حيث تعم الفائدة، ويكثر الرخاء، وتتوفر السعة في العيش، وبهذه الفوائد يقترن استقامة المجتمع، وراحة ضمائر أفرادها.

وإذا حصل النقيض اضطرب المجتمع، وماجت به الشرور، وتحول أبنائه إلى شريعة الغاب يأكل القوي الضعيف، ويتسلط القادر على من نونه، وبذلك تتسع المظالم، ويعم المجتمعات البؤس، ويكثر الخوف، وتترزع النفوس، ويحل بالمجتمع ما ينذر بمصائب كبيرة، فالعقاب من الله ودمار الديار لا يحصل إلا بما كسبت الأيدي من أعمال، وإنما أهلكت الأمم السابقة باستئراء الشر فيها، ومحاباة القوانين للأغنياء الأقوياء، وتحريف شرع الله أو تعطيله.

فاليهود قد أفسدوا المجتمعات، لأنهم أحلوا لأنفسهم ما حرم الله عليهم على لسان أنبيائهم، وعدلوا في شرع الله بما لم يأذن به الله، وكان رائدهم الهوى وشرع الله ليس بالرغبة والهوى.

وما نشأت الشيوعية المدمرة إلا من حقد العاملين على أصحاب العمل، والمعدمين على القادرين، فاستحقوا مقت الله وغضبه إلى يوم القيامة بسبب ما اقتترفوه من تلك الجرائم التي تفسد العقول، وتخلخل النفوس.

والقرآن الكريم يقص علينا ما عاقب الله به الأمم السابقة بسبب مخالفتهم لشرع الله وإصرارهم على الجريمة التي تززع المجتمع فأحاط الله بهم ودمرهم تدميراً.

ولقد هيا الله للإسلام رجالاً يقومون عليه، ويجددون كل ما يخبو من معالمه، فيحرصون على الشدة كلما استشرى الفساد، وزادت أسباب التناول على حكم الله، والتعدي على حدوده، وإخافة خلقه بآزاجهم، ولهذا نشأ عند أكثر علماء المسلمين حرصهم على سد الذرائع فحفظ الله بهم أحكام الشرع وتطبيقاته خاصة وهو قد تكفل بحفظ المصدر الأول

(١٠٣٥) الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي للشيخ محمد أبو زهرة ٢ / ٤١.

للتشريع الإسلامي من عبث العابثين، ومن تدخل أصحاب النزعات الخبيثة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٠٣٦﴾ ﴾ (١٠٣٦)، كما هيأ للسنة رجالاً تابعوها ومحصوها ونقوها لكي يطمئن المسلم على شريعة الله التي يتعبد بها، وحدوده التي ينفذها قولاً وعملاً.

ويضاف إلى ذلك أنه حدد معالم شخصية المسلم، وهذب طباعه، وقوم أخلاقه حتى تبرز الشخصية الفذة التي تتأى عن الرذائل، وتبعد عن الآثام والجرائم، فوضع معاييرها، مثل السمو الخلقي في حسن التعامل في البيع والشراء، والصدق في المعاملات، وحفظ القرابة والرحم، والمحافظة على الجوار.

وأختتم الحديث هنا بنص من كتاب الله جمع كل الضرورات الخمس، وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُؤًا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١٠٣٧).

في هذه الآيات الكريمة تظهر العناية بحفظ هذه الضرورات جلية واضحة، فقد جاء في حفظ الدين نهيه سبحانه عن الشرك به، وهو يشمل جميع أنواع الشرك: الشرك به في ربوبيته، والشرك به في ألوهيته، والشرك به في أسمائه وصفاته، والشرك به في حاكميته، ولا يكون الإنسان بريئاً من الشرك به، إلا إذا حقق توحيدَه في الربوبية والألوهية - ومنها

(١٠٣٦) سورة الحجر: آية ٩.

(١٠٣٧) سورة الأنعام: الآيات ١٥١ - ١٥٣.

الحاكمية - والأسماء والصفات، وذلك ما تضمنته أو استلزمته كلمة التوحيد، وهو معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (١٠٣٨)، وأمثالها من الآيات.

وجاء في حفظ النفس قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَيْتُمْ﴾، وقوله

تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

ووجه الاستدلال بهذه من ناحيتين:

**الناحية الأولى:** النهي عن قتل النفس التي حرم الله بغير حق.

**والناحية الثانية:** ما يفهم من شرع قتل النفس التي حرم الله بالحق، فإن قتل النفس

بالحق حفظاً للنفس في باب القصاص، وحفظاً للدين في باب الردة وحفظاً للنسل في باب الرجم.

وجاء حفظ النسل في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ومن أعظم

الفواحش الزنا الذي وصفه الله تعالى في آية أخرى بأنه فاحشة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ

كَانَ فَنِجْسَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (١٠٣٩).

ويمكن إدخال حفظ العرض في حفظ النسل، لأن حفظ النسل إنما يحصل بالزواج الشرعي، وفي

الزواج الشرعي حفظ للعرض، وإذا اعتدى على النسل لزم منه الاعتداء على العرض وكذلك النسب.

وجاء في حفظ المال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

أَشُدَّهُ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

وأما حفظ العقل فإنه يؤخذ من مجموع التكليف بحفظ الضرورات الأخرى لأن الذي

يفسد عقله لا يمكن أن يقوم بحفظ تلك الضرورات، كما أمر الله، ولعل في قوله سبحانه

وتعالى في ختام الآية الأولى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٠٤١) ما يدل على ذلك.

(١٠٣٨) سورة النساء: آية ٣٦.

(١٠٣٩) سورة الإسراء: آية ٣٢.

ويجب التنبيه هنا إلى أن العناية بحفظ الضرورات في الإسلام يعتبر ديناً وعبادة لله تعالى، وليست مجرد تشريع قانوني دعت إليه الضرورة في حد ذاتها كما هو الحال في النظم البشرية.

ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُدِمْ عَلَيْكُمْ فَلْيَنْزِلْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ مِنْ رَبِّهِ فَيُكَلِّمْهُمْ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٥١﴾﴾ في ختام الآية الأولى، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ وَمَنْ يُدِمْ عَلَيْكُمْ فَلْيَنْزِلْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ مِنْ رَبِّهِ فَيُكَلِّمْهُمْ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ في ختام الآية الثانية، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ وَمَنْ يُدِمْ عَلَيْكُمْ فَلْيَنْزِلْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ مِنْ رَبِّهِ فَيُكَلِّمْهُمْ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ في ختام الآية الثالثة.

وكذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآيات: (وهذه الآيات محكمات في جميع الكتب لم ينسخن بشيء وهن محرقات على بني آدم كلهم، وهن أم الكتاب، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار) (١٠٤٠).

فحفظ هذه الضرورات وصية من الله لعباده يثابون على القيام به ويعاقبون على التفريط فيه (١٠٤١)، وبالله التوفيق.

(١٠٤٠) معالم التنزيل للبخاري ٣ / ٢٠٤.

(١٠٤١) انظر: الإسلام وضرورات الحياة للدكتور عبد الله أحمد قادري ص ١٦ - ١٨.



3

# الباب الثالث

أمن الحرمين الشريفين في القرآن الكريم



أمن الحرمين الشريفين في القرآن الكريم



## أمن الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

تمهيد:

إن مكانة الشيء إما أن تكون من ذاته، بما تصف به من كمال وجمال، أو بما يحيط به أو يجاوره، أو بما ورد عنه من فضيلة.

والحرمين الشريفين نالا هذه القدسية، والدرجة المفضلة، من تفضيل الله لهما، ولتشریفهما، حتى إن الرجال لا تشد إلا إليهما، وإلى المسجد الأقصى، ويضاعف أجر الصلوات فيهما، وفي المسجد الأقصى، وينس الشيطان أن يعبد فيهما، وحرّم دخول الكفار إليهما، ومنع الدجال من دخولهما.

وكلاهما حرم آمن، وبلد صدق، حرمهما الله تعالى، ولم يحرمهما الناس وأظهر الله تحريمهما على لسان النبيين الكريمين أبي الأنبياء وخاتم الرسل عليهما وعلى جميع الرسل الصلاة والسلام.

ففي مكة أول بيت وضع للناس، وفي المدينة المسجد النبوي (١٠٤٢) حيث جعلهما الله مثابة للناس وأمنًا.

يأمن فيهما الخائف، ويطمئن الفرع، ويستقر المضطرب كما يأمن فيهما إلى جوار الإنسان، الحيوان، والطير، والنبات، والجماد (١٠٤٣).

ففي مكة المسجد الحرام، والكعبة المشرفة من حولها المطاف، وفي رحابها المسعى، وفي ضاحتها يكون الوقوف بعرفة (١٠٤٤)، وسائر المشاعر في الحج والعمرة، وفي المدينة

(١٠٤٢) انظر: مكانة الحرمين الشريفين للدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر ص ٦ ، ٧.

(١٠٤٣) انظر: مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين ص ٢١٨ في عام ١٤٠٨ هـ.

المنورة، المسجد النبوي الشريف، ذلك المسجد الذي أسس على البر والتقوى، وهي دار الهجرة، ومأزر الإيمان، ومهاجرة، وسكنه، ومضجعه (١٠٤٥)، ومن عظم مكانة الحرمين الشريفين أن الله تعالى جعل مكة مخرج صدق، وجعل المدينة المنورة مدخل صدق.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا

تَصِيرًا ﴿٨٠﴾ (١٠٤٦)، وهو معنى من معاني الآية.

وكلاهما حرم آمن، قال ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لها، وإني حرمت المدينة،

كما حرم إبراهيم مكة» (١٠٤٧).

وللحرمين الشريفين مكانة عظيمة في قلوب المسلمين، لأنهما يعتبران واحدة أمان،

ومرفأ سلم، ومهد طمأنينة فلا ترويع فيهما، ولا فزع، ولا خوف، ولا قلق، ولا إساءة (١٠٤٨).

(١٠٤٤) عرفة: هي موقف الناس يوم الحج، التاسع من شهر ذي الحجة، وحدها من الجبل

المشرف على بطن عرفة إلى جبال عرفة، وقرية عرفة: موصل النخل بعد ذلك بميلين،

سميت بعرفة لأن جبرائيل عليه السلام عرف إبراهيم عليه السلام المناسك فلما وقفه

بعرفه قال له: عرفت؟ قال: نعم، فسميت عرفة، وقيل: لأن آدم حواء تعارفا بها بعد

نزولهما من الجنة، وقيل: لأن الناس يعترفون بنزولهم في ذلك الموقف، وقيل: غير ذلك.

انظر: معجم البلدان ١١٧/٤.

(١٠٤٥) انظر فضائل المدينة النبوية للدكتور إبراهيم خليل ملاً الخاطر ص ٦ وما بعدها.

(١٠٤٦) سورة الإسراء: آية ٨٠.

(١٠٤٧) صحيح البخاري (كتاب البيوع، باب: بركة صاع النبي ﷺ) رقم الحديث (٢٠٢٢)

٧٤٩/٢، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب فضل المدينة) رقم الحديث

(٣٣٠٠) ١٣٨/٩، وسنن الترمذي (كتاب المناقب، باب: فضل المدينة) رقم الحديث

(٣٩١٤) ٥٠٧١٨.

(١٠٤٨) انظر: مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين ص ٢١٩.

## تعريف الحرم:

جاء في معجم اللغة تحت مادة "حرم": (الحاء والراء والميم أصل واحد، وهو المنع والتشديد، فالحرام ضد الحلال، قال تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرَبَةٍ أَهْلَكُنَّهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) (١٠٤٩).

والمحرم الذي لم يَلْتَن بعد، والحريم: حريم البئر وهو ما حولها، يحرم على غير صاحبها أن يحفر فيه.

والحرمان: مكة والمدينة، سميا بذلك لحرمتهما، وأنه حرم أن يحدث فيهما أو يؤوي محدث، وأحرم الرجل بالحج، لأنه يحرم عليه ما كان حلالاً له من الصيد والنساء وغير ذلك) (١٠٥٠).

وفي الاصطلاح: يطلق على أمور منها: مكة وما حولها، وهذا المعنى هو المراد عند إطلاق كلمة الحرم، أما الحرم فهو ما طاف بمكة من جوانبها.

ووجه تسمية الحرم بهذا الاسم: هو أن الله سبحانه وتعالى حرم فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره كالصيد وقطع النبات ونحوهما (١٠٥١).

(١٠٤٩) سورة الأنبياء: آية ٩٥.

(١٠٥٠) معجم مقاييس اللغة ٤٥/٢.

(١٠٥١) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٨٧، والأحكام السلطانية لأبي بعلبي ص

١٩١، والموسوعة الفقهية ١٧/١٨٤.

## أولاً: مكة المكرمة:

### ١ - موقعها:

تقع مكة المكرمة في جنوبي شرقي مدينة جدة (١٠٥٢)، وفي غربي شبه جزيرة العرب، وتبعد عن جدة (٧٣) كم، يحتضنها وادي إبراهيم - عليه السلام - المنحصر بين سلسلي جبال تكاد تتلاصق مع بعضها من جهة الشرق والجنوب.

يحدها من الشمال جبلا الفلق (١٠٥٣)، وقعيقان (١٠٥٤)، ومن الجنوب جبل أبي حديدة (١٠٥٥)، ومن الشرق جبل قبيس (١٠٥٦)، ومن الغرب جبل كدي (١٠٥٧).

تقع مكة المكرمة على بعد (١) كم شمال مدار السرطان، تتراوح درجات الحرارة فيها طوال العام ما بين (١٨ ، ٢٤) (١٠٥٨) درجة مئوية (١٠٥٩).

جدة: (١٠٥٢) بالضم والتشديد، والجدة في الأصل الطريقة، وجدة بلد على ساحل بحر اليمن، وهي فرض مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال، وقيل: يوم وليلة، وهي في الإقليم الثاني طولها من جهة الغرب أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة. انظر: البلدان ١٣٣/٢.

جبل الفلق: (١٠٥٣) ويسمى الجبل الأبيض، وقد سهل ابن الزبير الفلق، وضربة حتى فلقه في الجبل لتدخل منه أحمال المال الآتية له من العراق ليلاً فلا يراها الناس. انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق، تحقيق: رشيد صالح مجلس ٢/٢٨٥.

جبل قعيقان: (١٠٥٤) جبل بمكة وجهة إلى أبي قبيس، سمى بذلك لأن جرهم كانت تجعل فيه أسلحتها فتقعع فيه أو لأنهم لما تحاربوا وقطورا قعقعوا بالسلاح في ذلك المكان. انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي ٣/٧٤ باب العين فصل القاف.

جبل أبي حديدة: (١٠٥٥) لم أعر على جبل بهذا الاسم، ولعله اسم حديث أو قد تغير اسمه، والله أعلم.

جبل أبي قبيس: (١٠٥٦) وهو أحد أخشي مكة المشرفة على الصفا، وهو مشهور ولا يحتاج إلى بيان. المنتقى في أخبار أم القرى ص ١١١.

جبل كدي: (١٠٥٧) جبل قرب مكة وهو لمن خرج من مكة إلى اليمن، وليس من طريق النبي ﷺ في شيء. انظر: معجم البلدان ٤/٤٩٨.

كما تعتبر مكة المكرمة مركز الأرض حسب ما أثبتته الكشوف الجغرافية الحديثة، وقد ذكر الدكتور حسين كمال الدين أحمد أحد أساتذة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ذلك في بحثه: (الإسقاط المكي للعالم) حيث قال: (... ومن الواضح أنه يمكن بيان حدود القارات الأرضية والممالك والدول، بعد رسم خطوط الطول والعرض، حيث إنها ترتبط ارتباطاً ثابتاً على سطح الكرة الأرضية.

وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبعة على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة أي: أن مكة المكرمة تعتبر مركزاً وسطاً للأرضية اليابسة على سطح الكرة الأرضية، وكذلك إذا أخذنا في الاعتبار القارات الثلاث أوروبا وآسيا وإفريقيا، التي تمثل العالم القديم عند ظهور الرسالة الإسلامية، نجدها كذلك تكاد تحيط بمدينة مكة المكرمة (١٠٦٠).

ولعل هذا الكشف يفسر تسمية مكة بأمر القرى، ويؤكد كذلك القول القائل بأن الأرض قد دحيت منها.

## ٢- أسماء مكة المكرمة:

كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ومن هنا تعددت أسماء مكة، ومن أشهر أسمائها ثمانية أسماء وردت كلها في القرآن الكريم، وهي: مكة المكرمة، وبكة، وأم القرى، والبيت العتيق، والبلدة، ومعاد، والقرية، والبلد.

(١٠٥٨) الحقيقة أن درجة الحرارة بمكة نادراً ما تصل إلى ١٨ وفي أكثر أيام السنة تصل إلى ٤٧ وقد تصل أحياناً إلى ٥٠ درجة مئوية.

(١٠٥٩) عن نشرة أصدرتها وزارة الإعلام، المديرية العامة للصحافة، تحت عنوان: خريطة ودليل الحج: مكة المكرمة، والمشاعر. مؤسسة حصام - الرياض.

(١٠٦٠) مجلة البحوث الإسلامية - العدد ٦ ص ٢٤٢.

## مكة:

ورد ذكرها في القرآن الكريم بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١٠٦١).

وقد سميت بهذا الاسم لأنها تمكُّ الجبارين، أي: تذهب نخوتهم، وقيل: لأنها تمك الفاجر عنها، أي: تخرجه، وقيل: لأنها تجهد أهلها، من قولهم تمككت العظم إذا أخرجت مخه، وقيل: لأنها تجذب الناس إليها من قولهم: مك الفصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه شيئاً، وقيل: لقلة مائها، وقيل: سميت بذلك لأن الناس كانوا يمكن ويضحكون فيها من قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ (١٠٦٢)(١٠٦٣).

## بكة:

ورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٦٤)، سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجابرة إذا ألدوا فيها أي: تدفقا، والبك: الدق، وقيل: سميت بذلك لازدحام الناس فيها أي: ازدحام الناس في مواضع طوافهم (١٠٦٥).

(١٠٦١) سورة الفتح: آية ٢٤.

(١٠٦٢) سورة الأنفال: آية ٣٥.

(١٠٦٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/١٣٨، ١٣٩، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لأبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المالكي، تحقيق: لجنة من كبار العلماء والأدباء ٤٨/١.

(١٠٦٤) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(١٠٦٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/١٣٨، ١٣٩، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٤٨/١.

ورد هذا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١١٦﴾ (١٠٦٦).

جاء في فتح القدير: (وخص أم القرى، وهي مكة لكونها أعظم القرى شأنًا، ولكونها أول بيت وضع للناس، ولكونها قبلة هذه الأمة، ومحل حجهم، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض، والمراد بمن حولها جميع الأرض، والمراد بإنذار أم القرى: إنذار أهلها وسائر الأرض، فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية) (١٠٦٧).

### البيت العتيق:

ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١١٨﴾ (١٠٦٨).

وسمي بالبيت العتيق لقدمه، فالعتيق هو القديم، قال الشيخ المراغي: (والعتيق: القديم، لأنه أول بيت وضع للناس) (١٠٦٩).

### البلدة:

ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبِّ هَكَذَا أَلْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلِكُلِّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٠﴾ (١٠٧٠).

(١٠٦٦) سورة الأنعام: آية ٩٢.

(١٠٦٧) فتح القدير للشوكاني ١٣٩/٢.

(١٠٦٨) سورة الحج: آية ٢٩.

(١٠٦٩) تفسير المراغي ١٠٦/٦.

(١٠٧٠) سورة النمل: آية ٩١.

ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥) (١٠٧١).

جاء في زاد الميسر: معاد الرجل: بلده، لأنه يتصرف في البلاد ويضرب في الأرض، ثم يعود إلى بلده، نزلت هذه الآية حينما خرج رسول الله ﷺ من الغار ليلاً فمضى من وجهه إلى المدينة المنورة فسار في غير الطريق مخافة الطلب، فلما أمن رجع إلى الطريق فنزل الجحفة (١٠٧٢) بين مكة والمدينة، فعرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها، وذكر مولده، فأتاه جبريل فقال: أشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: "نعم" (١٠٧٣)، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾ (١٠٧٤).

(١٠٧١) سورة القصص: آية ٨٥.

(١٠٧٢) الجحفة: بالضم ثم السكون والفاء، كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرؤا على المدينة، وكان اسمها معيبة، وإنما سميت الجحفة، لأن السيل اجتفها وحمل أهلها في بعض الأعوام وهي الآن خراب. انظر: معجم البلدان ١٢٩/٢.

(١٠٧٣) الحديث رواه البخاري تفسيراً لابن عباس رضي الله عنهما قال: (إلى معاد: إلى مكة) صحيح وذكره الواحدي في تفسيره الوسيط سبباً لنزول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾ فقال: (لما نزل رسول الله الجحفة في سيره إلى المدينة لما هاجر إليها اشتاق إلى مكة فأتاه جبريل فقال: أشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: "نعم" فقال جبريل: فإن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾ يعني إلى مكة). الوسيط للواحدي ٤١١/٣. وذكره الطبري أيضاً فقال: (والصواب عندي قول من قال: لرادك إلى عادتك من الموت أو إلى إعادتك حيث ولدت). الجامع لأحكام القرآن ٨٠/٢٠.

(١٠٧٤) انظر: زاد الميسر في علم التفسير ٢٤٩/٦، ٢٥٠ بتصرف.

ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَأَنَا مَصْرُومٌ﴾ (١٠٧٥).

وسميت بذلك لأنها تجمع جماعة كثيرة من الناس (١٠٧٦).

(وفي إضافة القرية إلى النبي ﷺ إشارة إلى أنها قريته، وهو صاحبها، وأولى الناس بها، وإن أخرج منها، إنها ستفتح عما قريب نراعيها للنبي وتستقبله استقبال الأرض الجديد جاءها الغيث، وإنها لتكون عما قريب البلد الإسلامي الأول، الذي يوجه النبي والمؤمنون معه وجوههم إلى البيت الحرام فيه، وفي الآية إشارة إلى أن هذه القرية لن يحل بها من السدمار والخراب ما حلّ بقرى القوم الظالمين، ففي إضافتها إلى النبي الكريم، ضمان لها من كل سوء إلى يوم القيامة، إنها قرية النبي وستظل قريته إلى يوم الدين) (١٠٧٧).

البلد:

ورد في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١٠٧٨).  
والبلد في اللغة: الصدر، أي صدر القرى (١٠٧٩).

تحديد حرم مكة والمدينة:

للحرم المكي حدود، وكذلك للحرم النبوي حدود، وداخل هذه الحدود ورد الأمان لكل شيء من إنسان وحيوان وطيور وشجر.

(١٠٧٥) سورة محمد: آية ١٣.

(١٠٧٦) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٤٨/١ باختصار.

(١٠٧٧) التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب، المجلد الخامس ص ٣٢٧.

(١٠٧٨) سورة البلد: آية ١.

(١٠٧٩) انظر: شفاء الغرام ٤٨/١.

والمقصود بهذا الحرم هو ما يحرم فيه الصيد والنبات.

وحدود الحرم: من طريق المدينة على ثلاثة أميال من مكة عند السقيا، ويعرف بمساجد عائشة (١٠٨٠)، ومن طريق اليمين على سبعة أميال طرف إضاءة لبن (١٠٨١) في ثنية طريق العراق (١٠٨٢) على سبعة أميال من مكة على ثنية جبل بالمنقطع أو المقطع، ومن الطائف وبطن نمرّة (١٠٨٣) على طريق عرفات على سبعة أميال من مكة عند طرف عرفة، ومن

(١٠٨٠) يعرف الآن بالتنعيم موضع بمكة في الحل، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة، وقيل: أربعة وسمي التنعيم لأن جبلاً على يمينه يقال له: نعيم وآخر عن شماله يقال له: ناعم، والوادي نعمان، وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة رضي الله عنها وسقيا على طريق المدينة، ومنه يحرم المكبون بالعمرة. انظر: معجم البلدان ٥٨/٢.

(١٠٨١) أضواء لبن: بكسر اللام وسكون الباء الموحدة ونون: حدّ من حدود الحرم على طريق اليمن. انظر: معجم البلدان ٢٥٣/١.

(١٠٨٢) العراق: العراق المشهورة وهي بلاد، والعراقان: الكوفة والبصرة، سميت بذلك من عراق القرية وهو الخرز المثني الذي في أسفلها أي: أنها أسفل أرض العرب، وقيل: سمي عراقاً، لأنه سفلى عن نجد ودنا من البحر، وقيل: سمي عراقاً لأنه على شاطئ دجلة والفرات مداً حتى يتصل بالبحر على طوله، وقيل غير ذلك، وعرض العراق من جهة خط الاستواء أحد وثلاثون جزءاً، وطولها خمسة وسبعون جزءاً وثلاثون دقيقة. انظر: معجم البلدان ١٠٥/٤ وما بعدها.

(١٠٨٣) نمرّة: بفتح أوله وكسر ثانيه أنثى النمو، ناحية بعرفة نزل بها النبي ﷺ، وقيل: الحرم من طريق الطائف على طرف عرفة من نمرّة على أحد عشر ميلاً، وقيل: نمرّة الجبل الذي عليه أنصاب الحرم عن يمينك إذا خرجت من المأزمين تريد الموقف. انظر: معجم البلدان ٣٥٢/٥.

طريق الجعرانة<sup>(١٠٨٤)</sup> على تسعة أميال، ومن جدة على عشرة أميال من مكة، ومن بطن عرنة<sup>(١٠٨٥)</sup> أحد عشر ميلاً.

ويلاحظ أن للحرم علامات من جوانبه كلها ومنصوب عليه أنصاب<sup>(١٠٨٦)</sup>.

وما كان داخلًا في حدود الحرم من الصيد والشجر والنبات، فإنه يحرم التعرض له بسوء أو الجناية عليه، لأنه آمن الصيد لا ينفر، والشجر لا يقطع، والنبات لا يؤذى، والقتال فيها لا يباح، قال ﷺ: «حرم الله مكة فلم تحل لأحد قبلي ولا لأحد بعدي، أطلت لي ساعة من نهار: لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمعرف» فقال العباس رضي الله عنه: إلا الإنخر لصناعتنا وقبورنا، فقال ﷺ: «إلا الإنخر»<sup>(١٠٨٧)</sup>.

أهم معالم مكة المكرمة:

تحتوي هذه البلدة الكريمة، العظيمة في نفوس المسلمين على معالم غاية في الأهمية، ومن أهم هذه المعالم:

<sup>(١٠٨٤)</sup> الجعرانة: وهي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين وأحرم منها ﷺ وله فيها مسجد وبها بئار متقاربة. انظر: معجم البلدان ١٦٥/٢.

<sup>(١٠٨٥)</sup> بطن عرنة: وادٍ بحذاء عرفات، وقيل: بطن عرنة مسجد عرفة، والمسيل كله، وله ذكر في الحديث في قوله ﷺ: «عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة». انظر: معجم البلدان ١٢٥/٤.

<sup>(١٠٨٦)</sup> راجع: المجموع للنووي ٤٦٢/٧ وما بعدها، والفقهاء الإسلامي للزحيلي ٣١٨/٣، ٣١٩، ومكانة الحرمين الشريفين لخليل خاطر ص ١٣، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٨٧، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٩١، ١٩٢.

<sup>(١٠٨٧)</sup> صحيح البخاري في (كتاب الجنائز، باب: الإنخر والحشيش في القبر) رقم الحديث (١٢٨٤) ٤٥٢/١، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدتها) رقم الحديث (٣٢٨٩) ١٢٧/٩ وما بعدها، وسنن أبي داود (كتاب المناسك، باب تحريم مكة) رقم الحديث (٢٠١٧) ٢١٢/٣، وسنن النسائي (كتاب المناسك، باب: حرمة مكة، وباب: النهي أن ينفر صيد الحرم) ٢٠٣/٥، ٢٠٤، ٢١١.

## ١ - الكعبة المشرفة:

تعد الكعبة المشرفة أبرز المعالم بمكة وأعظمها مكانة عند المسلمين، بناها إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام، وكانت الكعبة غير مسقفة في عهد إبراهيم عليه السلام، ثم بناها قريش في الجاهلية فزادت في ارتفاعها تسعة أذرع وسقفوها، وفي زمن عبد الله بن الزبير<sup>(١٠٨٨)</sup> هدم الكعبة وردّها إلى قواعد إبراهيم، وزاد في طولها تسعة أذرع أخرى على بناء قريش، فصارت سبعة وعشرين ذراعاً، ثم أعيدت إلى قواعد قريش في عهد عبد الملك بن مروان<sup>(١٠٨٩)</sup>، وسميت الكعبة بهذا الاسم لتكعيبها، وكل بناء مرتفع مربع، يسمى الكعبة<sup>(١٠٩٠)</sup>.

<sup>(١٠٨٨)</sup> هو: عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة، أمير المؤمنين أبو بكر وأبو خبيب القرشي الأسدي المكي ثم المدني، أحد الأعلام، ولد الحواري الإمام أبي عبد الله ابن عمّة رسول الله ﷺ وحواريه، كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة، ولد سنة ٢ هـ، وقيل: سنة ١ هـ له صحبة ورواية أحاديث، عداده في صفار الصحابة وإن كان كبيراً في العلم والشرف والجهاد والعبادة، بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين ولم يستوسق له الأمر، ومن ثم لم يعده بعض العلماء في أمراء المؤمنين، حاربه عبد الملك بن مروان، وقتل الزبير فاستقل عبد الملك بن مروان بالخلافة سنة ٧٢ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٣/٣٦٣، وتهذيب التهذيب ٢١٣/٥.

<sup>(١٠٨٩)</sup> هو: عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، الخليفة الفقيه، أبو الوليد الأموي، ولد سنة ست وعشرين للهجرة، سمع عثمان وأبا هريرة وأبا سعيد ومعاوية وابن عمر وغيرهم، حدث عن عروة وخالد بن معدان وغيرهم، تملك بعد أبيه الشام ومصر ثم حارب ابن الزبير وقتل أخاه مصعباً، واستولى على العراق وحارب ابن الزبير فقتل ابن الزبير سنة ٧٢ هـ، واستوسقت الممالك لعبد الملك، قال ابن سعد: كان قبل الخلافة عابداً ناسكاً بالمدينة، شهد مقتل عثمان، واستعمله معاوية على المدينة، وهو أول من ضرب الدنانير وكتب عليها بالقرآن، مات سنة ٨٦ هـ عن نيف وستين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٢٤٦، وتهذيب التهذيب ٦/٤٢٢.

<sup>(١٠٩٠)</sup> انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/١٢٦.

٢- زمزم:

أول من أظهر زمزم على وجه الأرض هو جبريل عليه السلام عند ظمأ إسماعيل عليه السلام، وفي مقر زمزم ثلاث عيون، إحداها حذاء الركن الأسود، والأخرى حذاء أبي قبيس، والثالثة حذاء المروة، وأغزرها العين التي تخرج من قبل الحجر.

وماء زمزم أفضل المياه على الإطلاق، وقد وردت أحاديث نبوية تذكر هذا الفضل، وبعض خصائص هذا الماء ومزاياه، ومنها قوله ﷺ عندما ذكر زمزم قال: «زمزم لما شرب له» (١٠٩١).

ولها أكثر من ثلاثين اسماً أشهرها: زمزم، سميت بذلك لأنها زمت بالتراب لئلا يأخذ الماء يميناً وشمالاً، ولو تركت لساحت على الأرض، ومنها سقيا الله إسماعيل، وبركة، وسعيد، ونافعة، ومضمونة، وبشرى، وصافية، وبرة، وميمونة، وعافية، .... الخ (١٠٩٢).

ومن معالم مكة البارزة جبالها المحيطة بها، ومن أشهرها:

جبل أبي قبيس:

وهو أحد أخشيبي مكة المشرف على الصفا وهو مشهور لا يحتاج إلى بيان وسمي بذلك لأن أول من نهض البناء فيه رجل كان يقال له: أبو قبيس، فلما صعد فيه بالبناء سمي جبل أبي قبيس (١٠٩٣).

(١٠٩١) رواه ابن ماجة في سننه (كتاب المناسك، باب: الشرب من زمزم) رقم الحديث

(٢٤٨٤) ١٨٣/٢ وقد قال الألباني عنه: (صحيح). إرواء الغليل ٣٢٠/٤.

(١٠٩٢) انظر شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢٤٧/١، ٢٤٨.

(١٠٩٣) انظر: المنتقى في أخبار أم القرى ص ١١١، وأخبار مكة ٢٦٧/٢.

## جبل الخدمة:

وهو جبل شامخ مشهور معروف في ظهر أبي قبيس (١٠٩٤).

## جبل حراء:

ويسمى جبل النور، وكان ذلك لكثرة مجاورة النبي ﷺ وتعبده فيه، وما خصه الله به فيه من الإكرام بالرسالة ونزول الوحي عليه في الغار الذي بأعلاه، ويقع بأعلى مكة في شمالها على يسار الذهاب إلى عرفات (١٠٩٥).

## جبل ثور:

بأسف مكة وقد اختبأ النبي ﷺ فيه عند هجرته إلى المدينة المنورة ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْصُرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (١٠٩٦).

ويبعد جبل ثور عن مكة ميلين، وقيل: ثلاثة، وارتفاعه نحو ميل، وكان اسمه أطحل بالطاء والحاء المهملتين، وإنما سمي ثور لنزول ثور بن عبد مناف فيه (١٠٩٧).

## ثانياً: المدينة المنورة:

### ١- موقعها:

تقع المدينة المنورة - على منورها أفضل الصلاة وأتم التسليم - تقع في وسط الحجاز شمال مكة المكرمة، وتبعد عنها حوالي ثلاثمائة (٣٠٠) ميل، وبالنسبة لخطوط

(١٠٩٤) المنتقى ص ١١٢.

(١٠٩٥) المنتقى في أخبار أم القرى ص ١١٢.

(١٠٩٦) سورة التوبة: آية ٤٠.

(١٠٩٧) انظر: المنتقى في أخبار أم القرى ص ١١٣.

العرض والطول للكرة الأرضية، فإنها تقع على (٣٩) درجة و (٣٦) دقيقة وثانية واحدة و (٦١) من المائة من خطوط الطول، و (٣٥) من المائة من خطوط العرض.

وتقع في واحة خصبة في الشمال الغربي منها جبل سلع<sup>(١٠٩٩)</sup>، ومن الجنوب جبل عير<sup>(١١٠٠)</sup>، ومن الشرق: الحرة الشرقية<sup>(١١٠١)</sup>، ومن الغرب: الحرة الغربية<sup>(١١٠٢)</sup>.

## ٢- أسماء المدينة:

ومن فضائل المدينة النبوية: كثرة أسمائها، وقد ورد مائة وخمسة عشر اسماً ولا يعرف بلد له من كثرة الأسماء ما للمدينة، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على شرف المسمى<sup>(١١٠٣)</sup>، ومن أسمائها:

<sup>(١٠٩٨)</sup> الحجاز: يجوز أن يكون مأخوذاً من قول العرب: حجز الرجل بغيره، يحجزه إذا شده شداً يقيده به، ويقال للجبل حجازاً، ويجوز أن يكون سمي حجازاً لأنه يحتجز بالجمال، والحجاز جبل ممتد حال بين غور تهامة ونجد فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر فهو حاجز بينهما. قال الخليل: سمي الحجاز لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية، وقيل غير ذلك.

انظر: معجم البلدان ٢/٢٥٢.

<sup>(١٠٩٩)</sup> سيأتي التعريف بهذا الجبل في أهم معالم المدينة إن شاء الله ص ٤٥٢.

<sup>(١١٠٠)</sup> سيأتي التعريف بهذا الجبل في أهم معالم المدينة إن شاء الله ص ٤٥٢.

<sup>(١١٠١)</sup> الحرة: أرض ذات حجارة سوداء، وفي المدينة حرتان شرقية وغربية، وهما معروفتان إلى الآن وغنيتان عن التعريف.

<sup>(١١٠٢)</sup> انظر: المدينة المنورة في التاريخ لـ عبد السلام هاشم حافظ ص ٨٣، وفصول من

تاريخ المدينة المنورة لعلّي حافظ ص ١٤ - ١٧.

<sup>(١١٠٣)</sup> انظر: مختصر فضائل المدينة النبوية - محاضرة القاها الدكتور خليل إبراهيم ملاً

خاطر في نادي المدينة المنورة الأدبي ص ١٩.

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم بهذا الاسم أربع مرات:

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ

لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَيْكَ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١٠٤﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا

يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيدُهُمْ ظُلْمًا وَلَا نَضَبٌ وَلَا مَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا

يَطْعُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَالَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نِّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠٥﴾.

وفي قوله عز وجل: ﴿لَيْنَ لِّرَبِّنَا الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي

الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١١٠٦﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٠٧﴾.

وورد ذكرها في السنة المطهرة بهذا الاسم في مواطن عدة، منها:

في قوله ﷺ: «أمرت بقريّة تَأْكُلُ الْقُرَى، يقولون يثرب (١١٠٨)، وهي المدينة تنفي الناس

كما ينفي الكير خبث الحديد» متفق عليه (١١٠٩).

(١١٠٤) سورة التوبة: آية ١٠١.

(١١٠٥) سورة التوبة: آية ١٢٠.

(١١٠٦) سورة الأحزاب: آية ٦٠.

(١١٠٧) سورة المنافقون: آية ٨.

وفي قوله ﷺ: «لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع الملح في الماء» (١١١٠)، وغير ذلك من الأحاديث الشريفة.

### طيبة وطابة:

سميت بذلك لطيب ساكنها أو لطيب العيش فيها، أو تربتها، والله أعلم، ورد هذا الاسم في قوله ﷺ: «هذه طابة، وهذا أحدٌ، وهو جبل يحبنا ونحبه» (١١١١).

والذي سماها طيبة وطابة هو الله عز وجل، وليس الناس، قال ﷺ: «إن الله تعالى سمي المدينة طابة» رواه مسلم (١١١٢).

ومن أسمائها: الدار، والإيمان، والبحرة، والدرع الحصينة، وقبة الإسلام، ودار السنة، ودار الهجرة، ودار السلامة، وذات النخل، والقريّة، والمسكنية، وجابرة، والجبورة،

(١١٠٨) يثرب: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وكسر الراء، وباء موحدة، مدينة رسول الله، سميت بذلك لأن أول من سكنها عند التفريق: يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عييل بن عوض بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، فلما نزلها رسول الله ﷺ سماها: طيبة وطابة كراهية التثريب. انظر: معجم البلدان ٤٩٣/٥.

(١١٠٩) صحيح البخاري (كتاب فضائل المدينة، باب: فضل المدينة) رقم الحديث (١٧٧٢) ٦٢٢/٢، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: المدينة تنفي شرارها) رقم الحديث (٣٣٤٠) ١٥٦/٩.

(١١١٠) صحيح البخاري (كتاب فضائل المدينة، باب: إثم من كاد أهل المدينة) رقم الحديث (١٧٧٨) ٦٦٤/٢، وصحيح مسلم (كتاب الحج، باب: من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله) رقم الحديث (٣٣٤٦) ١٥٩/٩، وسنن ابن ماجه (كتاب المناسك، باب: فضل المدينة) رقم الحديث (٢٥٢٨) ١٩٧/٢.

(١١١١) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب: نزول النبي ﷺ الحجر) رقم الحديث (٤١٦٠) ١٦١٠/٤، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: أحد جبل يحبنا ونحبه) رقم الحديث (٢٥٢٨) ١٦٤/٩.

(١١١٢) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: المدينة تنفي شرارها) رقم الحديث (٣٣٤٤) ١٥٨/٩.

والعذراء، والمحبة، والقاصمة، ودار الإيمان، ودار الأبرار، ودار الأخيار، وذات الحرار،  
وسيدة البلدان، وبيت رسول الله ﷺ الخ (١١١٣).

النهى عن تسميتها يثرب:

ولا يجوز أن يقال للمدينة المنورة: يثرب، فمن قال لها: يثرب، فقد ارتكب ذنباً ويجب  
عليه الاستغفار، والاستغفار لا يكون إلا عن ذنب.

ففي حديث البراء بن عازب (١١١٤) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمي  
المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل، هي طابة، هي طابة» (١١١٥).

وسبب النهي عن تسميتها يثرب: أن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة، أو  
من الثرب، وهو: الفساد وكلاهما مستقبح.

وأما ذكرها في القرآن الكريم بيثرب، فإنما هو حكاية عن المنافقين والذين فسي قلوبهم  
مرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا

---

(١١١٣) انظر: مختصر فضائل المدينة لـ أ. د. خليل إبراهيم ملاً خاطر ص ٢١، وأخبار  
مدينة الرسول ﷺ لمحمد بن محمود النجار تحقيق: صالح محمد جمال ص ١١، وفصول  
من تاريخ المدينة ص ١٧.

(١١١٤) هو: البراء بن عازب الحارث بن عدي بن حشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن  
عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، يكنى أبا عمر، وقيل: أبا عمار، وهو  
أصح، رده النبي ﷺ عن بدر، استصغره، وأول مشاهده أحد، وقيل الخندق، وغزا مع  
رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة، وهو الذي افتتح الري سنة ٢٤ صلحاً أو عنوة، وشهد  
مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين والنهروان هو وأخوه عبيد بن عازب، ونزل  
الكوفة وابتنى بها داراً ومات أيام مصعب بن عمير. انظر: أسد الغابة ٢٠٥/١، وسير  
أعلام النبلاء ١٩٤/٣، وتهذيب التهذيب ٤٢٥/١.

(١١١٥) رواه أبو يعلى في المسند ٢٤٧/٣ رقم الحديث (١٦٨٨) ورواه عمر بن شبة في  
تاريخ المدينة ١٦٥/١، وفي الكامل لابن عدي ٢٧٣٠/٧.

عُرُوا ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَاسْتَعِذْ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴿١١١٦﴾.

جاء في نظم الدرر في تفسير هذه الآية: ﴿يَا أَهْلَ يَرْبِ﴾ عدلوا عن الاسم الذي سميها به النبي ﷺ من المدينة وطيبة مع حسنه إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديماً مع احتمال قبحه باستنطاقه من الثرب الذي هو اللوم والتعنيف، إظهاراً للعدول عن الإسلام) (١١١٧).

### حدود الحرم المدني:

والحرم المدني لا يقل أهمية عن الحرم المكي من حيث تأمين الإنسان فيه، والطير والشجر، ولذلك أهوى ﷺ بيده إلى المدينة فقال: «إنها حرم آمن» (١١١٨).

أما حدود الحرم المدني فهو ما بين الحرتين، الشرقية والغربية، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: حرم رسول الله ﷺ ما بين لابتي المدينة (١١١٩).

أما تحديده من الشمال والجنوب، فهو ما بين عير (١١٢٠) إلى ثور (١١٢١)، قال النبي ﷺ: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» (١١٢٢).

(١١١٦) سورة الأحزاب: الآيات ١٢، ١٣.

(١١١٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٣٠٦/٥.

(١١١٨) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: الترغيب في سكنى المدينة) رقم الحديث (٣٣٢٨) ١٥٢/٩.

(١١١٩) صحيح البخاري (كتاب فضائل المدينة، باب: لابتي المدينة) رقم الحديث (١٧٧٤) ٦٦٢/٢، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: سكنى المدينة) رقم الحديث (٣٣٢٣) ١٥٠/٩.

(١١٢٠) جبل عير: سيأتي التعريف به في أهم معالم المدينة.

(١١٢١) جبل ثور: جبل صغير أحمر اللون، يقع خلف جبل أحد شمال المدينة المنورة، وقد اختلف كثير من العلماء والمؤرخين على وجوده بالمدينة المنورة، وأكد بعضهم عدم

قال أبو هريرة: "فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ما ذعرتها وجعل اثني عشر ميلاً،  
حول المدينة حمى" (١١٢٣).

ومما يدل على تحريمها أيضاً قوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت  
المدينة، كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه  
السلام لمكة» (١١٢٤).

وعقوبة الصائد في الحرم المدني، وقاطع الشجر هو: أخذ سلبه حيث جعل النبي ﷺ هذه  
العقوبة على المعتدي على الحرم، وذلك لما روي أن رسول الله ﷺ حرم هذا الحرم وقال:  
«من رأبتموه يصيد فيه شيئاً فله سلبه» (١١٢٥).

وروى أبو داود بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «حمى رسول الله ﷺ كل ناحية من المدينة  
بريداً بريداً، لا يخبط شجره، ولا يعضد إلا ما يساق به الجمل» (١١٢٦).

---

وجوده بها وقالوا: ليس بالمدينة ثور، وإنما هو بمكة المكرمة، ولذا جاء في أكثر روايات  
البخاري من غير إلى كذا ولم يبين النهاية، وترك بعض الرواة موضع ثور بياضاً. انظر:  
تاريخ معالم المدينة المنورة ص ٢٢٦.

(١١٢٢) صحيح البخاري (كتاب الفرائض، باب: إثم من تبرأ من مواليه) رقم الحديث (٦٣٧٤)  
٢٤٨٢/٦، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل المدينة) رقم الحديث  
(٣٣١٤) ١٤٤/٩، وسنن أبي داود في (كتاب المناسك، باب: في تحريم المدينة) رقم  
الحديث (٢٠٣٤) ٢١٦/٢.

(١١٢٣) صحيح البخاري (كتاب فضائل المدينة، باب: لابتى المدينة) رقم الحديث (١٧٧٤)  
٦٢٢/٢، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل المدينة) رقم الحديث  
(٣٣٢٠) ١٤٨/٩.

(١١٢٤) سبق تخريجه ص ٤٢٧.

(١١٢٥) سنن أبو داود (كتاب المناسك، باب: في تحريم المدينة) رقم الحديث (٢٠٣٧)  
٢١٧/٢، والإمام أحمد في المسند ١/١٧٠.

(١١٢٦) سنن أبي داود (كتاب المناسك، باب: في تحريم المدينة) رقم الحديث (٢٠٣٦)  
٢١٧/٢.

وروى أبو داود أيضاً: أن سعد بن أبي وقاص (١١٢٧) رضي الله عنه أخذ رجلاً يصيد في حرم المدينة الذي حرم رسول الله ﷺ فسلبه ثيابه، فجاء مواليه فكلموه فيه فقال: إن رسول الله ﷺ حرم هذا الحرم وقال: «من أخذ أحداً يصيد فيه فليسلبه ثيابه، فلا أرد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله ﷺ، ولكن إن شئتم دفعت إليكم ثمنه» (١١٢٨).

ومع هذا فقد اختلف أهل العلم في المدينة هل لها حرم؟ وهل هناك جزاء في صيدها، وقطع شجرها وحشيشتها؟:

جاء في المغني: ويحرم صيد المدينة وشجرها، وبهذا قال مالك، والشافعي.

وقال أبو حنيفة: لا يحرم.

ثم اختلف محرموه: هل فيه الجزاء إذا اصطيد، أو في شجرها إذا قطع؟

فقال مالك: وأحمد في إحدى روايتيه: لا جزاء فيه، وفي الأخرى: فيه الجزاء، وعن الشافعي قولان كالروايتين.

(١١٢٧) هو: سعد بن مالك، وهو سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك بن وهب، وقيل أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي الزهري، يكنى أبا إسحاق أسلم بعد ستة، وقيل: بعد أربعة، وكان عمره لما أسلم سبع عشرة سنة وهو أحد الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة، وأحد العشرة سادات الصحابة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذي أخبر عمر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ توفي، وهو راض عنهم، شهد بدمراً وأحداً والمشاهد كلها مع الرسول ﷺ وأبلى يوم أحد بلاء حسناً وأول من أراق دماً في سبيل الله وأول من رمى بسهم في سبيل الله، توفي ٥٥هـ، وقيل غير ذلك، توفي بالعقيق على بعد سبعة أميال من المدينة وحمل إليها فصلى عليه في مسجد رسول الله ﷺ . انظر: أسد الغابة ٣٦٦/٢، وسير أعلام النبلاء ٩٢/١.

(١١٢٨) سنن أبي داود (كتاب المناسك، باب: في تحريم المدينة) رقم الحديث (٢٠٣٧)

٢١٧/٢

والجزء عند الشافعي في أحد قوليه، وعن أحمد هو: سلب العادي، يملكه الآخذ له،  
والقول الثاني للشافعي: أنه يتصدق بالسلب على فقراء المدينة (١١٢٩).

أهم معالم المدينة المنورة:

تحظى المدينة المنورة بمعالم كثيرة لها في قلوب المسلمين مكانة كبرى، ومن أهم هذه  
المعالم:

المساجد: وأهمها وأعظمها مكاتبة:

مسجد رسول الله ﷺ :

وقد بناء عليه السلام على أرض يقال لها: المربد، وقد بناه عليه السلام مربعاً، وجعل  
قبلته إلى بيت المقدس، وكان له ثلاثة أبواب وقد تعرض هذا المسجد لعدة زيادات ابتداءً من  
عهد الرسول ﷺ حيث زاد في مسجده الشريف ثلاثة عواميد من جهة الغرب في السنة  
السابعة من الهجرة الشريفة بعد عودته من غزوة خيبر (١١٣٠) فكأنه بعمله هذا قد سن لمن  
بعده الزيادة في المسجد الشريف النبوي إن احتاج الحال لذلك (١١٣١)، وقال مشيراً إلى هذا

---

(١١٢٩) راجع في ذلك: معالم السنن ٢/٢٢٣، والمهذب ١/٢١٨، وروضة الطالبين ٣/١٦٨،  
١٦٩، والمبسوط ٤/١٠٥، والمغني ٣/٣٥٣، والإفصاح ١/٢٩٥، والمحرم الوجيز  
١/٢٤٢، ومكانة الحرمين الشريفين ص ٣٠.

(١١٣٠) خيبر: الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ، وهي ناحية على ثمانين برد من المدينة  
لمن يريد الشام يطلق هذا الاسم على الولاية وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون  
ومزارع ونخل كثير، وقد فتحها النبي ﷺ كلها سنة سبع للهجرة، وقيل: سنة ثمان. انظر:  
معجم البلدان ٢/٤٦٨.

(١١٣١) انظر: تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً لأحمد الخياري ص ٥٦.

المعنى: «لو بنى هذا المسجد إلى صنعاء لكان مسجدي» (١١٣٢)، وانتهاء بتوسعة خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود وفقه الله وأمد في عمره.

### مسجد قباء:

هو أول مسجد أسس على التقوى، بناه رسول الله ﷺ في طريقه مهاجراً إلى المدينة (١١٣٣)، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ حُجَّةً لِمَنْ تَطَّهَّرَ بِهِ لِمُنَازَعَةٍ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَيْسَ إِلَى اللَّهِ حُجَّةٌ مِمَّنْ شَفَعَ بَيْنَهُمْ سَبْعَ شَفَاعَاتٍ وَالَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ يُكْفَرُونَ وَلَكِنْ يَحْمِلُونَ كَثِيرٌ شَفَعْتُمْ بَيْنَهُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَاءَ الْغَيْرَ الْكَافِرَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَزَالُ بُعِثَتْهُمْ إِلَى الَّذِينَ بَنَوْا رِيبةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ (١١٣٤).

(١١٣٢) أورد هذا الحديث الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٩٧٣/٢ إلا أنه بعدما ذكر من ضعفه وعله ضعفه قال: (إن معناه صحيح يشهد له عمل السلف به حين زاد عمر وعثمان في مسجده ﷺ من جهة القبلة فكان يقف الإمام في الزيادة ووراءه الصحابة في الصف الأول، فما كانوا يتأخرون إلى المسجد القديم كما يفعل بعض الناس اليوم). وقد عزاه إلى عمرة بن أبي شيبه في أخبار المدينة، وابن تيمية في الرد على الأحنائي ص ١٢٥ وقال: (وقد جاءت الآثار بأن حكم الزيادة في مسجده ﷺ حكم المزيد، ولهذا اتفق الصحابة رضوان الله عليهم على أنهم يصلون في الصف الأول من الزيادة التي زادها عمر وعثمان رضي الله عنهما وما بلغني من أحد من السلف خلاف ذلك).

(١١٣٣) المدينة المنورة في التاريخ، دراسة شاملة لـ عبد السلام هاشم حافظ ص ٨٦، والمدينة اليوم لـ محمد صالح البلهيني ص ٧٣ من منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي.

(١١٣٤) سورة التوبة: الآيات ١٠٧ - ١١٠.

جاء في فتح القدير: (واختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء كما روي عن ابن عباس والضحاك وغيرهم، وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي ﷺ، والأول أرجح لما سيأتي قريباً إن شاء الله) (١١٣٥).

ويقع مسجد قباء في الجنوب الغربي للمدينة المنورة على بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات وهو مربع الشكل، وله محراب ومنارة ومنبر رخامي، وفيه بئر تنسب لأبي أيوب الأنصاري ومساحته (١٢٢٥) متراً (١١٣٦)، وقد زيد في هذا المسجد وجددت عمارته في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز.

كما يوجد أيضاً: مسجد القبلتين ومسجد الغمامة ومسجد الجمعة وغيرها كثير من المساجد الهامة في المدينة المنورة.

ومن المعالم الهامة في المدينة المنورة الجبال:

أهمها وأشهرها جبل أحد:

قال ﷺ: «أحد يحبنا ونحبه» (١١٣٧)، وسبب تسميته بأحد توحدته عن الجبال التي حوله وانقطاعه عنها، والمسافة بينه وبين مسجد رسول الله ﷺ أقل من فرسخ، وعند جبل أحد كانت الموقعة المشهورة بين المسلمين وكفار قريش والتي استشهد فيها حمزة رضي الله عنه عم النبي ﷺ (١١٣٨).

(١١٣٥) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤٠٣/٢ بتصرف.

(١١٣٦) انظر: فصول من تاريخ المدينة ص ١٣٥، وتاريخ معالم المدينة المنورة ص ١٢٠.

(١١٣٧) الحديث سبق تخريجه ص ٤٤٤.

(١١٣٨) انظر: تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ص ٢٢١، ٢٢٢.

## جبل سلع:

وهو جبل عظيم شامخ في المدينة المنورة خارج باب الشامي ولون أحجاره سوداء بوجه الإجمال، وفي شرقيه موضع يقال له: دكة جلال، نظمها شخص يسمى بهذا الاسم، ويوجد في علو سفحه الجنوبي كتابة كوفية أثرية قديمة (١١٣٩).

## جبل عير:

بفتح العين وسكون الياء، ويقال: عاير: وهو عظيم مشهور واقع في قبلة المدينة المنورة شرقي العقيق، قرب ذي الحليفة (١١٤٠)، وهو أحد حدود المدينة المنورة التي حرم الرسول ﷺ الصيد بينها وفوقه جبل آخر بنفس الاسم، ويقال له: عير الصادر ولأول عير الوارد (١١٤١). وبعد هذه اللوحة الموجزة عن مكة والمدينة وبعض المعالم لها أنتقل إلى فصول الباب، وبالله التوفيق.

## الفصل الأول

### بيان حرمتها والأمر بتعظيمها

إن أشرف المواطن وأفضلها لدى الله عز وجل، وإن أقدس الأماكن وأجلها عند عباده هي المساجد يؤدي المسلم فيها فرضه، ويقف فيها على واجبه ووظيفته.

(١١٣٩) انظر: المرجع السابق ص ٢٢٣، والمدينة المنورة في التاريخ دراسة شاملة لـ عبد السلام هاشم حافظ ص ٤٧.

(١١٤٠) هو ميقات أهل المدينة ومن مر بها وهو في طريق المدينة مكة بالقرب من المدينة، ويعرف اليوم بـ(أبار علي). انظر: أخبار مكة ٢/٣١٠، والمدينة اليوم ص ٧٣.

(١١٤١) انظر: تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً ص ٢٢٦.

وليست هذه الموطن التي تشيع وتفيض، سوى بيوت الله تعالى تكلم التي تمثل مراكز الإشعاع في أرض الله، والتزام المنهج في كل شؤون الحياة ومظاهرها.

ولقد كان في طبيعة هذه المعاهد والمواطن على الإطلاق منذ فجر الحياة، بيت الله الحرام في مكة المكرمة، بلد الله الأمين، ذلك الذي كان أكثرها عطاء، وأبعدها عمقاً في إلهام البشرية وتوجيهها، وتحويل مسارها نحو التوحيد والإيمان، والعرفان الحق بالله، وما يصدر عنه في نطاق الحق والخير والفضيلة، من أصالة المنهج، وسواء القصد، ونبالة الغاية، فكان منذ عرفت الدنيا الحياة، والإحياء، والبشر إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها: الجزيرة الوداعة وسط المحيط، والمنارة الهادية التي تلقي بأضوائها في كل اتجاه.

ولقد كان طبيعياً أن يتوفر لهذا البيت الحرام، من عناية الله ورعايته، والحفاظ عليه، ما لم يتوفر لأي مكان غيره، في أية بقعة من بقاع العالم في الشرق والغرب، حيث جند له الله عز وجل من عباده، وسخر له عبر العصور من خلقه، من تتابعوا على تطهيره، ورفع قواعده، وبنائه، وتجديد حرمه، وتوسيع ساحته، وإعداده، وتهيئته لضيوف الرحمن من قاصديه وحجاجه، وعمارته، وزواره، والطائفين به والعاكفين فيه، والقائمين الذين يقدون إليه من كل فج عميق.

ولا شك أن المسلم يعيش عمره كله يتطلع إلى اليوم الذي يأذن الله فيه بالحج إلى بيته المحرم، فيؤدي الفريضة ويستكمل أركان دينه، فإذا ما لقي ربه يكون قد أوفى ما أمره الله به.

فإذا كان للحرمين الشريفين هذه المكانة التي لا مشاحة فيها، فإنه يتعين أن يظلا والأرض الطاهرة التي تضمهما في أمن وسلام حتى يكون متاحاً لكل مسلم في أي وقت يأذن فيه الله أن يطوّف بهما حاجاً أو معتمراً.

ويترتب على ذلك - بالضرورة - أن الحفاظ عليهما والدفاع عنهما فرض عين على كل مسلم يعمل ويناضل، بل وعليه أن يقاتل من أجلهما لمكانتهما المقدسة.

وكان المسلمون - ولا يزالون - يتطلعون إلى رحلة الحج إذا ما يسر الله لهم القيام بها في شغف وشوق، ويداعب مخيلتهم وعقولهم الطواف بالبيت الحرام، والصلاة في رحاب مسجد رسول الله ﷺ، وهم في كل مسعاهم آمنون مطمئنون لا يداخل قلوبهم أي وجل أو خوف، وإن كان ثمة ما يفكرون فيه فقد يكون النصب والتعب، وهذا وذاك أمران محبيان إلى النفس، لأنهم يجرون عليهما، الأجر والثواب على قدر المشقة، وبالحلاوة والمسغبة في سبيل الطواف بالبيت الحرام وزيارة مسجد رسول الله ﷺ (١١٤٢).

وليس في الوجود كله حضي بالشرف والظهر والمكانة في ضمير الإنسانية عبر أجيالها وعصورها والمتعاقبة كما حظي المسجد الحرام، ومن ثم حفل التاريخ به واحتفى به حفاوة لم تعهد لغيره من دنيا الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرِّهِيَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (١١٤٣).

جاء في فتح البيان عند تفسيره لهذه الآية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ هذا شروع في بيان شيء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل وذلك أنهم قالوا: إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء وأرض المحشر، وفي الأرض المقدسة وقبلتهم، فرد الله ذلك عليهم، ونبه تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره، والأول هو: الفرد السابق المتقدم على ما سواه، وقيل: هو اسم للشيء الذي يوجد ابتداءً، سواء حصل عقبيه شيء أو لم يحصل (١١٤٤).

(١١٤٢) انظر: مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين الذي نظمه المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية في الفترة من ٢٣ - ٢٥ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ بمبنى الشبان المسلمين

١٢ شارع رمسيس - القاهرة ص ١٤.

(١١٤٣) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

(١١٤٤) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ٨٨/٢.

ولا شك أن هناك أزمنة وأمكنة وأشخاصاً قد جعل الله لها مزية وخاصة، وإذا كانت الخواص في أشخاص أشاد القرآن بذكرها كالأنبياء والأخيار، أو في أزمنة رفع الله من شأنها حتى أقسم الله بها كالفجر، والضحى، والليل، فإننا ننهض في تقديس وإكبار إلى الحديث عن بقعة من الأرض كرمها ربنا فيما كرم من بقاع، وأثرها بمزيد فضله ورضوانه، وأضفى عليها من حمايته وسلطانه حتى كانت في عين الزمن حلية الدنيا.

إنها بقعة اختصها الله تعالى، فسامها المسجد الحرام، وسماها البيت العتيق فأى مسجد ذلك؟ وأي بيت هو؟:

هو الكعبة التي جمع الله لها وصف المسجدية والحرمية والبيتية في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١١٤٥).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْمَهْدَى

وَالْقَلِيدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (١١٤٦).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ

الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١١٤٧).

إن في وصفه بالعتيقة لإيداناً بأصالة الشرف، وتأكيداً بأنه أول بيت وضع في الأرض

للعبادة.

(١١٤٥) سورة البقرة: آية ١٤٤.

(١١٤٦) سورة المائدة: آية ٩٧.

(١١٤٧) سورة الحج: آية ٢٩.

جاء في التفسير القرآني للقرآن في بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾<sup>(١١٤٨)</sup> فبالوفاء بالنذور، وبالطواف بالبيت العتيق والطواف به طواف تسليم، يكون آخر عمل من أعمال الحج، هو الطواف بالبيت هو طواف الوداع، واستئذان وشكر، لما لقي في رحاب هذا البيت من أطاف الله وأفضاله، وما تلقى من آياته ونعمائه.

ووصف بالعتيق، لأنه أول بيت لله وضع للناس على الأرض، فالعتق هنا من العتاقة، وهي القدم، الذي هو صفة من صفات الله، فإذا كان القدم في مقام الفضل والإحسان، فهو تقدم في الدرجة، وسبق في الإحسان، وبهذا يكون أهلاً لأن يأخذ مكان الإمامة على غيره، وقد استحق المؤمنون السابقون من المهاجرين والأنصار أن يكونوا وجه الإسلام، وقدوة المسلمين، وأن يكونوا أقرب عباد الله إلى الله، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۗ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۗ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۗ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ۗ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۗ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۗ مُمَكِّنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۗ﴾<sup>(١١٤٨)</sup>.

ووصفت الخيل الكريمة بالعتق والعتاقة، فيقال: خيل عتاق، لأنها تسبق غيرها من الخيل، ووصف الرقيق الذي تحرر من الرق بأنه عتيق، لأنه سبق الأرقاء الذين لم يتحرروا إلى التحرر<sup>(١١٤٩)</sup>.

وبالبيت العتيق هتف القرآن غير مرة وركز في الأذهان: أنه المهبط الذي تخيرته عناية الله، وربطت به تاريخ البشرية في مرحلة من مراحلها الحية، وجعلته منارة تشع بضوئها في جنبات الدنيا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۗ﴾<sup>(١١٥٠)</sup>.

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت، ولا شك أن القرآن الكريم ملئ بالآيات التي أعطت البيت مناقب أخرى، وكان تلك المناقب كانت آمالاً تداعب الإنسانية منذ فجرها الأول، وتتشدها منذ صبوتها الضالة، لتأنس بها في مهامه دنياها، وتركن إليها كلما هبت من حولها

<sup>(١١٤٨)</sup> سورة الواقعة: الآيات ١٠ - ١٦.

<sup>(١١٤٩)</sup> انظر: التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب، ١٧/١٠٢٦، ١٠٢٧.

<sup>(١١٥٠)</sup> سورة آل عمران: آية ٩٦.

الأعاصير في حياتها الطولى، حتى إذا ما حان لكل منقبة من مناقب البيت، موعدها المقذور عند الله برزت في عالم الوجود، وتم بها جانب من جلال البيت على ما شاء صاحب البيت له من جلال.

ومن هنا تتابع على بناء البيت الحرام وتجديده وكسوته سادة الناس وقادتهم وأشرفهم، وشيوخهم، وأهل النهي، وذوو الصدارة في الجاهلية والإسلام، وشاركت في ترميمه وبنائاته، والحفاظ عليه والرعاية له أموال المسلمين.

إن بيتاً تعاقب على بنائه وعمارته، ورفع قواعده وتجديده، والعناية به أقطاب الخلق وقادتهم سيما أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، وولده الذبيح إسماعيل عليه السلام جد النبي محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتنافس في ذلك كل مقدس له، معظم لدوره، لهو البيت الذي ليس وراء شرفه شرف، ولا بعد جلاله في الأرض جلال بيت، ومقامه أنه بيت الله الحرام، وكعبته المشرفة في مكة المكرمة.

ولقد ذكر التاريخ الثبت والوثيق: عدة بنايات للبيت العتيق على أيدي كثير من الناس، وفي غابر التاريخ السحيق، وفي حديثه وقريبه.

ولئن دل هذا وذاك على شيء، فإنما يدل على أعلى ما وصل إليه الإعظام والإجلال للبيت العظيم، ولا غرو فهو بيت الله الحرام وقبلة إبراهيم وإسماعيل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهو أول بيت وضع للناس في هذه الأرض المباركة ليكون مصدر الخير والبركة ومعلم الهدى والنور للناس أجمعين، هذا البيت الحرام كان مصلى إبراهيم عليه السلام ومقامه، ساقته العناية الإلهية إليه ليحدد معالمه، ويرفع غاياتها على يد آخر المرسلين من أبنائه وهو محمد ﷺ.

ولقد بلغ من عناية الله بالبيت العتيق أن يتعرض له القرآن الكريم صراحة وضمناً تسعاً وخمسين مرة <sup>(١١٥١)</sup>، نراها منثورة من سورة البقرة إلى سورة النصر: ﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ <sup>(١١٥٢)</sup>.

ونرى القرآن الكريم يردد ذكر البيت في ألفاظ متنوعة، وما كان القرآن الكريم يردد ذكر البيت أو يذكر مكة باسم البلد الأمين إلا للإشارة بتلك البقاع والتوجيه إليها، لقد كان لهذا البيت أسبقية في التاريخ على كل مكان، وله أفضلية في رعاية الله.

وأما عن الطمأنينة والأمن، فإن البيت الحرام يعتبر واحة الأمان، ومرفاً للسلم ومهد الطمأنينة ومثواها، والمثابة التي تنوب إليها الأفتدة، وتهواها القلوب، ولا يكاد المرء يخرج منه إلا ويعاوده الحنين إليه والشوق له.

بل إن أمنه وأمانه قد بلغ من أمر الله فيه أن أعلى كعبه وأفسح أفضقه، ووسع دائرته، وأسبغ أمنه لا على الإنسان فحسب، وإنما أيضاً على الحيوان والطير والنبات والجماد، فلا روع، ولا فزع، ولا خوف، ولا قلق، ولا إساءة، ولا أذى <sup>(١١٥٣)</sup>.

حقاً إنه حرم الله وبيته العتيق، وكعبته المشرفة مكن الله له في الأرض وجعله حرماً آمناً، يشع بالأمن والإيمان، ويشعر بذلك قاصده هند زيارته، وذلك من حيث زيارته، والدخول إليه، والطواف به، والوداع له، وتحيته، والاعتكاف فيه.

ويشعر به أيضاً من حيث أمنه الذي يسبغه على زواره، وبركته التي تنعكس بالمضاعفة على كل من العبادة والطاعة فيه، وأيضاً من الهيبة التي يفيضها الله على زوار هذا البيت، وحجابه، وعماره، لقاء ما دخلوه طائعين، متواضعين، مخبتين، خاشعين لله رب العالمين.

<sup>(١١٥١)</sup> مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين ص ٢١٥.

<sup>(١١٥٢)</sup> سورة النصر: آية ١.

<sup>(١١٥٣)</sup> هذا الكلام مستفاد من الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٩٠، والأحكام السلطانية لأبي

يعلي ص ١٩٤.

وكذلك من حيث إشاعة الأمن والسكينة فيه والعمل على بث الطمأنينة والاستقرار في أرجائه، ومن ثم أوجب الإسلام على المسلمين وندبهم نحو هذا البيت العتيق إلى خصائص ومميزات وواجبات وسنن ومشاعر ومناسك، تتناسب وصفاءه وطهره، ودوره في صنع الحياة، وطبع الناس بطابع الإيمان، وصبغة الحق ومسحة التوحيد، وسمات سمو، والنبيل والشرف، وواجبات الحب والإخاء والمساواة والعدل والقسط والإنصاف والالتزام بشئتي الآداب ومختلف القيم والمثل.

وأما المدينة المنورة فلها هي أيضاً من القداسة، والطهر، والتعظيم في نفوس المسلمين الشيء الكثير، فهي تضم أطهر البقاع على الإطلاق لاحتوائها على الرفات الطهور للرسول ﷺ، كما أن بها مشاهد ومواطن أفضلها على الإطلاق مسجده الشريف ﷺ الذي شهد كفاحه وجهاده.

والمسجد النبوي بعد المسجد الحرام قداسته لا تعادلها قداسة، فقد أنشأه النبي ﷺ بيده الشريفة، وأمّ فيه خلاصة هذه الأمة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، وبه منبره الشريف، وبه الروضة الشريفة التي قال فيها النبي ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة» (١١٥٤)، وروي أن النبي ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم عبدك وخليتك ونيبك، وإني عبدك ونيبك، وأنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه» (١١٥٥).

ومن هذا ندرك أن لهذين الحرمين المكي والمدني - ولهذين البلدين - مكة المكرمة والمدينة المنورة مكانة عظيمة، فهما أفضل بقاع الأرض، ولقد رعاها الله تعالى وحماهما،

(١١٥٤) صحيح البخاري (أبواب التطوع، باب: فضل ما بين القبر والمنبر) رقم الحديث (١١٣٧) ٣٩٩/١، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة) رقم الحديث (٣٣٥٥) ١٦٣/٩.

(١١٥٥) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة) رقم الحديث (٣٣٢١) ١٤٨/٩، وسنن الترمذي (كتاب الدعوات، باب: ما يقول إذا رأى الباكورة من الثمر) رقم الحديث (٣٤٥٤) ٥٠٦/٥.

ورد عنهما كيد الأعادي، وعاديات الزمن، وقبل أن أختم الحديث عن هذا الفصل اذكر باختصار بعض فضائلهما ومناقبهما وما لهما من مكانة وحرمة عظيمة في نفوس المسلمين.

\* فكلاهما حرم، وحرَم آمن، وكلاهما بلد صادق، حرهما الله تعالى ولم يحرهما الناس، وأظهر الله تعالى تحريمهما على لسان النبيين الكريمين والرسولين المبجلين، أب الأنبياء، وخاتم الرسل عليهما وعليهم الصلاة والسلام، مدينتان حلت فيهما البركة فحرسهما الله تعالى بالملائكة الكرام، وهما أحب المدن إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ جعل الأولى مولد النبي الكريم ﷺ ومحل نشأته ومبعثه، وجعل الثانية مهاجرة ومضجعه، جعل في الأولى أول بيت وضع للناس، وفي الثانية آخر مساجد الأنبياء عليهم السلام، دعا للأولى إبراهيم عليه السلام، وللثانية أكرم ولده ﷺ، وجعل القلوب توي إليهما بدعوتيهما عليهما السلام.

مدينتان ضوعف أجر الصلاة فيهما، وشدَّ الرحل إليهما، وفي ماء الأولى وتراب الثانية وتمرهما الشفاء، وبئس الشيطان أن يعبد فيهما، وحرّم دخول الكفار إليها ومنع الدجال منها.

\* إن من عظم مكانة الحرمين الشريفين أن جعل الله سبحانه وتعالى مكة المكرمة مخرج صدق، وجعل المدينة المنورة مدخل صدق، لكن قدّمه في الذكر لأهميته، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (٨٠) (١١٥٦).

\* ومما يبين مكانة الحرمين الشريفين وقدسيتهما، تحريم الاصطياد فيهما، وتحريم تنفير الصيد فيهما، والنصوص في ذلك متواترة، فقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الله حرم مكة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لمعرف...» (١١٥٧).

(١١٥٦) سورة الإسراء: آية ٨٠.

(١١٥٧) سبق تخريجه ص ٤٣٩.

وأما المدينة:

فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاها أو يقتل صيدهما...» (١١٥٨).

وقوله ﷺ: «إن إبراهيم حرّم مكة وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاها ولا يصاد صيدها» (١١٥٩).

وكذلك يحرم قطع الشجر وقلعه وحشه فيهما كما بينت ذلك الأحاديث السابقة.

\* كما أنه يحرم النقاط اللقطة فيهما كما ذكرت الأحاديث السابقة إلا لمعرفة ويحرم حمل السلاح والقتال وسفك الدماء أيضاً.

ولهما من الفضائل الأخرى ما يعجز المقام عن تفصيله، ومن أراد مفصلاً فليرجع إليه في مظانه، والله الموفق.

## الفصل الثاني

### إثبات الأمن لداخلهما وقاصدهما

إن أول ما يجمع المسلمين كأمة واحدة، أن قبلتهم واحدة، وهذه القبلة هي التي رضيها الله ورسوله للمسلمين: ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ

---

(١١٥٨) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة) رقم الحديث (٣٣٠٥) ١٤٠/٩.

(١١٥٩) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة) رقم الحديث (٣٣٠٤) ١٣٩/٩.

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١١٦٠﴾

وهذه القبلة التي يتجه إليها المسلمون منذ عصر النبوة حتى اليوم هي البيت الحرام - الكعبة المشرفة - وهي في البلد الحرام أم القرى مكة المكرمة، هذه هي قبلة المسلمين وبلدهم الحرام مكة، وليس هناك بلد شرفه الله بالحرمة ولا بيت ولا بناء عظم الله أمره، ولا مكان في الأرض يتجه إليه المسلمون بأبصارهم، وتهفو إليه قلوبهم ونفوسهم، مثل مكة أم القرى، ومثل البلد الحرام والبيت الحرام.

ومنذ أن رفع إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام قواعد البيت كما بين ذلك القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ رَفَعْنَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ الْفَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٦١﴾﴾

منذ ذلك الحين وهو المكان الذي يُحج إليه من جزيرة العرب وأطرافها وكل من يتجه بقلبه إلى المأى الأعلى، حتى ولو شاب عقيدته لون من الشرك والوثنية، وبناء على ذلك فإن حرمة هذا البيت استوجبت أن يكون له من يخدمونه ويحرسونه ويعملون على راحة قصاده وزواره، فالبيت الحرام لم يترك وشأنه أبداً مبنى أو معنى، بل كان المعنى ظاهراً أمام كل ذي دين، وكان المبنى قائماً، له من يقومون عليه ويعظمون حرمة، ويمنعون قصاده حينما يصلون إلى مكة المكرمة، حتى لقد عرف العرب حلف الفضول<sup>(١١٦٢)</sup> لحماية الغريب أن يمسه أذى أو ظلم وهو في البلد الحرام.

(١١٦٠) سورة البقرة: آية ١٤٤.

(١١٦١) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(١١٦٢) هو حلف أشادت به السنة النبوية بهدف النبيل فضلاً عما فيه من إشارة إلى بداية التفكير في مسئولية أهل مكة عن أمن الحجاج ومنع التعدي عليهم، وهو يدل على الالتزام الراسخ في ضمائرهم عن أمن الحجاج في البلد الحرام حتى قبل الإسلام وقبل أن تكون هناك دولة تقوم بهذه المسئولية، وفي هذا الحلف اجتمعت قبائل قريش في دار عبد الله بن

والبيت الحرام كما هو معلوم من القرآن الكريم جعله الله مثابة للناس وأمناً قال تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهْدِنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ (١١٦٣).

جاء في التفسير القرآني للقرآن عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ

وَأَمْناً﴾ وإذ جعله مقاماً لإبراهيم ومصلى للمؤمنين، وإذ عهد إلى إبراهيم وإسماعيل بالقيام على هذا البيت وتطهيره من أن يلجأ به رجس، إذ ذلك توجه إبراهيم إلى ربه أن يبارك البيت وما حوله، وأن يصيب البلد الذي يقوم حوله هذا البيت ببعض نفحاته وبركاته، وهكذا الطيب يعبق ريحه فيطيب الأجواء من حوله، ومن شأن هذا البيت الطهور القدوس أن يجد ريحه الطيب كل شيء يدنو منه، من إنسان وحيوان ونبات، فأماكنه آمنة، والناس فيه آمنون، وحيوانها ونباتها آمن، فلا يصاد حيوانها ولا يعضد شجرها (١١٦٤).

وجاء في التفسير المنير: (واختلف العلماء أيضاً في تفسير الأمن على أربعة أقوال:

---

جدعان، وتعاهدوا على أن لا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد وإلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم وعمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت الحرام فغسلت به أركانه وشربوه تأكيداً والتزاماً لما اجتمعوا عليه. انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/١٥٣، ١٥٥، وعيون الأثر لابن سيد الناس ١/٥٩، وتاريخ العرب القديم للدكتور محمد بيومي مهران ص ٤١٩.

(١١٦٣) سور البقرة: آية ١٢٥.

(١١٦٤) التفسير القرآني للقرآن المجلد الأول ص ١٤١.

**الأول:** أنه أمن من عذاب الله تعالى، والمعنى أن من دخله معظماً له، وقصده محتسباً الأجر، سلم من العذاب، ويعضده قول النبي ﷺ في الصحيح: «من حج ولم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (١١٦٥).

**الثاني:** معناه: من دخله كان آمناً من التشفي والانتقام، كما كانت العرب تفعله فيمن أناب إليه، من تركها لحق يكون لها عليه.

**الثالث:** أنه أمن من حد يقام عليه، فلا يقتل به الكافر، ولا يقتص من القاتل ولا يقام الحد على المحصن والسارق، قاله أبو حنيفة وغيره (١١٦٦).

**الرابع:** أنه أمن من القتال، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، ولم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار» (١١٦٧).

جاء في أحكام القرآن: والصحيح فيه القول الثاني، وهذا إخبار من الله تعالى عن منتهى على عباده، حيث قرر في قلوب العرب تعظيم هذا البيت، وتأمين من لجأ إليه، إجابة لدعوة

---

(١١٦٥) صحيح البخاري (كتاب الحج، باب: فضل الحج المبرور) رقم الحديث (١٤٤٩) ٥٥٣/٢، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل الحج والعمرة ويوم عرفة) رقم الحديث (٣٢٧٩) ١٢٣/٩.

(١١٦٦) استدل أبو حنيفة على قوله هذا بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: آية ٩٧) وقال: إن من لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه من الحدود فإنه لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وخالفه الجمهور، فقالوا: تقام عليه الحدود في الحرم، والله أعلم. انظر: فتح القدير للشوكاني ١/٣٦٢، ٣٦٣.

(١١٦٧) صحيح البخاري (كتاب العلم، باب: كتابة العلم) رقم الحديث (١١٢) ٥٣/١، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد) رقم الحديث (٣٢٩٢) ١٣٢/٩، وسنن أبي داود (كتاب المناسك، باب: تحريم حرم مكة) رقم الحديث (٢٠١٧) ٢/٢١٢.

إبراهيم ﷺ، حين أنزل به أهله وولده، فتوقع عليهم الاستطالة، أي: الاعتداء: فدعا أن يكون  
أمناً لهم فاستجيب دعاؤه (١١٦٨)(١١٦٩).

وليس الأمن خاصاً في الحرم بالإنسان فحسب، بل - أيضاً - حرّم الشرع المساس  
بمظاهر الحياة من شجر وحيوان إلى جانب الإنسان، فجعل المكان أمناً لمن فيه وما فيه،  
فالحرم المكي هو رمز مجسد لفكرة الأمن والسلام الذي أتى به الإسلام، الأمن والسلام  
الشامل للحياة بمن فيها وما فيها، هذه الفكرة يرمز إليها ويجدها الدين ويدل عليها البيت  
الحرام، مبنى ومعنى، وليس في الأديان السابقة للإسلام هذا الرمز الراسخ لمعنى الأمن الذي  
يعطيه الإسلام للبشر ولفكرة السلام - السلام مع الله والسلام مع الناس- بل ومع مظاهر  
الحياة من حول الناس كالحیوان والأشجار والتي جعلت من البقعة المباركة التي قام فيها بيت  
الله حرماً آمناً للناس جميعاً، أهل مكة ومن حولها، وحجاج بيت الله وزائريه من شتى بقاع  
الأرض منذ عصر النبوة وحتى الآن.

هذا هو الحرم الأول في الدين كله، وقبله المسلمين، وقد ظل النبي ﷺ يدعو في مكة إلى  
دين الله ثلاثة عشر عاماً، ثم هاجر إلى المدينة المنورة بأمر الله، وفي مكة بدأ نزول القرآن،  
واختتم نزوله في المدينة المنورة وطيلة عشر سنوات قضاها الرسول ﷺ في المدينة، أصبحت  
يثرب بما نالت من شرف المدينة المنورة، وقد كانت في المدينة أول دولة قامت للإسلام،  
وأول مجتمع طبق فيه الإسلام تطبيقاً مثالياً، ومن المدينة بدأت انتصارات الإسلام، ومنها  
خرج مع النبي ﷺ عشرة آلاف من المسلمين، دخلوا مكة في انتصار حاسم على الشرك  
والوثنية، اكتملت به رسالة الأديان، وأطفأ ضوء التوحيد ونوره ظلام الشرك والوثنية، في  
بلاد العرب كلها، ثم في أطرافها البعيدة، وفي أركانها المعمورة بعد ذلك.

والمدينة المنورة بهجرة النبي ﷺ إليها، وبالمجتمع الإسلامي الذي قام، وبدولة الإسلام  
الأولى في أرضها، هي مقر دولة الإسلام الأولى، وظل فيها النبي ﷺ الإمام الأعظم  
للمسلمين، والقاضي الأحكم، والمفتي الأعلّم، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، وجمعت أرض

(١١٦٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣٨/١، ٣٩.

(١١٦٩) انظر: التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ٣٠٨/١ بتصرف.

المدينة شرف حياته بها وجهاده فيها، ثم قدر الله أن يكون بالمدينة حرم شريف هو مسجده ﷺ ، وكان أول ما بنى الرسول في المدينة المسجد، فهو كما يعرف المسلمون حجر الزاوية في البناء الإسلامي كله، وهذا الحرم النبوي أوسع وأسمى من أن يكون قبراً يزار، وليس مسجداً يصلى فيه فحسب، بل هو المسجد بكل قدسيته وجلاله، وهو أحد المساجد الثلاثة المتميزة في الأرض والتي تشد إليها الرحال، فالحرم النبوي في المدينة هو المسجد النبوي ظهرت حوله أول دولة إسلامية قامت في الأرض، ولا يمكن أن يوفى الحرمان الشريفان قدرهما من الإجلال، وقد أجلهما الله تعالى، وكلاهما حرم آمن، حرهما الله تعالى ولم يحرمهما الناس كما ذكرت ذلك سابقاً.

والحرمان الشريفان هما مكان الأمن والأمان، والسكينة والطمأنينة يجد فيهما كل قاصد الأمن الحقيقي والأمن النفسي والأمن المعيشي خاصة وأنهما قد حظيا بدعوتي أبي الأنبياء إبراهيم الخليل وحفيده محمد بن عبد الله عليهما صلوات الله وسلامه، فقد دعا الخليل للبيت الحرام أن يجعله الله مكان أمن وطمأنينة ورغد عيش كما قص ذلك القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ ثَمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمِّتُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسْ أَلْمُصِيرُ ﴿١١٧٠﴾

جاء في زاد الميسر: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴿١١٧١﴾﴾ البيت: ها هنا: الكعبة والأف واللام تدخل للمعهود، أو الجنس، فلما علم المخاطبون أنه لم يرد الجنس، انصرف إلى المعهود، .... قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا﴾ قال ابن عباس: يريدون أن من أحدث حدثاً في غيره ثم لجأ إليه فهو آمن، ولكن ينبغي لأهل مكة أن لا يبايعوه، ولا يطعموه، ولا يسقوه، ولا يؤووه، ولا يكلم حتى يخرج، فإذا خرج أقيم عليه الحد، .... وصف البيت بالأمن، والمراد جميع

(١١٧٠) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(١١٧١) سورة البقرة: آية ١٢٥.

الحرم، كما قال تعالى: ﴿هُدًى بَلَّغَ الْكُتُبَةَ﴾ (١١٧٢) والمراد: الحرم كله، لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام، وهذا على طريق الحكم، لا على وجه الخبر فقط (١١٧٣).

ولقد استجاب الله تعالى دعوة أبنينا إبراهيم عليه السلام، فصار البيت آمناً، ويؤيد ذلك حديث الله تعالى عن البيت وأمنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرْهِمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ (١١٧٤).

قال الأستاذ المراعي: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أي: وأمن من دخله، والعرب جميعاً قد انفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء، وأمن أن يسفك دمه أو تستباح حرمانه ما دام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء وقد أقر الإسلام هذا، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو ظفرت بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه. ومن ثم قال أبو حنيفة رحمه الله: من وجب قتله في الحل بقصاص أو ردة أو زناً فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج منه.

وفتح مكة بالسيف كان لضرورة تطهير البيت من الشرك وتخصيصه للعبادة فقد حلت للنبي ﷺ ساعة من نهار لم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده كما جاء في الحديث.

(١١٧٢) سورة المائدة: آية ٩٥.

(١١٧٣) انظر زاد الميسر لابن الجوزي ١٤١/١ بتصرف.

(١١٧٤) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

على أن حل مكة وما يتبعها من أرباضها للنبي ﷺ ساعة من نهار أمر زائد على أمن البيت، فإن النبي ﷺ لم يستحل البيت ساعة ولا ما دونها، بل كان مناديه ينادي: من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابيه فهو آمن، (...).

وقد أخبر النبي ﷺ بقول سعد بن عبادة الأنصاري (١١٧٥) حامل اللواء له في

الطريق: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال ﷺ: «كذب سعد، هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة» (١١٧٦)(١١٧٧).

ومما يؤيد هذا المعنى ويؤكدته تحقق الأمن الذي جاء موافقاً لصدق رؤيا نبينا محمد ﷺ والتي تحدث عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ (١١٧٨).

فقد بشر الله تعالى المؤمنين بتصديقه لرؤيا رسوله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمنين وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة، لا يخافون، فقد تحققت هذه الرؤيا بعد

(١١٧٥) هو: سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة، وقيل حارثة بن حزام بن خزام بن خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي، يكنى أبا ثابت، وكان نقيب بني ساعدة عند جميعهم شهد بدمراً عند بعضهم، وكان سيداً جواداً، وهو صاحب راية الأنصار في المشاهد كلها، طمع في الخلافة بعد رسول الله ﷺ فبويع أبو بكر فلم يبايع سعد أباً بكر، ولا عمر وسار إلى الشام فأقام بحوران إلى أن مات سنة ١٥هـ، وقيل: ١٤هـ. انظر: أسد الغابة ٣٥٦/٢، وسير أعلام النبلاء ٢٧٠/١.

(١١٧٦) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح) رقم الحديث (٤٠٣٠) ٤/١٥٥٩ وهو جزء من حديث طويل.

(١١٧٧) انظر: تفسير المراغي ٨/١، ٩ بتصرف.

(١١٧٨) سورة الفتح: آية ٢٧.

عام واحد، ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية، إذ تم لهم فتح مكة، وغلبة دين الله عليها، ولكن الله سبحانه وتعالى يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان، وهو يقول لهم: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فالدخول واقع لا محالة في ذلك، لأن الله أخبر به، ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدتها شيء، حتى تستقر هذه الحقيقة في النفوس.

ومما يؤكد أمن الحرمين الشريفين وأمن قاصدهما أن الله سبحانه وتعالى امتن على أهل مكة وذكرهم بهذه النعمة التي يفقد إليها الكثير من الناس، سواء كانوا حولهم وعلى مقربة منهم أم كانوا بعيدين عنهم. ففي الوقت الذي ينعم فيه أهل مكة بالأمن والطمأنينة رغم قلتهم وإمكان من حولهم التغلب عليهم لو حصل شيء بينهم تجد غيرهم في حروب طاحنة واعتداءات مروعة ورعب وخوف وقد تحدث الله سبحانه وتعالى على ذلك، فقال: ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَدْيَ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُنْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا أَمِنَّا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) (١١٧٩).

وقال: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا أَمِنًا وَنَخْطِفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَيَّا الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِمْةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) (١١٨٠).

وليس أمناً من الحروب فحسب، بل يضاف إليه الأمن الغذائي حيث إن مكة ذلك الوادي الذي ليس فيه زرع تأتيه الثمرات من كل أرجاء الأرض.

جاء في التحرير والتلويز عند تفسيره للآية الأولى: هذه بعض معاذير قالها فريق منهم ممن غلبه الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب، وغلبه إلف ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق، فاعتذروا بهذه المعذرة، فروي عن ابن عباس أن ناساً من قريش جاءوا النبي ﷺ فقالوا: إنا لنعلم أن قولك حق ولكننا نخاف إن اتبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن

(١١٧٩) سورة القصص: آية ٥٧.

(١١٨٠) سور العنكبوت: آية ٦٧.

يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنما نحن أكلة رأس - أي: أن جمعنا يشبعه الرأس الواحد من الإبل - وهذه كناية عن القلة، فهؤلاء اعترفوا في ظاهر الأمر بأن النبي ﷺ يدعو إلى الهدى وأن دينه دين الحق.

والتخطف: مبالغة في الخطف، وهو انتزاع الشيء بسرعة، وتقدم في قوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَاءُ﴾ (١١٨١) في سورة الأنفال، والمراد: بأسرنا الأعداء معهم إلى ديارهم، فرد الله عليهم بأن قريشاً مع قلتهم عدواً وعدة أتاح الله لهم بلداً هو حرم آمن يكونون فيه آمنين من العدو على كثرة قبائل العرب واشتغالهم بالغارة على جيرانهم، وجبي إليه ثمرات كثيرة قروناً طويلة، فلو اعتبروا لعلموا أن لهم منعة ربانية، وأن الله الذي أمتهم في القرون الخالية يؤمنهم إن استجابوا لله ورسوله (١١٨٢).

وقال في تفسير للآية الثانية: هذا تذكير خاص لأهل مكة، وإنما خصوا من بين المشركين من العرب، لأن أهل مكة قدوة لجميع القبائل، ألا ترى أن أكثر قبائل العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة فلما أسلم أهل مكة يوم الفتح أقبلت وفود القبائل معلنة إسلامهم.

والجملة المعطوفة على جملة: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْأَمَّاكِ دَعَوْا اللَّهَ﴾ (١١٨٣) باعتبار ما اشتملت عليه تلك الجملة من تفرعهم على كفران نعم الله، ولذلك عقبنا هذه الجملة بقوله: ﴿وَيَعْمَهُ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ (١١٨٤)، والاستفهام إنكاري، وجعلت نعمة أمن بلدهم كالشيء الشاهد فأنكر عليهم عدم رؤيته، فقوله: ﴿أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ مفعول ﴿بَرَأُوا﴾.

(١١٨١) سورة الأنفال: آية ٢٦.

(١١٨٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور ١٤٨/٢٠، ١٤٩ بتصرف.

(١١٨٣) سورة العنكبوت: آية ٦٥.

(١١٨٤) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

ومعنى هذه الآية يعلم مما تقدم عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْمَدَىٰ مَعَكْ نَنخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمَ نَسْكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ (١١٨٥) في سورة القصص، وقد كان أهل مكة في بحبوحة من الأمن، وكان غيرهم من القبائل حول مكة وما بعد منها يغزو بعضهم بعضاً ويتغاورون ويتتاهبون، وأهل مكة آمنون لا يعدوا عليهم أحد مع قلتهم فذكرهم الله هذه النعمة عليهم (١١٨٦).

ومن الآيات التي تؤكد أمن مكة وأمن أهلها وقاصدها ما امتن الله به عليهم في سورة قريش: ﴿لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ لِّإِنَّهُمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ (١١٨٧).

نعم إن الذي أطعمهم في ذلك الوادي المجذب وأسبغ عليهم نعمه إذ تجبى إليهم الثمرات من كل مكان، وإن الذي أمنهم حين خاف الناس من حولهم لجدير بأن يعبد وحده لا شريك له، ومعلوم أنه كانت لقريش رحلتان، رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، وذلك للإتجار وجلب الأرزاق إلى بلادهم التي ليست بذات زرع ولا صناعة فيلاهم هاتين الرحلتين كان بتدبير الله تعالى ليعيش سكان حرمه وبلده في رغد من العيش فهي نعمة من نعم الله تعالى وعليه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ بما هيا لهم من أسباب ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فإذا كان الأمر كذلك فعليهم أن يتخلوا عن عبادة الأصنام التي لا تنفعهم ولا تضرهم ويتجهوا إلى عبادة الله عز وجل، فانه أحق أن يعبدوه، إذ هو الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف بما ألقى في قلوب العرب من احترام الحرم وسكانه وتعظيمه وتعظيمهم فتمكنوا من السفر إلى خارج بلادهم والعودة إليها في أمن وطمأنينة، قال

(١١٨٥) سورة القصص: آية ٥٧.

(١١٨٦) تفسير التحرير والتنوير ٣٣/٢١، ٣٤.

(١١٨٧) سورة قريش: الآيات ١ - ٤.

تعالى: ﴿جَمَلَ اللَّهُ الْكَبْكَبَةَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ فَيَمَّا لِلنَّاسِ﴾ (١١٨٨) أي: لقريش تقوم مصالحهم عليها لما ألقى في قلوب العرب من تعظيم واحترام أهله (١١٨٩).

هذا بالنسبة لمكة وأمنها، وقد ورد في السنة المطهرة ما بين حرمة الحرم المدني وأمنه وأمن قاصده، ومن يقيم به، ومن المعلوم أن حرمة المدينة المنورة جاءت تالية لحرمة مكة المكرمة لسبق إبراهيم عليه السلام مئات السنين.

ولا يعرف عن النبي ﷺ من الدعاء للمدينة قوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإني دعوت في صاعها ومدنها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» (١١٩٠).

وقوله ﷺ: «اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك، ودعا لأهل مكة بالبركة وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثلي ما باركت لأهل مكة واجعل مع البركة بركتين» (١١٩١).

وقوله ﷺ: «اللهم حبيب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها لنا، وبارك لنا في صاعها ومدنها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة» (١١٩٢).

وقوله ﷺ: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء» (١١٩٣). إلى غير ذلك من الأحاديث.

(١١٨٨) سورة المائدة: آية ٩٧.

(١١٨٩) انظر: أيسر التفاسير للشيخ أبو بكر الجزائري ٧٠٤/٤، ٧٠٥ بتصرف.

(١١٩٠) الحديث سبق تخريجه ص ٤٢٧.

(١١٩١) مسند الإمام أحمد ١/١١٥، وسنن الترمذي (كتاب المناقب، باب: فضل المدينة) رقم

الحديث (٣٩١٤) ٧١٨/٥ وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والحديث رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(١١٩٢) صحيح البخاري (كتاب فضائل الصحابة، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة) رقم

الحديث (٣٧١١) ١٤٢٨/٣، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: الترغيب في سكنى المدينة) رقم الحديث (٣٣٢٩) ١٥٢/٩.

ولا شك أن دعاء النبي ﷺ للمدينة وأهلها يدخل فيه الأمن والرزق والمثابة لأن ذلك الدعاء جاء على لسان إبراهيم عليه السلام والرسول ﷺ دعا للمدينة وأهلها بمثلي ما دعا به إبراهيم لمكة وأهلها، وكذلك تحريم حمل السلاح لقتال فيها وتحريم سفك الدماء فيها أيضاً، وفي هذا أمان للإنسان المقيم فيهما والقادم إليهما، وكيف لا يكون كذلك وقد أمان الطير والحيوان فلا يصادا، والنبات والشجر فلا يقلعا أو يقطعوا، والساقط فلا يحمل إلا لمعرّف أو منشد، وكل هذه دلالة على الأمن والأمان فيهما.

وقد دُعِيَ للمدينتين المقدستين بالبركة في الرزق، وأن تجبى إليها الثمار من كل مكان، ومن يتأمل الآن يجد ذلك جلياً واضحاً، ففي سوق المدينتين الكرمتين من الثمرات والفواكه ... ما يثير العجب حيث نرى أصنافاً لا نعرفها، ولا نعرف أسماءها قد أحضرت من مختلف بقاع الأرض، أسأل الله تعالى شكر نعمه، وأن يعرفنا نعمه بدوامها، وبالله التوفيق.

### الفصل الثالث

#### إثبات العقوبة للمعتدي عليهما

لقد ذكرت في الفصلين السابقين الآيات التي تحدثت عن حرمة هذين البلدين - مكة المكرمة والمدينة المنورة -، وأثبت لهما ولقاصدهما الأمن، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى قد أقسم بمكة المكرمة، ووصفها بالأمن، فقال تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٢) (١١٩٤)، فالأمن هو أبرز صفة وميزة تميزت به مكة، ومن أرادها أو أراد أهلها وقاصديها بسوء رد الله كيده في نحره فعاد بالخيبة والخسران المبين، فهي بلد الله الأمن، هكذا أراد الله لها.

وقد أشرب الناس في قلوبهم تعظيم هذا البيت، والمحافظة على حرمة وحرمة من به، والتزم بذلك كل الناس أتقياتهم وعصاتهم، ولقد تكفل الله سبحانه وتعالى لأهل مكة بأعظم

(١١٩٣) الحديث سبق تخريجه ص ٤٤٤.

(١١٩٤) سورة التين: آية ٣.

أمنين: الأمن من الخوف، والأمن من الجوع: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (١١٩٥).

هذا في جاهليتهم فهو سبحانه لن يتركهم تكرماً منه، ولا شك أنهم بعد أن حظوا بنعمة الإيمان، سيجنون ثماراً أينع، وأمنأ أعم وأشمل مما كانوا ينعمون به في زمن جاهليتهم، وشركهم، والأمن الذي حظي به سكان مكة وزائروها، أمن لا يضاويه أمن، فالكل فيها آمن مطمئن، الإنسان ينعم فيها بالنصيب الأوفر من هذه النعمة الكبيرة، والطير آمن من عاديات الزمن، وظلم الإنسان، بل إن النبات في رحاب الحرم آمن من العبث، والحصاد لغير منفعة، والآية الكريمة تشير إلى ظلال الأمن الوارفة التي تظل كل من دخله، قال تعالى عن البيت الحرام: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٩٦).

جاء في إرشاد العقل السليم عند تفسيره لهذه الآية: ﴿آمِنًا﴾ أي: أمنأ كما في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ (١١٩٧) على إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل للمبالغة، أو على تقدير المضاف أي: ذا أمن، أو على الإسناد المجازي، أي: أمنأ من حجه من عذاب الآخرة من حيث إن الحج يَجِبُ ما قبله، أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وإن كان جانباً حتى يخرج على ما هو رأي أبي حنيفة، ويجوز أن يعتبر الأمن بالقياس إلى كل شيء كائنأ ما كان، ويدخل فيه أمن الناس دخولاً أولياً، وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى إن الكلب كان يهيم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه، فإذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب (١١٩٨).

والله سبحانه وتعالى قد جعل بيته مثابة للناس، ومرجعاً لهم يثوبون إليه، فكيف يثوبون إليه وهو مزرع الأمن، علماً أن قصد الناس له أحد أركانه الدين الحنيف الخمسة، من أجل

(١١٩٥) سورة قريش: آية ٤.

(١١٩٦) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(١١٩٧) جزء من آية ٥٧ من سورة القصص، وأية ٦٧ من سورة العنكبوت.

(١١٩٨) تفسير أبي السعود ١/١٥٧.

ذلك تكفل جل ثناؤه بتوفير وسائل الراحة لقاصده، ومن أهم هذه الوسائل إسباغ الأمن، وحفظه من كيد كل جبار عنيد، وكذلك تدفق الرزق إليه حيث تجبى إليها الثمرات من كل حذب وصوب وتنعم بالجني الوفير على وجه أكمل وأوفر من البلاد المنتجة لهذه الثمرات، والواقع الملموس يؤيد ذلك ويؤكد هذه الحقيقة، خاصة وأنها قد حظيت بدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ (١١٩٩).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة للحرم وأمنه، بل إن الأمر قد تعدى ذلك بكثير حيث إن الله سبحانه وتعالى قد توعد كل من تسول له نفسه بسوء في الحرم، فإن كيده سيرد في نحره، وإن له العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن مَّكِبِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظَلِّمِ نَفْسَهُ مِنَ عَذَابِ إِلَهِمْ ﴿١٢٧﴾﴾ (١٢٠٠).

جاء في فتح القدير: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظَلِّمِ نَفْسَهُ مِنَ عَذَابِ إِلَهِمْ ﴿١٢٧﴾﴾ مفعول (يرد) محذوف لقصد التعميم، والتقدير: ومن يرد فيه مراداً، أي مراداً بالحداد أي: بعدول عن القصد، والإلحاد في اللغة: الميل، إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم.

وقد اختلف في هذا الظلم ما هو؟:

وقيل: هو الشرك.

وقيل: الشرك والقتل.

وقيل: صيد حيواناته وقطع أشجاره.

وقيل: هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة.

وقيل: المراد المعاصي فيه على العموم.

(١١٩٩) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(١٢٠٠) سورة الحج: آية ٢٥.

وقيل: المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك المكان، وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود، وابن عمر، والضحاك<sup>(١٢٠١)</sup>، وابن زيد، وغيرهم حتى قالوا: لو هم الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن<sup>(١٢٠٢)</sup> لعذبه الله.

والحاصل: أن هذه الآية دلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذاً بمجرد الإرادة للظلم، فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها إلا أن يقال: أن الإرادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس.

وبالجملة فالبحث عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الإشكال يطول جداً.

ومثل هذه الآية حديث: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»<sup>(١٢٠٣)</sup> فدخل النار هنا بسبب مجرد حرصه على قتل صاحبه<sup>(١٢٠٤)</sup>.

وإذا كان هذا هو الحال لمن يرد فيه بالحاد بظلم فلا شك أن العقوبة ثابتة لمن اعتدى عليه من باب أولى.

<sup>(١٢٠١)</sup> هو: الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم الخراساني، المفسر، خراساني الأصل، صدوق كثير الإرسال من الطبقة الخامسة، يروي تفسيره عن عبيد بن سليمان، مات بعد المائة رحمه الله رحمة واسعة. انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢٢٢/١.

<sup>(١٢٠٢)</sup> عدن: هي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ردة لا ماء بها، ولا مرعى، وشربهم من عين بها وبين عدن مسيرة نحو اليوم، وهو مع ذلك ردى إلا أن هذا الموضع هو مرفأً مراكب الهند والتجارة يجتمعون إليه لأجل ذلك فإنها بلدة تجارة وتضاف إلى أبين، وهو مخلاف عدن من جملته. انظر: معجم البلدان ١٠٠/٤.

<sup>(١٢٠٣)</sup> صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب: ﴿وَإِنْ طَلَفَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَمْتًا لَوْ فَاصِلًا مِنْهُمَا﴾ رقم الحديث (٣١) ٢٠/١، وصحيح مسلم (كتاب الفتن، باب: إذا توجه المسلمان بسيفيهما) رقم الحديث (٧١٨١) ١٨/٢١٩.

<sup>(١٢٠٤)</sup> فتح القدير للشوكاني ٣/٤٤٧.

هذا هو الحال بالنسبة لمكة وأهلها، أما المدينة المنورة وأهلها فهم أيضاً من أرادهم بسوء أو كاد لهم أذابه الله تعالى بالنار كما يذوب الملح في الماء أو الرصاص في النار، قال رسول الله ﷺ: «ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح في الماء» (١٢٠٥)، وقوله ﷺ: «من أراد أهل هذه البلدة بسوء - يعني: المدينة - أذابه الله كما يذوب الملح في الماء» (١٢٠٦).

وهذه العقوبة تحتمل في الدنيا وتحتمل في الآخرة، لذا ينبغي على المسلم أن يحذر من إيذاء أهل الحرمين حتى لو كان بعيداً عنهما، وكل ذلك دالٌّ على عظم مكانتهما، وعلو قدرهما، وفضلهما عند الله سبحانه وتعالى.

ومن الأحاديث الدالة على عقوبة المعتدي عليها وعلى أهلها أن من أخاف أهل المدينة فإن الله تعالى يخيفه ويلعنه أيضاً، ولا يقبل منه فرضاً ولا نفلًا، فقد قال رسول الله ﷺ: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله عز وجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» (١٢٠٧).

وعنه ﷺ أنه قال: «من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي» (١٢٠٨).

فليحذر المسلم من إيذاء أهل الحرمين، وليعلم أن من اعتدى على الحرمين أو على أهلها فإنه ثابت العقوبة كما بينت في الآيات والأحاديث السابقة كيف لا؟ وأهل مكة أهل الله، وأهل المدينة جيران رسول الله، فيجب إكرام جيرانه ﷺ وتكريم أهل الله تعالى وجيران بيته

(١٢٠٥) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة) رقم الحديث (٣٣٠٦) ١٤١/٩.

(١٢٠٦) الحديث سبق تخريجه ص ٤٤٤.

(١٢٠٧) رواه الإمام أحمد في المسند ٥٥/٤، ٥٦، والحربي في غريب الحديث ٨٣٤/٢، والدولابي في الكنى والأسماء ٧٢/١، والطبراني في الكبير ١٦٩/٧ رقم الحديث (٦٦٣١).

(١٢٠٨) رواه الإمام أحمد في المسند ٣٥٤/٣، ٣٩٣ وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢٣٢/٢، والهيثمي في المجتمع ٣٠٦/٣: رجاله رجال الصحيح.

العتيق الذين اختصهم به من سائر خلقه، كما يحذر من الهم والعزم على إيدائهم وإن كان بعيداً عنهم حتى لا يصاب بالعذاب الأليم ويناله العقاب، والله أعلم.

وسأذكر في الفصل القادم بعض النماذج من عقوبة الله تعالى لقاصد الاعتداء على الحرمين الشريفين، وبالله التوفيق.

## الفصل الرابع

### نموذج من عقوبة الله للمعتدين عليهما

لقد عظمت منزلة مكة المكرمة عند العرب جميعاً قبل الإسلام، وخاصة في نفوس أهلها وازدادت مكانة الكعبة حتى أصبحت المخرة القومية والحرم الإلهي عندهم ثم تغدو بعد حين من الدهر، الحوار الوحيد الذي يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة، عالية الرأس، غير مستكينة لأجنبي كائناً من كان، لأنهم كانوا يحسون أنهم في مكة، عند بيت الله الحرام، يقدسونه جميعاً، لأنه لهم جميعاً يضم إليه كما يضم أوثانهم في حامي الكعبة، وشعورهم بأنهم عرب لم يماثله شعور قط في أنحاء الجزيرة العربية، ولعل هذه المكانة الفريدة للكعبة عند العرب هي التي دفعت بأصحاب القوة والسلطانية في تلك الأيام إلى محاولة هدم الكعبة، أو على الأقل انصوائها تحت لوائهم.

ولا شك أن المدينة المنورة هي ثاني المدن بعد مكة المكرمة، ودار الهجرة التي نصرت الإسلام وأعزت كلمة المسلمين، فاستحقت التكريم والتخليد حتى يقوم الناس لرب العالمين، ثم شاعت إرادة الله - الكريم المنان ذي الفضل العظيم - أن تعطي المدينة ما لم تعطه لغيرها من المدن، وأن تخصصها بميزة لا تتناول إليها واحدة من مدن الدنيا، حيث شرفت بأن تضم في ثراها جثمان سيد الأولين والآخرين، سيدنا ونبينا محمد ﷺ.

هذا إلى جانب أن بالمدينة المنورة ثاني الحرمين الشريفين، فضلاً عن أنها البلد الذي اختاره الله ليكون أول عاصمة إسلامية في التاريخ، تخرج منها جيوش النور تحمل راية

الإسلام وهداية القرآن، إلى جميع أنحاء المعمورة، فتنشر التوحيد والحب والعدل والإخاء والمساواة، ومن ثم فقد كانت وما زالت - وسوف تظل أبداً الدهر إن شاء الله - قلوب المؤمنين في كل أنحاء العالم تتبض بحب المدينة وتهفو إلى زيارتها، وتتعبد إلى الله في مسجدها، وتتمتع بالصلاة في روضته الشريفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

من أجل ذلك كثر الأعداء لهذين الحرمين الشريفين، وحاولوا النيل منهما أو التهديم والتخريب لهما، ولكن الله أبطل كيد الكائدين، وردهم على أدبارهم.

وسأقدم في هذا الفصل بعض النماذج عن عقوبة الله لمن أراد الكيد للحرمين الشريفين:

### المحاولة الأولى:

وأول هذه المحاولات - طبقاً لرواية الإخباريين (١٢٠٩) - : أن بعض التابعين (١٢١٠) خرج من اليمن، وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند (١٢١١)، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه، وهو الذي مضى الحيرة (١٢١٢) فانفق أنه مرّاً بالمدينة

---

(١٢٠٩) انظر: دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب للدكتور محمد بيومي مهران ص ٢١١.

(١٢١٠) يطلق أهل الأخبار لقب (تبع) على الملوك الذي حكموا اليمن وعلى مجموعهم التابعين. انظر: المفضل في تاريخ العرب ٥١٣/٢. والجدير بالذكر أن اسم (تب) ورد في القرآن الكريم مرتين، مرة في سورة الدخان: آية ٣٧، ومرة أخرى في سورة ق: آية ١٤.

(١٢١١) سمرقند: بفتح أوله وثانيه، ويقال لها بالعربية سمران: بلد معروف مشهور قيل: إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر وهو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغير مرتفعة عليه، قال أبو عون: سمرقند في الإقليم الرابع طولها تسع وثمانون درجة ونصف وعرضها ست وثلاثون درجة ونصف، وقيل: بناها شمر بن كرب فسميت شمركنت فأعربت فقيل: سمرقند، قال الأصمعي: مكتوب على باب سمرقند بالحميرية بين هذه المدينة وبين صنعاء ألف فرسخ. انظر: معجم البلدان ٢٧٩/٣ وما بعدها.

(١٢١٢) الحيرة: بالكسر ثم السكون وراء: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له: النجف، زعموا أن بحر فارس كان يتصل به، وبالحيرة الخورنق بقرب منها مما

النبوية، وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه، وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يقرؤنه بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه عن ذلك أيضاً وأخبراه بعظمة هذا البيت وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر، ثم كرّ راجعاً إلى اليمن، ودعا أهلها إلى التهود معه وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام من يكون فيه فإنه على الهداية وذلك قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام فتهود معه عامة أهل اليمن (١٢١٣).

وهكذا فشلت هذه المحاولة وسلمت مكة المكرمة والمدينة منها، بل إن صاحب هذه المحاولة قد تغير وضعه فكسا الكعبة وعظمها وآمن بالله عز وجل.

#### المحاولة الثانية:

وهذه المحاولة حدثت قبل ظهور الإسلام، وذلك حين بنت غطفان (١٢١٤) حرماً حرم مكة، ثم حاولت أن تصرف العرب إليه، غير أن سيداً من سادات العرب، رفض ذلك وقال:

يلي الشرق على نحو ميل، والسدير في وسط البرية التي بينها وبين الشام، كانت مكن ملوك العرب في الجاهلية. انظر: معجم البلدان ٣٧٦/٢.

(١٢١٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤/١٤٣، ١٤٤، وسيرة ابن هشام ص ٣٧، ٣٩ وما بعدهما، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ٦٩/١.

(١٢١٤) غطفان بن سعد بطن عظيم متسع كثير الشعوب والأفخاذ، من قيس بن عيلان من العدنانية، وهو بنو غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طى ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية وينقسم إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة، وقد حاربهم الرسول ﷺ وارتدوا بعد انتقاله ﷺ فحاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكانوا يعبدون العزى، بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة وكان لهم صنم في مشارف الشام يقال له: (الأقبصر) كانوا يحجون إليه وحلقون رؤوسهم عنده

لا، والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حي. واتبعه قومه حين قال لهم: إن أعظم مأثرة ندخرها عند العرب أن نمنع غطفان من عرضها وقائل غطفان وظفر بهم وأبطل حرمهم (١٢١٥).

### المحاولة الثالثة:

قد ورد ذكرها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فِجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (١٢١٦).

أصحاب الفيل قصتهم مشهورة وزعيمهم أبرهة الحبشي (١٢١٧) الذي قصد مكة لهدم بيت الله، فكان الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجه إلى النبي ﷺ، أي: ألم تر يا محمد بعين قلبك، فترى كيف فعل الله بأصحاب الفيل، الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة فجعل سبحانه كيدهم في تضليل، وذلك بتضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها.

---

وبنوا بيتاً سموه (بِئْسَاء) مضاهاة للكعبة ويطوفون حوله. انظر: معجم قبائل العرب رضا كحالة ٨٨٨/٣.

(١٢١٥) انظر: في منزل الوحي للأستاذ محمد حسين هيكل ص ٤١٥، ودراسات تاريخية من القرآن للدكتور محمد بيومي مهران ص ٢١٦، والاعتداءات على الحرمين الشريفين عبر التاريخ للدكتور سعد بن حسين عثمان، والدكتور عبد المنعم الجميعي ص ١٨.

(١٢١٦) سورة الفيل: الآيات ١ - ٥.

(١٢١٧) هو: أبرهة الحبشي المكنى بأبي يكسوم، سار بجيشه لتخريب الكعبة، وذلك سنة ٤ من ملك كسرى أنوشروان سنة ٥٧٠م فعدل أبرهة إلى الطائف فبعثت معه ثقيف بأبي رغال أحد رجالاتها ليدله على الطريق السهل إلى مكة، فهلك أبو رغال في الطريق في موضع يقال له المغمس، فرجم قبره بعد ذلك، وقد هلك أبرهة بعد أن رجع من الحرم، وسقطت أنامله وتقطعت أوصاله حين بعث الله عليهم الطير الأبابيل. انظر: مروج الذهب ٨٤/١،

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ (٢) يعني: أنه سبحانه أرسل عليهم طيراً متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى وهي جمع لا واحد لها، مثل الشمايط، والعباديد، ونحو ذلك، وذكر أنها كانت طيراً أخرجت من البحر، وقال بعضهم: جاءت من قبل البحر، ثم اختلفوا في صفتها، فقال بعضهم: كانت بيضاء، وقال آخرون: كانت سوداء، وقال آخرون: كانت خضراء، لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، مع كل واحد منها حجارة من سجيل، طين في حجارة، وكانت هذه الحجارة دون الحمصة وفوق حبة العدس، مع واحد منها ثلاثة أحجار، حجران في رجله، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه فجعله كورق الزرع، وورق البقل إذا أكلته البهائم فرائثه فصار روثاً (١٢١٨).

وقصة أصحاب الفيل وردت مطولة في كتب التفسير، وملخصها: أن أبرهة بني كنيسة بصنعاء (١٢١٩) وكان نصرانياً فسماها القليس، وقد استدل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة وجشمهم فيها أنواعاً من المتاعب والمشاق وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس (١٢٢٠) صاحبة سليمان عليه السلام، وكان موضع هذه الكنيسة على فراسخ، وكان فيها بقايا من آثار ملكهم، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه

(١٢١٨) انظر: تفسير الطبري ١٩١/٣٠، ١٩٢ بتصرف، والتفسير الكبير للرازي ٤٨٤/٨ وبهامشه تفسير أبي السعود، وتفسير الكشاف ٢٨٥/٤، ٢٨٦.

(١٢١٩) صنعاء: سميت باسم بانيها، صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن نالخ، فكانت تعرف بأزال، وتارة بصنعاء، وهي عاصمة اليمن، تشبه دمشق بكثرة فواكهها وتدفق مياهها، وتقع وسط وادٍ فسيح، تحيط به الجبال العالية، كان يحيط بها سور ضخم، وقد أطنب الكثير من الكتاب في جودة هوائها واعتدال مناخها. معجم البلدان ٤٨٤/٣، ومعجم البلدان والقبائل اليمنية ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(١٢٢٠) هي: بلقيس بن السيرح وهو الهدهاد، وقيل: شراحيل بن ذي جدن بن السيرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان أبوها من أكابر ملوك اليمن، وكان قد تأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال: أنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن، فولدت له هذه المرأة واسمها ثلقمة، ويقال لها: بلقيس، وقد ملكت اليمن بعد أبيها، ولها مع نبي الله سليمان عليه السلام قصة وردت في القرآن الكريم. انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٩٩.

الكنيسة وبهجتها، وبهاتها، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج، واستخدم في بنائها الذهب والفضة والعاج والفسيفساء وألوان الأصباغ، فلما استتم بنائها كتب إلى النجاشي (١٢٢١) ملك الحبشة: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك من قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب، فغضب رجل من بني فقيم (١٢٢٢) فخرج حتى أتى القليس فقعد فيها (١٢٢٣)، فلما علم أبرهة غضب وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه، وأمر الحيشان فتجهزوا، وخرج الفيل ويسمى هذا الفيل محموداً، وكان قوياً عظيماً، وكان معه ثمانية أخرى، وقيل: اثنا عشر، فلما سمعت بذلك العرب رأوا جهاده حقاً عليهم، لأنه يريد هدم الكعبة، ولما وصل أبرهة وجيشه إلى المغمس وهو مكان بين مكة والطائف بعث رجلاً من الحبشة على خيل له حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل مكة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم (١٢٢٤) وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، وهمت قريش ومن كان معهم بالحرم من سائر الناس بقتاله ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوه، وبعث أبرهة رجلاً آخر إلى مكة وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم ثم قل له: إن الملك يقول لكم إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم البيت فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي

(١٢٢١) النجاشي: ذكر جرجي زيدان أنه وجد بالخط المسند الحميري طوش كتب عليه اسم أبرهة القائد الحبشي وبجواره اسم الملك الحبشي الذي كان أرسله إلى اليمن وأنه (النجاشي) أراحمبس زبيمان. انظر: العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ١٣٥. وقيل: إنه وفقاً لبعض النقوش فاسمة (كلب إلى اصبحا). انظر: عصر ما قبل الإسلام لمحمد مبروك نافع ص ٧٠.

(١٢٢٢) بنو فقيم بن عدي: بطن من كنانة بن خزيمة، من العدنانية، وهم بنو فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٥٩/١، ومعجم قبائل العرب ٩٢٦/٣. (١٢٢٣) قعد فيها: أي تغوط فيها. انظر: سيرة ابن هشام ٦١/١. (١٢٢٤) هو: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وهو شريف مكة ورئيسها، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأكرمهم، فكان يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال.

انظر: السيرة النبوية ٦٤/١ وما بعدها.

بدمائكم، فإن لم يرد حربي فأتني به، فلما دخل الرجل مكة سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا له من دافع عنه، فقال له الرجل: فانطلق إلى الملك فإنه قد أمرني أن آتية بك فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فاستأذن للدخول على أبرهة فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً وسيماً جسيماً، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه فأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك، فقال له ذلك الترجمان، فقال له عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يردَّ عليَّ مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتي حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جنت لهدمه فلا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وأن للبيت رباً سيمنعه، قال: ما كان ليمنع مني، قال: فأنت وذاك، اردد إليَّ إبلي.

وكان فيما زعم بعض أهل العلم قد ذهب عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه ومعه سادة بعض القبائل العربية فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم، والله أعلم.

وكان أبرهة قد رد على عبد المطلب الإبل التي أصاب له، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شغف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة الباب - باب الكعبة - وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستتصرونه (١٢٢٥) على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

يا رب لا أرجو لهم سواك

يا رب فامنع منهم حماك

وقال أيضاً:

لا هم إن العبد يمن

مع رحمة فامنع حلاك

لا يغلبن صليبهم

ومحالمهم عدواً محالك

فلئن فعلت فربما

أولى فأمر ما بدالك

ولئن فعلت فإنّه

أمر تتم به فعالك

وقال أيضاً:

وكنت إذا أتى باغ بسلم

ترجي أن تكون لنا كذاك

فولوا لم ينالوا غير خزي

وكان الحين يهلكهم هنالك

ولم أسمع بأرجس من رجال

أرادوا العز فانتهكوا حرامك

جرؤا جموع بلادهم

والفيل كي يسبوا عيالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، فلما أصبح تهباً أبرهة لدخول مكة وهياً فيله وعباً جيشه وكان اسم الفيل محموداً وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن إلى اليمن فلما وجهوا الفيل إلى مكة برك فضربوه ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فيبرك، وأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بالحجارة لا يصيب الحجر منهم أحداً إلا هلك، وليس كلها أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا يتساقطون بكل

طريق ويهلكون على كل منهل فأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم فسقطت أنامله  
أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه  
فيما يزعمون وكان هذا العام أول ما رأيت الحصبة<sup>(١٢٢٦)</sup> والجدي<sup>(١٢٢٧)</sup> بأرض العرب،  
وانفلت وزيره<sup>(١٢٢٨)</sup> وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع  
عليه الحجر فخر ميتاً بين يديه<sup>(١٢٢٩)</sup>.

وهكذا حافت عقوبة الجبار المنتقم بأبرهة وأصحابه، فحصبتهم الحجارة من فوقهم  
ولاحقت فلولهم، إنها عقوبة السماء لا يفلت منها أحد، حتى لو سعد في السماوات أو غاص  
في أعماق المحيطات.

وهكذا عاد صاحب الفيل خائباً بعد أن حل به وبمن معه العذاب، ولأن الجزاء من جنس  
العمل، ولأنهم تجرأوا على حرمان الله انتهكوها، فسلط الله عليهم وجعلهم عبرة لمن لم يعتبر  
وعظة لم يتعظ<sup>(١٢٣٠)</sup>.

<sup>(١٢٢٦)</sup> الحصبة: مرض سببه فيروس ينتشر في رذاذ الأنف والحنق، أعراضه تظهر بعد  
عشرة أيام على شكل سعال وحمى وارتشاح واحمرار العينين، ويظهر الطفح بعد ذلك  
بثلاثة أو أربعة أيام.

انظر: دليل الطفح الطبي ترجمة إميل خليل بيدس ص ١٥٠، ١٥١.

<sup>(١٢٢٧)</sup> الجدي: مرض جلدي، شديد العدوى، من أعراضه ارتفاع في درجة الحرارة  
مصحوب بمرض وتعب وإرهاق والتهابات في الدماغ، ويترك الجدي بعد الشفاء منه  
تشويهاً ظاهراً في البلاد. انظر: أطفالنا للدكتور محمد علي الحسن ص ١٢٢، ١٢٣.

<sup>(١٢٢٨)</sup> يدعى هذا الوزير بأبي يكسوم. انظر: تفسير أبي السعود ٢٠٠/٩.

<sup>(١٢٢٩)</sup> انظر: تفسير الطبري ١٩٣/٣٠ - ١٩٦، وتفسير أبي السعود ٢٠٠/٩، وتفسير

الكشاف للزمخشري ٢٨٥/٤، ٢٨٦، والتفسير الكبير ٤٨٢/٨، وانظر: السيرة النبوية

لابن هشام ٥٨/١ وما بعدها، ودراسات في تاريخ العرب، تاريخ العرب قبل الإسلام

للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ١٣٩.

<sup>(١٢٣٠)</sup> انظر: الكعبة المعظمة لأمنية الصاوي ص ٩٠.

## المحاولة الرابعة:

وأخيراً ما حصل في عهد الملك الشهيد محمود زنكي ابن أقسنقر (١٢٣١)، وذلك أن النصارى خذلهم الله تعالى دعتهم أنفسهم إلى أمر عظيم ظنوا أنه يتم لهم، ولكن الله سلم ورد كيد الكائدين.

وذلك أن الملك المذكور كان له تهجد يأتي به في الليل وأوراد يأتي بها، فنام عقب تهجده فرأى أن النبي ﷺ في نومه وهو يشير إلى رجلين أشقرين ويقول: أُنجدني أُنجدني من هذين، فاستيقظ فزعاً ثم توضأ وصلى ونام، فرأى المنام بعينه فاستيقظ وصلى ونام فرأى أيضاً مرة ثالثة فاستيقظ وقال: لم يبق نوم وكان له وزير من الصالحين فأرسل إليه ليلاً وحكى له جميع ما اتفق له فقال: وما تعودك أخرج الآن إلى المدينة المنورة واكتم ما رأيت، فتجهز في بقية ليله وخرج على رواحل خفيفة في عشرين نفراً وفي صحبته الوزير المذكور، ومال كثير، فقدم المدينة المنورة في ستة عشر يوماً فاغتسل خارجها ودخل فصلى في الروضة وزار ثم جلس لا يدري ماذا يصنع، فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة المنورة في المسجد: إن السلطان قصد زيارة مسجد النبي ﷺ وأحضر معه أموالاً لتوزيعها فاكتبوا ما عندكم فكتبوا أهل المدينة المنورة كلهم، وأمر السلطان بحضورهم، وكل من حضر ليأخذ يتأمله ليجد فيه الصفة التي أراها له النبي ﷺ في المنام، فلا يجد تلك الصفة فيعطيه ويأمره بالانصراف إلى أن انفضت الناس، فقال السلطان: هل بقي أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة، قالوا: لا، فقال

(١٢٣١) هو: الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي الملقب بالشهيد بن الملك أقسنقر الملقب بقسم الدولة التركي السلجوقي مولاهم، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة ب حلب ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرهما، تعلم القرآن والفروسية والرمي، وكان شجاعاً شهماً ذا همة عالية وقصد صالح وديانة بيّنة، فلما قتل أبو سنة ٥٤١ هـ، وهو محاصر جعبر صار الملك ب حلب إلى ابنه ثم افتتح كثيراً من الأقاليم فأظهر السنة وأمات البدعة، مات سنة ٥٦٩ هـ. انظر: البداية والنهاية ٢٧٧/١٢، وسير أعلام النبلاء ٥٣١/٢٠، والأعلام

تفكروا وتأملوا، فقالوا: لم يبق أحد إلا رجلين مغربيين لا يتناولان من أحد شيئاً وهما صالحان غنيان يكثران الصدقة على المحتاجين، فلما سمعه السلطان انشرح صدره وقال: علىّ بهما، فأتي بهما، فرأهما الرجلين الذين أشار النبي ﷺ إليهما بقوله: "أنجدي أنقذي من هذين"، فقال لهما: من أين أنتما؟ فقالا: من بلاد المغرب جننا حاجين فاخترنا المجاورة في هذا المقام عند رسول الله ﷺ، فقال اصدقاني فصمما على ذلك، فقال: أين منزلهما؟ فأخبر أنه في رباط بقرب الحجرة الشريفة النبوية، فأمسكهما وحضر إلى منزلهما فرأى فيه مالا كثيراً وختمين وكتاباً في الرقائق، ولم ير فيه شيئاً غير ذلك، فأثنى عليهما أهل المدينة المنورة بخير كثير وقالوا: إنهما صائمان الدهر، ملازمان الصلوات في الروضة الشريفة النبوية وزيارة النبي ﷺ وزيارة البقيع كل بكرة وزيارة قباء كل سبت، ولا يردان سائلاً قط بحيث سداخلة أهل المدينة المنورة، وهذا العام المجذب، فقال السلطان سبحان الله ولم يظهر شيئاً مما رآه، وبقي السلطان يطوف في البيت بنفسه ويرفع حصيراً في البيت فرأى سرداباً محفوراً ينتهي إلى صوب الحجرة الشريفة فارتاعت الناس لذلك، وقال السلطان عند ذلك: أصدقائي حالكما وضربهما ضرباً شديداً فاعترفا بأنهما نصرانيان، بعثهما النصارى في زي حجاج المغاربة، وأوفدوهما بأموال عظيمة وأمروهما بالحيل في شيء عظيم، خلّيته لهم أنفسهم وتوهموا أن يمكنهم الله منه وهو الوصول إلى الجناب الشريف النبوي، ويفعلوا به ما زينه لهم إبليس من النقل وما يترتب عليه فنزلا في أقرب رباط إلى الحجرة النبوية الشريفة وفعلا ما تقدم، وصارا يحفران ليلاً ولكل منهما محفظة جلد على زي المغاربة والذي يجتمع من التراب يجعله كل منهما في محفظته ويخرجان لإظهار زيارة البقيع، فيلقيان بين القبور، وأقاما على ذلك مدة، فلما قربا من الحجرة الشريفة النبوية ارتعدت السماء وأبرقت وحصل رحيق عظيم بحيث خيل انقلاع تلك الجبال فقدم الملك صبيحة تلك الليلة واتفق مسكهما واعترافهما فيما اعترفا، وظهر حالهما على يديه، ورأى تأهيل الله له لذلك دون غيره بكى بكاءً شديداً وأمر بضرب رقابهما، فقتلا تحت الشباك الذي يلي الحجرة الشريفة النبوية وهو يلي البقيع.

ثم أمر بإحضار رصاص عظيم، وحفر خندقاً عظيماً إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلها وأذيب ذلك الرصاص وملئ به الخندق فصار حول الحجرة سوراً رصاصياً إلى الماء ثم عاد إلى مكة، وأمر بإضعاف النصارى وأمر أن لا يستعمل كافر في عمل من الأعمال.

وهكذا سلم الله مكة والمدينة وحرمتها من كل سوء ومكروه، ورد كيد الكائدين وخذاع المخادعين، والله حسينا ونعم الوكيل (١٢٣٢).

## الفصل الخامس

### جهود الدولة السعودية في خدمتها

إن قدسية الحرمين الشريفين أمر لا جدال فيه، وأمنهما وسلامتهما وخدمتهما وتوفير كل سبل الراحة فيهما مهياً لكل مسلم، ولا خلاف في أن المملكة العربية السعودية تبذل من الجهد وتوفر من الطاقات والإمكانات ما يهيئ لجميع المسلمين سبل الراحة والأمان وأداء فريضة الحج على أكمل وجه.

فمنذ اللحظة الأولى التي بشرَّ فيها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بشر الناس عامة والحجازيين خاصة ببذل الجهد فيما يؤمن الحرمين الشريفين ويجلب لهما الخير والاطمئنان، والجهود تتوالى في خدمة الحرمين الشريفين توسعة وتنظيماً ومتابعة لكل ما يخدمهما ويجعلهما على أفضل صورة.

فقد قال رحمه الله: (وإني أبشركم - بحول الله وقوته- أن بلد الله الحرام في إقبال وخير، وأمن وراحة، وإني إن شاء الله سأبذل جهدي فيما يؤمن البلاد المقدسة ويجلب الراحة والاطمئنان لها) (١٢٣٣).

---

(١٢٣٢) انظر: تاريخ ومعالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً للسيد أحمد ياسين الخياري المدني ص ٨٧، ٨٨، وصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار لمحمد بيرم الخامس التونسي ١٥٤/٤ المجلد الثاني، ورسائل في تاريخ المدينة لمحمد الجاسر ص ٢٧، والاعتداءات على الحرمين الشريفين عبر التاريخ ص ٥٨.

وكانه رحمه الله يتنبأ لهذه الأمة السعودية بواقعها التاريخي المعاش ومدلوله الحضاري الذي جعل الأمن والاستقرار يستتب في جميع أنحاء المملكة كلها، إن هذا الإنجاز الذي تم في وقت قصير لم يكن ليتم لولا أنه رحمه الله عمل جاهداً من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر، لتسعد البلاد والعباد بالأمن والاطمئنان والراحة (١٢٣٤).

ومنذ تلك اللحظات والجهود بالحرمين الشريفين هي نصب عين كل مسئول في هذه الدولة المباركة.

المملكة العربية السعودية التي وحدث هذه البلاد بعد أن كانت ممزقة متناثرة، وكان من نتائج هذه الوحدة بروز بناء جديد للمجتمع، واختفاء كثير من البدع الدينية التي كانت معظم مجتمعات الجزيرة ترسف في غلها الفكري الأسر.

ولقد كانت وحدة البلاد هي الفكرة التي تجلت فيها إرادة الملك عبد العزيز، وحدة اجتماعية، ووحدة روحية، ووحدة حضارية، فكان القضاء أولاً على نزعات التفكك التي عاشت في ظل التمزق، ثم كان القضاء على التمزق الفكري الذي كان يتمثل في النزعات المذهبية الروحية، بجمع المجتمع السعودي على المفاهيم الروحية الصحيحة بأساليب تحمل القناعة إلى كل فرد في المجتمع، والاطمئنان النفسي الذي يستمد ثباته من التجربات التاريخية العريقة لأمتنا الإسلامية وماضيها الودودي.

(١٢٣٣) انظر: المنتقى في أخبار أم القرى لأبي عبد الله محمد بن اسحاق الفاكهي، تحقيق وتعقيب محمد عبد الله مليباري ص ٢٣١، والوجيز في سيرة الملك عبد العزيز للزركلي ص ٨٩، وشبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز للزركلي ١/٣٥٠. (١٢٣٤) من تاريخ الملك عبد العزيز ومواقفه النادرة للشيخ سعد العبد العزيز الرويشد ص

ومن النزعات المذهبية التي تم القضاء عليها في مستهل وحدة هذه البلاد جمع المصلين في المسجد الحرام صلوات الفريضة الخمس على إمام واحد بعد أن كانت تؤدي خلف أربعة أئمة تسعة قرون (١٢٣٥).

والتي كانت تدخل على المصلين السهو والغفلة خاصة في صلاة المغرب، لأنها تؤدي في وقت واحد لاجتماع التكبير فيها من كل جهة فربما ركع المالكي بركوع الشافعي والحنبلي بركوع المالكي ... الخ.

وباستيباب الأمن في ربوع البلاد ووجود التسهيلات في كل الخدمات العامة المطلوبة للمواطنين والوافدين إلى هذا الوطن الكريم، وأهمهم وفود بيت الله الحرام لأداء الركن الإسلامي الخامس "الحج" وأداء الصلاة وأمام أنظارهم بيت الله العتيق الذي طالما تمنوا إلى الله أن يكتب لهم الصلاة في رحابه أو على مقربة من الروضة النبوية المطهرة في المسجد الذي بناه الرسول ﷺ وساهم بنفسه في عمارته كثرة الإقبال عليهما، إنهما المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، مسجداً من ثلاثة لا تشد الرحال إلا إليهما.

وإذا كان هذان المسجداً منذ فجر الإسلام مهوى أفئدة المسلمين وفي أحدهما قبلتهم فقد كان لهما على الدوام نصيب من عناية الخلفاء والملوك والأمراء.

وإذا كانت أعداد المسلمين تتزايد العام بعد العام، وحشودهم تشد الرحال بمئات الآلاف حجاً وعمرةً، فقد كان المسجداً يوسعان المرة تلو المرة عبر أربعة عشر قرناً من الزمان.

ولكن موكب الإيمان ظلت تتزايد وظلت الحاجة إلى توسعات جديدة قائمة، وجاء عهد الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله، وهو عهد قام على الإيمان لا ينشد إلا وجه الله ودينه في كل ما عمل وما حقق وما أنجز.

وكان طبيعياً أن تكون حاجة الحرمين الشريفين إلى التوسعة في مقدمة ما عني به واهتم، - وكما قلت - مع تزايد أعداد المسلمين الذين يقصدون الديار المقدسة للحج والعمرة

(١٢٣٥) انظر: المنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٣٢، ٢٣٣ بتصرف يسير.

والزيارات بات الحرم النبوي الشريف يضيق عن استيعاب عشرات الآلاف من المصلين، يضاف إلى ذلك ما لوحظ في بعض أجزاء البناء من تصدع لا سيما في الجهة الشمالية منه.

وفي عام ١٣٦٨ هـ أذاع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية، وملكها بياناً وجهه إلى العالم الإسلامي وأعلن فيه التزامه بعون الله تنفيذ مشروع لتوسعة الحرمين الشريفين بدءاً بالحرم النبوي في المدينة المنورة (١٣٦٦).

ورغبة في أن يتم التنفيذ على أتم ما ينبغي تكاملاً وإتقاناً فقد أجريت دراسات دقيقة واسعة شملت كل كبيرة وصغيرة في المشروع، ووضعت الخطط للتنفيذ ورصدت الأموال اللازمة وبدئ بالتنفيذ الفعلي في الخامس من شوال سنة ١٣٧٠ هـ بواسطة إحدى المؤسسات الإنشائية السعودية الكبرى وهي مؤسسة محمد بن لادن رحمه الله (١٣٣٧).

وقد حرص في المشروع على تحقيق التكامل والانسجام، ما بين التوسعة الجديدة والمباني القديمة التي تقرر الإبقاء عليها وبذلك بلغ مجموع التوسعة السعودية ١٦٣٢٦ متراً مسطحاً وهي أضخم وأكبر توسعة تناولت المسجد منذ إنشائه.

ولم يكد العمل ينتهي من مشروع توسعة الحرم النبوي الشريف حتى أذاعت المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر إذ ذاك بلاغاً صدر في الخامس من محرم ١٣٧٥ هـ يعلن البشري بالمباشرة في تنفيذ مشروع توسعة المسجد الحرام، والأمر بتشكيل لجنة عليا للإشراف على المشروع، وإنشاء مكتب لمتابعة المشروع وتنفيذه ومراقبة سير العمل فيه إلى جانب القيام بأعمال ذات صلة بالمشروع الأساسي كتحويل الطريق العام من المسعى، وإنشاء مجرى للسيل الذي كان يمر بالمسعى ويصل أحياناً إلى بعض أجزاء المسجد الداخلية.

وقد تم إنجاز ما يلي:

١- إنهاء ما تبقى من الطريق الجديد وتحويل حركة المرور إليه.

(١٣٣٦) انظر: توسعة الحرمين الشريفين الصادر عن وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية ص ٣٩، بتصريف.

(١٣٣٧) المرجع السابق ص ٤٠.

- ٢- هدم المنشآت السكنية والتجارية التي كانت قائمة قرب المسعى.
- ٣- هدم منشآت الجهة الشرقية إلى المروة، والبعد بشق الطريق الجديد الممتد ما بين جانب الصفا والمروة.
- ٤- بناء المسعى من طابقين لاستيعاب أكبر عدد ممكن من المصلين (١٢٣٨).
- وأقيم وسط المسعى حاجز يقسمه إلى قسمين طويلين متوازيين أحدهما باتجاه ما بين الصفا والمروة ذهاباً، والآخر للاتجاه المضاد، أي ما بين المروة والصفا إياباً.

وبني درج مقسم إلى قسمين لكل من الصفا والمروة، وجعل بحيث يكون أحد الجانبين للصعود والآخر للهبوط، وأنشئت ستة عشر باباً للمسعى منتشرة على الواجهة الشرقية والداخلية، ومدخلان للطبقة العليا مطلقاً على خارج الحرم، أحدهما عند الصفا والآخر عند المروة.

ومدت في الواجهة الغربية سبيل يستقي منها الحجاج من ماء زمزم بواسطة الأنابيب كما هو الحال في واجهة الرواق الأولى الجنوبية.

كما أقيمت مشاريع أخرى للحرمين الشريفين تمثلت في إزالة الأنقاض المتخلفة عن الأعمال السابقة وتسوية الأراضي وعمل الساحات اللازمة لوقوف السيارات وحصر المباني التي حول الحرمين لاستكمال ما يلزم لعمل مخططاتها وتقدير قيمتها استعداداً لأي حاجة تحصل في المستقبل (١٢٣٩).

ويقف مشروع خادم الحرمين الشريفين لتوسعة وعمارة الحرمين الشريفين صرحاً إسلامياً شامخاً وشاهداً على ما تقوم به حكومة المملكة العربية السعودية من أعمال جليلة

(١٢٣٨) توسعة الحرمين الشريفين ص ٧٨، وملحق أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقى ٣٣١/٢ - ٣٣٧، باختصار شديد.

(١٢٣٩) المعلومات السابقة مستفادة من المنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٣٥ وما بعدها، وتوسعة الحرمين الشريفين ص ٣٩، ٧٨ وما بعدها، ومحاضرات نادي مكة الثقافي الأدبي ص ١٤٤ وما بعدها، من تاريخ الملك عبد العزيز ص ١٣.

تهدف إلى خدمة الإسلام وتلّمس احتياجات المسلمين، وامتداداً لالتزامها منذ عهد مؤسس هذه الدولة الملك عبد العزيز يرحمه الله بالاهتمام ورعاية الأماكن المقدسة.

ويعبر خادم الحرمين الشريفين حفظه الله باستمرار عن هذه القناعة الثابتة بقوله: (إن الإنفاق على مشروعات الحرمين الشريفين شرف أولانا الله إياه، ودعانا إليه، فامتنلنا له تلبية لنداء رب العزة والجلال) (١٢٤٠).

وإيماناً بهذه القناعة الثابتة أولى خادم الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة اهتماماً خاصاً وعناية فائقة.

فقام - أيده الله - في صفر ١٤٠٩ هـ بوضع حجر الأساس لتوسعة وعمارة الحرم المكي الشريف، وابتدأ العمل الرسمي فيه بتاريخ ١٤٠٩/٦/٨ هـ.

ويتضمن هذا المشروع إضافة جزء جديد إلى المبنى الحالي للمسجد من الناحية الغربية بين باب العمرة وباب الملك، وتبلغ مساحة التوسعة الجديدة ٧٦.٠٠٠ ستة وسبعون ألف متر مربع تتسع لحوالي ١٩٠.٠٠٠ مائة وتسعين ألف مصل، ويشمل المشروع تحسين وتجهيز الساحات الخارجية للمسجد للصلاة فيها بمساحة إجمالية تبلغ ٥٩.٠٠٠ تسعة وخمسون ألف متر مربع، تكفي لاستيعاب ١٣٠.٠٠٠ مائة وثلاثين ألف مصل.

وبذلك تصبح المساحة الإجمالية للمسجد الحرام بعد التوسعة، ومعها سطح التوسعة والساحات الخارجية ٣٦١.٠٠٠ ثلاثمائة وواحد وستون ألف متر مربع، تستوعب ٧٣٠.٠٠٠ سبعمائة وثلاثين ألف مصل تصل إلى مليون مصل في المواسم.

وركبت فيها ثريات تناسب مع الشكل المعماري وتوفر مستوى إضاءة أعلى وأفضل مما كانت عليه الإضاءة، يتم تغذيتها من محطتي تحويل على جانبي التوسعة التي تحتوي كل منهما على ثلاثة محولات قدرة كل منها ١.٦ ميغاوات أمبير.

(١٢٤٠) توسعة وعمارة الحرمين رؤية حضارية، مؤسسة عكاظ، الإصدارات الخاصة ١

رجب ١٤١٢ هـ

هذا بالإضافة إلى السلام المتحركة، واستديو إذاعي وتلفزيوني زودا بأحدث المعدات المتطورة كما تم تزويد التوسعة بنظام الساعات الزوالي والغروبي، وحرص خادم الحرمين الشريفين على تهيئة الأجواء الملائمة للمصلين والحجاج والمعتمرين لأداء مناسكهم في هدوء وسكينة وذلك بتطيف هواء المسجد والمسعى، وتطلب ذلك إنشاء محطة تكيف على بعد ٣.٥ كيلومترات من الحرم تزيد طاقتها عن ٤٠.٠٠٠ أربعين ألف طن.

أما بالنسبة للحرم المدني: فعندما زار خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز المدينة المنورة ١٤٠٣هـ، وعلم أن مساحة المسجد النبوي الشريف تضيق عن استيعاب المصلين من حجاج وزائرين أصدر حفظه الله أمره بتوسعة المسجد النبوي الشريف بما يتناسب مع زيادة عدد الوافدين لزيارة الرحاب المقدسة فكانت مساحة المظلات القريبة ضمن منطقة التوسعة الكبرى حيث بلغت مساحة زيادة خادم الحرمين الشريفين اثنين وثمانين ألف متر مربع، وعملت الأسقف المتحركة ومنازل "مآذن" جديدة، وسلام وغير ذلك من الاحتياجات التي يحتاجها الناس<sup>(١٢٤١)</sup>.

ومن الجهود التي بذلتها المملكة العربية السعودية في خدمة الحرمين الشريفين سقيا زمزم وتسمى قباء زمزم الجديد ففي عام ١٤٠٢ و ١٤٠٣ هـ تم توسيع قباء زمزم من حجم سابق لقباء قد عمل بسعة ١٣٥ مائة وخمسة وثلاثون متراً مربعاً، إلى الحجم الجديد الذي تراوح بين ١٤٥٠ ، ١٢١٠ متراً مربعاً، والقباء عبارة عن مبنى تحت أرض المسجد الحرام في الجنوب الشرقي من المسجد مقسم إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وفي استطاعة قاصده أن يرى البئر بكل سهولة، خلافاً لما كان عليه قبل ذلك.

---

(١٢٤١) هذه المعلومات مستفادة من: تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، الملحق ص ٢٧٤ وما بعدها، والمنقح في أخبار أم القرى ص ٢٣٩ وما بعدها، ومحاضرات نادي مكة الثقافي والأدبي ص ١٤٦ وما بعدها، وملحق رقم ٥ في كتاب أخبار مكة ص ٣٣٠ وما بعدها، وتوسعة وعمارة الحرمين الشريفين رؤيا حضارية مؤسسة عطاظ للصحافة والنشر، الإصدارات الخاصة بتاريخ ١ رجب ١٤١٢ هـ بالتعاون مع مؤسسة بن لادن.

وقد زود بجهاز حديث للتكييف بحيث لا تتجاوز الحرارة داخله ٣٢ درجة ويستوعب هذا القباء ألفين وخمسمائة قاصد في آن واحد، وزود القباء بثلاثمائة وخمسين حنفية تمد ثلاثمائة وخمسين شخصاً بماء زمزم في كل دقيقة.

وهناك ثلاثمائة وأربع وثمانون نافورة مخصصة للشرب، وقد زودت بنظام خاص لصرف المياه إلى شبكة مجاري المسجد.

وقد تم تشغيل خزانات تغذي غرفة تبريد مياه زمزم الواقعة بالشامية في الشمال الشرقي من المسجد الحرام، وهذه الخزانات تغذي أجهزة تبريد تعمل بطاقة عالية تسحب مياه زمزم بواسطتها في أنبوبة قطره ست بوصات، وبواسطتها أيضاً تغذي ثلاثة مجمعات لزوم في كل من الأقبية والدور الأرضي والدور الأول العلوي، ويتم الاتصال بين بئر زمزم وغرف معدات التبريد عن طريق نفق بسعة ثلاثة أمتار، يمتد من البئر إلى الغرفة رأساً.

وهذا المشروع هام جداً، ومفخرة العهد السعودي نفذ بطريقة تغطي حاجة المسجد الحرام من المياه المبردة، يضاف إلى ذلك أوعية المياه الكبيرة "الترامس" الموزعة في كل الأماكن من المسجد والمسعى وحو المطاف، إلى جانب ثلاثة مجمعات لمياه زمزم خارج المسجد الحرام، وهي مخصصة لمن يحمل ماء زمزم إلى أماكن بعيدة من المسجد (١٢٤٢).

ومن الجهود أيضاً كسوة الكعبة المشرفة، ولقد كان لهذه الكسوة تاريخ طويل يمتد إلى زمن بعيد، فقد كان الرسول ﷺ يكسو الكعبة المشرفة بالثياب اليمانية، واستمر خلفاؤه من بعده في كسوتها وكانت الكسوة الجديدة توضع فوق الكسوة القديمة التي سبقتها، الأمر الذي دعا سدنة الكعبة المشرفة إلى عرض الأمر على الخليفة العباسي المهدي (١٢٤٣)، إذ قال السدنة إن

(١٢٤٢) انظر: المنتقى في أخبار أم القرى ص ٢٤٤، ٢٤٥ بتصريف، ومحاضرات نادي مكة الثقافي الأدبي ص ١٤٨، ١٤٩ بتصريف سير.

(١٢٤٣) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أبو عبد الله المهدي، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي رجاء أن يكون المدعو به في الأحاديث فلم يكن به، وإن اشتركا في الاسم، فقد اختلفا في الفعل، ولد في سنة ست أو سبع وعشرين ومائة، ولي الخلافة بعد موت أبيه سنة ثمان وخمسين ومائة وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة،

الكسوات المتراكمة قد أثقلت الكعبة حتى ليخشى على البناء، فأمر المهدي برفع جميع الكسوات وأن لا يوضع على الكعبة المشرفة سوى كسوة واحدة واستمر الحال كذلك منذ عام ١٦٠ هـ ، تاريخ حجة المهدي حتى يومنا هذا (١٢٤٤).

ومنذ عام ٧٥٠ هـ كانت كسوة الكعبة المشرفة تأتي إليها من مصر (١٢٤٥) حتى وقع خلاف بين الحكومة المصرية والأشراف في مكة عام ١٣٤١ هـ منع على أثره المحمل المصري الذي يحمل الكسوة ونقلت لها الكسوة التي كانت محفوظة في المدينة المنورة، ووصلت إلى مكة في التاسع من ذي الحجة في العام نفسه.

وفي أوائل عهد الملك عبد العزيز آل سعود توقف إرسال الكسوة من مصر، كان قد استؤنف فعمد رحمه الله إلى كسوة الكعبة المشرفة بكسوة "القبيلان" التي كانت قد صنعت في العراق من قبيل الاحتياط، ورأى أن الحل الحاسم لهذه المسألة إنشاء دار خاصة تتولى صنع الكسوة الشريفة في مكة المكرمة نفسها، وأمر بتنفيذ ذلك في أول محرم ١٣٤٦ هـ، وتم استيراد النسج والتطريز والمعدات اللازمة لذلك، وجيء بعدد من الاختصاصيين وبدأ العمل بصورة متواصلة إلى أن أمكن إنجاز الكسوة الشريفة في نهاية شهر ذي القعدة من العام نفسه.

---

ولد بالحيمية من أرض البلقاء، وتوفي سنة تسع وستين ومائة، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً ونصف الشهر، انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٥١/١٠، وسير أعلام النبلاء ٤٠٠/٧.

(١٢٤٤) انظر: اتحاف الوري بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد ٢٠٤/٢.

(١٢٤٥) مصر: سميت بمصر بن مصرام بن حام بن نوح عليه السلام، وهي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، طول مصر أربع وخمسون درجة وثلثان، وعرضها تسع وعشرون درجة وربع، في الإقليم الثالث، وذكر ابن ما شاء الله المنجم أن مصر من إقليمين، من الإقليم الثالث مدينة الفسطاط والإسكندرية ومدن أخيم وقوص، ومن الإقليم الرابع تيبس ودمياط وما إلى ذلك. انظر: معجم البلدان ١٦٠/٥.

وفى خلال ثلاث سنوات استطاع الصناع السعوديون إتقان هذه العمل الفني الدقيق وأصبحوا قادرين على القيام به بمهاراتهم الخاصة وأدخلت على المصنع تطورات عديدة لرفع مستوى الإنتاج وتحقيق أعلى درجات الدقة والجودة والإتقان بحيث أصبح عدد قطع الكسوة ست عشرة قطعة بعد أن كان سبع قطع، واستخدم القصب الفضي المموه بالذهب فى كتابة الآيات القرآنية فبدت أكثر وضوحاً وتألّقاً مما كانت عليه من قبل (١٢٤٦).

ورغبة من الحكومة السعودية فى تطوير صنع الكسوة والوصول بها إلى أعلى درجات الدقة والجودة والإتقان، أمر الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود برحمة الله فى عام ١٣٩٢ هـ ببناء مصنع جديد للكسوة الشريفة مبنى على طراز حديث وزود بأحدث الآلات الميكانيكية فى النسيج الآلي بالإضافة إلى الأنوال اليدوية، ودواليب لف الغزل على البكر، وأجهزة الصياغة وغيرها من المعدات والآلات اللازمة لصناعة الكسوة وزركتها (١٢٤٧).

ولا شك أنها فى عهد خادم الحرمين الشريفين ومع تطور الصناعات وصلت إلى أرقى مستوى ممكن وكثف العمل بها حيث زيد فى عدد الصناع والعمال وغيرهم حتى إن الموظفين بها بلغ مائتي موظف فى مختلف التخصصات.

ومن جهود الدولة السعودية فى خدمة الحرمين الشريفين الإنارة، وأجهزة التكييف، وأجهزة التكبير والبث المرئي والمسموع إلى جميع أرجاء البلاد الإسلامية وإنشاء رئاسة خاصة تتوالى الإشراف والمتابعة للحرمين الشريفين بالإضافة إلى المكتبات التابعة للحرمين الشريفين لمن أراد طلب العلم والاستزادة منه، والمتابعة الكاملة للحرمين من صيانة ونظافة وفرش وغيره.

(١٢٤٦) توسعة الحرمين الشريفين ص ١٢٢ وما بعدها بتصرف، وكسوة الكعبة المعظمة عبر

التاريخ للدكتور السيد محمد الدقن ص ٢٠٧، بتصرف.

(١٢٤٧) انظر: كسوة الكعبة المشرفة ص ٢١١، ٢١٢ بتصرف.

وقبل الانتهاء من هذا الفصل أود التنويه بدورات المياه التي جهزت على أحسن طراز وأفضل تصميم، فقد عملت تحت الأرض في أقباء وبأعداد كثيرة تسد حاجة الناس في أشد أيام الزحام، وما روعي فيها من تهوية جيدة ومياه وافرة وغيرها.

وأخيراً: فهذه مجرد شواهد قد ذكرتها في هذا الفصل من بحثي وهي قطرة من بحر، ومن أراد الاستزادة فالمراجع متوفرة وخاصة في جامعة أم القرى التي تزخر مكتبتها بالعديد من الكتب والوثائق التي تهتم بهذا الموضوع.

## الفصل السادس

### حفظ الدولة السعودية لأمنها وأمن داخلها

إن الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة تدل على فضل الحرمين الشريفين وقدسيتها وهما موطن الأمن والأمان، وإن واجب المسلم الذي يذهب إليهما لأداء فريضة الحج أو العمرة والزيارة أن يتنزّه عن الخاصم مع غيره فضلاً عن قتاله، يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ وُضِعَ فِيهَا فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (١٢٤٨).

ولذلك فإن الرسول ﷺ اهتم بأمن مكة بل إنه حدد في وثيقة نبوية أين يكون مفتاح الكعبة، وأمسك به بعد فتح مكة ولم يعطه لعمه العباس رضي الله عنه ولا لصهره علي كرم الله وجهه، وكانا واقفين قريباً منه، وإنما نادى عثمان بن طلحة وأعطاه المفتاح بأمر الله تعالى، ومنذ ذلك الحين والاهتمام بأمن الحرمين الشريفين وأمن قاصدهما من مهام كل من تولى الخلافة على المسلمين وخاصة في هذه الأرض المباركة.

ولا شك في أن المملكة العربية السعودية تبذل من الجهد وتوفير الطاقات والإمكانات ما يهيئ لجميع المسلمين سبل الحج إلى بيت الله الحرام، ولم يسمع في العالم منذ أكثر من نصف

(١٢٤٨) سورة البقرة: آية ١٩٧.

قرن عن منطقة آمنة مثل هذه المنطقة، بل لم يسمع عن منطقة نظيفة هيئت فيها سبل المواصلات والإقامة والسفر مثل هذه المنطقة.

فقدسية الحرمين الشريفين لا جدال فيها، وأمنهما وسلامتهما وتوفير كل سبل الراحة مهياً لكل مسلم، ولم يبق إلا التكاتف والتعاون بكل السبل للمحافظة على هذه الأمانة، والمسئولون في المملكة العربية السعودية يعلمون كل العلم أن البيت الحرام قد جعله الله موضع أمن للناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا ﴿١٢٤٩﴾﴾ ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرَاهِمُونَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (١٢٥٠).

والمملكة العربية السعودية تستشعر عظم المسؤولية نحو الحرمين الشريفين، وبدافع من هذا الشعور خدمت الحرمين الشريفين توسعة وعماراً، وخدمتهما بتيسير كل ما يحتاجه الحاج والمعتمر، وخدمتهما بتوفير أمن الطريق إليهما، وأمن أداء المناسك والزيارة فيهما، وكان قادة المملكة، ولا يزالون يعدون ذلك أشرف رسالة يحملونها قائداً بعد قائد.

ولهذا جاءت كلمات وتوجيهات الملك عبد العزيز - رحمه الله - واضحة المعالم وهو يضمن العالم الإسلامي إلى ان مقاليد الحرمين الشريفين قد آلت إلى أيد أمينة حفيظة: (لقد قضينا على الظلم، ونشرنا العدل في ربوع البلاد، وليس أشهى إلى قلوبنا من إقبال المسلمين على الحج من أنحاء العالم الإسلامي، الطرق مفتوحة في وجوهكم أيها المسلمون، ولن يتعرض أحد لكم بكل، فاطمئنوا كل الاطمئنان، ونحن أنفسنا سنذهب إلى مكة لنجتمع بالوفود الإسلامية ونرحب بها، وقد آلينا على أنفسنا أن نعيد للحج ازدهاره ومجده القديم) (١٢٥١).

وربما يظن البعض أن الحرمين الشريفين - وهم أقدس مقدسات المسلمين - لم يتقرر في شأ، الإشراف عليهما شيء في الشرع، ولكن الواقع أ، الإشراف على الحرم المكي

(١٢٤٩) سورة البقرة: آية ١٢٥.

(١٢٥٠) سورة آل مران: آية ٩٧.

(١٢٥١) مؤتمر قدسية الحرمين الشريفين ص ١١.

بالذات، وبيت الله الحرام، قد تقرر فيه ما يعد توجيهاً عاماً، ولفتة شرعية توجه النظر في شأنه.

وأكثر المفسرين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١٢٥٢). يقررون أنها نزلت في عثمان بن طلحة حاجب الكعبة الذي أخذ منه الرسول ﷺ مفاتيح الكعبة يوم الفتح، ولكنه رده إليه وصارت الحجابة في نسله.

وفي الإسلام تعتبر الملكية كلها خلافة عن الله عز وجل، وهي خلافة تكليف لا خلافة حلول، وملكية الدولة لإقليمها وما يشتمل عليه هو من هذا الباب، فالدولة أو السلطة السياسية القائمة في مكة المكرمة أو المدينة المنورة هي المكلفة بالحفاظ على الأرض والناس والبناء، مبنى ومعنى ومعنى، وهي المكلفة بتحقيق أمر الله وحكمه في جعل البيت مثابة للناس وأماناً؛ لأن هذه أحكام شرعية وردت بنصوص قطعية في القرآن الكريم، ويجب الحفاظ عليها، بصيانة حرمة البيت الحرام وقاصديه من التعدي عليهم بأية صورة، سواء تمثل هذا التعدي بالعدوان على الأرض أو المبنى أو المعنى، بمحاولة احتلال الأرض أو استغلال موسم الحج في سوء أو زيارة البيت الحرام في أعمال لا تمت إلى أداء الفرائض والنوافل بصلة.

وقد توعد الله سبحانه وتعالى من يحدث في الحرم حدثاً بأشد العذاب، حتى إنه عز وجل يقول: ﴿ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١٢٥٣).

فمسؤولية الدولة (المملكة العربية السعودية) عن حماية الحرمين الشريفين وصيانتهما، ومنع التعدي عليهما أو على أهلها وزوارهما، هي مسؤولية شرعية، وهي فرض عين على السلطة السياسية القائمة في البلاد، لا تملك أن تنزل عنه، ولا أن تعفي نفسها منه، ولا أن تقبل مشاركة من أحد من شأنه إلا إذا لزم الأمر وبموافقتها؛ لأن الحماية الشرعية المطلوبة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال سلطة واحدة وقادرة، ولها على الناس داخل الإقليم حق الطاعة، ولها الحق في التحكم في أمر الدخول إلى الحرمين أو الخروج منها، بحسب ما تقتضي به

(١٢٥٢) سورة النساء: آية ٥٨.

(١٢٥٣) سورة الحج/ آية ٢٥.

لوازم الحماية والرعاية لهما ولأهلها؛ لأن الحفاظ على الحرم المكي والحرم المدني فرض عين على ولي الأمر في المملكة العربية السعودية، ولا وجه للمشاركة في أدائه إلا أن تكون نصيحة من ناصح أمين، يهدف إلى طلب ما ينفع الحجاج والزوار لبيت الله.

والقواعد الدولية المعمول بها تتفق مع ما يقرره الشرع، فالدولة هي التي تسيطر على إقليمها وحدها، وهو ما يعبر عنه بحق السيادة، وتتمثل السيادة في الإسلام باعتبارها خلافة من الله عز وجل في تحقيق أحكامه، وإقامة شرائعه، وإن حماية الحرمين الشريفين هي فرض واجب على ولي الأمر في المملكة العربية السعودية وحدها.

وتعطي القواعد الدولية بمقتضى نظرية سيادة الدولة على إقليمها حقاً لولي الأمر في اتخاذ ما يلزم لتأمين حماية الحرمين الشريفين وصيانتهم، وحراستهم، وإصلاح شأنهم، ومنع المساس بهما بأي شكل من الأشكال، إذ المساس بحرمتهما فضلاً عن أنه كبيرة دينية يمثل عدواناً على سلطة ولي الأمر، وخرقاً للمصالح التي يناط به حفظها ورعايتها (١٢٥٤).

ومن أجل الحكم القرآنية، أن القرآن الكريم في شأن الحج بالذات قرن مصالح الناس ومنافعهم بأداء الشعيرة والغرض الديني، فقال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ﴾ (١٢٥٥). ففي الحج منافع للحجاج ولأهل البلاد يجب الحرص عليها.

ومن أغرب ما قيل ويسمع من البعض، أن جعل الإشراف على الحرمين الشريفين من هيئة تُشكل من دول إسلامية أولى وأشد صيانة لهما، وهو قول لا يتفق مع أصول الشرع ومقاصده، من تعيين الواجب على ولي الأمر، الذي له في أرض الحرمين سلطة الأمر وحق الطاعة، ولا يتفق ذلك أيضاً مع القواعد الدولية المعمول بها.

من هذا المنطلق حرصت الدولة السعودية أشد الحرص على إقرار الأمن في الحرمين الشريفين ونلمس هذا من الجهود المبذولة والمتزايدة في كل عام وتزايد الأمن والأمان وترقي الرفاهية والاطمئنان، ومد أفياء الأمان على المملكة عامة والحرمين الشريفين خاصة حتى

(١٢٥٤) انظر: قدسية الحرمين الشريفين إعداد وحدة بحوث اللغات الإسلامية ص ١٦ بتصرف.

(١٢٥٥) سورة الحج: آية ٢٨.

صارت مضرب المثل في الأمن والطمأنينة، ولم يعد أي حاج أو زائر يتوجس من أي مخاوف تعرض له؛ لأن هناك عيوناً ساهرة على راحة الحجاج والمعتمرين<sup>(١٢٥٦)</sup>.

وقد لمس العالم بأجمعه ما تتمتع به هذه البلاد من أمن وطمأنينة ورخاء ولمس الحجاج والزوار الأمن الكامل في الحرمين الشريفين وغيرهما منذ دخولهم إلى أول نقطة من هذه البلاد، وحتى وصول غاياتهم من حج وعمرة وزيارة، سواء كان ذلك الأمن نفسياً أو غذائياً أو صحياً أو مما يتعلق بالطرق والتنقلات من مكان إلى آخر مما جعل الجميع يشهدون بهذا الأمن المنقطع النظير ويشيدون به، ورغم الأعداد المتزايدة للحجيج في كل عام، والأفواج الكبيرة التي تصل إلى المملكة في كل عام<sup>(١٢٥٧)</sup> إلا أن جهود الدولة أكبر وأعظم، ويتضح ذلك من زيادات الخدمات والاستعداد في كل عام عما سبقه، وهذا ما يلمسه الحجاج في كل عام حتى إن من يتأخر عن الحج خمس سنين ثم يأتي إلى هذه الأرض المباركة فإنه يرى الفارق كبيراً وكأنه لأول مرة يصل إلى هذه البقاع المباركة.

ويظهر دور الأمن للحرمين الشريفين وقاصدهما فيما هيأته الدولة من وسائل تريح القادم إليها وتبعث في نفسه السعادة والطمأنينة.

ففي مجال النقل البري مثلاً هيأت الطرق المعبدة والواسعة والجسور والإنفاق التي يعجز الإنسان عن وصفها والتي تربط بين المشاعر المقدسة وغيرها من مدن المملكة وقراها، وتربطها أيضاً بجمع الدول من حولها، وجعلت قيادة السيارات في الأكفاء المؤهلين مما ينتج عنه راحة المسافرين وأمنهم وطمأنينتهم.

وقد روعيت جميع وسائل الأمن والسلامة وتوفير الراحة للمسافرين والمتابعة الكاملة من المسؤولين عن مراقبة ومتابعة الطرق البرية حيث يقطعون هذه المسافة الطويلة بكل يسر وسهولة مما جعل السفر رحلة ترفيهية ممتعة.

<sup>(١٢٥٦)</sup> انظر: قدسية الحرمين الشريفين ص ٧٩ وما بعدها.

<sup>(١٢٥٧)</sup> انظر: إحصائية الحجاج، منشور صادر عن وكالة وزارة الداخلية للجوازات والأحوال المدنية عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م من أوله، وتوسعة الحرمين الشريفين صادر عن وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية - مقدمة الكتاب.

وأما ما يتعلق بالنقل الجوي بواسطة الطائرات، وهي من أهم وسائل المواصلات اليوم وأكثرها راحة وأهمها في ربط بلاد العالم ببعضها ببعض، وبأسرع وقت ممكن، والعناية بسلامة وأمن المسافرين على متنها أصبح ضرورياً و لازماً، فقد اهتمت الدولة السعودية بأمن الطائرات والمطارات - وهي الأماكن المجهزة بالوسائل الفنية لصعود وهبوط الطائرات - اهتمت الدولة بهذا الجانب وزودت المطارات بخبراء وأجهزة غاية في الدقة والإتقان، وذلك من أجل حفظ نظامها وأمنها، ومن ثم راحة المسافرين عن طريقها وسلامتهم وطمأنينتهم، ومن بين هؤلاء المسافرين الملايين الذين يفدون إلى الحرمين الشريفين في كل عام لقصد الحج أو الزيارة (١٢٥٨).

وفي مجال النقل البحري اهتمت المملكة العربية السعودية بالموانئ وإعدادها إعداداً لائقاً/ن حيث الرصف والإنارة ووضع علامات الإرشاد والنائر اللازمة وإزاحة جميع العراقيل التي قد تؤثر على هذه الوسيلة، كما قام المسؤولون فيها بتشكيل جهاز حرس الحدود وخفر السواحل والموانئ، وذلك للمحافظة على أمن هذه الموانئ وسلامتها، ومن ثم حفظ أمن البلاد التي تقع فيها هذه الموانئ، ومنهج التهريب وارتكاب الجرائم ومطاردة المجرمين والقبض عليهم، والقيام بعمليات الإنقاذ البرية والبحرية.

والاهتمام بوسائل النقل جميعها اهتمام بمن يستخدمها وينتفع بها ويأتي على رأس هؤلاء الحجاج والمعتمرون والزوار، فإذا علموا أن وسائل النقل متوفرة وميسورة آمنة ليس فيها ما يخيف وما يزعج، أقبلوا على أداء المناسك براحة بال وطمأنينة قلب متوجهين بكل مشاعرهم وأحاسيسهم إلى الله سبحانه وتعالى يريدون رحمته ويرجون ثوابه وقد أمنوا في مناسكهم أي من أي خوف أو تنغيص.

وفي الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة ومواقيت الإحرام جندت الدولة عشرات الآلاف لخدمة المسلمين، وتوجههم الوجهة السليمة لكي يؤديوا مناسكهم على الوجه الأكمل، وذلك بتعليمهم بأركان وواجبات الحج والعمرة، وما الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم في تلك

(١٢٥٨) انظر: المظاهر الحديثة في أمن المجتمع السعودي لمحمد إبراهيم السيف ص ١٧٨ وما بعدها.

الأحوال، والإجابة على جميع الاستفتاءات، لكي يؤدي المسلم منسكه وهو مطمئن لصحة عمله.

كما اهتمت الدولة بأمن الحجاج وغيرهم في الحرمين والمشاعر، وجندت من يتابع ذلك بكل عناية واهتمام من أجل المحافظة على كل قادم إلى هذه البقاع وإرشاده إلى وجهته إن ضلها وتفريق الزحام ومتابعة اللصوص والمجرمين - إن وجدوا - وتابعة تحركات وتنقلات الحجاج حتى يكون بأسهل السبل.

أما في مجال الأمن الغذائي بفضل الله أولاً ثم بفضل ما حبا الله به هذه البلاد من خير عميم ورزق واسع وقيادة حكيمة فإن المواد الغذائية بجميع أنواعها وأشكالها متوفرة وبأسعار أقل مما هي عليه في أي بلد آخر لذلك لا يجد قاصدو الحرمين الشريفين أي صعوبة في الحصول على ما تشتهيهِ أنفسهم من أنواع الطعام والشراب الحلال.

كيف لا وقد دعا له إبراهيم عليه السلام كما بين ذلك القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَيْتِي بَوَادِئَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ (١٢٥٩)، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمُتُّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ (١٢٦٠).

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام، فبالرغم من أن مكة ليس فيها زرع ولا إنتاج زراعي إلا أننا نشاهد في أسواقها كل ثمرات الدنيا، وبثمن أقل ممن هو في غيرها.

جاء في التفسير المنير: (ومن نعمه تعالى على العرب التي أمر الله نبيه أن يذكرهما بها دعاء إبراهيم عليه السلام: أن يجعل هذا البلد في أمن وطمانينة، فلا يتسلط عليه الجبارون

(١٢٥٩) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

(١٢٦٠) سورة البقرة: آية ١٢٦.

ولا يعكر صفوه المجرمون الأثمون، ويحميه سبحانه وتعالى من الخسف والزلازل والغرق والهدم، ونحو ذلك من مظاهر سخط الله على بلاد أخرى.

ودعاؤه أن يرزق أهله من أنواع الثمار وأطيبها، ومن خيرات الأرض وبركاتها وأمنها، إما بالرزق بالقرب منه، وإما أن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كل ذلك كما هو مشاهد<sup>(١٢٦١)</sup>.

وجاء في الوسيط عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾<sup>(١٢٦٢)</sup>: (... والعرب تقول: آمن من حَمَام مكة، يضربون المثل بها في الأمن؛ لأنها لات هاج، وقوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾<sup>(١٢٦٣)</sup> يعني: أنواع حمل الأشجار من أي نوع كان، فاستجاب الله دعاء إبراهيم في المسألتين جميعاً - أي الأمن والرزق - فقال في موضع آخر: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِئِ الْهَدْيَى مَعَكَ نَتَّخِطُّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يَجِيءُ إِلَيْهِ نَمُرَّتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾<sup>(١٢٦٤)</sup>/<sup>(١٢٦٥)</sup>.

مأكله ومشربه، بل إن هناك عشرات الأطنان من أنواع المأكولات الشهية والمياه اللذيذة المبردة توزع يومياً في كل المشاعر على الحاج مجاناً وبدون مقابل إلا ابتغاء وجه الله والطمع في ثوابه سبحانه وتعالى، والواقع الشاهد يشهد بذلك، ويشهد به العدو قبل الصديق.

أما ما يتعلق بالأمن الصحي: فإن تجمع الناس في الحرمين الشريفين وخاصة في موسم الحج يمثل عبئاً ضخماً على المملكة العربية السعودية، ولكن الحكومة الرشيدة أيدها الله قادرة بإذن الله تعالى أن تقوم بكل الجهد في المجال الصحي.

<sup>(١٢٦١)</sup> التفسير المنير ٣٠٥/١.

<sup>(١٢٦٢)</sup> سورة البقرة: آية ١٢٦.

<sup>(١٢٦٣)</sup> سورة القصص: آية ٥٧.

<sup>(١٢٦٤)</sup> الوسيط في تفسير القرآن للواحدي ٢١٠/١.

<sup>(١٢٦٥)</sup> الحديث سبق تخريجه ص ٤٦١.

والحرص على صحة ضيوف الرحمن وتمكينهم من أداء فريضتهم؛ ولهذا الجهد أثره الطيب في الحد من خطورة انتشار أي ميكروب بين الحجاج، والاكتشاف المبكر لأي عدوى جرثومية بينهم؛ لأن الحجيج يأتون من مناطق مختلفة في العالم بعضها يتميز بانتشار ميكروب معين، فيجد هذا الميكروب المناخ مناسباً للانتقال لحجيج آخرين قادمين من منطقة أخرى لا يوجد فيها مثل هذا الميكروب مما يجعلهم غير محصنين له.

وهناك عوامل عديدة تلعب دوراً رئيسياً في إحداث أي وباء بين الحجيج تشتمل على السن المتقدم لمعظم الحجيج، والازدحام الشديد بينهم، والتصاق الأجسام أثناء فترة لبس الإحرام، والإرهاق من أثر هذه الرحلة، ومن سرعة الانتقال من مكان إلى آخر في المشاعر، كذلك شدة الحرارة في منطقة مكة والمشاعر المقدسة أثناء الحج ... إلخ.

ومن هناك كانت اليقظة إلى أن موسم الحج قد يكون المناخ المناسب لانتقال الميكروب، وتيقظ العالم لمنع ابتداء حدوث أي وباء بين الحجيج وحمل هذا الوباء مع الحجيج عند عودة كل إلى بلده، وبكل كفاءة واجهت حكومة المملكة العربية السعودية الموقف واضطلعت بمسئوليتها، شاركتها في ذلك منظمة الصحة العالمية.

وباتباع الحجر الصحي اختفت هذه الأمراض المعدية، وأنشأت محطات وقائية في أماكن مختلفة، وبنيت المستشفيات الكبيرة والوحدات الصحية في كل مكان من مشاعر الحج، وألحقت بها جميع سبل الوقاية والاستقبال وحجر التطعيم، ومن هنا كانت الضرورة ملحة لأن يطعم كل حاج ضد الكوليرا لما سببته من وفيات في الحجيج من قبل.

وإلى جانب هذا كله بذلت جهود كبيرة تتمثل في الفحص الطبي لاكتشاف الحالات المعدية، ويقوم فريق طبي بزيارة مجتمعات الحجيج والاطمئنان على التهوية الجديدة لتجديد الهواء، وتقليل العدوى بين الحجيج (١٢٦٦).

---

(١٢٦٦) انظر: الصحة في منطقة مكة المكرمة نظرة شاملة للدكتور محمد مدحت صابر

الشافعي ص ٣٦، ٣٧.

وفي الأعوام الأخيرة تزايد الحجيج فقامت المملكة العربية السعودية بكافة مسؤولياتها نحو توفير كل سبل الوقاية والحماية والعلاج لهم، ويواجه الفريق الطبي خلال فترة الحج إصابات كثيرة ومتنوعة بين الحجيج ناجمة عن حرارة الشمس وكثرة الزحام، فبذلت الدولة كل ما من شأنه أن يمنعها من الانتشار لكي يتمكن كل حاج من أن يؤدي الفريضة في يسر وأمان وسلامة وطمأنينة.

وفي السنوات الأخيرة أثمرت الجهود الطبية عن وضع خطط وسبل الوقاية من الاضطرابات الحرارية، ومن تلك الجهود ما يسمى بمراكز ضربات الشمس (١٢٦٧)، وما جهزت به تلك المراكز من مكونات ومعدات وأجهزة طبية، وكيفية العمل بها، وطرق التبريد منها، والتحاليل المعملية التي تجري بها، وغير ذلك (١٢٦٨).

هذه نبذة عن جهود الدولة السعودية في أمن الحرمين الشريفين وأمن قاصدهما نفسياً وصحياً وغذائياً، وسهولة ويسر التنقلات، وما يتعلق بها من وسائل السلامة.

أما البحث المفصل عن تلك الجهود فإنه يحتاج إلى المجلدات وقد اكتفيت بهذه اللمحة الموجزة، ومن أراد ذلك فليرجع إليه في مظانه.

(١٢٦٧) سميت بضربة الشمس؛ لأن حرارة الجسم المرتفعة تسبب تحطماً في أنسجة الجسم وأهمها المخ. انظر: الصحة في منطقة مكة المكرمة ص ٢٠.  
(١٢٦٨) المرجع السابق ص ٤.



4

# الباب الرابع

**اثبات القرآن الكريم لأمن أوليائه  
في الحياة الدنيا وعد الموت وبعده**



**اثبات القرآن الكريم لامن اولياءه  
في الحياة الدنيا وعند الموت وبعده**



## أثبت القرآن الكريم لأمن أوليائه في الحياة الدنيا وعند الموت وبعده

وفي هذا الباب سأتناول بالحديث أولياء الله وما لهم من أمن في الدنيا والآخرة وقبل الدخول في فصول ومباحث هذا الباب أتكلم عن إثبات البعث والنشور ووجود الجنة والنار، والرد على من أنكر ذلك.

### ١- إثبات البعث والنشور:

المراد بالبعث: إحياء العباد في يوم المعاد، وإخراجهم من قبولهم بأرواحهم وأجسامهم، والنشور مرادف للبعث في المعنى، يقال: نشر الميت نشوراً، إذا عاش بعد الموت وأنشره الله: أحياء.

فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة الخلق وإحياءهم أمر إسرأفيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِيَوْمٍ يُنظَرُونَ﴾ (١٦) (١٢٦٩) (١٢٧٠).

وقد حدثنا المولى عز وجل عن مشهد البعث العجيب الغريب، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَا بُولَاقًا مِّنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) (١٢٧١).

(١٢٦٩) سورة الزمر: آية ٦٨.

(١٢٧٠) اليوم الآخر (القيامة الكبرى) للدكتور عمر الأشقر ص ٥١.

(١٢٧١) سورة يس: الآيات ٥١ - ٥٣.

والإيمان بالبعث بعد الموت جزء من العقيدة وأصل من أصول الدين آمن به الأتباع الصادقون للأنبياء عليهم السلام كما آمن ويؤمن به المؤمنون من هذه الأمة على وجه اليقين، وقد كذب كثير من الناس قديماً وحديثاً بالبعث والنشور، وبعض الذين قالوا بإثباته صوروه على غير الصورة التي أخبرت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وذكر القرآن الكريم قول المكذبين ونمهم وكفرهم وتوعدهم وتهدهم، فقال تعالى:

﴿وَأَن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥١﴾﴾ (١٢٧٢)

وقال: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٥١﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أليس

هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (١٢٧٣).

وقال: ﴿وَقَالُوا إِذًا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا ءِذَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٥٢﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا

﴿٥٣﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِضُونَ إِلَيْكَ

رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٤﴾﴾ (١٢٧٤).

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة (١٢٧٥) والفلاسفة (١٢٧٦) ومنافقي هذه الأمة، فقال: (الذين كفروا من

(١٢٧٢) سورة الرعد: آية ٥.

(١٢٧٣) سورة الأنعام: الآيتان ٢٩، ٣٠.

(١٢٧٤) سورة الإسراء: الآيات ٤٩ - ٥١.

(١٢٧٥) الصابئة: هم قوم دينهم التعبد للروحانيات أي الملائكة، وموذى مذهبهم أن للعالم صناعات فاطراً حكيماً مقدساً، والواجب معرفة العجز عن الوصول إلى جلالة، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين إليه وهم الملائكة، والملائكة يفيضون على الموجودات السفلية، ومنها: مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها وهي היאكلها، ولهذا فهم يعبدون الكواكب، لأن الملائكة تتمثل فيها. انظر: الملل والنحل ٥/٢ ٤٥.

اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة ويزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها.

وأما طوائف الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم يحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط، وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح ولا الأجساد، وقد بين تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك بياناً تاماً غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة (١٢٧٧) الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس (١٢٧٨) والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام.

(١٢٧٦) الفلاسفة: ينسبون إلى الفلسفة، وهي كلمة يونانية مركبة من كلمتين (فيلوس) أي: محب و(سوفيا) أي: الحكمة، فمعناها محب الحكمة، وقد مرّت بمراحل، وأهم آراء الفلاسفة المشهورة: القول بقدّم العالم وإنكار النبوات، وإنكار البعث الجسماني، وأشهر من يسمى بذلك من المسلمين ابن سينا، وابن رشد، والفارابي. انظر: دائرة المعارف لفريد وجدي ٤٠٤/٧ - ٤٨١.

(١٢٧٧) القرامطة: أتباع حمدان قرمط من فوق الباطنية الذين يزعمون أن لكل نص باطناً وظاهراً، وهي تخطط كلام الفلاسفة. انظر: فضائح الباطنية للغزالي ١٢-١٤، الفرق البغدادي ٢/٢٨٧، وتلبيس الجهمية لابن الجوزي ص ١٠٤.

(١٢٧٨) المجوس: هم الذين يقولون بأصلين اثنين مدبرين يقتسمان الخير والشر والنعف والضر، أحدهما النور والآخر الظلمة، وهم قسمان: (أ) - المجوس الأصلية، وهؤلاء زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزلي والظلمة محدثة. (ب) - الثنوية القائلين بالهين أزليين. انظر: الملل والنحل ١/١٣٣ وما بعدها.

وطائفة ممن ضاهوهم من كاتب، أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف<sup>(١٢٧٩)</sup>، وهؤلاء كلهم يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان<sup>(١٢٨٠)</sup>.

وذكر رحمه الله في موضع آخر: (إن باطنية الفلاسفة يفسرون ما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهم ما يقوم بالنفس بعد الموت باللذة والألم لا لإثبات حقائق منفصلة ينعم بها ويتألم بها)<sup>(١٢٨١)</sup>.

وحقيقة قول هؤلاء إن الله لم يكن صادقاً في إخباره عن حقائق ما في المعاد وكذلك رسوله ﷺ، ولذلك سمي شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالفين لما عليه المسلمون في أمر المعاد بـ (أهل التخييل)، وقال فيهم: (فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه، فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخيل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بيّن به الحق ولا هدى الحق، ولا أوضح الحقائق)<sup>(١٢٨٢)</sup>.

---

<sup>(١٢٧٩)</sup> المتصوفة: هم من يدين بالتصوف وهم مذهب يدعى أصحابه أن الغرض منه تصفية القلب من غير الله، والصعود بالروح إلى عالم التقديس بإخلاص العبودية لله، وأصل كلمة التصوف من لبس الصوف، وقيل: نسبة لأهل الصفة، والأقل أرجح، وهم ثلاثة أقسام: (أ) - صوفية وحدة الوجود وهؤلاء كفار بلا شك. (ب) - المتصوفة المنحرفون أصحاب الطرق المبتدعة في العبادات والأفكار مع قيامهم بأصول الإسلام، فهؤلاء مبتدعون ضالون. (ج) - الزهاد من أهل الإسلام من السلف، فهؤلاء يسمون الصوفية خطأ لأنهم سائرون على منهج الإسلام الصحيح. انظر: دائرة معارف القرن العشرين ٥/٥٨٥.

<sup>(١٢٨٠)</sup> مجموعة فتاوى ابن تيمية ٣١٣/٤ بتصرف يسير.

<sup>(١٢٨١)</sup> المرجع السابق.

<sup>(١٢٨٢)</sup> مجموع فتاوى ابن تيمية.

## تصنيف المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أصناف :

**الصنف الأول:** الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية (١٢٨٣) الطبائعية، ومنهم الشيوعيون (١٢٨٤) في عصرنا، وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن خالق، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية، ومنكرون لوجود الخالق أصلاً.

**الصنف الثاني:** الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والنشور، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾ (١٢٨٥)، وهم القائلون فيما حكاها الله عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيَذَا كُنَّا تَرْبَاً وَأَبَاؤُنَا إِنَّا لِلْمُحْرَجِينَ ﴿١٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا مَا كُنَّا وَعَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾﴾ (١٢٨٦).

**الصنف الثالث:** الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية كما بينت ذلك بكلام ابن تيمية.

والإيمان بالمعاد دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والقرآن الكريم كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر، وتفاصيل ما فيه وتقرير ذلك بالأخبار

(١٢٨٣) الدهرية: هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان وكذلك يكون أبداً. المنقذ من الضلال للغزالي ص ٩٤ وما بعدها.

(١٢٨٤) الشيوعيون: مذهب فكري أسسه كارل ماركس وطبقه لينين في روسيا، وتقوم على أفكار وجود الله، وأن المادة أساس كل شيء والإنسان في حياته محتاج إلى عناصر الحياة كالغذاء والكساء والجنس والمسكن، ومن ثم فهو يدعو إلى شيوعية الجنس والمال وإلغاء الوراثة، وقد توسع هذا المذهب على حساب غيره بالحديد والنار، وتضرر منه المسلمون كثيراً، وهناك شعوب محيت بسببه من التاريخ.

انظر: الموسوعة الميسرة ص ٣٠٩ وما بعدها.

(١٢٨٥) سورة لقمان: آية ٢٥.

(١٢٨٦) سورة النمل: الآيتان ٦٧ - ٦٨.

الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد، وكما ذكر القرآن الكريم الأدلة عليه رد على منكريه وبين كذبهم.

والفطرة السليمة تدل عليه وتهدى إليه، ولا صحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفي وقوع البعث والنشور، فإن العقول لا تمنع وقوعه، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه، وإن جاءوا بما يُحيرُ العقول.

وهنا أذكر بعض الأدلة المثبتة للبعث والنشور، وهي:

أولاً: إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة:

أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق تبارك وتعالى بذلك، فمن آمن بالله وصدق برسوله الذي أرسل وكتابه الذي أنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار.

وقد نَوَّع الحق تبارك وتعالى أساليب الإخبار ليكون أوقع في النفوس وأكد في القلوب فتارة يخبرنا بوقوع ذلك إخباراً مؤكداً ب(إِنَّ) أو ب(إِنَّ وَاللَّامِ)، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ (١٢٨٧)، وقوله: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ (١٢٨٨)، وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴿١٢٨٩﴾﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ (١٢٩٠).

(١٢٨٧) سورة طه: آية ١٥.

(١٢٨٨) سورة الحجر: آية ٨٥.

(١٢٨٩) سورة الأنعام: آية ١٣٤.

(١٢٩٠) سورة المرسلات: آية ٧.

وتارة يقسم الله على وقوعه ومجيئه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (١٢٩١)، ويقسم على تحقيق ذلك بما شاء من مخلوقاته: ﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرَّوًا  
﴿١﴾﴾ (١٢٩٢)، ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورِ ﴿٢﴾﴾ (١٢٩٣).

وتارة يأمر الرسول ﷺ بالإقسام على وقوع البعث وتحققه في معرض الرد على  
الكافرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (١٢٩٤).

إلى غير ذلك من الأساليب الكثيرة المتنوعة في كتاب الله.

ثانياً: الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى:

استدل القرآن الكريم على الخلق الثاني بالخلق الأول، ففي كل يوم حياة جديدة تخلق  
أطفال وطيور تخرج من بيضها وحيوانات تلدها أمهاتها وأسماك تملأ البحر والنهر، يرى  
الإنسان ذلك كله بأم عينه ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرة أخرى بعد أن يبدأ الله هذه الحياة.

إن الذين يطلبون دليلاً على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو  
أعظم، فالفقار على خلقهم أول مرة قادر على إعادتهم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ  
يُعِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (١٢٩٥).

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذْ مَا مَاتَ لَسَوْفَ أُنْحَرُجُ حَيًّا ﴿١١﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا  
شَيْئًا ﴿١٧﴾﴾ (١٢٩٦).

(١٢٩١) سورة النساء: آية ٨٧.

(١٢٩٢) سورة الذاريات: آية ١.

(١٢٩٣) سورة الطور: الآيتان ١، ٢.

(١٢٩٤) سورة سبأ: آية ٣.

(١٢٩٥) سورة يس: الآيتان ٧٨، ٧٩.

(١٢٩٦) سورة مريم: الآيتان ٦٦، ٦٧.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدِّدُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ (١٢٩٧).

ثالثاً: القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه:

قبيح عند البشر أن يُرمى بالعجز عن حمل الشيء الحقيقير من يستطيع حمل العظيم، ومثله إذا غلب إنسان رجلاً شديد البأس قوياً لا يقال له: إنك لا تستطيع أن تصرع هذا الهزيل الضعيف، ومن استطاع أن يبني قصرأ لا يعجزه بناء بيت صغير، وهكذا ... والله المثل الأعلى، فإن من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس فكيف يقال للذي خلق السموات والأرض: أنت لا تستطيع أن تخلق ما دونها، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبِائِنَاتِنَا وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَاتًا آءِذَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٣٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ﴿١١﴾ ﴿ (١٢٩٨).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يُقَدِرْ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٢﴾ ﴿ (١٢٩٩).

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿ (١٣٠٠).

(١٢٩٧) سورة الحج: آية ٥.

(١٢٩٨) سورة الإسراء: الآيتان ٩٨، ٩٩.

(١٢٩٩) سورة الأحقاف: آية ٣٣.

قال ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص: (فإن من المعلوم ببداية العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك) (١٣٠١).

وقال شارح الطحاوية: (أخبر الله تعالى أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما، يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى) (١٣٠٢).

رابعاً: قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال:

الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فنائهم في التراب، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي خَلَقْنَا جَدِيدًا ﴾ (١٣٠٣)، والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم، ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول: ضل السمن في الطعام إذا ذاب وانماح فيه.

وقد بين سبحانه وتعالى في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يحيي ويميت، ويخلق، ويفني، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ حَبِّ كَوْسٍ ﴾ (١٣٠٤) فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ ١٦ ﴾ (١٣٠٤)، وبذلك تبطل حجج المنكرين وتسقط، ولا يبقى لهم بعد ذلك حجة (١٣٠٥)، والله الموفق.

(١٣٠٠) سورة غافر: آية ٥٧.

(١٣٠١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩٩/٣.

(١٣٠٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦١.

(١٣٠٣) سورة السجدة: آية ١٠.

(١٣٠٤) سورة الأنعام: الآيتان ٩٥، ٩٦.

(١٣٠٥) انظر: اليوم الآخر (القيامة الكبرى) ص ٦٩ وما بعدها بتصرف واختصار.

## ٢- إثبات الجنة والنار وأنها موجودتان:

قال صاحب الطحاوية: (والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكلّ يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد) (١٣٠٦).

وقال شارح الطحاوية في شرحه لهذا النص: (أمّا قوله: "إن الجنة والنار مخلوقتان" فاتفق أهل السنة (١٣٠٧) على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية (١٣٠٨)، فأكرت ذلك وقالت: بل ينشئها الله يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة الأفعال، ودخل التجهم (١٣٠٩) فيهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث، لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم) (١٣١٠).

(١٣٠٦) شرح الطحاوية ٢/٦١٤.

(١٣٠٧) أهل السنة: هم الفرقة الناجية التي على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه كما ذكر ذلك الرسول ﷺ وهم كما قال الإمام مالك: الذين ليس لهم لقب يعرفون به، لا جهمي، ولا قدري، ولا رافضي... الخ.

انظر: الفرق بين الفرق ص ١٩.

(١٣٠٨) القدرية: هم الذين كانوا يخوضون في القدر وينكرونه، وأول من قال بالقدر على الأرجح هو معبد الجهني، المتوفى سنة ٨٠هـ، وتبعه غيلان الدمشقي المقتول في عهد عبد الملك بن مروان. انظر: شرح مسلم للنووي ١/١٥٠، ١٥١، والفرق بين الفرق ص ٧٠، والانتقاء لابن عبد البر ص ٣٥.

(١٣٠٩) معنى التجهم: السير على مذهب الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، وهم نفاة الصفات عموماً.

انظر: الملل والنحل ١/٨٩.

(١٣١٠) شرح الطحاوية ص ٦١٤، ٦١٥.

ثم ساق الأدلة من الكتاب والسنة التي تدل على أنهما مخلوقتان، فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣١١)، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (١٣١٢)، وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١٣)، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّغْيِينِ ﴿٢٢﴾﴾ (١٣١٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٦﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٧﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾﴾ (١٣١٥).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: "ينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها" (١٣١٦).

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: "وأيم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً وبيكين كثيراً" قالوا: وما رأيتم يا رسول الله؟ قال: "رأيتم الجنة والنار" (١٣١٧).

قال الشيخ حافظ الحكمي (١٣١٨):

(١٣١١) سورة آل عمران: آية ١٣٣.

(١٣١٢) سورة الحديد: آية ٢١.

(١٣١٣) سورة البقرة: آية ٢٤.

(١٣١٤) سورة النبأ: الآيتان ٢١، ٢٢.

(١٣١٥) سورة النجم: الآيات ١٣ - ١٥.

(١٣١٦) مسند الإمام أحمد ٤/٢٨٧، ٢٨٨، وسنن أبي داود (كتاب الجنائز، باب: الجلوس عند

القبر) رقم الحديث (٣٢١٢) ٣/٢١٣ و (كتاب السنة، باب: المسألة في القبر وعذاب

القبر) رقم الحديث (٤٧٥٣) ٤/٢٣٩.

(١٣١٧) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الصلاة، باب: تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود

ونحوهما) رقم الحديث (٩٦٠) ٤/٣٧٠، ومسند الإمام أحمد ٣/١٥٤، وسنن النسائي

(كتاب السهو، باب: النهي عن مبادرة الإمام بالانصراف من الصلاة) ٣/٨٣.

(١٣١٨) هو الشيخ حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، أحد علماء المملكة العربية السعودية

السلفيين، وهو علم من أعلام منطقة الجنوب (تهامة) الذين عاشوا حياتهم في الشطر

الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، ولد في شهر رمضان ١٣٤٢هـ بقريفة السلام

جنوب شرق مدينة جازان حاضرة المنطقة، وإلى جانب علمه كان شاعراً فذاً له

مؤلفات في التوحيد وفي الفقه وأصوله وفي الفرائض والسيرة النبوية وفي الوصايا

والنار والجنة حق وهما موجودتان لا فناء لهما

وقال شارحاً لبيت: (أي ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالجنة والنار والبحث فيه ينحصر في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: كونها حقاً لا ريب فيهما ولا شك، وأن النار دار أعداء الله والجنة دار أوليائه، وهذا هو المشار إليه بقولنا حق، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٠﴾  
﴿١٣١٩﴾، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٣٢٠﴾، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿١٣٢١﴾ الآيات، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿١٣٢٢﴾ ... الخ.

والآيات كثيرة في القرآن الكريم تحدثت عن الجنة والنار كلما يذكر الجنة عطف عليها بذكر النار، وكلما يذكر أهل النار عطف عليهم بذكر أهل الجنة، فتارة وتارة يخبر عما أعد في الجنة من النعيم المقيم لأوليائه، ويخبر عما أُرصد في النار من العذاب الأليم لأعدائه وغير ذلك.

فمن رام استقصاء فليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته بتدبر وقلب شهيد.

والآداب ومصطلح الحديث، توفي سنة ١٣٧٧ هـ. انظر: ترجمته في: مطلع كتابه معارج القبول.

﴿١٣١٩﴾ سورة التحريم: آية ٦.

﴿١٣٢٠﴾ سورة البقرة: آية ٢٤.

﴿١٣٢١﴾ سورة التحريم: آية ٨.

﴿١٣٢٢﴾ سورة البقرة: آية ٢٥.

الأمر الثاني: اعتقاد وجودهما الآن، قال تعالى في الجنة: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٢٣)، ﴿أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (١٣٢٤) ، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢٥)، ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ (١٣٢٦)، وغيرها من الآيات يخبر تعالى أنها معدة قد أوجدت، وأنها مخفية لأولياء الله تعالى مدخرة لهم، وأنها في السماء، وأن النبي ﷺ أتاها ليلة المعراج ورآها.

وقال في النار: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣٢٧)، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١٣٢٨)، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿١٢﴾﴾ (١٣٢٩).

وحديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء» (١٣٣٠).

وما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحدكم فإنه يعرض عليه مقعده بالغدأة والعشي، فإن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار» (١٣٣١).

(١٣٢٣) سورة آل عمران: آية ١٣٣.

(١٣٢٤) سورة الحديد: آية ٢١.

(١٣٢٥) سورة السجدة: آية ١٧.

(١٣٢٦) سورة النجم: الأيتان ١٤، ١٥.

(١٣٢٧) سورة البقرة: آية ٢٤.

(١٣٢٨) سورة الفرقان: آية ١١.

(١٣٢٩) سورة النبأ: آية ٢١، ٢٢.

(١٣٣٠) صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة) رقم

الحديث (٣٠٦٩) ١١٨٤/٣، والترمذي (كتاب صفة جهنم، باب: ما جاء أن أكثر أهل

النار من النساء) رقم الحديث (٢٦٠٢) ٧١٥/٤، وقد روي الحديث أيضاً عن عمران بن

حصين رقم (٢٦٠٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

الأمر الثالث: في دوامهما وبقائهما بإبقاء الله لهما، وأنهما لا تفتيان أبداً ولا يفنى من فيهما، قال الله تعالى في الجنة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣٣٢)، وقال: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (١٣٣٣).

وفي النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿٣١﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٢﴾﴾ (١٣٣٤)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلَا يَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ (١٣٣٥) (١٣٣٦).

### ٣- تعريف الحياة والموت، وبيان حال الناس فيهما:

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تعرف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر.

في تعريف الحياة نقول: (الحياة نقيض الموت، والحي من كل شيء: نقيض الموت، والجمع: أحياء) (١٣٣٧).

(١٣٣١) صحيح البخاري (كتاب الجنائز، باب: الميت يعرض عليه بالغداة والعشي) رقم الحديث (١٣١٣) ٤٦٤/١، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه) رقم الحديث (٧١٤٠) ١٩٧/١٧.

(١٣٣٢) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(١٣٣٣) سورة الحجر: آية ٤٨.

(١٣٣٤) سورة النساء: الآيتان ١٦٨، ١٦٩.

(١٣٣٥) سورة الأحزاب: الآيتان ٦٤، ٦٥.

(١٣٣٦) معارج القبول ٢/١٩٠-١٩٤ بتصرف.

(١٣٣٧) لسان العرب ١/٧٧٤.

وفي تعريف الموت تقول: (الموت خلاف الحياة، والموتان: الأرض التي لم تُحيَ بعد بزرع ولا إصلاح، وكذلك الموت، فأما الموتان بالسكون والضم فالموت، يقال: وقع في الناس موتان) (١٣٣٨).

وأصل الموت في لغة العرب: السكون، وكل ما سكن فقد مات (١٣٣٩).

فتراهم يقولون: ماتت النار موتاً، إذا برد رمادها فلم يبق من الجمر شيء، ومات الحر والبرد، إذا باخ، وماتت الريح، ركبت وسكنت، وماتت الخمر سكن غليها، والموت ما لا روح فيه (١٣٤٠).

وإذا كان السكون أصل الموت في لغتنا، فإن الحركة أصل الحياة، ففي لسان العرب: (الحي كل متكلم ناطق، والحي من النبات ما كان طرياً يهتز) (١٣٤١).

والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ في جسد الجنين في رحم أمه.

والموت (انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار) (١٣٤٢).

وإن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجدها مفعمة بالحديث عن المؤمنين وأمنهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك لما رزقهم الله سبحانه وتعالى به من طمأنينة في النفوس ورضاء تام بقضاء الله وقدره، ويقين من المؤمنين أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال له: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء

(١٣٣٨) معجم مقاييس اللغة ٥/٢٨٣ باب الميم والواو وما يماثلهما.

(١٣٣٩) لسان العرب ٣/٥٤٧.

(١٣٤٠) انظر: لسان العرب ٣/٥٤٧.

(١٣٤١) لسان العرب ١/٧٧٣.

(١٣٤٢) التذكرة للقرطبي ص ٤.

قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (١٣٤٣).

فايمانهم بالله وحفظهم له في الدنيا وحال الرخاء جعلهم يمشون فيها آمنين مطمئنين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ ءُولَئِكَ لَهُمُ ءَلْمَنٌ وَهُمْ مُسْتَدُونَ﴾ (١٣٤٤).

وهم أيضاً آمنون عند الموت وبعده، لأن تصديقهم بالرسول ﷺ وبما جاء به جعلهم موقنين بما وعدهم الله به: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ ءُولَئِكَ فِي ءَلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي ءَآخِرَةٍ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ ءَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِن عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (١٣٤٥).

(١٣٤٣) سبق تخريجه ص ٢٦٦.

(١٣٤٤) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(١٣٤٥) سورة فصلت: الآيتان ٣٠-٣٢.

## الفصل الأول

### الامن في الحياة الدنيا

أعطى الإسلام المؤمنين أمناً وطمأنينة في حياتهم لم تشهد لها الدنيا مثيلاً، وذلك بما غرسه في نفوسهم من إيمان راسخ استقر في قلوبهم وضمائيرهم، إيمان ثابت في فطرهم مثمر بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة، ثبتهم بكلمات القرآن الكريم، وبكلمات الرسول ﷺ وبوعد الله سبحانه وتعالى للحق بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة، وهذا وعد صادق من الله تعالى، لا يتخلف ولا يتفرق به السبل، ولا يمس صاحبه قلق ولا حيرة ولا اضطراب: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (١٣٤٦).

وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى بالنصرة لرسله وللمؤمنين، وفيه غاية الأمن في الدنيا لمن صدق إيمانه ووقر في قلبه، وقد جاء في تفسير هذه الآية: (أي: إنا لنجعل رسلنا هم الغالبين لأعدائهم، القاهرين لهم، وننصر معهم من آمن بهم في الحياة الدنيا إماماً بإعتابهم على من كذبهم كما فعلنا بدادود وسليمان، فأعطيناهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكما فعلنا بمحمد ﷺ بإظهاره على من كذبه من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم، وإنجاء الرسل كما فعلنا بنوح وقومه من إغراقهم وإنجائهم، وكما فعلنا بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكناهم غرقاً ونجيناً موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل، وإما بانتقامنا منهم بعد وفاة رسلنا) (١٣٤٧).

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن من آمن به واتبع طريق الهدى وما جاء به محمد ﷺ فإنه آمن لا يخاف ولا يفرع، قال تعالى: ﴿قُلْنَا آمِطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)، وقال تعالى: ﴿قَالَ آمِطُوا

(١٣٤٦) سورة غافر: آية ٥١.

(١٣٤٧) تفسير المراعي ٨١/٢٤، ٨٢.

(١٣٤٨) سورة البقرة: آية ٣٨.

مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٤٩﴾

جاء في تفسير المحرر الوجيز في تفسير الآية الأولى: (قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما بين أيديهم من الدنيا، ولا هم يحزنون على ما فاتهم منها، ويحتمل أن لا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون فيه، ويحتمل أن يريد أنه يدخلهم الجنة حيث لا خوف ولا حزن) (١٣٥٠).

ويظهر الأمن واضحاً جلياً في حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه، وهو حوار المؤمن الراسخ الإيمان الواثق بوعد الله تعالى له، قال تعالى متحدثاً عن هذا الحوار: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمَهُ قَالَ أَتَأْتِكُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِنْتُ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (١٣٥١).

جاء في التفسير القرآني للقرآن: (وإذ يعرف إبراهيم ربه، ويملاً قلبه من الإيمان به يقف من قومه مسفهاً أحلامهم، زارياً عليهم عبادتهم لهذه الأحجار التي ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها، ويدلون بين يديها ... ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (١٣٥٢).

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمَهُ﴾ أي: جادلوه فيما يقول في شأن آلهتهم، وفي الإله الذي يدعوهم إليه، وهو يريدهم على أن يدعوا هذه الأصنام، ويعبدوا رب السموات والأرض، وهم يريدون على أن يعبد آلهتهم، ويدع الإله الذي يعبده، ويحذرونه أن يتخذ غير هذه المعبودات معبوداً، وإلاً

(١٣٤٩) سورة طه: آية ١٢٣.

(١٣٥٠) المحرر الوجيز لابن عطية ١٩٥/١

(١٣٥١) سورة الأنعام: الآيات ٨٠ - ٨٢.

(١٣٥٢) سورة الصافات: آية ٩٥.

مسه الضر وأصابه السوء، فكان جوابه: ﴿قَالَ أَتَحْتَجِرُنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾؟ إنه قد عرف الحق واستيقنه، فكيف تقوم لهم حجة عنده، تصرفه عن هذا الإله، الذي شهد آياته، وعرف ما عرف من علمه، وقدرته وحكمته... ثم كيف يخاف هذه الأحجار الصماء أن تصيبه بسوء...؟ إنها لا تملك شيئاً، وإن شراً لن يصيبه منها، إلا أن يكون ما يصيبه هو مما أراد الله له، وما أراد الله له فكله خير... وكيف يخاف إبراهيم أحجاراً صماء، على حين أنهم لا يخافون إلهاً خالقاً رازقاً، له ملك السموات والأرض؟ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ويجئ قول الحق جل وعلا بالحكم الفصل في هذه القضية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨١﴾﴾، ولبس الإيمان بالظلم، هو خلطه به... والظلم هو الشرك بالله، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣٥٣﴾﴾، فالإيمان المصفى من الشرك، هو الإيمان الذي يقبله الله من أهله، ويجزيهم عليه الجزاء الأوفى، ويجعلهم في أمن وسلام، يوم يكون الكافر في فرع وكرب وبلاء... (١٣٥٤).

نعم إنه أمن وسلام، وقد ظهر هذا واضحاً جلياً مرئياً بالعين وواقعاً محسوساً حينما كاده قومه وتآمروا عليه وحاولوا إحراقه بالنار فرد الله كيدهم في نحورهم وجعل النار أمناً وسلامة، وبرداً وسلاماً على خليله عليه السلام هو ما ذكره الله تعالى في سورة الأنبياء عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وِلْمًا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (١٣٥٥).

(١٣٥٣) سورة لقمان: آية ١٣.

(١٣٥٤) التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٧/٢٢٦، ٢٢٧.

(١٣٥٥) سورة الأنبياء: الآيات ٦٦ - ٧٠.

فيا لها من آلهة ينصرها عبّادها، وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرراً، ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً، فهم قالوا حرقوه، ولكن كلمة أخرى قد قيلت فأبطلت كل قول، وأحبطت كل كيد، ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٦﴾ فكانت برداً وسلاماً عليه، فالنار لم تحرق إبراهيم عليه السلام، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية، فالذي قال للنار كوني حارقة، هو الذي قال لها: كوني برداً وسلاماً، وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول مألوفاً للبشر أو غير مألوف.

هذا مثال ذكرته أبين فيه انتصار الحق وأمن أهله، وهو أمر محسوس مشاهد أمام العين علينا الإيمان به، وأنه قد كان، لأن صانعه يملك أن يكون، أما كيف صنع بالنار، فإذا هي برد وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار، فذلك ما سكت عنه النص القرآني، لأنه لا سبيل لإدراكه بالعقل البشري المحدود، وليس لنا سوى النص القرآني من دليل (١٣٥٦)، ولكنها عناية الله سبحانه وتعالى وقدرته: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ (١٣٥٧) (١٣٥٨).

والآيات التي تثبت الأمن للمؤمنين في الحياة الدنيا كثيرة بيّنت أن الأمن مرتبط بالإيمان وإصلاح العقيدة واتباع أوامر الله واجتناب نواهيه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً بِأَيْمَانِهَا رِزْقًا رَّعَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ (١٣٥٩).

(١٣٥٦) قلت: وأيضاً سنة النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

(١٣٥٧) سورة يونس: آية ٦٢.

(١٣٥٨) انظر: تفسير الظلال ٢٣٨٧/٤ بتصرف شديد.

(١٣٥٩) سورة النحل: آية ١١٢.

ذكر الله تعالى القرية هنا للعبارة والتأمل لأنها كانت آمنة من العدو، مطمئنة لا يزعجها خوف، ويأتيها رزقها الوافر رغداً أي: هنيئاً سهلاً واسعاً من سائر البلاد فكفر أهلها بنعم الله أي: جحدوا بها فعمهم الله بالجوع والخوف، وبدلوا بأمنهم خوفاً، وبغناهم جوعاً وقرراً، وبسرورهم ألماً وحرزناً، وذاقوا مرارة العيش بعد سعته، بسبب أفعالهم المنكرة.

كما أنه سبحانه وتعالى أخبر أن من أسلم وجهه لله وأحسن فهو آمن: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣٦٠).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْيَالِ وَالْتِهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣٦١).

وعموماً فالالتزام بأوامر هذا الدين الحنيف، واجتناب نواهيه هو طريق الأمن في الدنيا والآخرة، وذلك لأن المؤمن يعلم علم اليقين أن الله قد شرع الشرائع وفي جملتها ما يصون الإنسان ويحميه من أي اعتداء عليه، سواء كان ذلك الاعتداء على دينه أو نفسه أو على نسله أو على عرضه أو على عقله أو على ماله، وهذا ما عرف بحفظ الضرورات الخمس حيث شرع الله لعباده ما تستقيم به أحوال معاشهم ويسعدهم في معادهم بالجزاء الأوفى فحدّ الخُدود لتبعث في النفوس اطمئناناً، يمنع من الجريمة، وواقياً يحمي المجتمعات من تسلط المجرمين، فهي حدود وزواجر، وترغيب وترهيب، منها الوازع الديني، ومراقبة النفوس، ومنها الوازع السلطاني وردع المعتدي بالقوة، كلها أرادها الله لتحديث توازناً في المجتمع ككفتي الميزان، فيعيش المؤمن في دنياه آمناً مطمئناً فهي شريعة الله التي تحدد العدالة وتبين الحق وتردع الظالم، وتعين المظلوم، فالإسلام قد كفل بتعاليمه للمجتمع الراحة والأمان، ولل فرد فيه الهدوء والاستقرار، بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنّ فهم الصفوة الأولى من هذه الأمة للتشريع وما يدل عليه وما اشتمل عليه من أوامر وزواجر مما يتلاءم مع النفس البشرية، وما يردعها، وهو الدين الذي ارتضاه الله جل وعلا لخير أمة أخرجت للناس، لأنه المصلح

(١٣٦٠) سورة البقرة آية ١١٢.

(١٣٦١) سورة البقرة: آية ٢٧٤.

لأحوال البشر والمنظم لمعيشتهم، والمعالج لكل معضلة تعترض مسيرتهم فهو دين الفطرة، وهو دين الحق، الذي لا يقبل سبحانه من البشر سواه، لأن سعادتهم باتباعه، وفلاحهم في تطبيق حدوده، وشقاوتهم في الانصراف عنه واتخاذ القوانين والوضعية لتحكيمها بدلاً منه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ (١٣٦٢).

والجريمة واحدة من المفاصد الاجتماعية التي جاءت تعاليم الإسلام ترسم للناس قادة ومرؤوسين طريقاً ممهداً تحمي به المجتمعات من آفاتهما، ومن تسلط ضعفاء النفوس على الآخرين مستغلين قدرتهم وحيلهم، وغفلة الناس أو ضعفهم أمامهم.

ومنعها من الوقوع فيه أمن للمجتمع تتحقق معه كل أسباب راحة المجتمع ورغد عيشه واكتمال سعادته وقد تحدثت عن الجرائم وكيفية محاربتها، وبينت أن منعها سبب في أمن المجتمعات وطمأنينتها وذلك في الباب الثاني من هذا الكتاب (١٣٦٣)، وأختتم هذا الفصل بحديثين عن النبي ﷺ بين في الأول أن كل ما أصاب المؤمن فهو له خير، وهذا يجعله آمناً، لأنه رضي بما قسم الله له وعلم أن فيه الخير، والثاني بين فيه ﷺ حماية الفرد والمجتمع من الجريمة والاعتداء وأنه لا يحل لأحد أن يعتدي على الآخر، سواء كان ذلك في نفسه أو ماله أو عرضه.

أما الأول: فهو قوله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن» (١٣٦٤).

وأما الثاني: فقد كان في حجة الوداع وهو قوله ﷺ: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا وإن كل من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين» (١٣٦٥).

(١٣٦٢) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(١٣٦٤) سبق تخريجه ص ٥٧.

وهو ﷺ قد جعل بهذا الحديث إضافة إلى القرآن الكريم حماية للفرد من أن يناله سوء أو ينتهك له عرض أو يسلب منه مال، لأن المؤمنين الصادقين يؤمنون بكل ما قاله ﷺ ويطبقونه في حياتهم ويجعلونه دستوراً ونبراساً لهم فهو عليه الصلاة والسلام لم يتوقف إلا بعد أن بين للناس كل أمور دينهم، وما بهمهم وقد أخبر القرآن الكريم بذلك حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١٣٦٦)، فجزاه الله خير ما جرى نبياً عن أمته.

(١٣٦٥) صحيح البخاري (كتاب الحج، باب: الخطبة أيام منى) رقم الحديث (١٦٥٢) ٦١٩/٢،  
والحديث عن ابن عباس رضي الله عنه، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحج،  
باب: حجة النبي ﷺ) رقم الحديث (٢٩١٤) ٤١٢/٨، وابن ماجه (٨٤) (باب: حجة  
رسول الله ﷺ) رقم الحديث (٢٤٩٤) ١٨٧/١.  
(١٣٦٦) سورة المائدة: آية ٣.

## الفصل الثاني

### الأمن عند الموت

تمهيد:

لما كان فراق المحبوب من أعظم الشدائد، وأشد منه نزول المرض بالإنسان، وأقوى من الكل حلول الموت، افتقر الإنسان إلى ما يثبت انزعاجه في تلك الأحوال (١٣٦٧)، وصار في أشد الحاجة إلى أن يمنحه الله الثبات عند الممات، وهذا أمل طالما تمناه السابقون واللاحقون من المؤمنين والمؤمنات.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٣٦٨).

والواقع المشهود أن لحظة الموت لحظة حاسمة في حياة كل إنسان ... في حياة من يعاني سكرات الموت لينتقل من دار أعمل إلى دار شقوة أو رشاد!!، ولحظة قاسية في حياة أهله وذوي قرباه عندما يفرق الموت بينهم وبينه وما أمر الفراق.

إنها لحظة معاناة وضعف يجد فيها الشيطان فرصته الكبرى ليضيف إلى حزبه أتباعاً جديداً - ربما استعصوا عليه، وباعت محاولاته معهم من قبل بالفشل - ولكنه لا يفقد الأمل فيضاعف نشاطه ويرابط هنا محاولاً أن يفقد المريض صبره في حالة يأس، ويفقد أهله صوابهم في حالة سخط واعتراض، وكثير أولئك الذين يفقدون صوابهم وصبرهم وربما فاتهم أن يتأسوا برسول الله ﷺ عندما مات ابنه إبراهيم فقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا» (١٣٦٩).

(١٣٦٧) الثبات عند الممات لابن الجوزي ص ٢١ بتصرف.

(١٣٦٨) سورة إبراهيم: آية ٢٧.

(١٣٦٩) صحيح البخاري (كتاب الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: "إنا بك لمحزونون") رقم الحديث

(١٢٤١) ٤٣٩/١، والحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصحيح مسلم بشرح

وبهذا التأسى يفسد على الشيطان أفاعيه وخططه، ويتبصر المؤمنون والمؤمنات بما ينبغي أن يفعلوه، وما يحسن أن يقولوه، وكيف يتصرفون عند الموت، حتى يأمنوا وساوس الشيطان ويفوزوا برضا الرحمن.

نسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

أولاً

## التثبيت وحسن الخاتمة

الموت هو واقع لا مناص منه لكل حي من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٣٧٠)، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٦﴾ وَسَبَقَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (١٣٧١)، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَنْ دُحِّخَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ مُّثَوِّرٍ﴾ (١٣٧٢).

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (١٣٧٣)، وقد وصى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ وسلاله بأن الموت سنته في خلقه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّهِ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مِثَّ فَهْمٍ الْحَالِدُونَ﴾ (١٣٧٤).

النووي (كتاب الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك) رقم

الحديث (٥٩٧٩) ٧٥/١٥.

(١٣٧٠) سورة القصص: آية ٨٨.

(١٣٧١) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٣٧٢) سورة آل عمران: آية ١٨٥.

(١٣٧٣) سورة الزمر: آية ٣٠.

(١٣٧٤) سورة الأنبياء: آية ٣٤.

والموت حق على الإنس والجن ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون» (١٣٧٥).

وللموت موعد محتوم، ووقت يأتي فيه، فلا يستطيع أحد أن يتجاوز الأجل الذي ضربه الله له، وقد قدر الله آجال العباد، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ وكتبته الملائكة الكرام والمرء في بطن أمه فلا يتأخر عما كتب له ولا يتقدم، وكل إنسان مات أو قتل أو غرق أو سقط من طائرة أو سيارة أو احتراق أو غير ذلك من الأسباب، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله وأمضاه.

وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، منها: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَّلاً﴾ (١٣٧٦)، وقال تعالى:

﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ (١٣٧٧)، وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ (١٣٧٨).

ولا علم للعباد بالوقت الذي يحضر فيه الموت، وينزل بهم، فإن علم ذلك لله وحده، وهو واحد من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا

(١٣٧٥) صحيح البخاري (كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

رقم الحديث (٦٩٤٨) ٦/٢٦٨٨٨.

(١٣٧٦) سورة آل عمران: آية ١٤٥.

(١٣٧٧) سورة النساء: آية ٧٨.

(١٣٧٨) سورة الأعراف: آية ٣٤.

يَعْلَمَهَا إِلَّا هُوَ ﴿١٣٧٩﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ (١٣٨٠).

ولما كان الأمر كذلك، فإن الواجب على العبد أن يخلص في إيمانه، وأن يستقيم على الطريق الصحيح الوارد عن النبي ﷺ لعل الله أن يثبته عند موته، ويحسن خاتمته، إذ أن الأعمال بالخواتيم، قال ﷺ: «إن أحكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا قدر ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا قدر ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (١٣٨١).

والله سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين الصادقين بالثبات عند الممات وبعده، فقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٧﴾﴾ (١٣٨٢).

جاء في تفسير جامع البيان لهذه الآية: (يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يحقق الله أعمالهم وإيمانهم بالقول الثابت، يقول بالقول الحق وهو فيما قيل شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وأما قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيه، فقال بعضهم: عني بذلك أن الله يثبتهم في قبورهم قبل قيام الساعة، وقد روي بسنده عن البراء بن عازب في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: "النتيبت في الحياة الدنيا إذا أتاه

(١٣٧٩) سورة الأنعام: آية ٥٩.

(١٣٨٠) سورة لقمان: آية ٣٤.

(١٣٨١) صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة) رقم الحديث (٣٠٣٦)

١١٧٥/٣، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن

أمه وكتابه رزقه وأجله وشقاوته وسعادته) رقم الحديث (٦٦٦٥) ١٦/٤٠٧.

(١٣٨٢) سورة إبراهيم: آية ٢٧.

الملكان في القبر، فقالا: من ربك؟، فقال: ربي الله، فقالا له: ما دينك؟، فقال: ديني الإسلام، فقالا له: من نبيك؟، قال: نبيي محمد ﷺ فذلك التثبيت في الحياة الدنيا" (١٣٨٣).

وقال آخرون: معنى ذلك يثبت الله الذين آمنوا بالإيمان في الحياة الدنيا وهو القول الثابت، وفي الآخرة، المسألة في القبر.

والصواب من القول في ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك وهو أن معناه: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ وفي الآخرة بمثل ما ثبتهم في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ (١٣٨٤). وذلك كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وجاء في فتح القدير في تفسير الآية نفسها: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أنهم يستمرون على القول الثابت في الحياة الدنيا، قال جماعة: المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية القبر، لأن الموتى في الدنيا حتى يبعثوا ومعنى في الآخرة وقت الحساب (... (١٣٨٥).

وجاء في تفسير القرآن العظيم: (... عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: "إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا في جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره" (١٣٨٦) (١٣٨٧).

(١٣٨٣) سبق تخريجه ص ٥٣٣.

(١٣٨٤) انظر: تفسير الطبري ١٣/١٤٢ - ١٤٥ بتصرف شديد.

(١٣٨٥) فتح القدير للشوكاني ٣/١٠٧.

(١٣٨٦) لعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ هذا من الأحاديث الواردة في هذا المعنى، والتي قد ذكرتها وخرجتها في هذا الباب.

(١٣٨٧) تفسير القرآن العظيم لان كثير ٢/٥٣٥.

وجاء في أيسر التفاسير: ﴿يُنِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِأَقْوَالِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةِ﴾ هذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين الصادقين بأن يثبتهم على الإيمان مهما كانت الفتن والمحن حتى يموتوا على الإيمان (١٣٨٨).

يتضح مما سبق من أقوال المفسرين أن المؤمن موعود من الله سبحانه وتعالى بأن يثبتته على الحق في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والحياة الدنيا تشمل أيام الحياة في الدنيا وكذلك حال الاحتضار، ويدخل فيها سؤال القبر، كما قال ذلك المفسرون، فانه تبارك وتعالى ييسر لهم الأقوال الإلهية على وجهها وإدراك دلائلها حتى اطمأنت إليها قلوبهم، ولم يخامرهم فيها شك فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين وعاملين بها غير مترددين، لأنهم صدقوا وأيقنوا بوعد الله لهم فأكسبهم ذلك أمناً لا ينغصه خوف وطمأنينة لا يكدرها شك، ومن أصدق من الله قليلاً من أصدق من الله حديثاً، وقد ظهر وعد الله بالثبوت للمؤمنين واضحاً جلياً ومرتبياً فحفظ أوليائه من الفتن في دينهم بالرغم من التعذيب كما حصل لبلال رضي الله عنه وغيره من الصحابة، ثبتهم في الدنيا فلم يزلوا كما ثبت الذين الذين فتتهم أصحاب الأعداء (١٣٨٩)، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد.

وقد ورد التثبيت عند الاحتضار، وأن ملك الموت يبشر المؤمن بالمغفرة من الله

والرضوان، وورد صريحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَقَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ

عَلَيْهِمُ الْمَلَكِ كَءَأَلَّخَفَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(١٣٨٨) أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر الجزائري ٤٨٠/٢.

(١٣٨٩) أصحاب الأعداء: موطنهم في نجران، وخلاصة قصتهم أن ملكهم خذ أخذوا وملاؤه

بالحطب وأشعل فيه النار، يقذف فيه من آمن بالله، ومن رجع عن ذلك ودان دين الملك لا يقذف فيه، ومن قذف امرأة كانت تحمل صبياً، فلما أحست بلفح النار ترددت، فقال لها الصبي: لا تترددي يا أمه، فإنك على الحق، وقد وردت قصتهم بروايات متعددة. انظر: تفسير الطبري ٨٦/٣٠ وما بعدها، ومعجم البلدان ٣١٠/٥.

انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الزهد، باب: قصة أصحاب الأعداء والساحر

والراهب والغلام) رقم الحديث (٧٤٣٦) ٣٣٠/١٨.

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ (١٣٩٠).

وهذا التنزل كما قالت طائفة من أئمة التفسير يكون حالة الاحتضار، ولا شك أن الإنسان يكون في موقف صعب وشاق، يخاف فيه من المستقبل الآتي، كما يخاف على من خلف بعده، فتأتي الملائكة لتؤمّنه مما يخاف ويحزن، وتطمئن قلبه وتقول له: لا تخف من المستقبل الآتي في البرزخ والآخرة، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دين، وتبشره بالبشرى العظيمة: ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وما دام العبد قد تولى الله وحده، فإن الله يتولاه وخاصة في المواقف الصعبة، ومن أسقها هذا الموقف (١٣٩١).

قال الإمام السدي في تفسير هذه الآية: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ تموا على ذلك، وقوله: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت، وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، لا تخافون ما أمامكم، ولا تحزنوا على ما بعدكم، وقوله: ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة (١٣٩٢).

جاء في تفسير القرآن العظيم: (وقوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياؤكم أي: قرناؤكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث والنشور ونجاوزكم الصراط المستقيم نوصلكم إلى جنات النعيم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من

(١٣٩١) سورة فصلت: الآيات ٣٠ - ٣٢.

(١٣٩١) اليوم الآخر (١) القيامة الصغرى للدكتور عمر الأشقر ص ٢١، ٢٢ بتصرف.

(١٣٩٢) تفسير الإمام السدي الكبير ص ٤٢٨.

جميع ما تختارون مما تشتهيهِ النفوس وتقر به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم رحيم بكم، رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف) (١٣٩٣).

وينبغي للإنسان إذا أحس بالموت أن يلهج بـ (لا إله إلا الله) ويوصي من يلقنه إياها، إذا غفل عنها ليكون آخر كلامه: (لا إله إلا الله). عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لقنوا موتاكم بـ لا إله إلا الله» (١٣٩٤).

وقال ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله، دخل الجنة» (١٣٩٥)، اللهم اجعل آخر كلامنا في الدنيا: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله).

## ثانياً

### راحة الموت وخفة سكراته

تعريف السكرة: ﴿وَجَاءَت سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَمَيِّدًا﴾ (١٨) (١٣٩٦).

جاء في مختار الصحاح تحت مادة "س ك ر": ("السكران" ضد الصاحي والجمع "سكرى" و "سكارى" بفتح السين وضمها، والمرأة "سكرى" ولغة في بني أسد "سكرانة").

(١٣٩٣) تفسير القرآن العظيم ٩٩/٤.

(١٣٩٤) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنائز، باب: تلقين الموتى: لا إله إلا الله) رقم الحديث (٢١٢٠) ٤٥٨/٦، وسنن أبي داود (كتاب الجنائز، باب: في التلقين) رقم الحديث (٣١١٧) ١٩٠/٣.

(١٣٩٥) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً) رقم الحديث (١٣٥) ١٦٦/١، والحديث مروى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وسنن أبي داود (كتاب الجنائز، باب: في التلقين) رقم الحديث (٣١١٦) ١٩٠/٣ عن معاذ رضي الله عنه، ورواه الإمام أحمد في المسند ٦٥/١.

(١٣٩٦) سورة ق: آية ١٩.

و"سكر" من باب طَرِبَ، والاسم: السكر بالضم، و"أسكره" الشراب ... و "سكره"  
الموت شدته) (١٣٩٧).

جاء في كتاب المفردات: (السكر حالة تعرض بين المرء وعقله وأكثر ما يستعمل ذلك  
في الشراب، وقد يعترى من الغضب والعشق ...، ومنه: سكرات الموت، قال تعالى:  
﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾).

والسُّكْرُ: اسم لما يكون منه السُّكْرُ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتِّخِذُونَ مِنْهُ  
سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (١٣٩٨)/(١٣٩٩).

إن للموت سكرات يلاقيها كل إنسان حين الاحتضار وسكرات الموت - كما بينت -  
كرباته وغمراته وشدته، ولن ينجو منها أحد لكنها تكون خفيفة ومريحة للمؤمن، ولو نجا منها  
أحد لنجا منها رسول الله ﷺ، فلقد عانى منها عليه الصلاة والسلام، ففي مرض موته كان بين  
يديه ركوة - أو علبه - فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله  
إلا الله، إن للموت لسكرات»، ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض  
ومالت يده.

نقول عائشة رضي الله عنها في مرض رسول الله ﷺ: "ما رأيت أحداً أشد عليه الوجع  
من رسول الله ﷺ" (١٤٠٠).

وقد دخلت عائشة رضي الله عنها على أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته، فلما  
تقل عليه تمثلت بقول الشاعر:

(١٣٩٧) انظر مختار الصحاح ص ٣٠٦ بتصرف.

(١٣٩٨) سورة النحل: آية ٦٧.

(١٣٩٩) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢٣٦ بتصرف.

(١٤٠٠) صحيح البخاري عن عائشة في (كتاب الرقائق، باب: سكرات الموت) رقم الحديث

(٦٥١٠) فتح الباري ١١/٣٦١. قال أبو عبد الله: العلبه من الخشب، الركوة من الأدم.

نفس المرجع ونفس الصفحة.

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر (١٤٠١)

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليس كذلك ولكن قسولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٤٠٢) (١٤٠٣).

ولا شك أن الكافر والفاجر يعانيان من الموت أكثر مما يعاني منه المؤمن، ولكي يتبين حال المؤمن أثناء سكرات الموت، وأنه مخفف عنه تلك السكرات فإنه ذكر حديث البراء بن عازب رضي الله عنه هو صميم الموضوع حيث يقول رضي الله عنه: "خرجنا مع الرسول ﷺ جلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه، فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً»، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة، نزل إليه الملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملامن

(١٤٠١) صحيح البخاري (كتاب المرضى، باب: شدة المرضى) رقم الحديث (٥٣٢٢) ٢١٣٨/٥، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها) رقم الحديث (٦٥٠٢) ٣٤٢/١٦.

(١٤٠٢) ورد البيت لحاتم الطائي في ديوانه ص ١١٨ على هذه الصورة:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفس وضاق به الصدر

وورد في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ٥٥، والشعر والشعراء ص ١٢٧، ونهاية الأرب ٦٤/٣، وأنوار الربيع ٧٠/٢، ١٩٣/٥، والطبقات الكبرى لابن سعد ١٩٧/٣ على هذه الصورة:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق به الصدر

(١٤٠٣) سورة ق: آية ١٩.

الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجتهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان يجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هورسول الله ﷺ، فيقولون له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويقسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الذي يجيئ بالخير؟ فقول: أنا عمك الصالح، فيقول: ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي» (١٤٠٤).

ثم ذكر تكملة هذا الحديث: إن كان العبد كافراً، وسيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

جاء في كتاب المنهج القويم كلاماً عقب به صاحبه على هذا الحديث فقال: (إنه لجدير بجميع المسلمين والمسلمات أن يتعلموا هذا الحديث الجليل ويتأملوا ما دلّ عليه من مشهد الخير والفضل والإحسان لمن كان من أهل الخير والفضل والإحسان وما دلّ عليه أيضاً من مشهد التوبيخ والتكليل والتعذيب لأهل الكفر والفسوق والعصيان جزاءً وفاقاً، وذلك مقتضى حكمة الملك الديان، وحقاً إن من استحضر ذلك المشهد في كل وقت وحين، وكان من العقلاء الصالحين فإنه سيعد للسؤال جواباً، وسيحسب لتلك الفتنة الرهيبة حساباً، طالباً من ربه الهداية والتوفيق والثبات في هذه الدنيا وبعد الممات).

(١٤٠٤) سبق تخريج الحديث ص ٥٣٣.

وهكذا بين الحديث راحة الموت وخفة سكراته حيث إن نفس المؤمن تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَطْنَاكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ (١٤٠٥).

تبين هذه الآيات حالة الاحتضار ووصول الروح أو النفس إلى الحلقوم، وحال أهل وأصحاب المحتضر وعجزهم عن إعادة هذه الروح إلى الجسد، ثم ذكر سبحانه أقسام الناس حال الاحتضار وحال سكرات الموت، وأن منهم من تسهل عليه تلك الحال وتهون وذلك برحمة الله ثم بأعماله الصالحة، ومنهم من يكون على خلاف ذلك.

جاء في التفسير المنير عند شرحه لهذه الآيات: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: فهلا إذا وصلت الروح أو النفس الحلق حين الاحتضار وأنتم ترون المحتضر قد قارب فراق الحياة، تنظرون إليه وما يكابده من سكرات الموت، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ولا ترون ملائكة الموت الذين يتولون قبضه.

ثم أكد الله تعالى الحث والتحضيض، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: فهلاً إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين ولا مبعوثين، تمنعون موته، وترجعون الروح التي قد بلغت الحلقوم إلى مقرها الذي كانت فيه، إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم لن تبعثوا وأنكم غير مربوبين ولا مملوكين للخالق.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ ﴿٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٨﴾ وَالَّذِي أَسَاءُ بِالسَّائِي ﴿٩﴾﴾ (١٤٠٦).

(١٤٠٥) المنهج القويم في التأسى بالرسول الكريم ﷺ، تأليف الشيخ زيد محمد هادي مدخلي ص ١٠٤.

(١٤٠٦) سورة الواقعة : الآيات ٨٣ - ٩١.

ثم بين الله تعالى مصائر هؤلاء الناس عند احتضارهم، وبعد وفاته، وجعلهم أقساماً ثلاثة:

١- ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: إن كان المحتضر أو المتوفي من فئة السابقين المقربين، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وبعض المباحات، وهم الصنف الأول في مطلع السورة، فلهم راحة، واستراحة وطمأنينة من أحوال الدنيا ورزق واسع ونعيم في الجنة، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، والروح الاستراحة، وهو يعم الروح والبدن، والريحان: الرزق، وهو للبدن، وجنة النعيم للروح، يتنعم ببقاء الملك المقدر، فاللهم اجعلنا من هؤلاء يا ذا الجلال والإكرام.

٢- ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلْوَا رَبَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي: وأما إن كان المحتضر أو المتوفي من أهل اليمين، وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم فتبشرهم الملائكة بذلك، وتقول لهم: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، لا بأس عليك أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وذلك لأنك ستكون معهم فيستقبلونك بالسلام.

وذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿مَنْ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُمْ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾﴾ ﴿لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لَفُتِنَتِ كُلُّ نَفْسٍ بِالَّذِي أَمْتَلَتْ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿١٤٠٧﴾ (١٤٠٨).

٣- أما الصنف الثالث وهم الذين كانوا من المكذبين الضالين فسيأتي الحديث عنهم في موطنهم إن شاء الله.

وأختتم الحديث بتأكيد الله وقسمه بأن من الملائكة من يسلم روح المؤمنين برأفة ولين، وعكسه الكافر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالنَّارُ عَرَّتْ رِعْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ ﴿١٤٠٩﴾، ففي هاتين الآيتين أقسم الله سبحانه وتعالى بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم بشدة وعنف وإغراق في النزاع

(١٤٠٧) سورة القيامة: الآيات ٢٦ - ٣٠.

(١٤٠٨) سورة فصلت: الآيات ٣٠ - ٣٢.

(١٤٠٩) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ٢٧/٢٨١، ٢٨٢ بتصرف.

حيث تنزعها من أقاصي الأجساد، وتخرج أرواح المؤمنين بسرعة ولطف وسهولة (١٤١٠)، ختم الله لنا بالحنى.

## ثالثاً

### تبشير المؤمن عند الموت بما أعد له من الجنة والرضوان

تحدثت في سابقاً عن حالة الاحتضار وسكرات الموت، وأن الله يلف في تلك الحال بعباده المؤمنين فيخفف عنهم تلك السكرات، فتخرج أرواحهم من أجسادهم بسهولة ولين، وفي تلك اللحظات الحرجة على الإنسان تطيب روح المؤمن بما يجده من البشارة بالنعيم الدائم الذي لا ينقطع عن طريق الملائكة التي تأتي إليه مع ملك الموت، وما يقومون به بأمر ربهم من تكريم لهذه النفس حتى إنه من شدة سعادته يتمنى قيام الساعة ليراه أهله وهو على هذا الحال ويتمتع بهذه النعم.

فإذا جاءت الملائكة هذا العبد بالبشرى من الله ظهر عليه الفرح والسرور، ومن ثم فإنه يشفق في حال احتضاره إلى لقاء الله تعالى، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة أو بعض أزواجه: إننا لنكره الموت، قال: «ليس كذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله فكره الله لقاءه» (١٤١١).

وقد ورد في كتاب الله الكريم من الآيات ما يثبت تلك البشارة للمؤمن بالجنات والنعيم والرضوان، والجنات هي الجزاء الذي أعد الله لأوليائه وأهل طاعته وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص ولا يعكر صفوه كدر، وما بلغنا من الله ورسوله ﷺ عن الجنة يحير العقل ويذهله

(١٤١٠) سورة النازعات: الآيتان ١، ٢.

(١٤١١) التفسير المنير ٣٠/٣٤.

ولا يستطيع العقل إدراكه واستعبابه وسميت بذلك لكثرة أشجارها، ولأنها تجن الناس: أي تسترهم (١٤١٢).

وأكتفي بذكر نصين من الآيات التي بشرت المؤمنين عند موتهم وحال الاحتضار. النص الأول قوله تعالى: ﴿الْآيَاتِ أَنْزِلْنَا اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقُوَىٰ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ (١٤١٣).

أي: لهم البشرى من ربهم في كتابه برضوانه ودخول الجنة، ولهم البشرى بذلك عند الاحتضار تبشرهم الملائكة برضوان الله وحنته وفي الآخرة عند قيامهم من قبورهم تتلقاهم الملائكة بالبشرى وقد ورد في البشرى في الدنيا ثلاثة أقوال:

أحداها: أنها الرؤية الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له.

الثاني: أنها بشارة الملائكة لهم عند الموت.

الثالث: أنها ما بشر الله به في كتابه من جنته وثوابه، كقوله: ﴿وَيَبِّئُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (١٤١٤)، ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ (١٤١٥)، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ (١٤١٦).

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بقوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (١٤١٧) أي: لا خلف لمواعيده، وذلك أن مواعيده بكلماته، فإذا لم تبدل الكلمات لم تبدل المواعيد.

(١٤١٢) انظر فتح القدير ٥٤/١ بتصريف. وانظر: منشور (من عجائب الجنة والنار) إعداد:

عدلي عبد الرؤوف الغزالي ص ٤.

(١٤١٣) سورة يونس: الآيات ٦٢ - ٦٤.

(١٤١٤) سورة البقرة: آية ٢٥.

(١٤١٥) سورة فصلت: آية ٣٠.

(١٤١٦) سورة التوبة: آية ٢١.

(١٤١٧) سورة يونس: آية ٦٤.

أما بشرهم في الآخرة ففيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الجنة.

الثاني: أنه عند خروج الروح تبشر برضوان الله.

الثالث: أنها عند الخروج من القبور (١٤١٨).

قال صاحب جامع البيان في هذا: (وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: أن الله تعالى ذكره أخبر أن لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا ومن البشارة في الحياة الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له، ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه تقول لنفسه: اخرجني إلى رحمة الله ورضوانه، ومنها بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَبِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (١٤١٩)، وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا يبشره بها ولم يخص الله تعالى من ذلك معنى دون معنى فذلك مما عمه جل ثناؤه أن لهم البشرى في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فالجنة (١٤٢٠).

وهذه المنة من الله تعالى على عباده المؤمنين وأوليائه الصالحين.

جاء في التفسير القرآني للقرآن: ﴿لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْمَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٤٢١)، بيان لتلك المنن العظيمة التي امتن الله بها

(١٤١٨) هذه الأقوال في البشرى في الحياة الدنيا والآخرة مستفاد من: التكت والعيون للماوردي ٤٤٤١/٢، ٤٤٤٢، المحرر الوجيز ٦٢/٩، ٦٣، وزاد المسير ٤٤/٤، ٤٥، والدر المنثور ٣/٣١١، ٣١٣.

(١٤١٩) سورة البقرة: آية ٢٥.

(١٤٢٠) جامع البيان للطبري ٩٦/١١.

(١٤٢١) سورة يونس: آية ٦٤.

على أوليائه- جعلنا الله منهم- فجعل البشريات المسعدة برضا الله ورضوانه تنتزل عليهم بما يكشف لهم منازلهم عند الله، وما سيلقونه في نعيم جناته من كرامة وتكريم.

والبشريات التي يبشر بها أولياء الله في الدنيا، كثيرة، منها: ذكرهم في الناس بالكلمة الطيبة يقال فيهم، لحسن سيرتهم، واستقامة طريقهم، وحفظ جوارحهم من المحارم والمظالم، إذ لا شك أن رضا الناس عن إنسان، وحسن ظنهم به، هو دليل على أنه من أهل الخير والتوفيق ... وأنه على طريق الاستقامة والتقوى ... ومنها: ما يملأ الله به قلوبهم من رضاً وسكنية، في السراء والضراء على السواء، بل إن كثيراً منهم ليجد فيما يبئليه الله من ضر هو أمانة عنده لله، وأن أداء هذه الأمانة لله هو الصبر عليها، والرضا بها، وأن الضجر بالبلاء والجزع هو خيانة لتلك الأمانة (...).

إلى أن قال: (ومن البشريات التي يبشر بها أولياء الله في الدنيا، أنهم حين يشرفون على الموت لا يجدون له ما يجده غيرهم من كرب وجزع، بل يستقبلونه في غبطة ورضا، وذلك لما يرون في ساعة الاحتضار مما لهم عند الله من فضل وإحسان ... ، وهذا ما يشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾﴾ (١٤٢٢).

وأما بشريات أولياء الله في الآخرة فكثيرة، تبدأ من مغادرتهم هذه الدنيا إلى يوم القيامة وما بعد القيامة، وهم في روضات الجنان يحبرون.

ففي كل مرحلة من مراحل هذه الرحلة المسعدة، تطلع عليهم البشريات التي تزفهم إلى الجنة كما تزق العروس في موكب من الفرح والبهجة، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشَرِّكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمَطْمَئِنِّ ﴿١٢﴾ ﴿١٤٢٣﴾ (١٤٢٤).

النص الثاني: قوله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٧﴾ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿١٨﴾

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿١٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٢٠﴾ ﴿١٤٢٥﴾.

جاء في جامع البيان في تفسيره لهذه الآيات: (يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل الملائكة لأولياءه يوم القيامة: يا أيها النفس المطمئنة يعني بالطمئنة التي اطمأنت إلى وعد الله الذي وعد أهل الإيمان به في الدنيا من الكرامة في الآخرة فصدقت بذلك وقد اختلف أهل التأويل في ذلك) (١٤٢٦).

ثم ذكر اختلافهم فقال: فقال بعضهم: يا أيها النفس التي أيقنت بالله ربها وضربت لأمره جأشاً.

وقال بعضهم: ارجعي إلى ربك راضية مرضية، قال: هذا عند الموت، فادخلي في عبادي، قال: هذا يوم القيامة.

وقيل: هذا خبر من الله جل ثناؤه عن قيل الملائكة لنفس المؤمن عند البعث تأمرها أن ترجع في جسد صاحبها إلى غير ما ذكر (١٤٢٧).

وجاء في التفسير المنير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٧﴾

أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿١٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿١٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٢٠﴾ أي: يقول: للمؤمن بذاته، أو

(١٤٢٣) سورة الحديد: آية ١٢.

(١٤٢٤) التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ١١/١٠٤١، ١٠٤٢.

(١٤٢٥) سورة الفجر: الآيات ٢٧ - ٣٠.

(١٤٢٦) انظر: تفسير الطبري ٣/١٢١.

(١٤٢٧) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٢٢١، ٢٢٢ بتصرف.

(١٤٢٨) سورة الفجر: الآيات ٢٧ - ٣٠.

على لسان ملك: يا أيها النفس الموقنة بالإيمان والحق وتوحيد الله، التي لا يخالجه شك في صدق عقيدتها، وقد رضيت بقضاء الله وقدره، وقد وقفت عند حدود الشرع فتجئ يوم القيامة مطمئنة بذكر الله ثابتة لا تتزعزع، آمنة مؤمنة غير خائفة أرجعي إلى ثواب ربك الذي أعطاك وإلى محل كرامته الذي منحك إياه، راضية بهذا الثواب عما عملت في الدنيا، وبما حكم الله، ومرضية عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَبِيَ ربهٗ﴾ (١٤٢٩) ، وهذه صفة أرباب النفوس الكاملة.

فادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وكوني في جملتهم وادخلي معهم جنتي فتلك هي الكرامة لا كرامة سواها، جعلنا الله من أهلها ... إلى أن قال: (ارجعي إلى رضوان ربك وجنته راضية بما أعطاك الله من النعم مرضية عند الله بما قدمت من عمل، وهذا الخطاب والنداء يكون عند الموت أو الاحتضار، كما ذكر المفسرون) (١٤٣٠).

وهذا النداء الكريم، الذي يدعو به الله سبحانه وتعالى أهل وده من وسط هذا البلاء الخائق المحيط بالناس يوم القيامة هو قارب النجاة الذي يخف مسرعاً إلى تلك السفينة الغارقة في هذا البحر اللحي، فيحمل هؤلاء الذين أكرمهم الله بفضله وإحسانه، فنجاهم من شر هذا اليوم، ولقاهم نضرة وسروراً ... إن هذا النداء الذي يجئ على سرعة وسط هذا البلاء لهو أوقع أثراً وأبلغ في إدخال المسرة على النفس، من أن يجئ مسبقاً بمقدمات تشير إليه وتبشر به.

والنفس المطمئنة، هي النفس المؤمنة التي لا يتبد بها القلق في أي حال من أحوالها في السراء أو الضراء، إنها في حال واحدة أبداً من الرضا بما قسم الله لها... فهي في السراء شاكرة حامدة، وفي الضراء صابرة راضية فلا الغني يطغىها، ويخرج بها عن طريق الاستقامة، ولا الفقر يسخطها ويعدل بها عن الاطمئنان إلى قضاء الله فيها وحكمه عليها... إنها نفس مطمئنة ثابتة، على حال واحدة في إيمانها بالله، ورضاها بما قسم لها ... هذا

(١٤٢٩) سورة البينة: آية ٨.

(١٤٣٠) انظر: التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ٣٠/٢٣٩، ٢٤٠ بتصرف واختصار.

الاطمئنان وذلك الرضا، لا يجدهما إلا المؤمنون بالله، المتوكلون عليه، المفوضون أمورهم إليه ... والاطمئنان الذي تصيبه بعض النفوس، ويكون صفة غالبية عليها هو ثمرة الإيمان الوثيق بالله، القائم على أصول ثابتة من المعرفة بالله سبحانه وتعالى، وما له جل شأنه من سلطان مطلق متمكن، قائم على كل ذرة في هذا الوجود، وأنه لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بتقديره سبحانه، وبمقتضى حكمته، وعلمه وعدله.

وقد نوذي الإنسان هنا بنفسه ولم ينادى بذاته، لأن النفس هي جوهره السماوي وهي التي كانت موطن الإيمان والاطمئنان ... ، وهي لهذا استحققت أن ترجع إلى ربها، وأن تنزل منازل رضوانه، إذ لم تفرق في تراب الأرض، ولم تضع معالمها فيه، كما ضاعت نفوس الضالين والغاوين.

وقوله تعالى: ﴿رَاضِيَةٌ مَّرِيَّةٌ﴾ أي: راضية بما أرضاها الله سبحانه به من فضله، مرضياً عنها من ربها ... فالكلمتان حالان من أحوال النفس، وقد دعيت من ربها إلى الرجوع إليه ... إنها ترجع إلى ربها وقد رضيت بما لقبها به ربها من إكرام وإحسان، وقد رضي ربها عنها بما قدمت من أعمال طيبة ... فانه سبحانه وتعالى يرضي ويرضي عباده المحسنين، ويرضيهم بإحسانه كما يقول سبحانه: ﴿لَمَّا رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٤٣١).

وفي الجمع بين صفة الرضا للنفس والرضا من الله عنها - إشارة إلى أن هذا الرضا الذي تجده النفس هو رضا دائم متصل، لأنه مستمد من رضا الله عنها، وأنه ليس مجرد شعور يطوقها أو خاطر يطوف بها، ثم يذهب هذا الشعور ويغيب هذا خاطر، مع موجات الخواطر، والمشاعر التي تموج في كيان الإنسان ... كلا إنه رضا لا ينقطع أبداً.

وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (١٢) و﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢٠) هو دعوة الحق هذه النفس المطمئنة بعد أن عادت إلى ربها، أن تأخذ مكانها بين عباده الذين أضافهم سبحانه وتعالى إليه، وجعلهم في مقام كرمه وإحسانه، وأدخلهم جنته التي أعدها لهم، فلتأخذ هي مكانها معهم من تلك

الجنة، ولتتعم بما ينعم به عباد الله المكرمون، من نعيم لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر (١٤٣٢).

إذا كان هذا هو حال أولياء الله وعباده المخلصين، وهذا النعيم والتكريم من الله سبحانه وتعالى ينتظرهم وهم يرونه ساعة الاحتضار، وعند الموت فلا عجب أن يطالب العبد الصالح حامله بالإسراع إلى القبر شوقاً منه إلى النعيم، وينادي العبد الطالح بالويل من هذا المصير الذاهب إليه، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصعق» (١٤٣٣).

---

(١٤٣٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ١٥٦٢/٣٠ - ١٥٦٤ بتصرف واختصار.

(١٤٣٣) صحيح البخاري (كتاب الجنائز، باب: قول الميت هو على الجنازة قدموني) رقم الحديث (١٢٥٣) ٤٤٣/١ والحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

## الفصل الثالث

### الامن في الحياة البرزخية

تمهيد:

البرزخ في كلام العرب الحاجز بين شيئين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ (١٤٣٤).

أي: حاجزاً.

وهو في الشريعة: الدار التي تعقب الموت إلى البعث، قال تعالى: ﴿وَرَأَيْهِمْ بَرَزَخُ إِلَىٰ

يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٣٥).

جاء في مختار الصحاح تحت مادة "ب ر ز خ": ("البرزخ" الحاجز بين شيئين، وهو

أيضاً ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ) (١٤٣٦).

يقول الشيخ الشعراوي بعد أن تحدث عن الموت والاحتضار: (... ثم يأتي بعد ذلك

حياة البرزخ التي هي بين الموت والبعث، وهذه حياة لها قوانينها التي لا نعرف عنها شيئاً،

ولكن الإنسان يري فيها الغيب، فبعد أن تخمد بشرية الإنسان وتذهب عنه حرية الاختيار

ويصبح مقهوراً... تزال الغشاوة التي على عينية فيري الغيب، وفي هذا يقول الحق سبحانه

وتعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (١٤٣٧).

وبعد حياة البرزخ يأتي البعث والحساب... ثم الحياة الحقيقية التي أعدها الله للإنسان

ليكون خالداً فيها وهي الآخرة... وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَئِيَّ

(١٤٣٤) سورة الفرقان: آية ٥٣.

(١٤٣٥) سورة المؤمنون: آية ١٠٠.

(١٤٣٦) مختار الصحاح للرازي ص ٤٨.

(١٤٣٧) سورة ق: آية ٢٢.

الْحَيَوَانَاتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٣٨﴾، ويقول جل جلاله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٤٣٩﴾﴾. إذن فالحياة عند الله هي الآخرة، وهي خالدة (١٤٤٠).

ويقول في موضع آخر: (وينتقل الإنسان من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ التي يبقى فيها حتى يوم البعث، وكما قلنا إن حياة البرزخ لها قوانينها كما بينا، وأول هذه القوانين أنه لا زمن فيها ... فلا يحس الإنسان فيها بالزمن، ولا تسري عليه قوانينه، بل إن الذين ماتوا من عهد آدم إذا بعثوا، فإنهم يحسبون أنهم قضوا يوماً أو بعض يوم...، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعثِ وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (١٤٤١) (١٤٤٢).

وهكذا نعرف أن الإنسان عندما ينتقل من الحياة إلى الموت ... لا يحس بالزمن الذي أمضاه في القبر، ويظن وقت البعث أنه أمضى ساعة أو بضع ساعات، وحين ينزل الميit إلى القبر، يكون قد عرف مصيره حتماً، ويرى الإنسان مقعده من الجنة ومقعده من النار، فأهل الجنة يرون مقعدهم من الجنة ومقعدهم من النار، وأهل النار يرون مقعدهم من النار، ومقعدهم من الجنة.

(١٤٣٨) سورة العنكبوت: آية ٦٤.

(١٤٣٩) سورة الأنفال: آية ٢٤.

(١٤٤٠) معجزات القرآن، مشاهد يوم القيامة للشيخ محمد متولي الشعراوي الكتاب الخامس ٨/١١.

(١٤٤١) سورة الروم: الآيتان ٥٥، ٥٦.

(١٤٤٢) يوم القيامة للشيخ محمد متولي الشعراوي ص ٥٨، ٥٩.

مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة وتفاوتهم فيه:

قال ابن القيم<sup>(١٤٤٣)</sup> رحمة الله عليه: (والأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت).  
تفاوت.

فمنها: أرواح في أعلى عليين في المأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في المسند أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: "الجنة"، فلما ولي قال: "إلا الذي سارني به جبريل آنفاً"<sup>(١٤٤٤)</sup>.

ومنهم: من يكون محبوساً في قبره، كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "والذي نفسي بيده، إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه ناراً في قبره"<sup>(١٤٤٥)</sup>.

<sup>(١٤٤٣)</sup> هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبدالله، ولد عام ٦٩١هـ، ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية وأخذ عنه، وهذب كتبه ونشر علمه، كان تقياً ورعاً، عالماً بالحديث والفقه والتفسير، حُبس مع شيخه في المرة الأخيرة بدمشق، ولم يُفرج عنه إلا بعد موت شيخه، من مؤلفاته: زاد المعاد وأعلام الموقعين، توفي عام ٧٥١هـ رحمة الله. أنظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٤/٤٤٧، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١٤/٢٣٤.

<sup>(١٤٤٤)</sup> رواه الإمام أحمد في المسند ٤/١٣٩، والحديث رواه محمد بن عبدالله بن جحش عن رسول الله ﷺ.

<sup>(١٤٤٥)</sup> صحيح البخاري (كتاب المغازي)، باب: غزوة خيبر) رقم الحديث (٣٩٩٣) ٤/١٥٤٨، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: كراهية الغائل) رقم الحديث (٣٠٦) ٢/٣١٠، وأبو داود في السنن (كتاب الجهاد، باب: تعظيم الغلول) رقم الحديث (٢٧١١) ٣/٦٨.

ومنهم: من يكون مقره باب الجنة، كما في حديث ابن عباس: "الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية" (١٤٤٦).

وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب (١٤٤٧) حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء.

ومنهم: من يكون محبوساً في الأرض لم تعل روحه إلي الملاء الأعلى فإنها كانت دوماً سفلية أرضية، فإن الأنفس الأرضية لا تلتقي بالأنفس السماوية كما كانت تلتقي في الدنيا والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبتة وذكر هو الأنس به والتقرب إليه، بل هي أرضية سفلية، لا تكون بعد المفارقة لبندنها إلا هناك، كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والانس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها، فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة، والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد كما تقدم، ويجعل روحه يعني المؤمن مع النسيم الطيب أي الأرواح الطيبة المشكلة، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانهم وأصحاب عملها، فتكون معهم هناك.

---

والحديث في الثلاثة روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ وكلها لم تذكر عبارة: "في قبره".

(١٤٤٦) مسند الإمام أحمد ٢/٢٦٦.

(١٤٤٧) هو: جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، أبو عبدالله، ابن عم النبي ﷺ أحد السابقين للإسلام، وشقيق علي رضي الله عنه، وهو جعفر الطيار، وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ خلقاً وخلقاً، ألم بعد واحد وثلاثين إنساناً، وله هجرتان هجرة إلي الحبشة وهجرة إلى المدينة، وكان الرسول ﷺ يسميه أبا المساكين، ولما قاتل جعفر قطعت يداه والراية معه لم يلحقها فأبدله الله جناحين يطير بهما في الجنة، استشهد وعمره إحدى وأربعين سنة. أنظر: أسد الغابة ١/٣٤١، والإصابة ١/٢٣٧، والسير ١/٢٠٦.

ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزواني (وأرواح) في نهر الدم تسبح فيه وتلقهم الحجارة، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد، بل روح في أعلي عليين، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض.

وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضها فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأناً غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتفعل بفناء القبر وبالبدن فيه وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهناك لك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهناك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق وما أشبه حالها في هذا البدن بحال، ولد في بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار، فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها:

- الدار الأولى :** في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.
- والدار الثانية :** هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر أسباب السعادة والشقاوة.
- والدار الثالثة :** دار البرزخ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى.
- والدار الرابعة :** دار القرار، وهي الجنة أو النار فلا دار بعدها والله ينقلها في هذه الدار طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل إليها ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحبيها ومسعدها ومشقيها الذي فأوت بنيها في درجات سعادتها وشقاوتها كما فأوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها.

فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده، ولا شريك له، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسوله، وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر، وما خالفه فهو الباطل، وبالله التوفيق (١٤٤٨).

أولاً

## التثبیت عند سؤال منكر ونكير

منكر ونكير هما: الملكان اللذان يأتیان العبد بعد موته، سواء دفن في القبر أو أكلته السباع أو تخطفته الطيور، أو ذرته الرياح في البراري والبحور، ولا بد من السؤال عن الرب تعالي، وعن الدين، وعن الرسول ﷺ فعلي كل إنسان أن يعد للسؤال جواباً، وأن يحسب لهذه الفتنة حساباً، إذ لا مفر ولا محيص منها، وعندها يثبت الله المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا لله واتبعوا طريقة بالقول الثابت، ويضل من خالف أو امره، وعمل معاصيه من الكافرين والظالمين والمنافقين ومن على شاكلتهم.

ومنكر ونكير لهما من الصفات ما يرعب الجبال الصم فضلاً عن الإنسان، فأصواتهما كالرعد القاصف، وأعينها كالبرق الخاطف، يخرج لهب النار من أفواهها ومسامعها، يكسوان الأرض بأشعارهما، ويحفران الأرض بأظافرهما، إذا وضع العبد في قبره يسلكان روحه في جسده بإذن الله تعالي ثم يعقدانه فينتهرانه انتهاراً شديداً فيخر مغشياً عليه، ثم ينتهرانه ثانية فيقولان له: إنك في البرزخ فأعقل حالك وأعرف مكانك فيسألانه عن ربه ودينه ونبيه، فأما المؤمن عن ربه ودينه ونبيه، فأما المؤمن فيوقفه الله ويثبته ويسدد قوله ويلقنه الأمان ويسدراً عنه الفرع فلا يخافهما، ويجب إجابة الواثق فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد

(١٤٤٨) أنظر: الروح لابن القيم الجوزية ص ١٨٧، ١٩٠ بتصرف.

ﷺ، فيوسع له في قبره وينور فيه، وينام قرير العين ويرقد رقدة العروس، ويأتيه عمله الصالح في أحسن ما يري من صورة وأطيب ريح فيؤنسه في قبره، ويزيل عنه الوحدة والوحشة حتى يدخل الجنة (١٤٤٩).

وهكذا نري هذا العبد في أشد حالاته الأمن في هذا الموقف العصيب، ومع هذين الملكين اللذين لهما من الصفات ما ذكر، ولا يستطيع الثبات أمامها إلا من ثبته الله بالقول الثابت، ومن تعرف على الله في الرخاء عرفه الله في الشدة، صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَثِبُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٤٥٠).

إذ أن العبد المؤمن ينعم بالأمن في حياته الدنيا، وعند موته وفي قبره، وعند سؤاله، ويوم القيامة كما بينت الآية.

وقد ورد في شأن الملكين قوله ﷺ: "إذا قبر الميت - أو قال - أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان (١٤٥١)، يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك

(١٤٤٩) ورد هذا الوصف مطولاً في كتاب التذكرة للقرطبي ص ١٤٨، ١٤٩ فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه.

(١٤٥٠) سورة إبراهيم: آية ٢٧.

(١٤٥١) أي: أعينهما لما لهذه الصفة من الهول على المقبور.

تقول ذلك، فيقال للأرض: التثمي عليه فتلتئم عليه فتخفف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» (١٤٥٢).

وغيره ذلك من الأحاديث التي تؤكد أمن المؤمن وطمأنينته، وخوف الكفار والمنافقين ومن على منهجهم وفرعهم يوم السؤال من قبل الملكين وبقاؤهم على تلك الحال حتى تقوم الساعة.

هل سؤال منكر ونكير مختص بهذه الأمة أو يكون لها وغيرها؟

قال ابن القيم رحمة الله: هذا موضوع تكلم فيه الناس، فقال أبو عبد الله الترمذي: إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة، لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة، فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم، وعولجوا بالعذاب، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالرحمة إماماً للخلق، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧) (١٤٥٣)، أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ الإيمان في قلبه، فأملوا، فمن هاهنا ظهر أمر النفاق، وكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان، فكانوا بين المسلمين في ستر، فلما ماتوا قبض الله لهم فتاناً القبر ليستخرجوا سرهم بالسؤال، وليميز الله الخبيث من الطيب فـ ﴿ يَبَيِّنُ اللَّهُ لِيِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٧) (١٤٥٤).

وخالف في ذلك آخرون وقالوا: السؤال لهذه الأمة ولغيره.

(١٤٥٢) أخرجه الترمذي في (كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر) رقم الحديث

(١٠٧١) ٣/٣٧٤، ٣٧٥ قال أبو عيسى عنه: حديث حسن غريب.

(١٤٥٣) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

(١٤٥٤) سورة إبراهيم: آية ٢٧.

وتوقف في ذلك آخرون مستدلين بما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "إن هذه الأمة تبتلي في قبورها" (١٤٥٥)، ومنهم من يرويه: "تسال"، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك، فهذا أمر لا يقطع به.

وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله ﷺ: "إن هذه الأمة تبتلي في قبولها"، ويقول: "أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم" (١٤٥٦)، وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة، قالوا: ويدل عليه قول الملكين له: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول المؤمن: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فهذا خاص بالنبي ﷺ.

ورد: أنه لا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دن سائر الأمم، فإن قوله: "إن هذه الأمة" إما أن يراد به أمة الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِمَ يَظِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ (١٤٥٧).

وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة، وفي الحديث: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها" (١٤٥٨).

(١٤٥٥) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه) رقم الحديث (٧١٤٢) ١٧/١٩٩، وهو من حديث طويل رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ، ومسند الإمام أحمد ٣/٣.

(١٤٥٦) صحيح البخاري (كتاب العلم، باب: من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس) رقم الحديث (٨٦) ١/٤٤، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار) رقم الحديث (٢١٠٠) ٦/٤٤٩.

(١٤٥٧) سورة الأنعام: آية ٣٨.

(١٤٥٨) سنن الترمذي (كتاب الأحكام والفوائد، باب: ما جاء في قتل الكلاب) رقم الحديث (١٤٨٦) ٤/٧٨، والحديث رواه عبدالله بن مغفل عن رسول الله ﷺ، قال الترمذي:

حديث حسن صحيح، وسنن النسائي (كتاب الصيد والذبائح، باب: صفة الكلاب التي أمر بقتلها) ٧/٢٨٥، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢/٩٤٠ رقم (٥٣٢١).

وإن كان المراد به أمته ﷺ الذي بعث فيهم لم يكن فيه ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم، بل قد يكون ذكرهم إخباراً بأنهم مسؤولون في قبورهم، وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم.

وكذلك قوله: "أوحى إليّ أنكم تكفنون في قبوركم".

وكذلك إخباره عن قول الملكين: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ هو إخبار لأمته بما تمتحن به في قبورها، والظاهر - والله أعلم - أن كل نبي مع أمته كذلك، وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة، والله أعلم (١٤٥٩).

ويؤيد هذا الرأي الأخير - عدم خصوصيته بهذه الأمة - ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: "نعم عذاب القبر حق" قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلي صلاةً إلا تعوَّذَ من عذاب القبر (١٤٦٠).

وروي أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ وقد وجبت الشمس، فسمع صوتاً، فقال: "يهود تعذب في قبورها" (١٤٦١).

وهذا يؤيد القول بأن عذاب القبر ليس خاصاً بهذه الأمة، ففي الحديث الأول دل علم اليهود بعذاب القبر والتعوذ منه أن اليهود يعرفون ذلك، وأنهم يعذبون في قبورهم.

(١٤٥٩) انظر: الروح لابن القيم الجوزية، ص ١٤٧ - ١٤٩ بتصرف واختصار.

(١٤٦٠) صحيح البخاري (كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر) رقم الحديث (١٣٠٦) ٤٦٢/١.

(١٤٦١) صحيح البخاري (كتاب الجنائز، باب: التعوذ من عذاب القبر) رقم الحديث (١٣٠٩) ٤٦٣/١، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه) رقم الحديث (٧١٤٤) ١٧/٢٠٠.

أما الحديث الثاني فقد دلَّ صراحة على عذاب القبر بالنسبة لليهود، فدل هذا على أنه ليس خاصاً بهذه الأمة، والله أعلم.

## ثانياً

### الأمن في القبر

التعريف:

جاء في مختار الصحاح تحت مادة "ق ب ر": ("القبر" واحد "القُبُور"، و "المقبرة" بفتح الباء وضمها واحدة "المقابر"، وقد جاء في الشعر "المقْبَرُ" بغير هاء.

و "قَبْرٌ" الميت دَفَنُهُ، وبابه ضرب ونصر، و "أقبره" أمر بأن يقبر، وأقبره صير له قبراً يدفن فيه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا لَهُ فَآقِرَةٌ﴾ (١١) ﴿١٤٦٢﴾، أي: جعله ممن يقبر ولم يجعله يلقي للكلاب، فالتقبر مما أكرم به بنو آدم (١٤٦٣).

والقبر إماً أمن وأمان وباعث شوق إلى ما بعده، وإمّا خوف وعذاب وباعث خوف وحسرات لما بعده، ومذهب السلف الصالح فيه أنه ثابت ولا بد منه لكل من مات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى: (مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأنَّ ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة

(١٤٦٢) سورة عبس: آية ٢١.

(١٤٦٣) أنظر: مختار الصحاح للرازي ص ٥١٨ بتصريف.

البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً فيحصل له معها النعيم والعذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها وقاموا من قبورهم لرب العالمين<sup>(١٤٦٤)</sup>.

وقال الإمام النووي<sup>(١٤٦٥)</sup> رحمة الله تعالى: (أعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر، وقد تظافرت عليه دلائل الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿الْأَنْرُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾<sup>(١٤٦٦)</sup>، وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة، ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد ويعذبه، وإذا لم يمنعه العقل وورد الشرع به وجب قبوله واعتقاده.

ثم قال: والمقصود أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر كما ذكرنا خلافاً للخوارج<sup>(١٤٦٧)</sup> ومعظم المعتزلة وبعض المرجئة<sup>(١٤٦٨)</sup> الذين نفوا ذلك.

---

<sup>(١٤٦٤)</sup> مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ٤/٢٨٤.

<sup>(١٤٦٥)</sup> هو: محيي الدين يحيى بن شرف بن حسن، أبو زكريا، النووي، أحمد شيوخ المذهب = الشافعي، وُلِدَ بـ (نوي) سنة ٦٣١هـ، حفظ القرآن الكريم، ثم لازم المشائخ للعلم، وكان زاهداً كثير العبادة، له مؤلفات منها: المجموعة شرح المهذب، وروضة الطالبين، توفي سنة ٦٧٦هـ رحمه الله. انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٧٨، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٦٥/٥.

<sup>(١٤٦٦)</sup> سورة غافر: آية ٤٦.

<sup>(١٤٦٧)</sup> الخوارج: هم جماعة ممن كانوا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، خرجوا عليه في معركة صفين بحجة أن خصومهم يدعونهم إلى كتاب الله وعليّ يدعوهم إلى السيف، فحملوا عياً رضي الله عنه على التحكيم وألزموه بأبي موسى الأشعري فجري الأمر في التحكيم على خلاف ما رضي به علي رضي الله عنه لذلك خرجوا عليه، وقالوا: حكمت الرجال لا حكم الله، وكابر فرقمهم: الأزارقة والنجدات، والإباضية، والثعلبية، وغيرهم. انظر: الملل والنحل ١/١٢٤، ١٢٥.

<sup>(١٤٦٨)</sup> المرجئة: سموا مرجئة، لأنهم أخرجوا العمل عن الإيمان، والإرجاء بمعنى التأخير، وهم ثلاثة أصناف: صنف قالوا بالإرجاء في الإيمان، وبالقدر على مذهب المعتزلة، وصنف قالوا بالإرجاء بالإيمان وبالجب في الأعمال على مذهب جهم بن صفوان فهم

وقال أيضاً: ولا يمنع من ذلك - يعني عذاب القبر - كون الميت قد تفرقت أجزاؤه كما نشاهد في العادة أو أكلته السباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك فكما أن الله تعالى يعيده للحشر وهو سبحانه وتعالى قادر على ذلك فكذا يعيد الحياة إلى جزء منه أو أجزاء وإن أكلته السباع والحيتان.

فإن قيل: فنحن نشاهد الميت على حالة في قبره فكيف يسأل ويقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر؟

فالجواب: أن ذلك غير ممتنع بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وآلاماً لا نحس نحن شيئاً منها، وكذا يجد اليقظان لذة وآماً لما يسمعه أو يفكر فيه، ولا يشاهد ذلك جلسه منه، وكذا كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهر جلي (١٤٦٩).

وقد ورد في الخبر أن القبر أول منزلة من منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه.

وليست العبرة بظاهر القبر، وإن كان في إطار جميل من الرياحين والزهور، بل العبرة بباطنه، فظواهر القبور تراب وبواطنها إما حسرات وعذاب، أو نعيم وثواب (١٤٧٠).

روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟، فقال:

جهمية، والصنف الثالث منهم: الخارجون عن الجبرية والقديرية. أنظر: الفرق بين الفرق ص ١٥١.

(١٤٦٩) شرح النووي على صحيح مسلم (باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر) ٢٠١/١٧، ٢٠١ بتصرف واختصار.

(١٤٧٠) أنظر: عذاب القبر وسؤال الملكين للإمام البيهقي ص ٥.

إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه" (١٤٧١)، وقال: قال رسول الله ﷺ: "ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أظفَع منه" (١٤٧٢).

لذلك فإن المؤمن تؤنسه أعماله الصالحة فيشعر بالأمن والشوق إلى ما بعده، ولأنه لما كان ما بعد الموت أيسر منه لمن نجا، فإن العبد المؤمن إذا رأى في قبره ومالي" (١٤٧٣)، والعبد الكافر إذا ما أعد الله له من العذاب الشديد، فإنه يقول على الرغم مما هو فيه من عذاب: "رب لا تُقم الساعة" (١٤٧٤)، لأن الآتي أشد وأظفَع.

وإذا أرد الإنسان أن يؤمن في قبره فعليه بالأسباب المنجية من عذاب القبر، ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم ساعة واحدة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات في ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستترك ما فاتته، وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أرد الله به خيراً وفقه لذلك، ولا قوة إلا بالله (١٤٧٥).

ومن الأدلة على أمن المؤمن في قبره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(١٤٧١) أخرجه الترمذي (كتاب الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت) رقم الحديث (٢٣٠٨) (٥٥٣/٤، ٥٥٤). وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام بن يوسف)، ومسنَد الإمام أحمد ١/٤٥٤.

(١٤٧٢) تكلمة للحديث السابق الذي رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(١٤٧٣) هذا قطعة من حديث البراء، وسبق تخريجه ص ٥٣٣.

(١٤٧٤) هذا قطعة من حديث البراء، وسبق تخريجه ص ٥٣٣.

(١٤٧٥) أنظر: كتاب الروح لابن قيم الجوزية ص ١٣٧ بتصريف.

نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْلِيَّكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾  
تَزَلُّونَ عَنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ (١٤٧٦).

وقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٣٧﴾ (١٤٧٧).

قال بعض المفسرين في النص الأول: أن المراد بالثبوت في الحياة الدنيا أي: في القبر، لأنهم في الدنيا حتى يبعثوا.

وهكذا الحال بالنسبة للنص الثاني، وقد تعرضت لهذا فيما سبق بنوع من التفصيل فليرجع إليه.

ومن السنة ما ورد في حديث البراء بن عازب الذي سبق ذكره وتفصيله ومن جملته أن عمل المؤمن يأتيه بصورة رجل حسن الوجه جميل المنظر يسر الناظر فيقول العبد المؤمن من أنت؟ فيقول عمك الذي قدمت فيؤنسه في قبره، وهذا غاية الأمن للمؤمنين، فهو آمن في الحياة الدنيا آمن في الحياة يوم الفرع الأكبر، جعلنا الله من الأمنين.

(١٤٧٦) سورة فصلت: الآيات ٣٠-٣٢.

(١٤٧٧) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

## الفصل الرابع

### الأمن في القيامة وبعدها

تمهيد:

خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون، وحدد لكل شيء فيه ميلاً ونهاية، فالأرض لها ميلاد ونهاية، والشمس لها ميلاد ونهاية، وكل ما في الكون له ميلاد ونهاية إلا ما شاء الله، لأن الله سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة في كونه، فلا شيء يعلو مشيئته، وهذا الكون الذي نعيش فيه مخلوق بالأسباب، أي: أن الله سبحانه وتعالى جعل فيه أسباباً لكل شيء.

فالكون عنصران: عنصر يفعل لكل فيعطيك بلا أسباب، كالشمس والهواء والمطر، وغير ذلك.

وعنصر يفعل بك إن أخذت بأسباب الله في الأرض أعطاك، وإن لم تأخذ بأسباب الله لا يعطيك (١٤٧٨).

والكون بالأسباب هو ما نسميه حياة الدنيا، فهي المخلوقة من الله جل جلاله بالأسباب، فإذا انتهت الحياة الدنيا وجاء يوم القيامة، انتهى عمر هذا الكون وبدأ خلق آخر لله سبحانه وتعالى، فيه كل شيء من الله جل جلاله مباشرة، ففي الجنة بمجرد أن يخطر على بالك الشيء تجده أمامك بقدرة الله سبحانه وتعالى حيث تنتهي الأسباب ويصبح كل شيء من أنواع العطاء من المسبب مباشرة والانتقال من كون الأسباب إلى الكون الذي يتم فيه كل شيء من الله مباشرة يسبقه ما أطلق الله تبارك وتعالى عليه "يوم القيامة" ففي هذا اليوم ينتهي كون الأسباب، لأنه أدي مهمته، وتبدأ حياة جديدة، مختلفة عن الحياة التي نحيها على الأرض فهي إما نعيم وإما عذاب أبدي، حياة ليس فيها موت، ولكن فيها خلود، حياة ليس فيها اختيار، ولكن فيها جزاء، حياة ليس فيها عمل ولكن الأمر فيها من الله تعالى وإلى الله تعالى.

(١٤٧٨) أنظر: يوم القيامة للشيخ الشعراوي ص ٤، ٥ بتصرف.

والله سبحانه وتعالى أخبرنا فى منهجه بأن الحياة الدنيا فيها اختبار وابتلاء وامتحان، اختبار للإيمان بالله وامتحان لحب الله فى القلب، وابتلاء للطاعة والمعصية، ولكننا نمر بهذا الامتحان، ومن فاز ينعمه الله فى الجنة، ومن كفر وعصى واستكبر ينتظره عذاب النار.

ويوم القيامة موعداً جميعاً نخرج من القبول لنقف بين يدي الله إنه يوم مجموع له الناس ويوم مشهود (١٤٧٩).

سيأتي يوم يبدي الحي القيوم فيه الحياة والأحياء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾

﴿١٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧﴾ (١٤٨٠)، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (١٤٨١).

ثم يأتي بعد ذلك وقت يعيد الله العباد ويبعثهم، فيوقفهم بين يديه ويحاسبهم على ما قدموه من أعمال، وسيلقي العباد هذا اليوم شيئاً من الأهوال، ولا ينجو من تلك الأهوال إلا من وفقه الله وأعد لذلك اليوم عدته من الإيمان والعمل الصالح، ويساق العباد فى ختام ذلك اليوم إلى دار القرار، الجنة أو النار.

### هذا هو يوم القيامة.

وبما أن ما أعظم شأنه كثرت أسماؤه وتعددت صفاته فساذكر هنا باختصار أسماء يوم القيامة، وبعد أدخل فى مباحث هذا الفصل.

### أسماء يوم القيامة:

سمى الله ذلك اليوم الذي يحل فيه الدمار بهذا العالم، ثم يعقبه فيه البعث والنشور للجزاء والحساب بأسماء كثيرة، وقد أتت جمع من أهل العلم بذكر هذه الأسماء، وقد عدّها الغزالي (١٤٨٢) والقرطبي (١٤٨٣) فبلغت نحو الثمانين اسماً، كما فى فتح الباري (١٤٨٤).

(١٤٧٩) أنظر: يوم القيامة للشيخ الشعراوي ص ٤، ٥ بتصريف.

(١٤٨٠) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٤٨١) سورة القصص: آية ٨٨.

وقد ساق القرطبي هذه الأسماء مفسراً لها، ولكنه أخذ تفسيرها من كتب متنوعة، وربما زاد عليه شيئاً ما في الشرح والتفسير، وقد عدها بعضهم من غير تفسير، وسأقتصر في هذا الكتاب على ذكر أشهر هذه الأسماء مع تعريف كل اسم تعريفاً مختصراً.

أشهر أسماء ذلك اليوم:

١- يوم القيامة: ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب<sup>(١٤٨٥)</sup>، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾<sup>(١٤٨٦)</sup>، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمياً وَكُفّاً وَصَمّاً﴾<sup>(١٤٨٧)</sup>، وقوله: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَآهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾<sup>(١٤٨٨)</sup>.

<sup>(١٤٨٢)</sup> هو: أبو حامد، محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، ولد سنة ٤٥٠هـ، عالم بأصول الفقه، له مؤلفات كثيرة، منها: المستصفي، وإحياء علوم الدين، توفي بطوس سنة ٥٠٥هـ رحمة الله. أنظر: شذرات الذهب في أخبار من مضى وذهب لأبي الفلاح بن العماد الحنبلي ١٠/٤، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس بن خلكان ٢١٦/٤.

<sup>(١٤٨٣)</sup> هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، أبو عبد الله، من كبار المفسرين من أهل قرطبة، له مؤلفات كثيرة، منها: الجامع لأحكام القرآن، والأسني في شرح أسماء الله الحسنى، وكان يمشي بثوب وطاقيّة على رأسه، توفي ليلة الاثنين التاسع من شوال عام ٦٧١هـ رحمة الله. أنظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي ٣٠٨/٢-٣٠٩، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية للشيخ محمد بن محمد مخلوف ص ١٧٩.

<sup>(١٤٨٤)</sup> أنظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٣٩٦/١١.

<sup>(١٤٨٥)</sup> اليوم الآخر (القيامة الكبرى) للدكتور عمر الأشقر ص ١٩.

<sup>(١٤٨٦)</sup> سورة النساء: آية ٨٧.

<sup>(١٤٨٧)</sup> سورة الإسراء: آية ٩٧.

<sup>(١٤٨٨)</sup> سورة الشورى: آية ٤٥.

والقيامه في اللغة مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب، وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينها النصوص، ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين.

٢- اليوم الآخر: كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْآخِرَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (١٤٨٩)، وقال: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (١٤٩٠)، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (١٤٩١).

وأحياناً يسميه بالآخر أو الدار الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

(١٤٩٢)، ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ (١٤٩٣)، ﴿وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾ (١٤٩٤)، ﴿وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٩٥).

وسمي ذلك اليوم باليوم الآخر، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

٣- الساعة: قال تعالى: ﴿وَلَيْتَ السَّاعَةَ لَآيَةً فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (١٤٩٦)، وقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آئِيَةٌ أَكَادٌ﴾ (١٤٩٧)، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورًا رِجَالًا كَمَا زَلَزَلَتْ السَّاعَةَ مِنْ عَظِيمٍ﴾ (١٤٩٨).

(١٤٨٩) سورة البقرة: آية ١٧٧.

(١٤٩٠) سورة البقرة: آية ٢٣٢.

(١٤٩١) سورة التوبة: آية ١٨.

(١٤٩٢) سورة البقرة: آية ١٣٠.

(١٤٩٣) سورة النساء: آية ٧٤.

(١٤٩٤) سورة القصص: آية ٨٣.

(١٤٩٥) سورة العنكبوت: آية ٦٤.

قال القرطبي: (والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود، وفي الرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة اللذين هما أصل الأزمنة.. وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالآلف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آت قريب، وإما أن تكون سميت بها تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود، وقيل: إنما سميت بالساعة، لأنها تأتي بغتة في ساعة...) (١٤٩٩).

٤- يوم البعث: قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ﴿٥٠﴾﴾ (١٥٠٠)، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿١٠١﴾﴾ (١٥٠١).

جاء في لسان العرب: (البعث: الإحياء من الله تعالى للموتى؛ وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث) (١٥٠٢)..

5- يوم الخروج: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ (١٥٠٣)، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانْتُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفُؤُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (١٥٠٤) ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (١٥٠٥).

- (١٤٩٦) سورة الحجر: آية ٨٥.
- (١٤٩٧) سورة طه: آية ١٥.
- (١٤٩٨) سورة الحج: آية ١.
- (١٤٩٩) التذكرة للقرطبي ص ٢٤٥.
- (١٥٠٠) سورة الحج: آية ٥.
- (١٥٠١) سورة الروم: آية ٥٦.
- (١٥٠٢) لسان العرب مادة (ب ع ث) (١/٢٣٠).
- (١٥٠٣) سورة ق: آية ٤٢.
- (١٥٠٤) سورة المعارج: آية ٤٣.

سمي بذلك لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور.

٦- القارعة: قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ (١٥٠٦)،

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤﴾ (١٥٠٧).

قال القرطبي: ( سميت بذلك لأنها تفرع القلوب بأهوالها، يقال: قد أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده (١٥٠٨).

٧- يوم الفصل: قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ تَكْدِيبُونَ ١١﴾ (١٥٠٩)،

وقال: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ جَمْعُ تَكْرُرٍ وَالْأَوَّلِينَ ١٣﴾ (١٥١٠)، وقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا

١٧﴾ (١٥١١)

سمى بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون،

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾ (١٥١٢).

٨- يوم الدين: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حَيْمٍ ١٤ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ١٦ وَمَا

أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَعِيًّا وَلَا أَمْرٌ يُؤْمِرُ لِلَّهِ

١٩﴾ (١٥١٣)، وقال: ﴿وَقَالُوا بئْرُؤُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ٤٠﴾ (١٥١٤).

١٥٠٥) سورة الروم: آية ٢٥.

١٥٠٦) سورة القارعة: الآيات ١-٣.

١٥٠٧) سورة الحاقة: آية ٤.

١٥٠٨) التذكرة للقرطبي ص ٢٤٧.

١٥٠٩) سورة الصافات: ٢١.

١٥١٠) سورة المرسلات: آية ٣٨.

١٥١١) سورة النبأ: آية ١٧.

١٥١٢) سورة السجدة: آية ٢٥.

١٥١٣) سورة الانفطار: الآيات ١٤-١٩.

والدين في لغة العرب: الجزاء والحساب؛ سمي بذلك لأن الله يجزى العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم.

٩- الصاخة: قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ (١٥١٥).

قال القرطبي: ( الصاخة لنفخة الأولى: والطامة النفخة الثانية) (١٥١٦).

قال الطبري (١٥١٧): أحسبه من صخ فلان فلاناً إذا أصمه (١٥١٨).

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعه، تصم عن الدنيا، وتسمع أمور الآخرة (١٥١٩)

١٠- الطامة الكبرى: قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ (١٥٢٠)

سميت بذلك لأنها تصم على كل أمر هائل مقطع، كما قال تعالى: ﴿وَأَسَاءَ أَذَنَ

وَأَمْرٌ﴾ (١٥٢١).

قال القرطبي: ( الطامة الغالبة، من قولك: طم الشيء إذا علا وغلب، ولما كنت تغلب كل

شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء) (١٥٢٢).

(١٥١٤) سورة الصافات: آية ٢٠.

(١٥١٥) سورة عبس: آية ٣٣.

(١٥١٦) التذكرة ص ٢٦٠.

(١٥١٧) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، عالمك العصر، أبو جعفر الطبري، صاحب

التصانيف البديعة، من أهل أمل بطبرستان، ولد سنة ٢٢٤هـ، وطلب العلم بعد

٢٤٠هـ، وأكثر الترحال ولقى نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علماءً وذكاءً وكثرة

تصانيف قل أن ترى الآثار، واختلاف الفقهاء، وآداب القضاء، وغير ذلك، توفي سنة

٣١٠هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧، ومعجم المؤلفين ٣/١٩٠، وطبقات

المفسرين للسيوطي ص ٨٢.

(١٥١٨) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٣٩.

(١٥١٩) تذكرة القرطبي ص ٢٦٠.

(١٥٢٠) سورة النازعات: آية ٣٤.

(١٥٢١) سورة القمر: آية ٤٦.

١١- يوم الحسرة: قال تعالى: ﴿وَأَذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ (١٥٢٣)

سمى بذلك لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وتندمهم، أما الكفار فلعدم إيمانهم، ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَقْتَةً قَالُوا لَوْ أَنَّا نَحْصَرُونَكَ عَلَىٰ مَا قَرَّرْنَا فِيهَا ﴿٣٩﴾ (١٥٢٤)، واستمع إلى تحسر الكفار عندما يحل بهم العذاب: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا قَرَّرْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ لِمَنِ الْعَذَابُ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ (١٥٢٥).

وتبلغ الحسرة ذروتها بأهل الكفر عندما يتبرأ السادة والأتباع من مقبوعيهم :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾ (١٥٢٦).

ويتحسر المؤمنون في ذلك بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى.

١٢- الغاشية: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ (١٥٢٧)؛ لأنها تغشى الناس بأفزعها وتغميهم، ومن معانيها أن الكفر تغشاهم النار وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم،

(١٥٢٢) تذكرة القرطبي ص ٢٦٠.

(١٥٢٣) سورة مريم: آية ٣٩.

(١٥٢٤) سورة الأنعام: آية ٣١.

(١٥٢٥) سورة الزمر: الآيات ٥٦-٥٨.

(١٥٢٦) سورة البقرة: آية ١٦٧.

(١٥٢٧) سورة الغاشية: آية ١.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ ﴿٥٥﴾﴾ (١٥٢٨)، وقال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴿٤١﴾﴾ (١٥٢٩).

١٣- يوم الخلود: قال تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ (١٥٣٠).

سمى ذلك اليوم بيوم الخلود؛ لأن الناس يصيرون إلى دار الخلد، فالكفار مخلدون في النار، والمؤمنون مخلدون في الجنان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣١﴾﴾ (١٥٣١)، وقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْصَتْ وُجُوهُهُمْ فَنفى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ (١٥٣٢).

١٤- يوم الحساب: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ (١٥٣٣)، وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ (١٥٣٤).

سمى ذلك اليوم بيوم الحساب، لأن الله يحاسب فيه عباده، قال القرطبي: ( معنى الحساب: أن الله يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة ويعدده عليهم نعمة، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشف منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير والشر بالشر (١٥٣٥).

(١٥٢٨) سورة العنكبوت: آية ٥٥.

(١٥٢٩) سورة الأعراف: آية ٤١.

(١٥٣٠) سورة ق: آية ٣٤.

(١٥٣١) سورة البقرة: آية ٣٩.

(١٥٣٢) سورة آل عمران: آية ١٠٧.

(١٥٣٣) سورة ص: آية ٢٦.

(١٥٣٤) سورة غافر: آية ٢٧.

(١٥٣٥) تذكرة للقرطبي ص ٢٥٦.

١٥- الواقعة: قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ﴾ (١) ﴿١٥٣٦﴾.

وقال بن كثير (١٥٣٧): ( سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، وأصل وقع فى لغة العرب كان ووجد) (١٥٣٨).

١٦- يوم الوعيد: قال تعالى: ﴿وُنْفِخْ فِي الصُّورِ ۗ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۗ﴾ (٢٠) ﴿١٥٣٩﴾؛ لأنه اليوم الذي أوعد به عباده، وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة.

١٧- يوم الآزفة: قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ۗ﴾ (١٨) ﴿١٥٤٠﴾.

سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۗ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۗ﴾ (١٩) ﴿١٥٤١﴾، والساعة قريبة جداً، وكل آتٍ فهو قريب، وإن بعد مداه، والساعة بعد ظهور علاماتها أكثر قرباً.

١٨- يوم الجمع: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْبَبَ فِيهِ ۗ﴾ (٢٢) ﴿١٥٤٢﴾.

(١٥٣٦) سورة الواقعة: آية ١.

(١٥٣٧) هو: الأمام إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن درع، الحافظ عماد الدين أبو الفداء القرشي البصري الشافعي، ولد سنة ٧٠١هـ، وكان قدوة العلماء ولحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ، محدث مؤرخ مفسر فقيه، تفقه على البرهان الفزاري وابن قاضي شبيهة، وأقبل على علم الأصول والحديث، وحفظ المتون والتواريخ، وله مصنفات كثيرة، وكان يميل إلى شيخي ابن تيمية، من مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، ومختصر علوم الحديث، والفصول في سيرة الرسول، توفي سنة ٧٧٤هـ، انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/١١١)، ومعجم المؤلفين ٣٧٣/١.

(١٥٣٨) تفسير ابن كثير ٤/٢٨٢.

(١٥٣٩) سورة ق: آية ٢٠.

(١٥٤٠) سورة غافر: آية ١٨.

(١٥٤١) سورة النجم: الآيات ٥٧-٥٨.

وسميت بذلك لأن الله يجمع فيه الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَّجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٥٤٣).

١٩- الحاقة: قال تعالى: ﴿الْمَآءَةُ ١ مَا الْمَآءَةُ ٢﴾ (١٥٤٤)، سميت بذلك - كما يقول ابن كثير - لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد (١٥٤٥).

٢٠- يوم التلاق: قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنزِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ١٥﴾ (١٥٤٦).

قال ابن كثير: (قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده، وقال زيد: يلتقي فيه العباد، وقيل: فيه الظالم والمظلوم، وقد يقال: إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقي ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون (١٥٤٧)).

٢١- يوم التناد: قال تعالى حاكياً نصيحة مؤمن آل فرعون قومه: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ٣٢﴾ (١٥٤٨).

سمي بذلك لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فكل إنسان يدعي باسمه للحساب والجزاء، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنة، وأهل الأعراف ينادون هؤلاء وهؤلاء.

(١٥٤٢) سورة الشورى: آية ٧.

(١٥٤٣) سورة هود: آية ١٠٣.

(١٥٤٤) سورة الحاقة: الآيتان ١-٢.

(١٥٤٥) تفسير القرآن العظيم ٤/٤١٢.

(١٥٤٦) سورة غافر: آية ١٥.

(١٥٤٧) تفسير القرآن العظيم ٤/٧٤ بتصرف.

(١٥٤٨) سورة غافر: آية ٣٢.

٢٢- يوم التغابن: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (١٥٤٩)، سمي بذلك لأنه أهل الجنة يغبنون أهل النار، إذ يدخل هؤلاء في الجنة فيأخذون ما أعد الله لهم ويرثون نصيب الكفار من الجنة.

هذه هي أشهر أسماء يوم القيامة، وقد أورد بعض العلماء أسماء أخرى غير ما ذكرته، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاستقاق بما ورد منصوصاً، فقد سموه بيوم الصدر أخذاً من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ (١٥٥٠)، ويوم الجدال أخذاً من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ جُنْدِيًّا عَنْ نَفْسِهَا﴾ (١٥٥١).

وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم، فقالوا: من أسمائه: يوم عسير، ويوم عظيم، ويوم مشهود، ويم عبوس قمطير، ويوم عقيم.

ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم: يوم المأب، يوم العرض، يوم الخافضة الرافعة، يوم القصاص، يوم الجزاء، يوم النفخة، يوم الزلزلة، يوم الراجفة، يوم الناقور، يوم التفرق، يوم التصدع، يوم البعثرة، يوم الندامة، يوم الفرار.

ومنها أيضاً: يوم تبلي السرائر، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، يوم يدعون إلى نار جهنم دعواً، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، يوم لا ينطقون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا يكتفون الله حديثاً، يوم لا مراد له من الله، يوم لا بيع فيه ولا خلال، يوم لا ريب فيه.

وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرى، وقد يسمي الاسم بما يقاربه ويمائله، قال القرطبي: (ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام، والتضايق، واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصغار، والانكسار، ويوم الميقات، والمرصاد، إلى غير ذلك من الأسماء) (١٥٥٢).

(١٥٤٩) سورة التغابن: آية ٩.

(١٥٥٠) سورة الزلزلة: آية ٦.

(١٥٥١) سورة النحل: آية ١١١.

(١٥٥٢) للتذكرة ص ٢٦٨.

السر في كثرة أسمائه:

يقول القرطبي: (وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا تري أن السيف لما عظم عندهم موضوعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر.

فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة) (١٥٥٣).

أولاً

## الأمن عند الفرع يوم القيامة

تعريف الفرع:

ورد في الصحاح تحت مادة "فرع": ( الفرع: الذعر، وهو في الأصل مصدر وربما جمع على افزاع، تقول منه: فرعت إليك، وفرعت منك، ولا تقل: فرعتك.

والمفرع: الملجأ، وفلان مَفْرَعٌ للناس، يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث، أي: إذا دهمهم أمر فرعوا إليه) (١٥٥٤).

يوم القيامة يوم عظيم أمره، شديد هوله، لا يلاقى العباد مثله، يوم تبيض فيه وجوه، وتسود وجوه، ويدل على عظم هوله أمور ونصوص وردت في كتاب الله العظيم مبينة مفصلة، ومن هذه الأمور:

١- وصف الله ذلك اليوم بالعظم، وحسب العباد أن ربهم قد وصفه بذلك ليكون أعظم مما نتصور، وأكبر مما نتخيل، قال تعالى: ﴿الْأَيْطَانُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ

(١٥٥٣) المرجع السابق ص ٢٤٢.

(١٥٥٤) الصحاح ٢/٢٤١.

يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٥٥﴾، ووصفه في موضع آخر بالنقل ، وفي موضع ثالث بالعسر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذُلًا يَحْيُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا﴾ ﴿١٠٥٦﴾، وقال: ﴿فَذَلِكَ يَوْمًا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ ﴿١٠٥٧﴾.

٢- الرعب والفرع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم، فالمرضعة التي تقدى وليدها بنفسها تذهل عنه في ذلك اليوم، والحامل تسقط حملها، والناس يكون حالهم كحال السكرى الذين فقدوا عقولهم، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ﴿٢﴾ ﴿١٠٥٨﴾.

جاء في التفسير المنير: (إن وقع الساعة وتأثير القيامة على النفس شدي الأثر حتى لتكون زلزلتها مذهلة شاغله" الأم الأموم الحنون عن طفلها الرضيع، ومسقطه الجنين من بطن أمه، وجاعلة الناس كمنهم سكرى من شدة الخوف وما هم في الحقيقة سكرى من الشراب) ﴿١٠٥٩﴾.

ولشدة الهول فإن القلوب تخاف وتخضع وتقلب القلوب والأبصار لما يصيبها في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشَعَةٌ﴾ ﴿٩﴾، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَأُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿١٠٦١﴾.

﴿١٠٥٥﴾ سورة المطففين: الآيات ٤-٦.

﴿١٠٥٦﴾ سورة الإنسان: آية ٢٧.

﴿١٠٥٧﴾ سورة المدثر: آية ٩.

﴿١٠٥٨﴾ سورة الحج: الآيتان ٢٠، ٢١.

﴿١٠٥٩﴾ التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ١٥٤/٧، ١٥٥.

﴿١٠٦٠﴾ سورة النازعات: الآيتان ٨، ٩.

﴿١٠٦١﴾ سورة النور: آية ٣٧.

وحسبك أن تعلم أن الوليد الذي لم يذنب ولم يرتكب جرماً يشيب شعر رأسه لشدة ما يرى من الهول، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ أَلَسَمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِمْ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ (١٥٦٢).

٣- انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة، وما ذاك إلا لشدة هوله وانشغال كل إنسان بنفسه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا بَسَائِلُوك ﴿١١﴾﴾ (١٥٦٣).

فكل إنسان في ذلك الموقف العصيب مهتم بنفسه، ولا يلتفت إلى غيره، بل إن الإنسان يفرُّ من أحب الناس إليه، يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ (١٥٦٤).

قال في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْعُرُورُ ﴿٣٢﴾﴾ (١٥٦٥).

وقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (١٥٦٦).

(١٥٦٢) سورة المزمل : الآيتان ١٧، ١٨.

(١٥٦٣) سورة المؤمنون : آية ١٠١.

(١٥٦٤) سورة عبس : الآيات ٣٤-٣٧.

(١٥٦٥) سورة لقمان : آية ٣٣.

(١٥٦٦) سورة البقرة : آية ٤٨.

٤- ومما يدل على هول ذلك اليوم وشدته وطوله، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ

وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾  
وَنَرَنَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ (١٥٦٧).

فإذا رأوا ذلك اليوم وشدته وطوله ظنوا أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة من

نهار، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرَبِّهِمْ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴿١٥٦٨﴾﴾.

جاء في تفسير القرآن العظيم: (يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحشرهم من

أجدانهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبِثُونَ  
إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (١٥٦٩)، وكقوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَلْبِثُونَ إِلَّا عِشْرَةَ أَوْ سَاعَةً﴾ (١٥٧٠)، وقال  
تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْمُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ مَن  
أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ (١٥٧١)، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ  
يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿٥٥﴾﴾ (١٥٧٢).

(١٥٦٧) سورة المعارج : الآيات ٤-٧.

(١٥٦٨) سورة يونس : آية ٤٥.

(١٥٦٩) سورة الأحقاف : آية ٣٥.

(١٥٧٠) سورة النازعات : آية ٤٦.

(١٥٧١) سورة طه : الآيات ١٠٢-١٠٤.

(١٥٧٢) سورة الروم : آية ٥٥.

وهذا كله دليل على استتصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: ﴿قُلْ كَمْ لِيَشْتَرِيَ فِي

الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٥٧٣﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يُومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلِ الْعَادِينَ ﴿١٥٧٤﴾ قُلْ إِنْ لِيَشْتَرِيَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥٧٥﴾﴾ (١٥٧٣)

ومن أعظم تلك الأهوال ذلك الدمار الكوني الشامل الرهيب الذي يصيب الأرض وجبالها والسماء وشمسها وقمرها ونجومها حيث إن الأرض تزلزل وتذك، وأن الجبال تسير وتتسف، والبحار تفجر و تسجر، والسماء تتشق و تمور، والشمس تكور وتذهب، والقمر يخسف، والنجوم تتكدر ويذهب ضوءها وينفطر عقدها.

والقرآن الكريم مفعم بالآيات الدالة على ذلك، ومن أراد ذلك فليرجع إليه في كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، وكذلك كتب التفسير التي شرحت هذه الآيات وكتب السنة التي شرحت أحاديث رسول الله ﷺ وما ذكرته هنا هو مجرد إشارة إلى ذلك، فالحديث عن ذلك تزخر به كتب التفسير وشروح السنة.

وأكتفي بما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: " من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا الْمَسُّ نُورٌ ﴿١﴾﴾ (١٥٧٤)، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ (١٥٧٥)، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ (١٥٧٦)، (١٥٧٧).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: (وإنما كانت هذه السور الثلاث اخص بالقيامة لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها وتكور شمسها وانكدار نجومها وتناثر كواكبها، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم بعد نشر صحفهم

(١٥٧٣) سورة المؤمنون : الآيات ١١٢-١١٤ .

(١٥٧٤) سورة التكوير : آية ١ .

(١٥٧٥) سورة الانفطار : آية ١ .

(١٥٧٦) سورة الانشقاق : آية ١ .

(١٥٧٧) سورة الانشقاق : آية ١ .

وقراءة كتبهم، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما يأتي بيانه) (١٥٧٨).

ومع هذه الأحوال وشدتها، ووقعها في نفوس الناس فإن هناك صنفاً من الناس آمنون لا يخافون، فهم لا يفرعون عندما يفرع الماس ولا يحزنون عندما يحزن الناس، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله وعملوا بطاعة الله استعداداً لذلك اليوم فيؤمنهم الله في ذلك اليوم، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدي من روعهم، وتطمئن قلوبهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ ﴿١١٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١١١﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُم مَّلَٰئِكَةً هَٰذَا يَوْمَكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١٥٧٩).

والفرع الأكبر هو: ما يصيب العباد عندما يبعثون من القبور.

جاء في التحرير والتنوير: (... وجملة ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً﴾ بيان لمعنى مبعدون، أي: مبعدون عنها بعداً شديداً بحيث لا يفتحهم حرها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد ما يبلغ عن المرئي.

والحسيس: الصوت الذي يبلغ الحس، أي الصوت الذي يسمع من بعيد أي: لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتهم، فهم سالمون من الفرع من أصواتها فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها.

وعقب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم، وجئ فيه بما يدل على

العموم، وهو ﴿مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾، وما يدل على الدوام وهو ﴿خَالِدُونَ﴾.

والشهوة: تشوق النفس والشهوة: تشوق النفس إلى ما يلذ لها.

(١٥٧٨) التذكرة للقرطبي ص ٢٤١.

(١٥٧٩) سورة الأنبياء: الآيات ١٠١-١٠٣.

وجملة ﴿لَا يَخْزُهُمْ الْفَزَعُ﴾ خبر ثان عن الوصول.

والفزع: نفره النفس وانقباضها مما تتوقع أن يحصل لها من الألم وهو قريب من الجزع، والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إياهم، وذلك مفاد قوله تعالى: ﴿وَنُلَقِّنَهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمَئِذٍ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٥٧).

فهؤلاء الذين سبقت لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَفَزَعَنَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (١٥٧) (١٥٨٠) (١٥٨١).

وجاء في نظم الدرر في معنى هذه الآية الأخيرة: ( ولما كان ما ينشأ عنه من فزعهم مع كونه محققاً مقطوعاً به كأنه وجد ومضى، يكون في آن واحد، أشار إلى ذلك وسرعة وكونه بالتعبير الماضي، فقال: ﴿فَفَزَعَنَّا﴾ أي: صعق بسبب هذا النفخ ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾، ولما كان الأمر مهولاً كان الإطناب أولى فقال: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كلهم ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: المجدي علماً وقدرة وعزة وعظمة، أن لا يفزع، ثم أشار إلى النفخ لإحياء الكل بقوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: من فزع ومن لم يفزع ﴿أَتَوْهُ﴾ أي: بعد ذلك للحساب بنفخة أخرى يقيمهم، دليلاً على تمام القدرة في كونه أقامهم بما به أنامهم ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين منكرين، واستغنى عن التصريح به بما يعلم بالبديهة من أنه لا يمكن إتيانهم في حال فزعهم الذي هو كناية عن بطلان إحساسهم، هذا معنى ما قاله كثير من المفسرين، و الذي يناسب سياق الآية الماضي- من كون الكلام في القيامة الذي هو ظرف لما بين البعث ودخول الفريقين إلى داريهما- أن يكون هذا النفخ بعد البعث.... (١٥٨٢).

ففي ذلك اليوم ينادى منادى الرحمن أولياء الرحمن مطمئناً لهم: ﴿يَنْعِبُوا وَلَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ يَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٦) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٦﴾ (١٥٨٣).

(١٥٨٠) سورة النمل: آية ٨٧.

(١٥٨١) التحرير والتلوين لابن عاشور ١٥٦/٧، ١٥٧.

(١٥٨٢) نظم الدرر للبقاعي ٢٢١/١٤، ٢٢٢.

(١٥٨٣) سورة الزخرف: الآيتان ٦٨، ٦٩.

وهذا تنفيذ لوعده الله تعالى لهم: ﴿الْآيَاتِ أَوَّلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ

لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴿١٥٨٤﴾، قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ

خَيْرٌ مِمَّا وَهَمَّ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿١٥٨٥﴾.

قال أبو السعود<sup>(١٥٨٦)</sup>: ﴿...﴾ ﴿ءَامِنُونَ﴾: لا يعترئهم ذلك الفزع الهائل ولا يلحقهم ضرره

أصلاً، وأما الفزع الذي يعترئ كل من في السموات ومن في الأرض غير من استثناه الله تعالى فإنما هو التهاب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهي والأحوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وإن كان آمناً من لحوق الضرر ﴿١٥٨٧﴾

كما أن الله سبحانه وتعالى بين أن الناس يوم القيامة قسمان:

قسم خائف غير آمن يوم القيامة بسبب تفريطه في الدار التي هي مكان اختبار وابتلاء

مخالف شرع الله منساق وراء شهواته ورغباته.

﴿١٥٨٤﴾ سورة يونس: الآيات ٦٢-٦٤.

﴿١٥٨٥﴾ سورة النمل: آية ٨٩.

﴿١٥٨٦﴾ هو: أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، المولد سنة ٨٩٣هـ بقرية قريبة

من القسطنطينية، وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل حتى قال بعضهم فيه: تربي

في حجر العلم حتى ربي وارضع ندي الفضل إلى أن ترعرع وحباً، تولى التدريس في

كثير من المدارس التركية، ثم قلدا قضاء بروسه ثم نقل إلى قضاء القسطنطينية، ثم تولى

أمر الفتيا بعد ذلك، ومكث فيه نحواً من ثلاثين سنة فقام به خير قيام، له مؤلفات منها:

تفسيره المشهور بتفسير أبي السعود، مات سنة ٩٨٢هـ بمدينة القسطنطينية ودفن بجوار

أبي أيوب الأنصاري، فرحمه الله رحمة واسعة. أنظر: التفسير والمفسرون

للذهبي ٣٤٥/١ وما بعدها.

﴿١٥٨٧﴾ تفسير أبي السعود ٣٠٥/٦.

وقسم آمن مطمئن يوم القيامة بسبب ما قدمه من أعمال صالحة مستقيمة، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْهَا أَلَمْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ (١٥٨٨).

جاء في فتح القدير: (... هذا الاستفهام للتقرير، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلحون في النار، ون المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة، وظاهر الآية العموم اعتبراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) (١٥٨٩).

وجاء في أيسر التفاسير: (وقوله: ﴿ أَلَمْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إذا كان لا يوجد عاقل يقول: الذي يلقي في النار خير ممن يأتي آمنة يوم القيامة، فالإلقاء في النار سببه الكفر والإلحاد والباطل، فليترك هذه من أراد النجاة من النار، والأمن يوم القيامة من كل خوف من النار وغيرها سببه الإيمان والتوحيد فليؤمن ويوحده الله تعالى في عبادته ولا يلحد في آياته من أراد الأمن يوم القيامة بعلمه أنه خير من الإلقاء في النار، هذا أسلوب في الدعوة عجيب انفرد به القرآن الكريم) (١٥٩٠).

والسر في هذا الأمن الذي يشمل به الله عباده الأتقياء أن قلوبهم كانت في الدنيا عامرة بالإيمان، عامرة بمخافة الله، فأقاموا ليلهم، وأظمأوا نهارهم واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَيْرًا قَطِرًا ﴿١٠﴾ ﴾ (١٥٩١) ، أي كالح الوجه مسوداً ثقيلًا طويلًا لا يطاق، واستجاب الله لهم وحقق بفضله مناهم فوقاهم الله شر ذلك اليوم العبوس القمطير، ولقاهم نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم، وجزاهم بما صبروا على فعل

(١٥٨٨) سورة فصلت: آية ٤٠.

(١٥٨٩) فتح القدير للشوكاني ٤/٥١٨، ٥١٩.

(١٥٩٠) أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر الجزائري ٤/١٢٣، ١٢٤.

(١٥٩١) سورة الإنسان: آية ١٠.

الصالحات وعن ترك المحرمات جنة وحريراً، ومن كان حاله كذلك فإن الله يقبّه شر ذلك اليوم ويؤمنه: ﴿فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْم نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (١١) وَجَزَّهْم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ (١٥٩٢).

وفي الحديث عن الرسول الله ﷺ أنه قال: " قال عز وجل: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنتني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنتّه يوم أجمع فيه عبادي" (١٥٩٣).

وكلما كان العبد أكثر إخلاصاً لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمناً في يوم القيامة، يدلك على هذا جواب إبراهيم عليه السلام لقومه عندما خوفوه بأصنامهم فأجابهم إجابة النقي المخلص الوائق بربه، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ (١٥٩٤).

## ثانياً

### الأمن عند الحساب وأخذ الكتب

كلمة حساب مأخوذة من قولك: حسبته، أي: عدته، وبابه نصر وكتب، وحساباً أيضاً بالكسر، وحُساباً بالضم، والمعدود: محسوب (١٥٩٥).

(١٥٩٢) سورة الإنسان: الآيتان ١١، ١٢.

(١٥٩٣) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه رواه ابن حبان في صحيحه (باب: حسن الظن بالله تعالى) ١٦/٢ رقم الحديث (٦٣٩)، وأبو نعيم في الحلية ٩٨/٦، وقد صحح الحديث ابن حبان والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٦٦/٢ رقم الحديث (٧٤٢).

(١٥٩٤) سورة الأنعام: الآيتان ٨١، ٨٢.

(١٥٩٥) مختار الصحاح تحت مادة (ح س ب) ص ١٣٤، ١٣٥ بتصريف.

جاء في نظم الدرر في قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهٖ ٱللَّهُ﴾ (١٥٩٦): ﴿يُحَاسِبُكُمْ﴾ من المحاسبة مفاعلة من الحساب، والحسب، وهو استيفاء الأعداد فيما للمرء وعليه من الأعمال الظاهرة والباطنة بعني ليجازي بها(١٥٩٧).

ويوم الحساب معناه أن الباري يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة يعدد عليهم نعمة ثم يقابل البعض بالبعض فما شف منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر.

وفي هذا اليوم - يوم الحساب - يأتي كل إنسان وعمله معلق في عنقه كالقلادة، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ ٱنْسَٰنٍ أَرْزَمَهُ طَبْرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِّجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَٰهُ مِنشُورًا﴾ (١٥٩٨)، وذلك أن الإنسان يعمل في الدنيا فيكتب له وعليه كل شيء، فإذا مات طويت تلك الصفائف حتى إذا بعث نشرت له في كتاب ثم يقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٥٩٩).

ويقرأ كل إنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي، وحينئذ يبعث الناس من قبورهم إلى الموقف - وما أدراك ما الموقف - إنه موقف عصيب يشيب فيه الولدان وتدنوا الشمس من الرووس قدر رمح، وينزل العرق من الناس حتى يلجم بعضهم وفيه من الأهوال والرعب ما الله به عليم.

فإذا جاءوا الموقف قاموا فيه ما شاء الله تعالى حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه فيؤمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأوتوها فمنهم من يؤتي كتابه بيمينه فأولئك هم السعداء الفائزون برضاء الله وجناته، ومنهم من يؤتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره، وأولئك هم الأشقياء وإلى جهنم وبئس المصير.

(١٥٩٦) سورة البقرة: آية ٢٨٤.

(١٥٩٧) نظم الدرر للبقاعي ١٦٥/٤.

(١٥٩٨) سورة الإسراء: آية ١٣.

(١٥٩٩) سورة الإسراء: آية ١٤.

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِْمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فِيْهَا شَيْئًا ۝٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ (١٦٠٠).

جاء في التفسير القرآني للقرآن عند تفسيره لهذه الآية: (... والآية تنتقل بهؤلاء الناس الذين أكرمهم الله وفضلهم على كثير من خلقه، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات، تنتقل بهم الدنيا التي يتقلبون فيها، ويسرحون ويمرحون، فإذا هم بين يدي الله في مقام الحساب والجزاء والقيامة، وإذا كل جماعة مع إمامهم الذي كانت تتبعه، وتتقاد له، فأتباع الأنبياء مع أنبيائهم، وأتباع الضلال مع أئمتهم، وهكذا كل طائفة وكل جماعة وكل أمة مع إمامها وقائدها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهَادَةِ﴾ (١٦٠١).

فالنبيون والشهداء يشهدون على أتباعهم بما كان منهم في الدنيا ... وليس علم الله سبحانه وتعالى بهم، في حاجة إلى من يقيم الشهادة عليهم، ولكن هذه الشهادة هي خزي وفضح للمجرمين يعرض مخازيهم على الملأ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِْمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فِيْهَا شَيْئًا ۝٧١﴾ هو عرض لأهل الفوز والنجاة في الآخرة، وهم الذين أخذوا كتابهم بيمينهم، فهؤلاء يجدون مسرة بقاء كتابهم، وتهش نفوسهم لقراءته، والاستمتاع بما يروونه فيه من أعمال طيبة، تؤهلهم لرضوان الله والفوز بالجنة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ۝٧١ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٧٢ وَنَقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٧٣﴾ (١٦٠٢).

(١٦٠٠) سورة الإسراء: آية ٧١، ٧٢.

(١٦٠١) سورة الزمر: آية ٦٩.

(١٦٠٢) سورة الانشقاق: الآيتان ٧، ٩.

ويقول جل شأنه: ﴿يَوْمَذُ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْقَرَ كَنِيئَهُ، يَسْمِينَهُ، فَيَقُولُ هَؤُومَ

أَقْرَعُوا كِنِيئَهُ ﴿١٩﴾ (١٦٠٣).

إنه لسعيد بهذا الكتاب، وإن الفرحة لتماماً كيانه، فيطير بها فرحاً هنا وهناك يدعو من يلقاه ليقراً ما في كتابه، وليشاركه هذه الفرحة فيتضاعف فرحه ويعظم سروره.

وفي إفراد الضمير العائد على الموصول في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ﴾،

ثم إعادته إليه جمعاً في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في هذا ما يشير إلى أن كل واحد يدعى ليأخذ كتابه بيده، ثم إذا أخذ كل كتابه اجتمع بعضهم إلى بعض، والتقى أهل اليمين بأهل اليمين، وأهل الشمال بأهل الشمال، ومن هنا كانت قراءة أهل اليمين لكتبهم في صورة جماعية كل يقرأ كتابه، ويقرأ كتب أصحابه! أما أهل الشمال فكل منهم في شغل بما بين يديه من هم ثقيل (١٦٠٤).

وهذه الآيات بينت حال المؤمنين وما يعمرهم به الله من سعادة وأمن أثناء أخذهم كتبهم باليمين

جزاء ما قدموا في دنياهم من طاعة لله وامتنال لأوامره واجتناب عن نواهيه، فهم فرحون بهذا الحال الذي هم فيه وهذه النتيجة التي توصلوا إليها لدرجة أنهم يطلبون ممن حولهم من الملائكة أن يقرأوا كتبهم كما وصف الله تعالى حالهم هذه، وأن ذلك نتيجة يقينهم في الدنيا بقاء ربهم، وأنهم سيسألون عما قدموا في الحياة الدنيا، فقال تعالى: ﴿يَوْمَذُ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْقَرَ كَنِيئَهُ، يَسْمِينَهُ، فَيَقُولُ هَؤُومَ أَقْرَعُوا كِنِيئَهُ ﴿١٩﴾ إِنْ ظَنَنْتُ أَنْيَ مُلْكِي حَسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾ (١٦٠٥).

هذا هو بيان لأحوال أهل السلامة في هذا اليوم، يوم القيامة حيث تسير خطواتهم إلى

الجنة، على هدي ونور من ربهم، وحيث تتلقاهم البشريات على كل مرحلة من مراحل مسيرتهم إلى رضوان الله تعالى.

(١٦٠٣) سورة الحاقة: الآيات ١٨، ١٩.

(١٦٠٤) التفسير القرآني للقرآن ١٥/٥٢٨، ٥٢٩.

(١٦٠٥) سورة الحاقة: الآيات ١٨-٢٠.

فمنذ أن يخرج المؤمن من هذه الدنيا وتفارق روحه جسده وهو يري مشاهد النجاة وينشق أرواح الجنة، ويشم أريجها العطر، كما يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوَدِّهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوتَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٦٠٦).

فهذه أولى بشرىات المؤمن، وهو على أول الطريق إلى الله والدار الآخرة، فإذا كان يوم القيامة، ووقع النفخ في الصور، وبعث الموتى من القبور لم يحزن هؤلاء المؤمنون ولم يجزعوا، من فرغ هذا اليوم، بل تتفاهم الملائكة تخفف عنهم من وقع الصدمة، وتخبرهم بأن هذا هو اليوم الذي وعدوا به، وعملوا له، وانتظروه، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَةُ أُولَئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ (١٦٠٧) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٦٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَنَلْفَعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦٣﴾ (١٦٠٧).

فإذا سيق الناس إلى المحشر، وعرضوا للحساب، وجد كل إنسان كتاب أعماله في يده فمن كان من أصحاب الجنة أخذ كتابه بيمينه، ومن كان من أهل النار أخذ كتابه بشماله، وهنا تزداد معرفة الناس - بالمصير الذي سيصير عليه كل منهم، وهنا تعلق أهل المحشر أحوال شتى، تختلط فيها صيحات الفوز وبهجة الفرح بأنات الحسرة وزفرات اليأس.

فمن أخذ كتابه بيمينه، تراه وقد استطارة الفرح واستخفه الظفر فجعل الظفر فجعل يلوح بكتابه، وينادي به في الناس: أن اقرعوا كتابيه !! إنه يريد أن يشهد الناس معه هذه الحال التي هو فيها، وليشاركوه هذه الفرحة الكبيرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَنَسْتُ أَنبُؤَ الْمَلَأِيكَةِ حَسَابِيَةً﴾ (١٦٠٨) هو من مقولة صاحب الكتاب المأخوذ باليمين، لمن يلقي من أهل المحشر، فهو إذ يأخذ كتابه بيمينه، يطير فرحاً فيحدث

(١٦٠٦) سورة النحل: آية ٣٢.

(١٦٠٧) سورة الأنبياء: الآيات ١٠١-١٠٣.

(١٦٠٨) سورة الحاقة: آية ٢٠.

الناس وكل من يلقاه من أهل المحشر، ويدعوهم إلى أن يقرءوا كتابه، وأن يروا ما في وثيقته التي في يده، من أعمال طيبة، وأن هذه الأعمال الطيبات إنما هي التي أعدها لهذا اليوم وعملها في دنياه، لأنه كان على يقين من أنه سيبعث وسيحاسب.

قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٣﴾ كُلُوا وَشَرِبُوا هُنَا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٤﴾﴾ (١٦٠٩).

هو بيان لحال من أوتي كتابه بيمينه وللجزاء الحسن الذي يلقاه يوم القيامة إنه سيكون في عيشة راضية أي: في جناب طيبة يجد فيها الرضا كله في جميع أحواله وفي وصف العيشة بأنها هي الراضية، إشارة إلي أن حقيقة هذه العيشة هي الرضا نفسه، الذي يسع النفوس جميعاً، على اختلاف مقاماتها ومنازعتها... وهذا أبلغ - في مقام الرضا - من أن يكون الوصف بالرضا لمن يعيش في المعيشة، فقد يرضي الإنسان بلون من المعيشة هي في حقيقتها معيشة نافهة حقيرة، تأبأها كثير من النفوس الكبيرة، وتراها شقاء وبلاء إذا هي حُملت عليها (١٦١٠).

وخلاصة القول: أن أصحاب اليمين قد وصف الله تعالى حالهم علاوة على ما سبق بأنهم سيكون حسابهم سهلاً ميسوراً.

وأن نهايتهم الفرح والسرور والسعادة والأمن نضير ما قدموا في دنياهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَيِّئًا ﴿٨﴾ وَنُقَلِّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ (١٦١١).

وأن الناس يوم الحساب وكل نفس يوم القيامة مرهونة بما كسبت إلا أصحاب اليمين، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَسْحَبَ إِلَيْنَا ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّةٍ نَسَاهُ لَوْلَا ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ (١٦١٢).

(١٦٠٩) سورة الحاقة: الآيات ٢١-٢٤.

(١٦١٠) انظر: التفسير القرآني للقرآن ١١٧٣/٢٩ - ١١٤٠ بتصرف.

(١٦١١) سورة الانشقاق: الآيات ٧-٩.

(١٦١٢) سورة المدثر: الآيات ٣٨-٤١.

فأصحاب اليمين - كما قلت - لهم النعيم، ولهم الرضوان، ولهم الجنة، ولا شك أن ذلك كله بسبب ما قدموه في الدنيا فأدي بهم على الأمن والنعيم وغيره مما ذكرت.

يقول القرطبي بعد أن ذكر القيامة وأحوالها والحساب ومشاقه وأخذ الكتب إمّا باليمين أو بالشمال: (فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ونصبت الموازين وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق أين فلان بن فلان هلم إلى العرض على الله تعالى وقد وكلت الملائكة بأخذك فقربتك إلى الله لا يمنعا اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك إذ عرفت أنك المراد بالدعاء، إذ قرع النداء قلبك، فعلمت أنك المطلوب فارتعدت فرائصك واضطربت جوارحك، وتغير لونك، وطار قلبك، تخطي بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه، وقد رفع إليك أبصارهم وأنت في أيديهم، وقد طار قلبك واشتد رعبك لعلمك أين يراد بك.

فتوهم نفسك وأنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك لا تغادر بلية كتبتها ولا مخبأة أسرتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل وقلب منكسر، والأحوال محنقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتهما ذكرهما، وكم من سيئة قد كنت أخفيتهما قد أظهرها وأبدها، وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيماً، فيا حسرة قلبك، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَهُ بِسْمِيهِ﴾<sup>(١٦١٣)</sup> فعلم أنه من أهل الجنة ﴿فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْلَءَا كُنِّيَّةٌ﴾<sup>(١٦١٤)</sup> وذلك حين يأذن الله فيقرأ كتابه.

فإذا كان الرجل رأساً في الخير يدعو إليه ويأمره به ويكثر تبعه عليه دعي باسمه واسم أبيه حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض في باطنه السيئات وفي ظاهره الحسنات فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه، ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه سيئاتك وقد غفرت لك، فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحاً، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه حسناتك قد ضوعفت لك فيبيض وجهه، ويؤتي بتاج فيوضع على رأسه ويكسي حلتين ويحلي كل مفصل فيه وبطول ستين ذراعاً وهي قامة آدم - عطين السلام - ويقال له: نطلق إلي أصحابك فيشرهم وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أذبر قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَهُ بِسْمِيهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْلَءَا كُنِّيَّةٌ﴾<sup>(١٦١٣)</sup>

<sup>(١٦١٣)</sup> سورة الحاقة: آية ١٩.

<sup>(١٦١٤)</sup> سورة الحاقة: آية ١٩.

إِنِّي كُنْتُ أَرَىٰ مُلْكِي حَسَابِيَّةً ﴿٢٠﴾ ﴿١٦١٥﴾، قال الله تعالى: ﴿هُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاحِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ ﴿١٦١٦﴾ أي: مرضية ﴿فِي حَكْمَةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿١٦١٧﴾ في السماء ﴿فَطُورُهَا﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿دَائِمَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿١٦١٨﴾ أدنيت منهم فيقول لأصحابه: هل تعرفونني؟ فيقولون: قد غمرتك كرامة الله، من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿كُلُوا وَامْتَرُوا هَيْبًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿١٦١٩﴾ أي: قدمتم في الدنيا.

وإذا كان الرجل رأساً في الشر يدعو إليه ويأمر به فيكثر تبعه عليه ونودي باسمه واسم أبيه، فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقروها ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه، هذه حسنات وقد ردت عليك فيسود وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزناً ولا يزداد وجهه إلا سواداً، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيئاتك وقد وضعت عليك - أي: يضاعف عليه العذاب ليس المعنى أنه يزداد عليه ما لم يعمل - قال: فينظر إلى النار وتزرق عيناه ويسود وجهه ويكسي سراويل القطران، ويقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا فينطلق وهو يقول: ﴿بَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٢٩﴾﴾ ﴿١٦٢٠﴾، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَعَلُوهُ ﴿٣٠﴾ نُوَلِّجْهِمْ مُّسَوِّوَةً ﴿٣١﴾ تَرَفُّ فِي سُلَيْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَعْمُونَ ذَرْعًا فَأَسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿١٦٢١﴾.

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فتخلع كتفه اليسرى فتجعل يده خلفه فيأخذ بها كتابه.

فتوهم نفسك إن كنت من السعداء وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه قد حل لك الكمال والحسن والجمال كتابك في يمينك أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقي بعدها أبداً.

﴿١٦١٥﴾ سورة الحاقة: الآيات ١٩، ٢٠.

﴿١٦١٦﴾ سورة الحاقة: آية ٢١.

﴿١٦١٧﴾ سورة الحاقة: آية ٢٢.

﴿١٦١٨﴾ سورة الحاقة: آية ٢٣.

﴿١٦١٩﴾ سورة الحاقة: آية ٢٤.

﴿١٦٢٠﴾ سورة الحاقة: الآيات ٢٧-٢٩.

﴿١٦٢١﴾ سورة الحاقة: الآيات ٣٠-٣٢.

أما إن كنت من أهل الشقاوة فيسود وجهك وتتخطى الخلائق كتابك في شمالك أو من وراء ظهرك تتادي بالويل والثبور، وملك أخذ ينادي على رؤوس الخلائق، ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً (١٦٢٢).

ومن هذه النصوص يتبين حال المؤمن وما ينعم به من أمن وسعادة وفرح وسرور منذ أول لحظة يودع فيها الدنيا إلى أن يسكن الجنة ويستقر وصدق الله العظيم، إذ يقول: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَعْمَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٦٢٣).

### ثالثاً

## الأمن عند عبور الصراط

تعريف الصراط:

الصراط في اللغة: الطريق الواضح، ومنه قول الشاعر العربي:

أمير المؤمنين على صراط إذا عوج الموارد مستقيم (١٦٢٤)

وفي الشرع: جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون فهو قنطرة بين الجنة والنار (١٦٢٥).

جاء في الصحاح تحت مادة "ص ر ط": (الصراط والسرط والزرط: الطريق) (١٦٢٦).

(١٦٢٢) أنظر: التذكرة للقرطبي ص ٢٩٤-٢٩٧ بتصرف.

(١٦٢٣) سورة إبراهيم: آية ٢٧.

(١٦٢٤) هذا البيت للشاعر جرير بن عطية الخطفي. ديوان جرير ص ٣٨٢.

(١٦٢٥) أنظر: لوامع الأنوار البهية للسفارييني ١٨٩/٢.

جاء في شرح الطحاوية: (ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟، فقال: "هم في الظلمة دون الجسر" (١٦٢٧)(١٦٢٨).

يقول القرطبي راداً على من قال بمجازية الصراط والمؤولين للنصوص المصرحة به: (ذهب بعض من تكلم على أحاديث هذا الباب في وصف الصراط بأنه أدق من الشعر، وأحد من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى لخفائها وغموضها، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي: دقيق. فضرب المثل له بدقة الشعر، فهذا والله أعلم من هذا الباب.

ومعني قوله: "وأحد من السيف" أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى إلى الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومضيه إسراراً منهم إلى طاعته وامتناله، ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحدة وقوة في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد.

وأما أن يقال: إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر، فذلك مدفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنبه، وأن فيه كلاليب وحسكاً أي: أن من يمر عليه يقع على بطنه، ومنهم من يزل ثم يقول، وفيه أن من الذين يمرون عليه من يعطي النور بقدر

---

(١٦٢٦) مختار الصحاح ص ٣٦١.

(١٦٢٧) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحيض، باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما) رقم الحديث (٧١٤) ٢/٣، ٢١٧، والحاكم في (كتاب معرفة الصحابة) ٣/٤٨١، والطبراني في الكبير رقم الحديث (١٤١٤) ٢/٩٣، وابن حبان (باب: صفة الجنة وأهلها) رقم الحديث (٧٣٧٩) ٩/٢٥٤.

(١٦٢٨) شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي ص ٤٦٩.

موضع قدمه، وفي ذلك إشارة إلي أن للمارين عليه مواطئ الأقدام، ومعلوم أن رقة الشعر لا يحتمل هذا كله، وقال بعض الحفاظ: إن هذه اللفظة ليستبث بثابتة (١٦٢٩).

ثم ردّ عليهم بقوله: (ما ذكره القائل مردود بما ذكرنا من الأخبار، وأن الإيمان يجب بذلك، وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن فيجربه أو يمشيه، ولا يعدل عن الحقيقية إلى المجاز إلا عند الاستحالة ولا استحالة في ذلك للآثار الواردة في ذلك وثباتها بنقل الأئمة العدول: ﴿وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْجُو فَلْيَلْمِ نَفْسَهُ﴾ (١٦٣٠) (١٦٣١).

فعندما يذهب بالكفرة الملحدين والمشركين الضالين إلى دار البوار: جهنم يصلونها وينس القرار، يبقى في عرصات القيامة أتباع الرسل الموحدين: وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق، وتلقي عليهم الظلمة قبل الجسر كما في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سئل الرسول ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: "هم في الظلمة دون الجسر" (١٦٣٢) (١٦٣٣).

بيدًا حينئذٍ المرور على الصراط وقد انتهت أرض الحشر واختفت شمس الحشر وأصبحت الدنيا ظلاماً، كل يرى على قدر النور الذي أعطاه الله له، فبعضنا أعطاه الله نوراً قوياً فهو يرى، وبعضنا أعطاه الله نوراً بسيطاً فهو يرى على قدر خطوة قدميه، وبعضنا أعطاه الله نوراً بسيطاً فهو يزحف ببضع شديد، ويرى أهوالاً ويظن في كل مرة أنه سيسقط في النار، فإذا مرَّ بالصراط ونجا حمد الله كثيراً على النعمة الكبرى (١٦٣٤).

(١٦٢٩) التذكرة للقرطبي ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(١٦٣٠) سورة النور: آية ٤٠.

(١٦٣١) التذكرة للقرطبي ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(١٦٣٢) الحديث سبق تخريجه ص ٦٢٨.

(١٦٣٣) اليوم الآخر [٢] القيامة الكبرى للدكتور عمر الأشقر ص ٢٧٢.

(١٦٣٤) معجزة القرآن مشاهد يوم القيامة للشيخ محمد متولي الشعراوي ص ٩٨.

يقول شارح الطحاوية: (وفي هذا الموضع يفترض المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنهم من الوصول إليهم) (١٦٣٥).

وفي هذه اللحظات الحرجة يشعر المؤمنون بالأمن والطمأنينة والاستبشار بدخول الجنة والبعد عن النار، لأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم من النور ما يبصرون معه الطريق ويمكنهم من العبور بأمن وسلامة، قال تعالى مصوراً حال المؤمنين والمؤمنات في هذا المشهد العظيم: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَسْعَى الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ (١٦٣٦).

جاء في تفسير القرآن العظيم لهذه الآية: (يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعون نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطلقاً مرة) (١٦٣٧).

ثم يصور لنا القرآن بعد ذلك صورة رضا المؤمنين بهذا النور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْرَى اللَّهُ النَّيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَأَعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٣٨).

وهكذا دعاء المؤمنين بأن يتم الله لهم نوره، وعلى قدر نور كل واحد منهم يكون مروره على الصراط فأتقاهم يمر كالبرق، وكلما قل العمل الصالح كان المرور على الصراط بطيئاً مليئاً بالأهوال حتى يحسب الذي يمر أنه سيسقط في جهنم، فالمرور بالصراط من أهوال القيامة وخصوصاً وأنت

(١٦٣٥) شرح الطحاوية ص ٤٧٠.

(١٦٣٦) سورة الحديد: آية ١٢.

(١٦٣٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٠٨.

(١٦٣٨) سورة التحريم: آية ٨.

ترى جهنم مشتعلة وأنت تمر فوقها، ومن هول ما ترى تدعو الله ألا يقضي عليك بثانية واحدة فيها، فما بالك بمن سيمكث فيها زمناً طويلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَن يَبْصُرُوا﴾ (١٦٣٩).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لهم الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك، أذهبوا إلى أبيكم إبراهيم خليل الله، قال: فيقول: إبراهيم: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليماً، فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك، أذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى ﷺ: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمداً ﷺ فيقول: فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: يا أي أنت وأمي، أي شيء كمر البرق، قال: ألم تروا على البرق كيف يمر ويرجع في طرفه عين، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال تجري بهم أعمالهم، ونببكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع إلا زحفاً قال: وفي حافتي الصراط كلاب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج، ومكدوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً" (١٦٤٠).

معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧٦) ثُمَّ نَتَجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا (٧٧) ﴿١٦٤١﴾.

يخبر عز وجل عن حكم حكم به وقضاء قضي به، وهو أنه ما من واحد منا معشر بني آدم إلا وارد جهنم.

(١٦٣٩) سورة يس: آية ٦٦.

(١٦٤٠) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: حديث الشفاعة) رقم الحديث (٤٨١)

٦٥/٣. قال الشارح: انفرد به مسلم في تحفة الأشراف (٣٣١١) و (١٣٤٠٠).

(١٦٤١) سورة مريم: الآيتان ٧١، ٧٢.

وبيان ذلك كما جاء في الحديث أن الصراط جسر يمد على ظهر جهنم والناس يمرون فوقه، فالمؤمنون يمرون ولا يسقطون في النار، والكافرون يمرون فيسقطون في جهنم وهو معنى قوله في الآية الثانية: ﴿تُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ (١٦٤٢).

يقول الشيخ الشعراوي: (ورد، أي: وصل إلى المكان وليس معنى ذلك أنه يذوق ما فيه، فيقال: ورد الماء، أي: وصل إلى مكان الماء، ولا يعني ذلك أنه شرب منه أو خاض فيه، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ (١٦٤٣)، أي: وصل إلى مكان الماء، كذلك قال الله سبحانه وتعالى عن جهنم: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لِرِجَالٍ وَارِدُهَا﴾، أي: أنتم جميعاً ستصلون إليها، ولكن لن تعذبوا جميعاً فيها، بل سينجي الله المؤمنين ويعذب العصاة والكافرين، وهذا سيتم على الصراط الذي يضرب فوق جهنم، هذا الصراط يمر عليه كل الخلق ليروا جهنم رؤية اليقين، فكل منا سيمر عليها، لماذا؟ ليعرف الطائع نعمة الله في أنه نجاه من العذاب، فالنجاة من عذاب جهنم نعمة كبرى، وليرى الكافر والعاصي ما ينتظرهما من عذاب) (١٦٤٤).

قلتُ: والورود هنا: المرور على الصراط، هكذا ثبت مرفوعاً إلي النبي ﷺ وجاء في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - الذي يقول فيه: قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: "دحض مزلة فيه خطاطيف وكلايب وحسكة مفلطحة لها شوكة عفيفاء، تكون بنجد، يقال لها: السعدان، يمر المؤمن عليه كالبرق وكالريح وأجادويد الخيل والركاب فجاج مسلم، ونجاج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم" (١٦٤٥).

(١٦٤٢) أيسر التفاسير للجزائري ٣/٣١، ٣٢.

(١٦٤٣) سورة القصص: آية ٢٣.

(١٦٤٤) معجزة القرآن مشاهد يوم القيامة محمد متولي الشعراوي ص ٩٧، ٩٨.

(١٦٤٥) صحيح البخاري بنحوه (كتاب الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم) رقم الحديث

(٦٢٠٤) ٥/٢٤٠٣، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق

الرؤية) رقم الحديث (٤٥٣) ٣/٢٩، وهو جزء من حديث طويل.

فتفكر الآن فيما يحل بك من الفرع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع على بصرك سواء جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك، واضطراب قلبك وتزلزل قدمك، وتقل ظهرك بالأوزار، المانعة لكل من المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجلك فأحسست بحدته، واضطرت إلى أن ترفع القدم الثاني، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم، وتعلو أرجلهم، فيأله من منظر ما أقطعته، ومرتقي ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه (١٦٤٦).

### القنطرة التي بين الجنة والنار:

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: (أعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب أو من يلتقطه عنق النار، فإذا خلاص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصص لا يستنفذ حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله، لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه وأوبي على الحسنات بالقصاص جرمه) (١٦٤٧).

والوقوف على القنطرة يكون فيه القصاص من المظالم التي كانت بين الخلق في الحياة الدنيا وذلك بعد ما يخلص المؤمنون من النار.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم

(١٦٤٦) أنظر: التذكرة للقرطبي ص ٣٨٥.

(١٦٤٧) المرجع السابق ص ٣٩٢.

في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا» (١٦٤٨).

وهذه الآيات والأحاديث كلها تبين نجاة المؤمن من هذه الأهوال وتيسير الله تعالى له كل أمره مما يجعله في غاية الأمن والسعادة.

وأنة لجدير بكل مسلم ومسلمة يؤمنون بالغيب الذي من جملته تلك المشاهد العظيمة والمواقف الرهيبة، أن يعوا لها العدة النافعة والزاد المفيد ليجتازوها بسلامة وأمان، ورضي واظمتنان، وما أخاله يتم لهم ذلك غلا إذا شمروا عن ساعد الجد، وطرقوا صادقين مخلصين أبواب الخير والعمل الصالح الذي يقربهم إلى الله زلفي، وأن يستحضروا دائماً وفي كل وقت وحين هذه المشاهد وغيرها مما أخبر الله به ورسوله ﷺ أنه سيكون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

حقاً إنه لجدير بكل مسلم ومسلمة أن يتقوا الله ربهم ويجتنبوا حماةً ويقوموا بحقه وحق عباده على الوجه الذي يريد منهم، كما ينبغي لهم أن يكثروا من الدعاء فالدعاء هو العبادة، بل مخ العبادة، وأن يعلنوا فعلاً الانكسار بين يديه، فهو سبحانه يقبل العثرات، ويغفر الذنوب ويستر العورات، ويبدل سيئات التائبين حسنات (١٦٤٩).

فهذه هي سبيل الأمن والأمان في العبور على الصراط بأمن وسلامة.

ومما يعين على جواز الصراط في أمن وسلامة:

١- إحسان الصدقة في الدنيا وقضاء حاجة الأرملة.

٢- الإعراض عن الدنيا وأهلها والإقبال على الآخرة والعمل بها.

(١٦٤٨) صحيح البخاري (كتاب الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة) رقم الحديث (٦١٧٠)

.٢٣٩٤/٥

(١٦٤٩) المنهج القويم في التأسى بالرسول الكريم ﷺ للشيخ زيد هادي مدخلي ص ١١٥.

٣- اتخاذ المساجد بيوتاً فهي بيوت المتقين (١٦٥٠). والله أعلم، وبالله التوفيق.

## رابعاً

### الأمن في الجنة

ذكرت سابقاً أن المؤمنين حينما يجتازون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، ثم يهدبون وينقون، وذلك بأن يقتص من بعضهم لبعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا، حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهاراً أبراراً وليس لأحد عند الآخرة مظلمة، ولا يطلب بعضهم بعضاً شيئاً.

وفي هذا أمن لهم في دارهم الباقية - الجنة - ليتمتعوا بنعيمها دون تنغيص؛ لأن في تلك المقاصد تنقية لهم ن كل أنواع الغل والحقد والجسد، وإذا عاش الإنسان بعيداً عن هذه المنغصات وجد لذة العيش، ونعمة الأمن، وتمتع بنعيم الجنة الذي يفوق الوصف ويعجز دونه الخيال؛ إذ أنه ليس لنعيمها نظير فيما يعلم أهل الدنيا، ومهما ترقى الناس في دنياهم فسيبقى ما يبلغونه أمراً هيناً بالنسبة لنعيم الآخرة، ومن أجل أن يكون هذا النعيم، فلا بد أن تكون القلوب سليمة متصافية لا يوجد بينها غل ولا حقد ولا حسد.

وهذا هو الحال في الجنة، أما في الدنيا فمن النادر أن تجد هذه الصفات فيما بين الإخوان وإن وجدت فترة بين بعض الإخوان لا تدوم، لأن الشيطان يوسوس للبعض؛ ولأن أعداء الدين لا يرضون بهذا، قال تعالى مخبراً عن الجنة ونعيمها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٥﴾ أَذْخُلُوهَا بِسَلْوَةٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَنْزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿١٤٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا نَجْصًا وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ (١٦٥١).

(١٦٥٠) أنظر: يوم الفرع الأكبر مشاهد القيامة وأهوالها للقرطبي ص ٣٠٩.

(١٦٥١) سورة الحجر: الآيات ٤٥-٤٨.

وقال تعالى: ﴿وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رَسُولَ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) (١٦٥٢).

جاء في معالم التنزيل: ﴿وَزَعْنَا﴾ أي: أخرجنا: ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ من غش وعاوة كانت بينهم فجعلناهم إخواناً على سرر متقابلين لا يحد بعضهم بعضاً على شيء يخص الله به بعضهم (١٦٥٣).

وقال السدي: (إن أهل الجنة إذا سبقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة يخرج من أصل ساقها عيان، فشربوها من إحداها، فينتزع ما في صدورهم من غل، فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم "نصرة النعيم" فلم يشعثوا ولم يتسخوا بعدها ابداً) (١٦٥٤).

ومما يزيد أمنهم ويثبت طمأنينتهم أنهم لا يقسمون ولا يهرمون ولا يموتون؛ إذ أن الجنة خالدة لا تفتنى ولا تبد وأهلها خالدون فلا يبديون ولا يرحلون عنها ولا يظعنون قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن هذا في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٥١﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٢﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٣﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِهَةٍ أَمِينَةٍ ﴿٥٤﴾ لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ (١٦٥٥).

فقوله: ﴿لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ﴾ هو تلييل لقوله تعالى: ﴿أَمِينَةٍ﴾ أي: أنهم في أمان من أن يزعجهم عن هذا النعيم الذي هم فيه أي خاطر يخطر

(١٦٥٢) سورة الأعراف: آية ٤٣.

(١٦٥٣) معالم التنزيل للبعوي ٢٢٩/٨.

(١٦٥٤) تفسير السدي الكبير جمع وتحقيق ودراسة الدكتور محمد عطا يوسف ص ٢٦١.

(١٦٥٥) سورة الدخان: الآيات ٥١ - ٥٧.

لهم من انقطاع هذا النعيم بالموت أو بالتحول عنه إلى غيره، فهو أمان من الموت ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ ابدأ، فإنها حياة خالدة ونعيم خالد فلا يتحول ابداً عن هذا النعيم إلى ما يقابله من عذاب الجحيم الذي يصلاه أهل النار، فقد وقاهم الله من هذا العذاب وأنقذهم من فلا يتعرضون له ابداً، وهم مع ذلك في غاية الرضا فلا يطلبون ولا ييغون التحول عن هذا النعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٧٨﴾﴾ (١٦٥٦).

هذا عرض للصورة الكريمة، التي يكون عليها المؤمنون يوم القيامة، وللجزاء الكريم الذي يلقونه يوم الجزاء، فعلى حين يصلى الكافرون العذاب الأليم، ينعم المؤمنون بنعيم الجنة ورضوان الله، وفي هذا ما يزيد من حسرة الكافرين وبضاعف من عذابهم، بالقدر الذي يزيد من نعيم المؤمنين وأمنهم، وبضاعف من سرورهم ورضوانهم.

وكيف يرغبون في التحول عنه وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بالنعيم والملك الكبير؟، فمن ذا الذي يرغب في التحول منه؟، قال تعالى: ﴿وَإِذْ رَأَيْتَ نِعْمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمُ رِثْمُهُمْ سُرَابًا مِّمَّوْرًا ﴿١١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ وَكَانَ سَعِيرًا مَشْكُورًا ﴿١٢﴾﴾ (١٦٥٧).

فإذا ما لقوا هذا النعيم حمدوا الله وشكروه على هذه النعم وعلى حفظ الله لهم حيث لا نصب ولا حزن، قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَوَلُؤْلُؤًا مِّمَّوْرًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ (١٦٥٨).

بهذا الحمد الخالص المطلق يستقبل أهل الجنة هذا النعيم الذي هم فيه، فهم يحمدون الله مع كل نعمة تطلع عليهم من نعيم الجنة التي لا ينقطع نعيمها لحظة، لقد أذهب الله عنهم في هذا المقام الكريم الحزن الذي كان قد وقع في نفوسهم لما فاتهم من متاع الدنيا، ولما أبتلو به

(١٦٥٦) سورة الكهف: الآيتان ١٠٧ - ١٠٨.

(١٦٥٧) سورة الإنسان: الآيات ٢٠ - ٢٢.

(١٦٥٨) سورة فاطر: الآيتان ٣٣ - ٣٤.

فيها من مصائب وقتن، ولقد غفر الله لهم ما كان من ذنب، وما فعلوه من منكر وستره عنهم فلم يروه حتى لا يسوء وجوههم وهم في رضوان الله وفي رحاب فضله وإحسانه وشكر الله لهم القليل من صالح أعمالهم فجزاهم عليه هذا الجزاء العظيم.

ولقد وعدهم بأن لا يتعبوا من عمل وجهد ولا يصيبهم فتور وإعياء، فهم يحمدون أن نزلهم هذه الدار الكريمة الطيبة من فضله والتي لا يتحولون عنها أبداً، ولا يمسمهم تعبد أبداً، ولا ينالهم أدنى عناء أو مشقة؛ لأنهم ينالون ما شاءوا من نعيم، وينعمون بما اشتهاوا من الطيبات دون أن يبذلوا جهداً لذلك، يعملوا له عملاً.

وفى الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد: أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تياسوا، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَوَدُّوْا أَنْ تَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٦٥٩) (١٦٦٠).

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى به مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادى مناد: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، كلهم رآه، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة الخلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت"، ثم قرأ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٦١)، وأشار بيده إلى الدنيا (١٦٦٢).

(١٦٥٩) سورة الأعراف: آية ٤٣.

(١٦٦٠) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في دوام نعيم الجنة وقوله تعالى: ﴿وَوَدُّوْا أَنْ تَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾) رقم الحديث (٧٠٨٦) ١٧/١٧٣، والترمذي في سننه (كتاب التفسير، باب: ومن سورة الزمر) رقم الحديث (٣٢٤٦) ٥/٣٧٤، قال أبو عيسى: وروي ابن المبارك وغيره هذا الحديث عن الثوري ولم يرفعه.

(١٦٦١) سورة مريم: آية ٣٩.

(١٦٦٢) صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب: وأنذره يوم الحسرة) رقم الحديث (٤٤٥٣) ٤/١٧٦٠، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء) رقم الحديث (٧١١٠) ١٧/١٨٢.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ

﴿٥١﴾ (١٦٦٣): (يريد في خلود دائم، ونعيم ليس فيه شخوص قد أمنوا العذاب ورضوا بالثواب، واطمأنت بهم الدار في جوار الرحمن تبارك وتعالى) (١٦٦٤).

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ آمِينٍ﴾ ﴿٥٥﴾ (١٦٦٥) يريد أمنوا من الموت والأسقام والأوجاع والأمراض والتخم، لا يدوقون فيها طعم الموت (١٦٦٦).

وهم إلى جانب هذا النعيم والمقام الكريم، فإن لهم مساكن طيبة لا يتحول عنها ساكنوها إلى مكان آخر حيث تطيب لساكنيها الإقامة لما يجدون فيها من نعيم لا ينفذ.

وفوق هذا النعيم نعيم آخر يفيض به الله سبحانه وتعالى عليهم وهو رضا الله عنهم، فكل نعيم وإن عظم هو قليل إلى رضوان الله الذي يناله من رضي عنهم، قال الله تعالى متحدثاً عن هذا الرضوان: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٧٢﴾ (١٦٦٧).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ وَحْيُ الرَّزْقِ﴾ ﴿٨٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٨٩﴾ (١٦٦٨).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ. ﴿٨﴾ (١٦٦٩).

(١٦٦٣) سورة الدخان: آية ٥١.

(١٦٦٤) انظر: صفة الجنة للإمام الأصفهاني ص ٤٣.

(١٦٦٥) سورة الدخان: آية ٥٥.

(١٦٦٦) انظر: صفة الجنة للإمام الأصفهاني تخريج وتعليق سعيد اللحام ص ٤٣.

(١٦٦٧) سورة التوبة: آية ٧٢.

(١٦٦٨) سورة الحج: الآيات ٥٨، ٥٩.

والآيات في هذا المعنى كثيرة تبين هذا النعيم الذي ليس بعده نعيم، وهذا الأمان والطمأنينة والسعادة التي لا يضاهيها شيء، فمعظم هذه الآيات تقرن هذا النعيم بالخلود؛ وذلك لأن الإنسان مهما كان فيه من نعيم وأمن ورغد وهو يخشى أن يتبدل أو يتغير عليه، هذا الحال، فإنه لا يطمئن إليه ولا يأمن؛ لأنه يعلم أنه سيزول، وأن الأحوال ستتبدل، لكن الله أخبر عن هذا النعيم، وهذا الحال بأنه دائم خالد لا يزول ولا يتغير ولا يقل، كما وضحت ذلك بالأدلة.

ومن أقوى الأدلة على الأمان والاطمئنان في الجنة أنها- أي: الجنة أبدية فلا تنفي ولا تبيد، ومما يعلم بالاضطرار ن الرسول ﷺ أخبر به، ولم يقل أحد بفناء الجنة إلا الجهم بن صفوان<sup>(١٦٧٠)</sup>، وليس له سلف قط لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، بل أنكرة عليه عامة أهل السنة.

قال شارح الطحاوية: فأما أبدية الجنة، وأنها لا تنفي ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن رسول الله ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَنِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا كَانَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾<sup>(١٦٨)</sup>، أي: مقطوع ولا ينافي ذلك قوله: ﴿يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ﴾<sup>(١٦٧٢)</sup>.

وقد ذكر شارح الطحاوية اختلاف السلف في هذا الاستثناء، فقال: (واختلف السلف في هذا الاستثناء).

<sup>(١٦٦٩)</sup> سورة البينة: الآيتان ٧، ٨.

<sup>(١٦٧٠)</sup> هو: جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز الكاتب، المتكلم، رأس الضلالة، ورأس الجهمية، ظهرت بدعته بترمز، وقتله سالم بن أحوز بمرؤ في آخر ملك بني أمية، وقيل: أن الذي قتله نصر بن سيار، وافق المعتزلة في نفي الصفات، وزاد عليهم بأشياء لا يجوز أن يوصف به الله سبحانه وتعالى. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ٩٠/١، وميزان الاعتدال ٤٢٦/١، وسير أعلام النبلاء ٢٦/٦.

<sup>(١٦٧١)</sup> سورة هود: آية ١٠٨.

<sup>(١٦٧٢)</sup> شرح الطحاوية ص ٤٨١.

وقيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار، ثم أخرج منها لا لكلهم، وقيل مدة مقامهم في الموقف.

وقيل: إلى مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: "إلا" بمعنى الواو، وهذا يدل على قول بعض النحاة وهو ضعيف.

وقيل: إلا بمعنى لكن، فيكون الاستثناء منقطعاً، ورجحة ابن جرير<sup>(١٦٧٣)</sup>، وقال: إن

الله تعالى لا خلف لوعده وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولا إلا ما شئت، أي: سوي ما شئت، ولكن ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنهم - مع خلودهم - في مشيئة الله؛ لأنهم لا يخرجون عن

مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجرمه لهم بالخلود، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهَبَنَّ بِالَّذِي

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكَيْلًا﴾<sup>(٨١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّرْ عَلَىٰ قَلْبِكَ

﴿٢١﴾﴾<sup>(١٦٧٥)</sup>، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ﴾<sup>(١٦٧٦)</sup>،

ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمر كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن "ما" بمعنى "من" أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء، وقيل:

غير ذلك.

وعلى كل تقدير: فهذا الاستثناء من المشابهة، وقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾<sup>(١٦٧٧)</sup> كذلك قوله

تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرْزُقًا مَّا لَهُ مِنْ شَاءِ﴾<sup>(٨٥)</sup>، وقوله: ﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظُلْمُهَا﴾<sup>(٢٥)</sup>، وقد أكد

<sup>(١٦٧٣)</sup> انظر ترجيحه في تفسير ٧٢/١٢.

<sup>(١٦٧٤)</sup> سورة الإسراء: آية ٨٦.

<sup>(١٦٧٥)</sup> سورة الشورى: آية ٢٤.

<sup>(١٦٧٦)</sup> سورة يونس: آية ١٦.

<sup>(١٦٧٧)</sup> سورة هود: آية ١٠٨.

<sup>(١٦٧٨)</sup> سورة ص: آية ٥٤.

الله خلود أهل الجنة بالتأييد في عدة مواضع من القرآن وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ (١٦٨٠)، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضمته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (١٦٨١) تبين إن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودها فيها (١٦٨٢).

وقد جاء هذا مفصلاً في كتاب حادي الأرواح، فمن أراد الاستزادة والتفصيل فليرجع إليه (١٦٨٣).

فالجنة دار خلود يأمن داخلها أنه لا يخرج منها ولا ينقصه أي شيء، وكل ما خطر على باله يجده بين يديه، وكيف لا يحتاج إلى ما يؤمنه في الجنة، ويجعله خالداً فيها، واتقاً أن لا يفارقها ولا يتحول عنها ابداً خاصة، أنه قد جاء في وصفها: وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده وجعلها مقراً لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص.

- ◀ فإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن.
- ◀ وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر.
- ◀ وإن سألت عن بنائها فهو فلبنة من فضة و لبنة من ذهب.
- ◀ وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة لا من الحطب والخشب.
- ◀ وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل.
- ◀ وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل.

(١٦٧٩) سورة الرعد: آية ٣٥.

(١٦٨٠) سورة الدخان: آية ٥٦.

(١٦٨١) سورة هود: آية ١٠٨.

(١٦٨٢) انظر: شرح الطحاوية ص ٤٨١ بتصرف.

(١٦٨٣) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ٣٨٣ وما بعدها.

- ◀ وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى.
- ◀ وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون.
- ◀ وإن سألت عن شرابهم فالتسليم و الزنجبيل والكافور.
- ◀ وإن سألت عن آيتهم فأية الذهب والفضة في صفاء القوارير.
- ◀ وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصرعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.
- ◀ وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها.
- ◀ وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها.
- ◀ وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام.
- ◀ وإن سألت عن خيامها وقبابها فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً من تلك الخيام.
- ◀ وإن سألت عن علائها وجوسقها فهي غرف من فوقها مبنية تجرى من تحتها الأنهار.
- ◀ وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذى لا تكاد تتاله الأبصار.
- ◀ وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب.
- ◀ وإن سألت عن فرشها فبطائنا من إستبرق مفروشة في أعلى الرتب.
- ◀ وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة عليها البشخانات وهي الحجال مزررة بأزرار الذهب، فما لها من فروج ولا خلال.
- ◀ وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر، وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاث وثلاثين على صورة آدم عليه السلام أبى البشر.
- ◀ وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبیین، وأعلى منها خطاب رب العالمين.
- ◀ وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها فجنائب إن شاء الله مما شاء تسير بهم حيث شاؤوا من الحنان.
- ◀ وإن سألت عن حلبيهم وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ على الرؤوس ملابس التيجان.
- ◀ وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون.

◀ وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواكب الأتراب اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرقة وللطاقة ما دارت عليه الحضور، تجرى الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضئ البرق من بين ثيابها إذا ابتسمت، إذا قابلت حبها فقل ما نشاء في تقابل النيرين، وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبين! وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين، يرى وجهه في صحن خدها كما يرى المرأة التي جلاها صقلها، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حلها، لو طلعت على الدنيا لمألت ما بن الأرض والسماء ريحاً، ولا ستطقت أفواه الخلائق تهليلاً وتكبيراً وتسبيحاً، ولتخرق لها ما بين الخافقين ولا غمضت عن غيرها كل عين، لطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولأمن من على ظهرها بالله الحي القيوم، ونصفيها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، ووصالها أشهي إليه من جميع أمانيتها، لا تزداد على طول الأحقاف إلا حسناً وجمالاً، ولا يزداد لها طول المدى إلا محبة ووصالاً، مبرأة من الحبل والولادة والحيض والنفاس، مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يفني شبابها، ولا تبلى ثيابها، ولا يخلق ثوب جمالها، ولا يمل طيب وصالها، قد قصرت طرفها على زوجها فلا تطمح لأحد سواه، وقصر طرفه عليها فهي غاية أمنيته وهواه، وإن نظر إليها سرتته، وإن أمرها بطاعته أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو معها في غاية الأمان والأمان، هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جان، كلما نظر إليها ملأت قلبه سروراً، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤاً منظوماً ومنثوراً، وإذا برزت القصر والغرفة نوراً.

- ◀ وإن سألت عن السن فأتراب في أعدل سن الشباب.
- ◀ وإن سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر.
- ◀ وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد في أصفى بياض في أحسن حور.
- ◀ وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان.
- ◀ وإن سألت عن النهود فهن الكواكب نهودهن كأطف الرمان.
- ◀ وإن سألت عن اللون فكان الياقوت والمرجان.
- ◀ وإن سألت عن حسن الخلق، فهن الخيرات الحسان اللاتي جمع لهن بين الحسن والإحسان، فأعطين جمال الباطن والظاهر، فهن أفراح النفوس وقررة النواظر.
- ◀ وإن سألت عن حسن العشرة ولذة ما هناك فهن العرب المتحبيات إلى الأزواج بلطافة التبعل التي تمتزج بالروح أي امتزاج، فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها

أضاعت الجنة من ضحكها، وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت: هذه الشمس منتقلة في في بروج فلكتها، وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة، وإن خاضرته فيا لذة تلك المعانقة و المخاصرة، وإن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع، وإن آنت وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع، وإن قبلت فلا شئ أشهي إليه من ذلك التقبيل، وإن نولت فلا أذ ولا أطيب من ذلك التتويل.

هذا وإن سألت عن يوم المزيد وزيادة العزيز الحميد ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق المصدق النقل فيه، وذلك موجود في الصباح والسنن و المسانيد.

فاستمع يوم ينادى المنادى يا أهل الجنة أن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحي على زيارته فيقولون: سمعاً وطاعة، وينهضون إلي الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم فيستون على ظهورها مسرعين حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعداً، وجمعوا هناك فلم يغادر الداعي منهم أحداً، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصب هناك ثم نصبت لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة، وجلس أذناهم وحاشاهم أن يكون فيهم دنئ على كئيبان المسك ما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم، نادى المنادي: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار، فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرفت له الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جل جلال وتقدست أسماؤه قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى يضحك إليهم، ويقول: يا أهل الجنة فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني فخذوا يوم المزيد فيجتمعون علي كلمة واحدة، أن قد رضينا فارض عنا، فيقول: يا أهل الجنة إني لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتي، هذا يوم المزيد فاسألوني، فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليه، فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب ويتجلي لهم فيغشاهم من نوره مل لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا لا حترقوا، ولا يبقي في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة حتى أنه ليقول: يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول: بل مغفرتي

بلغت منزلتك هذه فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجه  
 الكريم في الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَخْرَجَةٍ ۖ وَإِلَىٰ رَيْبِهَا نَاطِرَةٌ ۗ﴾  
 (٢٣) وَجُودٌ يُؤْمِرُ بِأَخْرَجَةٍ ۖ تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَائِرَةٌ ۗ (٢٤) ﴿١٦٨٤﴾ (١٦٨٥).

ولا شك أن هذا النعيم حصل عليه المؤمنون برحمة الله وفضله أولاً وقبل كل شيء ثم  
 بما قدموا لأنفسهم من أعمال صالحة، وفقهم الله سبحانه وتعالى لها فاستحقوا بها هذا الخير  
 والفضل من الله سبحانه وتعالى، فما هي الأعمال التي قدموها واستحقوا عليها هذا الخير  
 والفضل كله؟

الأعمال التي استحق بها المؤمنون الأمن في الآخرة ونيهم الجنة:

أصحاب الجنة هم المؤمنون الموحدون، فكل من أشرك بالله أو كفر به، أو كذب  
 بأصل من أصول الإيمان، فإنه يحرم من الجنان ويكون في النيران.

والقرآن الكريم يذكر كثيراً أن أصحاب الجنة هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات،  
 وفي بعض الأحيان يفصل الأعمال الصالحة التي يستحق بها صاحبها الجنة.

ومن المواضيع التي نص القرآن على استحقاق أهل الجنة بالإيمان والأعمال الصالحة  
 قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا  
 رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ  
 فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥) ﴿١٦٨٦﴾.

(١٦٨٤) سورة القيامة: الآيات ٢٢-٢٥.

(١٦٨٥) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ٣٢١-٣٢٥ بتصريف.

(١٦٨٦) سورة البقرة: آية ٢٥.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (٥٧) (١٦٨٧).

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٥٨) (١٦٨٨).

وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧٢) (١٦٨٩).

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٢) (١٦٩٠).

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٣١) (١٦٩١).

وقوله: ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِمْ مُمُوتًا فَدَعَا الصَّالِحِينَ فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ أُعْتِقَ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْإِيمَانَ أَذَاتُ الْأُنثَىٰ وَلَوْ كَانُوا يَفْقَهُوْنَ ﴾ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَايَا ﴾ (٧٦) (١٦٩٢).

وفي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة لتحقيقهم أمراً من أمور الإيمان أو عملاً صالحاً، وقد يُفصل في الأعمال الصالحة، وبطيل في ذلك.

(١٦٨٧) سورة النساء: آية ٥٧.

(١٦٨٨) سورة الأعراف: آية ٤٢.

(١٦٨٩) سورة التوبة: آية ٧٢.

(١٦٩٠) سورة يونس: الآيتان ٩-١٠.

(١٦٩١) سورة الكهف: آية ٣١.

(١٦٩٢) سورة طه: الآيتان ٧٥-٧٦.

وفي بعض الأحيان يذكر أنهم استحقوا الجنة بالإيمان والإسلام: ﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا وَيُؤْتُونَ زَكَاةً وَيَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٦٩٣).

﴿يَوْمَ لَا أَنتُمْ حُرُّونَ﴾ (١٦٩٣) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١٦٩٣) ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ (١٦٩٣) ﴿مُحْرَمُونَ﴾ (١٦٩٣).

وأحياناً يذكر استحقوا؛ لأنهم أخلصوا دينهم لله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١٦٩٤) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ

مَعْلُومٌ﴾ (١٦٩٤) ﴿فَوَكَهَهُمْ مَلَكٌ مِّنْ رَبِّهِمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَاذِعْنَكُمْ أَيَّامَ تَحْيَاكُمْ فَمَا لِيَخْلَعَهُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١٦٩٤) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (١٦٩٤).

وأحياناً يذكر استحقاقهم لها لقوة ارتباطهم بالله ورغبتهم إليه وعبادتهم له: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ

بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٦٩٥) ﴿تَتَجَافَى

جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦٩٥) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن

قُوَّةٍ أَعْيَنَ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩٥).

ومن أعمال الصبر والتوكل: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمٌ أَعْزَمَ الْعَمَلِينَ﴾ (١٦٩٦) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٦٩٦).

ومنها الاستقامة على الإيمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ (١٦٩٧) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩٧).

ومنها الإخبات إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٦٩٨).

(١٦٩٣) سورة الزخرف: الآيات ٦٨-٧٠.

(١٦٩٤) سورة الصافات: الآيات ٤٠-٤٣.

(١٦٩٥) سورة السجدة: الآيات ١٥-١٧.

(١٦٩٦) سورة العنكبوت: الآيات ٥٨، ٥٩.

(١٦٩٧) سورة الأحقاف: الآيات ١٣، ١٤.

(١٦٩٨) سورة هود: آية ٢٣.

ومن ذلك الخوف من الله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۙ﴾ (١٦٩٩).

ومن ذلك بغض الكفرة المشركين وعدم موادتهم: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ  
كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنُ وَأُيِدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۙ﴾ (١٧٠٠).

وفى بعض الأحيان تفصل الآيات في ذكر الأعمال الصالحة التي يستحق بها أصحابها الجنة  
تفصيلاً كثيراً، فنكر في سورة الرعد أنهم استحقوها باعتقادهم أن ما انزل على الرسول ﷺ هو الحق،  
ويوفائهم بالعهود، وعدم نقضهم الميثاق، ووصلهم ما أمر الله بوصله، وخشيتهم الله، وخوفهم من سوء  
الحساب، وصبرهم لله، وإقامة الصلاة، والإنفاق سراً وعلانية، ودرئهم بالحسنة السيئة: ﴿أَفَنْ يَعْلَمُ  
أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۙ﴾ (١٦٩٩) ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْتَضُونَ الْعِشْقَ ۙ﴾ (١٧٠٠)  
﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۙ﴾ (١٧٠١) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ  
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَمْ يَعْفَى الدَّارَ ۙ﴾ (١٧٠٢) ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ  
يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۙ﴾ (١٧٠٣) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَم  
عَفَى الدَّارِ ۙ﴾ (١٧٠٤).

وفى مطلع سورة المؤمنون حكم أن الفلاح إنما هو للمؤمنين، ثم بين الأعمال التي تؤهلهم  
للفلاح، وأعلمنا أن فلاحهم إنما يكون بإدخالهم الفردوس خالدين فيها أبداً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۙ﴾ (١) ﴿الَّذِينَ هُمْ  
فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۙ﴾ (٢) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۙ﴾ (٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكْعَةِ قَانِعُونَ ۙ﴾ (٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ  
حَافِظُونَ ۙ﴾ (٥) ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۙ﴾ (٦) ﴿فَمَنْ أَسْبَغَ ذَاكَ فَأُولَئِكَ هُمْ

(١٦٩٩) سورة الرحمن: آية ٤٦.

(١٧٠٠) سورة المجادلة: آية ٢٢.

(١٧٠١) سورة الرعد: الآيات ١٩-٢٤.

الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾  
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴿١٧٠٢﴾.

وقد حثنا الرسول ﷺ عن ثلاثة أعمال عظيمة يستحق بها أصحابها الجنة، فقد روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ".. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رقيق القلب لكل ذى قرىبي ومسلم، وعنيف متعفف ذو عيال" (١٧٠٣)

(١٧٠٢) سورة المؤمنون: الآيات ١-١١.

(١٧٠٣) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) رقم الحديث (٧١٣٦) ١٧/١٩٤ وهو جزء من حديث طويل.

5

الباب الخامس

نفي الأمن عن الكفار في الدنيا والآخرة



## نفي الأمن عن الكفار في الدنيا والآخرة

نفي الأمن عن الكفار في الدنيا والآخرة

### المقصود بالأمن في القرآن الكريم

جاء في مختار الصحاح تحت مادة "ك ف ر": ("الكفر ضد الإيمان، وقد كفر" بالله من باب: نصر، وجمع "الكافر: كَفَّارٌ" و "كفرة" و "كفَّارٌ" بالكسر مخففاً كجائع وجياع ونائم ونيام.

و "الكفر" أيضاً: جود النعمة وهو ضد الشكر، وقد "كفره" من باب دخل و"كفرانا" أيضاً بالضم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ (١٧٠٤)، أي: جاحدون.

و "الكفر" بالفتح التغطية، وبابه ضرب (١٧٠٥).

(١٧٠٤) سورة القصص : آية ٤٨ .

(١٧٠٥) مختار الصحاح ص ٥٧٣ .

جاء في صفوة التفسير في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧٠٦): (أي: إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ) (١٧٠٧).

إذن الكفار هم الذين جحدوا بالله، وأسمائه، وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكل ما جاء به النبي ﷺ من عند ربه، إذ أن الكفر في اللغة: الستر والتغطية، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْبِ الْكُفَّارِ بِنَاتِهِ﴾ (١٧٠٨)، فالكفار هنا جمع كافر، والكافر يطلق على الزارع، لأنه يكفر البذور في الأرض أي: يغطيها، فالكفر ستر للشيء وقد وُصف الليل بأنه كافر، لأنه يخفي الأشياء بظلمته، وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداة شكرها، والكافر على إطلاقه هو من يجحد الوجدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو أصلاً من أصول الدين.

وهذا الصنف من الناس هو النقيض للمؤمنين، فكما أن المؤمن آمن في حياته وعند مماته ويوم البعث ويوم الحساب فعكسه الكافر لا أمن له ولا طمأنينة عنده لا في نياه ولا في أخراه.

## الفصل الأول

### نفي الأمن عن الكفار في الدنيا

تمهيد:

مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى عبادة الله سبحانه وتعالى فلم يؤمن به إلا نفر قليل، أما الأكثرية فإنهم لم يؤمنوا به عناداً وتكبيراً من كثير منهم لا جهلاً، وحينما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة صارت المدينة القاعدة الأولى والأساس المتين للإسلام

(١٧٠٦) سورة البقرة: آية ٦.

(١٧٠٧) صفوة التفسير للشيخ محمد بن علي الصابوني القسم الأول ص ١٩.

(١٧٠٨) سورة الحديد: آية ٢٠.

والمسلمين، فكثير المسلمون وانتشر الإسلام في بقاع الأرض، وقد عايش المسلمون في المدينة صنفين من الناس، هما: المنافقون واليهود.

أما اليهود فقد حصل لهم ما حصل بسبب غدرهم ومكرهم وكفرهم حتى أجلوا من المدينة وما حولها.

وأما المنافقون فبقوا مع المؤمنين يعايشون ويعرفون مواطن القوة والضعف فيهم، ويفشون أسرارهم ويتربصون بهم الدوائر، ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره.

والممتنع لأحوال الكفار ومن على شاكلتهم يعرف مدى الخوف الذي يعيشونه في دنياهم فهم يجهلون مصيرهم، ويشكون في البعث والنشور تارة، وتارة أخرى تصفو أذهانهم وتتجلي عقولهم، فإذا هم يعرفون الحق، وأن ما جاء به محمد ﷺ صدق، وأنه من عند الله تعالى، لكن ما هي إلا لحظات حتى يطغى عليهم العناد والتكبر فيرتدوا على أعقابهم وينكروا ما توصلت إليه عقولهم.

فلقد روي أن الوليد بن المغيرة <sup>(١٧٠٩)</sup>، وكان ذا مكانة بارزة في قريش وأشدهم عداوة للرسول ﷺ - وكان موسم الحج قد حضر - دعا سادة قريش وكبراء القوم إليه فقال لهم: يا معشر قريش، إنه حضر هذا الموسم، وإن العرب ستفد عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا - يعني رسول الله ﷺ - فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيه، فيكذب بعضهم بعضاً.

قالوا: فما تقول أنت يا أبا عبد شمس؟، أقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع !.

<sup>(١٧٠٩)</sup> هو: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها، يقال له: (العدل)، لأنه كان عدل قريش كلها، كانت قريش تكسو البيت جميعها، والوليد يكسوه وحده، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية وضرب أبنه هشاماً على شربها، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته وهو والد سيف الله المسلول خالد بن الوليد، وهلك بع الهجرة بثلاثة أشهر. أنظر: الأعلام للزركلي ١٤٤/٩.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو - أي: النبي ﷺ - بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وقريضه ومقبوضة ومبسوطة فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرمهم، فما هو بنفته ولا عقده.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله ما يشبه الذي يقول شيئاً مما قلتم، وإن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مخدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، وأقرب القول أن تقولوا إنه ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه.

فتفرقوا عنه بذلك الرأي، وجعلوا يلقون أهل الموسم على كل طريق ويقولون لهم: أحذروا ساحرنا (١٧١٠).

(١٧١٠) أنظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدى، والسيرة النبوية ١/٣٠٣، ودلائل النبوة ٠٠٠، والتفسير القرآني للقرآن ١٨٩/٩ بتصريف.

فأنزل الله تعالى فيه قرآناً ينطلي إلى يوم القيامة: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١  
 وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَمْ مَنذُودًا ١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا ١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدَا  
 ١٦ سَأْرِهِنَّ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَفَدَّرَ ١٨ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢  
 ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥﴾ (١٧١١).

فتوعد الله بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَاحِةً لِلْبَشَرِ ٢٩ عَلَيْنَا  
 ٣٠ تِسْعَةَ عَشَرَ ٣١﴾ (١٧١٢).

وهكذا نرى سيرة هذا الضال العنيد مع آيات الله وكيف كان يلقاها بتلك المشاعر المتضاربة المضطربة التي تتأرجح به بين التصديق والتكذيب، والإيمان والكفر ثم تغلب عليه شقوته آخر الأمر، فإذا هو رأس المكذبين الضالين.

ومن هذا يُستنتج مدى التردد والاضطراب الذي كان فيه الكفار ومعلوم أن من يعيش متردداً مضطرباً، فإنه يقلق وهذا القلق يؤدي به إلى الخوف وعدم الأمن وهو الحال لجميع الكافرين.

كذلك مما يؤكد خوف الكفار وعدم أمنهم أنهم يخشون أن ينزل الله بهم العقوبة في أي وقت، وهذا دليل على أنهم يعلمون أن ما جاء به محمد ﷺ حق، وإنما لم يؤمنوا عناداً وتكبراً وبغياً وحسداً، أو أنهم رأوا أن الإسلام يتعارض مع رغباتهم وشهواتهم الشيطانية فأبه وكفروا به.

(١٧١١) سورة المدثر: الآيات ١١-٢٥.

(١٧١٢) سورة المدثر: الآيات ٢٦-٣٠.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٣) إِذْ

جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا

لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ (١٧١٣).

لما ضاقت قريش بالنبي ﷺ وبدعوته جاءت إلى النبي ﷺ تعده وتمنيه وتعرض عليه ما قدرت أنه يطلبه من هذه الدعوة القائم عليها، من مال وسلطان، فانتدبت لذلك عتبة بن ربيعة<sup>(١٧١٤)</sup>، فجاء عتبة إلى النبي ﷺ يقول له: إنك قد أحدثت في قومك ما ترى من فرقة وشقاق، فإن كنت تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا ما تشاء حتى تكون أكثر رجال قريش مالا، وإن كنت تريد ملكاً ملكتناك علينا، وإن كنت تريد وتريد... فلك عندنا ما تريد، على أن تدع آلهتنا ولا تعرض لها بذكر، فقال له النبي ﷺ: "وقد قلت فاسمع مني"، فقال: هات، فقرأ

(١٧١٣) سورة فصلت: الآيتان ١٣، ١٤. وقد ورد ذكر عاد وثمود في الآية:

فأما عاد فهم: قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف - وهي جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضر موت بأرض مطلة على البحر، يقال لها: (الشحر)، واسم واديهم (مغيث)، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذات الأعمدة الضخام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَرَّبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ [سورة الفجر: الآيتان ٦، ٧]. انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ص ٩٧.

وأما ثمود فهم: قبيلة مشهورة، يقال لهم: (ثمود) باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عائر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين. انظر: قصص الأنبياء ص ١١٥.

(١٧١٤) هو: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد، كبير قريش، وأحد ساداتها في الجاهلية، كان موصوفاً بالرأي والحلم والفضل وكان خطيباً نافذ القول نشأ يتيماً وفي حج حرب بن أمية، وأول ما عرف عنه توسطه للصلح في حرب الفجار بين هوازن وكنانة، وقد رضي الفريقان حكمه، أدرك الإسلام وطغى فشهد بدماء مع المشركين، وكان ضخماً الجثة عظيم الهامة فقتل فيها. انظر: الأعلام للزركلي ٥٣٩/٤.

عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه: ﴿حَدَّثَنَا (١) تَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾

كُنْتُ قُضِلْتُ عَيْنَهُ، قُرَأْنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ (١٧١٥)... حتى بلغ النبي

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

(١٧١٦)، فَرَعَ عَتْبَهُ وَاضْطَرَبَ، وَقَامَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَمِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقَعَ هَذَا النَّذِيرُ بِهِ وَبِقَوْمِهِ (١٧١٧).

إن القوم كانوا يعرفون الحق، ويعرفون صدق النبي ﷺ فيما جاء به من عند ربه، ولكنهم كانوا يعاندون ويكابرون ويأبى عليهم كبرهم وعناهم أن يذعنوا للحق وأن ينفادوا له،

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (١٧١٨).

وهكذا نرى خوف الكفار ورعبهم وفزعهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل على من سبقهم من الأمم السابقة.

والله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه الكريم عن الرعب الذي جعله في قلوب الكافرين، وخاصة عند قتال المؤمنين لهم فأذلهم الله في الدنيا والنار مثنى لهم يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذا الرعب في قلوبهم بما حملوا من شرك وبما عبدوا من ضلالات، إذ أن الشرك بالله يقتل في صاحبة كل معاني الإنسانية وقيمه في هذه الدنيا مقاماً قلقاً مضطرباً لا يجد ما يستند إليه عند الشدائد والمحن إلا تلك الحجارة الصماء التي لا تدفع عن نفسها شيئاً فضلاً عن أن تمنع عن غيرها.

(١٧١٥) سورة فصلت: الآيات ١-٣.

(١٧١٦) سورة فصلت: آية ١٣.

(١٧١٧) أنظر: التفسير القرآني للقرآن ١٢٩٦/٢٤، ١٢٩٧ باختصار.

(١٧١٨) سورة الأنعام: آية ٣٣.

فأين هم ممن يدعو رب الأرباب، ومدبر الكون، والقائم على كل موجود الذي اتخذهُ

هؤلاء المؤمنون مولى وسنداً لهم، قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانِكُمْ وَهُوَ خَيْرُ

الْمُنْصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا

لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَاؤْنَهُمُ النَّارُ وَيَتَسَمَتُوا الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

(١٧١٩)

ويقول سبحانه وتعالى مبيناً تثبيته للمؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، ومبيناً

للقوة التي أمد بها المؤمنين، والتي تبعث الطمأنينة في القلوب أشبه بالدرع الواقي الذي يلبسه

المحارب، وفي نفس الوقت يحدث عما وقع في قلوب المشركين من الرعب أثناء القتال

اضطربت له صفوفهم، وزاغت به أبصارهم حتى تمكن المسلمون من رقابهم وأوقعوا الهزيمة

بهم، قال الله تعالى: ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ

الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٧٢٠﴾.

وكذا الحال بالنسبة لليهود والمنافقين، تحدث القرآن عن خوفهم ورعبهم، فقال عن

الصف الأول: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ

فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٧٢١﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ

الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

(١٧١٩) سورة آل عمران: الآيتان ١٥٠، ١٥١.

(١٧٢٠) سورة الأنفال: آية ١٢.

(١٧٢١) سورة الأحزاب: آية ٢٦.

حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ (١٧٢٢).

وقد تحدثت عنهم سورة الحشر من كتاب الله الكريم فليرجع إليها، من أراد، ليعرف حالهم وذلكم وهو انهم على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين، والله سبحانه وتعالى قد ذكر المنافقين، وأنهم أكثر فرعاً وخوفاً، ولا شك أن فرعهم وخوفهم يصل إلى الكفار، لأنهم ينقلون لهم كل أخبار المسلمين، قال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿أَشْحَطَّ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ

رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشْحَطَّ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ (١٧٢٣)، وكيف لا يخاف هؤلاء ولا يربعون والنبى ﷺ ذكر من ضمن الخصال الخمس التي أعطيها ولم يعطها أحد قبله: "ونصرتُ بالرعب مسيرة شهر" (١٧٢٤).

أولاً

تحذيرهم من مكر الله

(١٧٢٢) سورة الحشر: آية ٢.

(١٧٢٣) سورة الأحزاب: آية ١٩.

(١٧٢٤) صحيح البخاري (كتاب التيمم) رقم الحديث (٣٢٨) ١/١٢٨.

ونص الحديث: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "أعطيْتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيْتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة"، صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) رقم الحديث (١١٦٣) ٥/٦.

المكر: الاحتيال والخديعة، وقد مكر به من باب نصر فهو مكر ومكراً (١٧٢٥).

وأصل المكر في اللغة: الاغتيال والخدع. والمؤمنون الصادقون يصفون الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ بالحي على الحقيقة بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تكيف، وعلى هذا فلا يسند المكر إلى الله سبحانه وتعالى إلا على طريق المشاكلة (١٧٢٦).

حذر الله من مكره في مواطن كثيرة من كتابه الكريم، وبين سبحانه وتعالى في كثير منها أن أكابر القوم وأكابر المجرمين هم أسباب المكر لما يحصل منهم من مراوغات وتحايل في ستر الحق وتضييعه، وهؤلاء هم أئمة الضلال والكفر الذين يمكرون في الأرض، ويفسدون وجوه الخير فيها، ويسدون منافذ الهدى فيها، وهم في واقع الأمر إنما يمكرون بأنفسهم ويوردونها موارد الهلاك دون أن يشعروا أنهم على طريق الضلال والضياح، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمَّا كُرُوا فِيهَا وَمَا

يَمَكُرُونَ إِلَّا لِيَأْنَفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ

تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ سَيُصِيبُ الَّذِينَ

أَجْرُمُوا صَغَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمَكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ (١٧٢٧).

وأخبر الله تعالى عن نهايتهم ونتيجتهم أن لهم الصغار والمهانة عند الله يوم القيامة والعذاب الشديد يوم يعرضون على ربهم فيوفيههم أعمالهم ولا يظلم ربك أحداً منهم، وهكذا كل من أخذته العزة بالإثم فأبى أن ينفذ للحق وأن يتقبل الخير من أي طريق أتاه.

جاء في تفسير الظلال في معرض الحديث عن هذه الآيات: إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قرية نفر من أكابر المجرمين فيها يقفون موقف العداوة من دين الله ذلك أن دين الله يبدأ

(١٧٢٥) أنظر: مختار الصحاح تحت مادة (م ك ر) ص ٦٢٩.

(١٧٢٦) أنظر: فتح القدير ص ٣٤٤ بتصرف.

(١٧٢٧) سورة الأنعام: الآيتان ١٢٣، ١٢٤.

من نقطة تجريد هؤلاء الأكاير من السلطان الذي يستطيعون به على الناس، ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس، ومن الحاكمة التي يستدلون بها الرقاب، ويردُّ هذا كله إلى الله وحده، رب الناس ملك الناس إله الناس.

إنها سن من أصل الفطرة أن يرسل الله رسله بالحق، بهذا الحق الذي يجر مدعي الألوهية من الألوهية والربوبية والحاكمية، فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين الله ورسله، ثم يَمَكُرُون مكرهم في القرى، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى، وفي نشر الباطل والضلال واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي...

... والله سبحانه يطمئن أوليائه ... إن كيد أكابر المجرمين مهما ضخّم واستطال لا يحيق المكر السيئ إلا بهم في نهاية المطاف، إن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم، فإله وليهم فيها، وهو حسبهم وهو يرد كيد الخائنين.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فليطمئن المؤمنون.

ثم يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء الله ودينه، الكبر الذي يمنعهم من الإسلام خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع، ويكبرُ عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له وقد كانوا في مقام الربوبية للأتباع، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا التشريع، وأن يأمرهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع من أجل ذلك، يقولون قولتهم المنكرة الغبية: "لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله" ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

ويرد الله عليهم قولتهم المنكرة الغبية أولاً بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكوني الخطير، ويرد عليهم ثانياً بالتهديد والتحقير وسوء المصير: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

وقد جعلها الله تعالى حيث علم واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم حتى انتهت إلى محمد ﷺ خير خلق الله وخاتم النبيين ثم التهديد بالصغار لهم والهوان على الله وبالعذاب الشديد المهين.

والصغار عند الله يقابل الاستعلاء عند الأتباع، والاستكبار عن الحق، والتطاول إلى مقام رسل الله، والعذاب الشديد يقابل المكر الشديد والعداء للرسل والأذى للمؤمنين (١٧٢٨).

وهكذا تؤدي بهم هذه الأقوال المنكرة إلى العذاب الشديد والصغار عند الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى قد حذرهم من مكره ووصف من يأمن مكر الله بأنه من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٢٩).

ومن يأمن مكر الله ينتظره العذاب الشديد، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوْنَ﴾ (١٧٣٠).

ومكرهم هذا عائد على أنفسهم فهم الذين يتحملون نتائجه، لأنهم أتوا بأسبابه، ومنها الاستكبار في الأرض، قال تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَنَجِدِ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (١٧٣١).

وكان الأولى بهم أن يتعظوا بمن سبقهم ممن الأمم ويأخذوا منهم العبرة حيث جرت السنة أن من يكذب الرسل ويناوتهم ويغالط الحقائق، فإن الله له بالمرصاد وأن له الذلّة والهوان في الدنيا والآخرة، وهذا حال كفار قريش حيث كانوا يقسمون بأعظم الإيمان عندهم أنهم إن جاءهم رسول كما جاء إلى الأمم السابقة رسل ليكونن أهدى من تلك الأمم، ولما

(١٧٢٨) أنظر: في ظلال القرآن ١٢٠٢/٣، ١٢٠٣ بتصرف.

(١٧٢٩) سورة الأعراف: آية ٩٩.

(١٧٣٠) سورة فاطر: آية ١٠.

(١٧٣١) سورة فاطر: آية ٤٣.

جاءهم الرسول الذي كانوا يتمنون الهدى على يديه لم يزدهم إلا نفوراً عن الحق وإعراضاً عن الهدى واستكباراً في الأرض واستعلاء على العباد، ولم يزدهم إلا الإمعان في تدبير المكر السيئ للرسول وتبييت الشر له وللمسلمين، ولكن هذا المكر الذي مكروه لم يقع إلا بهم، فهم كمن يحفر الحفرة التي سيقع فيها ومن يفتل الحبل الذي يشنق به.

أما رسول الله ﷺ والمسلمون فقد حفظهم الله من مكر هؤلاء وتدبيرهم وحمى رسوله منهم في أحلك الظروف فصمد أمام تلك الفتن العاصفة التي كانت تهب من آفاق المشركين ولم ينحرف عن طريقه التويم ولم يمنعه كيدهم وإيذاؤهم له من أداء رسالته، وقد كشف الله حال المشركين وما أبرموا من خط وتدابير للنبي ﷺ حيث أرادوا به أكثر من شر، فتارة يفكرون في قتله، وتارة يفكرون في إخراجهم، وتارة يريدون أن يُثبِّتوه، وأحياناً يريدون أن يفسدوا عليه أمره ويعجزوه عن القيام بدعوته، ولكنه ورغم هذه التحديات يستمر في دعوته فعجزوا أن يفعلوا به شيئاً، وأخيراً يخرج النبي ﷺ من بينهم وهم متصدون له ومحيطون بمنزله ليترك موطنه الذي نشأ فيه ويحرمهم بركة وجوده بينهم ويهاجر إلى طيبة الطيبة ليقم دولة الإسلام الأولى ولتنطلق منها الدعوة على جميع بقاع الأرض.

قال الله تعالى مخبراً عن دسائسهم ومؤامراتهم وفسلهم فيها: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴾ (١٧٣٢).

فكانت الغلبة لله ولرسوله ﷺ، والخزي والذل والهوان لطغمة الشرك والضلال، وهكذا يستمر الرسول ﷺ في دعوته الناس إلى الهدى وطريق الهدى صابراً محتسباً، والله تعالى يحثه على الصبر وعدم المبالاة بمكرهم: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبَقِ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٧٣٣) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٣٤﴾ (١٧٣٣).

(١٧٣٢) سورة الأنعام: آية ٣٠.

(١٧٣٣) سورة النحل: الآيتان ١٢٧، ١٢٨.

وهذه الآيات وإن كانت نزلت بسبب خاص إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفيها تطمين للنبي الكريم ﷺ، وتثبيت لفؤاده على التزام الصبر، وإيناس له من وحشة هذا العبء الثقيل الملقى عليه، إذ أنه سيلقى المدد والعون من الله تعالى، وأن هذا الصبر الذي يُدعى إليه إنما هو صبر عظيم لا تحتمله النفوس إلا بالاستعانة عليه بالله والله تعالى معينه وممده بالطفافة.

وهو سبحانه وتعالى - في نفس الوقت - يعزّي رسوله فيما كان يجد في نفسه من حزن وأسى على قومه الذين غلبت عليهم شقوقهم فماتوا على الكفر حتف أنوفهم أو في ميدان القتال بأيدي المسلمين.

وأيضاً يمتن على الكافرين في موضع آخر بما يسر لهم من نعم فجدوها، وأنهم إذا مسهم الضر جزعوا واستكانوا وضعفوا، وإن أصابهم الخير وجرى عليهم النعيم طغوا وتجبروا ومكروا في آيات الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

ففيها تعريض بالمشركين وبمكرهم بآيات الله التي جاءهم بها رسوله ﷺ والمشتملة على الهدى وما فيه الخير والصلاح لهم، والرحمة بهم ليخرجهم من ظلمات الجهل ويستتقدمهم من أدران الجاهلي، ونيضفي عليهم الأمن والسلام بعد أن مزقتهم الحروب وعصفت بهم ريح البغي والعدوان.

وفي هذا يقول تعالى مذكراً لياهم بما ساق إليهم من رحماته ونعمه بأن أرسل إليهم هذا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بهذه الرسالة الكريمة المباركة فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِعَمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٧٣﴾

ولكنهم مع هذا كله يقابلون هذه النعم بالكفر والجحود والمكر في آيات الله سبحانه، ويعلمون على الله حرباً هم فيها المخدولون الخاسرون، فلن يفلتوا من عقاب الله سبحانه وتعالى.

وكان الأولى بهم - كما ذكرت - أن يأخذوا العظة والعبرة ممن سبقهم من الأمم، قال تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ (١٧٣٦).

وقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰ اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشَوَىٰ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّعَةَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (١٧٣٧).

(١٧٣٥) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(١٧٣٦) سورة الرعد: آية ٤٢.

(١٧٣٧) سورة النحل: الآيات ٢٦ - ٢٩.

جاء في تفسير الكريم الرحمن عند كلامه عن هؤلاء القوم ومكرهم ونتائجهم: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، واحتالوا بأنواع الحيل، على رد ما جاءهم به، وبنوا من مكرهم قصوراً هائلة ﴿فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيَ نُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءهم الأمر من أساسها وقاعدتها: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذاباً عذبوا به.

﴿وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سيفعهم، ويقبهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه، وهذا من أحسن الأمثال في إبطال اله مكر أعدائه، فإنهم لو فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل، ويرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالأ عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم واقتراءهم على الله... (١٧٣٨)

وقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيَ نُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٧٣٩)، لفت لهؤلاء المشركين إلى عبر وعظات، يرونها ماثلة بين أيديهم إن عميت أبصارهم عن أخذ العبرة من أنفسهم، ففي الأمم الغابرة التي لا تزال آثار العذاب الذي أخذها الله به باقية يمر عليها هؤلاء المشركون وهم عنها غافلون، وفي هذه الأمم مثلاً وعبر؛ إذ كان فيهم ما في هؤلاء المشركين من مكر بآيات الله، وكفر بها، وتكذيب برسل الله وإعنات لهم، فأخذهم الله من حيث لم يحتسبوا، ودمدم عليهم بذنوبهم فأصبحوا كهشيم تذروه الرياح، فهل يعجز الله أن تأخذ هؤلاء المشركين كما أخذ أسلافهم؟، أم أنهم أخذوا على الله عهداً لا تجري عليهم سنة الأولين سنة الله في الذين خلوا من قبل.

(١٧٣٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٥٤/٣، ٥٥.  
(١٧٣٩) سورة النحل: آية ٢٦.

وقد بين سبحانه أن البلاد الذي نزل بهم كان بلاء ساحقاً، بلاء ماحقاً، أتى على حياتهم كلها من أساسها واجتثها من أصولها فلم يبق من آثارهم دار ولا ديار.

وبين أن الذين أخذهم الله بالبلاء في الدنيا من الذين كذبوا الرسل لم يُوقَّوا حسابهم بعد، وأنهم إذا كانوا قد رموا بهذا العذاب في الدنيا فإن لهم في الآخرة عذاباً أشد وأنكى، وأن من صور هذا العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة هو الخزي الذي يلبسهم إياه حين يعرضون هذا العرض الفاضح على الملأ، ويسألون السؤال الذي يكشف لهم جريمتهم، حين يسألهم الحق جل وعلا: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِكَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾ (١٧٤٠) ثم يلتفتون فلا يجدون لهؤلاء الشركاء أتراً فيركبهم الكرب ويعروهم الهم والخزي (١٧٤١).

لقد نالهم من الخزي والفضيحة بسبب كفرهم وعنادهم وعدم تدبرهم وأخذ العظة عن سبقهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١١٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾ أَفَأَسْمَأُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَدِيَّةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾ (١٧٤٢).

## ثانياً

### ذكر شيء مما حلَّ بالأمم السابقة نتيجة كفرها

جرت سنة اله في خلقه أنه كلما بعث رسولاً أو نبياً إلى أمة من الأمم وكذب أهلها وعتوا وأذوا من أرسل إليهم وأقاموا ضده الحجج الباطلة والبراهين الكاذبة أهلكهم الله، وتتابع الأمم على ذلك، فكلما خلفت أمة الأمة التي قبلها في ديارهم وأموالها خلفتها كذلك في تكذيبها لرسول الله المبعوث إليها ثم حلَّ بها البلاء وأخذهم الله بيبأسه كما أخذ من سبقها

(١٧٤٠) سورة النحل: آية ٢٧.

(١٧٤١) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٢٨٦/١٤ - ٢٨٨ بتصرف واختصار.

(١٧٤٢) سورة يوسف: الآيات ١٠٥ - ١٠٧.

من الأمم، قال الله تعالى: ﴿يُمِزُّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدْلًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (١٧٤٣).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَذِيْرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوْهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَيَّ أَتَمَّوْ وَإِنَّا عَلَيَّ ءَاتَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قُلْ أُوْلُوْ جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوْا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء كُفْرُونَ ﴿٤٤﴾ فَاَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِيْنَ ﴿٢٥﴾﴾ (١٧٤٤).

وهنا تهديد لقوم يدعون إلى الإيمان، ويقفون موقفاً مباحداً له، وكان الأولي بهم إتباعهم الرسل فيما جاءوا به من عند الله وأخذ العبرة والعظة ممن سبقهم، وأن يربأوا بأنفسهم عن هذا التقليد لموروثات آباءهم وما أخذوه عنهم مما يتصل بأمور العقائد، ولكنهم تلقوه بكل اطمئنان دون أن ينظروا فيه بعقولهم أو يكشفوا عما فيه من حق أو باطل، وهذا لا يحصل إلا من سفاهة أحمق يعطل عقله، ويزهد فيه ويسترضه فلا يعيش إلا من هذا الغذاء الذي هو فضله مما ترك الأكلون، وقد تعفن وفسد، فهل هذا شأنهم مع ما ورثوه عن آباءهم من أموال ومناج؟ ألم يقبلوا هذه الأموال والأمتعة بين أيديهم؟ ألم يطرحوا منها ما هو غير صالح؟ ألم يأخذوا الصالح منها ويعملوا على الإفادة منه؟.

فما بالهم مع ما تلقوا عن آباءهم من عادات ومعتقدات هي مما يتصل بعقولهم، ما بالهم قد قبلوه على علته وأخذوه دون النظر فيه.

فلو أخذوه العبرة ممن سبقهم ما حصل هذا منهم، ولما استسلموا لما ورثوه عن الآباء من عادات ومعتقدات خاصة وأن النور والهدى قد جاءهم من الله بأن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين.

وسأعرض في هذا الكتاب إلى ذكر شيء مما حل نتيجة كفرهم ليعتظ اللاحقون ويسلكوا الملك الصحيح والصرراط المستقيم الذي فيه النجاة في الأولي والآخرة.

(١٧٤٣) سورة المؤمنون: آية ٤٤.

(١٧٤٤) سورة الزخرف: الآيات ٢٣-٢٥.

فهذا نوح عليه السلام يمكث مع قومه ألف سنة إلا خمسين سنة يدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى والإخلاص له نبذ ما يعبد سواه، ولكنه يلقى منهم بالكذب والسخرية والأذى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَجْمَعْتُهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ (١٧٤٥).

وتأتي القصة في موضع آخر من كتاب الله مفصلة تبين ما جرى بين نوح وقومه ومجادلته لهم وبذل كل ما في وسعه من أجل إيمانهم، ولكن كبرهم وعنادهم يأبى عليهم ذلك حتى أصابهم الله بعذاب من عنده في الدنيا والآخرة لهم أذل وأخزى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الِئْمِ ﴿١٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الْأَرَاءِ وَمَا نَرِي لَكَ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَذِبِيك ﴿١٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بِنْتِغٍ مِّن رَّبِّي وَإِنِّي رَحْمَةٌ مِّن عِنْدِهِ فَعُيِّتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ هَا وَنُحْمَا كَرِهُونَ ﴿١٨﴾ وَتَقَوْمِ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِن آخِرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٩﴾ وَتَقَوْمِ مَن بَصُرْتُم مِّن اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَد جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا فَأَنَا يَمَّا تَعْدَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَن أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ أَفَرَأَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمَا يُجْرِمُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَد ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعِ يَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَصْبَحَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا وَلَا نَخْطُبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَصْبَحُ الْفَلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِبُهُ وَيُجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَكَانَ

الثُّورُ قُلْنَا اجْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ آرَتُّبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَرُسْنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيْ أَرْتُّبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِفُ مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءِ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَالسَّوَاتُ عَلَى الْجَنُودِ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَسُوخُ إِنْهُ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ، عَمَلٌ غَيْرُ صٰلِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ، عِلْمٌ إِنَّيْ أُعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجٰنِهِيْلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ، عِلْمٌ وَإِلَّا تَعَفَّرْ لِيْ وَتَرَحَّمْ لِيْ أَكُنْ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلٰمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعٰكٍ وَأُمَّمٌ سَمِعَتْهُمُ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيْهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴿١٧٤٦﴾.

إن في ذكر أخبار الأولين، وما في تلك الأخبار من مواقف مشابهة للأحداث الجارية التي تعيش فيها الناس يومهم هذا، تذكير لهم بتلك الحقيقة التي تفررت بحكم الواقع، وهي النصر دائماً للمؤمنين، وأن الخزي والهوان دائماً على المكذابين.

وقصة نوح عليه السلام وقومه هي أولى الأحداث الإنسانية التي اصطدم فيها رسول من رسل الله بقومه، ثم يجئ بعد هذا قصص مشابهة لها في مواطن عدة من كتاب الله.

جاء نوح عليه السلام إلى قومه برسالة ربه منذراً إياهم بالعذاب الأليم إن هم لم يستجيبوا له ويؤمنوا بالله رب العالمين ومبشراً لهم بالجنة والرضوان إن هم آمنوا بالله

وأخلصوا دينه، ويبين القرآن الكريم مضمون رسالته وضبط لمحتواها: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسِافِ ﴿٢٦﴾﴾ (١٧٤٧).

هذه الرسالة تبين أولاً الإنذار لقومه، وثانياً إخلاص العبادة لله، وأخيراً تخويفهم من عذاب يوم أليم يوم يشيب فيه الولدان.

وكما هو الحال في جميع الرسائل الاعتراض على المرسلين أولاً بأنهم بشر وأن البشر - كما قدر هؤلاء - ليسوا أهلاً للسفارة بين الله والناس، وكان الأولي أن ينظروا إلى وجه الدعوة التي يدعوهم إليها رسل الله، فإذا كانت دعوة فيها الخير والرشد والصلاح والحث على الفضائل والنهي عن الرذائل فالأولي أن يقبلوها وأن يقفوا منا الموقف الذي يدلهم عليه العقل والرأي وإلا فلا.

وثانياً أن الذين يستجيبون لرسل الله ويتبعونهم هم من ضعفاء القوم والأراذل فيهم فالذين استجابوا لدعوة نوح كانوا من الذين لم تقم لهم في مجتمعهم رئاسة، أو تقع في أيديهم سلطة، يخشون عليها من هذا الطارق الجديد الذي يطرق بتلك الدعوة والتي يخشى منها أرباب الجاه والسلطان أن تكون سبباً في تعير الأحوال التي اطمأنوا إليها، وهكذا يكون الموقف دائماً في مواجهة كل جديد يطلع علي الناس فأصحاب الجاه و السيادة والسلطان يتصدون له ويقفون في وجهه؛ لأنه غالباً لا يطلع عليهم إلا بما يبذل أحوالهم ويغير من أوضاعهم، أما من لا سلطان له ولا جاه فإنهم يستقبلون الجديد، وينظرون فيه نظراً غير محجوز بهذه الحواجز التي يقيها المال والجاه والسلطان بين أهله وبين كل جديد.

جاء في تيسير الكريم لرحمن في تفسير قوله تعالى: ﴿تَرْكَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرْكَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ﴿٢٧﴾﴾ (١٧٤٨): أي: ( ما تراك اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم وهم - في الحقيقة - الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق ولم يكونوا كالأراذل، الذين يقال لهم: المأء، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقربون إليها ويسجدون، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأحس؟، وقولهم: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ أي: إنما من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم، اتبعوك، يعنون بذلك، أنهم ليسوا على

(١٧٤٧) سورة هود: الآيات ٢٥-٢٦.

(١٧٤٨) سورة هود: آية ٢٧.

بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بدهاء العقول وبمجرد ما يصل إلى أولى الأبواب، يعرفونه و يتحققونه، لا كالأمر الخفية التي تحتاج إلى تأمل، وفكر طويل (١٧٤٩).

وهكذا تتسلسل الأحداث فبين عليه السلام لقومه أنه لا يُكرههم على إتباعه؛ إذ أن المعتقد الديني لا يكون عن قهر وإكراه، بل هو أمر لا يتم غلا عن قناعة وقبول ورضا، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (١٧٥٠).

ومن حججه على قومه: أنه إذ يدعوهم إلي ما يدعوهم إليه، وإذ يحتمل في سبيل ذلك مل يحتمل من جهد وبلاء، أنه لا يسألهم أجراً على هذا العمل، الذي يحتمل من أجله ما يحتمل من عناء، وإنما هو حسبة لله، ولو أنه كان يبغى بما يدعوهم إليه أجراً منهم أو نفعاً ذاتياً له المكان لهم أن يظنوا به الظنون، وأن يرتابوا في أمره وفي هذا الإلحاح الذي يلح به عليهم رغم ما يجبهونه من تكذيب وما يرمونه به من ضرر.

ومما يزيد المؤمن رسوخاً في إيمانه وثباتاً عليه هو أن يري له في الدين مكانة وقيمة حيث المقياس هو التقوى لا الجاه والغني، وذلك يبرز في محبة كل رسول لأتباعه ومحبتهم له وحفاظه عليهم وذوده عنهم ولم يرد في شرع من الشرائع أن رسلاً طرد أصحابه أو رغب عنهم، وهذا ما يصور قول نوح عليه السلام لقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَيْكِنِّي أَرْتِكُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ﴾ (١٧٥١).

ثم تصور الآيات ملل قوم نوح منه وطلبهم أن ينزل بهم ما يخوفهم به من العذاب وصنعه للفلك وسخرية قومه منه، وعلامة قرب العذاب، وركبهم في الفلك على بركة الله وتدفق المياه وما حصل من جدال بين نوح وأبنه، وبيان أن الرابطة بين الناس هي الدين لا النسب، إلى آخر القصة، حيث بين سبحانه وتعالى أن الغلبة دائماً لحق، وأن النصره للأنبياء وأتباعهم، كيف لا وهم قد نصروا الله والله تعالى وعدهم بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُرُوا اللَّهَ تَصُرُّكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١٧٥٢)، وأن من يخالف شرع الله ويركب رأسه فيعاند ويتكبر فلا

(١٧٤٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣٦٢/٢.

(١٧٥٠) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(١٧٥١) سورة هود: آية ٢٩.

(١٧٥٢) سورة محمد: آية ٧.

يصدق الرسل فيما جاءوا به من عند الله فإنه له الخسران في الدنيا وفي الآخرة، فالذلة والخزي في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة حيث جهنم التي وصفها الله بقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١٧٥٣).

وهكذا قوم نوح الذين لم يؤمنوا به جاءهم العذاب في الدنيا بأن أغرقهم الله تعالى وما ينتظرهم في الآخرة أدهي وأمر.

وهذه القصة - قصة نوح عليه السلام مع قومه - جاءت ليلتفت إليها المشركون وكأنها قصتهم ثم ينتبهوا إلي ما سيأتي بعدها من أخذ الله تعالى للظالمين والمكذبين.

وهذا لوط عليه السلام وقومه، ولكل قوم داؤهم الذي جاء الرسول ليطب لهم منه، وداء هؤلاء القوم أنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وقد كانوا في هذا الفعل المنكر أول أناس فعلوه، فهم أئمة في هذا الضلال عليهم وزر هذا الإثم ووزر من عمل به إلى يوم القيامة.

وهم شأنهم شأن كل معتد أثيم يستمرئون هذا الضلال ويقيمون له منطقاً يقع من نفوسهم موقع اليقين والاطمئنان، وبهذا عدوا أنفسهم أصحاب دعوة راشدة، وأن لوطاً عليه السلام ومن معه قوم منحرفون متجمدون على القديم لا يتحولون عنه.

وكان لوط قد نزع عن كحلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم (١٧٥٤) من أرض غور زعر، وكان أم تلك المحلة، ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكثرهم وأسوأهم طوية، وأرداهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

(١٧٥٣) سورة التحريم: آية ٦.

(١٧٥٤) سدوم: فعول من السدم وهو الندم مع غم، مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له: سدوم، وقيل: سدوم بالذلل المعجمة، وقيل: اسم البلد لا اسم القاضي إلا أن قاضيها يضرب به المثل في الجور، فيقال: أجور من قاضي سدوم، وهي بلدة من أعمال حلب معروفة عامرة عندهم. انظر: معجم البلدان ٣/٢٢٦.

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليهم أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك خلق الله من النسوان لعبادة الصالحين.

فدعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده، لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلداهم وحسبانهم، وجعلهم مثالة في العالمين (١٧٥٥).

ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير موضع في كتابه المبين وأكتفي بقوله تعالى: ﴿

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ  
شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ  
مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجْبَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ (١٧٥٦).

وفى موضع آخر: ﴿

سَجِّلِ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ (١٧٥٧).

فقد جعل الله تعالى هذه القرية سافلها فقلبها رأساً على عقب فذهبت كل معالمها وأمطرها سبحانه وتعالى وأمطر أهلها حجارة من سجيل منضود حجارة معلمة وموسومة بسمات خاصة.

وفي قوله: ﴿

وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ تهديد لمشركي قريش وتلويح بهذه الحجارة المرصدة لهلاك الكافرين الحادين لله تعالى تلويح بها في وجوه هؤلاء المشركين من أهل

(١٧٥٥) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٩٢ بتصرف، قارن تاريخ الطبري ١/١٧٧.

(١٧٥٦) سورة الأعراف: الآيات ٨٠-٨٤.

(١٧٥٧) سورة هود: الآيتان ٨٢، ٨٣.

مكة، وأنها قريبة منهم، وأنهم يخشي عليهم أن يصيروا إلى هذا المصير الذي انتهى إليه قوم لوط.

وأخيراً أختتم الحديث عن هذا الفصل بقصة كلیم الله موسى عليه السلام باختصار شديد مع الإحالة لمن أراد التفصيل:

ولد موسى عليه السلام بمصر، وكان فرعون مصر في زمنه وأسمه الوليد بن مصعب<sup>(١٧٥٨)</sup> يقتل الأطفال فخافت عليه أمه وألقى الله في قلبها أن تلقيه في النيل فجعلته في تابوت وألقته، والنقطة آسية<sup>(١٧٥٩)</sup> امرأة فرعون وربته، وكبر، فبينما هو يمشي في بعض الأيام وجد رجلاً من شيعته وآخر من عدوه يختصمان فوكر عدوه فقتله، ثم اشتهر ذلك وخاف موسى من فرعون فهرب وقصد نحو مدين<sup>(١٧٦٠)</sup> واتصل بشيخ كبير فيها وله ابنتان، وزوجه إحدى ابنتيه وأقام يرعى الغنم عشر سنين.

ثم سار موسى بأهله في زمن الشتاء وأخطأ الطريق وكانت امرأته حاملاً فأخذها الطلق في ليلة شاتية فأخرج زنده ليقدر فلم يظهر له نار وأعيماً مما يقدر فرفعت له نار فقال لأهله: أمكنوا إني أنست ناراً لعلني آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون، فلما دنا منها رأي نوراً امتدأ من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، وقيل: من العناب، فتحير وخاف ورجع

<sup>(١٧٥٨)</sup> قيل: كان من العرب من بليّ وكان أبرش قصيراً يظاً في لحيته ملك مصر بعد كاتم بن معدان خمسمائة عام، ثم أغرقه الله وأهلكه، وهو الوليد بن مصعب، وقيل: كان من قبط مصر ولم يكن من العمالقة. أنظر: معجم البلدان ١٦٤/٥.

<sup>(١٧٥٩)</sup> هي: آسية بنت مزاحم بين عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام، وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. أنظر: قصص الأنبياء ص ٣٠٠.

<sup>(١٧٦٠)</sup> مدين: بفتح أوله وسكون ثانية وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون، قال أبو زيد ومدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقي منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ومدين اسم القبيلة وهي في الإقليم الثالث طولها إحدى وستون درجة وعرضها تسع وعشرون درجة، وهي مدينة قوم شعيب سميت بمدين بن إبراهيم. أنظر: معجم البلدان ٩٢/٥.

فنودي منها، ولما سمع الصوت استأنس وعاد، فلما أتاها نودي من جانب الطور<sup>(١٧٦١)</sup> الأيمن من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين، ولما رأى تلك الهيئة علم أنه ربه فخفق قلبه وكلّ لسانه، ثم شدّ الله تعالى قلبه، ولما هدأت نفسه نودي: أن أخلع نعليك إنك بالواد المقدس، وجعل الله عصاه ويده آيتين، ثم أقبل موسى إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً واجتمع به هارون، وسأله من أنت، فقال: أنا موسى فاعتقا وتعارفا.

ثم قال موسى: يا هارون، إن الله أرسلنا إلى فرعون فانطلق معي إليه، فقال هارون: سمعاً وطاعة فانطلقا إليه، وأراه موسى عصاه ثعباناً فاغراً فاه حتى خاف منه فرعون فأحدث في ثيابه، ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها وهي بيضاء لها نور تلك منه الأبصار فلم يستطيع فرعون النظر إليها ثم ردّها إلى جيبه وأخرجها فإذا هي على لونها الأول، ثم أحضر لهما فرعون السحرة وعملوا الحيات وألقى موسى عصاه فتلقفت ذلك وآمن به السحرة فقنطهم فرعون عن آخرهم، ثم أراهم الله الآيات من القمل والضفادع وصوررة الماء دماً فلم يؤمن فرعون ولا أصحابه.

وأخر الحال سار موسى عليه السلام بأصحابه ليلاً وسار فرعون بعسكره خلفهم حتى لحقهم عند بحر القلزم<sup>(١٧٦٢)</sup> فضرب موسى بعصاه البحر فانشق ودخل فيه هو وقومه وبتته فرعون وجنوده فانطبق البحر على فرعون وجنوده وغرقوا عن آخرهم<sup>(١٧٦٣)</sup>.

---

<sup>(١٧٦١)</sup> الطور: هو طور سيناء بكسر السين، ويروي بفتحها، وهو اسم جبل بقرب إيلة وعنده بليد، فتح في زمن رسول الله ﷺ سنة تسع صلحاً على أربعين ديناراً. قال الجوهري: طور سيناء جبل بالشام وهو طور أضيف إلى سيناء وهو شجر، وكذلك طور سنين. أنظر: معجم البلدان ٥٤/٤.

<sup>(١٧٦٢)</sup> سمي بحر القلزم قلزمًا لالتهامه من ركبه، وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله. قال الكلبي: استطال عنق من بحر الهند قطعن في تهائم اليمن على بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعكّ ومضى إلى جدة، وهو ساحل مكة ثم الجار وهو ساحل المدينة ثم ساحل الطور وساحل التيماء وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها، قلت: ويعرف الآن بالبحر الأحمر. أنظر: معجم البلدان ٤٣٩/٤.

<sup>(١٧٦٣)</sup> انظر: المختصر في أخبار البشر ١٨/١، ١٩.

وهكذا دمر الله عصابة الكفر والضلال ونصر رسوله وأتباعه، وهذه سنة الله في خلقه وقد وردت قصة موسى في مواضع كثيرة من كتاب الله الكريم، وأكثر هذه المواطن تفصيلاً ما ورد في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٤)﴾ (١٧٦٤) وما بعدها من آيات.

واختتم سبحانه وتعالى الحديث عن هذه القصة مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ومسلماً له عما لقيه من جدل من قومه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ (١٧٦٥).

والحال في كفار قريش كالحال فيمن سبقهم، فمن لم يؤمن بالله ويصدق محمداً ﷺ فقد لقي الخزي والذلة والقتل في يوم بدر، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وهكذا لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فليت قريشاً اتعظوا بمن سبقهم وتركوا المكر برسول الله ﷺ وأصحابه.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ (٥١)﴾ (١٧٦٤)  
 ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ (٥١)﴾ (١٧٦٥)  
 ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ (٥١)﴾ (١٧٦٦)

(١٧٦٤) سورة القصص: الآيات ١-٣.

(١٧٦٥) سورة القصص: آية ٥٠.

(١٧٦٦) سورة النمل: الآيتان ٥١، ٥٢.

## الفصل الثاني

### نفي الأمن عن الكفار عند الموت

تمهيد :

يعاني الكافر والفاجر من الموت أكثر مما يعاني المؤمن، وذلك أن الإنسان إذا حضره الأجل أجلت له الحقائق وكشفت عنه الغمامة، فإذا هو يرى نتيجة عمله ونتيجة ما قدم، قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۗ ﴿١١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ ﴿١٢﴾ وَمَأْتَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿١٣﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكُنْضْنَا عَنْكَ غِطَاءً فَفَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَوِيدٌ ﴿١٤﴾ . (١٧٦٧)

وحينئذ يتمني لو أنه يرجع إلى الدنيا لكي يعمل الصالحات كما أخبر سبحانه وتعالى عن هذا بقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢﴾ . (١٧٦٨)

لكن هيهات الرجوع، والإيمان لا يقبل إذا حضر الموت، والتوبة لا تنفع إذا غرغر العبد: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ . (١٧٦٩)

(١٧٦٧) سورة ق: الآيات ١٩-٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(3) سورة النساء: الآيتان ١٧ ، ١٨ .

وسأبين في هذا الفصل إن شاء الله خوف الكافر وفزعه وعدم أمنه من ساعة اختصاره حتى يدخل النار.

أولاً

## عدم التثبيت وسوء الخاتمة

ذكرت فيما مضى المؤمنون وما يحصل لهم من الثبات وحسن الخاتمة، وهنا أبين حال الكافرين عند موتهم وما ينتابهم من الأسى والحسرة والندم حينئذ وما يظهر عليهم في تلك اللحظات من علامات تدل على سوء حالهم، حيث إن الكافر في هذه اللحظات يحس بالجريمة الكبرى التي ارتكبها في حياته وفي حق نفسه، وأن كل ما يحصل عليه من المتع في الدنيا لا يوازي لحظة واحدة من العذاب فيبتسج وجهه ويملؤه الهم والنغم الذي لن يزول عنه أبداً، ويرى مقعده في النار .

فقد مات وأنتقل من الدنيا وانتهت فترة الاختبار بالنسبة له وأصبح لا يملك لنفسه شيئاً، وانتهت الإرادة البشرية تماماً وأصبح مقهوراً لأمر الله، قد كشف عنه الغطاء وعرف ما له وما عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُتِبَ فِي عَفْوِكَ مِن هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (١٧٧٠) أي: لقد كشفنا عنك غطاء الغفلة الذي كان مضروباً على بصرك فبصرك اليوم حديد قوي يري كل ما بين يديك وما خلفك.

يقول الشيخ الشعراوي في معرض حديثه عن هذه الآية: ( وهكذا منذ ساعة الاحتضار يري الإنسان ما لم يكن يراه في الحياة الدنيا، لأن الله يكشف عنه غطاء الدنيا فيري عالماً جديداً هذا العالم موجود ولكنه لا يراه خلال رحلته الدنيوية) (١٧٧١).

(١٧٧٠) سورة ق: آية ٢٢ .

(١٧٧١) أنظر: يوم القيامة للشيخ الشعراوي ص ٣٧ .

ولما كان الكافر منهمكا في كفره وضلاله في الحياة الدنيا فإنه يكون في وضع سيئ عند احتضاره لما يراه في ساعة الاحتضار من دلائل تدل على سوء عاقبته ولمفارقته أهله وأحابيه فتكون له سوء الخاتمة، وإذا كان العصاة يحصل لهم ساعة الاحتضار من الزيغ والانحراف ما الله به عليم فكيف بالكفرة والملحدين .

جاء في كتاب الثبات عند الممات: ( وقد خذل كثير عند الموت فمنهم من أتاه الخذلان من أول مرضه فلم يستدرك قبيحا مضى، وربما أضاف إليه جوراً في وصيته، ومنهم من فاجأه الخذلان في ساعة اشتداد الأمر، فمنهم من كفر، ومنهم من تعرض وتسخط، نعوذ بالله من الخذلان .

وهذا معنى سوء الخاتمة وهو: أن يغلب على القلب عند الموت الشك أو الجحود فتقبض النفس على تلك الحالة، ودون ذلك أن يتسخط الأقدار) (١٧٧٢).

وفي هذه اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان لا ينفع الندم ولا ينفع التوبة كما ذكرت سابقاً كما أنه لا ينفع الإيمان، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِلَىٰ مَا مُنظَرُونَ ﴿١٥٨﴾ (١٧٧٣).

جاء في التفسير القرآني للقرآن عند الحديث عن هذه الآية: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ : (فالإيمان عند استقبال الموت لا ينفع صاحبه فهو كإيمان فرعون حين أدركه الغرق) (١٧٧٤).

(١٧٧٢) أنظر: الثبات عند الممات للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ص ٤٧.

(١٧٧٣) سورة الأنعام: آية ١٥٨ .

(١٧٧٤) أنظر: التفسير القرآني للقرآن ص ٣٥٣ .

فهذا الإيمان لا ينفع تلك النفس فيظهر عليها من علامات سوء الخاتمة وعدم التثبيت ما قد يراه الحاضرون، يقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي: "المؤمن يموت بعرق الجبين" (١٧٧٥).

وروي عن سليمان الفارسي (١٧٧٦) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أرقيبوا للميت عند موته ثلاثاً: أن رشح جبينه وذرفت عيناه وانتشر منخراره فهي رحمة قد نزلت به، وإن غط غطيظ البكر المخنوق وخمد لونه وأزبد شدقاه فهو عذاب من الله تعالى قد حل به" (١٧٧٧).

قال بعض العلماء: إنما يغرق جبينه حياء من ربه لما اقتترف من مخالفته، لأن ما سفل منه قد مات، وإنما بقيت قوى الحياة وحركتها فيما علا، والحياء في العينين وذلك وقت الحياء، والكافر في عمى عن هذا كله، والموحد المعذب في شغل عن هذا بالعذاب الذي قد

(١٧٧٥) سنن الترمذي (كتاب الجنائز، باب: ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين) رقم الحديث ٣٠١/٣ (٩٨٢).

قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن)، وسنن النسائي (كتاب الجنائز، باب: علامة موت المؤمن) ٥/٤، ٦، وسنن ابن ماجه (كتاب الجنائز، باب: ما جاء أن المؤمن يؤجر في النزاع) رقم الحديث (١١٨٨) ٢٤٥/١ وقال الألباني عنه: (صحيح)، والطيايىسي رقم [٨٨٠] ص ١٠٩، والحديث عن أبي بريدة عن أبيه عن النبي ٢٢٢٢٢.

(١٧٧٦) هو: سلمان الفارسي، أبو عبد الله، ويعرف بسلمان الخير، مولى رسول الله ﷺ، وسئل عن نسبه فقال: أنا سلمان بن الإسلام، أصله من فارس من رامهرمز، وقيل: من جي وهي مدينة في أصبهان وكان اسمه قبل الإسلام ما به بن بونخشان، وكان ببلاد فارس محبوساً سادن النار، وفي سبب إسلامه قصة طويلة، أول مشاهده الخندق ولم يتخلف عن مشهد بعها، توفي سنة خمس وثلاثين في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه، قال العباس بن يزيد: عاش سلمان ثلاثمائة وخمسين سنة، فأما مائتان وخمسين سنة فلا يشكون فيها. أنظر أسد الغابة ٤١٧/٢، وسير أعلام النبلاء ٥٠٥/١، والأعلام ١٦٩/٣.

(١٧٧٧) ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة رقم (١٨٧) ص ٢٨٧.

حل، وإنما العرق الذي يظهر لمن حلت به الرحمة، فإنه ليس من ولي ولا صديق ولا بر وإلا وهو مستحي من ربه، مع البشري والتحف والكرامات .

وقد تظهر العلامات الثلاث، وقد تظهر واحدة وتظهر اثنتان، وقد شاهدنا عرق الجبين وحده وذلك بحسب تفاوت الناس في الأعمال، والله أعلم<sup>(١٧٧٨)</sup> .

وبمناسبة ذكر عدم التثبيت وسوء الخاتمة بالنسبة للكافرين فإنني سأذكر بعض الأسباب المؤدية لسوء الخاتمة لبعض الذين يظهرون الإسلام ويعلمون به ويختتم لهم والعياذ بالله بخاتمة سيئة، وقد تبدو تلك الخاتمة من بعض من حضرهم الموت، وقد جاء في كتاب يقظة أولى الاعتبار قوله: (..... وله - أي سوء الخاتمة - أسباب يجب علي المؤمن أن يحترز عنها)<sup>(١٧٧٩)</sup>، ثم ذكر الأسباب فقال:

#### ١- منها الفساد في الاعتقاد:

وإن كان مع كمال الزهد والصلاح، فإن كان له فساد في اعتقاده مع كونه قاطعاً به متقناً له غير ظان أنه أخطأ فيه قد ينكشف له حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحقّة مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سبباً لزوال بقية اعتقاداته، فإن خروج روحه في هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود الي اصل الإيمان يختم له بالسوء ويخرج من الدنيا بغير إيمان فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾<sup>(١٧٨٠)</sup>، وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾<sup>(١٧٨١)</sup> الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

<sup>(١٧٧٨)</sup> أنظر: التذكرة للقرطبي ص ١٩ .

<sup>(١٧٧٩)</sup> يقظة أولى الاعتبار في ذكر النار وأصحاب النار لصديق حسن خان ص ٢١١ .

<sup>(١٧٨٠)</sup> سورة الزمر: آية ٤٧ .

صُنْعًا ﴿١٧٨١﴾، فإن كل من أعتقد شيئاً على خلاف ما هو عليه إما نظراً برأيه وعقله أو أخذاً ممن هذا حاله فهو واقع في هذا الخطر، ولا ينفعه الزهد والصلاح، وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن العقائد الدينية لا يعتد بها إلا ما أخذت منها .

## ٢- ومنها الإصرار على المعاصي :

فإن من له إصرار عليها يحصل في قلبه إلفها وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره عند موته، فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة ومعصية من المعاصي فيتقيد قلبه بها وتصير حجاباً بينه وبين ربه، وسبباً لشقاوته في آخر حياته .

والذي لم يرتكب ذنباً أصلاً، أو ارتكب وتاب فهو بعيد عن هذا الخطر، وأما الذي ارتكب ذنوباً كثيرة حتى كانت أكثر من طاعاته ولم يتب عنها، بل كان مصراً عليها فهذا الخطر في حقه عظيم جداً، إذ قد يكون غلبه الإلف بها سبباً لأن يتمثل في قلبه صورتها، ويقع منه ميل إليها وتقبض روجه عليها فيكون سبباً لسوء خاتمته .

ويعرف ذلك بمثال: وهو أن الإنسان لا شك أنه يرى في منامه من الأحوال التي ألفها طول عمره، حتى إن الذي قضى عمره في العلم يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء، والذي قضى عمره في الخياطة يرى الأحوال المتعلقة بالخياطة والخياط .....، إذ لا يحضر في حال النوم إلا ما حصل له مناسبة مع قلبه لطول الإلف، والموت وإن كان فوق النوم لكن سكراته وما يتقدمه من الغشى قريب من النوم

فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب وتمثلها فيه وميل النفس إليها، وإن قبض روجه في تلك الحالة يختم له بسوء .

جاء في كتاب الكبائر: ( قال مجاهد<sup>(١٧٨٢)</sup>: ما من ميت يموت إلا مثل له جلساؤه الذين كان يجلسهم، فاحتضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: شاهك، ثم مات، فغلب علي لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب، فقال عوض كلمة التوحيد: شاهك)<sup>(١٧٨٣)</sup> .

### ٣- ومنها العدول عن الاستقامة:

فإن من كان مستقيماً في ابتدائه ثم تغير عن حاله، وخرج مما كان عليه في ابتدائه يكون سبباً لسوء خاتمته، كإيليس الذي كان في ابتدائه رئيس الملائكة ومعلمهم<sup>(١٧٨٤)</sup> وأشدهم اجتهاداً في العبادة، ثم لما أمر بالسجود لآدم أبى وأستكبر وكان من الكافرين .

---

<sup>(١٧٨٢)</sup> هو: الإمام شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ويقال: مولى عبد الله بن السائب، ويقال: مولى قيس بن الحارث المخزومي، روى عن ابن عباس رضي الله عنه فأكثر أطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقهاء، وعن أبي هريرة وعائشة وسعد وعبد الله بن عمرو وابن عمر رضي الله عنهم أجمعين، تلا عليه جماعة منهم الدارمي وابن محيصن، وحدث عنه عكرمة وطاووس وغيرهم . وقال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، مات سنة ١٠٣هـ وقيل: سنة ١٠٤هـ، وقيل غير ذلك . أنظر: حليه الأولياء ٣/٣٧٩، وسير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩ وميزان الاعتدال ٣/٤٣٩ .

<sup>(١٧٨٣)</sup> أنظر: كتاب الكبائر للذهبي ص ٩١ .

<sup>(١٧٨٤)</sup> هذا ما ذكره صديق خان في كتاب المذكور، ومعلوم أن في إيليس خلافاً بين العلماء: هل هو من الملائكة، والاستثناء في الآيات المذكور فيها والمأمور فيها بالسجود متصل؟، أو هو من الجن كما في سورة الكهف والاستثناء منقطع، وهذه مسألة متشعبة، تحريرها وتمحيصها يستغرق وقتاً طويلاً وقراطيس كثيرة وليس المجال مجال الاستفاضة فيها .

فإن كان في إيمانه ضعف يضعف حب الله فيه، ويقوى حب الدنيا في قلبه، ويستولي عليه بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله تعالى، إلا من حيث حديث النفس بحيث لا يظهر له أثره في مخالفه النفس، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي، ولا في الحث على الطاعات، فينهمك في الشهوات وارتكاب السيئات، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب فلا تزال تطفئ ما فيه من نور الإيمان مع ضعفه، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفاً في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا، وهي محبوبة له، وحبها غالب عليه لا يريد تركها، ويتألم من فراقها، ويرى ذلك منه الله تعالى، فيخشى أن يحصل في باطنه بغضه تعالى بدل الحب، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن خروج روحه في اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة يختم له بالسوء ويهلك هلاكاً مؤبداً .

والسبب المفضي الي هذه الخاتمة حب الدنيا، والركون إليها، والفرح بها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى، وهو الداء العضال الذي قد عم أكثر الخلق، فإن من يغلب على قلبه عند الموت أمر من أمور الدنيا يتمثل الأمر في قلبه، ويستغرقه، حتى لا يبقى لغيره متسع، فإن خروج روحه في تلك الحالة يكون رأس قلبه منكوساً إلى الدنيا، ووجهه مصروفاً إليها، ويحصل بينه وبين ربه حجاب (١٧٨٥) .

## اشتداد الموت وسكراته عليهم

من علامات البؤس والبلاء وسوء الخاتمة هو ما يحصل للكافر حال احتضاره فإنه يشد عليه الموت، وتشد عليه سكراته، ويحصل له من الإجهاد والضيق ما تتفطر منه القلوب، وقد وصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها الكفرة والظالمون عند موتهم، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفَوْا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (١٧٨٦)، وقوله: ﴿ وَلَوْ كَرِهْتَ إِذْ تَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١٧٨٧).

وفي هذا الحديث الذي يدور بين الملائكة وبين أولئك المستضعفين الذين أبوا أن يتحولوا عن مواطن الظلم إيثاراً لديارهم وأهليهم على كرامتهم وإنسانيتهم ومعتقدهم، في هذا الحديث مسألة لهؤلاء الذين استضعفوا فقبلوا هذا الاستضعاف ورضوا به، واتهام لهم بتلك الجناية التي جنوها على أنفسهم وذلوا بها آدميتهم، ومحاكمة تنتهي بهم إلى عذاب السعير في الآخرة، حيث ضاع إيمانهم فيما ضاع من آدميتهم تحت سياط الظلم والتعسف، وكونهم انتهوا إلى عذاب السعير فهذا دليل على سوء خاتمتهم، ومن كانت خاتمتها سيئة كان الموت وسكراته عليه شديدة .

وهذا يعني أن المؤمن لا يصبر أبداً على الظلم، ولا يقبله، وإنه أن قلبه وصبر عليه لم يكن في المؤمنين، لأن المؤمن عزيز بالله كريم على الله وطاعم الظلم ومستسيغه لا عزة له ولا كرامة .

(١٧٨٦) سورة النساء: آية ٩٧ .

(١٧٨٧) سورة الأنفال: آية ٥٠ .

جاء في زاد المسير بيان أن هذا ما يحصل من الملائكة لهؤلاء حين قبض أرواحهم وفي ساعة الاحتضار، فقال: (قال مقاتل<sup>(١٧٨٨)</sup>): المراد بالملائكة ملك الموت وحده . وقال في موضع آخر: ملك الموت وأعوانه<sup>(١٧٨٩)</sup> .

قال أبو بكر الجزائري: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (١٧٩٠) حيث تركوا الهجرة ومكثوا في دار الهوان يضطهدهم العدو ويمنعهم من دينهم ويحول بينهم وبين عبادة ربهم، هؤلاء الظالمون لأنفسهم تقول لهم الملائكة عند قبض أرواحهم (...)<sup>(١٧٩١)</sup> .

والشاهد أن هذا الحديث بين الملائكة وهذا الصنف من الناس يكون في حالة الاحتضار، والله أعلم .

ويقول تعالى أيضا مبيناً حال هؤلاء الظالمين أنفسهم: ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءِ بَلَىٰ إِنْ لَئِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٧٩٢) .

هذه صفة أخرى لأولئك الذين قال فيهم أهل العلم: ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١٧٩٣) ، فهؤلاء الكافرين تتوفاهم الملائكة وقد ظلموا أنفسهم بإغراقها في

(١٧٨٨) هو: كبير المفسرين أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني البلخي، روي عن مجاهد والضحاك وابن بريده وعنه حرمي بن عمارة وعلي بن الجعد وغيرهم، قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة . وقال الشافعي: الناس عيال على مقاتل في التفسير، مات مقاتل سنة نيف وخمسين ومائه للهجرة . أنظر: سير أعلام النبلاء ٢٠١/٧ ، وميزان الاعتدال ١٧٣/٤ ، وتهذيب التهذيب ٢٧٩/١٠ .

(١٧٨٩) زاد المسير ١٧٧/٢ .

(١٧٩٠) سورة النساء: آية ٩٧ .

(١٧٩١) أيسر التفاسير ٤٤٥/١ .

(١٧٩٢) سورة النحل: آية ٢٨ .

الضلال، والتتكب بها عن طريق الحق، فإذا سيقوا إلى الموقف في ذلة وصغار أعطوا أيديهم مستسلمين لمن يقودهم إلى هذا المصير المشئوم الذي هم صائرون إليه وعلى ألسنتهم التي مرنت على القول الكاذب والافتراء ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ هكذا المجرم يردد كلمات البراءة من ذنبه ويدها ملطختان بدم قتيله إنها كلمات عزاء ومواساة يتعلق بها المجرمون كما يتعلق الغريق بمتلاطم الأمواج، ولكن الله عليم بما عملوا فقد كذبهم وقطع الأمل الكاذب التي تعلقوا به .

وفي هذا المعني جاء في تفسير الظلال: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَقَّأُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فيعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة، يعود بهم إلى ساعة الاحتضار والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين وبما أوردوها موارد الهلاك وبما قادوها في النهاية إلى النار والعذاب.

ويرسم مشهدهم في ساعة الاحتضار، وهم قريبا عهد بالأرض وما لهم فيها من كذب ومكر وكيد ﴿ فَالْقَوْمُ السَّلَامُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ ألقوا السلم، هؤلاء المستكبرون، فإذا هم مستسلمون لا يهيمون بنزاع أو خصام، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام ثم يكذبون - ولعله طرف من مكرهم في الدنيا فيقولون مستسلمين: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾، وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين .

ويجيئهم الجواب: ﴿ بَلَى ﴾ من العليم بما كان منهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه .

ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا قَلْبُئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١٧٩٤)(١٧٩٥) .

( ١٧٩٣ ) سورة النحل: آية ٢٧ .

(١٧٩٤) سورة النحل: آية ٢٩ .

إذن المخاطبون لهم هم الملائكة الذين يحضرون ساعة الموت والاحتضار، وبما أن هذه نتيجتهم - جهنم - فلا شك أنهم يلاقون أشد أنواع السكرات حال موتهم .

ومثل ما ذكرت في الآية السابقة قول الله تعالى: ﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٧٩٦﴾ .

وهناك آيات تبين ما يحصل للكافرين عند موتهم من ضرب الملائكة لهم.

وأذكر هنا ما يخص الكافر في هذا الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: " وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسموح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة: اخرجي إلي سخط من الله وغضب، قال: ففرق من جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حني يجعلوها في تلك المسموح، ويخرج منها كائنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على مأل من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حني ينتهي به إلي السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أَتَفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴿١٧٩٧﴾، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلي فتطرح روحه طرحا" ثم قرأ: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ

(١٧٩٥) أنظر: في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤/ ٢١٦٩ .

(١٧٩٦) سورة الأعراف: آية ٣٧ .

(١٧٩٧) سورة الأعراف: آية ٤٠ .

الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١٧٩٨﴾، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد السماء: أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه الذي يجى بالشر؟ فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة<sup>(١٧٩٩)</sup>.

## ثالثاً

### ضرب الملائكة لهم عند الموت

ذكرت فيما مضى صورة المؤمن وهو يحتضر تحيط به ملائكة الرحمة ..... ويلقون السلام عليه ويبشرونه بالجنة، ولذلك يكون المؤمن سعيداً، منبسطة أساريره لأنه ذاهب إلى خير مما كان فيه، إنها ساعة بشارة، ساعة يسر، ساعة فرح، يتمناها كل مؤمن أن يرى ملائكة الرحمة ويبشر بالجنة .

وهنا تأتي الصورة الثانية التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا في القرآن الكريم وهي الحديث عن الكافر، والعاصي حيث يري ملائكة العذاب، وبدلاً من أن يلقوا عليه السلام فإنهم يواجهونه بالضرب علي وجهه، وعلي مؤخرة جسده وينذرونه بالنار وعذاب الحريق ..... فيتمني في هذه اللحظة أنه لم يولد .

وما يحدث للميت حال موته لا نشاهده ولا نراه، وإن كنا نرى آثاره، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن حال المحتضر، فقال: ﴿ فَتَوَلَّى إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ

(١٧٩٨) سورة الحج: آية ٣١ .

(١٧٩٩) سبق تخرجه ص ٥٣٣ .

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ (١٨٠٠) ، والحديث هنا عن الروح حينما تبلغ الحلقوم، وذلك في ساعة الاحتضار، والذين من حوله ينظرون إلي ما يعانیه من سكرات الموت وإن كانوا لا يرون الملائكة التي تسلم روحه .

وفي هذه الآيات استدعاء لهؤلاء المنكرين للبعث، المداهين في هذا الحديث الذي استمعوا إليه ما استمعوا من أمره استدعاء لهم أن يمتحنوا قواهم كلها، وأن يجيئوا بكل ما يملكون من حوله وحيلة، وهو عند عزيز كريم لديهم ممن قد حضره الموت، وحشرجت روحه حني بلغت الحلقوم، وهم ينظرون إليه في حزن قاتل، وحسرة محرقة، فهل يستطيعون رد هذه الروح إلي مكانها من الجسد؟ فليجربوا هذا وليحاولوه، إن كان الأمر يتسع لتجربة، أو يقبل حيلة، إن الله سبحانه وتعالى هو أقرب إلي هذا المحتضر منهم، ولكنهم لجهلهم وكفرهم لا يدركون هذه الحقيقة ولا يتصورنها .

وقال تعالى في هذا المعني:

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ {٢٧} وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ {٢٨} وَالنَّفْتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ {٢٩} إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿١٨٠١﴾ .

فبعد الحديث عن يوم القيامة الذي لا يصدق به المشركون، عرض لهذا المشهد الذي يراه الناس بأعينهم في الحياة الدنيا، وهو مشهد الموت الذي ينهي حياة الإنسان من هذا الوجود الدنيوي .

في هذا المشهد يري المكذبون بيوم القيامة - كما يري غيرهم - حالاً من أحوال النزع والاحتضار، وقد بلغت الروح فيها الحلقوم .

وجاء التعبير هنا عن بلوغ الروح الحلقوم في الآيات السابقة ببلوغها التراقي - وهي جمع ترقوة، والترقوتان من الإنسان هما عظيमतان ممتدتان يميناً وشمالاً من ثغر النحر إلي

(١٨٠٠) سورة الواقعة: الآيات ٨٣-٨٥.

(١٨٠١) سورة القيامة: الآيات ٢٦-٣٠.

العنق - وفي ذلك ما يدل على أن الروح تتحرك أثناء النزح والاحتضار، فتنتقل من التراقي أي النحر إلي الحلقوم، فإذا بلغت الحلقوم لفظ الإنسان أنفاسه الأخيرة، إذ كان ذلك آخر حدود الروح مع الجسد .

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ (١٨٠٢) أي التمس أهل المحتضر الأساة والرقاة لدفع يد الموت الممتدة إليه وهو ينازع سكرانه .

والراقي هو: من يسترقي للمريض بالرقى والتعاويذ ونحوها ، رجاء أن يشفيه من دائه أو يخفف ما به، وهو أسلوب من أساليب التطيب والاستشفاء عند الجاهليين وقد ذكره القرآن هنا على لسان المتعاملين به، فهو من واقع الحال الذي يقتضي الصدق نقله كما هو .

وقوله : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ (١٨٠٣) ..... بيان لمرحلة الثالثة من أهم مراحل الاحتضار، حيث كانت المرحلة الأولى هي بلوغ الروح التراقي، ثم كانت المرحلة الثانية استدعاء الرقاة والمتطببين، ثم كانت المرحلة الثالثة، وهي اليأس من رقي الرقاة، فقد تبين لأهل المحتضر وتيقنوا أنه لا يلبث إلا قليلاً حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وها هي الروح وقد بلغت الحلقوم .

وقوله تعالى: ﴿ وَالنَّفْسُ السَّاقِطَةُ ﴾ (١٨٠٤) بيان المرحلة الرابعة في مسيرة هذا المحتضر إنه لا يموت ويتحول إلى العدم، كما يظن ذلك الذين كفروا وكذبوا بالحياة الآخرة، بل إنه سيحيا في عالم آخر ..... فبعد خروج الروح من هذا الجسد تنطلق إلي عالم الحق، وتساق سوقاً عنيفاً إلي ربها، فيلتف الساق بالساق من شدة الكرب، وتقل البلاء، لان الروح، روح إنسان لم يكن يؤمن بربه، ولم يكن ممن يصدق بآيات الله وبرسل الله، ولم يكن من المصلين الذين استجابوا لله، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا مَدْرَ وَلَا صِلَىٰ ﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿ ﴾

(١٨٠٢) سورة القيامة: آية ٢٧ .

(١٨٠٣) سورة القيامة: آية ٢٨ .

(١٨٠٤) سورة القيامة: آية ٢٩ .

(١٨٠٥) أي كذب بآيات الله معرضاً عنها ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ۗ ﴾ (٣٣) ﴿١٨٠٦﴾ أي: حين أعطي ظهره معرضاً عن آيات الله، أقبل على مجتمعه وناديه يمشي معجباً بنفسه نافخاً صدره، ماداً جناحيه، كأنه القائد المظفر، وقد عاد من الميدان يسوق بين يديه الغنائم والأسرى .

والتفاف الساق بالساق كناية عن الشدة والكره، حيث لا يقوى المرء على التحكم في أوصاله، أو أن يضبط حركات رجليه، فهو يمشي متخالجاً متماوجاً، كما يمشي المصروع (١٨٠٧) .

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن توفي الملائكة للكفرة، فقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرَبُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَنْبُشُهُمْ وَأُذُنُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٥٠) ﴿١٨٠٨﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظالم للعبيد ﴿٥١﴾ (١٨٠٨) .

جاء في التفسير المنير: ( ولو عاينت يا محمد حال الكفار حين تتوفاهم الملائكة لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً لا يكاد يوصف، فهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد وينزعون أرواحهم من أجسادهم بشدة وعنف، قائلين لهم: ذوقوا عذاب الحريق أي عذاب النار في الآخرة، وهذا إنذار لهم بذلك العذاب .

ذلك العذاب الشديد والضرب الأليم بسبب ما قدمتم من أعمال سيئة وأرتكبت من منكرات الكفر والظلم في حياتكم الدنيا، ونسب ارتكاب المعاصي إلي الأيدي مع أنها تقع بغيرها كالأرجل وسائر الحواس، لان أكثر الأعمال تقع بها . جازاكم الله بها هذا الجزاء عدلاً لا

(١٨٠٥) سورة القيامة: الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(١٨٠٦) سورة القيامة: آية ٣٣ .

(١٨٠٧) أنظر: التفسير القرآني للقرآن ١٣٣٩/٢٩ - ١٣٤١ بتصرف واحتضار .

(١٨٠٨) سورة الأنفال: الآيات ٥٠-٥١ .

ظلماً، لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجوز أبداً، ويضع الموازين القسط ليوم القيامة ويعطي كل ذي حق حقه، فلا تظلم نفس شيئاً .

جاء في الحديث القدسي<sup>(١٨٠٩)</sup> الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: " إن الله تعالى يقول: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه" <sup>(١٨١٠)</sup> .

ثم عقد تبارك وتعالى مقارنة، وأعطى شبهاً ومثلاً لعذاب المشركين فقال: ﴿ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ <sup>(١٨١١)</sup> أي: أنه تعالى فعل بهؤلاء المشركين المكذبين برسالة محمد ﷺ وكفرهم بها، كما فعل بالأمم المكذبة قبلهم، فعادة هؤلاء في كفرهم وعنادهم كعادة آل فرعون - أي: قومه - في كفرهم فجوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جوزي أولئك بالإغراق، كفر هؤلاء المشركون والكفار بآيات ربهم، فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فالسنة والعادة في الفريقين واحدة والجزاء من جنس العمل<sup>(١٨١٢)</sup> .

---

(١٨٠٩) الحديث القدسي هو: ما يسنده النبي ﷺ من الكلام إلى الله عز ووجل، فيرويه النبي ﷺ للأمة على أنه من كلام الله وله صيغتان: الأولى: ( قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ) ، وهي عبارة أثرها السلف. والثانية: ( قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ ) وهي عبارة أثرها الخلف، والمؤدى واحد في العبارتين. أنظر: أدب الحديث النبوي للدكتور بكرى شيخ أمين ص ١٦ .

(١٨١٠) صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الأدب، البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم) رقم الحديث (٦٥١٧) ٣٤٨/١٦ وقال: (انفراد به مسلم) . تحفة الأشراف (١١٩٣٦) .

(١٨١١) سورة الأنفال: آية ٥٤ .

(١٨١٢) التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي ٣٧/١٠ ، ٣٨ .

قلتُ: وهذا دليل واضح على أن هذا - أي التوفي والضرب - عام في حق كل كافر، وليس خاصاً بقتلى بدر من الكفار وإن نزلت الآية فيهم، لأن الله تعالى أخبر أن ما جرى لأهل بدر هو مثل ما جرى لآل فرعون والذين من قبلهم، ونص الآية

يدل على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ (١٨١٣) فهو عام في الكفار ولم يخصه تعالى بأهل بدر .

جاء في تفسير القرآن العظيم: ( وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصه الله تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وُجُوهُهُمْ وَأَذْبَنَهُمْ﴾ (١٨١٤) .

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أخرجوا أنفسهم اليوم يُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٨١٥) .

وجاء أيضا في تفسير القرآن العظيم: ( أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذ استصعبت أنفسهم وامتعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً وذلك إذ بشرهم بالعذاب والغضب من الله، كما جاء في حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول: أخرجي أيتها النفس الخبيثة إلي سموم وحميم وظل من يحوم، فنفرك في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول،

(١٨١٣) سورة الانفال: آية ٥٠ .

(١٨١٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣١٩/٢ .

(١٨١٥) سورة الانعام: آية ٩٣ .

فخرج معها العروق والعصب<sup>(١٨١٦)</sup> ، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق<sup>(١٨١٧)</sup> .

ومن الآيات الدالة على ضرب الملائكة للكفار حين الاحتضار وخروج أرواحهم من أجسادهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَىٰ آذُنَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۗ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۗ ﴾<sup>(١٨١٨)</sup> .

يقول النسفي<sup>(١٨١٩)</sup> في تفسير هذه الآية الأخيرة: { فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ } أي: فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ { يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } عن ابن عباس رضي الله عنهما: " لا يتوفى أحد علي معصية إلا بضرب من الملائكة وجهه ودبره " { ذَٰلِكَ } إشارة إلي المتوفى الموصوف { بِأَنَّهُمْ } بسبب أنهم { اتَّبَعُوا مَا اسْتَخَطَّ اللَّهُ } من معاونة الكافرين { وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ } من نصرة المؤمنين { فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ }<sup>(١٨٢٠)</sup> {<sup>(١٨٢١)</sup> .

<sup>(١٨١٦)</sup> سبق تخريجه ص ٥٣٣ .

<sup>(١٨١٧)</sup> تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣١٩/٢ .

<sup>(١٨١٨)</sup> سورة محمد: الآيات ٢٥-٢٧ .

<sup>(١٨١٩)</sup> هو: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي، أحد الزهاد المتأخرين والأئمة المعترين، كان إماماً عديم النظير في زمانه، رأساً في الفقه والأصول بارعاً في الحديث = ومعانيه بصيراً بكتاب الله تعالى، له تصانيف كثيرة منها: متن الوافي في الفروع وشرحه الكافي، وكنز الرقائق، والمنار، والعمدة في أصول الدين، ومدارك التنزيل. توفي رحمه الله سنة ٧٠١هـ ، ودفن في أيدج، أنظر: التفسير والمفسرون للذهبي ٣٠٤/١ ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ٢٢٨/٢ .

<sup>(١٨٢٠)</sup> سورة محمد: آية ٢٨ .

<sup>(١٨٢١)</sup> تفسير النسفي لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ١٥٤/٤ .

هذا هو حال الكفار عند احتضارهم وما فيه من معاناة لهم من سكرات الموت وما يحصل لهم من ضرب من الملائكة في تلك اللحظات الحرجة، أعاننا الله من ذلك، وختم لنا بالحسنى .

## الفصل الثالث

### نفي الأمن عنهم في الآخرة

#### تمهيد:

إذا كان يوم القيامة يأتي بالحق سبحانه وتعالى إلى الخلائق، فيسأل كل صنف عما عمل وعما قدم، ويسأل الذين أشركوا به عن شركائهم، ويطلب منهم أن يأتوا له سبحانه وتعالى بأولئك الذين أشركوهم في الألوهية، ويعطينا القرآن الكريم عدة صور لسؤال هؤلاء المشركين في الآخرة، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَوْ كُنْ فَتَنَّاهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ (١٨٢٢) .

ويقول تعالى: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ (١٨٢٣) .

وهاتان الآيتان تبيان موقف الذين أشركوا يوم القيامة، يسألهم الله أين شركاؤكم؟ أحضروا ما أشركتم فيلنفتون يميناً ويساراً ولا يجدون شيئاً فينقسم ردهم إلى قسمين:

(١٨٢٢) سورة الأنعام: الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

(١٨٢٣) سورة القصص: آية ٦٤ .

قسم يكذبون على أنفسهم وهم يعتقدون أنهم يكذبون على الله فيقولون: { وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ }، فهم يكذبون على أنفسهم وهم يعتقدون أنهم أفلتوا، ولكن الله يعلم كذبهم وأنهم كاذبون مفترون فتشهد عليهم ألسنتهم بأنهم نطقوا الكذب .

أما القسم الثاني: فيبحثون عن شركائهم يمينا ويساراً فلا يجدون أحداً فيقولون: " ضلوا عنا " أي: تاهوا منا لا نعرف مكانهم ولا يعرفون مكاننا، ولو أن هؤلاء الذين زعموهم آلهة أو لهم شئ من الألوهية ما تركوهم في هذا الموقف العصيب، وهكذا يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، ويفضحهم أمام خلقه جميعاً وأمام أنفسهم فلا يستطيعون المجادلة عند الحساب، ولا يستطيع أولئك الذين حرفوا منهج الله أن يقولوا: إن الرسل قد بلغوا المنهج محرفاً وليس لنا ذنب حني يحاسبنا الله .

أو يقول أولئك الذين عبدوا غير الله أن هذه الأشياء التي عبدوها هي التي ادعت الألوهية، وأنهم لا ذنب لهم فيما حدث .

بل يظهر أمام الجميع أن هؤلاء الكفار هم الذين حرفوا، وهم الذين اخترعوا هذه الآلهة، وهم وضعوا منهجاً على هواهم، وأن المسألة كلها من أنفسهم، وأنهم مسئولون عما اقتترفوه، وأن الحساب بالنسبة لهم عدل .

وهكذا يظل الكافر يتخبط في إجابته وهو في الحقيقة يكذب على نفسه، لأن الله لا يخدعه أحد، فهو عليم بكل شئ، ويحس الكافر أنه يكره نفسه ويتمني لو كان تراباً، فيأتيه ما يزيد عذابه وخوفه وقلقه، فيقال له: إن كنت تمقت نفسك وتكرهها كراهية كبيرة فإن مقت الله لك أكبر، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ كَمَتُّ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ نَادَعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (١٠) ﴿ (١٨٢٤) .

وهكذا تزداد حسراته، ويكثر خوفه، ويصيبه من الفزع والرعب ما الله به عليم.

أولاً

## بيان فزعهم ووجلهم يوم القيامة

تعريف الفزع :

الفزع : الذعر، وهو في الأصل مصدر، وربما جمع على إفزع، تقول: فزع إليه وفزع منه، وكلاهما من باب طرب، ولا تقول: فزعه (١٨٢٥).

يوم القيامة يوم عظيم يشند فيه الفزع، وتشخص فيه الأبصار وتقلب فيه القلوب والأبصار، ويأتي الله سبحانه وتعالى ينتزع أئمة الكفر من بين أولئك الموجودين، قال تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْضُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۗ ﴾ (١٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۗ ﴾ (١٨٢٦).

وهكذا نرى مشهداً آخر يوم القيامة، الكفار وهم ساجدون من الذل والهوان ومن وسط هؤلاء الكفار والعاصين يأتي الله سبحانه وتعالى إلى أئمة الكفر، أولئك الذين كانوا يحاربون دين الله في الأرض، ويحاولون أن يضلوا المؤمنين، وتجدهم في كل مكان يسخرون من الذين آمنوا، ويسفهون منهج الله، وهم في ذلك أشداء أي يستخدمون كل ما لديهم من قوة، وكل ما يملكون من وسائل، ويستخدمون كل ذلك لمحاربة هذا الدين، والحقيقة أنهم بذلك أغبى خلق الله من ناحية المنهج فالله سبحانه وتعالى يستخدمهم في إثبات منهجه بينما هم يحسبون أنهم يفسدون هذا المنهج .

(١٨٢٥) أنظر: مختار الصحاح تحت مادة ( ف ز ع ) ص ٥٠٢ .

(١٨٢٦) سورة مريم: الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرَأَتْهُمِ بَنَاتُهُنَّ وَآيَاتُ اللَّهِ إِذَا أَنْفَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْفَلَبُوا فَكَيْهِنَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١٨٢٧) .

إنهم يسخرون من المؤمنين ويتغامزون عليهم، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج الله، وما يعلمون أنهم بعملهم ذلك يثبتون منهج الله في القلوب، لأن الله قد أخبرنا بما سيفعلونه، وفعلهم له دليل علي صدق المنهج .

يأتي الله تعالى يوم القيامة وينزع أئمة الكفر هؤلاء أي: يأخذهم بقوة وقهر ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ليري الناس أن هؤلاء الذين كانوا أعزاء فيما يظنون في الدنيا بالمعاصي هم الآن في قمة الذل والهوان والخوف والرعب، ولشدة الهول الذي يعتر بهم تشخص أبصار الظلمة، ذلك اليوم فلا تطرف لشده الرعب ولا يلتفتون يمينا ولا شمالاً، ولشدة الخوف تصيح أفئدتهم خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل شيئاً ، قال تعالى مبيناً حالهم : ﴿ وَلَا

تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلَةً عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدِيَهُمْ هَوَاءُ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١٨٢٨) .

وفي هذه الآيات تهديد للمشركين ، وأخذ لهم وهم متلبسون بجرمهم وبموقفهم العنادي اللئيم من النبي الكريم ومن كلمات الله سبحانه التي حملها إليهم .

فإنه سبحانه وتعالى مطلع على كل ما يعلمون ، عالم بكل ما انطوت عليه صدورهم من تدبير سيئ ومكر خبيث برسول الله وآيات الله ، وهم إذا كانوا في دنياهم هذه في عافية، ولم يؤخذوا بما أجزموا فليس ذلك في غفلة من الله تعالى عن أعمالهم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وإنما يؤخرهم الله ليوم تشخص فيه أبصارهم وتتجمد لهول ما تري، حيث يمسك بها

(١٨٢٧) سورة المطففين: الآيات ٢٩-٣١ .

(١٨٢٨) سورة إبراهيم: الآيات ٤٢، ٤٣ .

هذا الهول ويشدها إليه هذا البلاء، فتسكن وتجمد فيساقون سوقاً عنيفاً إلى ساحة المحشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ سِرًّا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾ (١٢٩) .

فهم يساقون وهم مطأطئو الرؤوس، ذلة وانكسارا، وضعفاً عن حمل هذا الهم الثقيل الذي ينوعون تحته من بلاء هذا الهول العظيم ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) أَبْصَرُهَا خَشَعَةٌ ﴿٩﴾ (١٢٣٠)، فجميع الخلائق في الموقف في ذلة وخضوع، وذلك لما فيه من الأهوال العظام والأمور الجسام .

وهنا أذكر بعض ما قيل في الفزع والوجل الذي يحصل يوم القيامة للناس عامة وللكافرين بصورة خاصة .

جاء في كتاب التوهم والأهوال: ( حني إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يرى، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً متفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم، فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك، وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى، فطار فؤادك وشاب رأسك للنداء، لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء، فبينما أنت فزع للصوت إذ فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغيار قبرك قائم على قدميك، شاخص ببصرك نحو النداء، وقد نار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم، فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك وبذنتك وانفردك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم

( ١٢٢٩ ) سورة المعارج: آية ٤٣ .

(١٢٣٠) سورة النازعات: الأيتان ٨ ، ٩ .

والصوت لمدة المنادي، والخلائق مقلبون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساع بالخشوع والذلة حني إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أدل أهل الجمع وأصغرهم حلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه .

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال مكنسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وإنفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطيئة أصابتها، فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور .

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حني وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أدلهم البعث وجمع بينهم النشور .

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من انساها وجنبا وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستتوا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها، فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمتها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغطها خمسمائة عام، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق وينقطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمتها فأذابها ربها حتى صارت كالفضة

المذابة تحالطها صفرة لفرع يوم القيامة، كما قال الجليل الكبير: ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً

كَالْيَهُانِ ۝ (٣٧) ﴿ (١٨٣١)، ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۝ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ (١) ﴾ (١٨٣٢) .

(١٨٣١) سورة الرحمن آية ٣٧ .

(١٨٣٢) سورة المعارج: الآيتان ٨ ، ٩ .

فبينما ملائكة السماء الدنيا على حافتيها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقدیس الملك الأعلى الذي أنزلهم، محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل، فيا فزعك وقد فزع الخلاق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفیکم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليکهم أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بیننا فهو آت حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخالق منكسين رؤوسهم لذل يومهم، فتوهم وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شئ على ذلك، كذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد وعظم الأجساد، وكل أهل سماء محدقين بالخالق صفا .

حتى إذا وافي الموقف أهل السموات والسبع والارضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلاق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرتة بحرهما وأشدت كربة وقلقة من وهجها ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضاً وتضايقت فاختلقت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلاق وتزاحم أجسادهم ففاض العرض منهم سائلاً حتى أستنقع علي وجه الأرض ثم علي الأبدان علي قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشفاء حتى إذا بلغ من بعضهم العرق

كعبيه وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه، ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرجل - وقال مرة: إن الكافر - ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلي أنصاف أذنيه من طول القيام" (١٨٣٣).

فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضائق نفسك في صدرك من شدة العرق والفرع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلي دار السعادة أو إلي دار الشقاء، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحتترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلي النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها، وأشدت نفعها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلي الجنة أو إلي النار من وقوفهم ففزعوا إلي آدم ونوح، ومن بعده إبراهيم، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم، كلهم يقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي بالشغل بنفسه فيقول: نفسي نفسي، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلي ربهم لاهتمامه بنفسه وخلصها، وكذلك يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَدِلٌ عَن نَّفْسِهَا﴾ (١٨٣٤).

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم، متفرد كل واحد منهم بنفسه ينادي نفسي نفسي، فلا تسمع إلا قول: نفسي نفسي، فيا هول ذلك وأنت تتأدى معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلصها من عذاب ربك وعقابك، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله - عز وجل - وعظم قدر منازلهم عند الله - عز وجل - كل ينادي: نفسي نفسي شفقاً من شدة غضب ربه، فأين

(١٨٣٣) صحيح البخاري (كتاب الرقاق، باب: قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمْ أَعْمَالِينَ ﴿٦﴾ (سورة المطففين: ٤-٦) رقم الحديث (٦١٦٦) ٢٣٩٣/٥، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها) رقم الحديث (٧١٣٢) ١٨/١٩٢.

(١٨٣٤) سورة النحل: آية ١١١.

أنت منهم في إشفائك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك وبحزنك وخوفك؟ ، حتى إذا أبس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها، ثم قام إلى ربه عز وجل وأستأذن عليه فأذن له ثم خر لربه ساجداً، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم) (١٨٣٥) .

فنسأل الله اللطف وأن يخفف عنا تلك الأهوال فهو حسبنا ونعم الوكيل .

## ثانياً

### ذكر سوء حالهم عند أمرهم بدخول النار

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين علي شرعه، المكذبين لرسوله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، وهي الخزي الأكبر والخسران العظيم الذي لا خزي فوقه ولا خسران أعظم منه (١٨٣٦) .

### أعمال الكفار قسامان:

قسم هو: طغيان وبغي وإفساد في الأرض ونحو ذلك، فهذه أعمال باطلة فاسدة لا يرجو أصحابها من ورائها خيراً ولا يتوقعون عليها ثواباً .

وقد شبه القرآن هذه الأعمال بالظلمات التي يركب بعضها بعضاً: ﴿ أَوْ كُظُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لِيَجِيَّ يُغَشِّهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَابَّ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ، لَوْ يَكْدُ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَّرَّ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (١٨٣٧) .

(١٨٣٥) كتاب التوهم والأهوال للمحاسبي ص ٥ وما بعدها بتصريف .

(١٨٣٦) انظر: اليوم الآخر (٣) الجنة والنار للدكتور عمر الأشقر ص ١١ .

(١٨٣٧) سورة النور: آية ٤٠ .

والقسم الثاني: أعمال يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئاً، كالصدقة والعتاق وصلة الأرحام والإنفاق في سبيل الخير، وقد ضرب الله في كتابه لهذا النوع من الأعمال الأمثلة فشبها في بعض المواضع بالسراب الذي بظنه رائيه ماء، ولكنه عندما يأتيه وهو يؤمل أن يصل إليه فيروي غلته، ويذهب ظمأه لا يجده شيئاً: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَلِيًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣٨) (١٨٣٨) .

وشبها في موضع آخر بالرياح الشديدة الباردة تهب على الزرع والثمار فتدمرها: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ ۗ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣٩) (١٨٣٩) .

والصر: البرد الشديد، وهذه الرياح الباردة هي الكفر والشرك التي تحرق أعمالهم الصالحة .

وشبها في موضع ثالث بالرماد الذي جاءته ربح عاصف فذرتة في كل مكان، فكيف يستطيع صاحبه جمعه بعد تفرقه؟: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْوُ الْبَعِيدُ ﴾ (٤٠) (١٨٤٠) .

ولذلك فإن الله تعالى يجعل أعمال الكفار هباء منثوراً: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (٤١) (١٨٤١) .

وهذا الفريق الذي يظن أنه على خير يفاجأ يوم القيامة بأن عمله باطل ضائع ومن هؤلاء عباد اليهود والنصارى بعد البعثة النبوية، فإن فريقاً منهم يجهدون أنفسهم بالعبادة وفعل الخيرات، ويظنون أن ذلك ينفعهم عند الله تبارك وتعالى، كذلك الذين انتسبوا إلى الإسلام

(١٨٣٨) سورة النور: آية ٣٩ .

(١٨٣٩) سورة آل عمران: آية ١١٧ .

(١٨٤٠) سورة إبراهيم: آية ١٨ .

(١٨٤١) سورة الفرقان: آية ٢٣ .

ولكنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وعبدوا غير الله كل هؤلاء لا تنفعهم أعمالهم ولا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٢٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيدهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٢٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٢٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٢٩﴾ (١٨٤٢).

وإنما كان اليهود والنصارى من الأخسرين أعمالاً، لأن كثيراً منهم يظنون أنفسهم على حق ويجتهدون في العبادة وحقبة الأمر أنهم خاسرون، لأنهم يكفرون برسول الله الخاتم وكتابه المنزل مع كفرهم بكثير مما أنزل إليهم من ربهم وإيمانهم بالمحرف من دينهم، فهذه الأعمال التي يظن الكفرة أنها نافعهم في يوم الدين لا وزن لها ولا قيمة لها في ذلك اليوم، لأنها قامت على غير أساس: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْآخْسَرِينَ ۝٨٥﴾ (١٨٤٣).

والأساس هو الإسلام فما لم يكن المرء مسلماً موحداً فعمله مردود وسعيه موزور غير مشكور، روى مسلم في صحيحة عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ابن جدعان<sup>(١٨٤٤)</sup> كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعة ؟ ، قال: " لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" (١٨٤٥).

فهؤلاء لا تغني عنهم أعمالهم شيئاً وحينئذ يؤمر بهم إلى النار، وعندما يري الكفار النار يندمون أشد الندم، ولكن هيهات لا ينفع الندم في تلك اللحظات لقد فرطوا في دنياهم، وفي

(١٨٤٢) سورة الكهف: الآيات ١٠٣-١٠٦ .

(١٨٤٣) سورة آل عمران: آية ٨٥ .

(١٨٤٤) هو: عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية، أدرك النبي ﷺ قبل النبوة، وكانت له حفنة يأكل منها الطعام القائم والراكب فوقع فيها صبي فغرق، سماه اليعقوبي بين حكام العرب في الجاهلية. انظر: الأعلام ٢٠٤/٤ .

(١٨٤٥) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان باب: الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل) رقم الحديث (٥١٧) ٨٢/٣ . قال النووي: (أنفرد به مسلم) . تحفه الأشراف رقم (١٧٦٢٣) .

ساعة اختيارهم وكفروا وتجبروا فكانت عاقبتهم الذلة والصغار في يوم عاصيب لا ينفع  
 الإنسان فيه ندمه على ما فات: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَآفْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَأُ التَّدَامَةَ لَمَّا  
 رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ (١٨٤٦) .

وعندما يطلع الكفار على صحائف أعمالهم فيرون كفرهم بالله وشركهم به الذي يؤهلهم  
 للخلود في النار، فإنهم يدعون بالثبور والهلاك: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَاهُ ظَهْرَهُ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا  
 بُحْبُورًا ﴿١١﴾ (١٨٤٧) .

فهؤلاء المجرمون حين رأوا الكتاب وما طلع به عليهم من نذر الشؤم والبلاء فروا منه  
 وطرحوا أيديهم وراء ظهورهم بعيداً عنه حتى لا يمسوه، ولكن أنى لهم أن يهربوا منه، إنه لا  
 بد أن يأخذ كل واحد كتابه، فإن لم يمد يده هو إلى أخذه لحق الكتاب به وتعلق بشماله حيث  
 بلغت مداها من الارتداد وراء ظهره، وحينئذ يدعو بالثبور والويل، ويصرخ صرخات الثبور،  
 ويولول ولولات الهلاك نادياً نفسه ناعياً مصيره وكيف لا يكون منه هذا والنار قد فتحت  
 أبوابها له .

ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار ويصلون حرها ويرون الضيق  
 فيها: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبْحًا مُقْرَيْنَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا وَادْعُوا ثُبُورًا  
 كَثِيرًا ﴿١٤﴾ (١٨٤٨) .

وقد جاءت في كتاب الله الكريم نصوص كثيرة تصور لنا كيف يكون حشر الكفار إلى  
 النار هم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها .

ومن ذلك أنهم يحشرون كقطعان الماشية جماعات جماعات ينهرون نهراً غليظاً ويصاح  
 بهم من هنا وهناك، كما يفعل الراعي ببقرة أو غنمه، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى

(١٨٤٦) سورة يونس: آية ٥٤ .

(١٨٤٧) سورة الانشقاق: الآيتان ١٠ ، ١١ .

(١٨٤٨) سورة الفرقان: الآيتان ١٣ ، ١٤ .

جَهَنَّمَ زُمْرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كَفَرْتُمْ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ (١٨٤٩).

جاء في التفسير القرآني للقرآن عند حديثه عن هذه الآيات: ( وإذا قضى بين الناس بالحق، وعرف كل إنسان ما قضى به الله سبحانه وتعالى فيه، وامتاز أصحاب النار من أصحاب الجنة عندئذ يساق الكافرون إلى جهنم زمرًا أي: جماعات، كل جماعه تنزل منزلها المعد لها في جهنم، وكلما وصل فوج إلى جهنم فتحت أبوابها، فيلقاهم خزنتها سائلين في لوم وتوبيخ: { أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا }، فلا يجد الكافرون إلا أن يقولوا في حسرة وندم وذلة: { وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } أي: بلى قد جاءت رسل ربنا وتلوا علينا آياته ولكن حق علينا قضاء الله فينا أن نكون من أصحاب النار، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسانهم: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ (١٨٥٠).

وفي قوله: { حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } إشارة إلى أن هذه الأبواب مغلقة على من فيها، وأنها لا تفتح إلا عند ورود فوج من الأفواج المساقين إليها، وكلما دخل فوج أغلقت عليه أبوابها، فإذا جاء فوج جديد فتحت له ثم أغلقت عليه، وهكذا إنها سجن مطبق على من بداخله، وهذا ما يشير إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمْرٍ مُّدَدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾ (١٨٥١) (١٨٥٢).

(١٨٤٩) سورة الزمر: الآيتان ٧١، ٧٢ .

(١٨٥٠) سورة الصافات: آية ٣١ .

(١٨٥١) سورة الهمة: الآيتان ٨، ٩ .

(١٨٥٢) تفسير الخطيب ١١٩٦/٢٤، ١١٩٧ .

ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ (١٨٥٣).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَىٰ النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾ (١٨٥٤).

فهؤلاء الكفار يدفعون دفعاً بقوة إلى نار جهنم، ومعنى يوزعون أي: يجمعون تجمعهم الزبانية أولهم على آخرهم، كما يفعل البشر بالبهايم .

كما أفادت النصوص أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُكَّارٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ سَيِّئًا ﴿٣٥﴾ (١٨٥٥).

جاء في تفسير القرآن العظيم: (ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُكَّارٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ ، فقال: " إن الذي أمشاه على رجلين قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة" (١٨٥٦) (١٨٥٧) .

(١٨٥٣) سورة الطور: الآيتان ١٣، ١٤ .

(١٨٥٤) سورة فصلت: آية ١٩ .

(١٨٥٥) سورة الفرقان: آية ٣٤ .

(١٨٥٦) صحيح البخاري (كتاب الرقاق، باب: كيف الحشر) رقم الحديث (٦١٥٨) ٢٣٩٠/٥

مع اختلاف في بعض الفاظه، ونصه في البخاري: " اليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة" .

(١٨٥٧) تفسير ابن كثير ٣/٣١٨ .

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يحشرون عمياً لا يرون  
وبكماً لا يتكلمون، وصماً لا يسمعون، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُهْدَىٰ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۚ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ  
لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَيَكْفُرُ مَا وَوَدَّعُهُمْ جَهَنَّمَ ۚ كَمَا كَفَرَتْ زِدْنَاهُمْ  
سَعِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿١٨٥٨﴾ .

هكذا كانت مشيئة الله في هؤلاء المكذبين الضالين المشركين، ولن يرد عنهم مشيئة الله  
ولي ولا نصير، إنهم سيموتون على ما هم عليه من كفر وضلال، فإذا حشروا يوم القيامة  
سحبوا على وجوههم إلى جهنم وجروا إليها جراً .

وفي سحبهم على وجوههم إذلال لهم وامتهان لإنسانيتهم، وقد كانت هذه الوجوه تلبس  
ألوانا من الكبر والتعالي على العباد، كما أنه يحيط بهم من الهول ويتنزل بهم من الكرب ما  
يجعل حواسهم تذهب وجوارحهم تتعطل فلا يبصرون ولا يتكلمون ولا يسمعون، وبعد هذا  
كله نار جهنم فهي مصيرهم ومستقرهم إلى الأبد وبئس المصير .

ومما يزيد بلاءهم أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم: ﴿ أَخْشَرُوا  
الَّذِينَ ظَنَّمُوا أَن رَزَقَهُمْ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْتَدَوْهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَنِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴿١٨٥٩﴾ .

يقال لهم ذلك وهم مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون: ﴿ قُلْ لِلذِّكْرِ كَفْرًا ۚ سَتُعْلَبُونَ  
وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَيَبْسُ السُّعَادُ ﴿١٢﴾ ﴿١٨٦٠﴾ .

يحشرون إلى جهنم، وما أدراك ما جهنم، إنهم قبل أن يصلوا إليها تصل مسامعهم أصواتها التي  
تملأ قلوبهم رعباً وهلعاً: ﴿ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا مَا تَنَطَّلُوا وَفَرَّوْا ﴿١٣﴾ ﴿١٨٦١﴾ ، أي: أن جهنم إذا  
رأت أهلها المساقين إليها وهم على بعد منها أرسلت إليهم بنذرها قبل أن يصلوا إليها حتى لكان بينها

(١٨٥٨) سورة الإسراء: آية ٩٧ .

(١٨٥٩) سورة الصافات: الآيات ٢٢، ٢٣ .

(١٨٦٠) سورة آل عمران: آية ١٢ .

(١٨٦١) سورة الفرقان: آية ١٢ .

وبينهم ترة وثأراً فما أن تلمحهم من بعد حتى يفور فائرهما ويموج مائجها، حتى إذا بلغوها والقوا منها في مكان ضيق خانق أطبقت عليه فضاقت أنفسهم واختنقت أنفاسهم وتنادوا بالويل والثبور: يا ويلنا، يا ضيعتنا، يا سوء مصيرنا، فلا يجدون من يسمع منهم أو يستجيب لهم .

وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كي يؤمنوا ويعملوا الصالحات لينقذوا أنفسهم مما يرون: ﴿ وَتَوَرَّىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِكَايِبَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٣) ﴿ (١٨٦٢) .

ولكن هيهات فإنهم لم يجدوا من النار مفراً: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (٥٣) ﴿ (١٨٦٣) .

وعندئذ يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِمَّسَ مَنَوى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٢١) ﴿ (١٨٦٤) .

ولا ينجو من النار من الجن والأنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (١٨) ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴾ (٢١) ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ (٧٠) ﴿ وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَاْرِدْهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١) ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (٧٣) ﴿ (١٨٦٥) .

جاء في تفسير الظلال لهذه الآيات: ( ..... ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم التهديد، يقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله، أنهم سيحشرون بعد البعث، فهذا أمر مفروغ منه }

(١٨٦٢) سورة الانعام: آية ٢٧ .

(١٨٦٣) سورة الكهف: آية ٥٣ .

(١٨٦٤) سورة النحل: آية ٢٩ .

(١٨٦٥) سورة مريم: الآيات ٦٨ - ٧٢ .

فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ { ولن يكونوا وحدهم، فلنحشرنهم { وَالشَّيَاطِينِ } فهم والشيطان سواء، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار، وبينهما صلة التابع والمتبوع، والقائد والمقود .

وهنا يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة: **إِنَّمَا لَنُحْضِرَنَّهْمُ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَّةً** وهي صورة رهيبة، وهذا الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها، تشهد هولها، وبلفحها حرها، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها، وهم جاثون على ركبهم في ذله وفرع .

وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين، يليه مشهد الفرع والجذب لمن كانوا أشد عتواً وتجبراً ﴿ **ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا** ﴾ وفي اللفظ تشديد، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع، تتبعها صورة القذف في النار وهي الحركة التي يكملها الخيال وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها فلا يؤخذ أحد جزافاً من هذه الجموع التي لا تحصي التي أحصاها الله فرداً فرداً .

﴿ **ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاتًا** ﴾ فهم المختارون ليكونوا في طبيعة المقذوفين، وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب: ﴿ **وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾ فهم يردون فيدون ويمرون بها وهي تتأجج وتتميز وتتلطم، ويرون العتاة ينزعون ويقذفون، ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّةً** ﴾ (١٨٦٦) .

وقد غيرت هذه الآية: ﴿ **وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَارِدُهَا** ﴾ (١٨٦٧) أحوال الصالحين فأسهت لسيلهم، وعكرت عليهم صفو العيش، وحرمتهم الضحك والتمتع بالشهوات .

فقد جاء في تفسير القرآن العظيم: أن رجلاً كان إذا أوى إلى فراشة قال: يا ليت أمي تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أخبرنا الله أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها .

(١٨٦٦) في ظلال القرآن ٤/٢٣١٧، ٢٣١٨ .

(١٨٦٧) سورة مريم: آية ٧١ .

وقال عبد الله بن المبارك<sup>(١٨٦٨)</sup> عن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ ، قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: فقيم الضحك؟ قال: فما رأي ضاحكاً حتى لحق الله، وقال ابن عباس لرجل يحاوره: أما أنت فسندرها، فأنظر هل نخرج منها أم لا؟<sup>(١٨٦٩)</sup> .

يتضح مما سبق سوء حال هؤلاء الكفار عندما يرون صحفهم وأنها تؤهلهم إلى النار، وكيف يكون حالهم حين يأتون إليها منكوسين وتتلقاهم النار بزفيرها وبغيضها، نسأل الله النجاة من ذلك .

## ثالثاً

### ذكر ما يعتريهم من الحسرات في النار

الحسرة : هي أشد التلطف على الشيء الفاتت ،حسر على الشيء من باب طرب ،وحسرة أيضا فهو حسير<sup>(١٨٧٠)</sup> .

<sup>(١٨٦٨)</sup> هو: الإمام عبد الله بن المبارك بن واضح، شيخ الإسلام عالم زمانه وأمير الاتقياء في وقته أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم التركي ثم المروزي، الحافظ الغازي، أحد الأعلام، ولد سنة ١١٨هـ فطلب العلم وهو ابن العشرين، وأقدم شيخ لقبه هو الربيع بن أنس الخراساني، تحيل ودخل عليه السجن وأخذ سنة ١٤١هـ عن بقايا التابعين وأكثر من الترحال والتطواف، ارتحل الي الحرمين والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان، وحدث في أماكن كثيرة، قضى حياته في طلب العلم وفي الغزو وفي التجارة والإنفاق على الاخوان في الله وتجهيزهم معه الي الحج، مات سنة إحدى وثمانين ومئة، وسئل عن عمره قبل موته، فقال: أنا ابن ثلاث وستين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٨٧/٨، وتهذيب التهذيب ٣٨٢/٥ .

<sup>(١٨٦٩)</sup> انظر: تفسير ابن كثير ١٣٢/٣ .

( انظر مختار الصحاح مادة ( ح س ر ) ص 1870١٣٥ )

جاء في المفردات ( والحسرة الغم على ما فاتته والندم عليه ، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حملة ما أرتبكه أو انحسر قواه من فرط غم ، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرطه منه ، قال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (١٨٧١) (١٨٧٢).

النار عذابها شديد وقعرها بعيد وطعم أهلها الزقوم وشرابهم الصديد وفيها من ألوان العذاب ما يجعل الإنسان يبذل في سبيل الخلاص منها نفائس الأموال وأعلى ما يملك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِيلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أُفْتَدِيَ بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (١٨٧٣).

وقال تعالى في هذا المعنى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ نَارٌ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيُقْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨٧٤).

وقد روي مسلم بسنده عم أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " يوتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال : يا ابن آدم ، هل رأيت خيرا قط ؟ فيقول : لا والله يارب" (١٨٧٥).

إنها لحظات قليلة تنسى أكثر الكفار نعمياً كل أوقات السعادة والهناء ، وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ٢٢٢٢ " ويقول الله تعالى لأهون أهل النار

(١٨٧١) سورة آل عمران : آية ١٥٦ .

(١٨٧٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص ١١٨ .

(١٨٧٣) سورة آل عمران : آية ٩١ .

(١٨٧٤) سورة المائدة : آية ٣٦ .

(١٨٧٥) صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب صفات المنافقين ، باب : صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة ) ( ٧٠١٩ ) ١٥ / ١٤٧ .

عذابا يوم القيامة : أن لك ما في الأرض من شئ أكنت تفقدي به ؟ فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب ادم : أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي " (١٨٧٦) .

إن شدة النار وهولها تفقد الإنسان صوابه ، وتجعله يجود بكل أحبابه لينجو من النار ، وأنى له النجاة ﴿ وَصَحَّيْتِهِ وَأَخِيهِ ﴾ (١٢) وَفَصَّلْتَهُ إِلَىٰ تَوْبِهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّمَا لَطَفْنَا بِالنَّاسِ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةَ لِلنَّاسِ ﴿١٦﴾ ﴿ (١٨٧٧) .

وهذا العذاب الهائل المستمر المتواصل يجعل حياة هؤلاء المجرمين في تنغيص دائم وألم مستمر وحسرات متوالية ، وما ذلك إلا لشدة ما يلاقون من العذاب وكثرة تنويعه لهم ومن أنواع العذاب التي يواجهونها :

فمنها : نضوج جلودهم :

إذا أن النار الجبار تحرق جلودهم - والجلد هو موضع الإحساس - بألم الاحتراق فإن الله يبذل لهم جلودا أخرى غير تلك التي احترقت لتحترق من جديد ، وهكذا دواليك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نُصِّبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا أُخْرَىٰ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴿ (١٨٧٨) .

---

(١٨٧٦) صحيح البخاري (كتاب الرقاق ، باب : صفة الجنة والنار ) رقم الحديث (٦١٨٩) / ٥ ، ٢٣٩٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووي (كتاب صفة المنافقين وأحكامهم ، باب : طلب الكافر الفداء بملاء الأرض ذهبيا) رقم الحديث (٧٠١٤) / ١٧ ، ١٤٥ .

(١٨٧٧) سورة المعارج : الآيات ١١-١٦ .

(١٨٧٨) سورة النساء : آية ٥٦ .

## ومنها: الصهر :

من ألوان العذاب صب الحميم فوق رؤوسهم ، والحميم هو ذلك الماء الذي انتهى إلى أشد درجات حره ، فلشدة حرة تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١١ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝١٢ ﴾ (١٨٧٩) .

## ومنها : اللفح :

أكرم ما في الإنسان وجهه ، ولذلك نهينا عن ضرب الوجه ، ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون يوم القيامة على وجوههم عميا وصما وبكما :

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝١٨٨٠ ﴾ ، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۝١٨٨١ ﴾ .

وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝٦٦ ﴾ (١٨٨٢) . أرأيت كيف يقلب اللحم على النار والسماك في الزيت كذلك تقلب وجوههم في نار جهنم ، وشتان بين النارين نعوذ بالله من عذاب أهل النار .

## ومنها : السحب :

ومن أنواع العذاب الأليم سحب الكفار في النار على وجوههم ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ

﴿٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ۝٤٨ ﴾ (١٨٨٣) .

(١٨٧٩) سورة الحج : الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(١٨٨٠) سورة الإسراء : آية ٩٧ .

(١٨٨١) سورة المؤمنين : آية ١٠٤ .

(١٨٨٢) سورة الأحزاب : آية ٦٦ .

(١٨٨٣) سورة القمر : الآيتان ٤٧ ، ٤٨ .

ويزيد من الامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل :

﴿سَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْعَمِيمِ تُعْرَفُ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (١٨٨٤)

ومنها: تسويد الوجوه:

يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ

وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ (١٨٨٥)

وهو سواد شديد كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا

وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنْ أَلْيَلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَحْسَبُ النَّارَ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (١٨٨٦)

ومنها: إحاطة النار بالكفار:

أهل النار هم الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم ومعاصيهم فلم تبق لهم حسنة ولما كانت

الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم، فإن الجزاء من جنس العمل، ولذا فإن

النار تحيط بالكفار من كل جهة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ؕ﴾

(١٨٨٧)، والمهاد يكون من تحتهم، والغواش جمع غاشية، وهي التي تغاشيهم من فوقهم، والمراد

أن النيران تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم .

(١٨٨٤) سورة غافر: الآيات ٧٠ - ٧٢.

(١٨٨٥) سورة آل عمران: آية ١٠٦.

(١٨٨٦) سورة يونس: آية ٢٧.

(١٨٨٧) سورة الأعراف: آية ٤١ .

وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (١٨٨٨)، وقد صرح بالإحاطة في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (١٨٨٩).

ومنها: إطلاع النار على الأفئدة، واندلاق الأمعاء في النار، وغير ما ذكرت في هذه اللمحة الموجزة.

ومع شدة ما يعتريهم من الحشرات وآلام العذاب يرجعون فيندمون أشد الندم على ما فرطوا ويعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ (١٨٩٠).

فهم كما جاء في الآيات يرجعون بالملامة على أنفسهم ويتهمون أنفسهم بأنهم كانوا في غفلة من أمرهم، وأنهم لم يكونوا أصحاب سمع أو عقل، إذ لو كانوا أصحاب سمع أو عقل ما كذبوا رسل الله، ولما وردوا هذا المورد الوبيل.

وقدم السمع على العقل، لأنهم إنما أدينوا في الآخرة من جهة سمعهم وما جاءهم عن طريقة من آيات الله على لسان رسوله فلم يحسنوا الاستماع إلى ما أُنذروهم به الرسل، ولم يقبلوا ما دعوا إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ولم يعرضوا ما سمعوا على عقولهم، ثم أنهم لم يأخذوا بهذا البلاغ السمعي، ولم يكن لهم من عقولهم بلاغ عقلي يقيم لهم طريقاً إلى الإيمان بالله، ويدعوهم إليه فقد ضلوا وهلكوا فسحقاً لهم، وهو دعاء عليهم بالبعد من رحمة الله ورضوانه يرميهم به كل لسان ناطق أو صامت في هذا الوجود.

ومما أخبر الله تعالى عنه في كتابه من اعترافاتهم بأخطائهم وذنوبهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلَّا نَكُونَ مِنْ دُونِ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ اسْتَغْتَابُوا مِنْكُمْ أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ فَأَنْتُمْ سَوَاءٌ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا أَكْفَارًا ﴿١١﴾﴾ (١٨٩١).

(١٨٨٨) سورة العنكبوت: آية ٥٥.

(١٨٨٩) سورة التوبة: آية ٤٩.

(١٨٩٠) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١.

ولكن طلبهم يرفض وبشدة، ويجابون بما تستحق أن تجاب به الأنعام: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١٨٩٢) .

جاء في معاني القرآن وإعرابه: { قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } {١٠٨} معنى اخسأوا تباعدوا تباعد سخط، يقال: خسأت الكلب أخسوه إذا زجرته ليتباعد (١٨٩٣) .

لقد حق عليهم القول، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِنَظَرِكُمْ أَفْرَاقٌ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٨٩٤)، أي: ولو تشاهد أيها الرسول حين يقوم هؤلاء المشركون بين يدي ربهم خافض رؤوسهم من الحياء منه والخزي والعار، لرأيت عجباً وأمرأً فظيماً فتراهم يقولون: ربنا نحن لأن نسمع قولك ونطيع أمرك، لقد أبصرنا الحشر وسمعنا تصديقك للرسول فيما كذبناهم فيه، فارجعنا إلى دار الدنيا نعمل ما يرضيك من صالح الاعتقاد والقول والعمل - فهم يلومون أنفسهم حين دخول النار - وإنا لأن قد أبقنا بوحدانيتك، واستحقاقك للعبادة دون سواك، وتحققنا أن وعدك بالبعث حق، ولقائك حق، وأنت القادر على الأحياء والإماتة (١٨٩٥) .

(١٨٩١) سورة غافر: آية ١١ .

(١٨٩٢) سورة المؤمنون: الآيات ١٠٦-١٠٨ .

(١٨٩٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٤/٤ .

(١٨٩٤) سورة السجدة: الآيات ١٢-١٤ .

(١٨٩٥) انظر: التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي ١٩٨/٢١ بتصرف .

وعندما يصل الكفار إلى هذه المرحلة من اليأس ويرون العذاب والهوان تصيبهم الحسرة والندم، ولكثرة حسراتهم سمي الله ذلك اليوم بيوم الحسرة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ (١٨٩٦).

ويوقن الكفار أن ذنبهم غير مغفور، وعذرهم غير مقبول، فيئسوا من رحمة الله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٢﴾ (١٨٩٧).

فيتمنون لو أن الله يهلكهم ويجعلهم تراباً كالدواب: ﴿يَوْمَ يَذُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴿١٨٩٨﴾، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كَذَّبْتُ رَبًّا ﴿٤٠﴾ (١٨٩٩)، ولكن هيهات لقد قضى الأمر، وانتهى الجدل وسكت الحوار، وهنا نري عجيباً، نري الشيطان هاتف الغواية وحادي الغواية نراه يلبس مسوح الكهان أو مسوح الشيطان ويتشيطان على الضعفاء والمستكبرين سواء بكلام ربما كان أفسى عليهم من العذاب: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْ أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ لِئِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ (١٩٠٠).

إن الشيطان الذي وسوس في الصدور، وأغرى بالعصيان، وزين الكفر، وصدهم عن استماع الدعوة هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنه أليمة نافذة لا يملكون أن يردوها عليه

(١٨٩٦) سورة مريم: آية ٣٩

(١٨٩٧) سورة الروم: آية ١٢

(١٨٩٨) سورة النساء: آية ٤٢

(١٨٩٩) سورة النبأ: آية ٤٠

(١٩٠٠) سورة إبراهيم: آية ٢٢

وقد قضى الأمر هو الذي يقول ألان وبعد فوات الأوان: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقِّ وَعَدَّكُمْ﴾ (١٩٠١).

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعبيرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عذاب قديم فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله، والآن يخلي بهم وينفض يده منهم وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ووسوس لهم أن لا غالب لهم، فأما ألان فلن يستجيب لهم إذا صرخوا، وليس ذلك في استطاعته.

وهكذا يبدأ الخصام بينهم وبين قرنائهم من الشياطين، وتبلغ المخاصمة ذروتها حين يخاصم المرء أعضاءه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (١٩٠٢).

كما يمتنون كل الذين كانوا لهم أنصاراً وخلصاً في الدنيا، ويدعون عليهم ويطلبون لهم المزيد من العذاب: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهْنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا إِتْمَنَّا بَعْدَ بَعْضِنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَظِيمِ لَسْنَا كَبِيرَا ﴿١٨﴾﴾ (١٩٠٣).

وأصبح أهل النار يلعن بعضهم بعضاً: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعَا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُ لَأُدَّبُنَّ بِهِمْ رَبَّنَا هَذَا أَضَلُّونَا فَتَاتَنَّا عَذَابًا ضِعْفَيْنِ مِنَ النَّارِ﴾ (١٩٠٤).

ويتوجه حينئذ أهل النار بالنداء إلى من حولهم يطلبون منهم أن يشفوعوا لهم كي يخفف عنهم يوماً من العذاب، وتارة يطلبون ممن حولهم أن يمدوهم ولو بشربة ماء ولكن الله قد حرم عليهم ذلك وجعلهم خالدين مخلدين في النار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا

(١٩٠١) سورة إبراهيم: آية ٢٢

(١٩٠٢) سورة فصلت: الآيات ١٩-٢١

(١٩٠٣) سورة الاحزاب: الآيات ٦٦-٦٨

(١٩٠٤) سورة الاعراف: آية ٣٨

رَبِّكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ، ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا لَيْتَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا وَبِهِمْ لَهْوًا وَلِبَاسًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ (١٩٠٦) .

جاء في تفسير القرآني للقرآن في معرض حديثه عن أصحاب الجنة وأصحاب النار قوله: (..... إذ يحلو الموقف إلا من أصحاب النار في النار، وأصحاب الجنة في الجنة، وإذ يصير أصحاب النار إلي هذا اليأس القاتل بعد أن يخلي رجال الأعراف موافقهم التي كانوا فيها، إذ ذاك لا يجد أصحاب النار إلا أهل الجنة، يشخصون إليهم بأبصارهم ويمدون إليهم طالبين النجدة والغوث: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ ، هكذا تبدلت بهم الحال وقد كانوا من قبل في دنياهم يأفنون أن ينظروا إلى الناس إلا من آفاق عالية حتى لكأنهم آلهة، والناس عبيد أذلاء لهم، وها هم أولاء اليوم يمدون أيديهم في ذلة وانكسار إلي الذين كانوا عبيداً أو أشبه بالعبيد لهم، يطلبون شيئاً من تلك الموائد الحافلة التي بين أيديهم: ﴿ أَنِ افْبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾، ويجيبهم الجواب مفحماً مخرساً مؤسأً: ﴿ لَيْتَ اللَّهُ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

ولا يكاد هذا الجواب يبلغ أسماعهم، ويملاً قلوبهم بأساً وهماً وكمداً حتى يصادق هذا الجواب من عند الله فتجئ كلمات الله مكملة لهذا الحكم مصدقة عليه، شارحة لأسبابه: ﴿ اتَّخَذُوا وَبِهِمْ لَهْوًا وَلِبَاسًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

وهكذا يسدل الستار على هذا المشهد العظيم من مشاهد القيامة، لقد انتهى الحساب وفضت المحاكمة، ووقع الجزاء، وصار أصحاب النار إلى دارهم التي أعدت لهم، يلقون فيها الويل

(١٩٠٥) سورة غافر: آية ٤٩

(١٩٠٦) سورة الأعراف: الآيتان ٥٠، ٥١

والبلاء، وصار أصحاب الجنة إلى دارهم التي ينعمون فيها بما أعد الله لهم من نعيم ورضوان مقيم) (١٩٠٧).

وعندما يصلون إلى هذه المرحلة من الحسرة واليأس يسألون الشفاعة كي يهلكون ربهم: { وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبِّكَ قَالِ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ } (٧٧) (١٩٠٨).

إنه الرفض لكل ما يطلبون لا خروج من النار، ولا تخفيف من عذابها ولا إهلاك، بل هو العذاب الأبدي السرمدي الدائم، ويقال لهم آنذاك: { فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْرَزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (١١) (١٩٠٩).

هناك يشتد نحيبهم، وتفيض دموعهم ويطول بكاءهم: { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (٨٢) (١٩١٠).

لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهلهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب: { يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ } (١١) { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ } (٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } (٦٨) (١٩١١).

وتأمل قوله تعالى يصف حالهم، ونعوذ بالله من حالهم: { فَأَمَّا الَّذِينَ سَفَعُوا فِي النَّارِ لَمْ يَلْمُ فِيهَا زَوْجٌ وَشَهِيدٌ } (١٦) { خَلِيلٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ } (١٧) (١٩١٢).

(١٩٠٧) أنظر: التفسير القرآني للقرآن ٤٠٨/٨

(١٩٠٨) سورة الزخرف: آية ٧٧

(١٩٠٩) سورة الطور: آية ١٦

(١٩١٠) سورة التوبة: آية ٨٢

(١٩١١) سورة الأحزاب: الآيات ٦٦ - ٦٨

(١٩١٢) سورة هود: الآيات ١٠٦، ١٠٧.

والزفير والشهيق صوت دخول النفس والهواء، وجذبه بقوة، وإخراجه أيضاً بقوة بحيث يصحب كلا منهما صوت قوي مسموع، جاء في أيسر التفاسير وصفهما بأنهما كأول النهيق وآخره عند الحمار (١٩١٣).

---

(١٩١٣) أنظر: اليوم الآخر (٣) الجنة والنار للدكتور عمر الأشقر ص ١٠٩، وأيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري ٣٧١/٢ بتصرف.



## الخاتمة

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لا اله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وأصلى وأسلم على صفوة خلقك محمد بن عبد الله الذي أرسلته بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وبعد:

فهذه دراسة عن الأمن في القرآن الكريم حاولت فيها قدر جهدي أن أضع تصورا كاملا لهذا المنهج.

وقد اقتضت بعض النقاط في هذا البحث أن أبسط القول لتوضيح منهج القرآن فيها، كما اقتضت نقاط أخرى أن أوجز القول فيها محاولا عدم الإخلال بها، ومحيلا إلى تفاصيل يرجع إليها في مظانها من غير هذه الرسالة.

فإن كانت هذه الدراسة قد وفّت الموضوع حقّه، وتناولت جميع جوانبه، فهذا ما يدعو للفرح والسرور، وهو أولا وقبل كل شيء بفضل الله تعالى ورحمته، قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} (١٩١٤)

وإن كانت الأخرى ووجد القارئ نقصا أو تقصيرا في نقطه ما، فالعيب في ذلك يرجع لقصور في أو تقصير مني، فكثيرا ما تكون أداة التوصيل غير جيدة فكذلك نحن البشر، وعلى كل حال أرجو أن يضع القارئ في اعتباره أن الكمال لله وحده، وأن عوامل الضعف البشري من نقص في الهمة وقصور في التفكير وعجز في الإدراك تتتاب كل أحد، ولا يسلم من ذلك إلا من رحمهم الله وعصمهم.

وأحب التنويه إلى النتائج التي توصلت إليها في هذا الكتاب:

**أولاً:** إن الإسلام قد سبق جميع الأنظمة والقوانين التي وضعت من أجل حفظ الأمن وصيانتها، ويظهر ذلك من خلال عنايته بحفظ المجتمع والأسرة والأفراد والبيوت والمصانع وكل شيء، وذلك بوضع قواعد عامة أحياناً يندرج تحتها كل ما استجد، إضافة إلى ما جاء بيانه بالتنصيص عليه.

وكلما مزاعم أنه ابتكر شيئاً، أو وضع قواعد وقوانين هو أول من التفت إليها وتنبه لها، وجد الإسلام قد سبقه بإرساء القواعد الأساسية المتينة لهذه القواعد والانظمة والقوانين.

**ثانياً:** إن الإسلام هو دين الأمن والسلام، ودين لا يحب إراقة الدماء ولا إزهاق الأرواح، ولذلك نراه يسارع إلى تنفيذ كل ما من شأنه أن يخمد الحرب ويحد من أضرارها، ويريح الناس من ويلاتهما، ومن ذلك إقراره لعقد الهدنة وإعطاء الأمان إذا طلب الكفار ذلك، كما أنه لا يكره الناس على الدخول في الإسلام. وهو إلى جانب ذلك يأمرنا بأخذ الحيطة والحذر من عدونا والتنبه في كل حين، وخاصة العدو المندس بين صفوف المسلمين، والذي يكن لهم البغضاء والحقد، ويتحين الفرص لينشر سمومه على حين غرة منهم، قال تعالى: { آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } (١٩١٥).

**ثالثاً:** إن الأمن الذي جاء به الإسلام ليس خاصاً بالمسلمين فحسب بل أنه أمن أمتد إلى غيرهم فأظل أعداء الإسلام من أهل الذمة والمسلمين الذين لم يناصبوا الله ورسوله العداة ولم يحاربوا دين الله ولم يؤذوا المؤمنين.

وكذلك امتد ليظل غير الإنسان كالأزمنة والأمكنة، وبهذا هذب الإسلام هذا المجتمع، ونقاه، وأدبه بأحسن الآداب وأفضل الأخلاق.

رابعاً : إن الإسلام قد نظم كل ما من شأنه حرية المسلم وكرامته ، وعدم المساس به والإساءة إليه ، ونظم العلاقة بين الراعي والرعية ، وبيان ما للإنسان من حقوق وما عليه من واجبات على وجه يجعل المجتمع يعيش عيشة هنيئة ويسعد بالأمن والأمان .

خامساً: أتضح من خلال البحث أن الإسلام قدم حلولاً لمشاكل الناس الاقتصادية، وعالج مصادر الاقتصاد معالجة تضمن لهم احترام نشاطهم وتقدر لهم الطول في نطاق الواجب قبل المطالبة بالحق، وبهذا يتوفر الأمن الغذائي للمسلمين جميعاً.

سادساً: إن الإسلام قد حمى الفرد والمجتمع من كل ما يؤثر على أمنه وطمأنينته، وذلك بفرض العقوبات الرادعة لكل من تسول له نفسه إخافة المجتمع أو المساس بأمنه، وأن هذه العقوبات ليست كما يزعم أعداء الإسلام بأنها جائزة وقاسية بدليل اختفاء الجريمة أو ندرتها في البلاد التي تحكم بهذا المنهج القويم، والمملكة العربية السعودية خير دليل وشاهد على هذا الأمر بينما تنتشر بشكل واضح ومخيف في الدول التي لا تطبق شرع الله، والواقع الملموس يشهد بذلك، ويتبين من خلال الإحصاءات عن الجريمة وتكاليها، مما يستوجب العودة السريعة إلى منهج الإسلام حماية لأمن الفرد والمجتمع.

كما إن الإسلام حرص على وضع الأساليب الوقائية التي تحولت دون وقوع الجريمة في المجتمع.

سابعاً: إن الإسلام قد جعل العلاقة بين الإيمان والأمن علاقة لزوم وتلازم فلا إيمان بغير أمن لا أمن بغير إيمان: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} (١٩١٦).

لان الإيمان إذا وقر في القلب صدقة العمل وعمر النفس بمعاني الورع والتقوى وأخلاق الإسلام فيصبح الخير سنة المؤمن المعتادة والحب خلقه المعروف، والحق غايته فتستقيم طباعه وتزول عنها عوامل الشر والعدوان، فلا يظلم أحداً ولا يعتدي على أحد ولا يقترب المعاصي والآثام، فيسعد الفرد والمجتمع وتكتمش أسباب التباغض والتحاسد وتسود بين الناس المحبة وروح التعاون والتكامل.

ومن هذا يتضح أن المجتمعات التي تبحث عن الأمن في غير دين الإسلام مجتمعات تظلم نفسها وتظلم غيرها، لأنها تبحث عن الأمن في مناهج تفقده وتتبع الهوى بغير علم وفاقد الشيء لا يعطيه، وصدق الله العظيم إذ يقول: {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (١٩١٧).

وبعد: فأرجو الله أن يتقبل مني هذا العلم، وأن يدخله برحمته في الكلم الطيب والعمل الصالح، وأن يفتح به قلوبا مغلقة، ويؤمن بها نفوساً مفزعة، وأن يقبل عثرة صاحبه، ويغفر زلته، وأن يرزقني وكل من قرأها صدق الإيمان به وصدق الإخلاص له، وصدق التوكل عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١٩١٦) سورة الأنعام : آية ٨٢ .

(١٩١٧) سورة الروم : آية ٢٩ .

## فهرس المصادر والمراجع

### القرآن الكريم

#### ( حرف الألف )

- ١- إتحاف الورى بأخبار أم القرى: للنجم عمر بن فهد، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شنتلوت، دار المدني - جدة.
- ٢- أثر تطبيق الحدود في المجتمع: مجموعة بحوث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٣٩٦هـ، أشرفت على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ١٤٠٤هـ.
- ٣- أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي : بقلم ناهد عبد العال الخراسي ، مطابع الأهرام التجارية - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- ٤- الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان: تحقيق: شعيب الارنؤوط، طبعة دار الرسالة.
- ٥- إحصائية الحجاج لعام ١٣٩٧هـ: إشراف وكالة وزارة الداخلية للجوازات والأحوال المدنية، دار الاصفهاني وشركاه - جدة.
- ٦- أحكام السرقة في التشريع الإسلامي: بحث مقارن للدكتور محمد فهمي السرحاني، المطبعة التوفيقية، الطبعة الأولى.
- ٧- الأحكام السلطانية: للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي، دار الوطن - الرياض.
- ٨- الأحكام السلطانية والولايات الدينية: لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، خرج أحاديثه وعلق عليه خالد عبد اللطيف السبع العلي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٩- أحكام القرآن: لأبي بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي، دار الجيل بيروت - لبنان ١٤٠٧هـ.
- ١٠- أحكام القرآن: لأبي بكر أحمد الرازي الجصاص، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ١١- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى، تحقيق: رشدي الصالح بلحسن، دار الأندلس، مطابع ماتيو كرومو، ش.م. ينتو - مدريد أسبانيا.

- ١٢- أخبار مدينة الرسول ٢٢٢: لمحمد بن محمود النجار، تحقيق: صالح محمد جمال، مطابع الثقافة - مكة المكرمة، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.
- ١٣- أدب الحديث النبوي: للدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق - بيروت والقاهرة الطبعة الثالثة ١٣٩٦هـ.
- ١٤- أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، قدم له وحققه: الأستاذ مصطفى السقا، راجعه وعلق الشيخ محمد شريف سكر دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- ١٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود محمد بن حامد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان.
- ١٦- أرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: لمحمد ناصر الدين الألباني، قسم التصحيح في المكتب الإسلامي.
- ١٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لغز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد، الشعب - القاهرة
- ١٨- أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في فقه إمام الأئمة مالك: لأبي بكر بن حسن الكسناوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية.
- ١٩- الإسلام وضرورات الحياة: للدكتور عبد الله أحمد قادري، دار المجتمع، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٠- الأشباه والنظائر: للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية.
- ٢١- الإصابة في معرفة الصحابة: لأبي الفضل أحمد بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ، وطبعة دار الفكر.

- ٢٢- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، الناشر : مكتبة ابن تيمية - القاهرة ١٤١٣هـ .
- ٢٣- الاعتداءات على الحرمين الشريفين عبر التاريخ : للدكتور سعد بن حسين عثمان والدكتور عبد المنعم إبراهيم الجميعي ، مطبعة الجبلاوي - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م .
- ٢٤- الأعلام : لخير الدين الزركلي ، ط/ وزارة المعارف ، المكتبات المدرسية ، الطبعة الثالثة .
- ٢٥- الإفصاح عن معاني الصحاح : للوزير ابن هبيرة ، المؤسسة السعيدية بالرياض .
- ٢٦- الأفتان الندية شرح السبل السوية لفقهاء السنن المروية : نظم الشيخ حافظ الحكمي وشرح الشيخ زيد محمد هادي مدخلي ، دار العلم - جدة ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .
- ٢٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، صححه وخرج أحاديثه وعلق عليه : فواز أحمد زمرلي ، بإشراف مكتب التعاون لتحقيق التراث الإسلامي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .
- ٢٨- الأمن في الإسلام : للدكتور أحمد عمر هاشم ، مطبعة دار المنار .
- ٢٩- الانتقاء في فضائل الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبو حنيفة رحمهم الله : للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، دار الكتب العلمية .
- ٣٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : لأبي الخير عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ، دار الفكر .
- ٣١- أنوار الربيع في أنواع البديع : للسيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ، تحقيق : شاكر هادي شكر ، مكتبة المعارف كربلاء - العراق ١٣٨٩هـ .
- ٣٢- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير : تأليف أبي بكر جابر الجزائري ، الإخراج الفني للدعاية والإعلان - جدة ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ .
- ٣٣- الإيمان : للدكتور حسن الترابي : دار القلم - بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م .

### ( حرف الباء )

- ٣٤- البحر الزخار المعروف بمسند البزار : لأبي بكر أحمد بن عمر العتكي البزار ، تحقيق : محفوظ الرحمن زين الله ، مؤسسة علوم القرآن - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- ٣٥- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع : لأبي بكر مسعود الكاساني ، دار الكتاب العربي .
- ٣٦- بداية المجتهد ونهاية المقتصد : لأبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد، دار الكتب الحديثة .
- ٣٧- البداية والنهاية : لأبي الفداء الحافظ ابن كثير ، مكتبة المعارف - بيروت .
- ٣٨- بيان مشكل الآثار : لأبي جعفر الطحاوي ، دار صادر- بيروت .

### ( حرف التاء )

- ٣٩- تاريخ الطبري ( تاريخ الأمم والملوك ) : لأبي جعفر محمد بن جبير الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ .
- ٤٠- تاريخ العرب قبل الإسلام : د. السيد عبد العزيز سالم ، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية .
- ٤١- تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً : تأليف السيد أحمد ياسين الخياري ، تعليق وإيضاح : عبد الله محمد أمين كردي ، من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي ، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر ، جدة - المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .
- ٤٢- تاريخ المدينة : لعمر بن شبة النميري ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، نشره السيد حبيب محمود أحمد ، الطبعة الأولى .
- ٤٣- التحرير والتنوير : للشيخ محمد بن الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر- تونس .
- ٤٤- تدابير الأمن في الإسلام : للدكتور عبد العظيم المطعني ، دار الأنصار للطباعة .

- ٤٥- التذكرة في أحوال المؤتى وأمور الآخرة : لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، دار الريان للتراث - القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ .
- ٤٦- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي : تأليف عبد القادر عودة ، مؤسسة الرسالة .
- ٤٧- تطبيق الشريعة طريق الأمن والعزة : للدكتور محمد بن سعد الشويعر ، دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- ٤٨- التعريفات : للجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي .
- ٤٩- تفسير السدي الكبير : لأبي محمد إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ، جمع وتوثيق ودراسة الدكتور محمد عطا يوسف ، مطابع دار الوفاء المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
- ٥٠- تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .
- ٥١- التفسير القرآني للقرآن : للأستاذ عبد الكريم الخطيب ملتزم الطبع والنشر ، دار الفكر العربي .
- ٥٢- التفسير الكبير : للإمام الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثالثة .
- ٥٣- تفسير المراغي : تأليف صاحب الفضيلة الأستاذ أحمد مصطفى المراغي ، دار الفكر .
- ٥٤- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج : للدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .
- ٥٥- التفريغ : لابن الجلاب البصري : تحقيق : الدكتور حسين سالم الدهماني ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى .
- ٥٦- تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية أو نقص تأسيس الجهمية : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تصحيح وتكميل محمد بن عبد الرحمن بن قاسم .

- ٥٧- التمثيل والمحاضرة : لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣٨١هـ .
- ٥٨- تهذيب التهذيب : لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الكتاب الإسلامي لإحياء ونشر التراث الإسلامي - القاهرة .
- ٥٩- توسعة الحرمين الشريفين : من منشورات وزارة الإعلام - المملكة العربية السعودية.
- ٦٠- التوهم والأهوال : للحارث بن أسد المحاسبي ، لم تذكر الطبعة .
- ٦١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : تأليف عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تقديم: محمد زهر النجار ، وتصحيح : محمد سليمان البسام ، طبع ونشر وتوزيع : دار المنني جدة ١٤٠٨هـ .

### ( حرف الثاء )

- ٦٢- الثبات عند الممات : للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق وتعليق : عبد اللطيف عاشور ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة .

### ( حرف الجيم )

- ٦٣- الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ، تصحيح : أحمد عبد العليم البردي ، الطبعة الثانية .
- ٦٤- جامع البيان في تفسير القرآن : للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار الفكر بيروت - لبنان ١٣٩٨هـ .
- ٦٥- الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي للطباعة والنشر.
- ٦٦- جند الله ثقافة وأخلاقا : للشيخ سعيد حوى ، الطبعة الثانية .
- ٦٧- الجواهر الحسان في تفسير القرآن : لراجي رحمة ربه : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان .

( حرف الحاء )

- ٦٨- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح : لابن القيم الجوزية ، تحقيق ودراسة: الدكتور السيد الجمالي ، دار الكتاب العربي - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .
- ٦٩- حاشية الروض المربع : تأليف عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، الطبعة الثالثة .
- ٧٠- حاشية العدوى على شرح أبي الحسن لرسالة ابن أبي زيد القيرواني: للعلاقة المحقق علي الصعيدي ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .
- ٧١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

( حرف الخاء )

- ٧٢- الخمر في الفقه الإسلامي : دراسة مقارنة للدكتور فكري أحمد عكاز، طبعة المختار الإسلامي للطباعة والنشر .

( حرف الدال )

- ٧٣- دائرة معارف القرن العشرين : تأليف محمد فريد وجدي ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧١م .
- ٧٤- دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب : د. محمد بيومي مهران ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٠هـ .
- ٧٥- دراسات في تاريخ العرب القديم : الدكتور محمد بيومي مهران ، دار المعرفة الجامعية - أسكندرية .
- ٧٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور : للإمام جلال الدين السيوطي وبهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس رضي الله عنهما ، دار المعرفة - بيروت .

٧٧- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه : الدكتور عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

٧٨- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب : لابن فرحون المالكي ، مكتبة التراث .

٧٩- ديوان جرير بن عطية الخطفي : شرح مهدي محمد ناصر الدين ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ .

٨٠- ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره : تحقيق : عادل سليمان حمال ، مطبعة المدني - القاهرة .

### ( حرف الذال )

٨١- نيل طبقات الحنابلة : لزين الدين أبي الفرج ، دار المعرفة .

### ( حرف الراء )

٨٢- الرد على الإخنائي واستجاب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : "عبدالرحمن المعلمي ، مطابع دار البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٤٠٤ هجري .

٨٣- رسائل في تاريخ المدينة المنورة : حمد الجاسر ، دار اليمامة - الرياض ١٩٧٢ ميلادي .

٨٤- الروح : لأبي عبد الله محمد أبي بكر الدمشقي (ابن قيم الجوزية) ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هجري .

٨٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثماني : لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألويسي البغدادي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٨٦- روضة الطالبين وعمدة المفتين : للإمام النووي ، إشراف زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هجري .

( حرف الزاي )

- ٨٧ - زاد المسير في علم التفسير : للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هجري .
- ٨٨ - الزهد والرفائق : لعبد الله بن المبارك ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، دار الكتب العربية - بيروت .

( حرف السين )

- ٨٩ - السبيل الهادي إلي تخريج أحاديث كتب الجهاد : حاشية على كتاب الجهاد لابن أبي عاصم ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه : مساعد بن سليمان الراش الحميد ، مكتبة دار العلوم والحكم - المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هجري .
- ٩٠ - السلام العالمي والإسلام : للأستاذ سيد قطب ، دار الشروق - بيروت لبنان .
- ٩١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة : لمحمد بن ناصر الألباني ، المكتب الإسلامي - عمان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هجري .
- ٩٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : لمحمد بن ناصر الألباني ، الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج .
- ٩٣ - سنن أبن ماجه باختصار السند: للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني ، الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج .
- ٩٤ - سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأردني : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٩٥ - سنن الترمذي ( الجامع الصحيح ) : لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، المكتبة التجارية ، مصطفى أحمد الباز - مكة المكرمة .
- ٩٦ - سنن الدارقطني : للإمام علي بن عمر الدارقطني ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية .

- ٩٧- سنن الدارمي : وهو الإمام الكبير أبو محمد عبد محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل ابن بهرام الدارمي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان .
- ٩٨- السنن الكبرى : للإمام أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، دار المعرفة - بيروت .
- ٩٩- سنن النسائي : بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ، وحاشية الإمام السندي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .
- ١٠٠- السياسة الجنائية في التشريع الإسلامي : للدكتور مصطفى محمد حسين ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - إدارة الثقافة والنشر ١٤٠٥هـ .
- ١٠١- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية : لشيخ الإسلام ابن تيميه ، دار الكتاب العربي .
- ١٠٢- سير أعلام النبلاء : تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الثامنة ١٤١٢هـ .
- ١٠٣- السيرة النبوية : لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي - بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ .
- ١٠٤- شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز : خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين - بيروت ١٣٩٢هـ .
- ١٠٥- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : دار الفكر .
- ١٠٦- شذرات الذهب في أخبار من مضى وذهب : لأبي الفلاح بن العماد الحنبلي ، طبعة المكتب التجاري .
- ١٠٧- شرح العقيدة الطحاوية : لابن أبي العز الحنفي دمشقي ، حقة وعلق عليه وخرج أحاديثه وقدم له الدكتور : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، وشعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

- ١٠٨- شرح العقيدة الطحاوية : لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي ، نشر: المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ .
- ١٠٩- شرح منتهي الإرادات : للعلامة منصور البهوتي ، المكتبة السلفية .
- ١١٠- شرح منح الجليل على مختصر خليل : للشيخ محمد عيسى ، دار الفكر .
- ١١١- شرح النووي على صحيح مسلم : للنووي ، طبعة المكتبة العصرية - القاهرة .
- ١١٢- شفاء الغرام بأخبار الحرام : لأبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي القاسي المالكي ، حقق أصوله وعلق عليه نخبة من كبار العلماء والأدباء ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- ( حرف الصاد )
- ١١٣- الصحاح في اللغة والعلوم : تجديد صحاح العلامة الجوهرى ، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي ، إعداد وتصنيف : نديم مرعشلي ، أسامة مرعشلي ، دار الحضارة العربية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م .
- ١١٤- الصحة في منطقة مكة المكرمة نظرة شاملة : للدكتور محمد مدحت صابر الشافعي ، مطبوعات نادي مكة الثقافي .
- ١١٥- صحيح ابن حبان : طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هجري
- ١١٦- صحيح البخاري : لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق : الدكتور مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، دمشق .
- ١١٧- صحيح الترغيب والترهيب : للحافظ المنذري ، تحقيق : مصطفى محمد عمارة ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هجري ، والمكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤٠٦- هجري .
- ١١٨- صحيح الجامع : لمحمد بن ناصر الألباني ، طبعة المكتب الإسلامي .

١١٩- صحيح مسلم بن حجاج القشيري : تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هجري .

١٢٠- صحيح الإمام مسلم بن حجاج القشيري : بشرح الإمام محيي الدين النووي المسمي (المنهاج) تحقيق : الشيخ خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة - بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هجري .

١٢١- صفة الجنة : للإمام الأصبهاني ، شرح وتعليق سعيد اللحام ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر - بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩١ ميلادي .

١٢٢- صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار : محمد بيرم التونسي ، دار صادر بيروت .

١٢٣- صفوة التفاسير : تأليف محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هجري .

#### ( حرف الضاد )

١٢٤- ضعيف الجامع : لمحمد بن ناصر الألباني ، طبعة المكتب الإسلامي.

١٢٥- ضمان المتلفات في الفقه الإسلامي : للدكتور سليمان محمد أحمد ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هجري - رسالة دكتوراه .

#### ( حرف الطاء )

١٢٦- طبقات الشافعية الكبرى: الإمام تاج الدين عبد الوهاب السبكي، دار المعرفة الطبعة الثانية.

١٢٧- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: أو الفراسة المرضية في أحكام السياسة الشرعية: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي (أبن القيم الجوزية) تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الوطن - الرياض.

١٢٨- الطبقات الكبرى: لأبن سعد، دار صادر - بيروت.

١٢٩- طبقات المفسرين: تصنيف الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.

١٣٠- طبقات المفسرين: تصنيف الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٣٠٤ هـ.

(حرف العين)

١٣١- العدة شرح العدة: لبهاء الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، مكتبة الرياض الحديثة.

١٣٢- عذاب القبر وسؤال الملكين: لأبي بكر أحمد بن حسن البيهقي، حققه وعلق عليه المكتب السلفي لتحقيق التراث، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة.

١٣٣- العرب قبل الإسلام: جورج زيدان، المكتبة الأهلية - بيروت.

١٣٤- عصر ما قبل الإسلام: محمد مبروك نافع، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الثانية ١٩٥٢ م.

١٣٥- العقوبة في الفقه الإسلام: تأليف أحمد فتحي بهنسي، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ.

١٣٦- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير: لأبي الفتح محمد بن محمد بن عبد الله بن سيد الناس الشافعي، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.

(حرف الفين)

١٣٧- غريب الحديث: لأبي إسحاق الحربي، تحقيق: د/ سليمان بن إبراهيم العابد، نشر مركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

١٣٨- غريب الحديث: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، وثق أصوله وخرج حديثه، وعلق عليه عبد المعطي أمين قلجعي، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

## (حرف الفاء)

١٣٩- فتح الباري بشرح صحيح البخارى: للإمام الحافظ: أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تصحيح وتحقيق وإشراف ومقابلة: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٤٠- فتح البيان فى مقاصد القرآن: لأبى الطيب صديق بن حسن القنوجى البخارى، المكتبة العصرية - صيدا بيروت ١٤١٢ هـ.

١٤١- فتح القدير الجامع بن فى الرواية والدراية من على التفسير: تأليف محمد بن على الشوكانى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - لبنان، بيروت ١٤٠٣ هـ.

١٤٢- الفرق بين الفرق: لأبى طاهر عبد القاهر بن طاهر البغدادى، تحقيق الأستاذ محمد محى الدين عبد الحميد، مطابع صبيح - القاهرة، ودار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

١٤٣- فصول من تاريخ المدينة: لعلى حافظ، الناشر: شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ.

١٤٤- فضائح الباطنية: لأبى حامد الغزالي، تحقيق: عبد الرحمن بدوى.

١٤٥- الفقه الإسلامى وأدلته: للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر - دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ.

١٤٦- فقه الجهاد: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تهذيب وتعليق: الشيخ زهير شفيق البلى، دار الفكر العربى - بيروت ١٤١٢ هـ.

١٤٧- فقه السنة: للشيخ السيد سابق، دار الكتاب العربى - بيروت، الطبعة الشرعية الخامسة ١٤٠٣ هـ.

١٤٨- الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة: للشوكانى، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى.

١٤٩- فوات الوفيات والذيل عليها: تأليف محمد بن شاكى الكتبى، تحقيق: الدكتور إحسان عباس دار صادر - بيروت.

١٥٠- في ظلال القرآن: للأستاذ سيد قطب، دار الشروق - بيروت، القاهرة، الطبعة الشرعية العاشرة ١٤٠٢هـ.

(حرف الكاف)

١٥١- القاموس المحيط: تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الجيل، المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت، لبنان.

١٥٢- قادية الحرمين الشريفين: إعداد وحدة بحوث اللغات الإسلامية، مطبعة عبد الفتاح الطويل، القاهرة أرض اللواء، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

١٥٣- قصص الأنبياء: للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق ومراجعة: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٥٤- قواعد الفقه: للسيد محمد عميم الإحسان البركتي، ناشر الصدف ببلشرز.

١٥٥- القواعد في الفقه الإسلامي: للحافظ أبي الفرج بن رجب، دار الجيل.

(حرف الكاف)

١٥٦- الكامل في ضعفاء الرجال: لأبي أحمد عبد الله بن عدى الجرجاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

١٥٧- الكبائر: للذهبي، طبعة المكتبة الثقافية - بيروت.

١٥٨- كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ: للدكتور السيد محمد الذقن، مطبعة الجبلاوي - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٥٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان.

١٦٠- كشاف القناع عن متن الإقناع: للعلامة منصور البهوتي، دار الفكر.

١٦١- الكعبة المعظمة: لأمانة الصاوي، مكتب الخانجي - القاهرة ١٩٧٦م.

١٦٢- كلمة الحق في القرآن الكريم: للشيخ محمد الراوي، أشرف على طباعته ونشرة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٩هـ.

١٦٣- الكنى والأسماء: لأبي بشر محمد الدوالي، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

### (حرف اللام)

١٦٤- لوازم الأنهار البهية: للسفاريني، طبعه دولة قطر، الطبعة الأولى .

١٦٥- لسان العرب: لابن منظور المصري، ترتيب: يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، وطبعة دار صادر - بيروت، وطبعة دار المعارف.

### (حرف الميم)

١٦٦- المبسوط: لشمس الدين محمد بن أبي سهل السرخسي، تصنيف: الشيخ خليل الميس، دار المعرفة - بيروت ١٤٠٦ هـ .

١٦٧- المجموع شرح المذهب: للإمام أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، دار الفكر.

١٦٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي ومساعدته أبنه محمد، ثم الطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة سنة ١٤٠٤ هـ بإشراف الرئاسة العامة للإدارات، البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض .

١٦٩- محاضرات نادي مكة الثقافي (المحاضرة السابعة) : للأستاذ محمد عبد الله مليباري ، منشورات النادي ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

١٧٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، مكتبة ابن تيمية- القاهرة.

١٧١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالي الفاروق، وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد عبد العال السيد إبراهيم ومحمد الشافعي الصادق العناني، دار العلوم الدوحة - قطر.

- ١٧٢- المحلى: لأبي محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت، لبنان.
- ١٧٣- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار القلم - بيروت لبنان.
- ١٧٤- مختصر فضائل المدينة النبوية: (نص المحاضرة التي أقيمت في نادي المدينة المنورة الأدبي ليلة الأربعاء ١٦ ربيع الأول ١٤٠٩هـ) ألقاها: أ.د. خليل إبراهيم ملا خاطر، نزيل المدينة المنورة، دار المطبوعات الحديثة - جدة، المملكة العربية السعودية.
- ١٧٥- المختصر في أخبار البشر: تاريخ أبي الفداء - عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان.
- ١٧٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.
- ١٧٧- مدارج التنزيل وحقائق التأويل: لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ١٧٨- مدخل إلى التصور الإسلامي: للإنسان والحياة، للأستاذ عابد توفيق الهاشمي، طبعة دار الفرقان - عمان، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
- ١٧٩- المدينة اليوم، المدينة المنورة في بداية القرن الخامس عشر: تأليف محمد صالح البلهيشي، من منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
- ١٨٠- المدينة المنورة في التاريخ: دراسة شاملة، تأليف عبد السلام هاشم حافظ، من منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي، ملتزم الطبع الوكالة العامة للتوزيع - دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.
- ١٨١- مروج الذهب ومعادن الجوهر: للمسعودي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المطبعة التجارية - القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٨٤ هـ.
- ١٨٢- المستدرک علی الصحیحین فی الحدیث: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم، دار الفكر - بيروت ١٣٩٨ هـ، ودار المعرفة للطباعة والنشر.

١٨٣- المستصفي من علم الأصول: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار صادر - بيروت  
لبنان.

١٨٤- مسند أبي داود الطيالسي: سليمان بن داود بن الجارود الفارسي الطيالسي، دار المعرفة -  
بيروت.

١٨٥- مسند أبي يعلى الموصلي: تحقيق: حسين سلم أسد، نشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة  
الأولى.

١٨٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل: دار صادر - بيروت.

١٨٧- مسند الشهاب: لأبي عبد الله بن محمد بن سلامة القضاعي، تحقيق: حمدي عبد الحميد،  
مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٨٨- مصنف عبد الرزاق: تحقيق عبد الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة  
الأولى ١٣٩٠هـ.

١٨٩- المظاهر الحديثة في أمن المجتمع السعودي: تأليف محمد إبراهيم السيف، مطابع الفرزدق  
التجارية - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١٩٠- معارج القبول: للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، قدم له وترجم لمؤلفه وأشرف على طبعة أحمد  
بن حافظ حكمي، المطبعة السلفية ومكنتها - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ.

١٩١- معالم التنزيل: للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر،  
عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض  
١٤٠٩هـ.

١٩٢- معالم السنن: لأبي سليمان حمدان بن محمد الخطابي البستي، منشورات المكتبة العلمية -  
بيروت لبنان.

١٩٣- معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق بن السري الزجاج، شرح وتحقيق: الدكتور عبد الجليل  
عبد شلبي، وخرج أحاديثه على جمال الدين محمد، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع -  
القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

- ١٩٤- معجزة القرآن مشاهد يوم القيامة: الشيخ محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة.
- ١٩٥- معجم البلدان والقبائل اليمنية: لإبراهيم أحمد المقحمى، منشورات دار الكلمة صنعاء - اليمن ١٩٨٥م.
- ١٩٦- معجم البلدان: لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق مزيد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ١٩٧- مجمع الزوائد: للهيثمى، مؤسسة المعارف - بيروت.
- ١٩٨- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: تأليف عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة السادسة ١٤١٢هـ.
- ١٩٩- المعجم الصغير: لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطمرانى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣هـ.
- ٢٠٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
- ٢٠١- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف.
- ٢٠٢- معجم مقاس اللغة: لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية إسماعيليان نجفى - إيران.
- ٢٠٣- المعجم الكبير: لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطمرانى: حققه حمدي عبد الحميد السلافي، وزارة الأوقاف وإحياء التراث الإسلامي - الجمهورية العراقية، مطبعة الوطن العربي، الطبعة الأولى ١٩٧١ - ١٩٨٣ م.
- ٢٠٤- معجم المؤلفين: تأليف عمر رضا كحالة، اعتنى به وجمعه وأخرجه: مكتب تحقيق التراث فى مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- ٢٠٥- المعنى: لأبن قدامه، تحقيق: د/ عبد بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٠٦- المقتفى: لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد قدامه على مختصر أبي القاسم عمر بن حسين الخرقى، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.

٢٠٧- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم حسين بن محمد المفضل المعروف بالرغيب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سعيد الكيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر.

٢٠٨- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الجزء الثاني، تأليف جواد على دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٠م.

٢٠٩- المقاصد الحسنة: لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى، صححة وعلق عليه: عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ.

٢١٠- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ.

٢١١- مكاتبة الحرمين الشريفين عند المسلمين: بحث مختصر في ما اتفقا فيه من الفضائل والأحكام، تأليف الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر، نزيل المدينة المنورة، دار القبلة الثقافية الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - سوريا، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

٢١٢- الملل والنحل: للشهر ستاني، تحقيق: محمد فتح الله بدران، نشر الأنجلو - مصر القاهرة ١٣٧٥ هـ، وطبعة مكتبة السلام العالمية.

٢١٣- من تاريخ الملك عبد العزيز ومواقفه النادرة: المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبد العزيز، كتيبه: الشيخ سعد عبد العزيز الرويشد، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦ هـ.

٢١٤- المنتقى شرح موطأ الإمام مالك: دار الكتاب العربي - بيروت لبنان.

٢١٥- المنتقى في أخبار أم القرى: لأبي عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي، تحقيق وتعليق وتعقيب: محمد عبد الله مليباري، مطابع الصفا بمكة المكرمة ١٤٠٥ هـ.

٢١٦- منزل الوحي: محمد حسين هيكل، لم تذكر الطبعة.

- ٢١٧- المنفذ من الضلال: لأبي حامد الغزالي، تعليق عبد الحلیم محمود ضمن المجموعة الكاملة له، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٩ م.
- ٢١٨- منهاج الإسلام في مكافحة الإجرام: للدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي، مطبعة شفيق - بغداد ١٤٠٦هـ.
- ٢١٩- منهج الإسلام في الحرب والسلام: تأليف عثمان جمعة ضميرية - نشر وتوزيع مكتبة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ.
- ٢٢٠- المنهج القويم في التأسسي بالرسول الكريم: تأليف الشيخ زيد بن محمد هادي مدخلي، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
- ٢٢١- المذهب في الفقه الشافعي: لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، دار المعرفة.
- ٢٢٢- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي حقة وخرج نصه حسين سليم أسد وعده علي الكوشك، دار الثقافة العربية - دمشق وبيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- ٢٢٣- مؤتمر قدسية الحرمین الشريفین: الذي نظمه المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية من ٢٣-٢٥ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ. بمبنى الشبان المسلمين - القاهرة .
- ٢٢٤- الموافقات في أصول الشريعة: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي المالكي المعروف بالشاطبي، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان .
- ٢٢٥- الموسوعة العربية الميسرة: إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٢ م وهي صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥ م.
- ٢٢٦- الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، طباعة ذات السلاسل - الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .
- ٢٢٧- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب- الرياض.

٢٢٨- ميزان الاعتدال في نقد الرجال : للذهبي ، تحقيق : علي محمد الجاوي ، دار المعرفة - بيروت لبنان ، وعيسى البابي الحلبي - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٢- هـ .

### (حرف النون)

٢٢٩- نظرات في الشريعة : لزيد بن فياض ، مطابع الرياض- الرياض ، الطبعة الأولى ١٣٨١

—

٢٣٠- نظرية الضرورة الشرعية مقارنة مع القانون الوضعي: للدكتور وهبة الزحيلي، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ.

٢٣١- النظرية العامة لإثبات موجبات الحدود: للدكتور عبد الله الركبان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ.

٢٣٢- نظم الدور في تناسب الآيات والسور: لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد- الدكن، الهند، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ.

٢٣٣- النظم المستعذب في شرح غريب المذهب: لأبن بطلال، بذيل المذهب في الفقه الشافعي لأبي إسحق إبراهيم بن علي الشيرازي، دار المعرفة.

٢٣٤- النكت والعيون (تفسير الماوردي): لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، راجعه وعلق عليه السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

٢٣٥- النهاية في غريب الحديث والأثر: لأبن الأثير الجزري، دار الفكر.

### (حرف الهاء)

٢٣٦- الهداية شرح بداية المبتدى: لأبي الحسن المرغيناني، المكتبة الإسلامية.

(حرف الواو)

- ٢٣٧- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب: لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن قيم الجوزية، حققه: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان - دمشق ١٤٠٨هـ.
- ٢٣٨- الوافى بالوفيات: لصالح الدين خليل بن أبىك الصدفى، دار النشر قرانزشتايز.
- ٢٣٩- الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز: لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين - بيروت ١٣٩٢هـ.
- ٢٤٠- الوسيط فى تفسير القرآن المجيد: لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى تحقيق: مجموعة من العلماء، قدمه وقرضه الدكتور/ عبد الحى الغرماوى، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- ٢٤١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، تحقيق الدكتور/ إحسان عباس، ط/دار الثقافة - بيروت، لبنان.

(حرف الباء)

- ٢٤٢- يقظة أولى الاعتبار مما ورد فى النار وأصحاب النار: لصديق حسن خان، طبعة دار الأنصار - القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
- ٢٤٣- اليوم الآخر (الجنة والنار): للدكتور/ عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٤٤- اليوم الآخر (القيامة الصغرى): للدكتور/ عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٤٥- اليوم الآخر (القيامة الكبرى): للدكتور/ عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- ٢٤٦- يوم الفرع الأكبر (مشاهد يوم القيامة وأهوالها): للإمام القرطبى، تحقيق وتعليق وتقديم، محمد إبراهيم، مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة.

٢٤٧- يوم القيامة: للشيخ محمد متولي الشعراوي، مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة.

(الكتيبات والمنشورات والمجلات والصحف)

٢٤٨- أثر المعاصي على الفرد والمجتمع: للشيخ محمد صالح العثيمين، مكتبة الطرفين الطائف.

٢٤٩- أطفالنا: الدكتور على الحسن، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

٢٥٠- توسعة الحرمين الشريفين رؤية حضارية: مؤسسة عكاظ، الإصدارات الخاصة بالتعاون مع مؤسسة ابن لادن ١ رجب ١٤١٢هـ.

٢٥١- خريطة ودليل الحج: مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، نشرة أصدرتها وزارة الإعلام للصحافة، مؤسسة حصام - الرياض لم تذكر معلومات أخرى عن النشرة.

٢٥٢- دليل الطفل الطبي: ترجمة إميل خليل بيدس، لم تذكر الطبعة.

٢٥٣- كيف نشكر النعم: رياض عبد الرحمن الحقل، دار الوطن للنشر.

٢٥٤- لذة العبادة حقيقتها وأسباب تحصيلها: سعد الصالح، مطبعة سفير - الرياض.

٢٥٥- مجلة البحوث الإسلامية: مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، دار أولى النهى بإذن من الرئاسة - الرياض.

٢٥٦- من عجائب الجنة والنار: على عبد الرؤوف الغزالي، شركة مطابع الإيمان - الدمام.

## فهرس الموضوعات

٥	.....المقدمة
٨	..... أسباب اختيار الموضوع
١١	..... تمهيد

### الباب الأول

#### المقصود بالأمن في القرآن الكريم

١٨	..... الفصل الأول: تعريف الأمن في اللغة والاصطلاح
٢١	..... الفصل الثاني: ذكر مادة (الأمن) في القرآن الكريم
٢١	..... أولاً: ذكر مادة (الأمن) بلفظها
٢٧	..... ثانياً: إثبات (الأمن) بنفي نقيضه
٣٠	..... ثالثاً: ذكر (الأمن) بما يماثلة في المعنى
٣٠	..... أ: <u>ذكر (الأمن) بمعنى الآمنة</u>
٣١	..... ب: <u>ذكر (الأمن) بمعنى الطمأنينة</u>
٣٣	..... ج: <u>ذكر (الأمن) بمعنى السكينة</u>
٣٤	..... تأملات في ظلال الآيات السابقة:

### الباب الثاني

#### بيان القرآن الكريم للأمن في الحياة

٥٣	..... تمهيد:
----	--------------

٥٤.....	الفصل الأول: مصادر (الأمن) في الحياة.....
٥٤.....	أولاً: الأيمان وإصلاح العقيدة.....
٨١.....	ثانياً: أداء الواجبات.....
٨١.....	تمهيد: .....
٨٣.....	أ: إقام الصلاة .....
٩٣.....	ب: إيتاء الزكاة.....
٩٣.....	التعريف بالزكاة ومعني إيتاء الزكاة .....
١٠٦.....	ج: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....
	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصدر من مصادر
١١٢.....	الأمن في الحياة .....
١٢٠.....	د: <u>الجهاد في سبيل الله</u> .....
١٢٢.....	تعريف الجهاد .....
١٢٣.....	مراحل الجهاد في الإسلام .....
١٢٥.....	فضل الجهاد وأصالته .....
١٢٦.....	من الآيات القرآنية في الجهاد.....
١٣٠.....	حكم الجهاد.....
١٣٢.....	متى يكون الجهاد فرض عين؟.....
١٣٣.....	الجهاد مصدر من مصادر الأمن في الحياة.....
١٤٤.....	ثالثاً: ترك المحرمات والمعاصي.....
١٤٤.....	تعريف المحرمات والمعاصي.....
	ترك المحرمات والمعاصي من مصادر الأمن للمجتمع
١٤٤.....	الإسلامي.....

- رابعاً: طاعة ولاة الأمر..... ١٥١
- التعريف..... ١٥١
- خامساً: شكر المنعم..... ١٦١
- تعريف الشكر..... ١٦١
- أما تعريف النعم..... ١٦٢
- الفرق بين الحمد والشكر..... ١٦٢
- شكر المنعم من مصادر الأمن في الحياة..... ١٦٣
- أسباب زوال النعم وتغيرها..... ١٧٣
- تحريم الترف ومহারبة الإسراف..... ١٧٩
- الفصل الثاني: وسائل حفظ الأمن في الحياة..... ١٨٣**
- تمهيد..... ١٨٣
- أولاً: الوعظ والتذكير بالعقوبة..... ١٨٥
- تعريف الوعظ..... ١٨٥
- تعريف العقوبة..... ١٨٦
- من وسائل حفظ الأمن: الوعظ والتذكير بالعقوبة..... ١٨٦
- أنواع العقوبات والحكمة منها..... ١٩٨
- الحكم من تشريع العقوبات..... ٢٠٠
- ثانياً: إقامة الحدود..... ٢٠١
- تمهيد..... ٢٠١
- تعريف الحدود..... ٢٠٨
- أ: إقامة الحد على المرتد حفظاً لأمن الدين..... ٢٠٩
- ضابط الردة والمرتد..... ٢١٢

- ٢١٥.....حكم المرتد وحد الردة.....
- ب: إقامة الحد القصاص حفظاً لأمن النفوس.....٢١٨.....
- ج: إقامة الحد الزنا والقذف حفظاً لأمن الأعراس.....٢٢٥.....
- حد الزنى.....٢٢٨.....
- حد الزاني المحصن.....٢٢٨.....
- من هو المحصن.....٢٢٨.....
- حد الزاني غير المحصن.....٢٣١.....
- د: إقامة حد الشرب حفظاً للعقول.....٢٣٦.....
- أضرار الخمر وأخطارها.....٢٤٠.....
- عقوبة شارب الخمر.....٢٤٥.....
- المناقشة والترجيح.....٢٤٨.....
- هـ: إقامة حد السرقة حفظاً لأمن الأموال.....٢٥١.....
- تعريف السرقة.....٢٥٣.....
- حكم السرقة.....٢٥٣.....
- شروط السرقة الموجبة للحد.....٢٥٤.....
- حد السرقة.....٢٥٥.....
- حكمة مشروعية حد السرقة.....٢٥٨.....
- و: تنفيذ عقوبة قطاع الطريق حفظاً لأمنها.....٢٦٠.....
- المراد بقطاع الطرق.....٢٦٠.....
- الأصل في حكم قطاع الطرق والمحاربين.....٢٦١.....
- شروط وجوب حد الطريق والحراية.....٢٦٣.....
- عقوبة الحراية وقطع الطريق.....٢٦٥.....

- أثر حد الحرابة في حفظ الأمن والاستقرار..... ٢٦٩
- دفع شبه أوردها الحاقنون على تطبيق الحدود..... ٢٧٠
- الرد على الشبهة يأتي من طريقين..... ٢٧١
- إقامة الحدود من أهم مصادر الأمن في الحياة..... ٢٧٣
- الحدود الزاجرة التي بينها الشرع هي..... ٢٧٦
- ثالثاً: التعزيز حسبما يراه الحاكم..... ٢٨٢
- تعريف التعزيز..... ٢٨٣
- الفرق بين التعزيز وبين الحدود..... ٢٨٣
- أسباب التعزيز..... ٢٨٥
- أنواع التعزيز..... ٢٨٦
- أقل التعزيز وأكثره..... ٢٨٨
- التعزيز بالمال..... ٢٩١
- أثر التعزيز في امن المجتمع..... ٢٩٢
- رابعاً: ضمان الإلتلاف..... ٢٩٣
- تعريف ضمان الإلتلاف..... ٢٩٤
- فأما الضمان..... ٢٩٤
- وأما الإلتلاف..... ٢٩٥
- مشروعية الضمان..... ٢٩٥
- ومن الآيات القرآنية..... ٢٩٥
- ومن الأحاديث النبوية..... ٢٩٦
- أسباب الضمان..... ٢٩٦

- والإتلاف لا يخلو..... ٢٩٨
- فأما الإتلاف الواقع على الأدميين..... ٢٩٨
- وأما الإتلاف الواقع على الأموال..... ٣٠٠
- بيان الناحية الأمنية في ضمان الإتلاف..... ٣٠١
- خامساً: تيسير ضرورات الحياة للناس..... ٣٠٢
- أصناف العقوبات..... ٣٠٤
- الأدلة على خاصة السماحة واليسر في الإسلام..... ٣١١

### الباب الثالث

#### أمن الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

- تمهيد..... ٣٢٥
- تعريف الحرم..... ٣٢٧
- أولاً: مكة المكرمة..... ٣٢٨
- ١- موقعها..... ٣٢٨
- ٢- أسماء مكة المكرمة..... ٣٢٩
- تحديد حرم مكة والمدينة..... ٣٣٣
- حدود الحرم المكي..... ٣٣٤
- أهم معالم مكة المكرمة..... ٣٣٥
- ومن معالم مكة البارزة جبالها المحيطة بها، ومن أشهرها..... ٣٣٧
- ثانياً: المدينة المنورة..... ٣٣٨
- ١- موقعها..... ٣٣٨
- ٢- أسماء المدينة..... ٣٣٩

- النهي عن تسميتها يثرب..... ٣٤٢
- حدود الحرم المدني..... ٣٤٣
- أهم معالم المدينة المنورة..... ٣٤٦
- المساجد: وأهمها وأعظمها مكانة..... ٣٤٦
- ومن المعالم الهامة في المدينة المنورة الجبال..... ٣٤٨
- الفصل الأول: بيان حرمتها والأمر بتعظيمها..... ٣٤٩
- الفصل الثاني: إثبات الأمن لداخلهما وقاصدهما..... ٣٥٨
- الفصل الثالث: إثبات العقوبة للمعتدي عليهما..... ٣٧٠
- الفصل الرابع: نموذج من عقوبة الله للمعتدين عليهما..... ٣٧٥
- المحاولة الأولى..... ٣٧٦
- المحاولة الثانية..... ٣٧٧
- المحاولة الثالثة..... ٣٧٨
- المحاولة الرابعة..... ٣٨٤
- الفصل الخامس: جهود الدولة السعودية في خدمتهما..... ٣٨٦
- الفصل السادس: حفظ الدولة السعودية لامنهما وأمن داخلهما..... ٣٩٦

### الباب الرابع

#### إثبات القرآن الكريم لأمن أوليائنا في الحياة الدنيا وعند الموت وبعده

- إثبات البعث والنشور..... ٤٠٩
- تصنيف المكذبين بالبعث والنشور إلي ثلاثة أصناف..... ٤١٣
- إثبات الجنة والنار وأنها موجودتان..... ٤١٨

- ٤٢٢..... تعريف الحياة والموت، وبيان حال الناس فيهما.
- ٤٢٥..... الفصل الأول: الأمن في الحياة الدنيا.
- ٤٣٢..... الفصل الثاني: الأمن عند الموت.
- ٤٣٢..... تمهيد.
- ٤٣٣..... أولاً: التثبيت وحسن الخاتمة.
- ٤٣٩..... ثانياً: راحة الموت وخفة سكراته.
- ٤٤٥..... ثالثاً: تبشير المؤمن عند الموت بما أعد له من الجنة والرضوان.
- ٤٥٣..... الفصل الثالث: الأمن في الحياة البرزخية.
- ٤٥٣..... تمهيد.
- ٤٥٥..... مستقر الأرواح ما بين الموت إلي يوم القيامة وتفاوتهم فيه.
- ٤٥٨..... أولاً: التثبيت عند سؤال منكر ونكير.
- ٤٦٠..... هل سؤال منكر ونكير مختص بهذه الأمة أو يكون لها غيرها.
- ٤٦٣..... ثانياً: الأمن في القبر.
- ٤٦٣..... التعريف.
- ٤٦٨..... الفصل الرابع: الأمن في القيامة وبعدها.
- ٤٦٨..... تمهيد.
- ٤٦٩..... أسماء يوم القيامة.
- ٤٧٠..... أشهر أسماء ذلك اليوم.
- ٤٨٠..... السر في كثرة أسمائه.
- ٤٨٠..... أولاً: الأمن عند الفرع يوم القيامة.
- ٤٨٠..... تعريف الفرع.
- ٤٨٩..... ثانياً: الأمن عند الحساب وأخذ الكتب.

- ثالثاً: الأمن عند عبور الصراط..... ٤٩٧
- تعريف الصراط..... ٤٩٧
- القنطرة التي بين الجنة والنار..... ٥٠٢
- رابعاً: الأمن في الجنة..... ٥٠٤
- الأعمال التي أستحق بها المؤمنون الأمن في الآخرة ونعيم الجنة..... ٥١٦

### الباب الخامس

#### نفي الأمن عن الكفار في الدنيا والآخرة

- تمهيد في التعريف بالكافر..... ٥٢٣
- الفصل الأول : نفي الأمن عن الكفار في الدنيا..... ٥٢٤
- تمهيد..... ٥٢٤
- أولاً: تحذيرهم من مكر الله..... ٥٣١
- ثانياً: ذكر شيء مما حل بالأمة السابقة نتيجة كفرها..... ٥٣٩
- الفصل الثاني: نفي الأمن عن الكفار عند الموت..... ٥٥٠
- تمهيد..... ٥٥٠
- أولاً: عدم التثبيت وسوء الخاتمة..... ٥٥١
- ١- منها الفساد في الاعتقاد..... ٥٥٤
- ٢- ومنها الإصرار علي المعاصي..... ٥٥٥
- ٣- ومنها العدول عن الاستقامة..... ٥٥٦
- ٤- ومنها ضعف الإيمان..... ٥٥٧
- ثانياً: اشتداد الموت وسكراته عليهم..... ٥٥٨
- ثالثاً: ضرب الملائكة لهم عند الموت..... ٥٦٢

٥٦٩.....	الفصل الثالث: نفي الأمن عنهم في الآخرة
٥٦٩.....	تمهيد
٥٧١.....	أولاً: بيان فزعهم ووجلهم يوم القيامة
٥٧١.....	تعريف الفزع
٥٧٧.....	ثانياً: ذكر سوء حالهم عند أمرهم بدخول النار
٥٨٦.....	ثالثاً: ذكر ما يعتريهم من الحسرات في النار
٥٩٩.....	الخاتمة
٦٠٣.....	فهرس المصادر والمراجع
٦٢٩.....	فهرس الموضوعات



# تم بحمد الله